صيد الخاطر

للإمام
أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
٥١٠ - ٥٩٧ هجرية

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت ٣٥٧٨٨٢٠ / ٠٥٠

الناشر
مكتبة الايمـــان
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢ / ٠٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

وبعد ...

أخى القارئ من يتصفح كتاب صيد الخاطر للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى يجد أن كثيرا من خواطره قد تتكرر ؛ وهذا أمر بديهى لأنه قد صاغها فى أوقات مختلفة، ولكن ما يهمنا الاستفادة من هذه الخواطر لتكون دافعاً لنا لنيل رضوان الله عز وجل .

● التعريف بالمؤلف :

هو الإمام عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ) ، علامة عصره فى التاريخ والحديث ، عاش فى بغداد .

وأثنى عليه كثير من العلماء كابن كثير ، وابن خلكان ، والذهبى وغيرهم .

● مصنفاته :

قال ابن تيمية : عددت له أكثر من ألف مصنف ، ورأيت بعد ذلك ما لم أره ، ومن مصنفاته على سبيل المثال : تلبيس إبليس ، والمدهش ، والموضوعات ، وصفوة الصفوة، واللطائف ، والمواعظ والمجالس ، والطب الروحانى ، وصيد الخاطر كتابنا هذا وغيرها كثير .

ويقال إنه اختصر كتاب الفنون لأبى الوفاء فى بضعة عشر مجلدا .

● وفاته :

توفى فى عمر يقارب التسعين عام (٥٩٧ هـ) يوم السبت سابع شهر رمضان تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخى ، ودفن بباب حرب بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل وقد أوصى أن يكتب على قبره :

يا كـــثير الصـــفح عمن كثر الذنب لديه

جاءك المذنب يرجو الصفح عن جرم يديه

أنا ضـــيف وجـــزاء الضيف إحسان إليه

رحم الله الإمام ابن الجوزى وأنزله منازل الصديقين والأبرار .

● عملنا فى الكتاب :

١ - مراجعة الكتاب لغويا وضبطه على النسخ الصحيحة .

٢- تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

٣- توضيح الكلمات الغريبة حتى يفهم المعنى .

٤ - وضع عناوين مناسبة للموضوعات حتى يفهمها القارئ .

وأخيراً ندعو الله أن يكون هذا العمل فى ميزان حسناتنا يوم القيامة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحققان

عبد الله المنشاوى

محمد السيد أبو زيد

* * *

مقدمة المؤلف

قال الشيخ الإمام العالم أبو الفرج ، عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى رحمة الله عليه :

الحمد لله حمداً يبلغ رضاه ، وصلى الله على أشرف من اجتباه ، وعلى من صاحبه ووالاه ، وسلم تسليماً لا يدرك منتهاه ، ولما كانت الخواطر تجول فى تصفح أشياء تَعرِض لها ، ثم تُعرِض عنها فتذهب ، كان من أولى الأمور حفظ ما يخطُر لكيلا يُنسى.

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « **قيِّدوا العلم بالكتابة** » [1] .

وكم قد خطر لى شىء فأتشاغل عن إثباته فيذهب ، فأتأسف عليه .

ورأيت من نفسى أننى كلما فتحت بصر التفكر ، سنح له من عجائب الغيب ، ما لم يكن فى حساب ، فانثال [2] عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه ، فجعلت هذا الكتاب قيدا - لصيد الخاطر - والله ولى النفع ، إنه قريب مجيب .

* * *

---

(١) رواه الدارمى (٤٩٨ ، ٤٩٩) ، وابن أبى شيبة (٦٤٧٨) ، والحاكم (١/١٠٦) عن عمر موقوفاً عليه ، وقال : وصح عن أنس من قوله ، وقد أسند من وجه غير معتمد ، ورواه أيضاً مرفوعاً (١/١٠٦) عن عبد الله بن عمرو ، وقال الحافظ الذهبى : فيه عبد الله بن المؤمل ضعيف ، والطبرانى فى الكبير (٧٠٠) ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/١٥٢) فيه عبد الله بن المؤمل وثقه ابن معين وابن حبان ، وقال الإمام أحمد أحاديثه مناكير .

(٢) قلت : انثال : تتابع .

١ – فصل : أثر المواعظ فى النفس

قد يعرضُ عند سَماعِ المواعظِ للسَّامعِ يقظةٌ ، فإذَا انفَصَلَ عن مجلسِ الذِّكْرِ عَادت القسْوَةُ والغفلةُ ، فتدبَّرْتُ السببَ فى ذلك فعرفته ثم رأيتُ الناسَ يَتَفَاوتُونَ فى ذلك ، فالحالةُ العامةُ أن القلبَ لا يكون على صفةٍ واحدة من اليقظة عند سماع الموعظةِ وبعدها لسببين :

أحدهما : أن المواعظ كالسِّياط ، والسياطُ لا تؤلمُ بعد انقضَائها إيلامها وقت وقوعها .

والثانى : أن حالةَ سماع المواعظ يكونُ الإنسانُ فيها مزاح العلَّة [١] ، قد تخلَّى بجسْمِهِ وفكْرِهِ عن أسبابِ الدُّنْيَا ، وأنصت بحضورِ قلبِه ، فإذَا عَاد إلى الشواغلِ اجتذبته بآفاتها ، وكيف يصحُّ أن يكونَ كما كان ؛ وهذه حالة تعم الخلق ، إلا أن أربابَ اليَقَظَة يَتَفاوتُونَ فى بقاءِ الأثر ، فمنهم من يعزمُ بلا تردد ويَمْضِى من غيرِ التفات ، فلو توقف بهم ركبُ الطَّبْعِ لضجُّوا كما قال حَنْظَلَةُ عن نفسه : « **نَافَقَ حنظلة** » [٢] ، ومنهم أقوام يميلُ بهم الطَبعُ إلى الغفْلَة أحياناً ، ويدعُوهم ما تقدَّم من المواعظِ إلى العملِ أحياناً، فهم كالسُّنْبُلَة تميلها الرياحُ ، وأقوامٌ لا يؤثرُ فيهم إلا بمقدارِ سماعه ، كماء دحرجته على صفوان [٣] .

٢ – فصل : علاقة النفس بالدنيا

جوَاذبُ الطَّبْعِ إلى الدُّنْيَا كثيرةٌ ، ثمَّ هِى من الداخلِ ، وذِكْرُ الآخرة أمرٌ خارجٌ عن الطبعِ ، ثم هى من خارج ، وربَّمَا ظنَّ من لا علم له أن جوَاذبَ الآخرةِ أقوى ، لما

---

(١) أى : علة تشتيت النفس .

(٢) وهو حنظلة بن الربيع كاتب النبى ﷺ ، وابن أخى أكثم بن صيفى ، وسببه أن حنظلة الاسيدى مر بأبى بكر رضى الله عنهما وهو يبكى فقال مالك : يا حنظلة ، قال : نافق حنظلة يا أبا بكر نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأن رأى عين ، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيراً قال : فوالله إنا كذلك ، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ ، فانطلقنا فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « مالك يا حنظلة » قال : « نافق حنظلة » يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين ، فإن رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيراً قال : فقال النبى ﷺ : « **لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم وعلى فراشكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة** » الحديث رواه مسلم فى التوبة (١٢/٢٧٥٠) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٤) .

(٣) صفوان : الحجر الأملس الذى لا يثبت عليه ماء .

يسمع من الوعيد فى القرآن ، وليس كذلك ؛ لأن مثلَ الطَّبْعِ فى ميله إلى الدُّنْيَا ، كالماءِ الجارى فإنَّهُ يطلبُ الهبوط ، وإنما رفعه إلى فوق يحتاج إلى التكلف ، ولهذا أجابَ معاون الشرع بالترغيب والترهيب يقوى جُنْدَ العقلِ ، فأما الطبعُ فَجَوَاذِبُه كثيرةٌ ، وليس العجبُ أن يغلب ، إنما العجبُ أن يُغلبَ .

٣ - فصل : راقب العواقب لكى تسلم

من عَاينَ بعينِ بصيرتِه تناهى الأُمور فى بداياتها ، نَالَ خيْرَها ، ونجا من شرِّها ، ومن لم ير العواقبَ غلبَ عليه الحسُّ ، فعادَ عليه بالألم ، ما طلب منه السلامة ، وبالنصب [1] ما رَجَا منه الراحة . وبيان هذا فى المستقبل ، يتبين بذكر الماضى وهو أنك لا تَخْلُو ، إما أن تكون عصيت الله فى عمرك ، أو أطعته ، فاين لذةُ معصيتك ؟ وأين تعبُ طاعتك : هيهات رَحَلَ كل بما فيه ! فليت الذنوب إذا تَخَلَّتْ خَلَتْ [2] ! وأزيدك فى هذا بياناً مثِّل ساعةَ الموت ، وانظرْ إلى مرارة الحسرات على التفريط ، ولا أقولُ كيف تغلب حلاوةَ اللذات ؛ لأن حلاوةَ اللذاتِ استحالت حنظلاً ، فبقيتْ مَرارةُ الأسى بلا مقاوم . أتراك ما علمت أن الأمر بعواقبه ، فراقبِ العَوَاقبَ تسلم ، ولا تمل مع هوى الحس تندم .

٤ - فصل : عواقب الدنيا

من تفكر فى عواقب الدنيا ، أخذ الحذر ، ومن أيقن بطول الطريق ، تَأَهَّبَ للسفر ، ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه ، ويتحقق ضَرَرَ حال ثم يَغْشَاهُ : ﴿ **وتخشى الناس والله أَحَقُّ أن تخشاه** ﴾ [3] ، تغلبك نفسك على ما تظن ، ولا تغلبها على ما تَسْتَيْقِنُ ، أعجب العجائب سرورك بغرورك ، وَسَهْوُك فى لهوك ، عما قد خُبِّئَ لك ، تغتر بصحتك وتنسى دُنُوَّ السَّقَم ، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم ، لقد أراك مَصْرَعُ غيرك مصرعك ، وأبدى مَضْجَعُ سواك قبل الممات مَضْجَعَكَ ، وقد شغلك نَيْلُ لذاتك ، عن ذكر خراب ذاتك :

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَـى ... وَلَمْ تَرَ فِى الْبَاقِينَ مَا يَصْنَعُ الدَّهْرُ
فَإِنْ كُنْتَ لا تَدْرِى فَتِلْكَ دِيَارُهُـمْ ... مَحَاهَا مَجَالُ الرِّيحِ بَعْدَكَ وَالْقَبْـرُ

---

(١) النَّصَبَ : بالفتح أى التعب .
(٢) أى ليت الذنوب إذا تركت الإنسان جعلته خالى البال من الهموم .
(٣) سورة الأحزاب ، آية : ٣٧ .

كم رأيت صاحب منزل ما نزل لَحَدَهُ ، حتى نُزِلَ ! وكم شاهدت والِيَ قصر ، وليه عدوه لما عُزِلَ ! فيا من كل لحظة إلى هذا يَسْرِى ، وفعْلُهُ فعل من لا يفهم ولا يَدْرِى .

وكَـيْفَ تَنَامُ العَيْنُ وَهْىَ قَرِيرَةٌ ... وَلَمْ تَدْرِ مِنْ أىِّ المَحَلَّيْنِ تَنْزِلُ

٥ - فصل : البعد عن الفتنة طريق السلامة

من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة ، ومن ادعى الصبر وُكِلَ إلى نفسه ، ورب نظرة لم تناظر ! وأحق الأشياء بالضبط والقهر : اللسان والعين ، فإياك إياك أن تَغْتَرَّ بعزمك على ترك الهَوَى ، مع مقاربة الفتنة ؛ فإن الهوى مُكَايِدٌ ، وكم من شجاع فى صف الحرب اغْتِيلَ ، فأتاه ما لم يحتسب ممن يَأْنَفُ النظر إليه ! واذكر حمزة مع وَحْشِى (١) .

فَتَبَصَّرْ وَلا تَشِـــــمْ كُـــلَّ بَرْقٍ ... رُبَّ بَـــرْقٍ فِيهِ صَوَاعِقُ حَيْـــنِ

وَاغْضُضِ الطَّرْفَ تَسْتَرِحْ مِنْ غَرَامٍ ... تَكْتَسِـــى فِيـــهِ ثَوْبَ ذُلٍّ وَشَيْنِ

فَبَـــلاءُ الْفَتَـــى مُوَافَقَةُ النَّفْسِ ... وبَدْءُ الْهَـــوَى طُمُـــوحُ الْعَيْنِ

٦ - فصل : موت القلوب حياة للنفوس

أعظم المعاقبة ألا يُحِسَّ المعاقَبُ بالعقوبة ، وأشد من ذلك أن يقع السُّرُور بما هو عقوبة؛ كالفرح بالمال الحرام ، والتَّمكُّنِ من الذنوب ، ومن هذه حاله ، لا يفوز بطاعة، وإنى تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين ؛ فرأيتهم فى عقوبات لا يُحِسُّون بها ، ومعظمها من قِبَلِ طلبهم للرياسة ؛ فالعالم منهم يغضب إن رُدَّ عليه خطؤه ، والواعظ مُتَصَنِّعٌ بوعظه ، والمتزهد منافق أو مراء ، فأول عقوباتهم ، إعراضهم عن الحق شُغْلاً بالخلق ، ومن خَفِىِّ عقوباتهم سلب حلاوة المُنَاجاة ، ولذة التعبد ، إلا رجال مؤمنون ، ونساء مؤمنات ، يحفظ الله بهم الأرض ، بواطنهم كظواهرهم ؛ بل أجلى ، وسرائرهم كعلانيتهم ؛ بل أحلى ، وهِمَمُهُمْ عند الثُّرَيَّا ، بل أعلى ، إن عرفوا ، تنكروا ، وإن رُئِيَتْ لهم كرامة ، أنكروا ، فالناس فى غفلاتهم ، وهم فى قطع فَلاتِهِم ، تحبهم بقاع الأرض ، وتفرح بهم أملاك السماء ، نسأل الله - عز وجل - التوفيق لاتِّبَاعِهِمْ ، وأن يجعلنا من أتباعهم .

---

(١) هو سيدنا حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ استشهد يوم أحد ، وأما وحشى بن حرب فهو الذى قتله يوم أحد بحربته ، ولكنه أسلم وحسن إسلامه ، وقتل بحربته مسيلمة الكذاب .

٧ - فصل : علو الهمة

من علامة كمال العقل عُلُوُّ الهمَّة ، والرَّاضِي بالدرن دنيء :

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْباً كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

٨ - فصل : المحبة الإلهية

سبحان من سبقت محبته لأَحْبَابِهِ ، فمدحهم على ما وهب لهم ، واشترى منهم ما أعطاهم ، وقدَّم المتأخر من أوصافهم ؛ لموضع إيثارهم ، فباهى بهم فى صومهم ، وأحب خلُوفَ أفواههم (١) ، يا لها من حالة مَصُونة لا يقدر عليها كل طالب ! ولا يبلغ كُنْهَ وصفها كل خَاطب !

٩ - فصل : دوام الاستعداد للرحيل

الواجب على العاقل أخذ العُدَّة لرحيله ؛ فإنه لا يعلم متى يَفْجَؤُهُ أمر ربه ، ولا يدرى متى يُسْتَدْعى ، وإنى رأيت خلقاً كثيراً غرهم الشباب ، ونَسُوا فقد الأقْرَان ، وألهاهم طول الأمَل ، وربما قال العالم الْمَحْضُ لنفسه : أشتغل بالعلم اليوم ثم أعمل به غدا؛ فيتساهل فى الزلل بحُجَّة الراحة ، ويؤخر الأهبة لتحقيق التوبة ، ولا يَتَحَاشَى من غيبة أو سماعها ، ومن كسب شبهة يأمل أن يَمْحُوهَا بالورع ، وينسى أن الموت قد يُبْغِتُ (٢)، فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه ، فإنْ بَغَتَهُ الموت ، رُئِيَ مستعداً ، وإن نال الأمل، ازداد خيرًا .

١٠ - فصل : خطايا الناس ونتائجها

خطرت لى فكرة فيما يجرى على كثير من العالَم ، من المصائب الشديدة ، والبَلاَيَا العظيمة ، التى تتناهى إلى نهاية الصعوبة ، فقلت : سبحان الله ! إن الله أكرم الأكرمين، والكرم يوجب الْمُسَامَحَةَ ، فما وجه هذه الْمُعَاقَبَة ؟ فتفكرت ؛ فرأيت كثيرًا من الناس فى وجودهم كالعدم ، لا يتصفحون أدلة الوَحْدَانيَّة ، ولا ينظرون فى أوامر الله - تعالى - ونواهيه ؛ بل يجرون على عاداتهم كالبهائم ، فإن وافق الشرع مرادهم ، وإلا فَمُعَوَّلُهُم على أغراضهم، وبعد حصول الدينار لا يُبَالُونَ أمن حلال كان أم من حرام !

---

(١) إشارة إلى حديث المصطفى ﷺ « ... ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » ، وهو حديث متفق عليه : رواه البخارى فى الصوم (١٨٩٤ ، ١٩٠٤) ، ومسلم فى الصيام (١١٥١) .

(٢) يبغت : يفاجئ .

وإن سَهُلَتْ عليهم الصلاة فعلوها ، وإن لم تَسْهُلْ تركوها ، وفيهم من يُبارِزُ بالذنوب العظيمة ، مع نوع معرفة المَنَاهى ، وربما قويت معرفة عالم منهم وتَفَاقَمتْ ذنوبه ؛ فعلمتُ أن العقوبات - وإن عظمت - دون إجرامهم ، فإذا وقعت عقوبة لتُمَحِّصَ ذنباً ، صاح مستغيثهم : ترى هذا بأىِّ ذنب ؟ وينسى ما قد كان مما تَتَزَلْزَلُ الأرض لبعضه ، وقد يُهَانُ الشيخ فى كبره حتى تَرْحَمهُ القلوب ، ولا يدرى أن ذلك لإهْمَالِه حق الله - تعالى - فى شبابه ، فمتى رأيت مُعَاقَباً ، فاعلم أنه لذُنُوب .

١١ - فصل : علماء الدنيا وعلماء الآخرة

تأملت التحاسدُ بين العلماء ، فرأيت مَنْشَأه من حب الدنيا ؛ فإن علماء الآخرة يتوادُّون ولا يتحاسدون ، كما قال - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿ **وَلا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا** ﴾ [١] ، وقال - تعالى - : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [٢] ، وقد كان أبو الدرداء يدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه .

وقال الإمام أحمد بن حنبل لولد الشافعى : أبوك من السِّتَّة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السَّحَر ، والأمر الفارق بين الفئَتَيْنِ : أن علماء الدنيا ينظرون إلى الرِّيَاسَة فيها ، ويحبون كثرة الجمع والثناء ؛ وعلماء الآخرة بمَعْزِلٍ من إيثار ذلك ، وقد كانوا يتخوفونه، ويرحمون من بُلِىَ به ، وكان النخعى [٣] لا يستند إلى سَارِيَة .

وقال علقمة [٤] : أكره أن يُوطَأ عَقِبى ويقال : علقمة ، وكان بعضهم : إذا جلس إليه أكثر من أربعة ، قام عنهم ، وكانوا يتدافعون الفتوى [٥] ، ويحبون الخُمُولَ ، ومثل القوم، كمثل راكب البحر وقد خَبَّ [٦] ، فعنده شُغْلٌ إلى أن يوقن بالنجاة ، وإنما كان بعضهم يدعو لبعض ، ويستفيد منه ؛ لأنهم رَكْبٌ تصاحبوا فتوادُّوا ، فالأيام والليالى مَرَاحِلُهُم إلى سفر الجنة .

---

(١) سورة الحشر ، آية : ٩ . (٢) سورة الحشر ، آية : ١٠ .

(٣) النخعى هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى اليمانى ، ثم الكوفى ، وكان مفتيها توفى سنة (٩٦هـ) .

(٤) علقمة هو أبو شبل علقمة بن قيس بن عبد الله بن علقمة بن سلامات بن كهل وعداده فى المخضرمين ، ولازم ابن مسعود ، توفى سنة (٧٢) .

(٥) أى يقولون : اذهب لغيرى مخافة أن يقعوا فى الرياء وتحمل تبعية الخطأ هذا كان فى العصور السابقة ، أما الآن فالكل يتسابق لكى يدخل النار بفتوى ، أو كلام من غير علم .

(٦) خب : هاج .

١٢ - فصل : حياة الأتقياء وعاقبة المعصية

من أحب تصفية الأحوال ، فليجتهد فى تصفية الأعمال ؛ قال الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (١) . وقال النبى - ﷺ - فيما يَروى عن ربه - عزَّ وجلَّ - : « لَوْ أَنَّ عبادى أطاعونى ، لَسَقَيْتُهُم المطَرَ باللَّيل ، وأطلعتُ عليهم الشَّمْسَ بالنَّهَار ، ولَمْ أُسْمِعْهُمْ صَوْتَ الرَّعْد » (٢) . وقال - ﷺ - : « البِرُّ لا يَبْلَى ، والإثمُ لا يُنْسَى ، والدَّيَّانُ لا يَنَامُ ، وكَمَا تَدينُ تُدَانُ » (٣) .

وقال أبو سُلَيْمَان الدارانى (٤) : من صَفَّى ، صُفِّىَ له ، ومن كَدَّرَ كُدِّرَ عليه ، ومن أحسن فى ليله ، كُوفِئَ فى نهاره ، ومن أحسن فى نهاره ، كوفِئ فى ليله . وكان شيخ يدور فى المجالس ، ويقول : من سَرَّهُ أن تدوم له العافية ، فليتق الله - عزَّ وجلَّ - ، وكان الفضيل بن عياض (٥) ، يقول : إنى لأعْصِى الله ، فأعرف ذلك فى خلق دابتى وجاريتى .

واعلم - وفقك الله - أنه لا يحس بضربة مُبَنَّجٍ (٦) ، وإنما يعرف الزيادة من النقصان المحاسب لنفسه ، ومتى رأيت تكديراً فى حال ، فاذكر نعمة ما شُكِرَتْ ، أو زَلَّةً قد فُعِلَتْ ، واحذر من نَفَار النِّعم ، ومفاجاة النِّقَم ، ولا تَغْتَرَّ بسعة بِسَاط الحلم ، فربما عُجِّلَ انقباضه ؛ وقد قال الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٧) ، وكان أبو على الروذبارى (٨) يقول : مِنَ الاغترار أن تُسىء فَيُحْسَن إليك ، فتترك التوبة ؛ تَوَهُّماً أنك تُسَامَح فى الهفوات .

---

(١) سورة الجن ، آية : ١٦ .

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند (٢/٣٥٩) ، ورواه أبو داود الطيالسى عن صدقة بن موسى (٢٥٨٦)، ورواه الحاكم (٤/٢٥٦) ، وقال : صحيح الإسناد ، وقال الذهبى : صدقة ضعفوه ، قلت: وصدقة ابن موسى الدقيقى ، قال الحافظ فى التقريب : صدوق له أوهام .

(٣) الديلمى (٢٠٢٤) ، وعبد الرزاق كما فى الجامع الصغير (٣١٩٩) عن أبى قلابة مرسلاً . وقال العجلونى فى كشف الخفا (٩٠٢) رواه أحمد موقوفاً عن أبى الدرداء .

(٤) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد الدرانى توفى سنة (٢١٥هـ) .

(٥) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو على التميمى اليربوعى الخراسانى، ولد بسمرقند، توفى سنة (١٨٧هـ) .

(٦) المبنج : الذى فقد الإحساس من تناوله البنج .

(٧) سورة الرعد ، آية : ١١ .

(٨) أبو على الروذبارى ، واسمه أحمد بن محمد رضى الله عنه ، ويقال أنه : من ذرية كسرى وهو من أهل بغداد وسكن مصر ، توفى سنة (٣٢٢هـ)

١٣ - فصل : أنواع التكاليف

تفكرت يوماً فى التكليف ، فرأيته ينقسم إلى سهل وصعب : فأمَّا السهل فهو أعمال الجَوارِح ، إلا أن منه ما هو أصعب من بَعْض ، فالوُضُوء والصَّلاة أسهل من الصَّوم ، والصوم ربما كان عند قوم أسهل من الزكاة .

وأما الصعب فيتفاوت ، فبعضها أصعب من بعض ، فمن المسْتَصْعب النظر والاستدلال الموصلان إلى معرفة الخالق فهذا صعب عند من غلبت عليه أمور الحس سهل عند أهل العقل .

ومن المستصعب : غلبة الهَوَى ، وقهر النفوس ، وكَفُّ أكُفِّ الطِّباع عن التصرف فيما يُؤْثِرُهُ ، وكل هذا يسْهُل على العاقل النظر فى ثوابه ، ورجاء عاقبته - وإن شقَّ عاجلاً - وإنما أصعب التكاليف وأعجبها ، أنه قد ثبتت حكْمَة الخالق عند العقل ، ثم نَراه يُفْقِرُ المتشاغل بالعلم ، المقبل على العبادة ، حتى يَعُضَّهُ الفقر بنَاجذَيْه [١] ، فيذلُّ للجاهل فى طلب القوت ، ويُغْنى الفاسق مع الجهل ، حتى تفيض الدنيا عليه ، ثم تراه يُنْشئ الأجسام ويحكمها ، ثم ينْقُضُ بناء الشباب فى مبدأ أمره ، وعند استكمال بنائه فإذا به قد عاد هَشِيماً ، ثم تراه يؤلم الأطفال ، حتى يرحَمَهُمْ كل طبع ، ثم يقال له : إياك أن تشك فى أنه أرحم الراحمين ، ثم يسمع بإرسال موسى إلى فرعون ، ويقال له : اعتقد أن الله - تعالى - أضَلَّ فرعون ، واعلم أنه ما كان لآدَمَ بُد من أكل الشجرة ، وقد وبِّخَ بقوله : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ ﴾ [٢] ، وفى مثل هذه الأشياء تَحيَّر خَلْق ، حتى خرجوا إلى الكفر والتكذيب ، ولو فَتَّشُوا على سر هذه الأشْيَاء ، لعلموا أن تسليم هذه الأُمور ، تكليفُ العقل ليُذْعِنَ [٣] ، وهذا أصل إذا فهَم حصل السلامة والتسليم . نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - أن يكشف لنا الغوامض التى حيرت مَنْ ضَلَّ ، إنه قريب مُجيبٌ .

١٤ - فصل : قيمة الوقت

ينبغى للإنسان أن يعرف شرف زمانه ، وقَدْرَ وقته ، فلا يُضيعُ منه لحظة فى غير قُرْبَة، ويقدم الأفضلَ فالأفضلَ من القول والعمل ، ولتكن نيته فى الخير قائمة من غير فتور ، بما لا يعجز عنه البدن من العمل ؛ كما جاء فى الحديث : « نيَّةُ الْمُؤْمن خَيْرٌ منْ عَمَله » [٤] ،

---

(١) النجذ : شدة العض بها والكلام الشديد ، وعض على ناجذه : بلغ أشده كما فى القاموس .

(٢) سورة طه ، آية : ١٢١ . (٣) أذعن : خضع وذل وأقر وانقاد كما فى القاموس .

(٤) الطبرانى فى الكبير كما فى مجمع الزوائد (١/ ٦١) ، وقال الهيثمى : رجاله موثقون إلا حاتم =

وقد كان جماعة من السَلَف يُبَادرُون اللحظات ؛ فنقل عن عامر بن عبد قيس[1] : أن رجلاً قال له : كَلِّمْنى ، فقال له : أَمْسِكِ الشمس

وقال ابن ثابت البنانى [2] : ذهبت أُلَقِّنُ أبى ، فقال . يا بنى دَعْنى ، فإنى فى وردى السادس ، ودخلوا على بعض السَلَف عند موته ، وهو يصلى ، فقيل له [3] ، فقال : الآن تُطْوَى صحيفتى ، فإذا علم الإنْسَان وإن بالغ فى الجَدِّ بأن الموت يقطعه عن العمل ، عمل فى حياته ما يَدُوم له أجره بعد موته ، فإن كان له كل شىء من الدنيا ، وقف وقْفًا، وغرس غرسًا ، وأَجْرَى نهرًا ، ويسعى فى تحصيل ذُرِّيَة ، تذكر الله بعده ، فيكون الأجر له ، أو أن يُصنِّف كتابًا من العلم ، فإن تصنيف العالم ولَدُهُ المخَلَّد ، وأن يكون عاملاً بالخير ، عالمًا فيه ، فَيَنْقِلُ من فعله ما يَقْتَدِى الغير به ؛ فذلك الذى لم يمت:

* قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُم فِى النَّاسِ أَحْيَاءُ *

١٥ - فصل : شرف الغنى ومخاطرة الفقر

رأيت من أعظم حِيَل الشيطان ومكْره ، أن يَخْبِطَ أرباب الأموال بالآمال ، والتَّشَاغل باللَّذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها ، فإذا علقهم بالمال ؛ تحريضًا على جمعه ، وحثًا على تحصيله ، أمرهم بحراسته بخلاً به ، فذلك من مَتِين حيله ، وقَوِىٌّ مكره ، ثم دفن فى هذا الأمر من دقائق الحِيَلِ الخفِيَّة ، أن خَوَّف من جمعه المؤمنين ؛ فَنفر طالب الآخرة منه ، وبادر التائب ، يُخْرِجُ ما فى يده ، ولا يزال الشيطان يُحَرِّضُه على الزهد ، ويأمره بالترك ، ويخوفه من طرقات الكسب ؛ إظهارًا لنصحه وحفظ دينه ، وفى خفايا ذلك عَجَائب من مكْره ، وربما تكَلَّم الشيطان على لسان بعض المَشَايخ الذين يَقْتَدى بهم التائب، فيقول له : اخْرج من مالك وادخل فى زُمْرَة الزهاد ، ومتى كان لك غداءٌ أو عشاءٌ ، فلست من أهل الزهد ، ولا تنال مراتب العَزْم ، وربما كرر عليه الأحاديث

= ابن عباد بن دينار الجرشى لم أر له ترجمة ، والديلمى (٧٠٩٦ ، ٧٠٩٧) ، وأبو نعيم فى الحلية (٣/ ٢٥٥) ، والخطيب فى تاريخه (٩/ ٢٣٧) ، والسيوطى فى الجامع الصغير (٩٢٩٥ ، ٩٢٩٦) ، والعجلونى فى كشف الخفاء (٢٨٣٦) ، وقال الألبانى فى ضعيف الجامع (٧/ ١٦) : ضعيف .

(١) هو عامر بن قيس أبو عبد الله ، ويقال : أبو عمرو التميمى البصرى كان ثقة من عباد التابعين، وقيل : قبره فى بيت المقدس ، توفى فى زمن معاوية .

(٢) هو ثابت بن أسلم أبو محمد البنانى مولاهم البصرى ، وكان ثبتا فى الحديث ، توفى سنة (١٢٧هـ) .

(٣) هنا سقط فى الكلام ظاهر ولم أجده فى أى نسخة .

البعيدة عن الصَّحَّة ، والواردة على سبب ولمعنى ، فإذا أخرج ما فى يده ، وتعطّل عن مكاسبه ، عاد يُعَلِّقُ طمعه بصلة الإخوان ، أو يَحْسُنُ عنده صُحْبَة السلطان ؛ لأنه لا يقوى على طريق الزهد والترك إلا أيامًا ، ثم يعود الطبع فيُقَاضى مطلوباته ، فيقع فى أقبح مما فر منه ، ويبذل أول السِّلَع فى التحصيل دِينَهُ وَعِرْضَه ، ويصير مُتَمَنْدِلاً [١] به ، ويقف فى مقام اليد السُّفلى .

ولو أنه نظر فى سير الرجال ونُبَلائهم ، وتأمل صحاح الأحاديث عن رُؤَسَائهم، لعلم أن الخليل - عليه الصلاة والسلام - كان كثير المال ، حتى ضاقت بلدته بمواشيه ؛ وكذلك لُوط - عليه الصلاة والسلام - وكثير من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- ، والجَمُّ الغَفيرُ من الصحابة ، وإنّما صبروا عند العدم ، ولم يمتنعوا من كَسْب ما يُصْلِحُهم، ولا من تناول المباح عند الوُجُود ، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يخرج للتجارة والرسول - ﷺ - حَى ، وكان أكثرهم يُخْرِج فاضل ما يأخذ من بَيْت المال ، ويَسْلَم من ذُلّ الحاجة إلى الإخوان ، وقد كان ابن عمر لا يردُّ شيئًا ولا يسأل . وإنى تأملت أكثر أهل الدين والعلم على هذه الحال ، فوجدت العلم شَغَلَهُمْ عن المكاسب فى بداياتهم ، فلما احتاجوا إلى قوام نفوسهم ، ذَلُّوا وهم أحق بالعز ، وقد كانوا قديمًا يكفيهم من بيت المال فَضَلات الإخْوان ، فلما عَدِمَت فى هذا الأوان ، لم يقدر مُتَدَيِّنٌ على شىء إلا ببذل شَىْء من دينه ، وليته قدّر فربما تَلَفَ الدين ولم يحصل له شىء .

فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه ، وأن يجتهد فى الكَسْب ليربح [٢] مداراة ظالم، أو مداهَنَة جاهل ، ولا يلتفت إلى تُرَّهَات [٣] المتصوفة ، الذين يَدَّعون فى الفقر ما يَدَّعُون ، فما الفقر إلا مرض العجزة ، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض، اللّهم إلا أن يكون جبانًا عن التصرف ، مقْتَنِعًا بالكفاف ، فليس ذلك من مراتب الأبْطال، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد ، وأما الكاسب ليكون المُعْطِى لا المُعْطَى ، والمُتَصَدِّق لا المتَصَدَّق عليه ، فهى من مراتب الشجعان الفضلاء ، ومن تأمل هذا ، علم شرف الغِنَى ومخاطرة الفقر .

---

(١) متمندلا : متمسحاً كما فى القاموس .

(٢) أى : بسبب اجتهاده فى الكسب لن يضطر إلى مداراة ظالم أو مداهنة جاهل فيربح بذلك دينه ولا يخسره .

(٣) الترهة : الباطل ، والترهات : الأقاويل الخالية من الطائل كما فى القاموس .

١٦ - فصل : أحوال الفضلاء

تأملت أحوال الفُضَلاء ، فوجدتهم فى الأغْلَب قد بُخسُوا [١] من حظوظ الدنيا . ورأيت الدنيا - غالبًا - فى أيدى أهل النَّقَائص ، فنظرت فى الفضلاء ، فإذا هم يتأسفون على ما فاتهم مما ناله أولوا النَّقْص ، وربما تَقَطَّع بعضهم أسفًا على ذلك ، فخاطبت بعض المتأسِّفين ، فقلت له : ويحك تَدَبَّر أمرك ، فأنت غالط من وجوه :

أحدها : أنه إن كانت لك همَّةٌ فى طلب الدنيا ، فاجتهد فى طلبها تربح التأسف على فوتها ، فإن قعودك مُتَأَسِّفًا على ما ناله غيرك ، مع قصور اجْتهادكَ - غايةُ العَجْز .

والثانى : أن الدنيا إنما تراد لتعبر لا لتُعَمَّر ، وهذا هو الذى يدلك عليه علمك ، ويَبْلُغُه فهمك ، وما يناله أهل النَّقْص من فضولها يؤذى أبدانهم وأديانهم ، فإذا عرفت ذلك ، ثم تأسَّفْت على فقد ما فقده أصْلح لَكَ ، وكان تأسفُك عُقُوبة ؛ لتأسُّفك على ما تَعْلَم الْمَصْلَحة فى بُعْده ، فاقنع بذلك عذابًا عاجلاً ؛ إن سَلِمْت من العَذَاب الآجِل .

والثالث : أنك قد علمت بُخْسَ حظ الآدمى فى الجملة ، من مطاعم الدُّنيا ولذاتها بالإضافة إلى الحيوان البهيم ؛ لأنه ينال ذلك أكثر مقدارا مع أمْن ، وأنت تناله مع خوف ، وقلة مِقْدَار [٢] ، فإذا ضُوعف حظك من ذلك ، كان ذلك لاحقًا بالحيوان البهيم؛ من جهة أنه يَشْغَلُه ذلك عن تحصيل الفضائل ، وتخفيف المُؤَن يَحُثُّ صاحبه على نيل المراتب ، فإذا آثرت مع قلة الفضول - الفضولَ [٣] - عدت على ما عَلِمْت بالإزْرَاء[٤]، فَشِنْتَ [٥] علمك ، ودللت على اختلاط رأيك .

١٧ - فصل : أقسام الناس فى مواقعة المحظور

تأملت إقدام العلماء بالعقاب على شهوات النفس المَنْهِىّ عنها ، فرأيتها مرتبة تُزاحم الكفر ، لولا تلوّح معنى ؛ وهو أن الناس عند مواقعة المَحْظُور ينقسمون : فمنهم جاهل بالمحظور إنَّه مَحْظُور ، فهذا له نوع عذر .

ومنهم من يظن المحظور مكْرُوهًا لا محرَّمًا ، فهذا قريب من الأول ، وربَّما دخل فى هذا القِسْم آدمُ-ﷺ ، ومنهم من يتأوّل فيغْلطُ ، كما يقال : إن آدم - عليه الصلاة

---

(١) بخسوا : نقصوا .

(٢) أى : هو يأكل دون اكتراث ، وأنت تأكل مع محاسبة النفس .

(٣) أى فضلت ما لا قيمة له مع قلته . (٤) الإزراء : التهاون بالشىء .

(٥) شان ، يشينه ضد زانه ، والمشاين : المعايب كما فى القاموس .

والسلام - نُهى عن شجرة بعينها ، فأكل من جنسها لا من عينها ، ومنهم من يَعْلم التَّحريم ، غير أن غلبات الشهوة أنْسَتْه تذكُّر ذاك ، فغشله ما رأى عما يعلم ، ولهذا لا يذكر السارق القطع ؛ بل يغيب بكُلِّيَّتِهِ فى نيل الحظ ، ولا يذكر راكب الفاحشة الفضيحة ولا الحد ؛ لأن ما يرى يُذْهِلُه عما يعلم .

ومنهم من يعلم الخَطَرَ ويذكره ، غير أن الأخذ بالحزم أولى بالعَاقِل ، كيف وقد علم أن هذا المَلِكَ الحكيم قطع اليد فى رُبْع دينار ، وهَدَم بناء الجسم المحكم بالرَّجْم بالحجارة؛ لالتذاذ ساعة ، (وخَسَفَ ، ومَسَخ ، وأغْرق) .

١٨ - فصل : ميزان العدل لا يحابى

من تأمل أفعال البارئ - سبحانه - رآها على قانون العدل ، وشاهد الجزاء مرصدا ولو بعد حين ، فلا ينبغى أن يغتر مسامح ؛ فالجزاء قد يتأخر ، ومن أقبح الذنوب التى قد أعدَّ لها الجزاء العظيم - الإصرار على الذَّنب ، ثم يصانع صاحبه باستغفار وصلاة وتعبد، وعنده أن المُصَانَعَة تنفع ، وأعظم الخلق اغتراراً من أتى ما يَكْرَهُه الله ، وطلب منه ما يحبه هو ؛ كما روى فى الحديث : « **وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ** » (١) ، ومما ينبغى للعاقل أن يترصَّد وقوع الجزاء ؛ فإن ابن سيرين قال : عيَّرت رجلاً ، فقلت : يا مفْلس ، فأفلست بعد أربعين سنة .

وقال ابن الجلاد : رآنى شيخ لى وأنا أنظر إلى أمْرَد ، فقال : ما هذا ؟ لتَجِدَنَّ غِبَّها، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

وبالضِّد من هذا كل من عمل خيرًا ، أو صحَّح نية ، فلينتظر جزاءها الحسن ، وإن امتدت المدّة ؛ قال الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (٢) . وقال - عليه الصلاة والسلام : « **مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ ، أَثَابَهُ اللهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِى قَلْبِهِ** » (٣) . فليعلم العاقل أن ميزان العدل لا يُحَابِى .

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذى عن شداد بن أوس (ح ٢٤٥٩) ، وقال : حسن ، ورواه ابن ماجة (ح ٤٢٦٠) ، ورواه الحاكم (٤/ ٢٥١) ، وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) سورة يوسف ، آية : ٩٠ .

(٣) إسناده ضعيف : أحمد (٥/ ٢٦٤) ، والطبرانى فى الكبير (٧٨٤٢) فى سنده عبد الرحمن الواسطى ضعيف .

١٩ - فصل : حقيقة الحياة بين العلماء والجهلاء

تأملت أحوال الصوفية والزهاد ، فوجدت أكثرها منحرفًا عن الشَّريعة ، بين جهلٍ بالشَّرع ، وابتداع بالرأى ، يستدلُّون بآيات لا يفهمون معناها ، وبأحاديثَ لها أسبابٌ ، وجمهورها لا يثْبُت ، فمن ذلك ؛ أنهم سمعوا فى القرآن العزيز : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدنيا إلا مَتَاعُ الغُرُور ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ (٢) ، ثم سمعوا فى الحديث : «للدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ شَاةٍ مَيِّتَة عَلَى أَهْلِهَا » (٣) ، فبالغوا فى هجرها من غير بَحْث عن حقيقتها ؛ وذلك أنه ما لمْ يَعْرف حقيقةَ الشىء ، فلا يَجُوز أن يمدح ولا أن يَذُمَّ ، فإذا بحثنا عن الدُّنْيَا ، رأينا هذه الأرض البسيطة التى جُعلَت قَرَاراً للخلق ، تخرج منها أقواتهم ، ويُدْفَن فيها أمواتهم ، ومثل هذا لا يُذَمُّ ؛ لموضع المصلحة فيه ، ورأينا ما عليها من ماء ، وزرع ، وحيوان ، كله لمصالح الآدمى ، وفيه حفظ لسبب بقائه ، ورأينا بقاء الآدمى سببًا لمعرفة ربِّه ، وطاعته إيَّاه وخدمته ، وما كان سببًا لبقاء العارف العابد يُمدح ولا يذمُّ ؛ فبان لنا أن الذَّمَّ إنما هو لأفعال الجَاهل ، أو العاصى فى الدنيا ؛ فإنه إذا اقتنى المال المباح وأدى زكاته ، لم يُلَمْ ؛ فقد عُلم ما خَلَّف الزبير ، وابن عوف وغيرهما ، وبلغت صدقة علىّ - رضى الله عنه - أربعين ألفًا ، وخَلَّف ابن مسعود تسعين ألفًا ، وكان الليث بن سعد (٤) يستغل كل سنة عشرين ألفًا ، وكان سفيان (٥) يتَّجرُ بمال ، وكان ابن مهدى (٦) يستغل كل سنة ألفى دينار ، وإنْ أكْثَرَ من النكاح والسرارى ، كان مَمْدُوحًا لا مذموماً ؛ فقد كان للنبى - ﷺ - زوْجات ، وسرارى ، وجمهور الصحابة كانوا على الإكْثَار من ذَلكَ ، وكان لعلىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - أربَع حرائر ، وسبْع عَشْرَة أمة ، وتزوج ولده الحسين نحْوًا من أرْبعمائة .

فإن طلب التزوُّج للأولاد ، فهو الغاية فى التعبد ، وإن أراد التلذذ ، فمباح ، يندرج

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٨٥ . (٢) سورة الحديد ، آية : ٢٠ .

(٣) مسلم فى الزهد والرقائق (٢٩٥٧/٢) بنحوه ، والترمذى فى الزهد (٢٣٢١) ، وابن ماجة فى الزهد (٤١١٠) ، وأحمد (٣٢٩/١) واللفظ له .

(٤) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث عالم مصر إمام حافظ توفى سنة (١٧٥هـ) .

(٥) هو الثورى وهو سفيان بن سعيد بن مسروق إمام حافظ أبو عبد الله الثورى الكوفى توفى سنة (١٦١هـ) .

(٦) ابن مهدى هو أبو عمر بن مهدى عبد الواحد بن محمد بن عبد الله الفارسى ثم البغدادى البزاز قال الخطيب . ثقة توفى فى رجب سنة (٤١٠هـ) وله (٧٢) عاماً قلت : ومعنى يستغل : أى تبلغ غلته هذا الحد .

فيه من التعبد ما لا يُحْصَى ، من إعْفَاف نفسه والمرأة إلى غير ذلك ، وقد أنفق موسى - عليه السلام - من عمره الشَّريف عَشْر سنين فى مَهر ابنة شُعَيْب ، فلولا أن النكاح من أفضل الأشياء ، لما ذهب كثير من زمان الأنبياء فيه ، وقد قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : خيار هذه الأمة أكثرها نساء [1] ، وكان يطأ جارية له ويتزل فى أُخْرى .

وقالت سَرِيَّة الربيع بن خيثم [2] : كان الربيع يَعْزِل . وأما المطعم : فالمراد منه تَقْوية هذا البَدَن لخدمة الله - عَزَّ وجَلَّ - وحَق على ذى النَّاقَة أن يُكْرِمها لتحمله ، وقد كان النبى - ﷺ - يَأْكل ما وجد ، فإن وَجد اللحم أكله ، ويأكل لحم الدُّجاج ، وأحَبُّ الأشياء إليه الحلوى والعسل [3] ، وما نُقل عنه أنه امتنع من مباح ، وَجاءَ علىُّ - رضى الله عنه - بفَالُوذَج فأكل منه ، وقال : ما هذا ؟ قالوا : يوم النَّوْرُوز [4] ، فقال : نورزونا كل يوم ، وإنما يُكْره الأكل فوق الشِّبع ، واللبْس على وجه الاخْتِيَال والبَطَر . وقد اقتنع أقوام بالدون من ذلك ؛ لأن الحلال الصافى لا يَكَاد يمكن فيه تَحْصِيل المراد ، وإلا فقد لَبِس النبى - ﷺ - حُلَّة اشْتُرِيَتْ له بسبع وعشرين بعيرًا ، وكان لتميم الدارى حلة اشتريت بألف درهم ، يصلى فيها باللَّيل .

فجاء أقوام ، فأظهروا التزهد ، وابتكروا طَرِيقة زيَّنَهَا لهم الهَوَى ، ثم تطَلَّبوا لها الدليل ، وإنما ينبغى للإنسان أن يتَّبِع الدليل ، لا أن يتَّبع طريقًا ويتَطَلَّب دَليلها ، ثم انْقَسَمُوا . فمنهم متصنِّع فى الظاهر ، لَيْث الشَّرَى فى الباطن ، يتناول فى خَلَواته الشهوات ، وينعكف على اللَّذَّات ، ويرى الناسُ بزيه أنه متصوف متزهد ، وما تزهد إلا القَميص ، وإذا نُظر إلى أحواله ، فعنده كِبْر فرعون ، ومنهم سليم الباطن ، إلا أنه فى الشرع جاهل ، ومنهم من تصدَّر وصنَّف فاقتدى به الجاهلون فى هذه الطريقة ، وكانوا كعُمْيٍ اتبعوا أعمى ، ولو أنهم تَلَمَّحُوا للأمر الأول الذى كان عليه الرسول - ﷺ - والصحابة - رضى الله عنهم - لما زلوا .

---

(١) البخارى فى النكاح (٥٠٦٩) .

(٢) هو الربيع بن خيثم بن عائذ ، الإمام العابد أبو يزيد الثورى الكوفى أدرك زمن النبى ﷺ وأرسل عنه وروى عن ابن مسعود ، وأبى أيوب الأنصارى توفى قبل سنة (٦٥) بتقديمها على المثناة التحتية توفى سنة (٦١هـ) ، وقيل : (٦٣هـ) .

(٣) إشارة إلى حديث عائشة أنه كان يحب الحلواء والعسل أخرجه البخارى فى الطلاق (٥٢٦٨) ، ومسلم فى الطلاق (٢١/١٤٧٤) .

(٤) النيروز : أول يوم من السنة والنوروز معرب وهى بمعنى النيروز كما فى القاموس .

ولقد كان جماعة من المحققين ، لا يبالون بمُعَظَّم فى النفوس إذا حاد عن الشريعة ، بل يُوسعُونه لَوْمًا ؛ فنقل عن أحمد ، أنه قال له المرْوَزى [1] : ما تَقُول فى النِّكَاح ؟ فقال : سُنَّةُ النَّبى - ﷺ - فقال : فقد قال إبراهيم . قال : فَصَاح بى ، وقال : جئتنا ببُنَيَّات الطريق ! وقيلَ له : إن سَرِيا السقطى [2] قال : لما خَلَقَ الله - تعالى - الحُرُوف، وقف الألف وسَجَدت البَاء ، فقال : نَفِّروا الناس عنه .

واعلم أن المحقق لا يَهُولُه اسم معظَّم ؛ كما قال رجل لعلىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - : أتظن أنَّا نظن أن طَلْحة والزبير ، كانا على البَاطِل ؟ فقال له : إن الحق لا يُعْرَف بالرجال ، اعرف الحق ، تعرف أهله .

ولعمرى إنه قد وَقَرَ فى النفوس تعظيم أقْوَام ، فإذَا نُقل عنهم شىء ، فسمعه جاهل بالشرع ، قَبِلَه ؛ لتعظيمهم فى نفسه ، كما ينقل عن أبى يزيد [3] - رضى الله عنه - أنه قال : تَرَاعَنْت [4] على نفسى ، فحلفت لا أشْرب الماء سنة ، وهذا إذًا صح عنه ، كان خَطَأ قبيحًا ، وزَلَّة فاحشة ؛ لأن الماء ينَفذُ الأغْذية إلى البدن ، ولا يقوم مقامه شىء، فإذَا لم يشرب ، فقد سعى فى أذى بدنه ، وقد كان يَسْتَعْذب الماء لرسول الله - ﷺ - [5] .

أفترى هذا فعْل من يعلم أن نفسه ليست له ! وأنه لا يَجُوز التصرف فيها إلا عن إذْن مالكها .

وكذلك ينقلون عن بعض الصوفية ؛ أنه قال : سرْت إلى مكَّةَ على طريق التَّوكُّل حافيًا ، فكانت الشوكة تدخل فى رِجْلِى فأحُكُّهَا بالأرض ولا أرفعها ، وكان علىَّ مِسْحٌ ، فكانت عينى إذا آلمتنى ، أدلكها بالمِسْح [6] ، فذهبت إحدى عينىَّ ، وأمثال هذا كثير ، وربما حملها القَصّاص على الكرامات ، وعظموها عند العوام ، فيُخَايلُ لهم أن فاعل هذا أعلى مرتبة من الشافعى ، وأحمد .

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروزى وكان أجل أصحاب الإمام أحمد ، توفى سنة (٢٧٥هـ) .

(٢) هو أبو الحسن البغداى السرى السقطى ، توفى سنة (٢٥١هـ) ، وقيل : سنة (٢٥٧هـ) ، وجعله ابن العماد فى سنة (٢٥٣هـ) .

(٣) هو أبو يزيد البسطامى ، توفى سنة (٢٦١هـ) ، وقيل : سنة (٢٦٤هـ) ، وجزم صاحب الشذرات بالأول وعدم شربه الماء سنة لعلها والله أعلم رواية باطلة

(٤) تراعنت : حمقت واسترخت ، والأرعن : الأهوج فى منطقه كما فى القاموس .

(٥) أبو داود فى الأشربة (٣٧٣٥) عن عائشة .

(٦) المسح : بكسر الميم وفتحها : الثوب الغليظ كما فى القاموس

ولعَمْرى أن هذا من أعْظم الذنوب ، وأقبح العيوب ؛ لأن الله - تعالى - قال : **﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾** [1] . وقال النبى - ﷺ - : « **إنَّ لنَفْسكَ عَلَيْكَ حَقا** » [2] ، وقد طلب أبُو بكْر - رضى الله عنه - فى طريق الهجرة للنبىَ - ﷺ - ظلا ، حتى رأى صخرة ففرش له فى ظلِّهَا ، وقد نقل عن قدماء هذه الأمة بدايات هذا التفريط ، وكان سببه من وجهين :

أحدهما : الجهل بالعلم .

والثانى : قرب العَهْد بالرهبانية .

وقد كان الحسن يعيب فَرْقد [3] السبخى ، ومَالك بن دينَار [4] فى زهدهما ، فرئى عنده طعام فيه لحم ، فقال : لا رغيفَىْ مالك ، ولا صحنىَ فَرْقَد، ورأى على فرقد كساء، فقال : يا فرقد ، إن أكثر أهل النار أصحاب الأكْسِيَة .

وكم قد زوَّق قاص مجلسه بذكر أقْوام خرجوا إلى السِّيَاحة بلا زاد ولا ماء ، وهو لا يعْلم أن هذا من أقبح الأفعال ! وأن الله تعالى لا يجرب عليه ، فربما سمعه جَاهل من التائبين ، فخرج فمات فى الطَّريق ، فصار للقائل نصيب من إثْمه ، وكم يروُون عن ذى النون [5] : أنه لقىَ امْرأة فى السياحة ، فكلمها وكلمته ، وينسون الأحاديث الصحاح : « **لا يحل لامْرأة أن تسافر يومًا وليلة إلا بمَحْرَم** » [6] ! وكم ينقلون: أن أقوامًا مَشَوْا على الماء ، وقد قال إبراهيم الحربى [7] : لا يصح أن أحدًا مشى على الماء قط ، فإذا سمعوا هذا قالوا : أتنكرون كرامات الأولياء الصالحين .

فنقول لسنا من المُنكِرين لها ، بل نتبع ما صَحّ ، والصالحون هم الذين يتبعون الشرع، ولا يتعبدون بآرائهم ، وفى الحديث : « **إنَّ بَني إسْرَائيلَ شَدَّدُوا ، فَشَدَّدَ اللهُ**

---

(١) سورة النساء ، آية : ٢٩ .

(٢) البخارى فى الصوم (١٩٦٨) ، وفى الادب (٦١٣٩) ، والترمذى فى الزهد ، (٢٤١٣) ، وقال صحيح عن أبى جحيفة ، وأبو داود فى الصلاة (١٣٦٩) عن عائشة .

(٣) فرقد هو ابن يعقوب السبخى يكنى أبا يعقوب توفى سنة (١٣١هـ) .

(٤) مالك بن دينار عالم ثقة ، وكان من كتبة المصاحف توفى سنة (١٢٧هـ) ، وقيل : سنة (١٣٠هـ) ، وجزم بالأول فى الشذرات وفى طبقات الشعرانى قال : توفى سنة (١٣١هـ) .

(٥) هو ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصرى ، وكان أبوه نوبياً ، توفى سنة (٢٤٥هـ) .

(٦) البخارى فى تقصير الصلاة (٨٨ ١) ، ومسلم فى الحج (١٣٣٩/٤١٩ - ٤٢١) .

(٧) هو أبو إسحاق بن إبراهيم البغدادى توفى ببغداد سنة (٢٨٥ هـ) .

عَلَيْهِمْ» (١) وكم يحثُّون على الفقر حتى حملوا خلقًا على إخراج أموالهم ، ثم آل بهم الأمر إما إلى التسخط عند الحاجة ، وإما إلى التعرض بسؤال الناس ! وكم تأذى مسلم بأمرهم الناس بالتقلل ! وقد قال النبى - ﷺ - : « **ثُلُثُ طَعَامٍ ، وَثُلُثُ شَرَابٍ ، وَثُلُثُ نَفَسٍ**» (٢) ، فما قنعوا حتى أمروا بالمبالغة فى التقلل ، فحكى أبو طالب المكى فى « قوت القلوب » : أن فيهم من كان يَزِن قوته بكربة رطبة (٣) ، ففى كل ليلة يذهب من رُطوبتها قليل ، وكنت أنا ممن اقتدى بقوله فى الصِّبا ، فضاق المعَى، وأوجب ذلك مرض سنين.

أفترى هذا شىءٌ تقتضيه الحكمة ، أو نَدَب إليه الشَّرع ؟ وإنما مطية الآدمى قواه ، فإذا سعى فى تقليلها ، ضعُف عن العبادة .

ولا تقولن الحصول على الحلال المحض مستحيل ، لذلك وجب الزهد تجنبا للشبهات فإن المؤمن حسبه أن يتحرى فى كسبه هو الحلال ولا عليه من الأصول التى نبتت من هذه الأموال . فإنا لو دخلنا ديار الروم ، فوجدنا أثمان الخُمُور وأُجْرة الفجور ، كان لنا حلالاً بوصف الغنيمة ، أفتريد حلالاً على معنى أن الحبة من الذهب لم تنتقل مُذْ خرجت من المعْدِن ، على وجه لا يجوز : فهذا شىء لم ينظر فيه رسول الله - ﷺ - . أوَ ليس قد سمعت أن الصدقة عليه حرامٌ ، فلما تصدق على بُرَيْرة بلحم فأهدته (٤) ، جاز له أكل تلك العين لتغير الوصف .

وقد قال أحمد بن حنبل: أكره التقلل من الطعام ؛ فإن أقوامًا فعلوه فعَجَزوا عن الفرائض ، وهذا صَحيحٌ ؛ فإن المتقلل لا يزال يتقلل ، إلى أن يعجز عن النوافل ثم الفرائض ، ثم يعجز عن مُبَاشرة أهله وإعفافهم ، وعن بَذْل القوى فى الكَسْب لهم ، وعن فعل خير قد كان يفعله ، ولا يَهُولَنَّك ما تسمعه من الأَحَاديث ، التى تَحُثُّ على

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة رفعه ورواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس موقوفا ، وأخرجه ابن جرير عن قتادة ، وابن جريج مرسلاً ، وأخرجه الفريابى ، وسعيد بن منصور ، وابن المنذر عن عكرمة مرسلاً انظر : الدر المنثور للسيوطى (١/ ٨٦) ، وابن كثير (١/ ١١٠)، وصحح إسناد الموقوف .

(٢) جزء من حديث رواه الترمذى عن المقدام بن معدى كرب « **ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه**» ، فى الزهد (٢٣٨٠) ، وقال : حسن صحيح ، ورواه ابن ماجة ، فى الأطعمة (٣٣٤٩) ، وأحمد (٤/ ١٣٢) ، والحاكم (٤/ ٣٣١ ، ٣٣٢) ، وصححه ووافقه الذهبى .

(٣) هى ما يلتقط من التمر فى أصول النخل .

(٤) البخارى فى الزكاة ، (١٤٩٥) ، ومسلم فى الزكاة (١٠٧٤/ ١٧٠) .

الجوع ؛ فإن المراد بها : إما الحَثُّ على الصَّوم ، وإمَّا النهى عن مقاومة الشِّبَع ، فأما تنقيص المطعم على الدَّوام ، فمؤثر فى القُوى ، فلا يجوز ؛ ثم فى هؤلاء المذمومين من يرى هجر اللحم ، والنبى - ﷺ - كان يودُّ أن يأكله كل يوم .

واسمَعْ منى بلا محاباة ، لا تحتجَنَّ علىّ بأسماء الرجال ، فتقول: قد قال بشر ، وقال إبراهيم بن أدهم : فإن من احتج بالرَّسول - ﷺ -وأصحابه- رضوان الله عليهم - أقوى حُجَّة ، على أن لأفعال أولئك وُجُوهًا نحملها عليهم بحُسن الظن .

ولقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يُرْوَى عن جماعة من السادات ؛ أنهم دفنوا كتبهم ، فقلت له : ما وَجْه هذا ؟ فقال : أحْسَن ما نقول أن نسْكت ، يشير إلى أن هذا جهل من فَاعله ، وتأوَّلْتُ أنَا لهم ، فقلت : لعل ما دَفَنُوا من كتبهم ، فيه شىء من الرأى ، فما رأَوْا أن يعمل الناس به ، ولقد روَيْنا فى الحديث ، عن أحمد بن أبى الحَوَارِىّ [1] : أنه أخذ كتبه فرمى بها فى البحر ، وقال : نعْم الدليل كُنْت ! ولا حاجة لنا إلى الدليل، بعد الوصول إلى المدلول ، وهذا إذا أحسنا به الظن ، قلنا : كان فيها من كلامهم ما لا يرتَضِيه ، فأما إذا كانت علومًا صحيحة ، كان هذا من أفحش الإضاعة، وأنا وإن تأوَّلت لهم هذا ، فهو تأويل صحيح فى حق العُلَمَاء منهم ؛ لأنَّا قد روينا عن سُفْيَان الثَّوْرِىّ ؛ أنه قد أوصى بدفن كتبه ، وكان نَدمَ على أشياءَ كتبها عن قوم، وقال : حملنى شهْوة الحديث - وهذا لأنه كان يكتب عن الضُّعَفَاء والمتروكين - فكأنه لما عَسُر عليه التمييز أَوْصى بدفن الكُل ؛ وكذلك من كان له رأى من كَلامه ، ثم رجع عَنْه ، جاز أن يَدْفن الكتب التى فيها ذلك ، فهذا وجه التَّأويل للعلماء ، فأما المتزهدون الذين رَأَوْا صورة فعل العُلَمَاء ، ودفنوا كتبًا صَالحَةً ؛ لئلا تشغلهم عن التعبد، فإنه جهل منهم؛ لأنهم شرعوا فى إطفاء مصباح يُضِىء لهم ، مع الإقدام على تَضْيِيع مال لا يحلّ تضييعه ومن جملة من عمل بواقعة دَفْن كتب العلم يُوسُف بن أَسْبَاط [2] ، ثم لم يصبر عن التحديث ، فخلط فعُدَّ فى الضعفاء .

أنبأنا عَبْد الوَهَّاب بن المُبَارك ، قال : أخبرنا مُحمَّد بن المظَفَّر الشّامِىّ ، قال :

---

(١) أحمد بن أبى الحوارى : يكنى أبو الحسن توفى سنة (٢٨٢هـ) ، وفى الشذرات توفى سنة (٢٤٦هـ) ، وفى طبقات الشعرانى سنة (٢٣٠هـ) .

(٢) هو يوسف بن أسباط الشيبانى الزاهد الواعظ ، واسم جده واصل توفى سنة (١٩٥هـ) ، راجع الميزان ، ولسان الميزان (٦/٣٨٨) ، والكامل لابن عدى (٧/١٥٧) .

أخبرنا أحمد بن مُحَمَّد العَتيقى ، قال : حدثنا يُوسُفُ بن أحْمَد ، قال : حدثنا محمَّد ابن عَمْرو العُقَيْلى ، قال : حدثنا مُحمَّد بن عِيسَى، قال : أخْبَرنا أحمد بن خالد الخَلال، قال : سمعت شُعَيْبَ بن حَرْب يقول : قلت ليُوسُف بن أسْبَاط : كيف صنعت بكتبك ؟ قال : جئت إلى الجزيرة ، فلما نَضَبَ[1] المَاءُ ، دفنتها ، حتى جاء الماء عليها فذهبت ، قلت : ما حملك على ذلك ؟ قال : أردت أن يكون الهمُّ هما واحدًا .

قال العقيلى : وحدثنى آدَمُ ، قال : سمعت البُخَارى قال: قال صدقة : دفن يُوسُفَ ابن أسْبَاط كتبه ، وكان بعْدُ يغلب عليه الوهم فلا يَجىء كما ينبغى .

وقال المؤلِّف : قلت : الظاهر أن هذه كُتُب علم ينفع ، ولكن قلة العلم أوْجَبت هذا التفريط الذى قصد به الخير وهو شر ، فلو كانت كتبه من جنس كتب الثورى ؛ فإن فيها عن ضُعَفَاءَ ولم يصحَّ له التمييز قرب الحال ، إنما تعليله بجمع الهَمِّ ، هو الدليل على أنها لَيْست كذلك ، فانظر إلى قلة العلم ، ماذا توثر مع أهل الخير ، ولقد بلغنا فى الحديث عن بعض من نُعَظِّمُه ، ونَزُوره : أنه كان على شاطئ دِجْلة ، فبال ثم تيمم، فقيل له : الماءُ قريب منك ، فقال : خفت ألا أبلغه ، وهذا وإن كان يدل على قِصَر الأمل ، إلا أن الفقهاء إذا سمعوا مثل هذا الحَديث تلاعبوا به ؛ من جهة أن التيمم إنما يصح عند عدم الماء ، فإذا كان الماء موجوداً كان تحريك اليدين بالتيمم عبثا وليس من ضرورى وجود الماء أن يكون إلى جانب المحْدِث ، بل لو كان على أذرع كثيرة ، كان موجودًا ، فلا فعل للتيمم ولا أثر حينئذ .

ومن تأمل هذه الأشياء ، علم أن فَقِيهًا واحدًا ، وإن قَل أتْباعه ، وخَفت إذَا مات أشياعه ، أفضل من ألوف تتمسح العوام بهم تَبَرُّكًا ، ويشيع جنائزهم ما لا يحصى ، وهل الناس إلا صاحب أثر نتبعه ، أو فقيه يفهم مُرَاد الشرع ويفتى به ؟ نعوذ بالله من الجهل ، وتعظيم الأسْلاف تقليدًا لهم بغير دَليل ، فإن من وَرَد المشْرَب الأوّل ، رأى سائر المشارب كَدرَةً ، والمحنة العظمى مدائح العَوَام ، فكم غَرَّت كما قال علىّ - رضى الله عنه : « مَا أَبْقَى خَفْقُ النعال وراء الحمقى ، من عُقُولهم شيئًا » .

ولقد رأينا وسمعنا من العَوَامّ ، أنهم يمدحون الشخص ، فيقولون : لا ينَام اللَّيْل ، ولا يفطر النهار ، ولا يعرف زَوْجة ، ولا يذُوق من شَهَوات الدُّنيا شيئًا ، قد نَحُل جِسْمُه، ودق عظمه ، حتى إنه يصلى قاعدًا ، فهو خَيْر من العلماء الذين يأكُلُون

---

(١) نضب الماء : أى غار وبعد فى الأرض كما فى القاموس .

ويتَمتَّعُون ، ذلك مبلغهم من العِلْم ، ولو فقهوا علموا أن الدنيا لو اجتمعت فى لُقْمة ، فتناولها عَالم يفتى عن الله ، ويخبر بشريعته ، كانت فتوى واحدة منه يُرْشِد بها إلى الله - تعالى - خيرًا ، وأفضل من عبادة ذلك العَابد باقى عُمُره .

وقد قال ابن عباس - رضى الله عنهما : « **فقيه واحد ، أشدُّ على إبليس من ألف عَابد** »[1].

ومن سمع هذا الكلام ، فلا يظنَّن أننى أمدح من لا يَعْمَل بعلمه ، وإنما أمدح العَاملين بالعلم ، وهم أعلم بمصالح أنْفُسِهم ، فقد كان فيهم من يصلح على خشن العيش ؛ كأحمد بن حنبل ، وكان فيهم من يستعمل رقيق العيش ؛ كسفيان الثورى مع ورعه ، ومالك مع تدينه ، والشافعى مع قوة فقهه ، ولا ينبغى أن يطالب الإنسان بما يقوى عليه غيره ، فيضعف هو عنه فإن الإنسان أعرف بصَلاح نفسه ، وقد قالت رابعة[2]: إن كان صلاح قلبك فى الفَالُوذج ، فكله . ولا تكونن أيها السامع ممن يرى صور الزهد ، فرب متنعم لا يريد التنعم ، وإنما يقصد المصْلَحة ، وليس كل بدن يقوى على الخشونة ؛ خصوصًا من قد لاقى فى الكَدِّ وأجهده الفكر ، أو مضَّهُ[3] الفقر ؛ فإنه إن لم يرفق بنفسه ، ترك واجبًا عليه من الرفق بها .

فهذه جملة لو شرَحتها بذكر الأخبار والمنقولات لطالت ، غير أنّى سطرتها على عجل حين جالت فى خَاطِرى، والله ولى النفع برحمته .

٢٠ - فصل : الحياة البرزخية

قد أشكل على النَّاس أمر النفس وماهيتها ، مع إجماعهم على وجودها ، ولا يضُرُّ الجهل بذاتها مع إثباتها ، ثم أشكَل عليهم مَصيرُها بعد الموت ، ومذْهب أهل الحقِّ أن لها وجودًا بعد موتها ، وأنها تنْعم وتُعَذَّب ، قال أحمد بن حنبل : أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الكفار فى النار ، وقد جاء فى أحاديث الشهداء : « **أنها فى حَواصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، تُعَلَّقُ مِنْ شَجَرِ الجَنَّة** »[4] .

---

(١) رواه الترمذى فى العلم (٢٦٨١) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجة فى المقدمة (٢٢٢) مرفوعاً ، والسيوطى فى الجامع الصغير (٥٨٩٦) وقال ضعيف .

(٢) هى أم عمرو رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية كانت مشهورة بالعبادة والزهد ، ومن أعيان عصرها ، توفت سنة (١٣٥هـ) .

(٣) أومضه : أوجعه .

(٤) مسلم فى الإمارة (١٨٨٧/١٢١) ، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠١١) ، وقال : حسن صحيح ، وأحمد (٦/٣٨٦) ، وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٠١) ، والدارمى فى الجهاد (٢٤١٠) .

وقد أخذ بعض الجهلة بظواهر أحاديث النعيم ، فقال : إن الموتى يأكلون فى القبور ، وينكحون ، والصَّواب من ذلك : أن النفس تخرج بعد الموت إلى نعيم أو عذاب ، وأنها تجد ذلك إلى يوم القيامة ، فإذا كانت القيامة ، أعيدت إلى الجسد ؛ ليتكامل لها التنعم بالوسائط ، وقوله : « فى حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ » دَليلٌ على أن النُّفُوس لا تنال لذة إلا بواسطة ، إلا أن تلك اللذة لذة مَطْعم أو مشرب ، فأمّا لذات المعارف والعُلُوم ، فيجوز أن تنالها بذاتها ، مع عدم الوَسَائط .

والمقصود من هذا المذكور : أنِّى رأيت بعض الانْزِعَاج من الموت ، وملاحظة النفس بعين العَدَم عنده ، فقلت لها : إن كنت مصدِّقَة للشريعة ، فقد أخبرت بما تَعْرِفين ، ولا وجه للإنكار ، وإن كان هناك ريب فى أخبار الشَّريعة ، صار الكلام فى بيان صحَّة الشريعة ، فقالت : لا رَيْبَ عندى ، قلت : فاجتَهدى فى تصحيح الإيمان ، وتحقيق التقوى ، وأبْشِرى حينئذ بالرَّاحة من ساعة الموت ؛ فإنى لا أخَافُ عليك إلا من التقصير فى العمل ، واعْلمى أن تفاوت النعيم بمقدار درجات الفضائل ، فارتَقِى بأجنحة الجَدِّ إلى أعلى أبراجها ، واحْذَرى من قَانِص هَوىً ، أو شَرَكِ غِرَّة [2] ، والله الموفق .

٢١ – فصل : شرف العلم وصعوبة التكاليف

قلت يومًا فى مجلسى : لو أن الجبال حَمَلَت ما حُمِّلْتُ لعجزت ، فلما عدت إلى منزلى ، قالت لى النفس : كيف قُلْتَ هذا ؟ وربما أوهم النَّاسُ أن بك بلاء ، وأنت فى عافية فى نفسك وأهلك ؟ وهل الذى حَمَلْت إلا التكليف الذى يحمله الخلق كلهم ؟ فما وَجْه هذه الشكوى .

فأجبتها : إنى لما عجزت عما حَمَلْت ، قلت هذه الكلمة لا على سبيل الشكوى ، ولكن للاستِرْوَاح ، وقد قال كَثِير من الصحابة والتابعين قَبْلى : ليتنا لَمْ نُخْلق ! وما ذاك إلا لأثقال عجزوا عنها ، ثم من ظن أن التكاليف سَهْلَةٌ ، فما عَرَفَها ، أترى يظن الظَّان أن التكاليف غَسْل الأعضاء برطل من المَاء ، أو الوقوف فى محْراب ، لأداء ركعتين ؟ هيهات ؟ هذا أسْهل التَّكْليف ، وإن التكليف هو الذى عجزت عنه الجبال [3] .

ومن جُمْلته: أننى إذا رأيت القَدَر يجرى بما لا يفهمه العقل ، ألْزَمْت العقل الإذْعَان

---

(١) هو الحديث السابق .

(٢) الشرك : ما ينصبه الصائد للصيد أى الفخ ، والغرة : الغفلة والانخداع كما فى اللسان .

(٣) مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ....** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

للمقدَّر ، فكان من أصعب التكليف ، وخصوصًا فيما لا يَعْلَمُ العقل معناه ؛ كإيلام الأطفال ، وذبح الحيوان ، مع الاعتقاد بأن المقدِّر لذلك والآمر به أرحم الراحمين ، فهذا مما يتحيَّر العقل فيه ، فيكون تكليف التَّسْليم ، وترك الاعتراض ، فكم بين تكليف البدن وتكليف العقل ! ولو شرَحْت هذا لطال ، غير أنى أعتذر عما قلته ، فأقول عن نفسى ، وما يلزَمنى حال غيرى : أنى رجل حُبِّبَ إلىَّ العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبب إلىّ فن واحد منه ، بل فنونه كلها ، ثم لا تقتصر همتى فى فنٍّ على بعضه ، بل أروم [1] استقْصاءه ، والزمان لا يسع ، والعمر أضيق ، والشوق يقوى ، والعَجْز يظهر ، فيبقى وقُوف بعض المطلوبات حَسَرَات ، ثم إن العلم دلَّنى على معرفة المعبود ، وحثَّنى على خدمته ، ثم صاحت بى الأدلَّة عليه إليه ، فوقفت بين يديه ، فرأيته فى نعْتِه ، وعرفته بصفاته ، وعايَنَتْ بصيرتى من ألطَافه ما دعانى إلى الهيمان [2] فى محبته، وحركنى إلى التخلى لخدمته ، وصار يملكنى أمر كالوجْد كلما ذكرته ، فعادت خلوتى فى خدمتى له ، أحلى عنْدى من كل حلاوة ، فكلما ملت إلى الانقطاع عن الشواغل إلى الخَلْوة ، صار بى العلم : أين تمضى ؟ أتُعْرِض عنى وأنا سبب معرفتك ؟ فأقول له : إنما كنت دليلاً ، وبعد الوصول يُسْتَغْنَى عن الدليل ، قال : هيهات ! كلما زدت ، زادت معرفتك بمحْبُوبك ، وفهمْتَ كيف القرب منه ، ودليل هذا أنك تعلم غدًا أنك اليوم فى نُقْصَان ، أو ما سمعته يقول لنبيه ﷺ : **﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾** [3] ثم ألست تبغى القُرْب منه ، فاشتغل بدلالة عِبَاده عليه ، فهى حالاتَ الأنْبِيَاء – عليهم الصلاة والسلام – ، أما علمت أنهم آثروا تعليم الخَلْق ، على خلوات التعبد ؛ لعلمهم أن ذلك آثر عند حَبِيبِهم ؟ أما قال الرَّسُول – ﷺ – لعلىّ – رضى الله عنه – : **« لأنْ يَهْدِي اللهُ بكَ رَجُلاً ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَم »** [4] ؟ فلما فهمت صدق هذه المقالة تهوَّسْت[5] على تلك الحَالَة ، وكلما تشاغلت بجمع الناس ، تفرق همى ، وإذا وجدت مرادى من نفعهم ، ضعفت أنا ، فأبقى فى حيز التحير متردِّدًا ، لا أدرى على أى القدمين أعتمد ، فإذا وقفت متحيرًا ، صاح العلم : قم لكسب العِيَال ، وادأب فى تحصيل ولد يَذْكر الله ، فإذا شرعت فى ذلك ، قَلَصَ [6] ضَرْع الدنيا وقت الحلب ،

---

(١) الروم : الطلب ، ورمرم : لبث وجعل يطلب الشىء كما فى القاموس .

(٢) الهيمان : شدة الوجد والتعلق . (٣) سورة طه ، آية : ١١٤ .

(٤) رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٤٢ ، ٣٠٠٩)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٠٦/ ٣٤) .

(٥) تهوست والهوس طرف من الجنون .

(٦) قلص : أى ارتفع عن ضرع الدنيا ، وهو كناية عن إعراضه عنها .

ورأيت باب المَعَاش مسدودًا فى وجهى ؛ لأنَّ صناعة العلم شغلتنى عن تعلم صناعة ، فإذا التفت إلى أبناء الدنيا ، رأيتهم لا يبيعون شيئًا من سِلَعِهَا إلا بدين المشترى ، وليت من نافقهم أو راءاهم نال من دنياهم ، بل ربما ذَهَب دينه ولم يحصل مراده ، فإن قال الضَّجرُ [1] : اهرب ، قال الشرع : « **كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت** » [2] .

وإن قال العزم : انفَرِدْ ، قال : فكيف بمن تَعُول ؛ فغاية الأمر أننى أشرع فى التقلل من الدنيا، وقد رُبِّيتُ فى نعيمها ، وغُذِّيت بلِبَانها ، ولَطُف مزَاجى فوق لطف وضعه بالعادة، فإذا غيرت لباسى وَخَشَّنْت مطعمى ؛ لأن القوت لا يحتمل الانبسَاط ، نفر الطبع لفراق العَادَة ، فحلَّ المرض فقُطِع عن واجبات ، وأُوقع فى آفات ، ومعلوم أنَّ لين اللقمة بعد التحصيل من الوجُوه المستطابة ، ثم تخشينها لمن لم يألف ، سَعْىٌ فى تلف النفس ، فأقول : كيف أصْنع وما الذى أفعل ؟ وَأخْلو بنفسى فى خلواتى ، وأتزيَّد من البكاء على نَقْص حالاتى .

وأقول : أصِف حال العلماء ، وجسمى يضعف عن إعادة العلم ، وحال الزهاد ، وبدنى لا يقوى على الزهد ، وحال المحبِّين ، ومخالطة الخلق تشتت همي ، وتنقش صور المحبوبات من الهوى فى نفسى ، فتصْدَا مرآة قلبى ، وشجرة المحبة تحتاج إلى تربية فى تربة طيبة ، لتُسْقى ماء الخلوة من دُولاب الفكرة ، وإن آثرت التكسب ، لم أطِقْ ، وإن تعرضت لأبناء الدنيا مع أن طبعىَ الأنفة من الذُّلِّ، وتدينى يمنَعُنى ، فلا يبقى للميل مع هذين الجاذبين أثر ، ومخالطة الخلق تؤذى النفس مع الأنفَاس ، ولا تحقيق التوبة أقْدرُ عليه ، ولا نَيْل مرتبة من علم أو عمل أو محبة يَصِحُّ لى . فإذًا رأيتُنى كما قال القائل :

أَلْقَاهُ فِى الْمَاء مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ	إِيَّــــاكَ إِيَّــاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاء

تحيرت فى أمرى ، وبَكَيْت على عمرى ، وأنادى فى فلوات [3] خَلَوَاتى ، بما سمعتهُ من بعض العَوَام ؛ وكأنه وَصَف حالى :

وَاحَسْـــرَتِى كَـــمْ أُدَارِى فِيكَ تعثيرى	مِثْلَ الأَسِيرِ بِلا حَــبَلَ وَلا سِيـــرِى
مَا حِيلَتِى فِى الْهَوَى قَدْ ضَاعَ تَدْبيرِى	لَمَّـــا شَكَلْتَ جَنَاحِى قُلْتَ لِى طِيرِي

---

(١) الضجر : القلق من الغم

(٢) النسائى فى الكبرى (٩١٧٧) ، والعراقى فى تخريج الإحياء (٢/ ٤٩) ، ورواه بلفظ « يعول » بدلا من « يقوت » أبو داود فى الزكاة (١٩٦٢) ، وروى مسلم بنحوه فى الزكاة (٩٩٦/ ٤٠)

(٣) فلوات : جمع فلاة وهى الصحراء

٢٢ - فصل : كيفية إصلاح القلب

تأملت أمْر الدنيا والآخرة ، فَوَجَدْتُ حوادث الدنيا حِسِّيَّة طبعية ، وحوادث الآخرة إيمانية يقينية ، والحسيات أقوى جَذْبًا لمن لم يَقْوَ علمه ويقينه ، والحوادث إنَّما تبقى بكثرة أسبابها ؛ فمخالطة الناس ، ورؤية المستَحْسَنات ، والتعرض بالملذُوذَات ، يُقَوِّى حوادث الحس والعزلة والفكر ، والنظر فى العلم يُقَوِّى حوادث الآخرة . ويبين هذا بأن الإنسان إذا خرج يَمْشى فى الأسواق ، ويبصر زينة الدنيا ، ثم دخل إلى المقابر ، فتفكر ورق قلبه ؛ فإنه يحس بين الحالَتَيْن فرقًا بيِّنًا ، وسبب ذلك التعرض بأسباب الحَوَادث .

فعليك بالعُزْلَة والذكر والنظر فى العلم ، فإن العزلة حِمْيَة ، والفكر والعلم أدوية ، والدواء مع التخليط لا يَنْفَع ، وقد تمكنت من أخلاط المخالطة للخَلْق ، والتخليط فى الأفعال ، فليس لك دواءٌ إلا ما وصفت لك ، فأما إذا خالطت الخلق وتعرضت للشَّهَوات ، ثم رمت صَلاح القلب ، رمت الممْتَنع .

٢٣ - فصل : حرص النفس

تأملت حرْص النفس على ما منعت منه ، فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المَنْع ، ورأيت فى الشرب الأوّل [(١)] أن آدمَ عليه السلام لما نُهِيَ عن الشجرة ، حَرَصَ عليها مع كثرة الأشجار المُغْنِيَة عنها .

وفى الأمثال : المرءُ حريص على ما مُنِع ، وتوَّاق إلى ما لم يَنَلْ ، ويقال : لو أُمر الناس بالجُوع لصبروا ، ولو نُهُوا عن تفتيت البَعْر لرغبوا فيه، وقالوا ما نُهِينَا عنه إلا لشيء ، وقد قيل :

* أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الإِنْسَانِ مَا مُنِعَا *

فلما بحثْت عن سبب ذلك وجدت سببين :

أحدهما : أنَّ النفس لا تصبر على الحَصْرِ ؛ فإنه يكفى حَصرها فى صورة البدن ، فإذا حصرت فى المعنى بمنع ، زاد طيشها ، ولهذا لو قَعَد الإنْسَان فى بيته شهرًا ، لم يَصْعُب عليه ، ولو قيل له : لا تخرُج من بيتك يَوْمًا ، طال عليه .

والثانى : أنها يشق عليها الدُّخُول تحت حكْم ، ولهذا تستَلذُّ الحرام ، ولا تكاد تستَطِيب المباح ، ولذلك يَسْهل عليها التعبُّد على ما ترى وتؤثره ، لا على ما يُؤْثَر .

---

(١) يقصد المصنف بذلك : الصدر الأول من المؤمنين وهذه الكلمة تتكرر كثيراً فى هذا الكتاب .

٢٤ - فصل : من أفضل العبادات تعليم الناس

ما زالت نفسى تُنَازِعُنى بما يوجبه مجلس الوَعْظ ، وتوبة التَائبين ، ورؤيَة الزاهدين - إلى الزهد ، والانْقطَاع عن الخلق ، والانفراد بالآخرة ، فتأمّلت ذلك فوجَدْت عمومه من الشَّيْطَان ؛ فإن الشيطان يرى أنَّه لا يخلو لى مجلس من خَلْق لا يحصون ، يَبْكُون ويندبون على ذنوبهم ، ويَقُوم فى الغالب جَمَاعَة يتوبون ، ويقطعون شُعُور الصبًا ، وربما اتفق خمسين ومائة ، ولقد تاب عندى فى بعض الأيّام أكثر من مائة ، وعمومهم صبيّان قد نشأوا على اللَّعب ، والانهماك فى المعاصى ، فكأن الشيطان لبعد غوْره [١] فى الشر ، رآنى أجْتَذب إلى من أجتذب منه ، فأراد أن يشغلنى عن ذلك بما يزخرفه ، ليخلو هو بمن أجتذبهم من يده ، ولقد حَسَّن إلَىَّ الانقطاع عن المجالس ، وقال : لا يخلُو من تصنُّع للخَلْق ، فقلت : أمّا زخرفة الألْفاظ وتزويقها ، وإخْرَاج المعنى من مُستَحْسَن العبارة ، ففضيلة لا رَذيلة : وأما أن أقصد الناس بما لا يجُوز فى الشَّرْع ، فمعاذ الله ، ثم رأيته يُرينى فى التزهد قطع أسباب ، ظاهرة الإبَاحَة من الاكتساب ، فقلت له : فإن طاب لى الزهد ، وتمكنت من العُزْلة ، فنفذ ما بيدى أو أحْتَاج بعض عائلتى ، ألَسْت أعود القهْقرى ؟ فدعنى أجمع ما يسد خَلَّتى ، ويصوننى عن مسألة الناس ، فإن مُدَّ عمرى، كان نعم السبب ، وإلا كان للعائلة ، ولا أكون كراكب أرَاق مَاءَهُ ؛ لرؤية سراب ، فلما ندم وقت الفوات لم ينْتَفع بالندم ، وإنَّما الصواب تَوْطئَة المضْجع قبل النَّوم، وجمع المال الساد للخَلَّة قبل الكبر ، أخْذًا بالحزم ، وقد قال الرسول ﷺ : **« لأَنْ تَتْرُكْ وَرَثَتَكَ أَغْنيَاءَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ »** [٢] ، وقال : **« نعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ ، للرَّجُلِ الصَّالِحِ »** [٣] .

وأما الانقطاع فينبغى أن تكون العُزْلة عن الشر لا عن الخَيْر ، والعزلة عن الشَّرّ واجبة على كل حَال ، وأما تعليم الطَّالبين وهداية المريدين؛ فإنَّه عبادة العَالم ، وإن من تفضيل بعض العلماءَ إيثَارُه للتَّنَفُّل بالصَّلاة والصوم، عن تصنيف كتَاب ، أو تعليم علْم ينفع ؛ لأن ذلك بَذْرٌ يكثر ريعُهُ ، ويمتد زَمَانَ نَفْعه ، وإنَّمَا تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذَلكَ لمعنيين :

أحدهما : حُبُّ البطَّالة ؛ لأن الانقطاع عندها أسْهَل .

---

(١) بعد غورة : شدة تعمقه .

(٢) البخارى فى الجنائز (١٢٩٥) وفى النفقات (٥٣٥٤) ، ومسلم فى الوصية (١٦٢٨/٥) .

(٣) أحمد (١٩٧/٤) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٣٠٢) ، وصححه ابن حبان (٣٢٠٦) .

والثانى : حب المدحة ؛ فإنها إذا توسمت بالزُّهْد ، كان ميل العوام إليها أكثر ، فعليك بالنَّظر فى الشرب الأول ، فكن مع الشرب المقدَّم . وهم الرسول - ﷺ - وأصحابه - رضى الله تعالى عنهم - .

فهل نُقِل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة ؛ من الانقطاع عن العِلْم والانفراد عن الخلق ، وهل كان شُغْل الأنبياء إلا معانات الخلق ؟ وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر ، إلا أن يَنْقَطع من ليس بعالم بقصد الكفَّ عن الشر ، فذاك فى مرتبة المحتمى يخاف شر التَّخْليط ، فأما الطَّبِيبُ العالم بما يتناول ؛ فإنَّه ينتفع بما يَنَالُه .

٢٥ - فصل : مراد العلم هو العمل

تأملتُ المراد من الخلق ، فإذا هو الذُّل واعتقاد التقصير والعجز ، ومثَّلْتُ العلماء والزهاد العاملين صِنْفَيْن ، فأقمت فى صفٍّ العلماء مالكًا ، وسفيان ، وأبا حنيفة ، والشافعى ، وأحمد ، وفى صفٍّ العُبَّاد مالك بن دينار ورابعة ومعروف الكرخى وبشر ابن الحارث [(١)] . فكلما جد العُبَّاد فى العبادة ، وصاح بهم لسان الحَال : عِبَادَاتكم لا يتعدَّاكم نفعها ، وإنما يتعدى نفع العُلَمَاء وهم وَرَثَةَ الأنبياء [(٢)] ، وخلفاء الله فى الأرْض، وهم الذين عليهم المُعَوَّل ، ولهم الفَضْل ، إذا أطرقوا وانكَسَرُوا ، وعلموا صدق تلك الحَال ، وجاء مَالك بن دينار إلى الحَسَن يتعلم منه ويقول : الحَسَنُ أُسْتَاذنا ، وإذَا رأى العُلَمَاء لهم بالعلم فضلاً ، صاح لسان الحال بالعلماء : وهل المراد من العلم إلا العمل .

وقال أحمد بن حنبل : وهل يراد بالعلم إلا لما وصل إليه معروف [(٣)] ؟ وصح عن سُفْيَان الثَّوْرى قال : وَدِدْتُ أن يدى قطعت ولم أكتب الحديث ، وقالت أُم الدَّرْدَاء لرجل : هل عملت بما علمت ؟ قال : لا ، قالت : فَلِمَ تستكثر من حُجَّة الله عليك ؟ وقال أبُو الدَّرْدَاء : ويل لمن لَمْ يعلمْ ولم يعمل مرة ، وويل لمن عَلِمَ ولم يعمل سبعين مَرَّة ، وقال الفضيل : يُغْفَر للجاهل سَبْعون ذنبًا ، قبل أن يُغْفَر للعالم ذَنْب واحد ،

---

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء المروزي ، ثم البغدادى المشهور بالحافى ، توفى سنة (٢٢٧هـ) ، وقال الشعرانى : أبو نصر بشر الحافى أصله من مرو .

(٢) البخارى تعليقا فى العلم - باب (١٠) ، وأحمد (٥/١٩٦) ، والترمذى فى العلم (٢٦٨٢) ، وأبو داود فى العلم (٣٦٤١) ، وابن ماجة فى المقدمة (٢٢٣) ، والدارمى فى المقدمة (٣٤٢) ، وصححه ابن حبان (٨٨) .

(٣) أى : معروف الكرخى ، توفى سنة (٢٠٠هـ) ، ودفن ببغداد .

فما يبلغ من الكل قوله - تعالى -: ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[1]، وجاء سفيان إلى رابعة ، فجلس بين يديها ينتفع بكلامها ، فدل العُلَماءَ العلمُ على أن المقْصود منه العمل به ، وأنه آلة ، فانكسروا واعترفوا بالتقصير ، فحصل الكُلُّ على الاعتراف والذُّل ، فاستَخْرَجت المعرفة منهم حقيقة العبودية باعْتَرَافهم ؛ فذلك هو المقْصُود من التَّكْليف .

٢٦ - فصل : محبة الله

تأملت قوله تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [2] ، فإذا النفس تأبى إثبات محبة للخالق توجب قَلَقًا ، وقالت : محبته طاعته ، فتدبرت ذلك فإذا بها قد جَهِلَتْ ذلك لغلبة الحس؛ وبيان هذا : أن محبة الحس لا تتعدى الصور الذاتية ، ومحبة العلم والعمل ترى الصور المعنوية فتحبها ؛ فإنا نرى خلقًا يحبُّون أبا بكر - رضى الله عنه - وخلْقًا يحبون عليا بن أبى طالب - رضى الله عنه - وقومًا يتعصبون لأحمد بن حنبل ، وقومًا للأشعرى[3] فيقْتَتِلُون ويبذلون النفوس فى ذلك ، وليْسُوا ممن رأى صور القوم ، ولا صور القوم توجبُ المحبَّة ، ولكن لما تصوَّرَتْ لهم المعانى فدلتهم على كمال القوم فى العلوم ، وقع الْحُبُّ لتلك الصور التى شُوهِدَت بأعين البصائر ، فكيف بمن صنع تلك الصور المعنوية وبذلها ، وكيف لا أحبُّ من وهب لى مَلْذُوذات حِسِّى ، وعرَّفنى ملْذُوذَات علمى ، فإن التَّلَذّذ بالعلم وإدراك العلوم أوْلى من جميع اللَّذَّات الحسية ، فهو الذى علَّمنى ، وخلق لى إدراكًا ، وهَدَانى إلى ما أدركتُه .

ثم إنه يتجلَّى لى فى كل لحظة فى مَخْلُوق جديد ، أراه فيه بإتقان ذلك الصنع وحُسْن ذلك المصنوع ، فكلُّ محبُوباتى منه وعنه وبه ، الحسية والمعنوية ، وتسْهيل سبل الإدراك به والمدركات منه ، وألذّ من كل لذَّة عرفانى له ، فلولا تعليمه ما عرفته ، وكيف لا أحبُّ من أنَا به، وبقائى منه ، وتدبيرى بيده ؟ ورُجوعى إليه ، وكل مستَحسَن محبوب هو صَنْعَه وحَسَّنَه وزيَّنه وعطف النفوس إليه ؛ فكذلك الكامل القدرة أحْسَن من المقدُور ، والعجيب الصَّنْعَة أكمل من المصْنُوع ، ومعنى الإدراك أحلى عرفانا من المدرك .

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٩ . (٢) سورة المائدة ، آية : ٥٤ .

(٣) هو أبو الحسن على بن إسماعيل بن أبى بشر إسحاق بن سالم الأشعرى البصرى المولد البغدادى المنشأ والدار ، ولد سنة (٢٦٠هـ) ، وقال بعضهم : ولد سنة (٢٧٠هـ) ، أخذ الحديث عن زكريا الساجى والفقه من ابن سريج ، وقال ابن حزم أن له (٥٥) مصنف ، توفى سنة (٣٢٤هـ) ، وقيل: سنة (٣٣٠هـ) ، وغيره .

ولو أننا رأينا نقشاً عجيباً لاستغرقنا تعظيم النَّقَّاش وتهويل شأنه ، وظريف حكْمته عن حبِّ المنْقُوش ، وهذا مما تترقى إليه الأفكار الصافية ، إذا خَرَقَ نظرها الحسِّيَات ، ونفذ إلى ما ورائها ، فحينئذ تقع محبة الخالق ضرورة ، وعلى قدر رؤية الصانع فى المصنوع يَقَع الحب له ، فإن قوى أوجب قلقًا وشوقًا ، وإن مال بالعارف إلى مقام الهَيْبَة ، أوجب خَوفًا ، وإن انحرف به إلى تلمح الكرم ، أوجب رجاءً قويًا ، و﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ [1] .

٢٧ - فصل : التسليم لحكم الله

تأملت حالاً عجيبة ، وهى أن الله - سبحانه وتعالى - قد بنى هذه الأجسام متقنةً على قانون الحكمة ؛ فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته ، ولطيف حكمته ، ثم عاد فَنَقَضَهَا ، فتحيرت العقول بعد إذْعَانها له بالحكمة فى سرِّ ذلك الفعل ، فأُعلمت أنها ستُعَاد للمَعَاد ، وأن هذه البنية لم تخلق إلا لتجُوزَ فى مَجاز المعرفة ، وتتَّجر فى موسم المعاملة ، فسكنت العُقُول لذلك ، ثم رأيت أشْياء من هذا الجنس أظْرَفَ منه ، مثل اخترام شاب ما بلغ بعض المقصود بنيانه ، وأعجب من ذلك أخْذ طفل من أكُفِّ أبويه يتململان ، ولا يظهر سر سَلْبه والله الغنى عن أخذه ، وهما أشَدُّ الخلق فقرًا إلى بقائه ، وأظرف منه إبقاء هَرِم لا يدرى معنى البقاء ، وليس له فيه إلا مجرد أذى . ومن هذا الجنس تقتير الرزق على المؤمن الحكيم ، وتوسعتُه على الكافر الأحمق ، وفى نظائر لهذه المذكورات يتحير العقل فى تعْليلها ، فيبقى مبهوتًا ، فلَمْ أزل أتلمح جملة التكاليف ، فإذا عجزت قُوَى العقل عن الاطلاع على حكمة ذلك ، وقد ثبت لها حكْمة الفاعل ، علمت قصورها عن دَرْك جميع المطلوب ، فأذعنت مُقِرَّة بالعجز ، وبذلك يؤدى مفروض تكْليفها ، فلو قيل للعقل : قد ثَبَت عندك حكمة الخالق بما بنى ، أفيَجُوز أن ينقدح فى حكمته أنه نقض ؟ لقال : لأنى عرفت بالبرهان أنه حكيم ، وأنا أعجز عن إدراك علله ، فأُسْلم على رغمى مُقرا بعجزى .

٢٨ - فصل : فوائد النكاح

تأمّلت فى فوائد النكاح ، ومعانيه ، وموضوعه ، فرأيت أن الأصل الأكبر فى وضعه وُجُود النسل ؛ لأن هذا الحيوان لا يزال يتحَلَّل ثم يخلف المتحلل الغذاء ، ثم يتحلل من الأجزاء الأصْلية ما لا يَخْلُفه شىء ، فإذا لم يكن بُد من فنائه - وكان المراد امتداد أزمان الدنيا - جُعِل النسل خلَفًا عن الأصل ، فلما كانت صورة النكاح تأباها النفوس الشريفة

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٦٠ .

من كَشْفِ العورة ، ومُلاقَاة ما لا يستحسن لنفسه ، جعلت الشهوة تَحُثُّ عليه ليحصل المقصود ، ثم رأيت هذا المقصود الأصلى يتبعه شىء آخر ، وهو استِفْرَاغ هذا الماء الذى يُؤْذِى دوام احتقانه ؛ فإن الْمَنِىَّ ينفصل من الهضم الرابع ، فهو من أصفى جوهر الغذاء، وأجوده ، ثم يجتمع . فهو أحد الذخائر للنفس ؛ فإنها تدخر لبقائها وقُوتها الدَّم، ثم الْمَنِىُّ ، ثم تدخر التفل الذى هو من أعمدة البدن ، كأنه لخوْف عَدَم غيره، فإذا زاد اجتماع المَنِىِّ ، أقلق على نحو إقلاق البول للحاقن ، إلا أن إقلاقه من حيث المعْنَى أكثر من إقلاق البول من حيث الصُّورة ، فتوجب كثرةُ اجتماعه وطولُ احتباسه ، أمراضًا صعبة ؛ لأنه يترقَّى من بخاره إلى الدماغ فيؤذى – وربما أحدث سُمِّيَّة – ومتى كان المزاج سليمًا، فالطبع يطلب بروز المَنِىِّ إذا اجتمع ؛ كما يطلب بروز البول ، وقد ينْحَرِف بعض الأمزجة فيقل اجتماعه عنده ، فيندر طلبه لإخراجه ، وإنما نتكلم عن المزاج الصحيح ، فأقول : قد بينت أنه إذا وقع به احتباسه أوجب أمراضًا وجدَّد أفكارًا رديئة، وجلب العِشْقَ والوسوسة إلى غير ذلك من الآفات .

وقد نجد صحيح المزاج يخرج ذلك إذا اجتمع وهو بعد مُتَقَلْقِل ، فكأنه الآكل الذى لا يشبع ، فبحثت عن ذلك فرأيته وقوع الخلل فى المَنْكُوح : إما لدمامته وقبح منظره ، أو لآفة فيه ؛ أو لأنه غير مطلوب للنَّفْس ، فحينئذ يخرج منه ويَبْقى بعضه ، فإذا أردتَ معرفة ما يدلك على ذلك ، فَقِسْ مقدار خروجَ المَنِىِّ فى المحلِّ المشْتَهى . وفى المحلِّ الذى هو دونه ، كالوَطْء بين الفخذين بالإضافة إلى الوَطْء فى محلِّ النكاح ، وكوَطْء البكر بالإضافة إلى وطء الثَّيِّب ، فعلم حينئذ أن تخير المَنْكوح يستقصى فضول المَنِىِّ ، فيحصل للنفس كمال اللَّذة ؛ لموضع كمال بروز الفضول ، ثم قد يؤثِّر هذا فى الولد أيضًا؛ فإنه إذا كان من شَابَّيْن قد حبسا أنفسهما عن النكاح مدة مديدة ، كان الولد أقوى منه من غيرهما ، أو من المدْمِن على النِّكاح فى الأغْلب ؛ ولهذا كره نكاح الأقارب ؛ لأنه مما يقبض النفس عن انْبِسَاطها ، فيتخيل الإنسان أنه ينكح بعْضه ، ومدح نكاح الغَرَائب لهذا المعنى ، ومن هذا الفن يَحْصل كثير من المقصود ، من دفع هذه الفُضُول المؤذية بمنكوح مسْتَجَدٍّ ؛ وإن كان مستقبح الصُّورة ما لا يحصل به فى العَادة ، ومثال هذا: أن الطاعم إذا امتلأ خبزا ولحمًا ، حيث لم يبق فيه فَضْلٌ لتناول لُقْمة إذا قدِّمت إليه الحلوى فيتناول ، فلو قدِّم أعجب منها لتناول؛ لأن الجِدَّة لها معنى عجيب ، وذلك أن النفس لا تميل إلى ما أَلِفَت ، وتطلب غير ما عرفت، ويتخايل لها فى الجديد نوع

مراد، فإذا لم تجد مرادها ، صدفت [(١)] إلى جديد آخر ، فكأنها قد علمت وجود غَرَض تام بلا كَدَر ، وهي تتخايله فيما تراه ، وفى هذا المعنَى دليل مدْفُون على البعث ؛ لأن فى خلق همته متعلِّقة بلا متعلَّق نوع عبث ، فافهم هذا ، فإذا رأت النفس عيوب ما خالطَتْ فى الدنيا عادت تطلب جديدًا ؛ ولذلك قال الحكماء : العشْق العمى عن عيوب المحبوب ، فمن تأمل عيوبه سَلا ، ولذلك يستحَبُّ للمرأة أن لا تَبعد عن زوجها بعدًا تُنْسيه إياها ، ولا تقرب منه قُرْبًا يملّها ، وكذلك يستحب ذلك له ، لئلا يملها أو يظهر لديه مكْنُونات عيُوبها ، وينبغى له ألا يطَّلع منها على عورة، ويجتهد فى ألا يشم منها إلا طيب ريح ، إلى غير ذلك من الخصال التى تستعملها النساء الحكيمات ؛ فإنهن يعلمن ذلك بفطَرهنّ من غير احتياج إلى تعليم ، فأما الجاهلات فإنهن لا يَنْظُرن فى هذا فيتعجل التِفَات الأزواج عنهن ، فمن أراد نجابة الولد وقضاء الوطر ، فليتخير المنكوح إن كان زوجَة ، فلينظر إليها ، فإذا وقعت فى نفسه ، فليتزوجها ، ولينظر فى كَيْفية وقوعها فى نَفْسه . فإن علامة تعلّق حبها بالقلب ألا يُصْرَف الطرف عنه، فإذا انصرف الطرف ، قلق القلب بتقَاضى النَّظرة ، فهذا الغَاية .

ودونه مراتب على مقاديرها يكون بلوغ الأغراض ، وإن كان جارية تُشْتَرى ، فلينظر إليها أبلغ من ذلك النَّظر ، ومن قدر على مُنَاطَقة المرأة أو مكالمتها بما يوجب التنبيه ، ثم ليرى ذلك منها فإن الحُسْن فى الفم والعينين ، وقد نص أحمد على جواز أن يبصر الرجل من المرأة التى يريد نكاحها ما هو عَورة ، يشير إلى ما يزيد على الوجه ، ومن أمكنه أن يؤخر العقد أو شراء الجارية ؛ لينظر كيف توقان قلبه ، فإنه لا يخفى على العاقل توقان النَّفس لأجل المستجَدِّ ، وتوقانها لأجل الحب ، فإذا رأى قلق الحب أقدم ؛ فإنه قد أخبرنا محمدٌ بن عبد الباقى ، قال : أخبرنا أحمد بن أحمد ، قال : أخبرنا أبو نعيم ، قال : حدثنا سليمان بن أحمد ، قال : حدثنا عبد الجبار بن أبى عامر ، قال : حدثنى أَبىّ قال : حدثنى خالد بن سلام ، قال : حدثنا عطاء الخراسانى ، قال : مكتوب فى التَّوراة ؛ كل تزويج على غير هوًى حسرة وندامة إلى يوم القيامة .

ثم ينبغى للمتُخيِّر أن يتفرس فى الأخلاق ؛ فإنها من الخفىِّ وإن الصورة إذا خلت من المَعْنى ، كانت كخَضْرَاء الدِّمَن [(٢)] ، فإن نجابة الولد مقصودة ، وفراغ النفس من الاهتمام بما حصلت من رغبات أصل عظيم ، يوجب إقبال القلب على المهمَّات ، ومن فَرَغ من

---

(١) صدفت : أعرضت

(٢) خضراء الدمن : وهى المرأة الحسناء في المنبت السوء كما فى الحديث الذي رواه الدارقطنى فى الأفراد ، والرامهرمزى فى الأمثال كما فى تخريج الإحياء (٢/ ٦٠) للعراقى وقال ضعيف .

المهمَّات العارضة ، أقبل على المهمات الأصلية ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « لا يَقْضى القَاضى بين اثْنَيْن وَهُوَ غَضْبَانٌ » [1] ، و« إذَا وُضعَ العَشَاءُ وَحَضَرَت العشَاءُ فَابدءُوا بالعَشَاء» [2] ، فمن قدر على امرأة صالحة فى الصّورة والمعنى ، فليغمض عن عَوَرَاتها[3]، ولتجتهد هى فى مَرَاضيه من غير قُرْب يُملّ ، ولا بعد يُنْسى ؛ ولتقدم على التصنع له يحصل الغرضان منها ، الولد وقضاء الوَطَر ، ومع الاحْتراز الذى أوْصَيْت به ، تدوم الصحبة ويحصل الغَنَاء بها عن غَيْرها ، فإذا قدر على الاسْتكْثَار فأضَاف إليها سواها، عالمًا أنه بذلك يبلُغ الغرَضَ الذى يفرغ قلبه زيَادة تفْريغ ، كان أفضل لحاله ، فإن خاف من وجوه الغيرَة ما يَشْغَل القلب الذى قد اهتَمَمْنا بجمع همته ، أو خاف وجود مستحْسَنَة تشغل قَلْبَه عن ذكر الآخرة ، أو تطلب منه ما يوجب خُروجه عن الورع فحسبه واحدة .

ويدخل فيما أوصيت به أنه يبعد فى المسْتَحْسَنات العفَاف ، فليبالغ الواجد لهن فى حفْظهن وسَتْرهن ، فإن وجد ما لا يرضيه ، عجل الاستبدال ، فإنه سبب السَّلْو ، فإن قدر على الاقتصار ، فإن الاقتصار على الواحدة أوْلى ، فإن كانت على الغرض قَنَع ، وإن لم تكن استبدل، ونكاح المرأة المحْبُوبة يستفرغ الماء المجْتَمع ، فيوجب نجابة الولد وتمامه ، وقضاء الوطر بكَمَاله ، ومن خاف وجود الغيرَة ، فعليه بالسَّرَارى فإنهن أقلّ غيرة ، والاستظرَاف لهن أمكن من استظراف الزَّوْجات ، وقد كان جماعة يمكنهم الجمْع وكان النساء يصبرن ؛ فكان لداوُد - عليه الصلاة والسلام - مائَةُ امْرَأة ، ولسليمان - عليه الصلاة والسلام - ألف امرأة ، وقد عُلمَ حال نبينا - ﷺ - وأصحابه ، وقد كان لأمير المؤمنين علىّ - رضى الله عنه - أربعَ حرائر ، وسبع عشرة سَرِيَّة ، وتزوَّج ابنه الحسن - رضى الله عنه - بنحو من أربعمائة إلى غير هذا مما يطول ذكره ، فافهم ما أشرت إليه ، تفز به إن شاء الله تعالى .

٢٩ - فصل : حلاوة الطاعة وذل المعصية

كل شىء خَلَق الله - تعالى - فى الدنيا ، فهو أُنموذج فى الآخرة ، وكلُّ شىء

---

(١) رواه البخارى فى الأحكام (٢٥٧١) ، ومسلم فى الأقضية (١٧١٧/ ١٦) ، والترمذى فى الأحكام (١٣٣٤) ، وقال : حسن صحيح . وأبو داود فى الأقضية (٣٥٨٩) ، وابن ماجة فى الأحكام (٢٣١٦)، واللفظ له .

(٢) البخارى فى الأطعمة (٥٤٦٣)، ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٥٧/ ٦٤) ، (٥٥٨/ ٦٥)، (٥٥٩/ ٦٦) .

(٣) أى : لا يشغل نفسه بالبحث عن عيوبها .

يجرى فيها أُنْمُوذج ما يجرى فى الآخرَة ، فأمّا المخلوق منها فقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : ليس فى الجنَّة شيء يشبه ما فى الدنيا إلا الأسْماء ؛ وهذا لأن الله - تعالى - شوَّق بنعيم إلى نعيم ، وخوَّف بعذاب من عذاب ، فأمَّا ما يجرى فى الدنيا ، فكلُّ ظالم معاقَبٌ فى العاجل على ظلمه قبل الآجل ، وكذلك كل مذنب ذنبًا ، وهو معنى قوله - تعالى-: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [1] . وربما رأى العاصى سلامة بَدَنه وماله ، فظَنَّ أنْ لا عقوبَة ، وغفلته عما عُوقِبَ به عقوبة ، وقد قال الحكماء : المعْصية بعد المعصية عقاب المعْصية ، والحَسَنة بعد الحَسَنَة ثواب الحَسَنَة ، وربّما كان العقاب العاجل معْنَويا كما قال بعض أحبار بنى إسرائيل : يا رب كم أعصيك ولا تعاقبنى ؟ فقيل له : كم أعاقبك وأنت لا تدرى ، أليس قد حرمتك حلاوَة مُنَاجَاتى .

فمن تأمل هذا الجنس من المعَاقَبة ، وجده بالمِرْصَاد ، حتى قال وَهْبُ بن الوَرْد [2] - وقد سئل أيجد لذة الطاعة مَنْ يَعْصَى ؟ فقال : ولا من هَمَّ ، فرب شخص أطلق بصره فحُرِم اعْتبار بَصيرته ، أو لسانَه فحُرِم صفاء قلبه ، أو آثر شبهة فى مطعَمه فاظلم سره ، وحُرِم قيام الليلَ وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك ، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس ، وعلى ضده يجد من يتق الله - تعالى - من حسن الجزاء على التقوى عاجلاً ؛ كما فى حديث أبى أُمَامَة عن النبى - ﷺ **« يقول الله - تعالى - : النَّظْرَةُ إلَى الْمَرْأة سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ الشَّيْطَانِ ، مَنْ تَرَكَهُ ابْتغَاءَ مَرْضَاتى ، آتَيْتُهُ إيمَانًا يَجدُ حَلاوَتَهُ فى قَلْبِه »** [3] .

فهذه نُبذة من هذا الجنس تنبه على مغفلها ، فأما المقابلة الصريحة فى الظاهر فقلَّ أن تحتبس ؛ ومن ذلك قول النَّبى - ﷺ-: **« الصُّبْحَةُ تَمْنَعُ الرِّزْقَ »** [4] ، **« وَإنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْب يُصيبهُ »** [5] ، وقد رَوَى المفسرون : أن كل شخص من الأسْبَاط جاء باثْنى عشر ولدًا ، وجاء يوسف بأحد عشر بالهمّة، ومثل هذا إذا تأمله ذُو بصيرة رأى

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٢٣ .

(٢) هو وهب بن الورد القرشى مولاهم المكى أبو عثمان ، أو أبو أمية يقال : اسمه عبد الوهاب ثقة عابد ، توفى سنة (١٥٣هـ) .

(٣) الحاكم (٤/٣١٣) وتعقبه الذهبى بقوله : إسحاق بن عبد الواحد القرشى واه وعبد الرحمن الواسطى ضعفوه ، وذكره العراقى فى تخريج الإحياء (١/٣٤١) .

(٤) أحمد (١/٧٣) ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/٦٢) رواه أحمد وفيه إسحاق بن أبى فروة ضعيف . قلت والصبحة هى النوم أول النهار .

(٥) أحمد (٥/٢٧٧ ، ٢٨٠) ، وابن ماجة فى المقدمة (٩٠) ، وفى الفتن (٤٠٢٢) ، وفى الزوائد إسناده حسن

الجزاء وفهم ؛ كما قال الفُضَيْل : إنى لأعْصِى الله - عَزَّ وجَلَّ - فأعرف ذلك فى خُلق دابتى وجاريتى ، وعن أبى عثمان النيسابورى[1] : أنه انقطع شِسْع نعله فى مُضِيِّه إلى الجمعة ، فتعوق لإصلاحه ساعة ، ثم قال : ما انقطع إلا لأنى ما اغتسلت غُسْل الجمعة ، ومن عجائب الجزاء فى الدنيا ، أنه لما امتدت أيْدى الظلم من إخوة يوسف ، ﴿ وشروه بثَمن بَخْس ﴾ [2] امتدت أكُفُّهُم بين يديه بالطلب ، يقولون : ﴿ وتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ [3] ، ولما صبر هو يوم الهمَّة ، ملك المرأة حلالاً ، ولما بغَتْ عليه بدعواها : ﴿ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ [4] أنطقها الحق بقولها : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ ﴾ [5] ، ولو أنّ شخصًا ترك معصية لأجْل الله - تعالى - ، لرأى ثمرة ذَلك ، وكذلك إذا فعل طَاعَةً ، وفى الحديث: « إِذَا أَمْلَقْتُمْ ، فَتَاجِرُوا اللهَ بالصَّدَقَة » [6] أى : عاملوه لزيادة الأرباح العاجلة .

ولقد رأينا من سَامَحَ نفسه بما يمنع منه الشرع ؛ طلبًا للراحة العاجلة ، فانقلبت أحواله إلى التَّنَغُّص العاجل ، وعكست عليه المَقَاصدَ .

حكى بعض المشايخ : أنه اشترى فى زمن شبابه جَارية ، قال : فلما ملكْتُها تاقتْ نفسى إليها ، فما زِلْت أسأل الفقهاء لعل مخلوقًا يرخِّصُ لى ، فكلهم قال : لا يجوز النَّظَر إليها بشهوة ، ولا لَمْسُها ، ولا جماعها إلا بعد حَيْضها ، قال : فسألتها فأخبرتنى أنها اشْتُرِيت وهى حائض . فقلت : قَرُب الأمر ، فسألت الفُقَهَاء فقالوا : لا يعْتَدُّ بهذه الحيضة حتى تَحِيضَ فى مِلْكه . قال : فقلت لنفسىَ - وهى شديدة التَّوَقَانَ لقوة الشهوة، وتمكن القدرة ، وقُرْب المصاقبة [7] : ما تقولين ؟ فقالت : الإيمان بالصَّبر على الجمر شئت أو أبيت ، فصَبَرْتُ إلى أن حان ذلك ، فأثابنى الله - تعالى - على ذلك الصبر بِنَيْل ما هو أعلى منها وأرفع .

٣٠ - فصل : فضل الإخلاص

نظرت فى الأدلَّة على الحق - سبحانه وتعالى - فوجدتها أكثر من الرَّمْل ، ورأيت من أعجبها أن الإنسان قد يُخْفى ما لا يرضاه الله - عَزَّ وجَلَّ - فيظهره الله - سبحانه - عليه ولو بعد حِينٍ ، وينطق الألْسنة به وإن لم يشاهده الناس . وربما أوقع صاحبه فى آفة

---

(١) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل النيسابورى الصوفى ، توفى سنة (٢٩٨هـ) .
(٢) سورة يوسف ، آية : ٢٠ .
(٣) سورة يوسف ، آية : ٨٨ .
(٤) سورة يوسف ، آية : ٢٥ .
(٥) سورة يوسف ، آية : ٥١ .
(٦) لم أقف عليه .
(٧) المصاقبة : المواجهة .

يفضحه بها بين الخَلْق ، فيكون جوابًا لكل ما أَخفَى من الذُّنوب ؛ وذلك ليعلم النَّاس أن هنالك من يُجَازِى على الزلل ، ولا ينفع من قدره وقدرته حجَاب ولا استتَار ، ولا يُضَاع لديه عمل ؛ وكذلك يُخفِى الإنسان الطاعة فتظهر عليه ، ويتحدث الناس بها وبأكثر منها، حتى أنهم لا يعرفون له ذنبًا ، ولا يذكرونه إلا بالمَحَاسِن ؛ ليعلم أن هنالك ربًا لا يُضِيع عمل عامل ، وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه أو تأباه ، وتذمه أو تمدحه ، وفق ما يتحقق بينه وبين الله - تعالى - ؛ فإنه يكفيه كل هَمٍّ ، ويدفع عنه كل شر ، وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون أن ينظر الحق ، إلا انعكس مقصوده ، وعاد حامده ذاما .

٣١ - فصل : الناس بين الخير والشر

تأملت الأرض ومن عليها بعين فِكرِى ، فرأيت خرابها أكثر من عمرانها ، ثم نظرت فى المعْمُور منها ، فوجدت الكفَّار مستولين على أكثره ، ووجدت أهل الإسلام فى الأرض قليلاً بالإضافة إلى الكفار ، ثم تأملت المسلمين فرأيت الأكساب قد شغلت جمهورهم عن الرَّازق ، وأعرضت بهم عن العلم الدال عليه ، فالسلطان مشغُولٌ بالأمر والنهى ، واللَّذات العارضة له ، ومياه أغراضه جارية لا شُكْر لها ، ولا يتلقَّاه أحد بموعظة ، بل بالمِدْحَة التى تقوِّى عنده هوى النفس ، وإنما ينبغى أن تقاوَمَ الأمراض بأضدادها ؛ كما قال عُمَرُ بن المُهَاجِر [1] : قال لى عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتنى قد حِدْتُ عن الحق ، فخذ بثيابى وهزَّنى ، وقل : مالك يا عُمَرُ ؟

وقال عُمَرُ بن الخَطَّاب - رضى الله عنه - : رحم الله مَنْ أهدى إلينا عيوبنا ، فأحوَجُ الخلق إلى النصائح والمواعظ السُّلْطان ، وأما جنوده فجمهورهم فى سُكْرِ الهوى ، وزينة الدنيا ، وقد انضاف إلى ذلك الجهل وعدم العلم ، فلا يؤلمهم ذنب ، ولا ينْزَعَجُون من لُبس حرير أو شرب خَمْر ، حتى ربما قال بعضهم: إيْش يعمل الجندى ؟ أيلبس القطن؟ ثم أخْذهم للأشْياء من غير وجهها ، فالظلم معهم كالطَّبْع ، وأرباب البوادى قد غَمَرَهُم الجهل ، وكذلك أهل القرى ، فكذلك تقلبهم فى الأنجاس، وتهوينهم لأمر الصلوات ، وربما صلت المرأة منهن قاعدة ، ثم نَظَرْتُ فى التجار فرأيتهم قد غلب عليهم الحِرْص ، حتى لا يرَوْن سوى وجوه الكسب كيف كانت ؛ وصار الرِّبا فى معاملاتهم فَاشياً ، فلا يُبَالى أحدهم من أين تحصل له الدُّنيا ! وهم فى باب الزكاة مفَرِّطُون ، ولا يستَوحشُون من تركها إلا من عصم الله .

---

(١) هو عمر بن المهاجر بن أبى مسلم الأنصارى أبو عبيد الدمشقى ثقة ، توفى سنة (١٣٩هـ) .

ثم نظرت فى أرباب المعاش ، فوجدت الغشَّ فى معاملاتهم عاما ، والتطفيف والبَخْس [1] ، وهم مع هذا مغمورون بالجهل، ورأيت عامَّة من له ولد يشغله ببعض هذه الأشغال ؛ طلبًا للكسب قبل أن يعرف ما يجبُ عليه وما يتأدب به ، ثم نظرت فى أحوال النِّساء ، فرأيتهن قليلات الدِّين ، عظيمات الجهل ، ما عندهن من الآخرة خبر إلا من عصم الله ، فقلت : واعَجَبًا ممن بقى لخدمة الله - عزَّ وجلَّ - ومعرفته ؟

فنظرت فإذا العلماء ، والمتعلمون ، والعُبَّاد ، والمتزهدون ، فتأملت العُبَّاد ، والمتزهدين فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم ، ويأنس إلى تعظيمه ، وتقبيل يده وكثرة أتباعه ، حتى إن أحدهم لو اضْطُرَّ إلى أن يشترىَ حاجة من السوق لم يفعل ؛ لئلا ينكسر جَاهَه ، ثم تترقى بهم رتبة النَّاموس إلى ألا يعودوا مريضًا، ولا يشهدوا جنازةً ، إلا أن يكون عظيم القَدْر عندهم ، ولا يتزاوَرُون ، بل ربما ظنَّ بعضهم على بَعْض بلقاء، فقد صارت النواميس كالأوثان يعبدونها ولا يعلمون ، وفيهم من يُقْدِم على الفتوى بجهل ؛ لئلا يُخلِ بناموس التصدر ، ثم يعيبون العلماء لحرصهم على الدنيا ، ولا يعْلَمُون أن المذموم من الدنيا ما هم فيه ، لا تَنَاوُل المباحات .

ثم تأملت العُلَمَاء والمتعلمين ، فرأيت القليل من المتعلمين من عليه أمَارَة النَّجابة ؛ لأن أمارة النجابة طلب العلم للعَمَل به ، وجمهورهم يطلب منه ما يصيِّره شَبَكة للكَسْبْ ؛ إما ليأخذ به قضاء مكان ، أو ليصير قاضىَ بلد ، أو قَدْر ما يتميز به عن أبناء جنسه ثم يكتفى .

ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهَوَى ويَسْتَخدمه ، فهو يُؤْثر ما يصده العلم عنه ، ويقبل على ما ينهاه ، ولا يكاد يجد ذَوْق معاملة لله - سبحانه - ، وإنما همته أن يقول وحسب

إلا أن الله لا يُخْلِى الأرض من قائم له بالحجة ، جامع بين العلم والعمل، عارف بحقوق الله - تعالى - خائف منه ، فذلك قطب الدنيا ، ومتى مات أخلف الله عوضَهُ ، وربما لم يمت حتى يرى من يَصْلُح للنيابة عنه فى كل نائبة ، ومثل هذا لا تخلو الأرض منه ؛ فهو بمقام النبىّ فى الأمة ، وهذا الذى أصفه يكون قائمًا بالأُصول ، حافظًا للحدود، وربما قل علمه أو قلت معاملَتُه ، فأما الكاملون فى جميع الأدوات ، فينْدر

---

(١) التطفيف : نقص المكيال ، وهو عدم ملئه وهو حرام كما قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ [الآية من ١ - ٣ من سورة المطففين] ، وكذلك والبخس وهو منهى عنه بقوله تعالى : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ [هود : ٨]

وجودهم ، فيكون فى الزمان البعيد منهم واحد . ولقد سَبَرْتُ [1] السلف كلهم ، فأردت أن أستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين ، وبين العمل حتى صار قُدْوة للعابدين ، فلم أر أكثر من ثلاثة ، أولهم : الحَسَن البَصْرى، وثانيهم : سفيان الثورى، وثالثهم . أحمد بن حنبل ، وقد أفردت لأخبار كل واحد منهم كتابًا ، وما أنكر على من ربَّعَهُم بسعيد بن المسيَّب ، وإن كان فى السلف سادات ، إلا أن أكثرهم غلب عليه فَن ، فنقص من الآخر ، فمنهم من غَلَب عليه العلم ، ومنهم من غلب عليه العَمَل ، وكل هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم ، والنصيب الأوفى من المعاملة والمعْرفة .

ولا يأس من وجود من يحذو حذوهم ، وإن كان الفضل بالسبق لهم ، فقد أطلع الله - عَزَّ وجَلَّ- الخضر على ما خفى من مُوسى - عليهما السلام - .

فخزائن الله مملوءة وعطاؤه لا يقتصر على شخص ، ولقد حُكِىَ لى عن ابن عقيل : أن كان يقول عن نَفْسه : أنا عملت فى قارب ثم كُسر ، وهذا غلط ، فمن أين له ؟ فكم معْجَب بنفسه كُشف له من غيره ما عاد يحقر نفسه على ذلك ! وكم من متأخِّر سبق متقدمًا ! وقَدْ قيل:

إنَّ اللَّيــَالِىَ وَالأَيَّامَ حَامِلَةٌ وَلَيْسَ يَعْلَمُ غَيْرَ الله مَا تَلِدُ

٣٢ - فصل : مجاهدة الهوى

رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائدًا فى المقدار ، حتى أنها إذا مالت ، مالت بالقلب والعقل والذِّهن ، فلا يكاد المرء ينتفع بشىء من النصح ، فَصِحْتُ بها يومًا وقد مالت بكُلِّيتها إلى شهوة : ويْحَك ، ففى لحظة أُكلمك كلمات ، ثم افعلى ما بدا لك . قالت: قُلْ أسْمَع ، قلت : قد تقرَّر قلة مَيْلك إلى المُبَاحات من الشهوات ، وأما جُلُّ ميلك فإلى المحرمات ، وأنا أكشف لك عن الأمرَيْن ، فَرُبَّما رأيت الحلوين مرين .

أما المباحات من الشَّهوات : فمطلقة لك ، ولكنَّ طريقها صعبٌ ؛ لأن المال قد يعْجَزُ عنها ، والكسب قد لا يُحَصِّل معظمها ، والوقت الشَّريف يذهب بذلك ، ثم شغل القلب بها وقت التحصيل ، وفى حالة الحصول ، وبحذر الفوَات ، ثم يُنَغِّصُها من النقص ما لا يَخْفَى على مميز ، وإن كان مطْعمًا ، فالشِّبَع يحدث آفات ، وإن كان شخصًا فالملل أو الفراق ، أو سوء الخلق ، ثم ألذ النكاح أكثره إيهانا للبدن ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه .

---

(١) سبرت تفحصت أخبارهم

وأما المحرمات : فيشتمل على ما أشرنا إليه من المباحات . ويزيد عليها بأنها آفة العرض ، ومظنة عقاب الدنيا فَضِيحتها ، وهناك وعيد الآخرة ، ثم الجزع كلما ذكرها التَّائب.

وفى قوة قهر الهوى لذة تَزيد على كل لذة ، ألا ترين إلى كل مغلُوب بالهوى كيف يكون ذَليلاً ؛ لانه قُهر ، بخلاف غالب الهوى فإنه يكون قَوىّ القلب ، عزيزًا ؛ لانه قَهر .

فالحذَرَ الحَذَرَ من رؤية المشتهى بعين الحُسْن ؛ كما يرى اللِّص لذَّة أخذ المال من الحِرز، ولا يرى بعين فِكْرِه القطع ، وليفتح عن البصيرة لتأمل العواقب واستحالة اللذة نَغْصَةَ ، وانقلابها عن كونها لذة ، إما للملل أو لغيره من الآفات ، أو لانقطَاعها بامتناع الحبيب ، فتكون المعْصِيَة الأُولى كلقمة تناولها جائع ، فما ردَّت كَلَبَ الجوع ، بل شهَّت الطعام .

وليتذكر الإنسان لذة قهر الهوَى مع تأمل فوائد الصبر عنه ، فمن وُفِّقَ لذلك ، كانت سلامته قريبة منه .

٣٣ - فصل : غفلة النفس ويقظتها

خطر لى خاطر والمجلس قد طاب ، والقلوب قد حَضَرَت ، والعيون جارِيَة ، والرءوس مطرقة ، والنفوس قد ندمت على تفرِيطها ، والعزائم قد نهضت لإصلاح شؤونها ، وألسنة اللوم تعمل فى الباطن على تضْيِيع الحزم وترك الحَذَر ، فقلت لنفسى : ما بال هذه اليقظة لا تَدُوم ، فإنى أرى النفس واليَقَظة فى المجلس متصادقين متصافيَيْن ، فإذا قمنا عن هذه التربة ، وقعت الغُرْبة ، فتأملت ذلك ، فرأيت أن النفس ما تزال مُتَيَقِّظة ، والقلب ما يزال عارفًا ، غير أن القواطع كثِيرة ، والفكر الذى ينْبَغى استعماله فى معرفة الله - سبحانه وتعالى - قد كَلَّ ، مما يستعمل فى اجتلاب الدنيا ، وتحصيل حوائج النفوس ، والقلب منْغَمِسٌ فى ذلك ، والبدن أسير مستخدم ، وبينَا الفكر يجُول فى اجتلاب الطعام والشراب والكُسْوَة ، وينظر فى صَدَد ذلك وما يدخره لغده وسَنَته ، إذا هو مهتم بخروج الحدث وتشاغل بالطهارة ، ثم اهتم بخروج الفضلات المؤذيَة - ومنها المَنىّ - فاحتاج إلى النكاح ، فعلم أنه لا يصحُّ إلا باكتساب كسب الدنيا ، فتفكر فى ذلك وعمل بمقتضاه ، ثم جاء الولد فاهتم به وله، وإذا الفكر عامل فى أصول الدنيا وفروعها.

فإذا حضر الإنسان المجلس ، فإنه لا يَحْضُر جائعًا ولا حاقنًا [(١)] ، بل يحضر جامعًا لهِمَّته ، ناسيًا ما كان من الدنيا على ذكْره ، فيخلو الوعظ بالقلب فيذكره بما ألف، ويجذبه بما عرف ، فينهض عمال القلب فى زوَارق عرفانه . فيحضرون النفس إلى باب

(١) الحقن : الذى حبس بوله واشتد عليه

المطالبة بالتفريط ، ويؤاخذون الحس بما مضى من العيوب ، فتجرى عيون الندم ، وتنعقد عزائم الاستدراك ، ولو أن هذه النفس خَلَتْ عن المعهودات التى وصفْتُهَا ، لتشاغلت بخدمة باريها ، ولو وقعت فى سَوْرَة (١) حبه ، لاستوحشت عن الكل شُغْلاً بقربه ، ولهذا اعتمد الزهاد الخلوات ، وتشاغلوا بقطع المعوِّقات ، وعلى قدر مجاهدتهم فى ذلك نالوا من الخدْمة مرادهم ، كما أن الحصاد على مقدار البذر .

غير أنى تلمحت فى هذه الحالة دقيقة وهو أن النفس لو دامت لها اليقظة ، لوقعت فيما هو شَر من فوت ما فاتها ، وهو العجب بحالها ، والاحتقار لجنسها ، وربما ترقّت بقوة علمها وعرفانها ، إلى دعوى قولها : لى ، وعندى ، وأَسْتَحِقُّ ، فتركها فى حَوْمة ذنوبها تتخبَّط ، فإذا وقفت على الشاطئ ، قامت بحق ذلة العبودية وذلك أولى لها ، هذا حكم الغالب من الخلق ، ولذلك شُغِلُوا عن هذا المقام ، فمن بذر فصلح له ، فلابد له من هَفْوَة تراقبها عين الخوف بها ، تَصِحُّ له عبوديته ، وتسلم له عبادته ، وإلى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح : « **لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ، لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيُغْفَرُ لَهُمْ** » (٢) .

٣٤ - فصل : اللبس على المتصوفة

تفكرت فرأيت أن حفْظ المال من المتعيّن ، وما يسميه جهلة المَتَزَهدين توكُّلاً من إخراج ما فى اليد ليس بالمشْرُوع ، فإن النبى - ﷺ - قال لكَعْب بن مالك : « **أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ** » (٣) ؛ أو كما قال له . وقال لسَعْد : « **لأَنْ تترك وَرَثَتَك أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ** » (٤) .

فإن اعترض جاهل فقال : فقد جاء أبُو بكر - رضى الله عنه - بكل ماله .

فالجواب : أنَّ أبا بكر صاحب جَأْش وتجارة ، فإذا أخرج الكُلَّ ، أمكنه أن يستدين عليه فيتعيش ، فمن كان على هذه الصفّة لا أَذُمُّ إخراجه لماله ، وإنما الذم متطرق إلى من يُخْرِجُ ماله وليس من أرباب المعَائش ، أو يكون من أولئك إلا أنه ينقطع عن المَعَاش فيبقى كَلا على الناس ، ويعتقد أنه على الفتوح ، وقلبه متعلّق بالخلق ، وطمعه ناشبٌ فيهم ، ومتى حُرِّك بابه ، نهض قلبه ، وقال : رِزْق قد جاء ، وهذا أمر قبيح بمن يقْدر

(١) سورة : أى شدة حبه .
(٢) مسلم فى التوبة (٢٧٤٩/ ١١) ، وأحمد (٢/ ٣٠٥) .
(٣) البخارى فى المغازى (٤٤١٨) ، ومسلم فى التوبة (٢٧٦٩/ ٥٣) .
(٤) سبق تخريجه .

به على المعاش ، وإن لم يقدر ، كان إخراج ما يملك أقبح ؛ لأنه يتعلق قلبه بما فى أيدى الناس ، وربما ذَلَّ لبعضهم ، أو تزين له بالزهد ، وأقلُّ أحواله أن يزاحم الفقراء والمكَافيفَ والزَّمْنَى فى الزكاة ، فعليك بالشرب الأوَل ، فانظر هل فيهم من فَعَل ما يفعله جهلة المتزهدين ؟ وقد أشرْتُ فى أول هذا إلى أنهم كَسبُوا وخَلَّفوا الأموال ، فرد إلى الشرب الأول الذى لم يُطْرق فإنه الصافى ، واحذر من المشارع المطْرُوقة بالآراء الفاسدة الخارجة فى المعنى ، على الشريعة ، مدعية بلسان حالها أنَّ الشرع ناقص يحتاج إلى مَا يتم به .

واعلم وفقك الله - تعالى - : أن البدن كالمطيَّة، ولا بدّ من علف المطية والاهتمام به، فإذا أهملت ذلك ، كان سببًا لوقوفك عن السَّيْر ، وقد رؤى سلمان - رضى الله عنه - يحمل طعامًا على عاتقه ، فقيل له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ ؟ فقال: إن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت ، وقال سفيان الثورى : إذا حصَّلت قوت شهر فتعبَّد، وقد جاء أقوام ليس عندهم سوى الدَّعَاوى فقالوا : هذا شك فى الرّازق والثقة به أولى ؛ فإياك وإياهم ، وربما ورد مثل هذا عن بعض صدور الزهاد من السلف فلا يعول عليه ، وَلا يهُولَنّك خلافهم . فقد قال أَبُو بَكْرِ المرْوَزِىّ : سمعت أحمد بن حنبل يَرغِّب فى النكاح ، فقلت له : قال ابن أدهم ، فما تركنى أتمم حتى صاح عَلَىّ ، وقال: أذكر لك حال رسول الله - ﷺ - وأصحابه ، وتأتينى ببينات الطريق .

واعلم وفقك الله : أنه لو رفض الأسباب شخص يدعى التزهد ، وقال : لا آكل ولا أشرب ، ولا أقوم من الشَّمْس فى الحر ، ولا أستدفئ من البرد ، كان عاصيًا بالإجماع، وكذلك لو قال وله عائلة : لا أكتسب ورزقهم على الله - تعالى - فأصابهم أذى ، كان آثمًا ؛ كما قال - عليه الصلاة والسلام : « **كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ** » [1] .

واعلم أن الاهتمام بالكسب يجمع الهم ، ويفرغ القلب ، ويقطع الطَّمع فى الخلق ، فإن الطبع له حق يتقاضاه ، وقد بيَّن الشرع ذلك فقال : « **إنّ لنفسك عليك حقًّا ؛ وإن لعينك عليك حقا** » [2] ، ومثال الطبع مع المريد السالك ؛ كمثل كلب لا يعرف الطَّارق ، فكل من رآه يمشى نبح عليه ، فإن ألقى إليه كسْرَة ، سكت عنه ؛ فالمراد من الاهتمام بذلك جمع الهم لا غير ، فافهم هذه الأصول فإن فهْمَهَا مهم .

٣٥ - فصل : شهوات الدنيا مصائد هلاك

تأملت فى شهوات الدنيا ، فرأيتها مصائد هلاك ، وفخوخ تَلَف ، فمن قوِى عقله

(١ ، ٢) سبق تخريجهما

على طبعه وحكم عليه يَسلم ، ومن غلب طبعه ، فيا سرعة هُلْكَته ، ولقد رأيت بعض أبناء الدنيا كان يتوق فى التسرى [1] ، ثم يستَعْمِل الحرارات المهيجَة للباه [2] ، فما لبث أن انحلت حرارته الغريزية وتلَف ، ولم أر فى شهوات النفس أسرع هلاكًا من هذه الشهوة؛ فإنه كلما مال الإنسان إلى شخص مستحسن ، أوجب ذلك حركة الباه زائدًا عن العَادَة ، وإذا رأى أحسن منه ، زادت الحركة وكثر خروج المَنِىّ زائدًا عن الأوّل ؛ فيفنى جوهر الحياة أسرع شىء ، وبالضِّدّ من هذا أن تكون المرأة مستَقْبَحة ، فلا يوجب نكاحها خروج الفضلة المؤذية كما ينبغى ، فيقع التأذِّى بالاحتباس وقوة التَّوْق إلى مَنْكوح .

وكذلك المفرط فى الأَكل ؛ فإنه يجنى على نفسه كثيرًا من الجنايات ، والمقصر فى مقدار القُوت كذلك ، فعلمت أن أفضل الأُمور أوسَاطُها، والدنيا مفازة فينبغى أن يكون السابق فيها العَقْل ، فمن سلَّم زِمَامَ راحلته إلى طبعه وهواه ، فيا عَجَلَة تلفه - هذا فيما يتعلق بالبدن والدنيا - فقس عليه أمْرَ الآخرة فافهم .

٣٦ - فصل : معنى الزهد الحقيقى

بلغنى عن بعض زهاد زماننا ؛ أنه قُدِّم إليه طعام ، فقال : لا آكل ، فقيل له : لِمَ ؟ قال : لأنَّ نفسى تشْتَهيه ، وأنا منذ سنين ما بلَّغْت نفسى ما تشتهى . فقلت : لقد خُفِيَت طريق الصواب عن هذا من وجهين ؛ وسبب خفائها عدم العلم :

أما الوجه الأول : فإن النبى - ﷺ - لم يكن على هذا ولا أصحابه ؛ وقد كان عليه الصلاة والسلام - يأكل لحم الدَّجاج ، ويحب الحلوى والعَسَل .

ودخل فرقد السَّبَخِىّ على الحَسَن وهو يأكل الفَالُوذَج ، فقال : يا فرقد ، ما تقول فى هذا ؟ فقال : لا آكُلُه ولا أُحب من أكله - فقال الحسن : لُعاب النَّحل للباب البر مع سَمْن البقر ، هل يُعيبه مسلم ؟

وجاء رجل إلى الحسن ، فقال : إن لى جارًا لا يأكل الفالوذج . فقال : ولم ؟ قال: يقول : لا أؤدّى شكره ، فقال : إن جارك جاهل ، وهل يؤدِّى شكر الماء البارد؟

وكان سفيان الثورى يحمل فى سفره الفَالُوذَج والحَمَل المشوى ، ويقول : إن الدابة إذا أُحْسِن إليها عملت . وما حدث فى الزهاد بعدهم من هذا الفن فأمور مسروقة من الرهبانية ، وأنا خائف من قوله - تعالى - : ﴿ لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا

---

(١) التسري : أى يتخذ الجوارى لغرض الشهوة (٢) أى : النكاح والجماع .

تَعْتَدُوا ﴾ [١]، ولا يُحْفَظ عن أحد من السلف الأول من الصحابة من هذا الفن شىء ، إلا أن يكون ذلك لعارض

وأما سبب ما يُرْوى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - : أنه اشتهى شيئًا فآثر به فقيرًا، وأعتق جاريته رميثة ، وقال : إنها أحبُّ الخلق إلىّ ، فهذا وأمثاله حَسَن ؛ لأنه إيثار بما هو أجود عند النفس من غيره ، وأكثر لها من سواه .

فإذا وقع فى بعض الأوقات ، كسرت بذلك الفعل سَوْرَة هواها أن تطغى بنيل كل ما تريد ، فأما من دام عل مَخَالَفَتها على الإطلاق ، فإنه يُعْمِى قلبها ، ويبلّد خواطرها ، ويشتت عزائمها ، فيؤذيها أكثر مما ينفعها .

وقد قال إبراهيم بن أدهم [٢] : إن القلب إذا أكْرِه عمى ، وتحت مقالته سر لطيف ؛ وهو أن الله - عزَّ وجلَّ - قد وضع طبيعة الآدمى على معنى عَجيب ، وهو أنها تختار الشىء من الشهوات مما يُصْلِحُها ، فتعْلَم باختيارها له صلاحه وصلاحها به .

وقد قال حكماء الطب : ينبغى أن يُفْسَح للنفس فيما تشْتَهى من المطاعم ، وإن كان فيه نوع ضررٍ ؛ لأنها إنما تختار ما يلائمها ، فإذا قمعها الزاهد في مثل هذا ، عاد على بدنه بالضرر ، ولولا جَوَاذبٌ فى الباطن من الطبيعة ، ما بقى البَدَن ؟ فإن الشهوة للطعام تثور ، فإذا وقعت الغُنْيَة بما يتناول ، كفَّت الشهوة ، فالشهوة مَريد ورائد ، ونعم الباعْث على مصلحة البدن ، غير أنها إذا أفرطت وقع الأذى ، ومتى منعت ما تريد على الإطلاق - مع الأمن من فساد العاقبة - عاد ذلك بفَسَاد أحوال النفس ، ووَهَن الجسم ، واختلاف السَّقَم الذى تتداعى به الجملة ؛ مثل أن يمنعها الماءَ عند اشتداد العطش ، والغذاء عند الجُوع ، والجِمَاع عند قوة الشهوة ، والنوم عند غلبته ، حتى إن المغتَمَّ إذا لم يتروّح بالشكوى ، قتله الكَمَد

فهذا أصل إذا فهمه هذا الزاهد ، علم أنه قد خالف طريق الرسول - ﷺ - وأصحابه، من حيث النقل ، وخالَف الموضوع فى الحكمة ، ولا يلزم على هذا قول القَائل : فمنْ أين يصمو المطعم ؟ لأنه إذا لم يصف ، كان الترك وَرَعًا ، وإنما الكلام فى المطعم الذى ليس فيه ما يؤذى فى باب الورَع ، وكان ما شرحته جوابًا للقائل ، ما أبلغ نفسى شهوة على الإطلاق

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٨٧

(٢) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور أبو إسحاق العجلى البلخى وثقه النسائى ، والدارقطنى ، توفى سنة (١٦٢هـ) ، وقال فى التقريب : صدوق .

والوجه الثانى : أنى أخاف على الزاهد أن تكون شهوته انقلبت إلى الترك ، فصار يشتهى ألا يتناول ، وللنفس فى هذا مكر خفى ، ورياءٌ دقيق ، فإن سلمَتْ من الرياء للخلق ، كانت الآفة من جهَة تعلُّقها بمثل هذا الفعل ، وإدلالها فى الباطن به ، فهذه مخاطرة وغلط .

وربما قال بعض الجُهّال : هذا صد عن الخير والزهد ، وليس كذلك ؛ فإن الحديث قد صحَّ عن النبى - ﷺ - أنه قال: « **كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عليه أمْرُنَا ، فَهُوَ رَد** » [1] .

ولا ينبغى أن يغتر بعبادة جُرَيْج ، ولا بتقوى ذى الخُوَيْصِرَة ، ولقد دخل المتزهدون فى طرق لم يسلكها الرسول - ﷺ - ولا أصحابه ؛ من إظهار التخشع الزائد فى الحَدِّ ، والتَّنَوّق [2] فى تخشين الملبس ، وأشياء صار العوام يستَحْسنونها ، وصارت لأقوام كالمعاش يجْتنُون من أرباحها ، تقبيل اليد ، وتوفير التَّوقير ، وحراسة الناموس ، وأكثرهم فى خَلْوته على غير حالته فى جَلْوته .

وقد كان ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهة ، وإذا خلا بالليل فكأنه قَتَلَ أهل القرية ، فنسأل الله - تعالى - علمًا نافعًا فهو الأصْل ، فمتى حصل أوجب معْرفة المعبود - عَزَّ وجَلَّ - وحرَّك إلى خدمته بمقتضى ما شرعه وأحبه ، وسلك بصاحبه طريق الإخلاص ، وأصلُ الأصول العلم ، وأنفع العلوم النظر فى سيرة الرسول - ﷺ - وأصحابه ، ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [3] .

٣٧ - فصل : جهاد النفس

تأملت جهَاد النفس ، فرأيته أعْظَم الجهاد ، ورأيت خلقًا من العلماء والزهاد لا يفهمون معْناه ؛ لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق ، وذلك غلط من وجهين :

أحدهما : أنه رب مانعٍ لها شهوة أعطاها بالمَنْع أوفى منها ؛ مثل أن يمنعها مُباحًا فيشتَهر بمنعه إياها ذلك ، فترضى النفس بالمنع ؛ لأنها قد استبدلت به المدح ، وأخفى من ذلك أن يرى بمنعه إياها ، ما منع أنه قد فضل سواه ممن لَمْ يمنعها ذلك ، وهذه دَقَائق تحتاج إلى منقاش [4] فهم يخَلِّصها .

والوجه الثانى : أننا قد كُلِّفنا حفظها ، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التى

---

(١) البخارى فى الصلح (٢٦٩٧) ، ومسلم فى الأقضية (١٧١٨/١٧ ، ١٨) واللفظ لمسلم .
(٢) التنوق : المبالغة كما فى القاموس .	(٣) سورة الأنعام ، آية : ٩٠ .
(٤) المنقاش : الملقط الذى ينتقش الأشياء البسيطة الدقيقة .

تقيمها ، فلا بد من إعطائها ما يقيمها ، وأكثر ذلك أو كله مما تشتهيه ، ونحن كالوُكَلاء في حفظها ؛ لأنها ليست لنا بل هى وديعة عندنا ، فمنْعُها حقوقها على الإطلاق خطر ، ثم رُبَّ شد أوجب استرخاء ، ورُب مضيِّق على نفسه فرت منه ، فصعب عليه تَلافيها ، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل ، يحملها على مكرُوهها فى تناول ما ترجو به العافية ، ويذوب فى المَرارَة قليلاً من الحَلاوة ، ويتناول من الأغذية مقدار ما يَصِفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مَطعم ربما جرَّ جوعًا ، ومن لقمة ربما حرمت لُقَمَات .

فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ، ولا يهمل مقْوَدها [1] ، بل يرخى لها فى وقت أى الزمام والطّول بيده ، فما دامت على الجادَّة لم يُضَايقها فى التضييق عليها ، فإذا رآها قد مالت ، ردها باللُّطف ، فإن ونَت [2] وأبَت ، فبالعنف ، ويحبسها فى مقام المُدَارَاة ؛ كالزوجة التى مَبْنى عقلها على الضعف والقلة ، فهى تُدَارى عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح ، فبالهَجْر ، فإن لم تستقم ، فبالضرب ، وليس فى سياط التأديب أجود من سَوْط عزم .

هذه مُجَاهدة من حيث العمل ، فأما من حيث وعظها وتأنيبها ، فينبغى لمن رآها تَسْكُن للخلق ، وتتعرَّض بالدَّناءة من الأخلاق ، أن يعرِّفها تعظيم خالقها لها ، فيقول: ألَسْت التى قال فيك : خلقْتُك بيدى ، وأسجدت لك ملائكتى [3] ، وارتْضاك للخلافة فى أرضه ، وراسَلَك ، واقْتَرض منك واشترى ؟ فإن رآها تتكبر ، قال لها : هل أنْت إلا قَطْرة من ماء مَهِين ، تقتلك شرْقَة ، وتؤلمك بَقَّة ، وإن رأى تقصيرها ، عرفها حق الموالى على العَبِيد ، وإن ونَت فى العمل ، حدثها بجزيل الأجْر، وإن مالت إلى الهوى، خوفها عظيم الوِزْر . ثم يحذِّرها عاجل العقوبة الحِسّية؛ كقوله - تعالى - : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُم﴾ [4] ، والمعنوية كقوله - تعالى - : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [5] فهذا جهاد بالقول ، وذاك جهاد بالفعل.

٣٨ - فصل : التأخر فى استجابة الدعاء

رأيت من البَلاد العُجَاب ؛ أن المؤمن يدعو فلا يُجَاب ، فيكرِّر الدعاء وتطول المدة ،

---

(١) المقود : بكسر الميم وفتح الواو : ما يقاد به كما فى اللسان . (٢) ونت : أصابها الضعف.

(٣) حديث رواه البخارى فى التفسير (٤٤٧٦) ، وفى التوحيد (٧٤١٠) ، ومسلم فى القدر (٢٦٥٢) .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٤٦ (٥) سورة الأعراف ، آية . ١٤٦ .

ولا يرى أثرًا للإجابة ، فينبغى له أن يعلَم أن هذا من البَلاء الذى يحتاج إلى الصبر ، وما يَعرِض للنفس من الوسواس فى تأخير الجواب - مرض يحتاج إلى طب ، ولقد عَرَض لى هذا الجنس ؛ فإنه نزلت بى نازلة ، فدَعوت وبالغت ، فلم أرَ الإجابة ، فأخذ إبليس يجُول فى حَلَبات كيْده ، فتارةً يقول : الكرم واسع والبخل معْدُوم ، فما فائدة تأخير الجواب ؟ فقلت له : إخسأ يا لعين ، فما أحتاج إلى تقاضى ولا أرضاك وكيلا ، ثم عدت إلى نفسى فقلت : إياك ومساكنة وسوسته ؛ فإنه لو لم يكن فى تأخير الإجابة إلا أن يَبْلُوكَ المقدر فى محاربة العَدُو ، لكفى فى الحكمة ، قالت : فسلْنى عن تأخير الإجابة فى مثل هذه النازلة ، فقلت : قد ثَبَت بالبُرْهان أن الله - عَزَّ وجَلَّ - مالك ، وللملك التصرف بالمنْع والعطاء ، فلا وجْه للاعتراض عليه .

والثانى : أنه قد ثبتَتْ حكمته بالأدلة القَاطعة ، فربما رأيْت الشىء مصْلحة والحق أن الحكْمة لا تقتضيه ، وقد يخْفَى فى الحكمة فيما يفعله الطَّبيب ، من أشياء تؤذى فى الظَاهر يقصد بها المصْلَحة ، فلعل هذا من ذَاك .

والثالث : أنه قد يكون التأخير مصلحة والاستعجال مضرَّة ؛ وقد قال النبى - ﷺ -: **« لا يَزَالُ العَبْدُ فى خَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ ، يَقُولُ : دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لى »** (1) .

والرابع : أنه قد يكون امْتنَاع الإجابة لآفة فيك ؛ فربما يكون فى مأكولك شُبْهَة ، أو قلبك وقت الدّعاء فى غفلة ، أو تزاد عقوبَتُك فى منع حاجتك لذنب ما صدقْت فى التوبة منه .

فابْحثى عن بعض هذه الأسباب ؛ لعلك توقنين بالمقصود ، كما روى عن أبى يزيد - رضى الله عنه : أنه نزل بعض الأعاجم فى دَاره ، فجاء فرآه ، فوقف ببَاب الدار ، وأمر بعض أصحابه فدَخَل ، فقلع طينًا جديدًا قد طيَّنه ، فقام الأعجمى وخرج ، فسئل أبو يزيد عن ذلك ، فقال : هذا الطِّين من وجه فيه شبهة ، فلما زالت الشبهة ، زال صاحبها، وعن إبراهيم الخواص (2) رحمة الله عليه - : أنه خرج لإنكار منكر ، فنبحه كَلْبَ له فمنعه أن يمضى ، فعاد ودخل المسْجد ، وصلى ثم خَرَجَ ، فبصْبَص الكلب له فمضى وأنكر ، فزال المنكر ، فسُئل عن تلك الحال ، فقال : كان عندى منْكر ، فمنعنى الكلب، فلما عدت تبْتُ من ذلك ، فكان ما رأيتم .

---

(1) رواه بهذا اللفظ أحمد (٣/ ١٩٣ ، ٢١٠) ، وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٩ ٣) ، ورواه البخارى فى الدعوات (٦٣٤٠) ، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٣٥) بنحوه .

(2) هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص أبو إسحاق توفى سنة (٢٩١هـ) ، ويقال سنة (٢٨٤هـ) .

والخامس : أنه ينبغى أن يقع البحث عن مقصُودك بهذا المطلوب ، وربما كان فى حُصُوله زيادة إثم ، أو تأخير عن مرتبة خير ، فكان المنع أصلح ، وقد رُوى عن بعض السلف : أنه كان يسأل الله الغزْو ، فهتف به هاتف : إنك إن غزوت أُسرت ، وإن أسرت تنصرت .

والسادس : أنه ربما كان فقد ما فقدته سببًا للوقوف على الباب واللّجا ، وحُصُوله سببًا للاشتغال به عن المسئول ، وهذا الظاهر ؛ بدليل أنه لولا هذه النازلة ، ما رأيناك على باب اللّجأ ، فالحق - عزّ وجلّ - علم من الخلق اشتغالهم بالبِرّ عنه ، فلذعهم فى خلال النِّعم بعوارض تدفعهم إلى بابه يستغيثون به ، فهذا من النِّعم فى طى البلاء ، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه ، فأما ما يقيمك بين يديْه ، ففيه جمالك .

وقد حكى عن يَحْيَى البكّاء [1] أنه رأى ربه - عزّ وجلّ - فى المنَام ، فقال : يا ربّ، كم أدعوك ولا تجيبنى! فقال : يا يَحْيَى ، إنى أحب أن أسمع صوتك .

وإذا تدبرت هذه الأشياء ، تشاغلت بما هو أنفع لك ، من حصول ما فَاتَك من رَفْع خلَل ، أو اعتذارٍ من زَلَل ، أو وقوف على البَاب إلى رب الأرْبَاب .

٣٩ - فصل : علاج البلايا

من نزلت به بليّة ، فأراد تمحيقها [2] ، فليتصورها أكثر مما هى ، تَهُن ، وليتخيلْ ثوَابها ، وليتوهم نزول أعْظَم منها ، يرى الربح فى الاقْتصار عليها ، وليتلمح سرعة زوَالها ؛ فإنه لولا كَرْب الشّدة ، ما رجيت ساعات الراحة ، وليعلم أن مدة مقامها عنده، كمدة مقام الضيف ، فليتفقد حَوائجَهُ فى كل لحظة ، فيا سُرْعة انقضاء مقامه ، ويا لَذّة مدائحه وبشره فى المحافل ، ووصفَ المضيف بالكرم .

فكذلك المؤمن فى الشدة ، ينبغى أن يراعى السّاعات ، ويتفقد فيها أحوال النفس ، ويتلمح الجوارح ؛ مخافة أن يبدو من اللّسان كلمة ، أو من القلب تَسَخُّط ، فكأن قد لاح فجر الأجر ، فانجاب [3] ليل البلاء ، ومدح السّارى بقطع الدُّجَى ، فما طلعت شمس الجزاء ، إلا وقد وصل إلى منزل السّلامة .

٤٠ - فصل : خطر العلم مع قلة العمل

وجدت رأىَ نفسى فى العلم حسنًا ، فهى تقدّمُه على كل شىء وتعتقد الدليل ،

---

(١) هو يحيى بن مسلم البكاء ، وقيل : ابن سليمان ، وقيل : ابن سليم ، توفى سنة (١٣٠هـ) .

(٢) تمحيقها : إذهابها .　　　　(٣) انجاب . انقضى .

وتفضِّل ساعة التشاغل به على ساعات النَّوافل ، وتقول : أقوى دليل لى على فضله على النَّوافل ، أنى رأيت كثيرًا ممن شغلهم نَوَافل الصلاة والصَّوم عن نوافل العلم قد عاد ذلك عليهم بالقَدْح فى الأُصول ، فرأيتها فى هذا الاتجاه على الجَادَّة السليمة والرأى الصحيح ، إلا أنى رأيتها واقفَةً مع صورة التشاغل بالعلْم ، فَصحْت بها ، فما الذى أفادك العلم ؟ أين الخوف ! أين القلق ! أين الحذر ! أو ما سَمِعتِ بأخبار أخيار الأحبار فى تعبدهم واجتهادهم ؟

أما كان الرسول - ﷺ - سيد الكُلِّ ، ثم إنه قام حتى ورمَت قدماه [1] ، أما كان أبو بكر - رضى الله عنه - شَجِىَّ النشيج [2] ، كثير البكاء ، أما كان فى خد عُمَر - رضى الله عنه - خطَّين من آثار الدموع ، أما كان عُثْمان - رضى الله عنه - يختم القرآن فى ركْعَة ، أما كان عَلِىّ - رضى الله عنه - يَبْكى بالليل فى محرابه ؛ حتى تخْضَلّ لحيته بالدموع ، ويقول : يا دُنْيا غرِّى غيرى ، أما كان الحَسَنُ البَصْرِى يحيا على قوة القلق ، أما كان سَعيد بن المسيب ملازمًا للمَسْجد ، فلم تَفُتْهُ صلاةٌ فى جماعة أربعين سنة ، أما صيام الأَسْوَد بن يَزيد حتى اخضر واصفرّ ؟ أما قالت ابنة الرَّبيع بن خُثَيْم له : مالى أرى الناس ينامون وأنت لا تَنَام ؟ فقال : إن أباك يخاف عذاب البَيَات ، أما كان أَبُو مُسْلِم الخَوْلانِىّ [3] يعلق سوطًا فى المسجد يؤدِّب نفسه إذا فَتَر ؟ أما صام يَزِيد الرُّقَاشى [4] أربعين سنة ، وكان يقول : والَهْفَاهُ ، سبقنى العابدون وقطع بى ، أما صام مَنْصُور بن المعْتَمِر [5] أربعين سنة ؟ أما كان سفيان الثورى يبكى الدَّم من الخوف ؟ أما كان إبراهيم ابن أدهم يَبُول الدم من الخوف ؟ أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة فى زهدهم وتعبدهم : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد .

احذرى من الإخلاد إلى صورة العلم، مع ترك العمل به ؛ فإنها حالة الكُسَالَى الزَّمْنَى:

وَخُــذْ لَكَ مِنْكَ عَلَى مُهْلَةٍ ... وَمُقْبِلُ عَيْشِــكَ لَمْ يُدْبِرِ

وَخَفْ هَجْمَةً لا تُقيلُ العِثَارَ ... وتَطْـوِى الْوُرُودَ عَلَى الْمَصْدَرِ

وَمَثِّــلْ لِنَفْسِكَ أَىُّ الرَّعِيلِ ... يَضُمُّكَ فِى حَلْبَةِ الْمَحْشَــرِ

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٣٦) ، وأحمد (٤/٢٥١)

(٢) كان حزينا فى بكائه .

(٣) أبو مسلم الخولانى الدارانى سيد التابعين قدم من اليمن وكان مخضرماً ، توفى سنة (٦٢هـ) .

(٤) هو يزيد بن أبان الرقاشى أبو عمرو البصرى مات قبل سنة (١٢٠هـ) .

(٥) منصور بن المعتمر أبو عتاب السلمى الكوفى تابعى حافظ ثبت ، توفى سنة (١٣٣هـ) ، وقيل سنة (١٣٢هـ)

٤١ – فصل : زهاد وجهلة

مما يزيد العلم عندى فضلاً ، أن قومًا تشاغلوا بالتعبد عن العلم ، فوقفوا عن الوُصول إلى حقائق الطلب ، فرُوى عن بعض القدماء ؛ أنه قال لرجل : يا أبا الوَليد – إن كنت أبا الوَليد – يتورع أن يكنيه ولا ولد له .

ولو أوْغَل هذا فى العلم ، لعلم أن النبى – ﷺ - كنّى صُهَيْبًا أبا يحيى ، وكنّى طفلاً فقال : « **يا أبا عُمَيْر ، ما فعل النغير** » [1] ؟ وقال بعض المتزهدين : قيل لى يومًا : كُلْ من هذا اللبن ، فقلت : هذا يضرُّنى ، ثم وقفت بعد مدة عند الكَعْبة ، فقلت : اللَّهم إنك تعلم أنى ما أشركت بك طَرْفَة عين ، فَهَتَفَ بى هاتف : ولا يوم اللبن .

وهذا لو صحَّ ، جاز أن يكون تاديبًا به ؛ لئلا يقف مع الأسْباب ناسيًا للمُسَبِّب، وإلا فالرَّسول – ﷺ – قد قال : « **مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِى حَتَّى الآنَ قَطَعَتْ أَبْهُرِى** » [2] ، وقال : « **ما نفعنى مالٌ كمال أبى بكر** » [3] .

ومن المتزهدين أقوام يرون التوكّل قطع الأسباب كلها ، وهذا جهل بالعلم ؛ فإن النبى – ﷺ – دخل الغَار ، وشاور الطَّبيب ، ولبس الدِّرع ، وحفر الخندق ، ودخل مكّة فى جَوار المُطْعَم بن عَدىّ وكان كافرًا ، وقال لسعد : « **لأَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاء خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ** » [4] ، فالوُقُوف مع الأسباب مع نسيان المسَبِّب غلَط والعمل على الأسباب مع تعلُّق القلب بالمسَبِّب هو المشْرُوع ، وكل هذه الظُّلُمَات إنما تُقْطَع بمصباح العلم ، ولقد ضلَّ من مشى فى ظُلْمة الجَهْل ، أو فى زُقَاق الهوى .

٤٢ – فصل : الإنسان أعلى الخلائق

ما أزال أتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على الأنبياء والأوْلياء ، فإن كان التفضيل بالصُّور ، فصورة الآدمىّ أعجب من ذوى أجْنحة ، وإن تركت صورة الآدمى لأجل أوساخها المنوطة بها ، فالصورة ليست الآدمى ، إنما هى قالَب ، ثم قد استُحْسِن منها ما يستقبح فى العادة ، مثل خلُوف فم الصائم ، ودم الشهداء ، والنَّوم فى الصلاة ، فبقيت

---

(١) رواه البخارى فى الأدب (٦١٢٩) ، ومسلم فى الآداب (٢١٥/ ٣٠) .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٤٢٨) ، وأحمد (١٨/٦)

(٣) أحمد (٢٥٣/٢) ، والترمذى فى المناقب (٣٦٦١) ، وقال : حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجة فى المقدمة (٩٤) وفى الزوائد : إسناده إلى أبى هريرة فيه مقال لأن سليمان بن مهران الأعمش يدلس وكذا أبو معاوية إلا أنه صرح بالتحديث فزال التدليس وباقى رجاله ثقات .

(٤) سبق تخريجه .

صورة معمورة ، وصَار الحكم للمعْنَى ، ألَهُم مرتبةٌ يحبهم بها ، أو فضيلة يباهى بهم ؟ وكيف دار الأمر فقد سجَدُوا لنا ، وهو صريح فى تفضيلنا عليهم ، فإن كان الفضيلة بالعلم ، فقد علمت القصة ، يوم : ﴿ لا علمَ لَنَا ﴾ [1] ، ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ ﴾ [2] ، وإن فُضِّلت الملائكة بجوهرية ذواتهم ، فجوهريةَ أرْواحنا من ذلك الجنس ، وعلينا أثقال أعباء الجسم ، بالله لولا احتياج الرَّاكب إلى الناقة ، فهو يتوقف لطلب علَفها ، ويرفق فى السير بها لطرق أرض منى قبل العشر ، واعَجَبًا أتفضَّل الملائكة بكثرة التعبد ! فما ثم صاد ، أو يتعجب من الماء إذا جرى ، أو من منحدر يسرع ، إنما العجب من مصاعد يشق الطريق ويغالب العقبات ؟

بلى قد يتصور منهم الخلاف ، ودعوى الإلَهية ؛ لقدرتهم على دك الصخور وشق الأرض ، لذلك توعدوا : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَهٌ مِن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [3] ، لكنهم يعلمون عقوبة الحق فيحذروه .

فأما بعدنا عن المعرفة الحقيقية ، وضعف يقيننَا بالناهى ، وغلبة شهوتنا مع الغَفْلة ، يحتاج إلى جهاد أعظم من جهادهم ، تالله لو ابْتُلِىَ أحد المقربين بما ابتلينا به ، ما قدر على التماسك ، يصبح أحدنا وخطاب الشرع يقول له : الكَسْب لعائلتك ، واحذَرْ فى كسبك ، وقد تمكن منه ما ليس من فعله ؛ كحُبّ الأهل ، وعلوق الولد بنياط القلب ، واحتياج بدنه إلى ما لا بد منه ، فتارة يقال للخليل - عليه السلام - : اذبح ولدك بيدك؟ واقطع ثمرة فُؤَادك بكفك ، ثم قم إلى المنْجَنيق لترمى فى النار ، وتارةً يقول لموسى - عليه السلام : صم شهرًا ليلاً ونهارًا .

ثم يقال للغضبانْ : اكْظِم ، وللبصير : اغضض ، ولذى المقول : اصمُت ، ولمستلذ النوم : تهجَّد ، ولمن مات حبيبه : اصبر ، ولمن أُصيب فى بدنه : اشكر ، وللواقف فى الجهاد بين الغمرات : لا يحل أن تفر ، ثم اعلم أن الموت يأتى بأصعب المرارات ، فينْزَع الرّوح عن البدن ، فإذا نزل فاثْبُت ، واعلم أنك ممزق فى القبر فلا تتسخّط ؛ لأنه مما يجرى به القدر ، وإن وقع بك مرض فلا تَشْكُ إلى الخلق ، فهل للملائكة من هذه الأشياء شىء؟ وهل ثم إلا عبادة سَاذَجَة ليس فيها مقاومةُ طَبْع ، ولا رد هوى ، وهل هى إلا عبادة صوريَّة بين ركُوع وسجود وتسْبيح ، فأين عبادتهم المعنوية من عبَادتنا ؟ ثم أكثرهم فى خدمتنا بين كتَبَة علينا ، ودافِعين عنا ، ومسخَّرين لإرسال الريح والمطر ،

(١) سورة البقرة ، آية ٣٢ (٢) سورة البقرة ، آية : ٣٣ . (٣) سورة الأنبياء ، آية : ٢٩.

وأكبر وظائفهم الاستغفار لنا ، فكيف يفضَّلون علينا بلا علّة ظاهرة ؟ وإذا ما حكمت على مَحَكِّ التجارب طائفة منهم مثل ما روى عن هاروت وماروت ، خرجوا أقبح من بُهرُج [1] ، ولا تظننَّ أنى أعتقد فى تعبُّد الملائكة نوع تقصير ؛ لأنهم شديدو الإشفاق والخوف ؛ لعلمهم بعظمة الخالق، لكن طمأنينة من لم يخطئ ، تقوِّى نفسه ، وانزعاج الغائص فى الزلل ، تُرقى روحه إلى التَّراقى ، فاعرفوا إخوانى شرف أقداركم ، وصونوا جواهركم عن تدنيسها بلوم الذنوب ، فأنتم معرض الفضل على الملائكة ، فاحذروا أن تحطّكم الذنوب إلى حضيض البَهَائم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

٤٣ - فصل : علم الإنسان محدود

رأيت كثيرًا من الخلق وعالمًا من العلماء ، لا ينتهون عن البحث عن أصول الأشياء التى أمروا بجهل علمها ، وترك البحث عن حقائقها ، كالروح مثلاً ؛ فإن الله -تعالى- سترها بقوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمرِ رَبِّى ﴾ [2] فلم يقنعوا ، وأخذوا يبحثون عن ماهيتها ولا يقعون بشىء ، ولا يثبت لأحد منهم بُرْهَان على ما يدَّعيه ، وكذلك العقل ؛ فإنه موجود بلا شكّ ، كما أن الروح موجودة بلا شك ، كلاهما يعرف بآثاره لا بحقيقة ذاته .

فإن قال قائل : فما السر فى كَتْم هذه الأشياء ؟ قلت : لأن النفس ما تزال تترقّى من حالة إلى حالة ، فلو اطلعت على هذه الأشياء ، لترقَّت إلى خالقها ، فكان ستر ما دونَهُ زيادة فى تعظيمه ؛ لأنه إذا كان بعض مخلوقاته لا يعلم كنهه ، فهو أجل وأعلى .

ولو قال قائل : ما الصَّواعق ؟ وما البَرْق ؟ وما الزَّلازل ؟ قلنا : شىء مزعج ويكفى، والسر فى سَتْر هذا أنه لو كشفت حقائقه ، خَفَّ مقدار تعظيمه ، ومن تلمَّح هذا الفصل، علم أنه فصل عزيز ، فإذا ثبت هذا فى المخلوقات ، فالخَالق أجل وأعلى ، فينبغى أن يوقف فى إثباته على دليل وجوده ، ثم يستدل على جواز بَعْثه رسله ، ثم تتلقى أوصافه من كتبه ورسله ، ولا يُزَاد على ذلك ، ولقد بَحث خلق كثير عن صفَاته بآرائهم ، فعاد وبالُ ذلك عليهم ، وإذا قلنا : إنه موجود ، وعلمنا من كلامه أنه سميع ، بصير ، حى، قادر ، كفانا هذا فى صفاته ، ولا نخوض فى شىء آخر .

وكذلك نقول : متكلم والقرآن كلامه ، ولا نتكلَّف ما فوق ذلك ، ولم يقل السّلف: تلاوةٌ ومتْلُو ، وقراءة ومقْرُوء ، ولا قالوا : استوى على العرش بذاته ، ولا قالوا ينْزِل بذاته ، بل أطلقوا ما ورد من غير زيادة ، ونقول لما لم يثبت بالدليل ما لا يَجُوز عليه ،

---

(١) البهرج : الردىء والزائف من الأشياء كما فى اللسان . (٢) سورة الإسراء ، آية : ٨٥.

وهذه كلمات كالمثال ، فقس عليها جميع الصفات تفز سليمًا من تعطيل ، متخلصًا من تشبيه [1] .

٤٤ - فصل : سر وجود الهمل

رأيت أكثر الخلق فى وجودهم كالمعدومين ، فمنهم من لا يعرف الخالق ، ومنهم من يثبته على مقتضى حسّه ، ومنهم من لا يفهم المقصُود من التكليف ، وترى المترسمين بالزهد يدأبون فى القيام والقعود ، ويتركون الشهوات ، وينسون ما قد أنسوا به من شهوة الشهرة ، وتقبيل الأيادى ، ولو كُلِّم أحدهم قال : ألمثلى يقال هذا ؟ ومَنْ فُلان الفاسق؟ فهؤلاء لا يفهمون المقصود ، وكذلك كثير من العلماء فى احتقارهم غيرهم ، والتكبر فى نُفُوسهم ، فتعجبت كيف يَصْلُح هؤلاء لمجاورة الحق وسُكْنى الجنة فرأيت أن الفائدة فى وجودهم فى الدنيا ، تُجَانس الفائدة فى دخولهم الجنة ، فإنهم فى الدنيا بين معتَبِر به ؛ يعرّف عارف الله سبحانه نعمة الله عليه ، بما كشف له مما غَطَّى عن ذاك ، ويتم النظام بالاقتداء ، تصور أولئك [2] ؛ فإن العارف لا يتسع وقته لمخالطة من يقف مع الصُّورة ، فالزاهد كراعى البَهْم ، والعالم كمؤدّب الصبيان ، والعارف كملقن الحكمة ، ولولا نفَاط[3] الملك وحارسه ووقاد أتونه [4] ، ما تم عيشه ، فمن تمام عيْش العارف استعمال أولئك بحسَبهم ، فإذا وصلوا إليه حرَّر مانعهم ، وفيهم من لا يَصل إليه ، فيكون وجود أولئك كزيادة - لا - فى الكلام : هى حشو ، وهى مؤكدة .

فإن قال قائل : فهب هذا يصحُّ فى الدنيا ، فكيف فى الجنة ؟

والجواب : أن الأنس بالجيران مطلوب ، ورؤية القَاصِر من تمام لذة الكامِل ، ولكُل شرب . ومن تأمل ما أشرت إليه ، كفاة رمز لفظى عن تطويل الشَّرْح .

٤٥ - فصل : التعلق بالله وحده

لما تلمَّحت تدبير الصانع فى سَوْق رزقى ؛ بتسخير السحاب ، وإنزال المطر برفق ،

---

(١) التعطيل : تعطيل الذات الإلهية عن الصفات وهو المذهب الذى ينزه الله عن مشابهة الحوادث وصاحب هذا المذهب هو الجهم بن صفوان . . أما التشبيه هو إثبات هذه الصفات على معنى الجوارح المعلومة لله عز وجل .

(٢) الكلام هنا يوحى بالنقصان وقد زيدت فى بعض النسخ « أو تابع يتم به العمران وتقوم به المعايش وإنما تصلح الحياة بهذا التفاوت البعيد ثم بين الخاصة فروق » ، ومن : « ويتم النظام تصور أولئك » غير موجود فى تلك النسخة .

(٣) النفاط : جالب النفط وهو الزيت للوقود . (٤) الأتون : الفرن الذى يستخدم فى الطهى .

والبَذْر دفين تحت الأرض كالموتى ، قد عفن ينتظر نفخة من صور الحياة ، فإذا أصابته اهتز خَضِرًا ، وإذا انقطع عنه الماء مد يد الطلب يستعطى ، وأمال رأسه خاضعًا ، ولبس حلل التغير ، فهو محتاج إلى ما أنا محتاج إليه من حرارة الشمس ، وبرودة الماء ، ولطف النسيم ، وتربية الأرض ، فسبحان من أرانى فيما يربِّينى به كيف تربيتى فى الأصل ! فيأيتها النفس التى قد اطلعت على بعض حِكَمه ، قبح بك والله الإقبال على غيره ، ثم العجب كيف تُقْبِلين على فقير مثلك ، يناديني لسان حاله : بى مثل ما بك ، يا حمام ! فارجعى إلى الأصل الأول ، واطلبى من المسبب ، ويا طوبى لك إن عرفتيه ؛ فإن عرفانه ملك الدنيا والآخرة .

٤٦ – فصل : فوائد العزلة

كنت فى بداية الصَّبْوة قد أُلهمْت سلوك طريق الزهاد ، بإدامة الصوم والصلاة ، وحُبِّبت إلىّ الخلوة ؛ فكنت أجد قلبًا طيبًا ، وكانت عين بَصيرتى قوية الحدة ، تتأسف على لحظة تمضى فى غير طاعة ، وتبادر الوَقْت فى اغتنام الطاعات ، ولى نوع أُنس وحلاوة مناجاة ، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامى ، فأمالنى إليه فمال الطبع ، ففقدت تلك الحَلاوة ، ثم استمالنى آخر ، فكنت أتقى مخالطته ومطاعمه ؛ لخوف الشبهات ، وكانت حالتى قريبة ، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يُبَاح ، فَعَدِم ما كنت أجد من استنارة وسكينة وصارت المخالطة توجب ظلمة فى القلب ، إلى أن عَدِم النور كله ، فكان حنينى إلى ما ضاع منى يوجب انزعاج أهل المجلس ، فيتوبون ويصلحون ، وأخرج مفلسًا فيما بينى وبين حالى ، وكثر ضَجيجى من مرضى ، وعَجَزت عن طب نفسى ، فلجأت إلى قبور الصالحين [1] ، وتوسَّلت فى صلاحى ، فاجتَذَبنى لطف مولاى إلى الخلوة على كراهة منى ، وردَّ قلبى علىّ بعد نفوره عنى ، وأرانى عيب ما كنت أُؤْثِره .

فأفقت من مرض غفلتى ! وقلت فى مناجاة خلوتى : سيدى كيف أقدر على شكرك ؟ وبأى لسان أنطق بمدحك ؟ إذ لم تؤاخذنى على غفلتى ، ونبهتنى من رَقْدتى ، وأصلحت حالى على كُرْه من طبعى ، فما أربحنى فيما سُلِبَ منى ؛ إذا كانت ثمرته اللَّجأ إليك ، وما أوفر جَمْعى ؛ إذ ثمرته إقبال على الخلوة بك .

وما أغْنَانى إذ أفقرتنى إليك ، وما آنسنى إذ أوحَشْتنى من خلقك ، آه على زمان ضاع

---

(١) لعل المصنف يقصد بذلك زيارة قبور الصالحين تذكرا بأقوالهم وليس تعظيم القبور لأن الشارع نهى عن ذلك .

فى غير خدمتك ! أسفًا لوقت مضى فى غير طاعتك ! قد كنت إذا انتبهت وقت الفجر، لا يؤلمنى نومى طوال الليل ، وإذا انسلخ عنى النهار ، لا يوجعنى ضياع ذلك اليوم ، وما علمت أن عدم الإحساس لقوة المرض ، فالآن قد هبَّت نسائم العافية ، فأحسست بالألم فاستدللت على الصّحة .

فيا عظيم الإنعام تمم لى العافية ، آه من سكير لم يعلمْ قدر عربدَته إلا فى وقت الإفاقة؟ لقد فتَقْت ما يصعب رتقه . فوا أسفًا على بضاعة ضاعت ، وعلى مَلّاح تعب فى موج الشمال مصاعدًا مدة ، ثم غلبه النوم فَرُدَّ إلى مكانه الأول .

يا من يقرأ تحذيرى من التَّخْليط ؛ فإنى وإن كنت خُنْتُ نفسى بالفعل ، نصيح لإخوانى بالقول ، احذروا إخوانى من الترخّص فيما لا يؤمَن فساده ؛ فإن الشيطان يزيّن المباح فى أول مرتبة ، ثم يجر إلىّ الجُنَاح ، فتلمحوا المآل وافهموا الحال .

وربما أراكم الغاية الصالحة، وكان فى الطريق إليها نوع مخالفة ، فيكفى الاعتبار فى تلك الحال ، بأبيكم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾ [1] ؟

إنما تأمل آدم الغاية وهى الخلد ، ولكنه غلط فى الطريق ، وهذا أعجب مصايد إبليس يصيد بها العلماء ، يتأولون لعواقب المصالح ، فيستعجلون ضرَر المفاسد ؛ مثاله أن يقول للعالم : ادخل على هذا الظالم فاشفع فى مظلوم ، فيستَعْجل الداخل رؤية المنكرات ، ويتزلزل دينه ، وربما وقع فى شَرَك صار به أظلم من ذلك الظّالم ، فمن لم يثق بدينه ، فليَحْذر من المصائد ، فإنها خفيَّة ، وأسلم ما للجبان العزلة ، خصوصًا فى زمان قد مات فيه المعْرُوف وعاش المنكر، ولم يبق لأهل العلم وقْع عند الولاة ، فمن داخلهم ، دخل معهم فيما لا يجُوز ، ولم يقدر على جذبهم مما هُمْ فيه .

ثم من تأمّل العلماء الذين يعملون لهم فى الولايات ، يراهم منسلخين من نفع العلم قد صاروا كالشّرطة ، فليس إلا العزلة عن الخلق ، والإعراض عن كل تأويل فاسد فى المخالطة ، ولأنْ أنفع نفسى وحدى ، خير لى من أن أنفع غيرى وأتَضرّر .

فالحذَر الحذَر من خوادع التأويلات ، وفواسد الفتاوى ، والصبرَ الصبرَ على ما توجبه العُزْلة ؛ فإنه إن انفردْتَ بمولاك ، فتح لك باب معرفته ، فهانَ كل صعب ، وطاب كل مرٍّ ، وتيسر كلَ عُسْر ، وحصّلت كل مطلوب ، والله الموفق بفضله، ولا حول ولا قوة إلا به .

---

(١) سورة طه ، آية : ١٢٠ .

٤٧ - فصل : تأويل مريب من وساوس النفس

تأملت على نفسى تأويلاً فى مُباحٍ ، أنال به شيئًا من الدنيا ، إلا أنه فى باب الورع كَدر ، فرأيت أولاً قد احتلب دُرّ الدين ، فذهبت حلاوة المعاملة لله - تعالى - ، ثم عاد فَقَلَصَ [١] ضَرْع حلبى له ، فوقع الفقد للحالين ، فقلت لنفسى : ما مثلك إلا كمثل والٍ ظالم جمع من غير حِلّه فصودر ، فأخذ منه الذى جمع وألزم ما لم يجمع .

فالحذرَ الحذرَ من فساد التأويل ؛ فإن الله - تعالى - لا يخادع ، ولا يُنَال ما عنده بمعصيته .

٤٨ - فصل : الوسطية خير الأمور

رأيت نفسى كلما صفًا فكرها ، أو اتعظت بدارجٍ ، أو زارت قبُور الصالحين ، تتحرك همتها فى طلب العُزْلة ، والإقبال على معاملة الله - تعالى - فقلت لها يومًا وقد كلّمتنى فى ذلك : حدثينى ما مقصودك ؟ وما نهاية مطلوبك ؟ أتراك تريدين منى أن أسكن قفرا لا أنيس به ، فتفوتنى صلاة الجماعة ؟ ويضيع منى ما قد علمته لفقد من أعلّمه ، وأن آكُل الجشب [٢] الذى لم أتعوده ، فيقع نضوى طَلْحًا [٣] فى يومين ! وأن ألبس الخشن الذى لا أُطيقُه ، فلا أدرى من كرب مَحْمُولى أين أنا ؟ وأن أتشاغل عن طلب ذريّة تتعبد بعدى مع بقاء القدرة على الطلب .

بالله ما نفعنى العلم الذى بذلْتُ فيه عمرى إن وافقتك ، وأنا أعرفك غلط ما وقع لك بالعلم ، اعلمى أن البدن مطيّة ، والمطية إذا لم يرفق بها ، لم تصل براكبها إلى المنزل، وليس مرادى بالرفق الإكثار من الشهوات ، وإنما أعنى أخذ البُلغة [٤] الصالحة للبدن ، فحينئذ يصفو الفكر ، ويصح العقل ، ويقوى الذهن ، ألا ترى إلى تأثير المعوقات عن صفَاء الذّهن فى قوله - عليه الصلاة والسلام - : « **لا يَقْضِى القَاضِى بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانٌ** » [٥] ، وقاس العلماء على ذلك الجوع وما يجرى مجْراه من كونه حاقنًا أو حَاقبا[٦] ، وهل الطبع إلا ككلب يشغله الآكل ، فإذا رمى له ما يتشاغل به طاب له

---

(١) قلص الضرع : وقف لبنه فلم يعد يحلب .

(٢) الجشب : الطعام الخشن الغليظ سيئ المأكل كما فى القاموس .

(٣) يعنى يكون متعبا من سوء الغذاء .

(٤) البلغة : بضم الباء : ما يتبلغ به من العيش كما فى القاموس .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) الحاقن : من احتبس بوله وقد سبق تعريفه . والحاقب : من احتبس غائطه .

الأكل ، فأما الانفراد والعزلة فعن الشر لا عن الخير ، ولو كان فيها لك وقع خير ، لنقل عن رسول الله - ﷺ - ، وعن أصحابه - رضى الله عنهم - .

هيهات ! لقد عرفت أن أقوامًا دام بهم التقلل واليبس إلى أن تغير فكرهم ، وقوى الخلَط السَّوْداوى عليهم ، فاستوحشوا من الناس ، ومنهم من اجتمعت له من المآكل الرديَّة أخلاط مَجَّه ، فبقى اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل ، وهو يظن ذلك من أمداد اللطف ، وإذا به من سوء الهضم ، وفيهم من ترقَّى به الخلط إلى رؤية الأشباح فيظنها الملائكة .

فاللهَ اللهَ فى العلم ، واللهَ اللهَ فى العقل ، فإن نور العقل لا ينْبَغى أن يتعرض لإطفائه، والعلم لا يجوز الميل إلى تنقيصه ، فإذا حُفِظَا ، حَفَظَا وظائف الزمان ، ودفعًا ما يؤذى ، وجلبًا ما يُصلح ، وصارت القوانين مستقيمة فى المطعم والمشرب والمخالطة ، فقالت لى النفس : فوظِّف لى وظيفة ، واحسبنى مريضًا قد كتبت له شَرْبة . فقلت لها: قد دللتك على العلْم وهو طبيب ملازم ، يصف كل لحظة لكلِّ داء يعْرِض دواءٌ يلائم .

وفى الجملة ينبغى لك ملازَمة تقوى الله - عَزَّ وجَلَّ - فى المنطق والنظر ، وجميع الجوَارح ، وتحقق الحلال فى المطعم ، وإيداع كل لحظة ما يصلح لها من الخير ، ومُنَاهَبَة الزمان فى الأفضل ، ومجانبة ما يؤدّى إلى ما يؤذى من نقص ربح أو وقوع خسران ، ولا تعملى عملاً إلا بعد تقديم النيَّة ، وتأهبى لمزعج الموت فكأن قد ، وما عندك من مجيئه فى أىِّ وقت يكون ، ولا تتعرضى لمصالح البَدَن ، بل وفِّريها عليه وناوليه إياها على قانون الصواب ، لا على مقتضى الهوى ؛ فإن إصلاح البدن سبب لإصلاح الدِّين ، ودعى الرعونة [1] التى يدل عليها الجهل لا العلم ، من قول النفس : فلان يأكل الخَلَّ والبَقْل ، وفلان لا ينام الليل ، فاحْملى ما تطيقين ، وما قد علمْت قوة البدن عليه ؛ فإن البهيمة إذا أقبلت إلى نهر أو ساقية فضُرِبَت لتقفز ، لم تفعل حتى تزن نفسها ، فإن علمتْ فيها قوة الطَّفَر طَفَرت[2] ، وإن علمت أنَّها لا تطيق ، لم تفعل ولو قتلت .

وليس كل الأبدان تتساوى فى الإطاقة، ولقد حمل أقوام من المجاهدات فى بداياتهم أشياء أوجبت أمراضًا قطعتهم عن خير ، وتسخطت قلوبهم بوقوعها ، فعليك بالعلم ؛ فإنه شفاءٌ من كل داء ، والله الموفق .

---

(١) الرعونة الحمق والاسترخاء وقد سبق تعريفها .

(٢) أى : وثبت وقفزت ، والطفر هو الوثب .

٤٩ - فصل : أدعياء للعلم

عجبت من أقوام يدَّعون العلم ، ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها، فلو أنهم أمرُّوها كما جاءت سَلِمُوا ؛ لأن من أمرّ ما جاء ومرَّ من غير اعتراض ولا تعرُّض ، فما قال شيئًا لا لَهُ ولا عليه ، ولكنّ أقوامًا قصرت علومهم ، فرأت أن حمْل الكلام على غير ظاهره نوع تَعْطيل ، ولو فهمُوا سعة اللُّغة ، لم يظنوا هذا ، وما هم إلا بمثابة قول الحجَّاج لكاتبه وقد مدحته الخَنْسَاء [١] فقالت :

إذَا هَـــبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مريضة ... تَتَبعَ أقْصَـى دَائهَـــا فَشَفَاهَـــا

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِى بِهَا ... غُـــلامٌ إذَا هَـــزَّ الْقَنَاةَ شَفَاهَـا

فلما أتمت القصيدة ، قال لكاتبه : اقطع لسانها ، فجاء ذاك الكاتب المغفل بالموسى ، فقالت له : ويلك إنما قال أجزل لها العطاء ، ثم ذهبت إلى الحَجَّاج فقالت : كاد والله يقطع مِقْولى [٢] .

فكذلك الظاهرية الذين لم يسلموا بالتسليم ، فإنه مَنْ قرأ الآيات والأحاديث ولم يزد لم أله ، وهذه طريقة السلف ، فأما من قال : الحَديث يقتضى كذا، ويُحمَل على كذا ، مثل أن يقول : استوى على العرش بذَاته ، وينزل إلى السماء الدنيا بذاته ، فهذه زيادة فَهِمَها قائلها من الحِسِّ لا من النقل .

ولقد عَجِبت لرجل أنْدَلُسِيٍّ يقال له : ابن عبد البر [٣] ، صنَّف كتاب « التمهيد » فذكر فيه حديث النزول إلى السماء الدنيا ، فقال : هذا يدلُّ على أن الله - تعالى - على العرش ؛ لأنه لولا ذلك ، لما كان لقوله : « يَنْزِلُ » معنى [٤] . وهذا كلامُ جاهلٍ بمعرفة الله - عَزَّ وجَلَّ - ؛ لأن هذا استسلف من حسّه ما يعرفه من نزول الأجسام ، فقاس صفة الحق عليه ، فأين هؤلاء واتِّباع الأثر ، ولقد تكلموا بأقبح ما يتكَلَّم به المتأولون ، ثم عابوا المتكَلِّمين .

واعلم أيها الطالب للرَّشاد ، أنه قد سبق إلينا من العقل والنقل أصلان راسخان ، عليهما مر الأحاديث كلها :

---

(١) هى تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمى أسلمت ومراثيها فى أخيها صخر مشهورة .

(٢) المقول : بكسر الميم : اللسان

(٣) هو أبو عمرو الإمام الحافظ يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر له كتب كثيرة منها التمهيد، وجامع بيان العلم وفضله توفى سنة (٤٦٣ هـ) .

(٤) لعله لم يطلع على هذا الكتاب فإن ابن عبد البر من أئمة أهل السنة

أما النقل فقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [1] . ومن فهم هذا لم يحمل وصفًا له على ما يوجِبُه الحس .

وأما العقل : فإنه قد علم مباينة الصّانع للمصنوعات ، واستدل على حدوثها بتغيرها، ودخول الانفعال عليها، فثبت له قدم الصانع ، واعجبًا كل العجب من رادٍّ لم يفهم طبيعة الكلام ؟

أليس فى الحديث الصحيح : « أنَّ المَوتَ يُذبَحُ بيْنَ الجنَّة والنَّار » [2] ؟ أو لَيس العقل إذا استغنى فى هذا صرف الأمر عن حقيقته لما ثبت عند من يفهم مَاهيَّة الموت ، فقال : الموت عَرَض يوجب بطلان الحياة ، فكيف يُمَات الموت ؟ فإذا قيل له : فما تصنع بالحديث . قال : هذا ضَرْب مثل بإقامة صورة ، ليعلم بتلك الصّورة الحسية فوات ذلك المَعْنَى .

قلنا له : فقد رُوِى في الصحيح : « تأتى البَقَرَةُ وآل عمران كأنَّهُمَا غَمَامَتَان » [3] . فقال: الكلام لا يكون غَمَامَة ، ولا يَتشَبَّه بها ، قلنا له : أفتعطل النقل ، قالَ : لا ، ولكن أقول يأتى ثوابهما ، قلنا : فما الدليل الصّارف لك عن هذه الحَقَائق ، فقال : علمى بأن الكلام لا يتشبه بالأجسام ، والموت لا يُذْبَح ذبح الأنعام ، ولقد علمتم سعة لغة العرب ، ما ضاقت أعطانكم [4] من سماع مثل هذا ، فقال العلماء : صدقت . هكذا نقول فى تَفْسير مجىء البقرة ، وفى ذبْح الموت ، فقال : واعجبًا لكم ، صرفتم عن الموت والكلام ما لا يليق بهما ؛ حفظًا لما علمتم من حقائقهما ، فكيف لم تصرِفوا عن الإله القديم ما يوجِبُ التشبيه له بخَلقه ، بما قد دل الدَّليل على تنزيهه عنه ، فما زال يُجَادل الخصوم بهذه الأدلة، ويقول : لا أقْطَع حتى أُقطَع ، فما قَطَع حتى قُطِع .

٥٠ - فصل : سر حذف الرجم من القرآن

تفكرت فى السّر الذى أوجب حذف آية الرجم من القرآن لفظًا ، مع ثبوت حكمها إجماعًا ، فوجدت لذلك معنيين :

أحدهما : لطف الله - تعالى - بعباده ؛ فى أنه لا يواجههم بأعظم المشاق ، بل ذكر الجَلْد ، وستر الرجم ، ومن هذا المعنى قال بعض العلماء : إن الله - تعالى - قال فى

(١) سورة الشورى ، آية : ١١ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٧٣٠) ، ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩/ ٤٠) .

(٣) مسلم فى صلاة المسافرين (٨٠٥/٢٥٣) ، وأحمد (٤/ ١٨٣) .

(٤) الأعطان : مرابض الغنم والإبل عند الماء .

المكروهات : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [١] . على لفظ لم يسمَّ فاعله ، وإن كان قد عُلم أنه هو الكاتب ، فلما جاء إلى ما يوجب الرَّاحة قال : ﴿ كَتَبَ ربكم عَلَى نَفْسه الرَّحْمَةَ﴾[٢] .

والوجه الثانى : أنه يبين بذلك فضل الأمة فى بذلها النُّفوس ؛ فنوعًا ببعض الأدلة ، فإن الاتفاق لَّما وقع على ذلك الحكم ، كان دليلاً ، إلا أنه ليس كالدليل المقطوع بنصه

ومن هذا الجنس شُروع الخليل - عليه الصلاة والسلام - فى ذبح ولده بمنام ، وإن كان الوحى فى اليَقَظَة آكد .

٥١ - فصل : قوانين الأسباب والمسببات

عرضت لى حالةٌ لجأت فيها بقلبى إلى الله - تعالى - وحده ؛ عالمًا بأنه لا يقدر على جلب نَفْعى ودفع ضَرِّى سواه ، ثم قمت أتعَرَّض بالأسْبَاب ، فأنكر على يقينى ، وقال: هذا قدْحٌ فى التوكل ، فقلت : ليس كَذَلك ؛ فإن الله تعالى وضعها من الحكَم ، وكان معنى حالى : أن ما وضعت لا يفيد وأن وجوده كالعدم ، وما زالت الأسباب فى الشرع؛ كقوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فيهمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائفَةٌ منهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلحَتَهُمْ ﴾ [٣] ، وقال - تعالى - : ﴿ فَذَرُوهُ فى سُنْبُله ﴾ [٤] .

وقد ظاهر النبى - ﷺ - بين درْعَين ، وشاور طبيبين ، ولما خرج إلى الطائف ، لَم يقدر على دخُول مكة . حتى بعث إلى المُطْعَم بن عَدىّ فقال : أدخل فى جوارك [٥] ، وقد كان يمكنُه أن يدخل متوكِّلاً بلا سبَب ، فإذا جعل الشرع الأُمور منوطة بالأسباب ، كان إعراضى عن الأسباب دفعًا للحكْمَة ؛ ولهذا أرى أن التداوى مندُوب إليه ، وقد ذهب صاحبُ مذهبى [٦] إلى أن ترك التداوى أفضل ، ومَنَعَنى الدليل من اتباعه فى هذا، فإن الحديث الصحيح أن النبى - ﷺ - قال : « مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إلا وأَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً ، فَتَدَاوُوا» [٧] ومرْتبة هذه اللفظة الأمر ، والأمر إما أن يكون واجبًا أو ندبًا ، ولم يسبقه

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٨٣
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٥٤
(٣) سورة النساء ، آية : ١٠٢
(٤) سورة يوسف ، آية : ٤٧ .
(٥) البيهقى فى دلائل النُّبوة (٢/ ٤٥٥) .
(٦) المعروف أن الإمام أحمد كان يتداوى واحتجم حتى يكون متبعاً للسنة ، وكان عنده شعرة من شعر النبى ﷺ يتشفى بها .
(٧) رواه بلفظه أحمد (١/ ٣٧٧) ، والحاكم (٤/ ١٩٧) ، وابن حبان فى صحيحه (٦٠٧) ، وقال سفيان : ما على وجه الأرض اليوم إسناد أجود من هذا . وبنحوه رواه البخارى فى الطب (٥٦٧٨) ، وابن ماجة فى الطب (٣٤٣٦)

حَظْر . فيقال: هو أمر إباحة ، وكانت عائشة - رضى الله عنها - تقول : تعلَّمت الطب من كثرة أمراض رسول الله - ﷺ - وما ينعَت له ، وقال - عليه الصلاة والسلام - لعلىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - : « **كُلْ مِنْ هَذَا فإنَّهُ أوْفَقُ لَكَ مِنْ هَذَا** » (١) .

ومن ذهب إلى أن تركه أفضل احتَجَّ بقوله - عليه الصلاة والسلام - « **يَدْخُلُ الجَنَّةَ سَبْعُونَ ألفًا بلا حسَاب** » ، ثم وصفهم فقال : « **لا يَكْتَوُونَ ، وَلا يَسْتَرِقُونَ وَلا يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** » (٢) وهذا لا ينافى التداوى ؛ لأنه قد كان أقوام يكتَوُون لئلا يمرضوا، ويسترقون لئلا تصيبهم نَكْبَة ، وقد كوَى - عليه الصلاة والسلام - أسْعَد بن زُرَارَة ، ورخَّص فى الرُّقْية فى الحديث الصحيح (٣) ، فعلمنا أن المراد ما أشرنا إليه .

وإذا عرفت الحاجة إلى إسهال الطبع ، رأيت أن أكل البَلوط مما يمنع عنه علمى ، وشرب ماء التَّمر هندى أوْفَق، وهذا طِبٌّ ، فإذا لم أشرب ما يوافقنى ، ثم قلت : اللَّهم عافنى ، قالت لى الحكمة: أما سمعت : « **اعقلْها وتوكَّل** » (٤) ؟ اشرب وقل : عَافِنى، ولا تكن كمن بَيْن زرعه وبين النهر كَفٌّ من تراب ، تكَاسَل أن يرفعه بيده ، ثم قام يصَلِّى صلاة الاستسقاء .

وما هذه الحَالة إلا كحال من سَافر على التَّجْرِبة ، وإنما سافر على التجربة ؛ لأنه يجرب بربه - عَزَّ وجَلَّ - هل يرزقه أو لا ؟ وقد تقدّم الأمر إليه : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا** ﴾ (٥) فقال : لا أتزود ، فهذا هالك قبل أن يهلكه ، ولو جاء وقت صلاة وليس معه ماءٌ ، لِيم على تفريطه ، وقيل له : هلا استَصْحَبْت الماء قبل المفازة ، فالحذرَ الحذرَ من أفعال أقوام دققوا فمرقوا عن الأوضاع الدينية . وظنوا أن كمال الدين بالخروج عن الطباع، والمخالفة للأوضاع ، ولولا قوة العلم والرسوخ فيه ، لما قَدَرْت على شرح هذا ولا عرفته، فافهم ما أشرْت إليه ، فهو أنفع لك من كراريس تسمعها ، ولكن مع أهل المعانى لا مع أهل الحشو .

٥٢ - فصل : النظافة من الإيمان

تلمَّحت على خلق كثير من الناس إهمال أبدانهم ، فمنهم من لا ينَظِّف فمه بالخلال(٦)

---

(١) أحمد ٦/ ٣٦٤) ، وأبو داود فى الطب (٣٨٥٦) ، والترمذى فى الطب (٢٠٣٧) ، وابن ماجة فى الطب (٣٤٤٢) .

(٢) البخارى فى الطب (٥٧٥٢) ، ومسلم فى الإيمان (٢١٨/ ٣٧١)

(٣) البخارى فى الطب (٥٧٣٨ ، ٥٧٣٩) ، ومسلم فى السلام (٢١٩٣) .

(٤) الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٧) ، وقال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٩٧ .

(٦) العود الذى يخلل به أسنانه

بعد الأكل ، ومنهم من لا ينَقّى يديه فى غسلها من الزَّهَم [١] ، ومنهم من لا يكاد يستاك، وفيهم من لا يكْتَحل ، وفيهم من لا يراعى الإبط إلى غير ذلك ، فيعود هذا الإهمال بالخَلل فى الدين والدنيا .

أما الدين فإنه قد أمر المؤمن بالتنظف والاغتسال للجُمُعة ؛ لأجل اجتماعه بالناس ، ونَهى عن دخول المسجد إذا أكل الثَّوم ، وأمر الشرع بتنقِيَة البراجم [٢] ، وقص الأظفار، والسِّواك ، والاستحداد ، وغير ذلك من الآداب .

فإذا أهمل ذلك ترك مسنون الشرع ، وربما تعدَّى بعض ذلك إلى فساد العبادة ، مثل أن يهمل أظفاره ، فيجمع تحته الوَسَخ المانع للمَاء فى الوضوء أن يصل .

وأما الدُّنيا فإنى رأيت جماعة من المهْملين أنفسهم ، يتقدَّمون إلى السرار [٣] .

والغفلة التى أوجبت إهمالهم أنفسهم ، أوجبت جهلهم بالأذى الحادث عنهم ، فإذا أخذوا فى مناجاة السِّر ، لم يمكن أن أصدف [٤] عنهم ؛ لأنهم يقصدون السِّر ، فألْقى الشدائد من ريح أفواههم ، ولعل أكثرهم من وقت انتباههم ما أمَرّ أصبعه على أسنانه ، ثم يوجب مثل هذا نُفُور المرأة ، وقد لا تستَحسن ذكر ذلك للرجل ، فيثْمر ذلك التفاتها عنه ، وقد كان ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول : إنى لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى ، وفى الناس من يقول : هذا تصنُّع وليس بشىء ، فإن الله - تعالى - زيننا لما خلقَنَا ؛ لأن للعين حظا فى النظر ، ومن تأمل أهداب العين والحاجبين وحسن ترتيب الخلقة ، علم أن الله - تعالى - زيّن الآدمى ، وقد كان النبى - ﷺ - أنظف النّاس وأطيب الناس ، وفى الحديث عنه - ﷺ - : « يَرْفَعُ يَدَيْهِ حتَّى تَبِينَ عُفْرَة إبطيه »[٥] ، وكان ساقه ربما انكشف فكأنها جمارة [٦] ، وكان لا يفارقه السّواك ، وكان يكره أن يُشَم منه ريح ليست طيبة ، وفى حديث أنس الصحيح: «مَا شَانَهُ اللهُ بِبَيْضَاءَ»[٧].

وقد قالت الحكماء : من نظف ثوبه ، قل همه ، ومن طاب ريحُه ، زاد عقْله ، وقال - عليه الصلاة والسلام - لأصحابه : « مَا لَكُمْ تَدْخُلُونَ عَلَىَّ قُلْحًا اسْتَاكُوا » [٨] ، وقد

---

(١) الزهم : الزهمة : الريح المنتنة الملصقة باليد من تناول الطعام كما فى القاموس .

(٢) البراجم : مفاصل الأصابع وما بينها .

(٣) السرار : المناجاة فى السر .

(٤) أصدف : أعرض عنهم

(٥) البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٣٦)

(٦) جمار النخل أى : قلبها

(٧) رواه مسلم فى الفضائل (٢٣٤١/ ١٠) عن أنس

(٨) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٢١٤) ، والطبرانى فى الكبير كما فى مجمع الزوائد (١/ ٢٢١) ، وقال الهيثمى : فيه أبو على الصيقل مجهول .

فُضِّلت الصلاة بالسواك ، على الصلاة بغير سوَاك ، فالمتنظف ينعم نفسه ، ويرْفَع منها قدرها ، وقد قال الحكماء : من طال ظُفْرُه قصرت يده ، ثم إنه يقرّب من قلوب الخلق ، وتحبه النفوس ؛ لنظافته وطيبه ، وقد كان النَّبى - ﷺ - يحب الطِّيب ، ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال ، فإن النِّساء شقائق الرجال ، فكما أنه يكْره الشىء منها ، فكذلك هى تكْرَهُه ، وربما صبر هو على ما يكْرَه ، وهى لا تصبر .

وقد رأيت جَماعة يزعمون أَنَّهُم زهاد . وهم من أقْذَر الناس ، وذلك أنهم ما قَوَّمهم العلم ، وأما ما يُحكَى عن دَاوُد الطَّائىّ [1] ؛ أنه قيل له : لو سَرَّحت لحيتك ، فقال : إنى عنها مشغول ، فهذا قول معتذر عن العمل بالسنة، والإخبار عن غيبته عن نفسه بشدَّة خوفه من الآخرة ، ولو كان مُفيقًا لذلك ، لم يتركه ، فلا يحتجّ بحال المغلوبين ، ومَن تأمل خصَائص الرسول - ﷺ - رأى كاملاً فى العلم والعمل ، فبه يكون الاقتداء ، وهو الحُجَّة على الخلق .

٥٣ - فصل : خشونة العيش

تأملت مبالغة أرباب الدنيا فى اتِّقاء الحر والبرد ، فرأيتها تعكس المقصُود فى باب الحكمة ، وإنما تحصل مجرد لذة ، ولا خير فى لذة تعقب ألمًا ، فاما الحرّ فإنهم يشربون الماء المثْلُوج ، وذلك على غاية فى الضَّرر ، وأهل الطب يقولون : إنه يحدث أمراضًا صعبة يظهر أثرها فى وقت الشَّيْخُوخة ، ويصنعون الخيوش [2] المضَاعَفة ، وفى البرد يصنَعون اللّبود [3] المانعة للبرد ، وهذا من حَيْث الحكمة - مُضادٌ ما وضعه الله - تعالى - ؛ فإنه جعل الحر لتحلل الأخْلاط ، والبرد لجمودها ، فيجعلون هم جميع السَّنَة ربيعًا ، فتنعكس الحِكْمَة التى وضع الحر والبرد لها ، ويرجع الأذى على الأبدان ، ولا يظنن سامع هذا أنى آمره بملاقَاة الحر والبرد ، وإنما أقول له : لا يفرِط فى التوقِّى ، بل ويتعرض فى الحر لما يحلِّل بعض الأخْلاط ، إلى حَدٍّ لا يؤثر فى القوَّة ، وفى البرد بأن يصيبك منه الأمر القَرِيبُ لا المؤذى ؛ فإن الحرَّ والبَرْدَ لمصالح البدن ، وقد كان بعض الأُمَرَاء يصون نفسه من الحَرّ والبرد أصلاً ، فتغيرت حالته فمات عاجلاً ، وقد ذكرت قصته فى كتاب « لَقط المَنَافعْ فِى علْم الطّبِّ » .

٥٤ - فصل : فلسفة الصبر والرضا وحقيقتهما

ليس فى التكليف أصْعَب من الصبر على القضاء ، ولا فيه أفْضل من الرّضى به، فأما

(١) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائى الأوفى ، توفى سنة (١٦٢ هـ) .
(٢) الخيوش ثياب رديئة من الكتان (٣) اللبود : الجلد

الصبر : فهو فرض ، وأما الرضا : فهو فضل ، وإنما صعب الصبر ؛ لأن القدر يَجْرى فى الأغلب بمكْروه النفس ، وليس مكروه النَّفس يقف على المَرْض والأذى فى البدن ، بل هو يتنوَّع حتى يتحيَّر العقل فى حكمة جريان القَدَر .

فمن ذلك : أنك إذا رأيت مغموراً بالدنيا قد سالت له أوديتُها ، حتى لا يدرى ما يصْنَع بالمال ، فهو يصُوغه أوانى يستعملها . ومعلوم أن البِلَّوْر والعَقِيق والشَّبه ، قد يكون أحْسَن منها صورة ، غير أن قلة مبالاته بالشريعة ، جعلت عنده وجود النَّهى كعدمه ، ويلبس الحرير ، ويظلم الناس ، والدنيا منصَبَّة عليه ، ثم يرى خلقًا من أهل الدين وطلاب العلم مغمورين بالفَقْر والبلاء ، مقهورين تحت ولاية ذلك الظالم ، فحينئذ يجد الشيطان طريقاً للوسْوَاس ، ويبتدئ بالقدح فى حِكْمة القدر .

فيحتاج المؤمن إلى صبر على ما يلقى من الضُّر فى الدنيا ، وعلى جدال إبليس فى ذلك ، وكذلك فى تسْلِيط الكفّار على المسلمين ، والفُسّاق على أهل الدين . وأبلغ من هذا إيلام الحيوان ، وتَعْذيب الأطفال ، ففى مثل هذه المواطن يتمحَّص الإيمان ، ومما يقوِّى الصبر على الحالتين النقل والعقل .

أما النقل : فالقرآن والسُّنَّة :

أما القرآن : فمنقسم إلى قسْمَيْن : **أحدهما** : بيان سبب إعْطاء الكافر والعاصى ؛ فمن ذلك قوله - تعالى - : **﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾** [1] ، **﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾** [2] ، **﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾** [3] . وفى القرآن من هذا كثير .

والقسم الثانى : ابتلاء المؤمن بما يَلْقى ؛ كقوله تعالى : **﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾** [4] ، **﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾** [5] ، **﴿ أَمْ حَسِبْتُم أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾** [6] ، وفى القرآن من هذا كثير .

وأما السنة : فمنقسمة إلى قول ، وحال :

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٧٨
(٢) سورة الزخرف ، آية ٣٣
(٣) سورة الإسراء ، آية ١٦
(٤) سورة آل عمران ، آية ١٤٢
(٥) سورة البقرة ، آية ٢١٤
(٦) سورة التوبة ، آية ١٦

أما الحال . فإنه ﷺ كان يتقلَّب على رِمَال حَصير تؤثِّر فى جنبه ، فبكى عمر - رضى الله عنه - ، وقال : كسْرَى وَقَيْصَر فى الحرير والدِّيبَاج ، فقال له - ﷺ - : « **أفى شَكٌّ أنْتَ يَا عُمَرُ ؟ ألا تَرْضَى أنْ تَكُونَ لَنَا الآخرَةُ ولَهُمْ الدُّنْيَا ؟** » [1] .

وأما القول : فكقوله - عليه الصلاة والسلام - : « **لَوْ أنَّ الدُّنْيَا تُسَاوِى عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةَ ، مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاء** » [2] .

وأما العقل : فإنه يقوى عساكر الصبر بجنود ؛ منها أن يقول : قد ثبتَت عندى الأدلة القاطعة على حِكْمة المقدّر ، فلا أترك الأصل الثابت لما يظنه الجاهل خللاً ، ومنها أن يقول : ما قد استَهْوَلْتَه أيها الناظر من بَسْط يد العاصى ، هى قَبْض فى المعنى ، وما قد أثر عندك من قَبْض يد الطائع ، بسط فى المعنى ؛ لأن ذلك البسط يوجبُ عقابًا طويلاً ، وهذا القبض يؤثر انبساطًا فى الأجْر جزيلاً ، فزمَان الرجلين يَنْقَضى عن قريب ، والمراحل تُطْوى ، والركبان فى السير الحثيث .

ومنها أن يقول : قد ثَبَت أن المؤمن بالله كالأجير ، وأن زمن التكليف كبياض نَهَار ، ولاينبغى للمستَعْمل فى الطين أن يلبس نظيف الثياب ، بل ينبغى أن يُصَابر ساعات العمل ، فإذا فرغ تَنَظف ولبس أجود ثيابه ، فمن ترفّه وقت العمل ندم وقت تفريق الأجرة . وعوقب على التَّوانى فيما كلف ، فهذه النُّبذة تقوى أزْر الصبر .

وأزيدها بسطًا فأقول : أترى إذا أريد اتخاذ شهداء ، فكيف لا يُخلق أقوام يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين ، أفيجُوز أن يَفْتك بعمر إلا مثل أبى لُؤْلُؤة [3] ؟ وبعلىٍّ إلا مثل ابن مُلْجَم [4] ؟ أفيصح أن يَقْتُل يحيى بن زكريا إلا جبار كافر ، ولو أن عين الفهم زال عنها غشَاء العشا ، لرأيت المسبب لا الأسباب ، والمقدر لا الأقدار ، فصبرت على بلائه ، إيثارًا لما يريد ، ومن ههنا ينشأ الرِّضى .

كما قيل لبعض أهل البلاء : ادع الله بالعافية ، فقال : أحَبُّه إلىّ أحَبُّهُ إلى الله - عَزَّ وجَلَّ - :

---

(١) رواه البخارى فى التفسير ، (٤٩١٣) ، ومسلم فى الطلاق (٣١/١٤٧٩) ، وأحمد فى المسند (٤٣/١) من حديث طويل .

(٢) رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٢٠) ، وقال:حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وابن ماجة فى الزهد (٤١١٠) ، وفى الزوائد : زكريا بن منظور ضعيف ، وفيه : إن أصل المتن صحيح .

(٣) هو عدو الله المجوسى فيروز غلام المغيرة بن شعبة وكان فى سبى نهاوند ، وهو الذى قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى صلاة الفجر .

(٤) هو عبد الرحمن بن ملجم وكان من الخوارج ، وهو الذى قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

إنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِى سَهَرِى   فَسَـــلامُ اللهِ عَلَـــى وَسَنِى (١)

٥٥ - فصل : الرضا عن الله هو الغنى الأكبر

لما أنهيت كتابة الفصل المتقدم ، هتف بى هاتف من باطنى : دعنى من شرح الصبر على الأقدار ، فإنى قد اكتفيت بأُنْمُوذج ما شرحت ، وصِفْ حال الرضى ؛ فإنى أجد نسيمًا من ذكره فيه رُوح (٢) للرُّوح ، فقلت : أيها الهاتف اسْمع الجواب وافهم الصواب، إن الرضى من جملة ثمرات المعرفة ، فإذا عرفته ، رضيت بقضائه ، وقد يَجْرى فى ضمن القضاء مرارات يجد بعض طعْمها الرَّاضى ، أما العَارف فتقل عنده المرارات ؛ لقوة حلاوة المعرفة ، فإذا ترقَّى بالمعرفة إلى المحبة ، صارت مرارة الأقدار حلاوة ؛ كما قال القائل :

عَذَابُـــهُ فِيـكَ عَذْبُ   وَبُعْـــدُهُ فِيـك قُرْبُ
وَأَنْتَ عِنْدِى كَرَوحِى   بَـلْ أَنْتَ مِنْهَا أَحَبُّ
حَسْبِى مِنَ الْحُبِّ أَنِّى   لِمَا تُحِبُّ أُحِـــبُّ

وقال بَعْض المحبين فى هذا المعنى :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِى   فَتَفْعَلُـــهُ فَيَحْسُـنُ مِنْكَ ذَاكَا

فصاح بى الهاتف : حدِّثنى بماذا أرضى ، قَدِّرْ أنى أرضى فى أقداره بالمرض والفقر ، أفأرْضَى بالكسل عن خدمته ، والبعد عن أهل مَحبَّته ؟ فبين لى ما الذى يدخل تحت الرِّضى مما لا يدخل ، فقلت له : نعْم ما سألت ، فاسمع الفرق سماع من ألقى السمع وهو شَهِيد ، ارضَ بما كان مَنه ، فأمَّا الكسل والتخلف فذاك منسوب إليك ، فلا ترض به من فعْلك ، وكن مستوفيًا حقه عليك ، مناقشًا نفسك فيما يقربك منه ، غير راضٍ منها بالتَّوانى فى المجاهدة ، فأما ما يصدر من أقْضيته المجردة التى لا كسب لك فيها ، فكن راضيًا بها ؛ كما قالت رابعة - رحمة الله عليها - وقد ذُكِر عندها رجل من العباد يلتقط من مزبلة فيأكل - فقيل : هلا سأل الله - تعالى - أن يجعل رزقه من غير هذا ؟ فقالت: إن الراضى لا يتخير ، ومن ذاق طعم المعرفة وجد فيه طعم المحبة فوقع الرضى عنده ضرورة .

---

(١) الوسن : النعاس أو شدة النوم أو أوله كما فى القاموس .

(٢) الروح : الاستراحة .

فينبغى الاجتهاد فى طلب المعرفة بالأدلة ، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجدّ فى الخدمة ، لعل ذلك يورثُ المحبة ؛ فقد قال - سبحانه وتعالى- : « **لا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بالنَّوَافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ به ، وبَصَرَهُ الَّذى يُبْصِرُ به** »(١) فذلك الغنَى الأكبر ، ووافقراه !!

٥٦ - فصل : طلب العلم وطلب المعاش

رأيت جُمْهُور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم فى زمن الصِّبا عن المعاش ، فيحتَاجُون إلى ما لا بُدَّ منه ، فلا يَصلهم من بيت المال شىءٌ ، ولا من صلات الإخوان ما يكفى ، فيحتاجون إلى التعرض للإذلال ، فلم أر فى ذلك من الحِكْمة إلا سببين :

أحدهما : قمع إعجابهم بهذا الإذلال . **والثانى** : نفع أولئك بثوابهم .

ثم أمعنْت الفكر فتلمحت نكْتَة لطيفة ، وهو أن النفس الأبيَّة إذا رأت حال الدنيا كَذَلك ، لم تساكنْها بالقلب ، ونَبَتْ (٢) عنها بالعَزم ورأت أقربَ الأشياء شبهًا بها مزبلة عليها الكلابُ ، أو غائطًا يؤتَى لضرورة ، فإذا نزل الموت بالرّحلة عن مثل هذه الدار ، لم يكن للقلب بها متعلّق متمكن ، فتَهُون حينئذ .

٥٧ - فصل : خلط الزهاد

ما زال جماعة من المتزهدين يَزرُون (٣) على كثير من العلماء ، إذا انبسطوا فى مباحات، والذى يحملهم على هذا الجهل ، فلو كان عندهم فضل علْم ما عابوهم ؛ وهذا لأن الطباع لا تَتَسَاوى ، فربَّ شخص يصلح على خشُونة العيش ، وآخر لا يصلح على ذلك، ولا يجُوز لأحد أن يحمل غيره على ما يُطيقُه هو .

غير أنّ لنا ضابطًا هو الشرع ، فيه الرخصة وفيه العزيمة ، فلا ينبغى أن يلام من حصر نفسه فى ذلك الضَّابط ، وربَّ رخصة كانت أفضل من عزائم لتأثير نفعها ، ولو علم المتزهدون أن العلم يوجبُ المعرفة بالله - تعالى - ، فتنبتّ (٤) القلوب من خوفه ، وتَنْحَلُّ الأجسام للحذر منه ، فوجب التلطف بالأجسام حفظًا لقوة الراحلة ؛ ولأن آلة العلم والحفظ : القلب والفكر ، فإذا رفهت الآلة جاد العمل ، وهذا أمر لا يعلم إلا بالعلم .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) ، والبيهقى فى السنن (٣/ ٣٤٦) ، (١٠/ ٢١٩) ، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٤) عن أبى هريرة .

(٢) نبت : تباعدت .

(٣) يزرون : يعيبون والإزراء : التهاون بالشىء كما فى القاموس .

(٤) تنبتّ : تنقطع .

فلجهل المتزهدين بالعلم ، أنكروا ما لم يَعْلَمُوا ، وظنُّوا أن المراد إتعاب الأبدان ، وإنضاء [١] الرواحل ، وما علموا أن الخوف المضْنى يحتاج إلى راحة مقاومة ؛ كما قال القائل : رَوِّحوا القلوب تَعِى الذكر .

٥٨ - فصل : حيل إبليس على الصوفية

ليس فى الوجود شىءٌ أشرف من العلم ، كيف لا وهو الدَّليل ، فإذا عُدِم وقع الضلال ، وإن من خفىِّ مكائد الشيطان أن يزين فى نفس الإنسان التعبد ؛ ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم ، حتى أنه زيَّن لجماعة من القدماء أنهم دفنُوا كتبهم ورمُوها فى البحر ، وهذا قد وردَ عن جَماعة ، وأحسن ظنى بهم أن أقول : كان فيها شىء من رَأيهم وكلامهم ، فما أحبُّوا انتشاره ، وإلا فمتى كان فيها علم مُفيد صحيح لا يخَاف عواقبه ، كان رميها إضاعة للمال لا يَحِلُّ ، وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة ، حتى مَنَعُوا من حمل المحابر تلامذتهم ؛ وحتى قال جعفر الخلدى [٢] : لو تركنى الصوفية ، جئتكم بإسناد الدنيا ، كتبت مجلسًا عن أبى العباس الدورى ، فلقينى بعض الصوفية ، فقال : دَعْ علم الورق ، وعليك بعلم الخِرَق [٣] ، ورأيت محْبرة مع بعض الصوفية . فقال له صوفى : استُرْ عورتك وقد أنشدوا للشِّبْلى [٤] :

إذَا طـَالَبُونى بِعِلْمِ الْوَرَقْ   بَرَزْتُ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِ الْخِرَقْ

وهذا من خفى حيل إبليس : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ** ﴾ [٥] ، وإنما فعل وزينه عندهم لسببين : **أحدهما** : أنه أرادهم يمشُون فى الظلمة . **والثانى** : أن تصفح العلم كل يوم يزيد فى العَالِم ، ويكْشف له ما كان خفى عنه ، ويقوى إيمانه ومعرفته ، ويريه عَيْب كثير من مسالكه خصوصا إذا تصفح منهاج الرسول - ﷺ - والصحابة ، فأراد إبليس سد تلك الطرق بأخفى حيلة ، فأظهر أن المقصود العمل لا العلم لنفسه ، وخفى على المخْدُوع أن العلم عمل وأى عمل .

---

(١) إنضاء الرواحل : أصابها الهزل .

(٢) هو أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير البغدادى الخواص توفى سنة (٣٤٨ هـ)

(٣) يقصدون بعلم الخرق : علم أصحاب الثياب البالية الذين يزعمون أنهم وصلوا إلى درجات المكاشفة وهذا من تخبطهم الفاحش .

(٤) هو أبو المظفر هبة الله بن أحمد بن محمد بن الشبلى البغدادى القصار الدقاق المؤذن توفى سنة (٥٥٧ هـ) .

(٥) سورة سبأ ، آية : ٢٠ .

فاحْذر من هذه الخديعة الخفية ، فإن العلم هو الأصل الأعظم، والنور الأكبر ، وربما كان تقليب الأوْراق أفضل من الصوم والصلاة والحج والغزو ، وكم من مُعْرِض عن العلم بخُوص فى عذاب من الهَوَى فى تعبده ، ويُضيع كثيرًا من الفرض بالنفل ، ويشْتَغِل بما يزعمه الأفضل عن الواجب ، ولو كانت عنده شُعْلة من نور العلم لاهتدى ، فتأمل ما ذكرت لك ترشد - إن شاء الله تعالى - .

٥٩ - فصل : تعليل النفس والصبر على الطاعة

مر بى حمالان تحت جذْع ثقيل ، وهما يتجاوبان بإنشاد النغم وكلمات الاستراحة ، فأحدهما يُصْغِى إلى ما يقوله الآخر ، ثم يعيده أو يجيبه بمثله ، والآخر همته مثل ذلك، فرأيْت أنهما لو لم يَفْعَلا هذا ، زادت المشقة عليهما ، وثَقُل الأمر ، وكلّما فعلا هذا هان الأمر ، فتأملت السَّبب فى ذلك ، فإذا به تعْليق فكر كل واحد منهما بما يقوله الآخر ، وطَرَبُه به ، وإحالة فكره فى الجَوَاب بمثل ذلك ، فينْقَطع الطريق ، وينسى ثقل المحمول ، فأخذت من هذا إشارة عجيبة ، ورأيْت الإنسان قد حمل من التكليف أُمورًا صعبة ، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه ، وتكليفها الصَّبر عما تحب . وعلى ما تكره ، فرأيت الصَّواب قطع طريق الصبر بالتَّسْلية والتلطف للنفس ؛ كما قال الشاعر :

فَإِنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْهَا الْمَجَرَّةَ مِنْ   ضَوْءِ الصَّبَاحِ وَعِدْهَا بِالرَّوَاحِ ضُحَى

ومن هذا ما يحكى عن بِشْر الحَافِى - رحمة الله عليه - سار ومعه رجل فى طريق ، فعطش صاحبه . فقال له : نشرب من هذا البئر ؟ فقال بشر : اصبر إلى البئر الآخر ، فلما وصلا إليها قال له : البئر الأُخْرى ، فما زال يعلله - ثم التفت إليه فقال له : هكذا تنْقَطع الدنيا .

ومن فهم هذا الأصل ، علل النفس وتلطَّف بها ووعدها الجميل ؛ لتصبر على ما قد حملت ، كما كان بعض السَّلف يقول لنفسه : والله ما أريد بمَنْعك من هذا الذى تُحبِّين إلا الإشفاق عليك ، وقال أبو يزيد - رحمة الله عليه - : ما زَلت أسُوق نفسى إلى الله - تعالى - وهى تبكى ، حتى سُقْتُها وهى تضْحَك ، واعلم أن مداراة النفس والتلطف بها لازم ، وبذلك ينقطع الطريق ، فهذا رمز إلى الإشارة ، وشرحه يطول .

٦٠ - فصل : تلبيس إبليس على جهلة الوعاظ

تأمّلت أشياء تجرى فى مجالس الوعظ ، يعتقدها العوام وجهال العلماء قُرْبة وهى منكر وبُعْدٌ ، وذاك أنّ المقرئ يُطَرِّب ويخرجْ الألحان إلى الغناء ، والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى ، فيصفّق هذا ، ويخرق ثوبه هذا ، ويعتقد أن ذلك قُرْبة .

ومعلوم أن هذه الألحان كالموسيقى توجب طربًا للنفس ونشوة ، والتعرض لما يوجب الفَساد غلط عظيم، وينبغى الاحتساب على الوعاظ فى هذا ؛ وكذلك المقابريُون [1] منهم، فإنهم يهيجون الأحزان ليكثر بكاء النِّساء ، فيعطَون على ذلك الأجرة ، ولو أنهم أمروا بالصبر، لم ترد النِّسوة ذلك ، وهذه أضداد للشرع .

قال ابن عقيل : حضرنا عزاء رجل قد مات له ولد ، فقرأ المُقرئ : ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ [2] ، فقلت له : هذه نيَاحة بالقرآن ، وفى الوعاظ من يتكلّم على طريق المعرفة والمحبة ، فترى الحَائك [3] والسوقىّ الذى لا يعرف فرائض تلك الصَّلاة ، يمزق أثوابه دعوى لمحبة الله - تعالى - والصَّافى حالاً منهم وهو أصلحهم يتخايل بوهمه شخصًا هو الخالق، فيُبْكيه شوقه إليه لما يسمع من عظمته ورحمته وجماله ، وليس ما يتخايَلُونه المعبود ؛ لأن المعبود لا يقع فى خيَال .

وبعد هذا فالتحقيق مع العوام صعبٌ ، ولا يكادون ينتفعون بمر الحق ، إلا أن الواعظ مأمور بألا يتعدّى الصواب ، ولا يتعرّض لما يفسدهم ، بل يَجْذبُهم إلى ما يصلح بألطف وجه ، وهذا يحتاج إلى صناعة ؛ فإن من العوام من يعْجبه حسن اللّفظ ، ومنهم من يعْجبه الإشارة ، ومنهم من ينقاد ببيْت من الشعر ، وأحوج النّاس إلى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغى أن ينظر فى اللازم الواجب ، وأن يعطيَهُم من المباح فى اللّفظ قدر الملْح فى الطعام ، ثم يجتذبهم إلى العزائم ويعرفهم الطريقَ الحق .

وقد حضر أحمد بن حنبل فسمع كلام الحارث المحاسبى [4] فبكى ، ثم قال : لا يعْجبُنى الحضور ؛ وإنما بكى لأن الحال أوجبت البكاء .

وقد كان جماعة من السَّلف يرون تخْليط القُصَّاص ، فينهُون عن الحضور عندهم ، وهذا على الإطلاق لا يحسن اليوم ؛ لأنه كان الناس فى ذلك الزمان متشاغلين بالعلم ، فرأوا حضور القَصَص صادا لهم ، واليوم كثر الإعراض عن العلم ، فأنفع ما للعامى مجلس الوعظ ، يرده عن ذَنب ، ويحركه إلى توبة ؛ وإنما الخلل فى القاص ، فليتق الله - عَزَّ وجَلَّ .

---

(١) المقصود : ما يفعله بعض الجهلة من استئجار نائحة أو سيدة تذهب لتجامل صديقتها فتفعل ما يغضب الله ورسوله .

(٢) سورة يوسف ، اية : ٨٤ (٣) الحائك : الخياط

(٤) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى البغدادى صاحب الرعاية توفى سنة (٢٤٣ هـ)

٦١ - فصل : التقعر فى علم الكلام

من أضر الأشياء على العوام كـلام المتأولين ، والنُّفَاة للصفات والإضافات ؛ فإن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بالغوا فى الإثبات ؛ ليتقرر فى أنفس العَوَام وجود الخَالق ، فإن النفوس تأنس بالإثبات ، فإذا سمع العامى ما يوجب النّفى ، طرد عن قلبه الإثبات ، فكان أعظم ضَرَر عليه ، وكأن هذا المنزه من العلماء على زعمه ، مقاومًا لإثبات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - بالمحو ، وشارعًا فى إبطال ما يُفْتُون به .

وبيان هذا : أن الله - تعالى - أخبر باستوائه على العرش (١) . فأنسَت النفوس إلى إثبات الإله ووجُوده ، قال - تعالى - : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (٢) ، وقال - تعالى - : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾(٣)، وقال : ﴿ غضب الله عليهم ﴾ (٤) ، ﴿ رضى الله عنهم ﴾ (٥) ، وأخبر « أنه ينزل إلى السماء الدنيا » (٦) وقال : « قُلُوبُ الْعِبَاد بَيْنَ إصْبَعَيْن » (٧) ، وقال: «كتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِه » (٨) ، « وكَتَبَ كتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْش » (٩) ، إلى غير ذلك مما يطُول ذكره .

فإذا امتلأ العامىّ والصَّبِىُّ من الإثبات ، وكاد يأنس من الأوْصاف بما يفْهَمُه الحسُّ ، قيل له : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (١٠) ، فمحا من قلبه ما نقشَه الخيال ، وتبقى ألفاظ الإثبات متمكنة .

ولهذا أقر الشّرع على مثل هذا ، فسمع منشدًا يقول :

وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا

فضحك وقال له آخر : أو يضحك ربنا ؟ فقال : نعم ، وقال : إنه على عرشه هكذا، كل هذا ليقرر الإثبات فى النُّفُوس .

---

(١) حديث جلوس الله عز وجل على العرش رواه البخارى فى التفسير (٤٩٢٤) ، ومسلم فى الإيمان (١٦١/٢٨) .

(٢) سورة الرحمن ، آية : ٢٧ . (٣) سورة المائدة ، آية : ٦٤ .

(٤) سورة الفتح ، آية : ٦ . (٥) سورة المائدة ، آية : ١١٩ .

(٦) رواه البخارى فى التهجد (١١٤٥) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨) .

(٧) أحمد (٦/ ٢١) بهذا اللفظ .

(٨) البخارى فى القدر (٦٦١٤) ، ومسلم فى القدر (٢٦٥٢) ، وأحمد (٢/ ٢٦٨ ، ٣٩٢) ، وأبو داود فى السنة (٤٧٠١) ، وابن ماجة فى المقدمة (٨٠) .

(٩) البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٤) ، وفى التوحيد (٧٤٠٤ ، ٧٤١٢ ، ٧٥٥٣ ، ٧٥٥٤) ، ومسلم فى التوبة (٢٧٥١/ ١٤) .

(١٠) سورة الشورى ، آية : ١١ .

وأكثر الخلق لا يعرفون الإثبات إلا على ما يعملون من الشاهد ، فيقنع منهم بذلك إلى أن يفهموا التنزيه .

فأما إذا ابتدأ بالعامي الفارغ من فهم الإثبات ، فقلت : ليس في السماء ، ولا على العرش ، ولا يوصف بيد ، وكلامه صفة قائمة بذاته ، وليس عندنا منه شيء ، ولا يتصور نزوله ، انمحى من قلبه تعظيم المصحف ، ولم يتحقق في سره إثبات إله ، وهذه جناية عظيمة على الأنبياء ، توجب نقض ما تعبوا في بيانه ، ولا يجوز لعالم أن يأتي إلى عقيدة عامي قد أنس بالإثبات فيهوشها (١) ؛ فإنه يفسده ويصعب صلاحه ، فأما العالم فإنا قد أمنَّاه ؛ لأنه لا يخفى عليه استحالة تجدد صفة الله - تعالى - ، وأنه لا يجوز أن يكون استوى كما يعلم ، ولا يجوز أن يكون محمولاً ، ولا أن يوصف بملاصقة ومَسّ ، ولا أن ينتقل .

ولا يخفى عليه أن المراد بتقليب القلوب بين أصبعين الإعلام بالتحكُّم في القلوب ، فإن ما يدبره الإنسان بين أصبعين هو متحكم فيه إلى الغاية ، ولا يحتاج إلى تأويل من قال الأصبع : الأثر الحسن ، فالقلوب بين أثرين من آثار الربوبية ، وهما الإقامة والإزاغة . ولا إلى تأويل من قال : يداه نعمتاه ؛ لأنه إذا فهم أن المقصود الإثبات ، وقد حدثنا بما نعقل ، وضربت لنا الأمثال بما نعلم ، وقد ثبت عندنا بالأصل المقطوع به أنه لا يجوز عليه ما يعرفه الحس ، علمنا المقصود بذكر ذلك .

وأصلح ما نقول للعوام : أمرُّوا (٢) هذه الأشياء كما جاءت ، ولا تتعرضوا لتأويلها ، وكل ذلك يقصد به حفظ الإثبات ، وهذا الذى قصده السلف ، وكان أحمد يمنع من أن يقال: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، كل ذلك ليحمل على الاتباع ، وتبقى ألفاظ الإثبات على حالها .

وأجهل الناس من جاء إلى ما قصد النبي - ﷺ - تعظيمه ، فأضعف في النفوس قوى التعظيم ، قال النبي - ﷺ - . **« لا تُسافِرُوا بالقُرآنِ إلَى أرْضِ العَدُوِّ »** (٣) - يشير إلى المصحف - ومنع الشافعي أن يحمله المحدث بعلاقته تعظيمًا له ، فإذا جاء متحذلق فقال : الكلام صفة قائمة بذات المتكلم ، فمعنى قوله هذا : أن ما هاهنا شيء يحترم ، فهذا قد ضاد بما أتى به مقصود الشرع .

---

(١) الهوش : الاضطراب والتهييج كما في اللسان .

(٢) أمروا من المرور أي لا تتعرضوا لتأويلها .

(٣) البخاري في الجهاد (٢٩٩٠) ، ومسلم في الإمارة (١٨٦٩) واللفظ لمسلم .

وينبغى أن يفهم أوضاع الشرع ، ومقاصد الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، وقد منعوا من كشف ما قد قَنَع الشرع ، فنهى رسول الله - ﷺ - عن الكلام فى القدر ، ونهى على الاختلاف ؛ لأن هذه الأشياء تخرج إلى ما يؤذى ، فإن الباحث عن القدر إذا بلغ فهمه إلى أن يقول : قضى وعاقب ، تزلزل إيمانه بالعدل ، وإن قال : لم يقدر ولم يقض ، تزلزل إيمانه بالقدرة والملك ، فكان الأولى ترك الخوض فى هذه الأشياء ، ولعل قائلاً يقول : هذا منع لنا عن الاطلاع على الحقائق ، وأمرٌ بالوقوف مع التقليد ، فأقول: لا ، إنما أعلمك أن المراد منك الإيمان بالجمل ، وما أمرت بالتنقير لمعرفة الكنه مع أن قُوَى فهمك تعْجَز عن إدراك الحقائق، فإن الخليل - عليه الصلاة والسلام - قال : ﴿أرنى كَيْف تُحيى﴾ [1] ، فأراه ميتًا حَيِىَ ، ولم يره كيف أحْيَاه ؛ لأن قواه تعجز عن إدراك ذلك ، وقد كان النبى ﷺ وهو الذى بُعث ليبين للناس ما نُزِّل إليهم ، يقنع من الناس بنفس الإقرار واعتقاد الجمل ، وكذلك كانت الصَّحابة ، فما نُقِل عنهم أنهم تكلموا فى تلاوة ومتلوّ ، وقراءة ومقروء ، ولا أنهم قالوا : استَوَى بمعنى استولى ، وينزل بمعنى يرحم ، بل قَنَعُوا بإثبات الجمل التى تثبت التعظيم عند النفوس ، وكَفُّوا كف الخيال بقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [2] ، ثم هذا منكر ونكير إنما يسألان عن الأُصُول المجملة ، فيقولان : منْ ربّكَ ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ [3] ومن فهم هذا الفَصْل سلم من تشْبيه المجسِّمة ، وتعطيل المعطِّلة ، ووقف على جادة السّلف الأوَل ، والله الموفق .

٦٢ - فصل : فوائد السمع والبصر

قرأت هذه الآية : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ [4] فلاحت لى منها إشارة كدت أطيش منها ، وذلك أنه إن كان عَنَى بالآية نفسَ السمع والبصر ، فإن السمع آلة لإدراك المسموع ، والبصر آلة لإدراك المبْصرَات، فهما يعرضان ذلك على القَلْب ، فيتدبر ويعتبر ، فإذا عرضت المخلوقات على السَّمع والبصر ، أوصلا إلى القلب أخبارها من أنها تدل على الخالق ، وتحمل على طاعة الصانع ، وتحذر من بطشه عند مُخَالَفته ، وإن عَنَى معنى السمع والبصر . فذلك

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ . (٢) سورة الشورى ، آية : ١١ .

(٣) إشارة إلى الحديث الذى رواه : البخارى فى الجنائز (١٣٣٨ ، ١٣٧٤) ، ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧١) ، وأبو داود فى السنة (٤٧٥٣) ، والترمذى فى التفسير (٣١٢٠) ، وأحمد (٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨) ، واللفظ لأبى داود .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٤٦ .

يكون بذهولهما عن حقائق ما أدركا ؛ شغلاً بالهوى ، فيعاقب الإنسان بسلب معانى تلك الآلات ، فيرى وكأنه ما رأى ، ويسمع وكأنه ما سمع ، والقلب ذاهلٌ عما يتأذى به، فيبقى الإنسان خاطئًا على نفسه ، لا يدرى ما يراد به ، لا يؤثر عنده أنه يَبْلى ، ولا تنفعه موعظة ﴿ تجلى ﴾ [1] ، ولا يدرى أين هو ، ولا المراد منه ، ولا إلى أين يحمل ، وإنما يُلاحظ بالطبع مصالح عاجلته ، ولا يتفكر فى خُسران آجلته ، لا يعتبر برفيقه ، ولا يتّعظ بصديقه ، ولا يتزوّد لطريقه ؛ كما قال الشاعر :

النَّاسُ فِى غَفْلَةٍ وَالْمَوْتُ يُوقِظُهُمْ ... وَمَا يُفِيقُونَ حَتَّى يَنْفَدَ الْعُمُرُ
يُشَيِّعُونَ أَهَالِيهِمْ بِجَمْعِهِمُ ... وَيَنْظُرُونَ إِلَى مَا فيه قَدْ قبروا
وَيَرْجِعُونَ إِلَى أَحْلامِ غَفْلَتِهِمْ ... كَأَنَّهُمْ مَارَأَوْا شَيْئًا وَلا نَظَرُوا

وهذه حالة أكثر الناس ، فنعوذ بالله من سلب فوائد الآلات ، فإنها أقبح الحالات .

٦٣ - فصل : أسباب العشق

نظرت فيما تكلم به الحُكَمَاء فى العشق وأسبابه ، وأدويته ، وصنَّفت فى ذلك كتابًا سميته بذم الهوى ، وذكرت فيه عن الحُكَمَاء أنهم قَالُوا : سَبَبُ العِشْق حركة نَفْس فارغة، وأنَّهم اختلفوا : فقال قوم منهم : لا يعرض العشق إلا لظِرَاف الناس . وقال آخرون : بل لأهل الغفلة منهم عن تأمل الحقائق ، إلا أنه خطر لى بعد ذلك مَعْنَى عجيب أشرحهُ ههنا ؛ وهو أنه لا يتمكن العِشْق إلا مع واقف جامد ، فأما أرباب صعود الهِمَم فإنها كلما تخايلت ما توجِبُه المحبة فلاحت عيوبه لها ، إما بالفكر فى المحبوب أو بالمخالَطَة له ، تسلَّت أنفسهم وتعلَّقت بمطلوب آخر ، فلا يَقِفُ على درجة العشق الموجب للتمَسُّك بتلك الصورة العامى عن عيوبها ، إلا جامد واقف .

وأما أرباب الانفة من النَّقائص ، فإنهم أبدًا فى الترقِّى ، لا يصدهم صاد ، فإذا عَلَّقت الطباع محبة شخص ، لم يبلغوا مرتبة العشق المستَأثر ، بل ربما مالوا ميْلاً شديدًا؛ إما فى البِدَاية لقلة التفكر أو لقلة المخالطة والاطلاع على العيوب ، وإما لتشبث بعض الخلال الممدُوحة بالنُّفوس من جهة مناسبة وقعت بين الشَّخْصين ، كالظريف مع الظَّريف، والفَطِن مع الفَطِن ، فيوجب ذلك المحبة .

فأما العشق فلا يفهم أبدًا فى سيرتهم ، بل يوقفون إبل الطَّبع يتبع حادى الفهم ،

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٤٣ .

فإن للهمم متعلقًا لا نجده فى الدنيا ؛ لأنه يروم ما لا يصح وجوده من الكمال في الأشخاص ، فإذا تلمح عيوبها نَفَر .

وأما متعلق القلوب من محبة الخَالق البارئ ، فهو مانع لها من الوقوف مع سواه، وإن كانت محبته لا تجانس محبة المخْلُوقين ، غير أن أرباب المعرفة ولَهى [(١)] قد شغلهم حُبُّه عن حبٍّ غيره ، وصارت الطباع مستَغْرِقة لقوة معرفة القلوب ومحبتها ؛ كما قالت رابعة:

أُحِبُّ حَبِيبًا لا أُعَابُ بُحبِّه　　　وأحببتم مَنْ فِى هَوَاهُ عُيُوبُ

ولقد روى عن بعض فقراء الزهاد : أنه مرَّ بامرأة فأعجبته ، فخطبها إلى أبيها ، فزوّجه ، وجاء به إلى المنزل ، وألبسه غير خلقانه ، فلما جَنَّ الليل ، صاح الفقير : ثيابى ثيابى ، فقدت ما كنت أجده ، فهذه عَثْرة فى طريق هذا الفقير دلته على أنه مُنْحَرف عن الجادة ، وإنما تعترى هذه الحَالات أرباب المعرفة بالله - عَزَّ وجَلَّ - ، وأهل الأنفة من الرَّذائل .

وقد قال ابن مسعُود : إذا أعْجَبَتْ أحدكم امرأة فليتذكر مَثَانَتَها [(٢)] ، ومثال هذه الحال: أن العقل يَغيب عند استحْلاء تناول المشْتَهَى من الطعام ، عن التفكر فى تقَلُّبُه فى الفم وبلعه ، ويَذْهَل عند الجماع عن ملاقَات القاذُورات ؛ لقوة غلبة الشهوة ، وينسى عند بلع الرُّضَاب [(٣)] استحالته عن الغذَاء ، وفى تغطية تلك الأحوال مصالح ، إلا أن أرباب اليقظة يعتريهم هذا الإحساس من غير طَلَب له فى غالب أحْوَالهم ، فيُنغَص عليهم لذيذ العيش ، ويوجب الأَنَفَة من رذَالة [(٤)] الهوى ، وعلى قدر النَّظر فى العواقب ، يَخِفُّ العشق عن قلب العاشق ، وعلى قدر جمود الذهن يقوى القلق ، قال المتنبى [(٥)] :

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِـــقُ فِى مُنْتَهَى　　　حُسْنِ الَّذى يسبيه [(٦)] لَمْ يسبه

ومجموع ما أرْدَت شرحه : أن طباع المتيقِّظين تترقى ، فلا تقف مع شخص مستحْسَن، وسبَب ترقِّيها التفكر فى نَقْص ذلك الشخص وعيُوبه ، أو فى طلب ما هو أهم منه ، وقلوب العارفين تترقَّى إلى معروفها ، وتنتقل فى معبر الاعْتبَار ، فأما أهل الغفلة فجمودهم فى الحالتين ، وغفلتهم عن المقامين ، يوجب أسرهم وقسرهم وحيرتهم .

---

(١) ولهى : من التحير وذهاب العقل .　(٢) مثانتها : موضع البول كما فى القاموس .
(٣) الرضاب أى : الريق واللعاب .　(٤) الرذالة : الخسة .
(٥) هو أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفى أبو الطيب المعروف بالمتنبى قتل (٣٥٤ هـ) .
(٦) يسبيه : يأسره بشدة حبه له .

٦٤ - فصل : الانكسار وقت الدعاء

عرض لى أمر يحتاج إلى سؤال الله - عَزَّ وجَلَّ - ودعائه ، فدعَوْت وسألت . فأخذ بعض أهل الخير يدْعو معى ، فرأيت نوعًا من أثر الإجابة ، فقالت لى نفسى : هذا بسُؤال ذلك العبد لا بسُؤَالك ، فقلت لها : أما أنا فإنى أعرِفُ من نفسى من الذنوب والتقصير ما يوجب منع الجواب ، غير أنه يجوز أن يكون أنا الذى أُجبْت ؛ لأن هذا الدَّاعى الصالح سليم مما أظنه من نفسى، لأن معى انكسَار تقصيرى ومعه الفرحُ بمعاملته، وربما كان الاعْترَاف بالتقصير أنجح فى الحوائج ، علىَ أنَّنى أنا وهو نطلب من الفَضْل لا بأعمالنا ، فإذا وقفت أنا على قَدم الانكسار معترفًا بذُنُوبى ، وقلت : أعطونى بفضلكم فمالى فى سُؤَالى شىء أُجبت به ، وربما تلمَّح ذاك حسن عمله وكان صادا له ، فلا تكسرينى أيتها النفس ، فيكفينى كسر علمى بى لى ، ومعى من العلم الموجب للأدب ، والاعتراف بالتقصير ، وشدة الفقر إلى ما سألت ، ويقينى بفضل المطْلُوب عنه ، ما لَيْس مع ذلك العابد ، فبارك الله فى عبادته ، فربما كان اعترافى بتقصيرى أوْفى .

٦٥ - فصل : حسن التدبر

قرأت من غرائب العلم وعجائب الحِكَم ، على بعض من يدَّعى العلم ، فرأيته يتلوى من سمَاع ذلك ، ولا يطَّلع على غوره ، ولا يشرئب [١] إلى ما يأتى ، فصدفت [٢] عن أسماعه شيئًا آخر ، وقلت : إنما يصلح مثل هذا لذى لُبٍّ [٣] يتلقاه تلقِّى العطشان الماء، ثم أخذت من هذه إشارة هى أنه لو كان هذا يَفْهَم ما جرى ومَدَحَنى ، لحَسُنَ ما صنعت؛ لَعَظُمَ قدره عندى ، ولأريته محاسن مجموعاتى وكَلامى ، ولكنى لما لم أرَهُ أهلاً ، صرفتها عنه ، وصدَفْت بنظرى إليه .

وكانت الإشارة أن الله - عَزَّ وجَلَّ - قد صنَّف هذه المخلوقات ، فأحسن التركيب وأحكم الترتيب ، ثم عرضها على الألْبَاب ، فأى لُبٍّ أوْغل فى النظر ، مُدح على قدر فهْمه فأحبه المصنف ، وكذلك أنزل القرآن يحتوى على عجَائب الحكم ، فمن فتَّشَه بيد الفهم ، وحادثه فى خَلْوة الفكر ، استَجْلَب رِضى المتكلم به ، وحَظِى بالزلفى [٤] لديه ، ومن كان للذِّهْن مستغرِقَ الفهم بالحسِّيات ، صُرِف عن ذلك المقام ؛ قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[٥] .

---

(١) لا يشرئب : لا يمد عنقه لينظر (٢) فصدفت : أعرضت
(٣) اللب : العقل . (٤) الزلفى : المنزلة (٥) سورة الأعراف ، آية ١٤٦

٦٦ - فصل : سناء الهمم

دَعَوْتُ يومًا فقلت : اللَّهم بلغنى آمال من العِلْم والعمل ، وأطل عمرى لأبلغ ما أحبُّ من ذلك ، فعارضنى وَسْوَاس من إبليس ، فقال : ثم ماذا ؟ أليس المَوْت ؟ فما الذى يَنْفَع طول الحياة ؟ فقلت له : يا أبْلَه ، لو فهمت ما تحت سُؤَالى علمت أنه ليس بعَبَث ، أليس فى كل يوم يَزِيدُ علمى ومعرفتى ، فتكثر ثِمَار غَرْسى ، فأشكر يوم حصادى ؟ أفيَسُرُّنى أنى متُّ منذ عشرين سنة ، لا والله لأنى ما كُنْتُ أعرف الله - تعالى - عُشْر معرفتى به اليوم .

وكل ذلك ثَمَرة الحياة التى فيها اجْتَنَيْتُ أدلة الوحدانية ، وارتَقَيْت عن حضيض التقليد إلى يَفَاع [1] البصيرة ، واطَّلعت على علوم زادَ بها قَدْرى ، وتجوهرت بها نفسى ، ثم زاد غَرسى لآخرتى ، وقويت تجَارَتى فى إنقاذ المُبَاضعين من المتعلمين ، وقد قال الله لسيد المرْسَلين : ﴿ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [2] ، وفى صَحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - ، عن النبى ﷺ أنه قال : « **لا يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمُرُهُ إلا خَيْرًا** » [3] ، وفى حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **إنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُولَ عُمْرُ العَبْد ، وَيَرْزُقُهُ اللهُ - عَزَّ وجَلَّ - الإِنَابَةَ** » [4] فَيَا لَيْتَنِى قدرتَ عَلَى عُمْرِ نُوحٍ ، فإن العلم كثير ، وكلما حصل منه حاصل رفع ونفع .

٦٧ - فصل : التعلق بخالق الأسباب

قلوب العارفين يَغَار عليها من الأسباب وإن كانت لا تساكنها ؛ لأنها لما انفردت لمعرفتها انفرد لها بتولِّى أمورها ، فإذا تعرضت بالأسباب مُحِىَ أثر الأسباب : ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا** ﴾ [5] .

وتأمل فى حال يعقوب وَحَذَرُه على يوسف - عليهما السلام - حتى قال : ﴿ **وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ** ﴾ [6] ، فقالوا : ﴿ **فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ** ﴾ [7] .

فلما جاء أوان الفَرَج ، خرج يَهُوذا بالقميص فسبقه الريح : ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾ [8] .

---

(١) اليفاع : الشىء المرتفع عن الأرض .
(٢) سورة طه ، آية : ١١٤ .
(٣) رواه مسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٨٢/١٣) ، وأحمد فى المسند (٢/ ٣١٦ ، ٣٥٠) .
(٤) رواه أحمد (٣/ ٣٣٢) ، والحاكم (٤/ ٢٤٠) ، وصححه ووافقه الذهبى .
(٥) سورة التوبة ، آية : ٢٥ .
(٦) سورة يوسف ، آية : ١٣ .
(٧) سورة يوسف ، آية : ١٧ .
(٨) سورة يوسف ، آية : ٩٤ .

وكذلك قول يوسف - عليه السلام - للساقى : ﴿ اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [1] ، فعوقب بأن لبث سبع سنين ، وإن كان يُوسُف - عليه السلام - يعلم أنه لا خلاص إلا بإذن الله ، وأن التعرض بالأسباب مشروعٌ ، غير أن الغيرة أثرت فى العقوبة .

ومن هذا قصة مريم - عليها السلام - : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [2] ، فغار المسبب من مساكنة الأسباب : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ [3] .

ومن هذا القبيل ما يروى عن النَّبى - ﷺ - أنه قال : « أَبَى اللهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إلا مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ » [4] ، والأسباب طريق ولا بد من سُلُوكِهَا ، والعارف لا يساكنها غير أنه يُجَلَّى له أمرها ما لا يَجْلَى لغيره من أنها لا تُسَاكَنُ ، وربما عرفت إن مال إليها وإن كان ميله لا يقبله ، غير أن أقل الهفوات يوجب الأدب ، وتأمل عقبى سليمان عليه السلام لما قال : « لأطوفَنّ الليلة على مائة امرأة ، تلدُ كل واحدة منهن غلامًا ، ولم يقل : إن شاء الله ، فما حملت إلا واحدة جاءت بشق غُلام » [5]

ولقد طرقتنى حالة أوجبت التشبث ببَعْض الأسباب ، إلا أنه كان من ضرورة ذلك لقَاء بعض الظلمة ، ومداراته بكَلمَة ، فبينما أنا أفكر فى تلك الحال ، دخل علىّ قارئ فاستفتح ، فتفاءلت بما يَقْرَأ ، فقرأ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ﴾ [6] . فبُهتُّ من إجابتى على خاطرى ، وقلت لنفسى : اسمعى ، فإننى طلبت النصر فى هذه المداراة ، فأعلَمنى القرآن أننى إذا ركنت إلى ظالم ، فإننى ما ركنت لأجله من النصر ، فيا طوبى لمن عرف المسبِّب وتعلّق به ، فإنَّها الغاية القُصْوى ، فنسأل الله أن يرزقنا .

٦٨ - فصل : المؤمن والذنوب

المؤمن لا يبالغ فى الذنوب ، وإنما يقوى الهوى وتتوقد نيران الشهوة فينحدر ، وله مراد لا يعزم المؤمن على مواقَعَته ، ولا على العَوْد بعد فراغه ، ولا يستَقْصى فى الانتقام إن غضب ، وينوى التوبة قبل الزّلل ، وتأمل إخوة يوسف - عليهم السلام - فإنهم عزموا على التوبة قبل إبعاد يوسف فقالوا : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ [7] ، ثم زاد ذلك تعظيمًا

---

(١) سورة يوسف ، آية ٤٢   (٢ ، ٣) سورة آل عمران ، آية ٣٧

(٤) العجلونى فى كشف الخفاء (٥٨) وعزاه للديلمى والقضاعى ، والعسكرى فانظره بتوسع فى كشف الخفاء (١/ ٣٤ ، ٣٥)

(٥) البخارى فى النكاح (٥٢٤٢) ، ومسلم فى الأيمان (١٦٥٤)

(٦) سورة هود ، آية : ١١٣   (٧) سورة يوسف ، آية ٩

فقالوا : ﴿ أو اطْرَحُوهُ أرْضًا ﴾ [١] ، ثم عزموا على الإنابة فقالوا : ﴿ وتَكُونُوا منْ بَعْده قَوْمًا صَالحينَ ﴾ [٢] ، فلما خرجوا به إلى الصحراء همُّوا بقتله بمقتضى ما في القُلُوب منَ الحسد ، فقال كبيرهم : ﴿ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ في غَيَابَت الْجُبِّ ﴾ [٣] ، ولم يرد أن يموت ، بل يلتقطه بعض السيارة ، فأجابوا إلى ذلك .

والسبب في هذه الأحوال : أن الإيمان في قمع النفوس يكون على حسَب قوته ، فتارة يردها عند الهم ، وتارة يضعف فيردها عند العزم ، وتارة عن بعض الفعل ، فإذا غلبت الغفلة ووقع الذنب ، فتَر الطبع ، فنهض الإيمان للعمل ، فينقص بالندم أضعاف ما التذ .

٦٩ - فصل : علم المغرورين

أفضل الأشياء التزيد من العلم ، فإنه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافيًا ، استبَدَّ برأيه ، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا له من الاستفادة والمذاكرة تبين له خطأه ، وربَّما كان معظمًا في النفوس فلم يُتَجاسر على الرَّدِّ عليه ، ولو أنه أظهر الاستفادة ، لأُهْديَت إليه مساويه فعاد عنها ، ولقد حكى ابن عُقَيْل عن أبي المَعَالي الْجُوَيْني [٤] ؛ أنه قال : إن الله - تعالى - يعلم جُمَلَ الأشياء ولا يعلم التفاصيل .

ولا أدري أي شبهة وقعت في وجه هذا المسْكين حتى قال هذا ! وكذلك أبُو حَامد [٥] حين قال : النزول : التنقل ، والاستواء مماسة، وكيف أصف هذا بالفقه ، أو هذا بالزهد وهو لا يدري ما يجُوز على الله مما لا يجُوز!

ولو أنه ترك تعظيم نفسه ، لرد صبيان الكتّاب رأيه عليه فبان له صدقهم ، ومن هذا الفن أبُو بكْر بن مقْسم [٦] : فإنه عمل كتاب الاحْتجَاج للقراء ، فأتى فيه بفوائد ، إلا أنه أفسد علمه بإجازته أن يقرأ بما لم يقرأ به ، ثم تفاقم ذلك منْه حتى أجاز ما يفسد

(١ ، ٢) سورة يوسف ، آية : ٩ (٣) سورة يوسف ، آية : ١٠ .

(٤) هو الإمام الكبير شيخ مشايخ الشافعية إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك ابن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني الشافعي توفي سنة (٤٧٨ هـ) ، وهذه المقولة مفتراه عليه وضعها عليه الحاقدون .

(٥) هو الإمام الغزالي حجة الإسلام ، ولست أدري من أين أتى بهذا الكلام فهذه عقيدته في أول الإحياء ، وفي كتب أخرى تناقض هذا الكلام ، وما نقله عنه الأئمة في كتبهم من عقيدته ينافي هذا الكلام ، وكان الأولى ألا يذكر هذا عن الإمام ، وكان ذكر هذا الكلام دون نسبته إلى أحد ورده أو خطئه فقط .

(٦) هو أبو بكر بن مقسم العلامة المقرئ محمد بن الحسن البغدادي العطار توفي سنة (٣٥٤ هـ) ، وقيل : سنة (٣٥٥ هـ) .

المعنى ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا ﴾ (١) ، فقال : يصلح أن يقال هنا : « نَجِيًّا » أى : خلصوا كرامًا بُرآء من السَرقة .

وهذا سوء فهم للقصة ؛ فإن الذى نسب إلى السرقة فظهرت معه ما خلص ، فما الذى ينفع خلاصهم ، وإنما سيقَت القصة ليبين أنهم انفردوا وتَشَاوَرُوا فيما يصنعون ، وكيف يرجعون إلى أبيهم وقد احتبس أخُوهم ، فأىّ وجه للنَّجاة هَهُنا ، ومن تأمل كتابه ، رأى فيه من هذا الجنس ما زيد على الإحصاء من هذا الفن القبيح ، ولو أنه أصغى إلى علماء وقته وترك تعظيم نفسه ، لبان له الصواب ، غير أن اقتصار الرجل على علمه إذا مازجَه نوع رُؤية للنفس ، حُبِس عن إدراك الصواب ، نعوذ بالله من ذلك .

٧٠ – فصل : الإدلال بالعبادة

تأملت قوله – عَزَّ وجَلَّ – : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ (٢) ، فرأيت فيه معنى عجيبًا ، وهو أنهم لما وهبت لهم العُقُول فتدبروا بها عَيْبَ الأَصنام ، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة ، فوجَّهوا العبادة إلى من فطَر الأشياء ، كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموْهُوب الذى به باينوا البهائم ، فإذا آمنوا بفعلهم الذى ندَب إليه العقل الموْهُوب ، فقد جَهلوا قدر الموهوب ، وغَفَلُوا عن من وهب .

وأى شيء لهم فى الثمرة والشجرة ليست ملكًا لهم ، فعلى هذا كل متعبِّد ومجتهد فى علم وعمل ، إنما رأى بنور اليقظة وقوّة الفهم والعقل صوابًا ، فوقع على المطلوب ، فينبغى أن يوجه الشكر إلى من بعث له فى ظلام الطبع القبس .

ومن هذا الفن حديث الثّلاثة الذين دخلوا الغار ، فانْحَطَّت عليهم صَخْرة فسدت باب الغَار ، فقالوا : تعالوا نتوسّل بصالح أعمالنا . فقال كل منهم : فعلت كذا وكذا (٣) ، وهؤلاء إن كانوا لاحظوا نعمة الواهب للعصمة عن الخَطَأ ، فتوسلوا بإنعامه عليهم الذى أوجب تخصيصهم بتلك النعمة عن أبناء جنسهم ، فبه فتوسلوا إليه ، وإن كانوا لاحظوا أفعالهم، فلمحوا جزاءَها ظنا منهم أنهم هم الذين فعلوا ، فهم أهل غَيْبَة لا حضور ، ويكون جواب مسألتهم لقُطع مِنَنِهم الدائمة

ومثل هذا رُؤْية المتقى تقواه ، حتى إنه يرى أنه أفضل من كثير من الخلق ، وربما

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٨٠ . (٢) سورة الحجرات ، آية ١٧

(٣) رواه البخارى فى البيوع ، (٢٢١٥) ، وفى الإجارة (٢٢٧٢) ، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٤٣/ ١٠٠) .

احتقر أهل المعاصى وتشمَّخ عليهم ، وهذه غفلة عن طريق السلوك ، وربما أخرجت ، ولا أقول لك : خالط الفساق احتقارًا لنفسك ، بل اغضب عليهم فى البَاطِن وأعرض عنهم فى الظاهر ، ثم تلمح جريان الاقدار عليهم فأكثرهم لا يعرف من عَصَى ، وجمهورهم لا يقصد العصْيَان، بل يريد موافَقَة هَوَاهُ ، وعزيز عليه أن يَعصِى ، وفيهم من غلب عليه تلمّح العفو والحلم ، فاحْتَقَر ما يأتى لقوة يقينه بالعَفْو ، وهذه كلها ليست بأعذار لهم ، ولكن تلمَّحه أنت يا صاحب التَّقْوى ، واعلم أن الحُجَّة عليك أوفى من الحجَّة عليهم ؛ لأنك تعرف من تعْصَى ، وتعلم ما تأتى ، بل انظر إلى تقليب القلوب بين أصبعين ، فربما دارت الدائرة فصرت المنْقَطع ، ووصل المقطوع، فالعجب ممن يُدَل بخير علمه ، وينسى من أنعم ووفق .

٧١ - فصل : الابتداع فى الدين من جهلة الزهاد والمتصوفة

اعلم أن شرعنا مضبوط الأُصول ، محروس القواعد ، لا خلَلَ فيه ولا دَخَل [(١)] ، وكذلك كلُّ الشرائع ؛ إنما الآفة تدخل من المبتدعين فى الدين أو الجُهّال ، مثل ما أُثِر عند النصارى حين رأوْا إحياء الموتى على يد عيسى - عليه السلام - ، فتأملوا الفعْل الخارق للعادة الذى لا يصلح للبَشر ، فنسبوا الفَاعِل إلى الإلهية ، ولو تأملوا ذاته ، لعلموا أنها مركَّبة على النقَائص والحاجات ، وهذا القَدْر يكفى فى عدم صلاح إلهيته ، فيعلم حينئذ أن ما جرى على يَدَيْه فعل غيره .

وقد يُؤثّر ذلك فى الفروع ؛ مثل ما روى أنه فرض على النَّصَارى صوْم شهر فزادوا عشرين يومًا ، ثم جعَلُوه فى فصل من السَّنَة بآرائهم .

ومن هذا الجنس تخبيط اليَهود فى الأُصول والفروع ، وقد قارب الضّلال فى أُمّتنا هذه المسالك ، وإن كان عمومهم قد حفظ من الشرك والشَّك والخلاف الظاهر الشَّنيع ؛ لأنهم أعقل الأُمم وأفهمها .

غير أن الشيطان قارب بهم ولم يَطْمع فى إغراقهم ، وإن كان قد أغرق بعضَهم فى بحار الضَّلال ، فمن ذلك أن الرسول - ﷺ - جاء بكتاب عزيز من الله - عَزَّ وجَلَّ - قيل فى صفته : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ [(٢)] ، وبيَّن ما عساه يُشْكَل مما يحتاج إلى بيانه بسنته ؛ كما قيل له : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [(٣)] ، فقال بعد البيان : «تركتكم على بيْضَاء نقية »[(٤)] .

---

(١) الدخل : العيب . (٢) سورة الأنعام ، آية : ٣٨ . (٣) سورة النحل ، آية : ٤٤ .

(٤) أحمد (١٢٦/٤) ، وابن ماجة فى المقدمة (٤٣) ، وابن حبان (١٠٢ - موارد) ، والحاكم (٩٦/١) ، وانظر الأحاديث الصحيحة (٩٣٧) .

فجاء أقوام فلم يقنعوا بتَبْيينه، ولم يرضَوا بطريقة أصحابه ، فبحثوا ثم انقَسموا ، فمنهم من تعرَّض لما تعب الشرع فى إثباته فى القلوب فمَحَاه منها ؛ فإن القرآن والحديث يُثْبِتَان الإله - عزَّ وجلَّ - بأوصاف تقرِّر وجوده فى النفوس كقوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (١) ، وقوله - تعالى - : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٢) ، وقوله - تعالى - : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (٣) ، وقول النبى - ﷺ - : « يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » (٤) ، « وَيَضْحَكُ وَيَغْضَبُ » (٥) .

وكلُّ هذه الأشياء وإن كان ظاهرها يوجب تخَايُل التشبيه ، فالمراد منها إثبات موجُود، فلمَّا علم الشرع ما يطرق القلوب من التوهُّمات عند سماعها ، قطع ذلك بقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (٦) .

ثم إن هؤلاء القوم عَادُوا إلى القرآن الذى هو المعْجزُ الأكبر ، وقد قَصَد الشرع تقرير وجُوده فقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ (٧) ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ (٨) ، ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ (٩) ، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ (١٠) . وأثبته فى القلوب بقوله - تعالى - : ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (١١) ، وفى المصاحف بقوله - تعالى - : ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ (١٢) ، وقول الرسول - ﷺ - : « لا تسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ»(١٣) .

فقال قوم من هَؤُلاء : مخلُوق ، فأسقطوا حرمته من النفوس ، وقالوا : لم ينْزل ولا يُتصوَّر نزوله ، وكيف تنْفَصل الصِّفة عن الموصوف ، وليس فى المصْحَف إلا حبر وورَق، فعادوا على ما تَعِب الشارع فى إثباته بالمَحْو ؛ كما قالوا : إن الله - عَزَّ وجَلَّ - ليس فى السماء ، ولا يقال اسْتَوى على العرش ، ولا ينزل إلى السَّماء الدنيا ، بل ذاك رحمته ، فَمَحَوْا من القلوب ما أريد إثباته فيها ، وليس هذا مراد الشارع .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ ، وجاءت فى مواضع أخرى .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٦٤ . (٣) سورة طه ، آية : ٣٩ .
(٤) مسلم فى التوبة (٢٧٥٩) ، وأحمد (٤/ ٣٩٥ ، ٤٠٤) .
(٥) حديث أن الله يضحك رواه البخارى فى التوحيد (٧٤٣٧) ، وحديث أن الله يغضب رواه البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٠) ، ومسلم فى الإيمان (١٩٤) .
(٦) سورة الشورى ، آية : ١١ . (٧) سورة الدخان ، آية : ٣ ، وسورة القدر : ١ .
(٨) سورة الشعراء ، آية : ١٩٣ (٩) سورة القلم ، آية : ٤٤ .
(١٠) سورة الأنعام ، آية : ٩٢ (١١) سورة العنكبوت ، آية : ٤٩
(١٢) سورة البروج ، آية : ٢٢ (١٣) سبق تخريجه

وجاء آخرون فلم يَقفُوا على ما حدَّه الشرع ، بل عملوا فيه بآرائهم ، فقالوا : الله على العرش ، ولم يقنعوا بقوله : ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ (١) .

ودفن لهم أقوام من سلفهم دفائن ووضعت لهم الملاحدة أحاديث فلم يعلموا ما يجُوز عليه ممَّا لا يجوز ، فأثبتوا بها صفات ، وجمهور الصحيح منها آتٍ على توسُّع العرب فأخذوه هم على الظَّاهر ، فكانوا فى ضرب المَثَل كـ « جُحَا » ، فإن أُمه قالت له : احفظ البَاب، فقلعه ومَشَى به ، فأخذ ما فى الدار ، فلامته أُمه ، فقال : إنما قلت : احفظ الباب ، وما قلت : احفَظ الدّار .

ولما تخايَلُوا صورة عظيمة على العرش أخذوا يتأولون ما ينافى وجودها على العرش ، مثل قوله: « **وَمَنْ أَتَانِى يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** » (٢) . فقالوا : ليس المراد به دُنُو الاقتراب، وإنما المُراد قرب المنزل والحظ ، وقالوا فى قوله - تعالى - : ﴿ **إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ** ﴾(٣) . هو محمول على ظَاهِرها فى مجيء الذات ، فهم ﴿ **يُحَلُّونه عامًا ويحرمونه عاماً** ﴾ (٤) ، ويسمُّون الإضافات إلى الله - تعالى - صفات ، فإنه قد أضاف إليه النَّفْخ والروح ، وأثبتوا خلقه باليد ، فلو قالوا : خَلَقه لم يمكن إنكار هذا ، بل قالوا : هى صفة تولَّى بها خلق آدم دونَ غيره ، فأى مَزِيَّة كانت تكون لآدَم .

فشغلهم النظر فى فضيلة آدم ، عن النَّظر إلى ما هو يليق بالحقِّ مما لا يليق به ، فإنه لا يجوز عليه المَسّ ، ولا العمل بالآلات ، وإنما آدم أضافه إليه .

فقالوا : نطلق على الله - تعالى - اسم الصّورة ؛ لقوله : « **خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِه** » ، وفهموا هذا الحديث وهو قوله - عليه السلام - : « **إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِب الْوَجْهَ ، وَلا يَقُلْ : قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ وَلا وَجْهًا أَشْبَهَ وَجْهَكَ ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِه** » (٥) .

فلو كان المراد به الله - عَزَّ وجَلَّ - لكان وجه الله - سبحانه - يُشْبِه وجه هذا المخاصم ؛ لأن الحديث كذا جَاء - « **ولا وجهًا أشْبه وَجْهَك** » - ورووْا حديث خَوْلَة بِنْت حكِيم : « **وَإِنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللهُ بوَجّ** » (٦) ، وما عملوا النقل ولا السـير وقـول الرسول - ﷺ - : « **اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ** » (٧)، وأن المراد به آخر وقعة قاتل

(١) سورة الشورى ، آية : ١١ .
(٢) رواه البخارى فى التوحيد (٧٤٠٥) ، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٧٥/٢) .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢١٠ . (٤) سورة التوبة : آية : ٣٧ .
(٥) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٦١٢/١١٥) ، وأحمد فى المسند (٢/ ٤٣٤) .
(٦) رواه أحمد (٦/ ٤٠٩) ، ووج . موضع بناحية الطائف .
(٧) رواه البخارى فى الأذان (٨٠٤) ، ومسلم فى المساجد (٦٧٥) .

فيها المسلمون بوَجّ ، وهى غزاة حُنَيْن ، فقالوا : نحمل الخبر على ظَاهِرِهِ ، وأن الله وَطِئَ ذلك المكان .

ولا شَكَّ أن عندهم أن الله - تعالى - كان فى الأرض ثم صَعَد إلى السماء ، وكذلك قالوا فى قوله : « **إنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا** » (1) ، قالوا : يجوز أن الله يوصف بالملل ، فجهلوا اللُّغة ، وما علموا أنه لو كانت حتى هَهُنَا للغاية ، لم تكن بمَدْح ؛ لأنه إذا ملَّ حين يمَلُّ ، فأى مدْح ، وإنما هو كقول الشاعر :

جُلِبَتْ منى هُذَيْلٌ بخرق(2)　　لا يَمَلُّ الشرَّ حتَّى يَملُّوا

والمعنى لا يمل وإن ملوا ، وقالوا فى قوله - عليه الصلاة والسلام - : « **الرَّحمُ شَجَنَةٌ منْ الرَّحْمَن تَتَعَلَّقُ بحقْوَى الرَّحمَن** » (3) ، فقالوا - الحَقْو - صفة ذات ، وذكروا أَحاديث لو رُوِيَت فى نقْض الوضوء ما قُبلت ، وعمُومها وضعته الملاحدَة ؛ كما يروى عن عَبْد الله بن عمرو . قال : خَلَق الله الملائكَة من نور الذِّراعين والصَّدْر ، فقالوا : نُثْبِت هذا على ظاهره ، ثم أرْضوا العوام بقولهم : ولا نثبت جوارح ، فكأنهم يقولون : فلانٌ قائم وما هو قائمٌ .

فاختْلف قولهم هل يُطْلَق على الله - عزَّ وجَلَّ - أنه جالس أو قائم ؛ كقوله - تعالى - : ﴿ **قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ** ﴾ (4) ، وهؤلاء أخَسّ فهمًا من جُحَا ؛ لأن قوله : ﴿ **قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ** ﴾ لا يراد به القيام ، وإنما هو كما يُقَال : الأمير قَائم بالعدْل ، وإنما ذكرت بعضَ أقوالهم ؛ لئلا يسكن إلى شىء منها ، فالحذر من هَؤُلاء فما لهم فقه ولا عبادة .

وإنما الطريق طريق السلف ، على أننى أقول لك : قد قال أحمد بن حنبل - رحمة الله عليه - : من ضيق علم الرجل أن يقلِّد فى دينه الرجال ، فلا ينبغي أن تسْمع من معظَّم فى النفوس شيئًا فى الأُصول ، فتقلده فيه ، ولو سَمِعْت عن أحدهم ما لا يوافق الأُصول الصحيحة فقل : هذا من الرَّاوى ؛ لأنه قد ثبت عن ذلك الإمام أنه لا يقول بشىء من رأيه ، فلو قدرنا صحَّته عنه ، فإنه لا يقلّد فى الأُصول ولا أبو بكر ولا عمر - رضى الله عنهما - ، فهذا أصل يَجب البناء عليه ، فلا يَهُولَنَّك ذكر معظّم فى النفوس .

---

(1) رواه البخارى فى الإيمان (43) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (785/ 221) .

(2) الخرق : الحمق .

(3) رواه البخارى فى التفسير (4830 ، 5988) ، وأحمد فى مسنده (2/ 330 ، 383 ، 406 ، 455) . قلت : الشجنة : أى مشتبكة كالعروق ، والحقو : معقد الإزار .

(4) سورة آل عمران ، آية : 18 .

وكان المقصُود من شرح هذا أن ديننا سليم ، وإنما أدخل أقوامٌ فيه ما تأذَّينا به .

ولقد أدخل المتزهدون في الدِّين ما ينفر الناس منه ، حتى إنهم يرون أفعالهم فيستعبدون الطريق، وأكثر أدلَّة هذه الطريق القُصَّاص ؛ فإن العامى إذا دخل إلى مجلسهم وهو لا يحسن الوضوء ، كلموه بدقائق الْجُنَيْد ، وإشارات الشِّبْلى ، فرأى ذلك العامىّ أن الطريق الواضح لُزُوم زاوية ، وترك الكَسب للعائلة ، ومُنَاجاة الحقّ خَلْوة على زعمه ، مع كونه لا يعرف أرْكَان الصلاة ولا أدَّبه العلم ، ولا قَوَّم أخلاقه شيء من مخالطة العلماء ، فلا يَسْتفيد من خَلْوَته إلا كما يستَفيد الحمار من الاصطبل ، فإن امتد عليه الزَّمان فى تقلُّله ، زاد يبسه ، فربما خايلت له الماليخوليا أشباحًا يظنهم الملائكة ، ثم يُطَأْطِئ رأسه ويمد يده للتَّقْبيل .

فكم قد رأينا أكار [1] ترك الزَّرع ، وقعد في زاويَة فصار إلى هذه الحالة فاستراح من تَعَبه، فلو قيل له : عُدْ مريضًا ، قال : مالى عادةٌ ، فلَعَن الله عادةً تخالف الشريعة ، فيرى العامة بما يورده القَصَّاص طريق الشرع هذه لا الَّتى عليها الفقهاء ، فيَقْعُون فى الضَّلال .

ومن المتزهدين من لا يُبَالى عمل بالشرع أم لا ، ثم يتفاوت جُهَالهم : فمنهم من سلَكَ مذهب الإباحة ويقول : الشيخ لا يُعارَض ، وينهمك فى المعاصى ، ومنهم من يحفظ نَامُوسَه فيفتى بغير علم ؛ لئلا يقال : الشيخ لا يَدْرى .

ولقد حدثنى الشيخ أبو حكيم - رحمة الله عليه - : أن الشَّريف الدَّحَالىّ كان يقصد فيزَار ويتبرك به ، حضر عنده يومًا فسَئل أبو حكيم هل تحلُّ المطلَّقة ثلاثًا إذا ولدت ذكرا؟ قال : فقلت : لا والله ، فقال لى الشَّريف : اسكت فوالله لقد أفْتَيْتُ الناس بأنها تحل من هَهُنا إلى البصرة .

وحكى لى الشيخ أبو حكيم : أن جد آذاد الحَدّاد - وكان يُتَوَسَّم بالعلم - جاءت إليه امرأة فزوَّجها من رَجُل ولم يسأل عن انقضاء العدَّة ، فاعترضها الحَاكم وفرَّق بينها وبين الزوج ، وأنكر على المزوّج قال : فلقيَتْه المرأة ، فقالت : يا سيدى ، أنا امرأة لا أعلم فكيف زوَّجْتنى . فقال : دعى حَديثَهم ما أنت إلا طاهرة مطهرة ، وحدثنى بعض الفقهاء عن رجل من العُبَّاد ؛ أنه كان يسجد للسهو سنين ، ويقول : والله ما سهوت ولكن أفعله احترازًا ، فقال له الفقيه : قد بَطَلَت صلاتُك كلها ؛ لأنك زدت سجُودًا غير مشرُوع .

---

(١) الأكار : الحراث .

ثم من الدَّخَل الذى دخل فى ديننا طريق المتصَوِّفة ؛ فإنَّهم سلكوا طرقًا أكثرها تُنَافى الشريعة ، وأهل التديُّن يقلِّلون ويخفضون ، وهذا ليس بشرع ، حتى إن رَجُلاً كان قريبًا من زَمَانى ، يقال له : كُثَيِّر دخل إلى جامع المنصور وقال : عاهدتُ الله عهدًا ونَقَضتُه ، فقد ألزمت نفسى ألا تأكل أربعين يومًا ، فحدَّثنى من رآه : أنه بَقى عشرة أيّام ، ثم فى العشر الرابع أشرف على الموت ، قال : فما انْقَضَت حتى تفرَّغ ، فصَبَّ فى حلقه ماء فسمعنا له نشيشًا كنَشِيش [1] المقلاة ، ثم مات بعد أيام ، فانظروا إلى هذا المسكين وما فعله به جَهْلُه .

ومنهم من فسَح لنفسه فى كل ما يُحِبُّ من التنعم واللَّذات ، واقتنع من التَّصوف بالقَميص والفُوطَة والعمَامة اللطيفة ، ولَم ينظر من أين يأكل ولا من أين يشرب ؟! وخالط الأمراء من أربابَ الدنيا ولُبَّاس الحرير ، وشُرَّاب الخمور ، حفظًا لماله وجاهه .

ومنهم أقوام عملوا سننًا لهم تلقَّوها من كلمات أكثرها لا يَثْبُت ، ومنهم من أكَبَّ على سَماع الغناء والرقص واللعب .

ثم انقسموا هؤلاء : فمنهم من يدَّعى الْعِشْق فيه ، ومنهم من يَقُول بالحُلُول ، ومنهم يسمع على وجْه الهوى واللعب ، وكلا الطَّرِيقين يفسد العَوَام الفساد العَامّ .

وهذا الشرح يَطُول ، وقد صنَّفْت كتبًا ترى فيها البَسْط الحسن - إن شاء الله تعالى - منها « تَلْبِيس إبْلِيس » .

والمقصُود أن تعلم أنّ الشرع تام كامل ، فإن رُزِقْت فهمًا له ، فأنت تتبع الرَّسُول - ﷺ - وأصحابه ، وتَتْرُك بُنَيّات الطريق ولا تقلِّد فى دينك الرجال ، فإن فعلت ، فإنك لا تحتاج إلى وصيَّة أخرى ، واحْذر جمود النقلة ، وانبساط المتكلمين ، وجموع المتَزَهِّدين، وشره أهل الهوى ، ووقُوف العلماء على صورة العلم ، من غير عَمَل ، وعمل المتعبِّدين بغير عِلْم ، ومن أيَّده الله - تعالى - بلطفه ، ورزقه الفَهْم ، وأخرجه عن رِبْقَة التقليد ، وجعله أُمَّة واحدة فى زمانه لا يبالى بمن عبث ولا يلتفت إلى من لام قد سلم زمامه إلى دليل واضح السبيل ، عَصَمَنَا الله وإياكم من تقْليد المعظَّمين ، وألْهَمَنَا اتباع الرسول - ﷺ - فإنه دُرَّة الوجود ، ومقصود الكون - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وأصحابه وأتباعه - ورزقَنَا اتِّباعه مع أتباعه

---

(١) النشيش : صوت الماء عند الغليان

٧٢ - فصل : ملازمة التقوى فى كل حال

اعلم أن الزمان لا يثْبُت على حال ؛ كما قال - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١) ، فتارةً فقر وتارة غِنىً ، وتارة عِز ، وتارة ذُل ، وتارة يفرح الموالى وتارة يَشْمَت الأعادى .

فالسعيد من لازم أصلاً واحدًا على كل حال ، وهو تقوى الله - عَزَّ وجَلَّ - ، فإنه إن استغنى زانته ، وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر ، وإن عوفى تمت النعمة عليه ، وإن ابتلى حملته ، ولا يضرُّه إن نزل به الزمان أو صَعَد ، أو أعراه أو أشبعه أو أجَاعَه ؛ لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير ، والتقوى أصل السلامة حارس لا ينام ، يأخذ باليد عند العَثْرة ، ويوافق على الحدود ، والمنكر من غَرَّته لذة حصلت مع عدم التقوى ، فإنها ستَحُول وتخليه خاسرًا .

ولازم التقوى فى كل حال فإنك لا ترى فى الضيق إلا السعة ، وفى المرَض إلا العافية، هذا نَقدها العاجل والآجل معلوم .

٧٣ - فصل : جهاد الهوى

تأملت أمرًا عجيبًا ، وأصلاً ظريفًا ، وهو انهيال الابتلاء على المؤْمن ، وعرْض صورة اللذات عليه مع قدرته على نَيْلها ، وخصوصًا ما كان فى غير كُلْفَة من تحصيله ؛ كمحبوب موافق فى خلوة حَصِينَة .

فقلت : سبحانه الله هَهُنَا يَبِينُ أثر الإيمان لا فى صلاة ركعتين ، والله ما صَعَد يوسف - عليه السلام - ولا سعد إلا فى مثل ذلك المقام، فبالله عليكم يا إخْوانى ، تأملوا حاله لو كان وافَقَ هواه من كان يكون ؟ وقيسُوا بين تلك الحالة وحالة آدم - عليه السلام - ثم زنُوا بميزان العقل عُقْبَى تلك الخَطِيئة ، وثمرة هذا الصَّبْر ، واجْعَلوا فهم الحال عُدَّةً لكم عند كل مُشْتَهى .

وإن اللّذات لتعرض على المؤمن، فمتى لَقِيهَا فى صفٍّ حربه وقد تأخَّر عنه عسكر التَّدبر للعواقب هُزِمَ ، وكأنى أرى الواقع فى بَعْض أشراكها ، ولسان الحال يقول له : قف مكانك أنت وما اخترت لنفسك ، فغايةُ أمْرِه الندم والبكاء .

فإن أمِن إخراجه من تلك الهوة ، لم يخرج إلا مدهونًا بالخُدُوش ، وكم من شَخْص

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٤٠ .

زلّت قدمه فما ارتفعت بعدها ، ومن تأمل ذُلَّ إخوة يُوسف - عليهم السلام - يوم ﴿وتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [1] عرف شُؤْم الذلل ، ومن تدبر أحوالهم ، قاس ما بينهم وبين أخيهم من الفُرُوق - وإن كانت توبَتُهم قُبلت - ؛ لأنه ليس من رقَّع وخاط كمن ثوبه صحيح ، ورب عَظْم هيض [2] لم يَجبر ، فإنْ جُبر ، فعلى وهن فتيقظوا إخواني لعرض المشتهيات [2] على النفوس ، واستوثقوا من لجم الخيل ، وانتبهوا للعيم إذا تراكم بالصُّعود إلى تَلْعَة [3] ، وربما مر الوادى فراح بالرَّكب .

٧٤ - فصل : عدم استجابة الدعاء

تأملت حالةً عجيبة ، وهو أن المؤمن تنزل به النَّازلة فيدعو ويبالغ ، فلا يرى أثرًا للإجابة ، فإذا قارب اليأس ، نظر حينَئذ إلى قلبه فإن كان راضيًا بالأقْدار غير قَنُوط من فضل الله - عزَّ وجلَّ - ، فالغالب تعجيل الإجابة حينئذ ؛ لأن هناك يصلح الإيمان ويهزم الشيطان ، وهناك تبين مَقَادير الرِّجال .

وقد أشير إلى هذا فى قَوْله - تعالى - : ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله﴾ [4] ، وكذلك جرى ليعقوب - عليه السلام - ، فإنه لما فقد ولدًا وطال الأمر عليه ، لم يَيأس من الفرَج ، فأُخذ ولده الآخر ولم ينقطع أمله من فضل ربه : ﴿أَنْ يَأْتِينِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [5] ، وكذلك قال زكريا - عليه السلام - : ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًا﴾ [6] .

فإياك أن تستطيل مُدَّة الإجابة ، وكن ناظرًا إلى أنه المَالكُ ، وإلى أنه الحكيم فى التدبير والعالم بالمصالح ، وإلى أنه يريد اخْتبَارك لَيبْلُوَ أسرارك ، وإلى أنه يريد أن يرى تضرُّعك ، وإلى أنه يريد أن يأجُرَك بصبرك إلى غير ذلك ، وإلى أنه يبتليك بالتأخير؛ لتحارب وسوَسَة إبليس .

وكل واحدة من هذه الأشياء تقوى الظن فى فضْله ، وتوجب الشُكْر له إذ أهَّلك بالبلاء للالتفات إلى سؤاله ، وفقر المضطر إلى اللَّجأ إليه غنًى كله .

٧٥ - فصل : حكمة الغرائز فى الأبدان

لما كان بدن الآدَمى لا يقوم إلا باجتلاب المصالح ودفع المؤذى ، ركّب فيه الهوى

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٨٨ .   (٢) هيض : كسر بعد جبر .

(٣) التلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها كما فى القاموس .

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١٤   (٥) سورة يوسف، آية : ٨٣ .   (٦) سورة مريم ، آية : ٤ .

ليكون سببًا لجلب النافع ، والغضب ليكون سببًا لدفع المؤذى ، ولولا الهوى فى المطْعَم، ما تناول الطَّعام ، فلم يقم بدنه ، فجعل له إليه ميل وتَوْق[1] ، فإذا حصل له قدْر ما يقيم بدنه ، زال التوق ، وكذلك فى المشْرَب والملبس والمنْكح ، وفائدة المَنْكَح من وجْهَيْن:

أحدهما : إبقاء الجنس وهو معظم المقصود .

والثانى : دفع الفَضْلة المحتقنة المؤذى احتقانها ، ولولا تركيب الهوى المائل بصاحبه إلى النكاح ، ما طلبه أحد ، ففات النَّسل وآذى المحتقن ، فأما العارفون فإنهم فهمُوا المقصود ، وأما الجاهلون فإنهم مالُوا مع الشهوة والهوى ، ولم يفهموا مقصود وَضْعها ، فضاع زمانهم فيما لا طَائل فيه ، وفاتَهُم ما خُلقُوا لأجله ، وأخرجهم هواهم إلى فساد المال وذهاب العِرْض والدِّين ، ثم أدَّاهم إلى التلف .

وكم قد رأينا من متَنَعّم يبالغ فى شراء الجَوَارى ؛ ليحرك طبعه بالمستجد ، فما كان بأسرع من أن وَهَنَتْ قواه الأصلية ، فتعجل تلفه .

وكذلك رأينا من زَاد غضبه ، فخرج عن الحد ، ففتك بنفسه وبمن يُحبُّه ، فمن علم أن هذه الأشياء إنما خلقت إعانةً للبَدن على قَطْع مراحل الدنيا ، ولم تُخْلق لنفس الالْتذاذ، وإنما جعلت اللذة فيها كالحيلَة فى إيصال النَّفع بها ؛ إذ لو كان المقْصُود التنعم بها ، لما جعلت الحيوانات البَهِيميَّة أوفى حظا من الآدمى منها ، فطُوبَى لمن فَهم حقائق الوَضْع ، ولم يَمِلْ به الهوى عن فُهم حكم المخلوقات .

٧٦ – فصل : شؤم المعصية

من تأمّل عواقب المعاصى ، رآها قبيحة ، ولقد تفكّرت فى أقوام أعرفهم يُقرُّون بالزنا وغيره ، فأرى من تَعَثّرهم فى الدنيا مع جلادتهم[2] ما لا يقف عند حَدٍّ ، وكأنهم قد أُلبسوا ظلمة ، فالقلوب تنفر عنهم ، فإن اتسع لهم شيء ، فأكثره من مال الغَيْر ، وإن ضاق بهم أمر ، أخَذُوا يتسَّخطُون على القدر ، هذا وقد شُغلوا بهذه الأوساخ عن ذكر الآخرة .

ثم عكَسْت فتفكرت فى أقوام صَابَرُوا الهوى ، وتركوا ما لا يَحِلُّ ، فمنهم من قد أيْنَعَت[3] له ثمرات الدُّنيا ؛ من قوت مستلذ ، ومهاد[4] مستطَاب ، وعيش لذيذ ، وجاه عريض ، فإن ضاق بهم أمر وسَّعَه الصبر ، وطيَّبه الرضى ، ففهمت بالحَال معنى قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجرَ الْمُحْسنينَ ﴾[5] .

---

(١) توق : شوق . (٢) الجلادة : القوة والصلابة . (٣) أينعت : طابت .
(٤) المهاد : الفراش . (٥) سورة يوسف ، آية : ٩٠ .

٧٧ - فصل : الوقوف على باب الله

ينبغى للعاقل أن يلازم باب مَوْلاه على كل حال ، وأن يتعلق بذَيل فضْله إن عصى وإن أطاع ، وليكُن له أُنس فى خلوته به ، فإن وقعت وَحْشَةٌ فليجتهد فى رفع المُوحِش ، كما قال الشاعر :

أَمُسْتَوْحِشٌ أَنْتَ مِمَّا جَنَيْـ ـتَ فَأَحْسِنْ إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِس

فإن رأى نفسه مائلاً إلى الدنيا ، طلبها منه ، أو إلى الآخرة ، سأله التوفيق للعمل لها ، فإن خاف ضرراً ما يرومه من الدنيا ، سأل الله إصلاح قلبه ، وَطِبَّ مرضه ، فإنه إذَا صلح لم يطلب ما يُؤْذيه ، ومن كان هكَذا ، كان فى العيش الرَّغَد ، غير أن من ضرورة هذه الحَال ملازَمة التقوى ، فإنه لا يصلح الأُنس إلا بها .

وقد كان أرْباب التقوى يتشاغلون عن كُلِّ شىء إلا عن اللجأ والسؤال ، وفى الخبر : أن قتيبة بن مسلم [١] لما صَافَ التُّرك [٢] ، هاله أمرهم، فقال : أين محمد بن واسع[٣]؟ فقيل : هو فى أقصى المَيْمَنة جَانِحٌ على سِية قوسه [٤] يومئ بإصْبَعه نحو السماء، فقال قتيبة : تلك الأصبع الفاردة أحب إلىّ من مائة ألف سيف شَهِير ، وسِنَان [٥] طرير ، فلما فُتح عليهم ، قال له : ما كنْتَ تصنع ؟ قال : آخُذُ لك بمجَامع الطُّرق

٧٨ - فصل : أهمية الكتمان للأسرار

ينبغى لمن تظاهرت نِعَم الله - عزَّ وجَلَّ - عليه ، أن يظهر منها ما يبين أثرها ، ولا يكشف جملتها ، وهذا من أعظم لذات الدنيا التى يأمر الحزم بتركها ، فإن العين حق .

وإنى تفقدت النعم فرأيت إظهارها حُلواً عند النفس ، إلا أنها إن أظهرت لوديد لم يؤمن، تشَعّث [٦] باطنه بالغيظ ، وإن أظهرت لعدو ، فالظاهر إصابته بالعين لمَوْضع الحسد، إلا أننى رأيت بعد الحسود كاللازم ، فإنه فى حال البلاء يَتَشفَّى ، وفى حال النعم يصيب بالعين .

ولعمرى إِن المنعم عليه يشتهى غيظ حَسُوده ، ولكنه لا يؤمن أن يخاطر بنعمته، فإن

---

(١) هو أحد الأبطال صاحب الفتوحات قتل سنة (٩٦ هـ)

(٢) أى قام فى مواجهتهم للقتال

(٣) محمد بن واسع بن جابر الأزدى أبو بكر ، أو أبو عبد الله بصرى ثقة توفى سنة (١٢٣هـ)

(٤) سية القوس : ما عطف من طرفيها وبابها (٥) السنان الطرير السنان المحدد

(٦) تشعث تمزق ، ووديد اسم فاعل من وذ

الغالب إصابة الحاسد لها بالعَيْن ، فلا يساوى الالتذاذ بإظهار ما غيظ به ما أفسدت عينه بإصابتها ، وكتمان الأمور فى كل حال فعل الحازم ، فإنه إن كشف مقدار سنّه استهرموه إن كان كبيرًا ، أو احتقروه إن كان صغيرًا ، وإن كشف ما يعتقده ، ناصبه الأضداد بالعداوة ، وإن كشف قدر ماله ، استحقروه إن كان قليلاً ، وحسدوه إن كان كثيرًا ، وفى هذه الثَّلاثة يقول الشاعر :

احْـــــفَظْ لِسَانَكَ لا تَبُحْ بِثَلاثَةٍ ... سِــنٌّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ

فَعَــــــلَى الثَّلاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلاثَةٍ ... بِمُمَوِّهٍ وَمُمَخْـرِقٍ وَمُكَـــــذِّبِ

وقِسْ على ما ذكرت ما لم أذكره ، ولا تكُن من المذاييع الغُرِّ [1] الذين لا يحملون أسرارهم حتى يُفْشُونها إلى من لا يصلح ، ورُبَّ كلمة جرى بها اللسان ، هلك بها الإنسان .

٧٩ - فصل : تتابع العثرات دون اعتبار

رأيت كُلَّ من يعثر بشىء أو يَزْلَق فى مَطَرٍ ، يلتفت إلى ما عُثِر به ، فنظر إليه طبعًا موضوعًا فى الخلق ، إما ليحذر منه إن جاز عليه مَرَّةً أخرى من مثله ، أو لينظر مع احترازه وفهمه ، كيف فَاتَه التحرز من مثل هذا .

فأخذت من ذلك إشارة وقلت : يا من عَثَر مرارًا هلا أبصرت ما الذى عَثَّرك فاحترزت من مِثْله ، أو قَبَّحت لنفسك مع حَزْمها تلك الواقعة ؛ فإن الغالب ممن يلتَفِت ، أن معنى التفاته : كيف عَثَر مثلى مع احترازه بمثل ما أرى ؟

فالعجب لك كيف عَثَرت بمثل الذنب الفُلانى والذنب الفلانى ؟ كيف غَرَّك زُخْرف تعلَم بعَقلك باطنه ، وترى بعين فكْرِك مآله ؟ كيف آثرت فانيًا على باقٍ ؟ كيف بعت بِوَكْسٍ [2] ؟ كيف اخترت لذّة رقدة على انتبَاه معاملَة .

آه لك ، لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يُقلّها ظهر ، وتَنْكيس رأس أمْسى بعيد الرَّفع ، ودموع حُزْن على قُبْح فعل ما لمدهها انقطاع ، وأقبح الكل أن يقال لَكَ بماذا ؟ ومن أجل ماذا ؟ وهذا على ماذا ؟ يا من قَلَب الغرور عليه الصنجة ، ووزَن له والميزان رَاكب .

---

(١) المذاييع الغر : الذين لا يكتمون أسرارهم والغير مجربين .

(٢) الوكس هو : الخسران والنقص .

٨٠ - فصل : ثمرة الهدى

تأملت قوله - تعالى - : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ [(١)] . قال المفسرون: هُدَاى : رسول الله - ﷺ - وكتابى ، فوجدته على الحقيقة أن كل من اتبع القرآن والسُّنَّة وعمل بما فيهما ، فقد سَلِمَ من الضَّلال بلا شك . وارْتَفع فى حقِّه شقاء الآخرة بلا شَكّ ، إذا مات على ذلك ، وكذلك شقاء الدُّنْيَا فلا يشقى أصلاً ؛ ويبين هذا قوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [(٢)] ، فإن رأيته فى شدة فَله من اليقين بالجزاء ، ما يصير الصَّاب [(٣)] عنده عسلاً ، وإلا غلب طِيبُ العيش فى كل حَال .

والغالب أنه لا ينزل به شدَّة إلا إذا انحرف عن جادَّة التقوى . فأما الملازم لطريق التَّقْوَى فلا آفة تطرقه ، ولا بلية تنزل به ، هذا هو الأغلب ، فإن وجد من تَطْرُقه البلايا مع التقوى ، فَذاك فى الأغلب ، لتقدم ذنب يجازى عليه ، فإن قدَّرنا عدم الذنب ، فذاك لإدخال ذَهَب صبره كيرَ البلاء حتى يخرج تِبْرًا أحمر [(٤)] ، فهو يرى عذوبة العذاب ؛ لأنه يشاهد المبتلى فى البلاء لا الألم ، قال الشبلى :

أَحَبَّك الناس لنَعْمَائك وأنَا أحــبك لبلائك

٨١ - فصل : الاستكانة للمعصية وشؤمها

لا ينال لذَّة المعاصى إلا سكران الغفلة ، فأما المؤمن فإنه لا يلتذ ؛ لأنه عند التذَاذه يقف بإزائه علم التحريم وحَذَر العقوبة ، فإن قويت معرفته ، رأى بعَيْن علمه قرب الناهى، فينغص عَيْشه فى حال التذَاذه ، فإن غلب سُكْر الهوى ، كان القلب متنغِّصًا بهذه المرَاقَبَات ، وإن كان الطبع فى شَهْوته وما هى إلا لحظة ، ثم خُذْ من غريم نَدَم مُلازم ، وبكاء مُتَواصل ، وآسف على ما كان مع طُول الزمان ، حتى إنه لو تيقَّن العفو وقف بإزائه حذَر العتاب ، فَأُفٍّ للذنوب ما أقبح آثارها ، وما أسوأ أخبارها ، ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة .

٨٢ - فصل : فضل الاختلاط بالناس

بكَرْتُ يومًا أطلب الخلوة إلى جامع الرُّصَافَة ، فجعلت أجول وحدى ، وأتفكَّر فى ذلك المكَان ومن كان به من العُلَماء والصَّالحين ، ورأيت أقْوامًا قد جَاوَرُوا فيه فسألت

---

(١) سورة طه ، آية : ١٢٣ (٢) سورة الطلاق ، آية ٢

(٣) الصاب : عصارة لشجر مر كما فى القاموس .

(٤) تبرا أحمر : أى ذهب من أجود أنواعه .

أحدهم: منذ كم أنت هَهُنا ؟ فأومأ إلىّ ؛ قريبٌ من أربعين سنة ، فرأيته فى بيت كَثِير الدَّرَن [١] والوَسَخ ، وجعلت أتفكر فى حبْسه لنفسه عن النّكاح هذه المدة ، فأخذت النفس تحسن ذلك ، وتذمُّ الدنيا والاغترار بها ، فأقبل العلم ينكر على النفس ، ونهض الفَهْم لحقائق الأمور ، وموْضُوعُ الشرع يقوى ما قال العلم ، فَيَنْحَلُّ مِنْ ذلك أن قلت للنفس : اعلمى أن هؤلاء على ضَرْبَيْن :

منهم من يُجَاهدُ نفسه فى الصَّبر على هذه الأحوال ، فتفوته فضائل المُخَالَطة لأهل العلم والعمل ، وطَلَب الولد ، ونفْع الخلق ، وانتفاع نفسه بمجالَسة أهل الفَهْم ، فيحدث له من نفسه حالةٌ تشابه فيها الوحش فتُؤْثر الانْفِراد لنفس الانفراد .

وربما يبس الطَّبع ، وساء الخُلُق ، وربَّما حدث من حبْس مائه المحتقن سُمِّيَّة أفسَدَت بدنه وعقله ، وربما أورثَتْه الخلوة وسْوَسَة ، وربَّما ظن أنه من الأولياء واستغنى بما يعْرِفه، وربما خيِّل له الشيطان أشياء من الخيالات وهو يعدها كَرَامات ، وربَّما ظن أنّ الذى هو فيه الغَاية ، ولا يدرى أنه إلى الكراهة أقرب ، فإن رسول الله - ﷺ- نَهى أنْ يَبِيتَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ [٢] ، وهؤلاء كل منهم يَبِيت وحده ، ونهى عن التَّبَتُّل [٣] وهذا تبتل ، ونهى عن الرَّهْبَانية [٤] وهذا من خفى خِدَع إبليس التى يوقع بها فى ورَطَات الضلال بألطف وجه وأخْفَاه .

والضرب الثانى : مشايخ قد فنوا فانقَطوا ضرورة ؛ إذ ليس لأحدهم مأوىً فهم فى مقام الزَّمْنى ، وإن كان الضَّرب الأول قد قطعوا حَبْل نفوسهم فى العلْم والعمل والكَسْب، وتعلَّقت هممهم بفتُوح يطرق عليهم الباب ، فرضُوا بالعَمَى بعد البصر ، وبالزَّمَن بعد الإطلاق .

فقالت لى النفس : لا أرضى لك هذا الذى تَقوله ، فإنك إنما تميل إلى إيثار نكاح المستَحْسَنات ، والمطاعم المشتهيات ، فإذا لم تكن من أهل التعبد ، فلا تطْعَن فيهم . فقلت لها : إن فهمت ، حدَّثتك ، وإن كنت تقلِّدين صور الأحوال ، فلا فَهْم لك ، أما المستحسنات فإن المقصود من النّكاح أشياء : منها طلب الولد ، ومنها شفاء النفس بإخراج الفضلة المؤْذية ، وكمال خروجها لا يكون إلا بوجود المستَحْسن ، واعتبر هذا

(١) الدرن : الوسخ .
(٢) رواه أحمد فى مسنده عن ابن عمر (٢/ ٩١) ، ورجاله رجال الصحيح .
(٣) البخارى فى النكاح (٥٠٧٣ ، ٥٠٧٤) ، ومسلم فى النكاح (١٤٠٢) .
(٤) أحمد فى المسند (٦/ ٢٢٦) وإسناده صحيح ، والدارمى (٢١٦٩) .

بالوَطْء دون الفرْج ، فإنه يحرج من الفضلات ما لا يُخْرِج بالوطء فى الفرج، وبتمام خروج تلك الفَضْلة تفرغ النفس عن شواغلها ، فتدرى أين هى ، كما نأمر القاضى بالأكل قبل الحُكْم ، وننْهاه عن الحكم وهو غَضبان أو حاقن ، وبكمال بلوغ هذا الغَرَض يكون كمال الولد ؛ بتمام النطفة التى تُخْلَق منها ، ثم للنفس حظ فهو يسْتَوْفيه استيفَاء الناقة حظَّها من العَلَف فى السَّفر ، وذلك يُعين على سيرها .

وأما المطاعم : فالجاهل من يطلبها لذاتها أو لنفس لذاتها ، وإنما المراد إصلاح عزم الناقة لجمع هَمِّها ، ونيل مُرَادها من غَرَضها الصّارف لها عن الفكر فى هَوَاها ، وإذا تأملت حال الشرب الأول رأيت من هذا عجبًا ؛ فإن النبى - ﷺ - اختار لنفسه عَائشَةَ - رضى الله عنها - وكانت مستحسنة ورأى زينب فاستحسنها فتزوجها ، وكذلك اختار صفية وكان إذا وصفت له امرأة بعث يخطبها . وكان لعلى - رضى الله عنه - أربع حرائر ، وسبع عشرة سَرِيَّة مات عنهن .

وقبل هذه الأُمة فقد كان لداود - عليه السلام - مائة امرأة ، ولسليمان - عليه السلام- ألف امرأة . فمن ادَّعى خللاً فى هذه الطرق ، أو أن هؤلاء آثروا هَوَاهم ، وأنفقوا بضائع العُمْر فى هذه الأغراض وغَيْرها أفضل . فقد ادَّعى على الكاملين النقصان وإنما هو الناقص فهمه لا هُمْ .

وقد كان سفيان الثورى إذا سافر ففى سُفرته حَمَل مشوية وفَالُوذَج ، وكان حسَن المَطْعم ، وكان يقول : إن الدابة إذا لم تحسن إليها ، لم تعمل .

وهذه الفُنُون التى أشَرْت إليها إن قُصدت للحاجة إليها ، أو لقضاء وطَر النفس منها، أو لبلوغ الأغراض الدينيّة والدُّنْيَوِيّة منها - فكله قصْد صحيح لا يعكّر عليه حاله ، ومن يقُوم ويقعد فى ركعات لا يفهم مَعْنَاها ، وفى تسبيحات أكثر ألفاظها ردِيَّة .

كلا ليس إلا العلم الذى هو أفضل الصِّفات وأشرف العبَادات ، وهو الآمر بالمصَالح، والناطق بالنصائح ، ثم منْفَعة العلم معروفة ، وزهد الزاهد لا يتعدى عتبة بَابه ، وقد قال - صلى الله عليه وسلم - : « **لأَنْ يَهْدِى اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ ممَّا طَلَعَتْ عَلَيْه الشَّمْسُ** » (١) .

ثم اعتبر فضْل الرُّسل على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، والجوارح (٢) على

(١) سبق تخريجه (٢) الجوارح : الطيور الجارحة التى تصيد كالصقور وغيرها .

التى لا تصيد ، والطّين الذى يعمل منه ما ينتفع به على الطّين فى المطلع [1] ، وغاية العلماء تصرُّفهم بالعلم فى المباح ، وأكثر المتزهدين جهلةٌ يستعبدهم تقبيل اليَد لأجل تركهم ما أُبيح ، فكم فوّتت العزلة علمًا يصلح به أصْل الدين ، وكم أوْقَعت فى بلية هلك بها الدين ، وإنما عزلة العالم عن الشَّرّ فحسب ، والله الموفق .

٨٣ - فصل : عواقب الذنوب

ينبغى لكُلِّ ذى لُبٍّ وفطنة أن يحْذر عواقب المعَاصى ، فإنه لَيْس بين الآدمى وبين الله - تعالى - قرابَةٌ ولا رحم ، وإنَّمَا هو قائم بالقِسْط ، حاكمٌ بالعدل ، وإن كان حلْمُه يسع الذنوب . إلا أنه إذا شاء عفا فعفا [2] عن كل كثيف من الذنوب ، وإذا شاء أخذ باليسير، فالحذرَ الحذرَ ، ولقد رأيت أقوامًا من المترَفين كانوا يتقلّبون فى الظلم والمعَاصى الباطنة والظاهرة ، فتعبُوا من حيث لم يحتسبوا ، فقُلِعت أُصولهم . ونُقِض ما بنَوْا من قواعدَ أحكموها لذرَاريهم .

وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب الحق - عَزَّ وجَلَّ - وظنوا أن ما يفعلونه من خَيْر ، يقاوم ما يجرى من شرٍّ ، فمالت سفينة ظنُونهم ، فدخلها من ماء الكَيْد ما أغرقهم ، ورأيت أقوامًا من المنْتَسِبين إلى العلم أهملوا نظر الحق - عَزَّ وجَلَّ - إليهم فى الخَلَوات ، فمحا محاسن ذكرهم فى الجَلَوات . فكانوا موجودين كالمعدُومين ، لا حلاوة لرؤيتهم ، ولا قلب يَحِنُّ إلى لقائهم .

فالله الله فى مراقبة الحق - عَزَّ وجَلَّ - ؛ فإن ميزان عدله تَبِين فيه الذَّرة ، وجزاؤُه مراصد للمخطِئ ولو بعد حين ، وربَّما ظن العفو وهو إمهال ، وللذنوب عواقب سيِّئة ، فالله الله الخلوات ، الخلوات ، البواطن البواطن ، النيات النيات ، فإن عليكم من الله عينًا ناظرة ، وإياكم والاغترار بحلْمه وكرمه ، فكم قد استَدْرَج ، وكونوا على مراقبة الخَطَايا مجتهدين فى محْوِها، وما شىءٌ ينفع كالتضرع مع الْحَمِيَّة عن الخَطَايا ، فلعله .

وهذا فصل إذا تأمّله المعامل لله - تعالىَ - ، نفعه ، ولقد قال بعض المرَاقبين لله - تعالى - : قدرت على لَذَّةٍ هى غاية وليست بكَبِيرة ، فنازعتنى نفسى إليْها ؛ اعتمادًا على صِغَرها وعظم فَضْل الله - تعالى - وكرمه ، فقلت لنفسى : إن غلبت هذه فأنْت أنت ، وإذا أتيت هذه فمن أنْت .

---

(١) المطلع : الطريق .

(٢) عفا من الصفح والصفو والثانية من الإزالة

وذكرتها حالة أقوام كانوا يفسحون لأنفسهم فى مُسَامحة كيف انطوت أذكارهم ، وتمكّنت عقوبة الإعراض عنهم ، فَارْعَوَتْ [1] ورجَعَتْ عمَّا همَّتْ به، والله الموفّق .

٨٤ – فصل : معظم النار من مستصغر الشرر

كثير من الناس يتسامحون فى أُمور يظنونها قريبة ، وهى تقدح فى الأصول ، كاستعارة طُلاب العلم جزءًا لا يردُّونه ، وقصد الدُّخول على من يأكل ليُؤْكل معه ، وتناول طعام لم يُدْعَ الإنسان إليه ، والتسامح بعِرْض العدو التذاذًا بذلك ؛ واستصْغَارًا لمثل هذا الذَّنب، وإطلاق البَصر فى المحرَّم ؛ استهانة بتلك الخطيئة ، وفَتْوى مَن لا يعلم لئلا يقال هو جاهل ، ونحو ذلك مما يُظَنُّ صغيرًا وهو عظيم ، وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطَّه من مرتبة المتَميِّزين بين الناس ، ومن مقام رِفْعَة القدر عند الحق ، وربما قيل له بلسان الحال : يا من اؤتمن على أمر يسير فخان ،كيف ترجو بتدليك رضا الديان.

قال بعض السلف : تسامحت بلُقْمة فتناولتها ، فأنا اليوم أربعين سنة إلى خلف .

فاللهَ اللهَ اسمعوا ممن قد جرَّب ، كونوا على مُرَاقبة ، وانظروا فى العَوَاقب ، واعرَفُوا عظمة النَّاهى ، واحذَرُوا مـن نفخة تُحْتَقَر ، وشرَرة تُسْتَصْغَر فربما أحرقت بلدًا . وهذا الذى أشَرْت إليه يسير يدل على كثير ، وأُنْمُوذَج يعرف باقى المحقرات من الذُّنوب ، والعلم والمراقبة يعرِّفانك ما أخللت بذكره ، ويعلِّمانك إن تلمحت بعين البَصيرة أثر شُؤْم فعله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العَلِىّ العظيم .

٨٥ – فصل : متى يستجيب الدعاء

رأيت من نفسى عجبًا ، تسأل الله – عزَّ وجَلَّ – حاجاتها ، وتنسى جنَاياتها ، فقلت: يا نَفْس السوء ، أوَ مثلك ينْطق ، فإن نطق فينبغى أن يكون السؤال العفو فحسب، فقالت : فممن أطلب مرادَاتى ؟ قلت : ما أمنعك من طلب المُرَاد ، إنَّما أقول حقِّقى التوبة وانْطقى ؛ كما نقول فى العاصى بسفره إذا اضطر إلى الميتة ، لا يجوز له أن يأكُل ، فإن قيل لَنا : أفيموت ؟ قلنا : لا ، بل يتوب ويأكل .

فاللهَ اللهَ من جَرَاءَة على طلب الأغراض مع نسيان ما تقدَّم من الذنوب التى توجب تَنْكيس الرأس ، ولئن تشاغلت بإصلاح ما مضى والنَّدم عليه ، جاءتك مرادَاتك ؛ كما روى . « **مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى ، أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائلينَ** » [2] ، وقد كان

---

(١) ارعوت . امتنعت .

(٢) رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٦) ، وقال : حسن غريب ، والدارمى فى فضائل القرآن (٣٣٥٦) ، وأبو نعيم فى الحلية (٧/٣١٣) ، ومسند الشهاب للقضاعى (١/ ٣٤٠ ، ٣٤١) . قلت : فيه عطية العوفى ضعيف

بِشْر الحافى يبسط يديه للسُّؤال ثم يسلبهما ، ويقول : مثلى لا يسأل ، وما أبقت الذنوب لى وجهًا ، وهذا يختَصُّ بـ « بشر » ؛ لقوة معرفته ، كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحًا ، فاستحى للزَّلل ، فأما أهل الغفلة فسؤالهم على بُعْد ، فافهم ما ذكَرْتُه ، وتشاغل بالتَّوبة من الزَّلل ، ثم العَجَب من سؤالاتك ، فإنك لا تكاد تسأل مهمّا من الدنيا ، بل فُضُول العيش ، ولا تَسْأل صلاح القلب والدِّين مثل ما تسأل صلاح الدنيا .

فاعْقل أمرك ؛ فإنك من الانبساط والغفلة على شفًا جُرُف ، وليكن حزنك على زَلاتك شاغلا لك عن مرادَاتك ، فقد كان الحسن البصرى شديد الخوف ، فلما قيل له فى ذلك ، قال : وما يؤْمِنُنى أن يكون اطَّلع علىَّ فى بعض ذنوبى ، فقال : اذهب لا غَفَرْت لك .

٨٦ – فصل : الغرور فى العبادة

أعجب العَجَب دعوى المعرفة مع البُعْد عن العرفان بالله ، ما عَرَفه إلا من خاف منه ، فأما المطمَئنّ فليس من أهل المَعْرفة ، وفى المتزَهّدين أهلُ تغفيل ، يكاد أحدهمْ يوطِّن نفسه على أنه ولَى محبُوبٌ ومقبول ، وربما تَوالت عليه ألطافٌ ظَنّها كرامات ، ونسى الاسْتدراج الذى لَفَّت مساكنته الألْطَاف ، وربما احتقر غيره وظن أن مَحَلّته [1] محفوظَة به ، تغرُّه ركَيْعات ينتصب فيها ، أو عبادة يَنْصَبُ [2] بها ، وربما ظَنَّ أنه قُطْب الأرض ، وأنه لا ينال مقامَه بعده أحدٌ ، وكأنه ما علم أنه بينَا مُوسَى مكالَم نُبِّئَ يُوشَع ، وبينا زكريا – عليه السلام – مجاب الدعوة نُشِر بالمنشار ، وبينا يحيى – عليه السلام – يوصف بأنه سيِّد سُلِّط عليه كافرٌ احتز رأسه ، وبينا بلْعَام معه الاسم الأعظم ، صار مثلُه كَمَثَل الكَلَب [3] ، وبينا الشَّريعة يعمل بها نسخت وبطل حكمها ، وبينَا البدن مَعمور خَرُبَ وسُلِّط البلاء عليه ، وبينا العالم يدأب حتى ينال مرتبَةً يعتقدها ، نشأ طفل فى زَمَان ترقَّى إلى سَبْر عيوبه وغلطه .

وكَم من متكَلِّم يقول : ما مثلى لو عَاش فسمع ما حَدَث بعْدَه من الفصاحة ، عد نفسه أخرسًا ، هذا وعْظ ابن السَّمَّاك ، وابن عَمَّار ، وابن سَمْعُون لا يصلح لبعض تلامذتنا ولا يرْضاه ، فكيف يعجب من يُنْفق شيئًا وربما أتى بعدنا من لا يعدنا .

فالله الله من مساكنة مسكن ، ومخالفة مَقَام ، وليكن المتَيقِّظ على انْزعاج محتقرا

---

(١) محلته : القرية التى يعيش فيها . (٢) ينصب : يتعب .

(٣) انظر قصته فى القرآن الكريم فى سورة الأعراف ، آية : ١٧٥ ، ١٧٦ .

للكثير من طاعَاته ، خائفًا على نفسه من تقلُّباته ، ونفوذ الأقدار فيه ، واعلم أن تلمح هذه الأشياء التي أشرت إليها يضرب عُنُق العُجْب ، ويذهب بطر الكبر .

٨٧ - فصل : لا بد من البلاء

من عاش مع الله - عَزَّ وجَلَّ - طيِّب العيش في زمن السَّلامة ، خُفت عليه في زمن البَلاء ، فهناك المحَكُّ ، إن الملك - عَزَّ وجَلَّ - بينَا يَبْني ، نَقَضَ ، وبينا يُعْطي ، سلَب ، فطيب العيش والرضا هناك يَبِينُ ، فأما من تواصلت لديه النِّعم ، فإنه يكون طيِّب القلبَ لتواصلها ، فإذا مسته نفْحَة من البلاء ، فبعيد ثَبَاتَه ، قال الحسن البصري : كانوا يتسَاوُون في وقت النِّعم فإذا نزل البلاء تبايَنُوا ، فالعاقل من أعد ذُخْرًا ، وحصّل زادًا ، وازداد من العدد للقاء حرب البَلاء ، ولا بد من لقَاء البلاء ، ولو لم يكن إلا عند صَرْعة الموت ، فإنها إن نزلت - والعياذ بالله - فلم تجد مَعْرفة توجب الرضا أو الصبر، أخرجت إلى الكفر .

ولقد سمعْت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخَيْر ، وهو يقول في ليالي موته : ربِّي هو ذا يَظْلمني ، فلم أزل منزعجًا مهتمًّا بتحصيل عُدَّة ألقى بها ذلك اليوم . كيف وقد رُوِي أن الشيطان يقول لأعوانه في تلك السَّاعة : عليكم بهذا، فإن فاتكم لم تقْدروا عليه، وأي قلب يثْبُت عند إمساك النفس ، والأخذ بالكَظَم، ونزع النفس ، والعِلْم بمفارقة المحبوبات إلى ما لا يُدْرَى ما هو ، وليس في ظاهره إلا القبر والبَلاء .

فنسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - يقينًا يَقِينَا شرَّ ذلك اليوم ، لعلَّنا نصبر للقضَاء، أو نرضى به ونرغب إلى مالك الأمور في أن يهب لنا من فَوَاضِل نعمه على أحبابه ، حتى يكون لقاؤُه أحب إلينا من بقائنا ، وتفويضنا إلى تقديره أشهى لنا من اخْتيارنا ، ونعوذ بالله من اعتقَاد الكمال لتدبيرنا ، حتى إذا انعكس علينا أمر ، عدنا إلى القدر بالتَّسَخُّط ، وهذا هو الجهل المحْض ، والخُذْلان الصريح أعاذنا الله منه .

٨٨ - فصل : سعادة العارفين

ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطْيَب عيشًا من العَارفين بالله - عَزَّ وجَلَّ - ؛ فإن العارف به مستأنس به في خلْوَته ، فإن عمت نعَمُه ، علم من أهْدَاهَا ، وإن مَر مُرٌّ ، حلا مذاقه في فيه ؛ لمعرفته بالمبتلي ، وإن سأل فتعوَّق مقصوده ، صار مرادُه ما جرى به القَدَر ، علْمًا منه بالمصلحة بعد يَقِينه بالحِكْمة ، وثقته بحُسْن التدبير ، وصفة العارف أن قلبه مراقب لمعروفه ، قائم بين يديه ، ناظِرٌ بعين اليقين إليه ، فقد سرى من بَرَكَة معرفته إلى الجوارح ما هذَّبَها .

فَإنْ نَطَقْتُ فَلَمْ أَنطِقْ بِغَيْرِكُمُ وَإنْ سَكَتُّ فَأَنْتُمْ عَقْدُ إضْمَارِى

إذا تسلط على العارف أذى ، أعرض نظره عن السَّبب ، ولم ير سوى المسبِّب ، فهو فى أطيب عيشٍ معه ، إن سكت تفكَّر فى إقامة حقه ، وإن نطق تكلم بما يُرْضيه ، لا يَسْكن قلبه إلى زوجة ولا إلى ولد ، ولا يتشبَّث بذيل محبة أحد ، وإنما يعاشر الخلق ببدنه ، ورُوحُه عند مالك روحه ، فهذا الذى لا همَّ عليه فى الدنيا ، ولا غَمَّ عنده وقت الرحيل عنها ، ولا وَحْشَةَ له فى القبر ، ولا خَوْفَ عليه يوم المحْشَر .

فأما من عَدِم المعرفة ، فإنه معثر لا يزال يَضجُّ من البلاء ؛ لأنه لا يعرف المبتلى ، ويستَوْحِش لفقد غرضه ؛ لأنه لا يعرف المصلحة ، ويستأنس بجنْسه ؛ لأنه لا معرفة بينه وبين ربه ، ويَخَاف من الرَّحيل ؛ لأنه لا زادَ له ولا معرفةَ بالطَّريق .

وكم من عالم وزاهد لم يُرْزَقَا من المعرفة إلا ما رُزقه العَامىّ البَطَّال ، وربما زَاد عليهما ، وكم من عامّى رزق منها ما لم يرزَقَاه مع اجتهادهما ، وإنما هى مواهب وأقْسَام: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) .

٨٩ - فصل : حلاوة الكفاح فى سبيل الحق وحلاوة الصبر

بالله عليك يا مرْفُوع القدر بالتَّقْوَى لا تَبعْ عزَّهَا بذُلِّ المعاصى ، وصابر عطش الهوى فى هَجير المشتهى وإن أمْضَ وأرْمَضَ (٢) ، فإذا بلغت النهاية من الصبر ، فاحتكم وقل، فهو مقام من لَوْ أقسم على الله لأبَرَّه ، تالله لولا صَبْر عمر ، ما انْبَسَطَت يده بضَرْب الأرض بالدِّرَّة ، ولولا جَدُّ أنس بن النضر فى تَرْك هواه - وقد سمعت من آثَار عَزْمَته: «لئن أشهدنى الله مَشْهدًا ، ليرَيَنَّ الله ما أصنع » فأقبل يوم أُحد يقاتل حتى قتل ، فلم يعرف إلا ببنانه (٣) - فلولا هذا العَزْم ، ما كان انبساطُ وجهه يوم حلف والله لا تُكْسر سن الرُّبيع .

بالله عليك ، تذوَّق حلاوة الكَفِّ عن المنهى ؛ فإنها شجرة تثمر عزَّ الدنيا وشرف الآخرة ، ومتى اشْتَدَّ عطشك إلى ما تهوى فابسُط أنامل الرجاء إلى من عنْدَه الرى الكَامل ، وقل : قدْ عِيل (٤) صبر الطَّبْع فى سنينه العِجَاف ، فعجل لى العامَ الذى فيه أُغَاثَ وأعْصر .

---

(١) المائدة ، آية : ٥٤ .

(٢) أمض : أوجع وأتعب ، أرمض : أحرق من شدة الحر وهى من الرمضاء .

(٣) رواه البخارى فى التفسير (٤٦١١) ، والترمذى فى التفسير (٣٢٠٠) .

(٤) عيل الصبر : أى غُلب .

بالله عليك تفكّر فيمن قطع أكثر العمْر فى التقوى والطاعة ، ثم عرضت له فتْنَة فى الوقت الأخير ، كيف نَطَح مركبه الجَرف [1] ، فغرق وقت الصُّعود ، أف والله للدنيا ، لا بل للجنَّة إن أوْجب نيْلُها إعراض الحبيب . إنما نَسَبُ العامى باسمه واسم أبيه ، فأما ذوو الأقدار ، فالألقاب قبل الأنساب ، قل لى : مَنْ أنت ؟ وما عملك ؟ وإلى أىِّ مقام ارتفع قَدْرُك ، يا من لا يَصْبر لحظةً عما يَشْتَهى .

بالله عليك أتدرى من الرَّجل ؟ الرجل والله من إذا خَلا بما يُحبُّ من المحرَّم ، وقدر عليه ، وتقلل عطَشًا إليه ، نظَر إلى نَظَر الحق إليه فاستَحَى من إجالة همِّه فيما يكْرَهُه ، فذهب العَطَشَ كأنَّك لا تترك لنا إلا ما لا تشتهى ، أو ما لا تصْدُق الشهوة فيه ، أو ما لا تقْدر عليه ، كذا والله عادتك، إذا تصدَّقت ، أعطيت كسْرَة لا تصلح لك ، أو فى جَمَاعة يمدحُونَك .

هيهات والله لا نلْت ولايَتَنا حتى تكُون معامَلَتُك لنا خالصة ، تبذل أطَايبك ، وتترك مشْتَهَياتك، وتصبر على مكْرُوهاتك ؛ علمًا منك تدخر ثوابك لدينا إن كنت معاملاً - بانك أجير وما غَرُبَت الشمس ، فإن كنت محبا ، رأيت ذلك قليلاً فى جنب رضا حبيبك عنك ، وما كَلامُنا مع الثَّالث [2] .

٩٠ - فصل : أسرار الحكمة ، وعدم الوقوف على ما ليس لك به علم

رأيت فى العَقْل نوع منازَعة للتطلُّع إلى جميع حكم الحَقّ - عزَّ وجَلَّ - فى حكْمه ، وربَّما لم يبين له شىء منها مثل النَّقْض بعد البنَاء ، فيقف متحيرًا وربما انتهز الشَّيطان تلك الفرصة ، فوسْوَسَ إليه أين الحكمة من هَذَا ؟ فقلت له : احذر أن تُخْدَع يا مسكين، فإنه قد ثبت بالدَّليل القاطع لما رأيت من إتقان الصنائع عندك مبلغ حكمَة الصانع ، فإن خفى عليك بعض الحِكَم ؛ فلضَعْف إدراكك ثم ما زالت للمُلُوك أسرار ، فمن أنت حتى تطلَّع بضعفك على جميع حكَمه، يكفيك الجُمَل، وإياك إياك أن تتعرض لما يخْفَى عليك، فإنك بعضٌ موضوعاته ، وذرةٌ من مصنُوعاته ، فكيف تتحكَّم على من صدَرْت عنه ؟

ثم قد ثبتت عندك حكْمَتُه وحكمه وملكه ، فاعلم آلتك على قَدْر قوَّتك فى مطالعة ما يُمْكن من الحكم ، فإنه سيورثُك الدَّهْش [3] ، وغمِّض عما يَخْفَى عليك فحقيقٌ بذى البَصَر الضعيف ألا يقاوى [4] نُور الشمس .

---

(١) الجرف : ما تجرفه السيول وتأكله من الأرض .

(٢) لعل المصنف يقصد من يفكر فى شهواته ويطلبها .

(٣) الدهش : الحيرة . (٤) أى : يسابقها بقوته

٩١ – فصل : سياسة النفس ومحاسبتها

أعْجب الأشياء مجاهدةُ النَّفس ؛ لأنها تحتاج إلى صناعة عجيبة ، فإن أقوامًا أطلقوها فيما تحبُّ ، فأوقعتهم فيما كرهوا ، وإن أقوامًا بالغوا في خلافها حتى منعُوها حقها ، وظلموها وأثر ظلمهم لها في تعبُّداتهم ، فمنهم من أساء غذاءَهَا فأثر ذلك ضَعْف بدنها عن إقامة واجبها ، ومنهم من أفردها في خلْوة أثمرت الوَحْشَةَ من النَّاس ، وآلت إلى ترك فرض ، أو فضْل من عيادة مريض ، أو برٍّ والدة .

وإنما الحازم من تعلَّم منه نفسه الجدّ وحفظ الأصول . فإذا فسح لها في مُبَاحٍ ، لم تتجاسر أن تتعدَّاه ، فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جُنْده ؛ فإنه لا ينبسط إليه الغلام فإن انْبَسط ، ذكر هيبة المملكة ، فكذلك المحقِّق يعطيها حظَّها ، ويستوْفي منها ما عليها .

٩٢ – فصل : أهميه الوقت

رأيت عُمُوم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا : إن طال اللَّيل فبحديث لا ينْفَع ، أو بقراءة كتاب فيه غَزَاة وسمر . وإن طال النَّهار فبالنوم ، وهم في أطراف النهار على دجْلة أو في الأسواق ، فشبَّهتُهم بالمتحدثين في سَفِينَة وهي تجري بهم ، وما عندَهم خبر .

ورأيت النَّادرين قد فهمُوا معنى الوجُود ، فهم في تعبئة الزَّاد والتأهب للرَّحيل ، إلا أنهم يتفاوتون ؛ وسبب تفاوتهم قلَّة العلم وكثرته بما يُنْفق في بلد الإقامة ، فالمتيقظون منهم يتطلَّعون إلى الأخبار بالنَّافق [١] هناك ، فيستكْثرُون منه فيزيد ربْحهم ، والغافلون منهم يحْملون ما اتَّفق ، وربما خرَجُوا لا مع خَفِير ، فكم ممَّن قد قطعت عليه الطَّريق فبقى مُفْلسًا ، فاللهَ اللهَ في مواسم العمل ، والبدَارَ البدَارَ قبل الفوات ، واستشْهدوا العلم ، واستدلُّوا الحكمة ، ونافسوا الزمان ، وناقشُوا النُّفوس ، واستظْهرُوا بالزاد ، فكأنْ قد حَدَا الحادي [٢] فلم يفهم صوته من وقع دَمْع النَدم .

٩٣ – فصل : تخليط أرباب الآخرة

أضرُّ ما على المريض التَّخْليط ، وما مِنْ أحد إلا وهو مريضٌ بالهَوَى ، والحميَّة هي رأس الدَّوَاء [٣] ، والتخليط يُديم المرض ، وتخْليط أرْباب الآخرَة على ضربَين :

أحدهما : تخليط العلماء ؛ وهو إمَّا لخالطة الأضداد كالسَّلاطين ، فإنهم يضعفون

---

(١) النافق : الرابح . (٢) أي جاء منادي البعث

(٣) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢٣٢٠) قال في المقاصد الحسنة : لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب

قوى يَقينهم كُلّما زادت المخالطة ، ويقدّمون دليلهم عند المريدين ، فإنى إذا رأيت طبيبًا يخلط ويحمينى ، شككْت أو وَقَفْت .

والثانى : تخليط الزُّهَّاد ، وقد يكون بمخَالَطة أرْباب الدنيا ، وقد يكون بحفْظ النَّاموس فى إظهار التخشع ؛ لاجتلاب محبة العوام ، فاللهَ اللهَ فإن ناقد الجَزاء بَصير ، والإخلاص فى الباطن ، والصِّدق فى القلب ، ونعْم طريق السلامة سَتْر الحال .

٩٤ - فصل : الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول

لقيت مَشَايخ أحوالهم مختلفة ، يتفاوتون فى مَقَاديرهم فى العلم ، وكان أنفَعُهُم لى فى صُحْبَته العاملُ منهم بعِلْمه ، وإن كان غيره أعلم منه - ولَقيت جماعةً من علماء الحَديث يحفَظُون ويعْرِفُون ، ولكنَّهم كانوا يتسامَحُون بغيبة يخْرِجُونها مخرج جَرْح وتعْديل[1] ، ويأخذون على قراءة الحَديث أُجْرَة ؛ ويسرعون الجَوَابَ لئلا ينكَسر الجاه وإن وقع خطأٌ ، ولقيت عبد الوهاب الأنماطى [2] ، فكان على قانون السلف لم يُسْمَع فى مجلسه غَيْبَة ، ولا كان يطلب أجرًا على سماع الحديث ، وكنت إذا قرأت عليه أحَاديث الرقائق ، بكى واتَّصل بكَاؤُه ، فكان وأنا صغير السِّنِّ حينئذ يعمل بكاؤه فى قَلْبى ، ويبنى قواعد ، وكان على سَمْت المشايخ الَّذين سمعنا أوصافهم فى النَّقْل .

ولقيتُ الشيخ أبا منصور الجَوَاليقى [3] ، فكان كَثير الصمت ، شديد التحرِّى فيما يقول ، متْقنًا محققًا، وربما سُئل المسألة الظاهرة التى يُبَادر بجوابها بعض غلْمَانه ، فيتوقَّف فيها حتى يتيقن ، وكان كثير الصَّوم والصَّمْت ، فانتَفَعْت برؤيَة هذين الرَّجلين أكْثر من انْتفَاعى بغَيْرهما ، ففَهِمْت من هذه الحالة أنَّ الدليل بالفعْل أرشد من الدَّليل بالقَوْل .

ورأيت مشايخَ كانت لهم خلواتٌ فى انبساط ومزَاح ، فراحُوا عن القُلُوب وبدد تفريطهم ما جمعوا من العلم ، فقل الانتفاع لهم فى حياتهم ، ونسُوا بعد مماتهم ، فلا يكاد أحد أن يلتَفتَ إلى مصنَّفاتهم .

فاللهَ اللهَ فى العلم بالعمَلَ ، فإنه الأصلِ الأكبر ، والمسْكين كل المسْكين من ضَاع عمره فى علم لم يعْمَل به ، ففاته لذَّات الدنيا وخيرات الآخرَة ، فقدم مُفْلسًا مع قوة الحُجَّة عليه .

---

(١) أى : يتكلمون على هذا وذاك ويدخلونها تحت الجرح والتعديل .

(٢) هو أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك البغدادى الأنماطى ولد سنة (٤٦٢ هـ) ، وكان حافظاً ثقة توفى سنة (٥٣٨ هـ)

(٣) هو أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد الجواليقى إمام اللغة توفى سنة (٥٤ هـ)

٩٥ – فصل : يمهل ولا يهمل

سبحان الملك العظيم الّذى من عرفه خافه ، ومن أمن مكره قَط ما عرفه ، لقد تأمّلت أمرًا عظيمًا ؛ أنه – عَزَّ وجَلَّ – يمهِلُ حتى كأنه يهمل ، فترى أيدى العصاة مطلقَةً كأنه لا مَانع ، فإذا زاد الانْبِسَاط ولم ترعَوى (١) العقول ، أخذ أخْذ جبار ، وإنما كان ذلك الإمهال ليبْلُو صبر الصَّابر ، وليُمْلى (٢) فى الإمهال للظَّالم ، فيُثْبِتُ هذا عَلى صَبْره ، ويَجْزِى هذا بقبيح فعله ، مع أنَّ هنالك من الحِلْم فى طىٍّ ذلك ما لا نعْلَمُه ، فإذا أخذ أخْذَ عقوبة ، رأيت على كل غلطة تبعة . وربما جمعت فَضَرَب العاصى بالحَجر الدَّامغ ، وربما خفى على الناس سبب عقُوبته ، فقيل : فلانٌ من أهل الخير فما وجه ما جَرى له ؟ فيقول القَدَر : حدودٌ لذنوب خَفِيَّة صار استيفَاؤُها ظاهرًا ، فسُبْحان من ظَهَر حتى لا خَفَاء به ، واستَتَر حتى كأنه لا يُعْرَف ، وأمهل حتى طُمِع فى مسامحته ، وناقش حتى تحيَّرت العقول من مؤَاخَذَته ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

٩٦ – فصل : العلم يبصر القلب

تأملت العلم والميل إليه والتَّشَاغل به ، فإذا هو يقوى القَلْب قوة تميل به إلى نوع قساوة، ولولا قوة القَلْب وطول الأمل ، لم يقع التَّشَاغُل به ، فإنى أكْتُب الحديث أرجو أن أرويَه ، وأبْتَدئ بالتصنيف أرجو أن أُتمَّه ، فإذا تأملت إلى باب المعاملات ، قلَّ الأمل ، ورق القلب ، وجاءت الدُّمُوع ، وطابت المُنَاجَاة ، وغَشِيت السَّكينة ، وصِرْت كأنى فى مقام المراقبة .

إلا أن العلم أفضل وأقوى حُجّة ، وأعلى رتبة – وإن حدث منه ما شكَوْت منه – والمعاملة وإن كثرت الفَوَائد التى أشرْت إليها منها ، فإنها قريبة إلى أحوال الجبان الكَسْلان ، الذى قد اقتَنَع بصلاح نفسه عن هِدَاية غيره ، وانْفَرَد بعزْلته عن اجتذَاب الخلق إلى ربهم .

فالصواب العكُوفُ على العلم ، مع تلذيع النَّفْس بأسباب المرققات تلذيعًا لا يقدح فى كمال التَّشَاغل بالعلم ، فإنى لأكره لنفسى – من جهة ضَعْف قلبى ورقته – أن أُكْثِر زيارة القبور ، وأن أحْضُر المحتَضرين ؛ لأن ذلك يؤثِّر فى فكرى، ويخرِجُنى من حَيِّز المتشاغلين بالعلم إلى مقام الفِكْر فى الموت ، ولا أَنْتَفع بنفسى مدة .

وفصل الخطاب فى هذا : أنه ينبغى أن يقاوم المرَضُ بضدِّه ، فمن كان قلبه قاسيًا

---

(١) ترعوى : تمتنع . (٢) يملى : يطيل المدة .

شديد القسوة ، وليس عنده من المراقبة ما يَكُفُّه عن الخطأ ، قاوم ذلك بذكر الموت ومحاضرة المحتضرين ، فأما مَن قلبه شديد الرِّقة ، فيكفيه ما به ، بل ينبغى له أن يَتَشَاغل بما يُنْسيه ذلك ، ليتمتع بعيشه ، وليفهم ما يُفتى به .

وقد كان الرَّسُول ﷺ يمزح ويُسابق عائشة [1] - رضى الله عنها - ويتلطَّف بنفسه ، فمن سار سيرته - عليه الصلاة والسلام فَهم من مضمونها ما قُلتهُ من التلطُّف بالنفس .

٩٧ - فصل : ساعة الاحتضار

أظرَف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته ، فإنه ينتبه انتباهًا لا يوصَف ، ويقْلَق قلقًا لا يُحَدُّ ، ويتلهَّف على زمانه الماضى ، ويودُّ لو ترك كى يتدارك ما فاته ، ويصدق توبته على مقْدار يقينه بالمَوْت ، ويكاد يقتل نفسه قَبْلَ موتها بالأسَف ، ولو وُجدت ذَرَّة من تلك الأحوال فى أوَان العافية ، حصل كل مَقْصُود من العمل بالتقوى ، فالعَاقِل من مثَّل تلك الساعة وعمل بمقْتَضَى ذلك ، فإن لم يتهيأ تَصْوير ذلك على حقيقته ، تخايله على قدْر يقَظَته ؛ فإنه يكُفُّ كفَّ الهوى ويبعث على الجَدِّ ، فأما من كانت تلك الساعة نصْب عينيه ، كان كالأسير لها ، كما رُوى عن حبيب العَجَمى ؛ أنه كان إذا أصبح يقول لامرأته : إذا متُّ اليوم ففلانٌ يغَسِّلنى ، وفلان يحملنى ، وقال معروف لرجل : صلِّ بنا الظهر ، فقال : إن صلَّيت بكم الظهر ، لَمْ أُصَلِّ بكم العصر ، فقال : وكأنك تُؤَمِّل أن تعيش إلى العصر ، نعوذ بالله من طُول الأمل ، وذكر رَجُلٌ رجلاً بين يديه بغيبة ، فجعل مَعْرُوف يقول له . اذكر القُطْن إذا وَضَعُوه على عَيْنَيْك .

٩٨ - فصل : أهل الإشارة

ربما أخَذَ المتيقِّظ بيت شعر ، فأخذ منه إشارة فانتفع بها ، قال الجُنَيْد [2] : ناولنى سَرى [3] رقعة مكتوب فيها . سَمعْت حاديًا فى طريق مكة شرفها الله - تعالى - يقول :

أبْكِى وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُبْكِينِى   أبْكِى حِـــذارًا أنْ تُفَارِقِينِى
وَتَقْطَعِىَ حَـــبْلِى وتهجرينى

---

(١) رواه أبو داود فى الجهاد (٢٥٧٨) ، وابن ماجه فى النكاح (١٩٧٩) ، وأحمد فى المسند (٦/ ٣٩، ١٨٢) عن عائشة وإسناده صحيح .

(٢) هو شيخ الصوفية الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندى وكان خرازاً توفى سنة (٢٩٨ هـ)

(٣) هو سرى السقطى توفى سنة (٢٥١ هـ) .

فانظر - رحمك الله ووفقك - إلى تأثير هذه الأبيَات عند سَرِىّ ، حتى أحب أن يطلع منها الجنيد على ما اطّلع عليه ، ولم يَصْلُح للاطلاع على مثلها إلا الجُنَيْد ، فإن أقوامًا فيهم كثافة طبع وخشونة فهم ، قال بعضهم لما سمع مثل هذه : إلام يشار بهذه؟ إن كان إلى الحقّ فالحق - عَزَّ وجَلَّ - لا يُشَار إليه بلفظ تأنيث ، وإن كان إلى امرأة فأين الزهد .

ولعَمْرى إن هذا حداء [1] أهل الغفلة إذا سمعوا مثْل هذا ، ولذَلك ينهى عن سَمَاع القَصَائد وأقوال أهل الغنَاء ؛ لأن الغالب حَمْل تلك الأبيات على مقاصد النَّفس وغَلَبات الهوى ، ومن أين لنا مثْل الجُنَيْد وسَرِىّ ، وإذا وجدنا مثلهما فهما خبيرَان بما يسمعان .

وأما اعتراض هذا الكثيف الطبع ، فالجواب : أنّ سَرِيا لم يأخذ الإشارة من اللَّفظ ، ولم يقسْ ذلك على مطْلُوبه فيصيره تأنيثًا أو تذكيرًا ، وإنما أخذ الإشارة من المعنى ؛ فكأنه يخاطب حَبِيبَهُ بمعنى الأبيات ، فيقول : أبكى حذارًا من إعراضك وإبعادك ؛ فهذا الحَاصل له وما التفَت قط إلى تذكير ولا إلى لفظ تأنيث فافهم هذا .

وما زال المتيَقِّظُون يأخذون الإشارة من مثل هذا ، حتى كَانُوا يأخذونها من هذا الَّذى تقوله العامَّة ، ويلقبونه بـ « كان وكان » فرأيت بخط ابن عقيل عَن بعض مشايخه الكبار؛ أنه سمع امرأة تُنْشد :

غسلت له طول الليل فركت له طول النهار
خـــرج يعاين غيرى زلق وقع فى الطّــين

فأخذ من ذلك إشارة معناها : يا عَبْدى ، إنى حسَّنْت خلقك ، وأصلحت شانك ، وقوَّمت بنْيَتَك ، فأَقبَلت على غيرى ، فانْظُر عواقب خلافَك لى ، وقال ابن عقيل : وسمعت امرأة تَقُول من هذا المكان ، وكان كلمة بَقيت فى قلقها مدة :

كم كنت بالله أقول لك لذا التوانـــــى غائـــله
وللقبيـــــح خـــــميره تـــــبين بعد قـــــليل

قال ابن عقيل : فما أوقعه من تخْجِيل على إهمالنا لأمور غدًا تَبين خمايرها بين يَدَى الله - تعالى - .

٩٩ - فصل : حساب الورعين

أمكننى تحصيل شىء من الدنيا بنوع من أنواع الرُّخَص ، فكنت كلَّما حصل شىء

(١) الحداء : بضم الحاء وهو الغناء للركب تسلية لهم .

منْه، فاتنى من قلبى شىء ، فكلَّما استنارت لى طريق التَّحْصِيل تجدد فى قلبى ظُلْمَة ، فقلت : يا نفس السوء ، الإثم حواز القُلُوب [1] ، وقد قال : « اسْتَفْت قلبك » [2] ، فلا خير فى الدنيا كلها إذا كان فى القلب من تَحْصِيلها شىءٌ أوجب نوع كَدَر ، وأن الجَنَّة لو حُصلت بسبب يَقْدَح فى الدين أو فى المعاملة ما لَذَّت ، والنوم على المزَابل مع سلامة القَلْب من الكَدَر أَلَذُّ من تُكَآت الملوك .

وما زلت أغلب نفسى تارة وتغلبنى أخرى ، ثم تدَّعى الحاجة إلى تحصيل ما لا بُدَّ لها منه ، وتقول : فما أتعدى فى الكَسْب المباح فى الظَّاهر، فقلت لها : أو ليس الوَرَع يمنع من هَذَا ، قالت : بَلَى ، قُلْت : أليس القَسْوة فى القلب تحْصُل به ، قالت : بلى ، قلت : فلا خَيْر لك فى شىء هذا ثَمَرتُه ، فخلوت يومًا بنفسى فقلت لها : ويْحَك ، اسمعى أُحدثك إن جَمَعْت شيئًا من الدُّنيا من وجه فيه شُبْهَة أفأنْت على يقين من إنْفَاقه، قالت : لا ، قلت : فالمحنة أنْ يحظى به الغير ولا تنالين إلا الكَدَر العَاجل ، والوِزْرَ الذى لا يؤْمَن .

ويحك اتركى هذا الذى يَمْنَع معه الورع لأجل الله فعامليه بتركه ؛ وكأنك لا تريدين ألا تتركى إلا ما هو محرَّم فقط ، أو ما لا يصحُّ وجهه ، أو ما سمعْت أنَّ من ترك شيئًا لله ، عَوَّضه الله خيرًا منه ، أما لك عبْرَة فى أقوام جَمَعُوا فحازه سوَاهُم ، وأمَّلوا فما بلغوا مُنَاهم ، كم من عالم جمع كتبًا كثيرةً ما انْتَفَع بها ! وكم من منتَفع ما عنده عَشْرة أجزاء وكم من طيِّب العيش لا يملك دينَارَيْن ، وكم من ذى قَنَاطيرَ منغَّص [3] ، أما لك فطنَةٌ تتلَمَّح أحوال من يترخَّص من وجه ، فيُسْلَب منه من أوجه ، ربَّما نزل المرض بصاحب الدَّار أو ببعض من فيها ، فأنفق فى سنَته أضعاف ما ترخَّص فى كَسْبه ، والمتَّقىّ مُعَافى .

فضجَّت النفس من لَوْمى، وقالت : إذا لم أتعَدَّ واجب الشرع ، فما الذى تريدُ منى فقلت لها : أضنُّ بك عن الغَبْن [4] ، وأنت أعرف بباطن أمْرك ، قالت : فقل لى ما أصنَع ، قلت : عليك بالمرَاقَبة لمن يَرَاك ، ومثِّلى نفسك بحضرة معظَّم من الخلق ، فإنَّك بين يدى الملك الأعظم، يرى من بَاطنك ما لا يراه المعظَّمون من ظاهرك ، فخُذِى بالأحوط ، واحْذرى من الترخص فى بيع اليقين والتقوى بعاجل الهوى ؛ فإن ضاق

---

(١) أخرجه العراقى فى تخريج الإحياء (١/٣٣)، وعزاه للبيهقى فى الشعب موقوفاً على ابن مسعود.
(٢) أحمد (٤/٢٢٨) ، والدارمى فى البيوع (٢٥٣٣) وفيه أيوب بن عبا الله بن مكرر مجهول .
(٣) منغص : مكدر .
(٤) الغبن : الانخداع

الطبع مما تَلْقين فقولي له: مهلاً ، فما انْقَضَت مدة الإشارة ، والله مُرْشِدك إلى التحقيق، ومعينُك بالتوفيق .

١٠٠ - فصل : جزاء الفسق والظلم

ما زلْت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب ، أنهم يشربون الخمور ويَفْسُقُون ويظلمون ، ويفعلون أشياء توجبُ الحدود ، فبَقِيتُ أتفكر أقول : متى يَثْبُت على مثل هؤلاء ما يوجب حدا ؟ فلو ثَبَت فمن يقيمه ، وأستبعد هذا فى العادة ؛ لأنهم فى مقام احترام لأجل مناصبهم ، فبَقِيتُ أتفكّر فى تعْطيل الحدّ الواجب عليهم ، حتى رَأَيْنَاهم قد نَكبُوا وَأخذُوا مرات ، ومرت عليهم العَجَائب ، فقُوبل ظلمهم بأخذ أمْوَالهم، وأُخذَت منهم الحُدُود مضاعَفَةً بعد الحبْس الطويل ، والقيد الثَّقِيل ، والذُّلّ العظيم .

وفيهم من قُتِل بعد مُلاقَاة كل شدَّة ، فعلمت أنه ما يُهْمَلُ شىء ، فالحذَرَ الحذَرَ ، فإن العقوبة بالمِرْصَاد .

١٠١ - فصل : الأخذ بالأسباب والتوكل على الله

اجتهاد العاقل فيما يصلحُه لازم له بمقْتَضَى العقل والشرع ، فمن ذلك حفْظ ماله ؛ وطلب تنْميته ، والرَّغبة فى زيادته ؛ لأنه سبب بَقَاء الإنسان ماله فقد نَهَى عن التَّبْذير فيه، فقيل له : ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ ﴾[1] ، فاعلم أنه سبب لبقائه ﴿الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيامًا ﴾ [2] ، أى : قوَامًا لمعاشكم ، وقالَ - عزَّ وجَلَّ - : ﴿ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْط ﴾ [3] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [4] ، وقال - تعالى: ﴿ لَمْ يسرفوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلكَ قَوامًا ﴾ [5] .

ومن فضيلة المال أن الله - تعالى - قال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[6]، وقال - تعالى - : ﴿ وَأَنْفِقُوا فى سَبِيلِ الله ﴾ [7] ، وقال - تعالى - : ﴿ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ [8] ، وقال - تعالى - : ﴿ لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قبل الفتح ﴾ [9] ، وجعل المال نعمة وزكاته تطهيراً فقال تعالى : ﴿ خذ من أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وتُزَكِّيهم

(١ ، ٢) سورة النساء ، آية: ٥ .
(٣) سورة الإسراء، آية: ٢٩
(٤) سورة الإسراء، آية : ٢٦.
(٥) سورة الفرقان ، آية : ٦٧ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١٩٥ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٢٦١ ، ٢٦٢ .
(٩) سورة الحديد ، آية : ١٠

بهَا ﴾ (١) ، وقال ﷺ : « نعْمَ المَالُ الصَّالحُ للرَّجُل الصالح » (٢) ، وقال : « مَا نَفَعَنى مَالٌ كَمَال أبى بَكْر » (٣) .

وكان أبُو بكر - رضى الله عنه - يخرج إلى التجارة ويترك رسول الله - ﷺ - فلا ينهاه عن ذَلك ، وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : « لأن أموت بين شُعْبَتَى جبل أطْلُب كَفَاف وجهى ، أحبُّ إلى من أن أموت غازيًا فى سبيل الله » .

وكان جماعة من الصَّحَابة - رضى الله عنهم - يتَّجرون ، ومن سادات التابعين سَعيد ابن المسيِّب ، مات وخلَّف مالاً ، وكان يحتكر الزَّيْت - أى ينفرد ببيعه .

وما زال السَّلف على هذا ، ثم قد تَعْرِض نوائبٌ كالمرض يحتاج فيها إلى شىء من المال ، فلا يجد الإنسان بُدا من الاغتيال فى طَلَبَه ، فيبذل عرْضه أو دينه ، ثم للنَّفس قوة بدنيَّة عند وجود المال، وهو معدُودٌ عند الأطباء من الأدوية وتلك حكمة وضعها الواضع ، وإنما نَبَغَ أقوام طلبوا طريقَ الرَّاحة فادَّعَوْا أنهم متوكِّلة ، وقالوا : نحن لا نُمسك شيئًا ، ولا نتزوّد لسفَر ، ورزق الأبدان يأتى ، وهذا على مُضَادَّة الشَّرع ؛ فإن رسول الله ﷺ نَهَى عن إضاعة المال(٤) ، ومُوسَى - عليه السلام - لَمَّا سافر فى طلب الخضر تزوّد ، ونبينا ﷺ لما هاجر تزوَّد ، وأبلغ من هذا قوله تعالى : ﴿ وتزودُّوا فإنَّ خَيْرَ الزَّاد التَّقْوَى ﴾ (٥) .

ثم يدَّعى هَؤُلاء المتصوِّفة بُغْض الدنيا ، فلا يفْهَمُون ما الذى ينبغى أن يُبْغَض ، ويرون زيَادة الطلب للمال حرصًا وشرَهًا .

وفى الجملة إنَّما اخترعوا بآرائهم طريقًا فيها شىء من الرَّهْبَانيَّة إذا صدقوا ، وشىء من البَهرَجة إذا نَصَبُوا شباك الصيد بالتزهد ، فَسَمُّوا ما يصل إليهم من الأرزَاق فُتُوحًا ، قال ابن قتيبة فى غريب الحديث فى قوله ﷺ : « وَالْيَدُ العُلْيَا » (٦) وقال : « هى المعْطية » ، قال : فالعجب عندى من قَوْم يقُولون هى الآخذَة .

ولا أرى هؤلاء القوم إلا قوماً استطابوا السؤال فهم يحتجون للدناءة فأما الشرائع فإنها بريئة من حالهم ، وفى الحديث : « ضَاقَ البَلَدُ بمَوَاشى إبْرَاهيمَ ولُوط - عليهما السلام -

(١) سورة التوبة ، آية : ١٠٣ (٢) سبق تخريجه (٣) سبق تخريجه
(٤) رواه البخارى فى الاستقراض (٢٤٠٨) ، ومسلم فى الأقضية (١٧١٥/ ١) (٥٩٣/١٢ - ١٤)
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٩٧ .
(٦) رواه البخارى فى الزكاة (١٤٢٩) ، ومسلم فى الزكاة (١٠٣٣ - ١٠٣٥)

فافْتَرَقا » (١) ، وكان شعيبٌ - عليه السلام - كثير المال . ثم قد ندّ طمَعَه فى زيادة الأجْر من مُوسى - عليه السلام - فقال : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشراً فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ (٢) ، وكان ابن عُقَيل - رحمه الله - يقول : مَنْ قال إنى لا أحب الدنيا فهو كذَّاب ، فإن يعقُوب - عليه السلام - لما طُلب منه ابنه « يَامين » قال : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ (٣) ، فقالوا : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ (٤) فقال : خذوه .

وقال بعض السَّلف : من ادَّعى بغض الدنيا ، فهو عندى كذَّاب إلى أن يُثْبِت صدقه ، فإذا ثَبَت صدْقه فهو مجنون .

وقد نَفَّر جماعة من المتَصَوِّفة خَلْقًا من الخلق عن الكَسْب ، وأوْحَشُوا بينهم وبينه ، وهو دَأْب الأنبياء والصَّالحين ، وإنَّما طلبوا طريق الرَّاحة وجلسوا على الفُتُوح ، فإذا شبَعُوا ، رَقَصُوا فإذا انهضم الطَّعام ، أكَلُوا ، فإذا لاحت لهم حيلة على غَنىٍّ ، أوجبوا عليه دَعْوة ، إما بسبب شُكْر أو بسبب اسْتغْفَار ، وأطم الطَّامات ادعاؤهم أن هذا قُرْبَة .

وقد انعقد إجماع العلماء أن من ادَّعى الرقص قُرْبة إلى الله - تعالى - كفر ، فلو أنهم قالوا : مباحٌ ، كان أقرب حالاً ؛ وهذا لأن القرب لا يعرف إلا بالشرع ، ولَيْسَ فى الشرع أمر بالرَّقص ولا ندب إليه .

ولقد بلغنى عن جَماعة منهم أنهم كانوا يوقدُون الشمع فى وجوه المُرْدَان (٥) وينظرون إليهم ، فإذا سئلوا عن ذلك ، سخروا بالسائل فقالوا : نعتبر بخَلْق الله أفترى أقوى من النبى ﷺ حين أجلس الشاب الذى وفد عليه من وَراء ظهره ، وقال : « **وهل كانت فتنة داود إلا من النظر** » (٦) .

هيهات ! لقد تملَّك الشيطان تلك الأزمَّة فقَادها إلى ما أراد ، والعجب ممن يذم الدنيا وهو يأكل فيَشْبع ، ولا ينظر من أين المطعم ، وما زال صالحو السلف يفتِّشون على المطعم ، حتى كان إبراهيم بن أدهم يسهر هو وأصحابه ، ويقولون: مع من نعمل غدًا؟ وكان سَرِىّ السَّقَطى يعرف بطيب الغذاء ، وله فى الورع مقامات ، فجاء قوم يتَسَمَّون بالصوفية يدّعون اتباع أولئك السادة ، ويأكلون من مال فُلان ، وهم يعرفون أُصُول تلك الأموال ، ويقولون : رزقنا .

---

(١) لم أقف عليه فيما عندى من مصادر .
(٢) سورة القصص ، آية : ٢٧ .
(٣) سورة يوسف ، آية : ٦٤ .
(٤) سورة يوسف ، آية : ٦٥ .
(٥) المردان جمع أمرد وهو الغلام الذى لم ينبت شعر فى وجهه .
(٦) تلخيص الحبير (١٤٨/٢) وفيه قال ابن الصلاح والزركشى : لا أصل له .

فواعجبًا إذا كان الآكل لا يُبالى به من أين ، ولا لديه امتناعَ من شهوة ولا تقلُّل ، ولا يخلو الرِّباط [1] من المطبخ ، ولا ينْقَطع ليلة ، وأصله من مال قد عُرِف من أين هو، والحمام دائر والمغنى يدق بدفٍّ فيه جلاجل ورفيقه بالشَّبابة [2] ، وسُعْدَى ولَيْلَى فى الإنشاد، والمردان فى الشمع ، ثم يذمّ الدنيا بعد هذا ، فقولوا لنا : من يتلهَّى بالناس إلا هؤلاء ولكن من مرَّت عليهم زرجَنَتُهم ، فإنه أخس منهم .

١٠٢ - فصل : حسن التفكير

عرض لى فى طريق الحجِّ خوف من العَرَب ، فسرنا على طريق خَيْبَر ، فرأيت من الجبال الهَائلة والطرق العجيبة ما أذهلنى ، وزادَت عظَمَة الخالق - عزَّ وجَلَّ - فى صدرى، فصَار يعرِض لى عند ذكر تلك الطرق نوْع تعظيم ، لا أجده عند ذكر غيرها ، فصحْت بالنفس : ويحك ، اعبرى إلى البحر ، وانظرى إليه وإلى عجائبه بعين الفكر ، تشاهدى أهْوالاً هى أعظم من هذه ، ثم اخرجى عن الكون والتفتى إليه ، فإنك ترينَه بالإضافة إلى السموات والأفلاك كذرة فى فلاة ، ثم جُولى فى الأفلاك وطوفى حول العرش ، وتلمحى ما فى الجنَان والنِّيران ، ثم اخرجى عن الكُلِّ والتفتى إليه ، فإنك تشاهدين العالم فى قبْضة القادر الَّذى لا تقفُ قدرته عند حَدّ ، ثم التفتِى إليك فتلمَّحى بدايتك ونهايتك ، وتفكَّرى فيما قبل البِدَاية ، وليس إلا العدم ، وفيما بعد البِلَى ، وليس إلا التُّراب ، فكيف يَأْنُس بهذا الوُجود من نظر بعين فكْرِه المبدأ والمُنْتَهى ، وكيف يَغْفَل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العَظِيم ، بالله لو صحَّت النفوس عن سُكْر هواها، لذَابَتْ من خوْفه ، أو لغابت من حبِّه ، غير أن الحس غلب فعظُمت قدرة الخالق عند رؤية جَبَلٍ ، وإن الفطنة لو تلمَّحت المعانى ، لدلَّت القدرة عليه أوْفَى من دليل الجبل، سبْحان من شغلَ أكثر الخلق بما هم فيه ، عمَّا خُلقوا له سبحانه .

١٠٣ فصل : الصبر عند البلاء

للبَلَايا نهايات معلُومة الوقت عند الله - عزَّ وجلَّ - فلابُدَّ للمبتَلَى من الصَّبر إلى أن ينقضى أوان البلاء ، فإن تقلقل قبل الوقت لم ينفع التَّقَلْقُل ، كما أن المادة إذا انحدرت إلى عضو فإنها لن ترجع ، فلا بُدَّ من الصبر إلى حين البَطَالة ، فاستعْجَال زوال البَلاء مع تقْدير مدَّته لا ينفع .

فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعاً ولا ينفع إلا به إلا أنه لا ينبغى للداعى أن

---

(١) مكان تجمع الصوفية (٢) الشبابة : بطن من بنى فهم نزلوا الطائف كما فى القاموس .

يستعجل ، بل يتعبَّد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم ، ويقطع المواد التى كانت سببًا للبلاء ، فإنّ غالب البلاء أن يَكُون عقوبةً

فأما المستعجل فمزاحم للمُدبّر ، وليس هذا مقام العبودية ، وإنَّما المقام الأعلى هو الرضا ، والصبر هو اللازم والتَّلاحى بكثرة الدعاء نعم المعتَمد ، والاعتراض حرامٌ ، والاستعجال مزاحَمَة للتدبير ، فافهم هذه الأشياء فإنها تهوِّن البلاء .

١٠٤ - فصل : الزاد على الصبر

ليس فى الوجود شىءٌ أصعب من الصبر ، إما على المحبُوب ، أو على المكروهات ، وخصوصًا إذا امتد الزمان ، أو وقع اليأس من الفَرَج ، وتلك المدَّة تحتاج إلى زاد يقطع به سفَرَها .

والزاد يتنوع من أجناس : فمنه : تلمُّح مقدار البَلاء وقد يمكن أن يَكُون أكثر ، ومنه: أنه فى حالٍ فوقَها أعظم منها ، مثل أن يبتلى بفَقْد ولَد وعنده أعز منه .

ومن ذلك : رجاء العوض فى الدنيا ، ومنه : تلمح الأجر فى الآخرة ، ومنه : التلذذ بتصوير المدح والثناء من الخلق فيما يمدحون عليه والأجر من الحق - عز وجل .

ومن ذلك بأن الجزع لا يفيد بل يفضح صاحبه ، إلى غير ذلك من الأشياء التى يقدحُها العقل والفكر ، فلَيْس فى طريق الصبر نفقةٌ سواها ، فينبغى للصّابر أن يشغل بها نفسه، ويُقطَع بها ساعات ابتلائه وقد صح المنزل [1] .

١٠٥ - فصل : التسليم لحكمة الله

ينبغى لمن وقع فى شدة ثم دعا ، ألا يختَلِجَ فى قلبه أمرٌ من تأخير الإجَابة أو عدمها ؛ لأنّ الذى إليه أن يدعو ، والمدعُوُّ مالك حكيم ، فإن لم يجب فعل ما يَشَاء فى ملكه ، وإن أخَّر فعل بمقتضى حكمته ، فالمعترض عليه فى سرِّه خارج عن صفة عَبْد مزاحم بمرتَبته مستحق ، ثم ليعلم أن اختيار الله - عَزَّ وجَلَّ - خيرٌ من اختيَاره لنفسه ، فربما سأل سيْلاً سال به ، وفى الحديث : « **أن رجلاً كان يسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - أن يرزقه الجهَاد، فهتف به هاتفٌ : إنك إن غزوت أُسرْت ، وإن أُسرْت تنصّرت** » [2] ، فإذا سلم العبد تحكيمًا لحكمته وحُكْمه ، وأيقن أن الكل ملكه ، طَاب قلبه ؛ قضيت حاجته أو لم تُقْض ، وفى الحديث : « **مَا منْ مُسْلم دَعَا الله - تعالى - إلا وأجابَه ، فإما أنْ يُعَجِّلَهَا، وإمَّا**

---

(١) أى قرب زوال الابتلاء.

(٢) لم أقف عليه

أن يؤخِّرَها ، وإمّا أنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ في الآخِرَةِ » [1] ، فإذا رأى يَوْمَ القِيَامَةِ أنَّ مَا أُجِيبَ فِيهِ قَدْ ذَهَبَ ، وَمَا لَمْ يُجَبْ فِيهِ قَدْ بَقِيَ ثَوَابُهُ ، قال لَيْتَكَ لَمْ تُجِبْ لِي دعْوَةً قَطّ فافهم هذه الأشياء ، وسلم قلبك من أن يختَلِجَ فيه ريْب أو استعجال .

١٠٦ – فصل : فضل العلم

من أراد أن يعرف رتبة العلماء على الزُّهاد ، فلينظر في رتبة جبْريل وميكَائيل ومن خُصَّ من الملائكة بولاية تتعلَّق بالخلق ، وباقي الملائكة قيَام التعبد في مَراتب الرُّهْبَان في الصوَامع ، وقد حَظِي أولئك بالتَّقْريب على مقادير علمهم بالله – تعالى – ، فإذا مَرَّ أحدهم بالوحْي ، انزعج أهل السماء حتى يخبرهم بالخَبَر ﴿ حتى إذا فُزِّعَ عن قُلُوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق ﴾ [2] ، كما إذا انزعج الزَّاهد من حديث يسْمَعه ، سأل العلماء عن صحَّته ومعناه ، فسُبْحَان من خص الخصوص بخصائصَ شُرِّفُوا بها على جنسهم ، ولا خصيصَة أشرف من العلم ، بزيادته صار آدَم مسْجُوداً له ، وبنقصانه صارت الملائكة ساجِدَة .

فأقرب الخلق من الله العلماء ، وليس العلم بمجرَّد صورته هو النافع ، بل معناه وإنما ينَال معناه من تعلَّمه للعمل به ، فكلَّما دلَّه على فضل اجتهد في نيله ، وكلما نهاه عن نقص بالغ في تجنبه ، فحينئذ يكْشف العلم له سرَّه ، ويسهِّل عليه طريقه ، فيصيرَ كمجتَذِب يحث الجاذب ، فإذا حركه عجّل في سيره ، والذي لا يعمل بالعلم ، لا يطلعُه العلم على غوْره ولا يكْشف له عن سره ، فيكُون كمجذُوب لجاذب جاذَبَه ، فافهم هذا المثل وحسِّن قصدك ، وإلا فلا تتْعَب .

١٠٧ – فصل : الاعتدال هو أصلح الأمور

اعلم أن أصلح الأمور الاعتدال في كل شيء ، وإذا رأينا أرباب الدُّنيا قد غلبت آمالهم، وفسَدَت في الخير أعمالهم ، أمرناهم بذكر المَوْت والقبُور والآخرة ، فأمّا إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت ، وأحاديث الآخرة تقرأ عليه وتجرى على لسانه ، فتذَكّاره الموت زيادة على ذلك لا تُفيد إلا انقطاعه بمرة .

بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله – تعالى – ، الكثير الذكر للآخرَة ، أن

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي سعيد (٧٣١) ، وأحمد في المسند (١٨/٣) ، ورواه الحاكم (٤٩٣/١) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في الحلية (٣١١/٦) .

(٢) سورة سبأ ، آية : ٢٣ ، ولفظ حديث رواه البخاري في التفسير (٤٧٠١) .

١٠٩ – فصل : المال للعلماء للاستغناء عن الناس

لَيس فى الدنيا أنْفَع للعلماء من جمع المال ؛ للاستغناء عن الناس ، فإنه إذا ضم إلى العلم حيّز الكمال ، وإن جُمْهور العلماء شغلهم العلْم عن الكَسْب فاحتاجوا إلى ما لا بُدَّ منه ، وقل الصبر فدخلوا مداخل شانَتْهُم [١] وإن تأوّلوا فيها ، إلا أن غيرها كان أحْسن لهم ، فالزُّهَرِى مع عَبْد الملك ، وأبو عبيدة مع طَاهِر بن الحُسَيْن ، وابن أبى الدُّنْيَا مؤدب المعتَضِد ، وابن قتيبة صدَّر كتابه بمدح الوزير ، وما زال خَلَفٌ من العلماء والزهاد يعيشُون فى ظلٍّ جماعة من المعروفين بالظلم ، وهؤُلاء وإن كانوا سَلُكوا طريقًا من التأويل ، فإنهم فقدوا من قلوبهم وكمال دينهم أكثر مما نالوا من الدُّنيا .

وقد رأينا جماعةً من المتصوفة والعلماء يغْشُون [٢] الولاة ؛ لأجل نيْل ما فى أيديهم . فمنهم من يداهن ويرائى ، ومنهم من يَمْدَح بما لا يجُوز ، ومنهم من يسْكت عن منْكَرات، إلى غير ذلك من المُداهَنَات وسببها الفقر ، فعلمنا أن كمال العزّ وبعد الرياء إنَّما يكون فى البعد عن العُمَّال الظلمة .

ولم نر من صح له هذا إلا فى أحد رجلين : إما من كان له مال كسَعيد بن المسيَّب كان يتَّجر فى الزيت وغيره ، وسفيان الثورى كانت له بضائع ، وابن المبارك ، وإما من كان شديد الصَّبر قنوعًا بما زرق وإن لم يكفه ؛ كبِشْر الحَافى ، وأحمد بن حنبل .

ومتى لم يجد الإنسان كصبر هذين ، ولا كمال أولئك ، فالظَّاهر تقلبه فى المحَن والآفات، وربما تَلَف دينه ، فعليك يا طالب العلم بالاجْتهاد فى جَمْع المال للغِنَى عن الناس ، فإنه يجمع لك دينك ، فما رأينا فى الأغلب منافقًا فى التدين والتزهد والتَّخشع، ولا آفة طرأت على عالم إلا بحبٍّ الدنيا ، وغالب ذلك الفقر ، فإن كان له مال يكفيه ثم يطلب بتلك المخالطة الزِّيادة ، فذلك معدودٌ فى أهل الشَّرَه [٣] ، خارج عن حيِّز العلماء ، نعوذ بالله من تلك الأحوال .

١١٠ – فصل : فضل الفقه

أعظم دليل على فضيلة الشىء النظر إلى ثمرته ، ومن تأمل ثمرة الفقْه ، علم أنه أفضل العُلُوم ، فإن أرْباب المذاهب فاقوا بالفقْه على الخلائق أبدًا ، وإن كان فى زمن أحدهم من هو أعلم منه بالقرآن أو بالحديث أو باللُّغة ، واعتبر هذا بأهل زماننا ، فإنك

---

(١) شانه : عابه (٢) يغشون : يدخلون عليهم . (٣) الشره : الطمع والحرص .

ترى الشاب يعرف مسائل الخلاف الظاهرة فيستغنى ، ويعرف حكم الله - تعالى - فى الحوادث ما لا يعرفه النِّحْرير [1] من باقى العلماء .

وكم رأينا مُبْرَزًا فى علم القرآن ، أو فى الحديث ، أو فى التفسير ، أو فى اللغة لا يعرف مع الشَّيخوخة معظم أحْكَام الشرع ، وربما جَهِل علم ما ينويه فى صَلاته ، على أنه ينْبَغى للفقيه ألا يكون أجْنَبيا عن باقى العلوم ، فإنه لا يكون فقيهًا ، بل يأخذ من كل علم بحظٌ ثم يتوفّر على الفقْه ، فإنه عز الدنيا والآخرة .

١١١ - فصل : فهم الإسلام الخاطئ

رأيت كثيرًا من الناس يتحرزُون من رشاش نجاسة ولا يتحاشون من غيبة ، ويكثرون من الصّدقة ولا يبالون بمعاملات الرياء ، ويتهجَّدون بالليل ويؤخرُّون الفريضة عن الوقت، فى أشياء يطُول عدَدُها من حفظ فروع وتضييع أصُول ، فبحثت عن سَبَب ذلك، فوجدته من شيئين : أحدهما : العادة ، والثانى : غلَبة الهَوَى فى تحْصيل المطْلوب ، فإنه قد يغلب فلا يترك سمعًا ولا بصرًا .

ومن هذا القَبِيل أن إخوة يوسف قالوا حين سمعوا صوت المنادى: ﴿**إنَّكُم لَسَارِقُونَ**﴾[2]، ﴿**لَقَدْ عَلمتُمْ مَا جئْنَا لنُفْسدَ فى الأرْضِ ومَا كُنَّا سَارِقينَ**﴾ [3] ، فجاء فى التفسير : أنهم لما دخلوا مصر ، كمموا أفواه إبلهم ؛ لئلا تتناولَ ما ليس لهم ، فكأنهم قالوا : قد رأيتم ما صنعنا بإبلنا ، فكيف نسرق ، ونَسُوا هم تفَاوُت ما بين الورَع واختطاف أكلة لا يملكُونَها ، وبين إلقاء يوسُف - عليه السلام - فى الجُبِّ وبيعه بثمن بَخْسٍ .

وفى الناس من يطيع فى صغَار الأمور دون كبَارها ، وفيما كُلْفَته عليه خفيفة أو معتادة، وفيما لا يُنْقص شيئًا من عادته فى مطعم وملبس ، ونرى أقوامًا يأخذون بالربّا ويقول أحدهم : كيف يرانى عدُوِّى بعد أن بعت دارى ، أو تغيّر ملبُوسى ومركوبى ! ونرى أقوامًا يوسوسون فى الطهارة ويستعملون الكثير ، ولا يتحاشون من غيبة ، وأقوامًا يستعملون التأويلات الفاسدَة فى تحصيل أغراضهم ، مع علمهم أنَّها لا تجوز ، حتى أنى رأيت رجلاً من أهل الخير والتعبُّد أعطاه رجل مالاً ليبنى به مسجدًا ، فأخذه لنفسه وأنفق عوَض الصحيح قرَاضَة ؛ فلما احْتَضَر ، قال لذلك الرجل : اجعلنى فى حلٍّ ؛ فإنى فعلت كَذَا وكَذَا ، ونرى أقوامًا يتركون الذُّنوب لبعدهم عنها ، فقد ألفوا التَّرْك ، وإذا

---

(١) النحرير : العالم المتقن بعلمه .
(٢) سورة يوسف ، آية : ٧٠ .
(٣) سورة يوسف ، آية : ٧٣ .

يُشاغل نفسه عن ذكر الموت ، ليمتَدَّ نَفس أمله قليلاً فيصنِّف ويعمل أعمال خير ، ويقدر على طلب ولد ، فأما إذا لهج بذكر الموت ، كانت مفسدته عليه أكثر من مصلحته ، ألم تسمع أن النبي ﷺ سابق عائشة - رضي الله عنها - فسبقته ، وسابقها فسَبَقَها [1] ، وكان يمزح ويُشاغل نفسه

فإن مطالعة الحقائق على التَّحقيق تفسد البَدَن وتزعج النفس ، وقد روى عن أحمد بن حنبل - رحمة الله عليه - : أنه سأل الله - تعالى - أن يفتح عليه باب الخَوْف ، ففُتح عليه فخاف على عقله ، فسأل الله أن يردّ ذلك عنه ، فتأمل هذا الأصل ، فإنه لا بد من مغالَطَة النفس ، وفى ذلك صلاحُها ، والله الموفق والسلام .

١٠٨ - فصل : لا بد للنفس من غاية

من أعمل فِكْره الصافى دلَّه على طلب أشْرَف المقامات ، ونهَاهُ عن الرضا بالنَّقْص فى كل حال ، وقد قال أبو الطيب المتنبى :

وَلَمْ أرَ فِى عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا   كَـنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

فينبغى للعاقل أن ينتهى إلى غاية ما يمكنُه ، فلو كان يتصوّر للآدمى صعود السماوات ، لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض ، ولو كانت النُّبوة تحصل بالاجتهاد ، رأيت المقصِّر فى تحصيلها فى حضيضٍ ، غير أنه إذا لم يمكن ذلك ، فينبغى أن يطلب المُمْكِن .

والسيرة الجميلة عند الحكماء ، خرُوج النَّفس إلى غاية كمالهَا الممكن لها فى العلم والعمل ، وأنا أشرح من ذلك ما يدلُّ مذكوره على مغْفَلَه ، أما فى البدن : فليست الصورة داخلَة تحت كسب الآدمى ، بل يدخل تحت كسبه تَحْسينها وتزيينها ، فقبيح بالعاقل إهمال نفسه ، وقد نبَّه الشرع على الكلِّ بالبعض ، فأمر بقص الأظفار ، ونتف الإبط ، وحلْق العانة [2] ، ونهَى عن أكل الثوم والبصل النيئ ؛ لأجل الرائحة [3] ، وينبغى له أن يَقِيس على ذلك ، ويطلُبَ غاية النظافة ونهاية الزينة

وقد كان النبى ﷺ يعرَفُ مجيئه بريح الطِّيب ، فكان الغايةَ فى النظافة والنَّزاهة ، ولست آمر بزيادة التقَشُّف الذى يستعمله الموسْوِس ، ولكن التوسّط هو المحمُود ، ثم

---

(١) سبق تخريجه

(٢) حديث سنن الفطرة رواه البخارى فى اللباس (٥٨٨٩ ، ٥٨٩١) ، وفى الاستئذان (٦٢٩٧) ، ومسلم فى الطهارة (٢٥٧ ، ٢٦١) ، وأحمد (٢/ ١١٨) ، (٦/ ١٣٧) .

(٣) البخارى فى الأذان (٨٥٥) وفى الأطعمة (٥٤٥٢) ، ومسلم فى المساجد (٥٦٤)

ينبغى له أن يرفقَ ببدنه الذى هو راحلته ، ولا يُنقص من قُوتها فتنقص قوته ، ولست آمر بالشّبع الذى يوجب الجشاء [1] ، إنَّما آمر بالتوسط ، فإن قوى الآدمى كعين جارية كم فيها من منفعة لصاحبها ولغيره !

ولا يلتفت إلى قول الموسْوسين من المتزهّدين ، الذى جَدُّوا فى التقلل فضعفُوا عن الفرائض ، وليس ذلك من الشَّرْع ولا نُقل عن الرسول - ﷺ - ولا أصحابه ، إنما كان الرسول - ﷺ - وأصحابه إذا لم يجدُوا جاعوا ، وربما آثروا فصَبَرُوا ضرورة .

وكذلك ينبغي أن يَنْظُر لهذه الراحلة فى علفها - فربّ لقمة منَعَت لقْمات - فلا يعطيها ما يؤذيها ، بل ينْظُر لها فى الأصلح ، ولا يتلَفت إلى متزهد يقول لا أبلغها الشهوات ، فإن النظر ينبغى أن يكون فى حِلّ المطعم ، وأخذ ما يصلح بمقدار .

ولم ينقل عن الرّسول - ﷺ - ولا أصحابه - رضى الله عنهم - ما أحدثه الموسْوسُون فى ترك المشْتَهَيات على الإطلاق ، إنما نقل عنهم تركُها لسبب : إما للنظر فى حلّها ، أو للخوف من مطالبة النفس بها فى كُلّ وَقت ، ويجُوز ذلك ، وينبغى له أن يَجْتَهد فى التجارة والكَسْب ؛ ليفَضّل على غيره ولا يفضّل غيره عليه ؛ وليبلغ من ذلك غاية لا تمنَعُه عن العلم ، ثم ينبغى له أن يطلب الغاية فى العلْم .

ومن أقبح النَّقْص التقليد ، فإن قويت همته ، رقَته إلى أن يختار لنفسه مذهبًا ولا يتمذهب لأحد ، فإن المقلّد أعمى يقوده مقلّده ، ثم ينْبَغى له أن يَطْلُبَ الغاية فى معرفة الله - تعالى - ومعاملته ، وفى الجُمْلَة لا يترك فَضيلة يمكن تحصيلها إلا حصّلها فإن القنوع حالة الأرذال :

فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ فِى الثَّرَى وَهَــامَةُ هِمَّتِه فِى الثُّرَيَّا [2]

ولو أمكنك عُبُور كل أحد من العلماء والزهاد فافْعَل ؛ فإنهم كانوا رجالاً وأنت رجل، وما قعَد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها ، واعلم أنك فى ميدان سباق والأوقات تنتهب ، ولا تخلَّد إلى كسل ، فما فات من فات إلا بالكسل ، ولا نال ما نال إلا بالجدّ والعزم ، وإن الهمة لَتَغْلى فى القلوب غليان ما فى القُدُور ، وقد قال بعض من سلف:

لَيْسَ لِى مَالٌ سِوَى كرى فَبِه أحيا مِــنَ الْعَــدَمِ
قَنِعَتْ نَفْسِــى بِمَا رُزِقَتْ وَتَمَطَّتْ فِى الْعُلا هِـمَمِى

---

(١) الجشاء : تنفس المعدة كما فى القاموس .

(٢) الثرى هو التراب ، والثريا هو النجم العالى .

قربوا منها لم يتمالكُوا ، وفى الناس من هذه الفُنُون عجائب يطول ذِكْرُها ، وقد علمنا أنَّ خلقًا من علماء اليهود كانوا يَحْملون ثقل التعبّد فى دينهم ، فلما جاء الإسلام وعرفوا صحَّته ، لم يَطِيقوا مقاومة أهوائهم فى محْو رياستهم ، وكذلك قَيْصر ؛ فإنه عرف رسول الله - ﷺ - بالدليل [1] ، ثم لم يقدر على مُقَاوَمة هواه وترك ملكه .

فاللهَ اللهَ فى تضييع الأصول ومن إهمال سرْح الهوى ، فإنه إن أهملت ماشية ، نَفَشَت فى زروع التقى ، وما مثل الهوى إلا كسبُع فى عنقه سلسلة ، فإن استوثق منه ضابطه كفَّه ، وربما لاحت له شهواتُه الغالبة عليه فلم تقاومها السلسلة ، فأفلت .

على أنّ من الناس من يكُفُّ هواه بسلسلة ، ومنهم من يكفُّه بخيط ، فينبغى للعاقل أن يحْذر شياطين الهوى ، وأن يكون بصيرًا بما يقوى عليه من أعدائه ، وبمن يَقْوى عليه .

١١٢ - فصل : لا بد من أخذ الحذر

من أعظم الغَلَط الثقة بالناس ، والاسترسال إلى الأصدقاء ؛ فإن أشد الأعداء وأكثرهم أذى - الصديق المنْقَلب عدوا ؛ لأنه قد اطلع على خفى السرّ ؛ قال الشاعر :

احْـــــذَرْ عَــــــدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ

فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصــــديق ... فَكَـــانَ أعلم بِالْمَضَـرَّةْ

واعلم أن من الأمر الموضوع فى النفوس الحَسَد على النِّعم ، أو الغِبْطة وحبُّ الرفعة ، فإذا رآك من يعتَقدُك مثلاً له وقد ارتقيت عليه ، فلابُدَّ أن يتأثَّر وربما حسد ، فإنَّ إخوة يوسف - عليه السلام - من هذا الجنس جرى لهم ما شانهم .

فإن قلت : كيف يبقى الإنسان بلا صديق ؟ قلت لك : أتُرَاك ما تعلم أن المجانس يحسد ، وأنَّ أكثر العوام يعتقدون فى العالِم أنَّه لا يبتسم ، ولا يتناول من شهوات الدُّنيا شيئًا ، فإذا رأوا بعض انْبِسَاطه فى المبَاح هَبَط من أعينهم ، فإذا كانت هذه حالة العوام ، وتلك حالة الخَوَاص ، فمع من تكُون المعاشرة ؟ لا بَلْ والله ما تصح المعاشرة مع النفس؛ لأنها متلونة ، وليس إلا المداراة للخَلْق والاحْتراز منهم ، واتخاذ المعَارف من غير طمع فى صَدِيق صادق .

فإن نَدَر فليكن غير مماثل ؛ لأن الحسد إليه أسبق ، وليكن مرتفعًا عن رتبة العوامّ ، غير طامع فى نيْل مقامك ، وإن كانت معاشرة هذا لا تَشْفِى ؛ لأن المعاشرة ينبغى أن

---

(١) انظر : البخارى فى بدء الوحى (٧) .

تكون بين العُلَمَاء للمُجَانس ، فلزمهم من الإشارات فى المخالطة ما تطيب به المجَالَسة ، ولكن لا سبيل إلى الوصَال .

ومثل هذه الحالة أنك إن استخدمت الأذكياء عرفوا باطنك ، وإن استخدمت الأبْلَه[1]، انعكست مقاصدك ، فاجعل الأذكياء لحوائجك الخارجة ، والبُلْه لحوائجك فى منزلك ؛ لئلا يعلموا أسرارك ، واقنع من الأصْدقاء بمن وصفْتُه لك ، ثم لا تلْقَه إلا متدرِّعًا درع الحذر ، ولا تُطْلعه على باطنٍ يمكن أن يستُر عنه ، وكن كما يقال عن الذئب :

يَنَامُ بِإحْـــدَى مُقْـلَتَيْهِ[2] ويَتَّقِى ... بأخْرَى الأعَادِى فَهْوَ يَقْظَانُ هَاجِعُ

١١٣ – فصل : أهل العلم والغرور

رأيْتُ جماعةً ممن أفنى أوائل عمره وريْعَان شبابه فى طلب العلم ، يصبر على أنواع الأذَى وهجر فنون الرَّاحات ؛ أنفة [3] من الجَهْل ورذيلته ؛ وطلبًا للعلم وفضيلته ، فلمَّا نال منه طرفًا رفعه عن مراتب أرباب الدنيا ، ومن لا علْم له إلا بالعاجل ، ضاق به معاشه ، فسافر البلاد يطلب من الأراذل ، ويتواضع للسَّفلة وأهل الدَّناءة والمُكَّاس [4] وغيرهم ، فخاطبت بعضهم وقلت : وَيْحَك ، أين تلك الأنَفَة منَ الجهل التى سَهِرت لأجلها ، وأظمأت نهارك بسببها ؟ فلما ارتفَعْت وانْتَفَعْت ، عُدت إلى أسفل سافلين ، أفما بَقِى عندك ذرَّة من الأنفة تنْبُو به عن مقامات الأراذل ، ولا معكَ يسيرٌ من العلم يسير بك عن مُنَاخ الهوى ، ولا حَصَّلْت بالعلم قوة تجْذب بها زمام النفس عن مَرَاعِى السوء ، غير أنه يَبِينُ لى أنَّ سهرك وتعبك كأنهما كانا لنَيْل الدنيا ، ثم إنى أراك تزعم أنك تريد شيئًا من الدنيا تستَعين به على طلب العلْم ، فاعلم أن التفَاتك إلى نوع كسب تستغنى به عن الأراذل ، أفضلَ من التزيد فى علمك .

فلو عَرَفْتَ ما ينقص به دينك ، لم تر فيما قد عَزَمْت عليه زيادة بل لعله كلُّه مخاطرة بالنفس، وبذل الوجه الذى طالَمَا صينَ لمن لا يصلح التفات مثلك إلى مثله ، وبعيد أن تقنع بعد شُرُوعك فى هذا الأمر بقدر الكَفَاف ، وقد علمت ما فى السُّؤال بعد الكَفَاف من الإثم ، وأبعد منه أن تَقْدِر على الورع فى المأخُوذ ، ومن لك بالسَّلامة والرجوع إلى الوطن ، وكم رمى فَقْر فِى بواديه من هالك .

ثم ما تحصله يَفْنَى ويَبْقَى منه ما أعْطَى ، وعيب المتقين إيّاك ، واقْتداء الجاهلين بك ،

---

(١) الأبله : مفرد جمعها البله وهم الذين غلبت عليهم سلامة الصدر أو هم المغفلون .

(٢) المقلة : شحمة العين التى تجمع السواد والبياض . (٤) الأنفة : العدول والميل

(٤) المكاس : الذى يأخذ عشر أموال الناس جباية .

ويكفيك أنك عدت على ما علمت من ذَمِّ الدنيا بشينه إذ فعلت ما يناقضه ، خصوصًا وقد مرَّ أكثر العمر ، ومن أحْسَن فيما مضى يحسن فيما بقى .

١١٤ - فصل : الأولوية فى طلب العلم

رأيت الشَّرَه (١) فى تحصيل الأشياء يفوِّت الشَّرِهَ مقصوده ، وقد رأينا من كان شَرِهًا فى جمع المال ، فحصل له الكثير منه ، وهو مع ذلك حريص على الازْديَاد ، ولو فهم، علم أن المراد من المال إنفاقه فى العُمْر . فإذا أنفق العمر فى تحصيله ، فات المقْصُودان جميعًا ، وكم رأينا ممَّن جمع المال ولم يتمتَّع به ، فأبقاه لغيره وأفنى نفسه ؛ كما قال الشاعر :

كَدُودَةِ الْقَزِّ مَا تَبْنِيهِ يَهْدِمُهَا وَغَيْرُهَا بِالَّذِى تَبْنِيهِ يَنْتَفِعُ

وكذلك رأينا خلقًا كثيرًا يحرصون على جمع الكُتُب ، فينفقون أعمارهم فى كِتَابتها ؛ وكدأب أهل الحديث ينفقون الأعمار فى النَّسخ والسماع إلى آخر العمر ، ثم ينقسمون : فمنهم من يتشاغل بالحَديث وعلمه وتصحيحه ، ولعلّه لا يفهم جواب حَادثَة ، ولعله عنده لحديث « **أسلم سالمها الله** » (٢) - مائة طريق ، وقد حُكِى لى عن بعض أصحاب الحديث أنه سمع جزء ابن عَرَفَة عن مائة شيخ ، وكان عنده سبعون نُسْخة .

ومنهم من يَجْمَع الكتب ويسمعها ولا يدرى ما فيها ، لا من حيث صحَّتها ولا من فهم معناها ، فتراه يقول : الكِتَاب الفلانى سمَاعى وعندى به نُسْخَة ، والكتاب الفُلانى والفُلانى فلا يعرف عِلْم ما عنده ؛ من حيث فهم صحيحه من سقيمه ، وقد صدَّه اشتغاله بذلك عن المهم من العلم ؛ فهم كما قال الحُطَيْئَة :

زَوَامِلُ للأَخْـــبَارِ لا عِلْمَ عِنْدَهَا بِمُتْقَلِهَا إلا كَـــــعِلْمِ الأبَاعِـــرِ
لَعَمْـرُكَ مَا يَدْرِى الْبَعِـــيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَـــاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِى الْغَرَائِرِ(٣)

ثم ترى منهم من يتصدَّر بإتقانه للرواية وحدها فيمد يده إلى ما ليس من شغله ، فإن أفتى أخطأ ، وإن تكلم فى الأُصول خلط ، ولولا أنى لا أُحِبُّ ذكر الناس لذكرت من أخبار كِبَار علمائهم وما خَلَطُوا ما يَعْتَبَرَ به ، ولكنه لا يَخْفَى على المحقق حالُهم .

---

(١) سبق تعريفها .

(٢) رواه البخارى فى المناقب (٣٥١٣) ، ومسلم فى المساجد (٦٧٩) .

(٣) الغرائر : جمع غرارة وهو الوعاء الذى يوضع فيه العلف للبعير .

فإن قال قائل : أليس فى الحديث : « مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ : طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا »[1]

قلت : أما العالم فلا أقول له اشبَع من العلم ، ولا اقتَصر على بعضه، بل أقول له: قدِّم المهم ، فإن العاقل من قدّر عمره وعمل بمقتضاه ، وإن كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العمر ، غير أنه يبنى على الأغلب ، فإن وصل فقد أعدَّ لكلِّ مرحلة زادًا ، وإن مات قبل الوُصُول فنيته تسلك به ، فإذا علم العاقل أن العمر قَصير ، وأن العلم كثير ، فقبيحٌ بالعاقل الطالب لكمال الفضائل ، أن يتشاغل مثلاً بسماع الحديث ونسخه ؛ ليحصِّل كل طريق ، وكل رواية ، وكل غريب ، وهذا لا يفرغ من مقصوده منه فى خَمْسين سنةً خصوصًا إن تشاغل بالنسخ ، ثم لا يحفظ القُرْآن ، أو يتشاغل بعُلُوم القرآن ولا يعرف الحديث ، أو بالخلاف فى الفقه ولا يعرف النَّقْل الذى عليه مدار المسألة ، فإن قال قائل : فدبِّر لى ما تختار لنفسك ، فأقول : ذو الهمة لا يخْفَى من زمان الصبا ؛ كما قال سفيان ابن عيينة [2] : قال لى أبى - وقد بلغت خمس عشرة سنة - : إنه قد انقضت عنك شرائع الصِّبا ، فاتَّبع الخير تكن من أهله ، فجعلت وصيَّة أبى قبْلة أميل إليها ولا أميل عنها ، ثم قبل شُرُوعى فى الجواب أقول : ينبغى لمن له أنَفَة أن يأنَفَ من التقصير الممْكن دفعه عن النفس ، فلو كانت النبوة مثلاً تأتى بكسْب لم يجز له أن يقْنَع بالولاية، أو تصوّر أن يكون مثلاً خليفة ، لم يحسن به أن يقتنع بإمارة ، ولو صحَّ له أن يكون ملكًا ، لم يرض أن يكون بَشرًا .

والمقصود أن ينْتَهى بالنَّفس إلى كمالها الممكن لها فى العلم والعمل ، وقد علم قصر العُمر وكثرة العلم ، فيبْتَدئُ بالقرآن وحفظه ، وينظر فى تَفْسيره نظرًا متوسِّطًا لا يخفى عليه بذلك منه شىء ، وإن صحَّ له قراءة القراءات السبع ، وأشْياء من النحو وكتب اللغة، وابتدأ بأُصول الحديث من حيث النقل كالصِّحاح والمسَانيد والسُّنن ، ومن حيث علْم الحديث كمعرفة الضُّعَفَاء والأسماء ، فلينظر فى أصول ذلك .

وقد رتَّبت العلماء من ذلك ما يستغنى به الطَّالب عن التعب ، ولينظر فى التواريخ ليعرف ما لا يُستَغنى عنه ؛ كنسب الرسول - ﷺ - وأقاربه وأزواجه وما جرى له ، ثم ليُقْبل على الفقه فلينظو فى المذْهب والخلاف ، وليكن اعتماده على مسائل الخلاف ،

---

(١) الدارمى فى المقدمة (٣٣٢) ، والحاكم (١/ ٩٢) ، وصححه ووافقه الذهبى عن أنس ، ورواه الطبرانى فى الكبير (١٣٠٨٨) عن ابن مسعود .

(٢) هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى أبو محمد الكوفى ثم الكوفى ثقة حجة توفى سنة (١٩٨ هـ) .

السلام - يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصُول ، وهذا الكَلِيمَ - عليه السلام - يشتغل بالرَّعى ثم يرقى إلى التكليم .

وهذا نبينا محمد - ﷺ - يقال له بالأمس : اليتيم ، ويقلَّب فى عجائب يلاقيها من الأعداء تارةً ومن مكائد الفقر أخرى ، وهو أثبت من جبل حرَاء ، ثمَّ لما تم مراده من الفتْح ، وبلغ الغرضَ من أكبَر الملوك وأهل الأرض ، نزل به ضيف النُّقلة ، فقال : واكَرْبَاه ، فمن تلمَّح بحر الدنيا وعلم كيف تُتَلقى الأمواج ، وكيف يصبر على مُدَافعة الأيام ، لم يستهول [1] نُزُول بلاء ، ولم يفرح بعاجل رخَاء .

١١٨ - فصل : العمل فى حدود الطاقة

ينبغى للعاقل ألا يقدم على العزائم حتى يزن نفسه ، هل يطيقها ، ويجرِّب نَفْسَه فى ركوب بعضها سرا من الخلق ، فإنه لا يأمن أن يُرى فى حالة لا يصْبر عليها ، ثم يعود فيفْتَضِح .

مثاله : رجُلٌ سمع بذكر الزُّهاد فرَمَى ثيابه الجميلة ولبس الدُّون ، وانفرد فى زاوية ، وغلب على قَلْبه ذكر الموْت والآخرة ، فلم يلبث مُتَقَاضى الطبع أن ألَحّ بما جرت به العَادَة ، فمن القوم من عاد بمرة إلى أكثر ممَّا كان عليه كأكْل الناقة [2] من مرض ، ومنهم من توسَّط الحال فبقى كالمذَبْذَب ، وإنما العاقل هو الذى يستُر نفسه بين الناس بثوب وسَط لا يُخرِجه من أهل الخير ، ولا يُدْخله فى زىٍّ أهل الفَاقَة ، فإن قويت عزيمته عمل فى بيته ما يُطيق ، وترك ثوب التَّجمل لستر الحال ، ولم يظهر شيئًا للخَلْق ؛ فإنه أبعد من الرياء وأسْلَم من الفضيحة ، وفى النَّاس من غلب عليه قصَر الأمل وذكر الآخرة ، حتى دفن كتب العلم ، وهذا الفعْل عندى من أعظم الخَطَأ وإن كان منقولاً عن جماعة من الكبار ، ولقد ذكرت هذا لبعض مشايخنَا فقال : أخْطأوا كلّهم .

وقد تأولت لبعضهم بأنه كان فيها أحاديث عن قوم ضُعفاء ولم يميِّزوها ؛ كما روى عن سفيان فى دفن كتبه ، أو كان فيها شىء من الرَّآى فلم يحبُّوا أن يؤْخذ عنهم ، فكان من جنس تحرْيق عثمان بن عفان - رضى الله عنه - للمصاحف ؛ لئلا يؤخذ بشىء مما فيها من المجمع على غيره وهذا التأويل يصحُّ فى حق علمائهم ، فأما غسل أحمد بن أبى الحوارى كتبه وابن أسباط ، فتفريط محض . فالحذَر الحذَر من فعلٍ يمنع منه الشرع ، أو من ارتكاب ما يظن عزيمةً وهو خطيئَة ، أو من إظهار ما لا يقوى عليه المظْهَر فيرجع القهقَرى ، و« **عليكم من العمل بما تُطيقون** » ؛ كما قال ﷺ [3] .

---

(١) يستهول : يفزع من البلاء . (٢) أى لم يكتمل شفاه من مرضه .
(٣) سبق تخريجه .

١١٩ - فصل : لا خير فى لذة من بعدها النار

أجهل الجهال من آثر عاجلاً على آجلٍ لا يأمن سوء مغبته ، فكم قد سمعنا عن سُلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه فى شهواتها ، ولم ينظر فى حلال وحرام ، فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذَّ ، ولقى من مرير الحسرات ما لا يقاومه ولا ذرّة من كل لذة ، ولو كان هذا فحسب لكفى حزنًا ، وكيف والجزاء الدائم بين يديه .

فالدُّنيا محبوبة للطبع لا ريب فى ذلك ، ولا أنكر على طالبها ومؤثر شهواتها ، ولكن ينبغى له أن ينظر فى كسبها ، ويعلم وجه أخذها ؛ ليسلم له عاقبة لذَّته . وإلا فلا خير فى لذَّة من بعدها النَّار .

وهل عُدَّ فى العقلاء قط من قيل له : اجلس فى المملكة سنة ثم نقتلك ، هيهات ! بل الأمر بالعكس ، وهو أن العاقِل من صابر مرارةَ الجهد سنة بل سنين ؛ ليستريح فى عاقبته .

وفى الجملة أفٌ للذَّة أعقبت عقوبة .

وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز ، قال : أخبرنا أبو بكر الخطيب ، قال : أخبرنا الحسن بن أبى طالب ، قال : حدثنا يوسُف بن عُمر القوَّاس ، قال : حدثنا الحسين بن إسماعيل إملاءً قال : حدثنا عَبْد الله بن أبى سَعْد ، قال : حدثنا محمَّد بن مسْلَمة البَلْخى ، قال : حدثنا محمد بن على القَوْهَستانى ، قال : حدثنا دلف بن أبى دلف ، قال : رأيت كأن آتيًا أتى بعد موت أبى فقال : أجب الأمير ، فقمت معه فأدخلنى دار وحشة وَعِرَة ، سوداء الحِيطَان ، مقلعة السُّقُوف والأبواب ، ثم أصعدنى درَجًا فيها ، ثم أدخلنى غرفة فإذا فى حيطانها أثر النّيران ، وإذا فى أرْضها أثر الرماد ، وإذا أبى عُرْيان واضعًا رأسه بين ركبَتَيْه ، فقال لى كالمُسْتَفْهِم : دُلَف ، قلت : نعم أصلح الله الأمير ؟ فأنشأ يقول :

أَبْلغَنْ أَهْلَنَا وَلا تُخْــفِ عَنْهُمْ ... مَا لَقِينَا فِى الْبرزَخِ الْخَــفَّاقِ
قَدْ سُئِلْنَا عَنْ كُــلِّ مَا قَدْ فَعَلْنَا ... فَارْحَمُوا وَحْشَتِى وَمَا قَدْ أُلاقِى

أفهمتَ ؟ قلت : نعم ؟ فأنشأ يقول :

فَــلَوْ أَنَّا إِذَا مُتْنَا تُرِكْــنَا ... لَكَانَ الْموتُ رَاحَةَ كُلِّ حيٍّ
ولَكِــنَّا إِذَا مُتْنَا بُعِثْــنَا ... وَنُسْأَلُ بَعْدَهُ عَنْ كُــلِّ شَيٍّ

فلينظر فى المسألة وما تحتوى عليه فيطلبه من مظَانّه ؛ كتفسير آية وحديث وكلمة لغة ، ويتَشَاغل بأُصول الفقه وبالفرَائض ، وليعلم أن الفقه عليه مدار العلوم ، ويكفيه من النّظر فى الأُصول ما يستدل به على وجُود الصانع ، فإذا أثبته بالدليل وعرف ما يجُوز عليه مما لا يجُوز ، وأثبت إرسال الرسل وعلم وجُوب القبول منهم ، فقد احتوى على المقصود من علم الأُصول .

فإن اتسع الزمان للتزيُّد من العلم ، فليكن من الفقه فإنه الأنفع ، ومهْمَا فسح له فى المهل فأمكنه تصنيف فى علم ، فإنه يخلف بذلك خلفه خلفًا صالحًا ، مع اجْتهاده فى التسبُّب إلى اتّخاذ الولد .

ثم يعلم أن الدُّنيا معْبَرة فيلتفت إلى فهم معاملة الله - عَزَّ وجَلَّ - ؛ فإن مجموع ما حصَّله من العلم يَدُلُّه عليه ، فإذا تعرض لتحقيق معرفَته ، ووقف على باب معاملته ، فقَلَّ أن يقف صادقا إلا ويجذب إلى مقام الولاية ، ومن أريد وُفِّق ، وإن لله - عَزَّ وجَلَّ - أقوامًا يتولى تربيتهم ، ويبعث إليهم فى زمن الطفولية مؤدبًا ويُسمَّى العقل ، ومقومًا ويقال له الفهم ، ويتولى تأديبهم وتثْقيفهَم ، ويهيئ لهم أسباب القُرْب منه ، فإن لاح قاطع قطعهم عنه حماهم منه ، وإن تعرضت بهم فتنة ، دفعها عنهم ، فنسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - أن يجعلنا منهم ، ونعُوذ به من خُذْلان لا ينفع معه اجتهاد .

١١٥ - فصل : الأعمال بالنيات

إن للخَلْوة تأثيرات تَبين فى الجلوة ، كم من مؤمن بالله - عَزَّ وجَلَّ - يحترمه عند الخَلَوات ، فيترك ما يَشْتَهى حذَرًا من عقَابه ؛ أو رجاءً لثَوابه ، أو إجلالاً له ، فيكون بذلك الفعْل كأنه طرَح عودًا هنديا على مجْمَر ، فيفوح طيبه ، فيستَنْشقُه الخلائق ولا يدرون أين هو .

وعلى قدر المجاهدة فى ترك ما يهوى تقوى محبَّته ، أو على مقدار زيَادة دفع ذلك المحبُوب المتروك يزيد الطِّيب ، ويتفاوت تفاوُت العود ، فيرى عُيون الخلق تعظِّم هذا الشخص ، وألسنتهم تمدحه ، ولا يعرفون لمَ ، ولا يقدرون على وصفه ؛ لبعدهم عن حقيقة معرفته .

وقد تمتدُّ هذه الأرابيح [1] بعد الموت على قَدْرها ، فمنهم من يُذْكر بالخير مدة مديده ثم يُنْسَى ، ومنهم من يُذْكر مائة سنة ثم يخفى ذكره وقَبْره ، ومنهم أعْلام يبقى ذكرهم أبدًا .

---

(١) أرابيح : جمع أرياح والأرياح جمع ريح .

وعلى عكس هذا من هاب الخلق ، ولم يحترم خَلْوَته بالحقّ ، فإنه على قدر مبارَزَته بالذنوب وعلى مقادير تلك الذُّنوب ، يفوحُ منه ريح الكَرَاهَة فتمقته القلوب ، فإن قَلّ مقدار ما جَنَى ، قَلّ ذِكْر الألسن له بالخير ، وبقى مجرّد تعظيمه ، وإن كَثُر ، كان قصارى الأمر سكوت الناس عنه لا يمْدَحونه ولا يذمُّونه .

ورب خال بذنب كان سببَ وقوعه فى هُوَّة شقْوَة فى عيش الدنيا والآخرة ، وكأنه قيل له : ابق بما آثرت فيبقى أبدًا فى التَّخْبيط .

فانظروا إخوانى إلى المعاصى أثرت وعثرت ، قال أبو الدرداء - رضى الله عنه - : إن العبد ليخلو بمعصية الله - تعالى - فيُلْقِى الله بغْضَه فى قلوب المؤمنين من حيث لا يَشْعُر، فتلمَّحوا ما سطَرْته ، واعرَفُوا ما ذكرته ، ولا تُهْمِلُوا خلواتكم ولا سرائركم ، فإن الأعمال بالنية [1] ، والجزاء على مقدار الإخلاص .

١١٦ - فصل : جريان الأقدار وتعلقها بالأسباب

من عرف جريان الأقدار ، ثبت لها ، وأجهل الناس بعد هذا من قَاوَاها [2] ؛ لأن مراد المقدِّر الذل له ، فإذا قاوَيْت القدر فنلت مرادك من ذلك ، لم يَبْق لك ذل .

مثال هذا : أن يجوع الفَقِير فيصبر قَدْر الطاقة ، فإذا عجز ، خرَج إلى سؤال الخلق مستحْيًا من الله كيف يَسْألهم ، وإن كان له عذر بالحاجة التى ألجأته ، غير أنه يرى أنه مغلوب الصَّبر ، فيبقى معتذرًا مستَحْيًا وذاك المراد منه ، أو لَيْس بخرُوج النَّبى - ﷺ - من مكَّة ، فلا يقْدر على العَوْد إليها حتى يدخل فى خفَارة [3] المُطْعَم بن عَدِىّ وهو كافر، فسبحان من نَاطِ [4] الأمور بالأسباب ؛ ليحصل ذلّ العارف بالحاجة إلى التَّسَبُّب .

١١٧ - فصل : محك الحوادث

سبحان المتَصَرِّف بخلقه بالاغتراب والإذلال ؛ ليبلو صبرهم ، ويظْهِر جواهرهم فى الابْتِلاء .

هذا آدمُ - صلى الله عليه وسلم - تسْجُد له الملائكة ثم بعد قليل يخْرُج من الجنة، وهذا نوح - عليه السلام - يُضْرب حتى يغشى عليه ، ثم بعد قليل يَنْجُو فى السفينة ويهْلَك أعداؤه ، وهذا الخليل - عليه السلام - يُلْقَى فى النار ثم بعد قليل يخرج إلى السلامة ، وهذا الذَّبيحُ يضجع مستسلمًا ثم يَسْلَم ويبقى المَدْح ، وهذا يعقوب - عليه

---

(١) هذا موافق للحديث الذى رواه البخارى فى بدء الوحى (١) ، ومسلم فى الإمارة (٧ · ١٩) «**إنما الأعمال بالنيات ....** » الحديث .

(٢) قاواها : غالبها . (٣) الخفارة : الجوار . (٤) ناط : علق .

١٢٠ – فصل : اللذات الحسية والعقلية

اللّذات كلها بين حسيّ وعقلى ، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح ، وغاية اللذات العقلية العلْم .

فمن حصلت له الغَايتَان فى الدنيا ، فقد نال النّهاية ، وأنا أرشد الطَّالب إلى أعلى المطْلوبَيْن ، غير أن للطالب المرزوق علامة ، وهو أن يكون مرزوقًا علو الهِمَّة، وهذه الهمة تولدُ مع الطفل فتراه من زمن طُفُولته يطلب مَعَالي الأُمور ؛ كما يروى فى الحديث: « **أنَّهُ كَانَ لعَبْد المُطَّلبْ مَفْرَشٌ فى الحجَر ، فكان النَّبى – ﷺ – يَأتى وَهُوَ طِفْل فيجْلسُ عليه ، فيقول عبدَ المطلَب : إن لابنىَ هذاَ شأنًا** » [١] .

فإن قال قائل فإذا كانت لى همة ولم أرزق ما أطلب ، فما الحيلة ؟ – فالجواب – أنه إذا امتنع الرزق من نوع ، لم يمتَنع من نوع آخر ، ثم من البَعيد أن يرزقك همة ولا يُعينُك ، فانظر فى حالك فلعله أعطاك شيئًا ما شكَرْته ، أو ابتَلاك بشىء من الهَوَى ما صبرت عنه .

واعْلم أنه ربما زَوَى [٢] عنكَ من لذّات الدنيا كثيرًا ؛ ليؤثرك بلذات العلم فإنَّك ضعيف ربما لا تقوَى على الجمع ، فهو أعلم بما يُصْلحك، وأما ما أردت شرحه لك ؛ فإن الشاب المبْتدئ فى طلب العلم ينْبغى له أن يَأخذ من كل علم طرَفًا ، ويجعل علم الفقْه الأهَمّ ، ولا يقصّر فى معرفة النّقل ، فبه تبين سير الكاملين ، وإذا رزق فصاحةً من حيث الوَضع، ثم أضيف إليها معرفة اللغة والنحو ، فقد شحذت شَفْرة لسانه على أجود مَسَنّ .

ومتى أدى العلم لمعرفة الحق وخدمة الله – عَزَّ وجَلَّ – ، فتحت له أبواب لا تُفْتَح لغيره، وينبغى له بالتلطُّف أن يجعل جزْءًا من زمانه مصروفًا إلى توفير الاكتساب والتجارة ، مستنيبًا فيها غير مباشر لها ، مع التَّدبير فى العيش الممتنع من الإسراف والتبذير ؛ فإن رواية العلم والعمل به إلى درجة المعرفة لله – عَزَّ وجَلَّ – آسرة [٣] للمشاعر فربَّما شغلته لذة ما وصل إليه عن كل شىء ، ويالها حالة سليمة من آفة .

وإن وجد من طبعه منازعًا إلى الشوق فى النّكاح فليتخير السَّرارى ؛ فإن الحرائر فى الأغلب غل [٤] وليعزل عن المملوكات إلى أن يجَرِّب خلقهن ودينَهُنَّ ، فإن رضيهن ،

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة (١٤٩/١) (٢) زوى : منع .
(٣) آسرة : مستولية عليها (٤) غل : قيد .

طلب الولد منهن ، وإلا فالاستبدال بهن سَهْلٌ ، ولا يتزوج حرة إلا أن يعلم أنها تصبر على التزويج عليها والتَّسَرِّى ، وليكن قصده الاستمتَاع بها لا إجهاد النفس فى الإنزال ، فإن ذلك يهدم قوته فيضعف الأصل ، فهذه الحالة الجامعة من لذتى الحس والعَقْل ذكرْنها على وجه الإشارة وفهم الذكى يُمْلى عليه ما لم أشرحه .

١٢١ - فصل : فى تعلم حفظ العلم

اعلم أن المتعلم يفتقر إلى دوام الدراسة ، ومن الغلط الانهماك فى الإعادة ليلاً ونهارًا، فإن لا يلبث صاحب هذه الحال إلا أيامًا ثم يفتُر [١] أو يمرض .

وقد روينا أن الطبيب دخل على أبى بكر بن الأنبارى [٢] فى مرض موته فنظر إلى مائة كتاب ، وقال : قد كنت تفعل شيئًا لا يفعله أحد ثم خرج فقال : ما يجىء منه شىء ، فقيل له: ما الذى كنت تفعل ؟ قال : كنت أُعيد كل أسبوع عشرة آلاف ورقة .

ومن الغلط حفْظ الكثير أو الحفظ من فُنُون شتى ، فإن القلب جارحة من الجوارح وكما أن من النَّاس من يحمل المائة رَطْل ، ومنهم من يعْجَز عن عشرين رطلاً ، فكذلك القلوب . فليأخذ الإنسان على قدر قوته ودونها ؛ فإنه إذا استنفذها فى وقت ضاعت منه أوقات . كما أن الشره [٣] يأكل فضل لقيمات فيكون سببًا إلى منع أكلات ، والصواب أن يأخد قدر ما يُطيق ، ويعيدُ فى وقتين من النَّهار والليل ، ويرفه القُوى فى بقية الزمان والدَّوام أصل عظيم ، فكم ممن ترك الاستذكار بعد الحفظ فضاع زمن طويل فى استرجاع محفوظ قد نُسى ، وللحفظ أوقاتٌ من العمر ، فأفضلها الصبا وما يقاربه من أوقات الزمان ، وأفضلها إعادة الأسحار وأنصاف النهار ، والغدوات [٤] خير من العَشيات ، وأوقات الجُوع خير من أوقات الشِّبع ، ولا يحمد الحفظ بحضرة خُضْرة وعلى شاطئ نهر؛ لأن ذلك يُلْهى ، والأماكن العالية للحفظ خير من السَّوافل ، والخلوة أصل وجمع الهم أصل الأُصول ، وترفيه النفس من الإعادة يومًا فى الأُسبوع ليثبت المحْفُوظ ، وتأخذ النَّفس قوة كالبُنْيَان يترك أيامًا حتى يستقرَّ ثم يُبْنى عليه ، وتقليل المحفوظ مع الدوام أصل عظيم ، وأن لا يشرع فى فنٍّ حتى يحكم ما قبله ومن لم يجد نشاطًا للحفظ فليتركه ، فإن مكابرة النفس لا تصْلح ، وإصلاح المزاج من الأُصول العظيمة ، فإن للمأكُولات أثرًا فى الحِفْظ ، قال الزُّهرى : ما أكلت خلا منذ عالجت الحفظ ، وقيل

---

(١) يفتر : يضعف . (٢) هو أبو بكر بن بشار بن الأنبارى المقرئ توفى سنة (٣٢٨ هـ)

(٣) سبق تعريفها . (٤) الغدوات : جمع غدوة وهى ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس.

لأبي حنيفة : بم يُستَعان على حفظ الفقه ، قال : بجمع الهم ، وقال حماد بن سلمة : بقلَّة الغم ، وقال مكحول : من نظَّف ثوبه قل همه، ومن طابت ريحُه زاد عقله ، ومن جمع بينَهُما زادت مروءَتُه .

وأختار للمبتدئ في طلب العلم أن يدافع النِّكاح مهما أمكن ، فإن أحمد بن حنبل لم يتزوّج حتى تمت له أربَعُون سنة ، وهذا لأجل جمع الهم ، فإن غلب عليه الأمر تزوّج واجتهد في المدَافَعة بالفعل ؛ لتتوفر القوة على إعادة العلم ، ثم لينظر ما يحْفَظ من العلم، فإن العمر عزيز والعلم غزير .

وإن أقوامًا يصرفون الزمان إلى حفظ ما غيره أوْلى منه ، وإن كان كل العلوم حسنًا ، ولكن الأوْلى تقديم الأهم والأفضل ، وأفضل ما تُشُوغل به حفظ القرآن ثم الفقه وما بعد هذا بمنْزِلة تابع ، ومن رزق يقظة ، دلَّته يقظته فلم يحتج إلى دليل ، ومن قصد وجه الله - تعالى - بالعلم ، دلَّه المقصود على الأحسن : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾[1] .

١٢٢ - فصل : الإسراع بالتوبة

من أراد دوامُ العافية والسّلامة فليتق الله - عَزَّ وجَلَّ - فإنه ما من عبد أطْلَق نفسه في شيْء ينافيه التَّقْوى وإن قل ، إلا وجد عقوبَتَه عاجلة أو آجلة ، ومنَ الاغترار أن تُسيء فترى إحسانًا ، فتظن أنك قد سومحت ، وتنسى : ﴿ مَنْ يَعْمَل سُوءً يُجْزَ به ﴾ [2] ، وربما قالت النفس : إنه يغفر فتسامحت ، ولا شك أنه يغفر ولكن لمن يَشَاء ، وأنا أشرح لك حالاً ، فتأمله بفكرك تعرف معنى المغْفرة ، وذلك أن من هفَا هَفْوَة [3] لم يقْصدها ولم يعزم عليها قبل الفعل ، ولا عزَم على العَوْد بعد الفعل ، ثم انتَبَه لما فعل فاستَغفر الله كان فعله وإن دخله عمدًا - في مقام خَطَأ ، مثل أن يعرض له مستحْسَن فيغلبه الطبع ، فيطلق النظر ويتَشَاغل في حال نظره بالتذَاذ الطَّبع عن تلمَّح معنى النهي ، فيكون كالغَائب أو كالسَّكْران ، فإذا انتبه لنفسه نَدم على فعله فقام النَّدم بغَسْل تلك الأوسَاخ التي كانت كأنها غلطة لم تُقْصَد ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [4] .

فأما المداوم على تلك النظرة المردد لها ، المصرّ عليها ، فكأنه في مقام متعمد للنّهى ، مبارزًا بالخلاف ، فالعفو يبعد عنه بمقدار إصراره ، ومن البُعْد ألا يرى الجزاء على ذلك ؛

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٨٢ .
(٢) سورة النساء ، آية : ١٢٣ .
(٣) هفوة : زلة .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ٢٠١ .

كما قال ابن الجلاء : رآنى شيخى وأنا قائم أتأمل حدثًا [1] نصرانيًا فقال : ما هذا ؟ لترين غبَّها [2] ولو بعد حين ، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

واعلم أنه من أعظم المحَن الاغترار بالسلامة بعد الذَّنب ، فإن العقوبة تتأخَّر ، ومن أعظم العقوبة ألا يحسّ الإنسان بها ، وأن تكون فى سلب الدين ، وطمس القلوب ، وسوء الاختيار للنفس ، فيكون من آثارها سلامة البَدَن وبلوغ الأغراض .

قال بعض المعتبرين : أطلقت نظرى فيما لا يحلُّ لى ثم كنت أنتظر العقوبة فألجئت إلى سفر طويل لا نيَّة لى فيه ، فلقيت المشاق ، ثم أعقب ذلك موت أعز الخلق عندى ، وذَهَاب أشياء كان لها وقع عظيم عندى ، ثم تلافَيْت أمرى بالتوبة فصلح حَالِى ، ثم عاد الهوى فيحمِلُنى على إطلاق بصرى مرّة أخرى ، فطُمس قلبى وعدمت رقته ، واستُلب منى ما هو أكثر من فقد الأول ، ووقع لى تعْويض عن المفقود بما كان فقدُه أصلح .

فلما تأملت ما عُوِّضت وما سلب منى صحْت من ألم تلك السِّياط ، فها أنا أنادى من على السَّاحل: إخوانى احذروا لُجَّة [3] هَذا البحر ، ولا تغتُّروا بسكونه ، وعليكم بالسَّاحل ولازموا حصن التقوى فالعقوبة مرَّة ، واعلموا أن فى ملازمة التقوى مرارات من فقد الأغراض والمُشتَهَيات، غير أنها فى ضرب المثل كالحِمْيَة [4] تعقب صِحَّة ، والتخليط ربما جلب موت الفَجْأة .

وبالله لو نمتم على المزَابل مع الكلاب فى طلب رضا المبتلى ، كان قليلاً فى نيل رِضَاه، ولو بلغتم نهاية الأمَانى من أغراض الدنيا مع إعراضه عنكم ، كانت سلامتكم هلاكًا ، وعافيتكم مرضًا ، وصحتكم سَقَمًا ، والأمر بآخره والعَاقل من تلمَّح العواقب ، وصابروا رحمكم الله - تعالى - هجير البَلاء فما أسرع زواله ، والله الموفق ؛ إذ لا حول إلا به ، ولا قوة إلا بفضله .

١٢٣ - فصل : خطر علم الكلام على العامة

قدم إلى بغداد جماعة من أهل البدع الأعاجم ، فارتقوا منابر التذكير للعَوَام ، فكان مُعْظم مجالسهم أنَّهم يقولون : ليس لله فى الأرض كلام ، وهل المصحف إلا ورق

---

(١) الحدث : الغلام صغير السن .　　(٢) غبها : عاقبتها

(٣) اللجة : معظم الماء وبحر لجى أى عميق كما فى القاموس .

(٤) الحمية : حماية النفس من الطعام الذى يؤذيها .

وعفص وزاج [١] ، وأن الله ليس فى السماء ، وأن الجارية التى قال لها النبى ﷺ أين الله؟ [٢] كانت خرساء ، فأشارت إلى السماء ، أى : ليس هو من الأصنام التى تعبد فى الأرض ، ثم يقولون : أين الحروفية الذين يزعمون أن القرآن حرف وصوْت ؟ هذا عبارة جبْريل ، فما زالوا كذلك حتى هان تعظيم القرآن فى صدور أكثر العوام ، وصار أحدهم يسمع فيقول : هذا هو الصّحيح ؟ وإلا فالقرآن شىء يجىء به جبريل فى كيس ، فشكا إلىّ جماعة من أهل السنة ، فقلت لهم : اصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسهَا فى بعض الأوقات ، وإن كانت مدموغة ، وللباطل جولة وللحقّ صولة ، والدّجالون كثير ، ولا يخلو بلد ممن يضْرب البهْرج على مثل سكّة [٣] السلطان .

قال قائل : فما جوابنا عن قولهم ؟ قلت : اعلم وفقك الله - تعالى - أن الله - عزَّ وجلَّ - ورسوله قنّعا من الخلق بالإيمان بالجُمَل ، ولم يكلفهم معرفة التفاصيل ، إما لأن الاطلاع على التفاصيل يخبط العقائد ، وإما لأن قوى البَشر تعجز عن مطالَعة ذلك .

فأول ما جاء به الرسول ﷺ إثبات الخَالق ، ونزل عليه القرآن بالدليل على وجود الخَالق بالنظر فى صُنْعه ، فقال - تعالى - : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خلالَهَا أَنْهَاراً ﴾ [٤] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [٥] .

وما زال يستدلُّ على وجوده بمخلوقاته ، وعلى قدرته بمصْنُوعاته ، ثم أثبت نبوة نبيه بمعْجزَاته ، وكان من أعظمها القرآن الذى جاء به ، فعَجَزَ الخلائق عن مثْله واكتفى بهذه الأدلة جماعة من الصّحابة ، ومضى على ذلك القرن الأول والمشرب صاف لم يتكَدَّر ، وعلم الله - عزَّ وجلَّ - ما سيكون من البدع ، فبالغ فى إثبات الأدلة وملأ بها القرآن ، ولما كان القرآن هو منْبَع العلوم ، وأكبر المعجزات للرسول ، أكد الأمر فيه ، فقال - تعالى - : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [٦] ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ [٧] ، فأخبر أنه كلامه بقولهَ - تعالى - : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ ﴾ [٨] ، وأخبر أنه مسموع بقوله - تعالى - : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ﴾ [٩] ، وأخبر أنّه محفُوظٌ ، فقال - تعالى - : ﴿ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [١٠] ، وقال - تعالى - : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى

(١) العفص : الحبر ، والزاج : شب يمانى يضاف إلى الحبر .
(٢) رواه مسلم فى المساجد (٥٣٧) .
(٣) سكة : عملة .
(٤) سورة النمل ، آية : ٦١ .
(٥) سورة الذاريات ، آية : ٢١ .
(٦) سورة الأنعام ، آية : ٩٢ .
(٧) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .
(٨) سورة الفتح ، آية : ١٥ .
(٩) سورة التوبة ، آية : ٦ .
(١٠) سورة البروج ، آية : ٢٢ .

صُدُور الَّذينَ أُوتُوا العلمَ ﴾ [1] ، وأخبر أنه مكتوبٌ ومتلُو فقال - تعالى - : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مَنْ قَبْله منْ كتَاب وَلا تَخُطُّهُ بيَمينكَ ﴾ [2] ، إلى ما يطول شرحه من تعدُّد الآيات فى هذه المعانى التى توجب إثبات القرآن .

ثم نزَّه نبيه - ﷺ - عن أن يكون أتى به من قبل نفسه ؛ فقال - تعالى - : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الحَقُّ منْ ربِّك ﴾ [3] ، وتواعده لو فعل ؛ فقال - تعالى - : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاويلَ لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ [4] ، وقال فى حقِّ الزاعم أنه كلام الخلق حين قال : ﴿ إنْ هَذَا إلا قَوْلُ البَشَر . سَأُصْليه سَقَرَ ﴾ [5] .

ولما عذَّب كل أمة بنوع عذاب ، تولاه بعض الملائكة كصَيْحة جبريل - عليه السلام - بثَمُود ، وإرسال الريح على عَاد ، والخسف بقَارُون ، وقلب جبريل دار لوط - عليه السلام - ، وإرسال الطَّير الأبابيل على من قصد تخريب الكعبة ، تولَّى هو بنفسه عقاب المكذِّبين بالقرآن ؛ فقال تعالى : ﴿ ذَرْنى وَمَنْ يُكَذِّبُ بهَذَا الحَديث ﴾ [6] ، ﴿ ذَرْنى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيدًا ﴾ [7] .

وهذا لأنه أصل هذه الشرائع ، والمثبت لكل شريعة تقدمت ؛ فإن جميع الملل لبس عندهم ما يدلُّ على صحة ما كانوا فيه إلا كتابنا ؛ لأن كتبهم غيرت وبدّلت ، وقد علم كل ذى عقل أن القائل : ﴿ إنْ هَذَا إلا قَوْلُ البَشَر ﴾ [8] ، إنما أشار إلىٰ ما سمعه ، ولا يختلف أُولوا الألباب وأهل الفهم للخطَاب أن قوله : ﴿ وإنه ﴾ كناية عن القرآن ، وقوله: ﴿ ننزل من ﴾ كناية أيضًا عنه ، وقوله : ﴿ هَذَا كتَابٌ ﴾ إشارة إلى حاضر .

وهذا أمر مستقر لم يختلف فيه أحَدٌ من القُدَماء فى زمن الرَّسول - ﷺ - والصحابة - رضوان الله عليهم -، ثم دسَّ الشيطان دسائس البدع ، فقال قوم : هذا المشار إليه مخلوق ، فثبت الإمام أحمد - رحمه الله - ثبوتًا لم يثبته غيره على دفع هذا القول ؛ لئلا يتطرق إلى القرآن ما يمْحُو بعض تعظيمه فى النفوس ، ويخرجه عن الإضافة إلى الله - عَزَّ وجَلَّ - ، ورأى أن ابْتدَاع ما لم يقل فيه لا يجوز استعماله ، فقال : كيف أقُول ما لم يَقُل .

(1) سورة العنكبوت ، آية : ٤٩ .
(2) سورة العنكبوت ، آية : ٤٨ .
(3) سورة السجدة ، آية : ٣ .
(4) سورة الحاقة ، آية : ٤٤ - ٤٦ .
(5) سورة المدثر ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .
(6) سورة القلم ، آية : ٤٤ .
(7) سورة المدثر ، آية : ١١ .
(8) سورة المدثر ، آية : ٢٥ .

ثم لم يختلف النَّاس فى غير ذلك ، إلى أن نشأ علىّ بن إسماعيل الأشعرى [(١)] ، فقال مرَّة بقول المعتزلة ، ثم عنّ له [(٢)] فادَّعى أن الكلام صفَة قائمة بالنفس ، فأوجبت دعْواه هذه أن ما عِنْدَنا مخلوق ، وزادت فخبطت العَقَائد ، فما زال أهل البدع يجُوبون فى تيَّارها إلى اليوم .

والكلام فى هذه المسألة مرتّب بذكر الحُجَج والشبه فى كتب الأُصول ، فلا أطيل به ههنا ، بل أذكر لك جملة تكفى من أرادَ الله هُدَاه ، وهو أن الشرْع قنع منا بالإيمان جملة وبتعظيم الظَّواهر ، ونهى عن الخوْض فيما يثير غُبَار شبهته ، ولا يقْوى على قطع طريقه إقْدام الفهم ، وإذا كان قد نَهَى عن الخوض فى القَدَر ، فكيف يجُوز الخوض فى صفات المقَدِّر ؟ وما ذاكَ إلا لأحد الأمرين اللذين ذكرتهما : إما لخوف إثارة شبهة تزلزل العَقَائد؛ أو لأن قوى البشر تعْجَز عن إدراك الحقائق .

فإذا كانت ظواهر القرآن تُثْبت وجود القرآن ، فقال قائل : ليس هَهُنا قرآن ، فقد رد الظواهر التى تَعِب الرسول ﷺ فى إثباتها وقرر وجودَها فى النفوس ، وبماذا يُحِلّ ويحرم، ويبُت ويقطع ، وليس عِنْدنا من الله - تعالى - تقدم بشىء ، وهل للمخَالف دليل إلا أن يقول : قال الله ، فيعود فيُثْبت ما نفى ، فليس الصَّواب لمن وفق إلا الوقُوف مع ظاهر الشَّرع .

فإن اعترضه ذُو شبهة . فقال : هذا صَوْتك وهذا خطك ، فأين القرآن ؟ فليقل له : قد أجْمَعْنا أنا وأنت على وجُود شىء به نحتَجُّ جميعًا ، وكما أنك تُنْكر علىّ أن أثبت شيْئًا لا يتحقَّق لى إثباته حسا ، فأنا أنكر عليك كيف تَنْفى وجود شىء قد ثَبَت شرعًا .

وأما قولهم هل فى المصْحف إلا وَرَق وعَفْص وزَاج ، هذا كقول القائل : هل الآدَمى إلا لحم ودم ؟ هيهات إن معنى الآدمى هو الرُّوح ، فمن نظر إلى اللَّحم والدم وقف مع الحس ، فإن قال : فكذا أقول إن المكتوب غير الكتَابة ، قلنَا له : وهذا مما نُنْكره عليك؛ لأنه لا يثبت تحقيق هذا لك ولا لخَصْمك ، فإن أردت بالكتابة الحِبْر وتخطيطه ، فهذا ليس هو القرآن ، وإن أردت المعنى القائم بذلك ، فهذا ليس هو الكتَابة .

وهذه الأشياء لا يصلح الخَوْض فيها فإن ما دونها لا يمكن تحقيقُه على التَّفْصيل كالروح مثلاً ، فإنا نعلم وجودَها فى الجملة ، فأما حقيقتها فلا ، فإذا جهلنا حقائقها كنَّا لصفات الحق أجهل ، فوجب الوُقوف مع السَّمْعيَّات مع نفى ما لا يليق بالحق؛ لأن الخوض يزيد

---

(١) هو أبو الحسن على بن إسماعيل بن أبى بشر الأشعرى اليمانى البصرى توفى سنة (٣٢٤ هـ).
(٢) عنّ له : عرض له .

الخائض تخبيطًا ولا يفيده تحصيلاً ، بل يوجب عليه نفى ما يثبت بالسمع من غير تحقيق أمر عقلى ، فلا وجه للسلامة إلا طريق السَّلف والسلام

وكذلك أقول أن إثبات الإله بظواهر الآيات والسنن ألزم للعوامّ من تحديثهم بالتنزيه ، وإن كان التنزيه لازمًا ، وقد كان ابن عقيل يقول الأصلح لاعتقاد العوام ظواهر الآى والسنن ؛ لأنهم يأنسون بالإثبات ، فمتى محونا ذلك من قُلُوبهم ، زالت السّياسات والحشمة ، وتهافت العوام فى الشبهة أحب إلىّ من إغراقهم فى التنزيه ؛ لأن التشبيه يغمسهم فى الإثبات ، فيطمعوا ويخافُوا شيئًا قد أنسوا إلى ما يُخَاف مثله ويرجى ، فالتنزيه يرمى بهم إلى النفى ولا طمع ولا مخالفة من النَّفْى، ومن تدبَّر الشريعة ، رآها عامة للمكلّفين فى التَّشْبيه بالألفاظ التى لا يعطى ظَاهرها سواه ؛ كقول الأعرابى : أو يضحك ربنا ، قال : نعم [1] ، فلم يكفهر [2] من هذا القول .

١٢٤ – فصل : تكاليف علو الهمة

أعظم البلايا أن يُعْطيك همّة عالية ويمنعك من العمل بمقْتَضَاها ، فيكون من تأثير همتك الأنفة من قُبُول إرفاق الخَلْق ؛ استثقالاً لحمل مننهم ، ثم يبتليك بالفقر فتأخذ منهم ويلْطف مزاجك ، فلا تقبل من المأكُولات ما سهل إحضاره ، فتحتاج إلى فضل نفقة، ثم يقلل رزْقك ويعلق همتك بالمستَحْسَنات ، ويقطع بالفقر السَّبيل إليهن ، ويريك العلوم فى مقام مَعْشوق ، ويضعف بدنُك عن الإعادة ، ويخلى يديك من المال الذى تحصّل به الكتب ، ويقوى توْقَك إلى درجات العارفين والزهاد ، ويحوجك إلى مخالطة أرباب الدنيا ، وهذا البلاء المبين ، وأما الخَسيس الهمة الذى لا يستنْكف من سُؤَال الخلق، ولا يرى الاستبْدال بزوجته ، ويكتفى بيسير من العلْم ، ولا يتُوق إلى أحوال العارفين ، فذاك لا يؤلمُه فقد شىء ، ويرى ما وجَد هو الغاية ، فهو يفرح فرح الأطفال بالزَّخَارف ، فما أهون الأمر عليه .

إنما البلاء على العَارف ذى الهمة العَالية الذى تدْعُوه همته إلى جمع الأشداد للتزيُّد من مقام الكمال ، وتقْصير خُطاه عن مدارك مقصوده ، فياله من حال ينْفَذُ فى طريقه زاد الصّابرين، ولولا حالات غفلة تعتّرى هذا المبتلى يعيش بها ، لكان دوام ملاحظته

---

(١) أحمد (٤/١١ ، ١٢) ، وابن ماجة فى المقدمة (١٨١) ، وفى الزوائد : وكيع ذكره ابن حبان فى الثقات وباقى رجاله احتج بهم مسلم .

(٢) يكفهر : تغير لون وجهه من الغضب

للمقامات يُعْمِى بصره ، واجتهاده فى السلوك يُخْفِى قدمه ، لكن ملاحظات الإمداد له تارة ببُلوغ بعض مراده ، وتارة بالغَفْلة عما قصد تهوّن عليه العيش .

وهذا كلام عزيز لا يفهمه إلا أربَابه ، ولا يعلم كنهه إلا أصحابه .

١٢٥ – فصل : الحزم أولى

تراعَنْتُ [١] على نفسى فى طلبها شيئًا من أغراضها بتأويل فاسد ، فقلت لها : بالله عليك تصبَّرى . فإن فى المَعْبَر شغلاً يحذر الغرق من كثرة الموْج عن التنزه فى عجائب البحر . إذا هممت بفعل فقدّرى حصوله ، ثم تلمَّحى عواقبه وما تجْتَنِين من ثمراته ، فأقل ذلك النَّدَمُ على ما فعلْتِ ، ولا يؤْمَنُ أن يثمر غَضَبَ الحقِّ – عَزَّ وَجَلَّ – وإعراضَهُ عنك ، فَأُفٌّ للقاطع عنه ولو كان الجنة .

ثم اعلمى أيتُها النفس أنه ما يَمْضِى شىء جُزَافًا ، وأن ميزان العدل تَبِين فيه الذَّرَّة فتلمحى الأموات والأحياء ، وانْظرى إلى من نشر ذكره بالخير والشر ، وزيَادة ذلك ونقصانه ، فسُبْحَان من أظهر دليل الخَلَوات على أربابها ، حتى أنّ حبَّات القلوب تتعلّق بأهل الخير ، وتنفِر من أهل الشر ، من غير مطالعة لشىء من أعمال الكُلِّ ، قال إبليس: أو تترك مرادك لأجل الخلق ؟ قلت : لا ، إنما هذا بعض الثمرات الحاصلة لا عن طريق الغَرَض ، ونحن نرى من يَمْشِى ثلاثين فرسخًا ليقال : ساع، فالمتقى قد نال شرف الذكر وإن لم يقصد نيل ذلك ، مترجّحًا له فى وزن الجزاء : ﴿**سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ [٢] . قالت النفس : لقد أمرْتنى بالصبر على العَذَاب ؛ لأن ترك الأغراض عذاب ، قلت : لك عن الغَرض عوَض ، ومن كل متروك بدَل ، وأنت فى مقام مستعبد ، ولا يصح للأجير أن يلبس ثِيَاب الراحة فى زمان الاستئجَار ، وكل زمان المتقى نَهَار صوم ، ومن خاف العقَاب ترك المشْتَهى ، ومن رام [٣] القرب استعمل الورَع، وللصبر حلاوة تَبِين فى العواقب .

١٢٦ – فصل : البعد عن أسباب الفتنة

من نازعته نفسه إلى لذة محرَّمة ، فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقَابها ، وسمع هتاف العقل يناديه : ويحك لا تَفْعل ! فإنك تقف عن الصُّعود وتأخذ فى الهبوط، ويقال لك : ابق بما اخترت فإن شغله هواه فلم يَلْتفت إلى ما قيل له ، لم يزَل فى نزول، وكان مثله فى سوءِ اختياره كالمَثَل المضروب : أن الكلب قال للأسد : يا سيد

(١) الرعونة : الحمق . (٢) سورة مريم ، آية : ٩٦ . (٣) رام : طلب .

السِّباع ، غيِّر اسمى فإنه قبيح ، فقال له أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم.
قال فجربنى ، فأعطاه شقة لحم وقال : احفَظ لى هذا إلى غد ، وأنا أغيِّر اسمك ، فجاع وجعل ينظر إلى اللَّحم ويصبِر ، فلما غلبته نفسه قال : وأىُّ شىء باسْمى ، وما كلب إلا اسم حسن فأكل .

وهكذا الخَسِيس الهمة، القَنُوع بأقل المنازل ، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل

فاللهَ اللهَ فى حريق الهوى إذَا ثار ، وانظر كيف تطفئه ، فرب زَلَّة أوقعت فى بئر بَوَار، ورب أثَرٍ لم ينقلع ، والفائت لا يُسْتَدْرَكُ على الحقيقَة ، فابْعَدْ عن أسباب الفتنة ، فإن المقاربة محنة لا يكاد صاحبها يَسْلم ، والسلام .

١٢٧ - فصل : فى حرب الشيطان

رأيت الخَلْق كلهم فى صف محاربة ، والشياطين يرمُونهم بنبل الهوى ، ويضربونهم بأسياف اللذة ، فأما المخَلِّطون فصرعى من أوّل وقت اللقاء ، وأما المتَّقون ففى جهد جَهِيد، من المجاهدة فلابُدَّ مع طول الوقوف فى المحَاربة من جرَاحٍ فهم يُجرَحون ويداوُون، إلّا أنهم من القتل محفوظون ، بلى ! إن الجراحة فى الوجه شين [(١)] باق فليحْذَر ذلك .

١٢٨ - فصل : الدنيا فخ فاحذر الوقوع

الدنيا فخٌ ، والجاهل بأول نظرة يقع ، فأما العاقل المتقى فهو يُصَابر المجاعة ، ويدور حول الحَبِّ ، والسلامة بعيدة ، فكم من صابر اجتهد سنين ثم فى آخر الأمر وَقَع ، فالحذَر الحذَر ، فقد رأينا من كان على سنَن الصواب ، ثم زَلَّ على شفير القبر .

١٢٩ - فصل : آثار الذنوب

اعلموا إخوانى ومن يقبل نصيحتى ، أن للذنوب تأثيرات قَبِيحة ، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافًا مضاعفَة ، والمُجَازى بالمرْصَاد لا يسبقه شىء ولا يفُوته ، أو ليس يُرْوى فى التفسير : أن كل واحد من أوْلاد يعقوب - عليهم السلام - وكانوا اثنى عشر - وُلد له اثنا عشر ولدًا ، إلا يُوسف فإنه ولد له أحد عشر ، وجوزى بتلك الهَمَّة فنقَصَ ولدًا .

فوا أسفًا لمضْروب بالسياط ما يحسّ بالألم ، ولمُثخن بالجراح وما عنده من نفسه خبرٌ، ولمتقلب فى عقُوبات ما يدرى بها ، ولعَمْرى إن أعظم العقوبة أن لا يدرى بالعقُوبة ، فوا عَجَبًا للمغالط نفسه يُرْضى ربه بطاعة ، ويقول حَسَنة وسيئة ، ويحك من كيسك

---

(١) الشين : العيب

تنفق ، ومن بضاعتك تهدّم . ووجه جاهك تشين ، رب جراحة قتلت ، ورب عثرة أهلكت ، ورب فارط لا يستدرك ، ويحك انتبه لنفسك ، ما الذى تنتظر بأوبتك ؟ وماذا ترقّب بتوبتك المشيب ؟ فها هو ذا أوهن العظم ، وهل بعد رحيل الأهل والأولاد والأقارب إلا اللحاق

قدِّر أن ما تؤمله من الدنيا قد حصّل ، فكان ماذا ؟ ما هو عاجل فشغلك عاجلاً ، ثم آخر جرعة اللذة شَرْقة ، إما أن تفارق محبُوبك أو يفارقك ، فيا لها جَرعة مريرة تودُّ عندها أن لو لم تره .

آه لمحجُوب العقل عن التأمل ، ولمصدُود عن الورُود ، وهو يرى المنْهَل [١] ، أما فى هذه القبور نَذيرٌ ، أما فى كرُور الزمان زاجر ؟ أين من ملك وبلغ المُنَى فيما أمل ؟! نَادهم فى ناديهم ، هيهات صمّوا عن مُنَاديهم ، فلو أن ما بهم بالموت ، إنما هنيهة ثم القبور ، العمل حصل يا معدومًا بالأمس ، يا متلاشى الأشلاء فى الغد ، بأى وَجْه تلقى ربك ، أيساوى ما تناله من الهَوَى لفظَ عتاب ؟

بالله إن الرحمة بعد المعَاتَبة ، ربما لم تستَوْف قلع البَغْضَة من صَميم القلب ، فكيف إن أعقب العتاب عقابٌ ، وقد أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القَزَّاز ، قال : أخبرنا أبو بكر الخطيب ، قال : أخبرنا محمد بن الحسين المعدل ، قال : أخبرنا أبو الفضل الزهرى ، قال : أخبرنا أحمد بن محمد الزعفرانى ، قال : حدثنا أبو العباس بن واصل المقرئ ، قال : سمعت محمد بن عبد الرحمن الصيرفى ، قال : رأى جارٌ لنا يحيى بن أكثم بعد موته فى منامه ، فقال : ما فَعَلَ بك ربك ؟ فقال : وقَفْت بين يديه فقال لى : سوءة لك يا شيخ ، فقلت : يا رب : إن رَسُولك قال : إنك لتستحى من أبناء الثمانين أن تَعذِّبهم [٢] ، وأنا ابن ثمانين أسير الله فى الأرض ، فقال لى : صدق رسولى قد عَفَوْت عنك ، وفى رواية أخرى عن محمد بن سلم الخواص ، قال : رأيت يَحْيى بن أكثم [٣] فى المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوْقَفَنى بين يديه وقال لى : يا شيخ السُّوء ، لولا شَيْبَتُكَ ، لأحرقتك بالنَّار .

---

(١) المنهل : مورد الماء .

(٢) بنحوه رواه أحمد (٢/ ٨٩) ، وأبو يعلى كما فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٥) ، وقال الهيثمى ضعيف

(٣) هو يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمى المروزى أبو محمد القاضى المشهور توفى سنة (٢٤٢ هـ) أو سنة (٢٤٣ هـ)

والمقصود من هذا النظر بعين الاعتبار ، هل يفى هذا بدخول الجنة فضلاً عن لذات الدنيا ، فنسأل الله - عزَّ وجلَّ - أن ينبهنا من رقدات الغافلين ، وأن يرينا الأشياء كما هى ؛ لنعرف عيوب الذنوب والله الموفق .

١٣٠ - فصل : التقوى هى المخرج من كل غم

ضاق بى أمرٌ أوجب غمًا لازمًا دائمًا ، وأخذت أبالغ فى الفكر فى الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه ، فما رأيت طريقًا للخلاص ، فعرضت لى هذه الآية : ﴿ومَنْ يتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (١) فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم ، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج .

فلا ينبغى لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا فى طاعة الله - تعالى - وامتثال أمره ، فإن ذلك سبب لفتح كل مُرْتَجٍ (٢) ، ثم أعجبه أن يكون من حيث لم يقدّره المتفكر المحتال المدبر ؛ كما قال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (٣) ، ثم ينبغى للمتقى أن يعلم أن الله - عزَّ وجلَّ - كافيه ، فلا يعلق قلبه بالأسباب ، فقد قال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ومَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٤) .

١٣١ - فصل : الإبطاء فى إجابة الدعاء

من العجب إلحاحك فى طلب أغراضك ، وكلما زاد تعويقها (٥) زاد إلحاحك ، وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين : إما لمصلحتك فربما معجل أذى ، وإما لذنوبك ، فإن صاحب الذنوب بعيدٌ من الإجابة ، فنظف طرق الإجابة من أوساخ المعاصى ، وانظر فيما تطلبه هل هو لإصلاح دينك ، أو لمجرد هواك ، فإن كان للهوى المجرد ، فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك ، تعويقه ، وأنت فى إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه، فيمنع رفقًا به ، وإن كان لصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيره ، أو كان صلاح الدين بعدمه .

وفى الجملة تدبير الحق - عزَّ وجلَّ - لك خير من تدبيرك ، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء ليبلو صبرك ، فأره الصبر الجميل ترى عن قرب ما يسر ، ومتى نظفت طرق الإجابة من أدران الذنوب ، وصبرت على ما يقضيه لك ، فكلُّ ما يجرى أصلح لك ، عطاء كان أو منعًا .

---

(١) سورة الطلاق ، آية : ٢
(٢) مرتج : مغلق
(٣ ، ٤) سورة الطلاق ، آية : ٣ .
(٥) تعويقها : تأخيرها

١٣٢ - فصل : الاستعداد للموت

يجب على من لا يدرى متى يبغته الموتُ أن يكون مستعدا ، ولا يغترر بالشباب والصحة ؛ فإن أقل من يموت الأشياخ ، وأكثر من يموت الشبان ؛ ولهذا يندر من يَكْبَرُ؛ وقد أنشدوا :

يُعَمَّرُ وَاحِـــدٌ فَيَغُـــرُّ قَوْمًا   وَيَنْسى مَنْ يَمُوتُ مِنَ الشَّبَابِ

ومن الاغترار طول الأمل ، وما من آفة أعظَم منه ؛ فإنه لولا طول الأمل ، ما وقع إهمال أصلاً ، وإنما يقدم المعاصى ، ويؤخر التوبة ؛ لطول الأمل وتبادر الشهوات ، وتنسى الإنَابة لطول الأمل ، وإن لم تستطع قصر الأمل ، فاعمل عمل قصير الأمل ، ولا تُمْسِ حتى تنظر فيما مضى من يومك ، فإن رأيت زلَّة ، فامحها بتوبة ، أو خرقًا فارقعه باستغفار ، وإذا أصبحت ، فتأمل ما مضى فى ليلك ، وإياك والتسويف ؛ فإنه أكبر جنود إبليس :

وَخُذْ لَكَ مِنْكَ عَلَى مُهْـلَةٍ   وَمُقْبِلُ عَيْشِـــكَ لَمْ يُدْبِرِ
وَخَفْ هَجْمَةَ لا تُقِيلُ الْعِثَارَ   وَتَطْوِى الْوُرُودَ عَلَى الْمَصْدَرِ
وَمَثِّلْ لِنَفْسِـــكَ أَىُّ الرَّعِيلِ   يَضُمُّكَ فى حَلْبَةِ الْمَحْـــشَرِ

ثم صور لنفسك قصَر العمر ، وكثرة الأشغال ، وقوة الندم على التفريط عند المَوْت ، وطول الحسرة على البِدَار بعد الفوت ، وصور ثواب الكاملين وأنت ناقص ، والمجتهدين وأنت متكاسل ، ولا تخْلِ نفسك من موعظة تسمعها ، وفكرة تحادثها بها ، فإن النفس كالفرس المتشيْطن [(١)] ، إن أهملت لجامه ، لم تأمن أن يرمى بك ، وقد والله دنَّستك أهواؤك، وضيعت عمْرك ، فالبِدَارَ البدارَ فى الصيانة ، قبل تلف الباقى بالصَّبَابة [(٢)] ، فكم تعرقل فى فخ الهوى جناح حازم ، وكم وقع فى بئر بوار مخمور ولا حول ولا قوة إلا بالله .

١٣٣ - فصل : عاقبة المعصية

الحذرَ الحذر من المعاصى ؛ فإن عواقبها سيئة ، وكم من معصية لايزال صاحبُها فى هبوط أبدًا مع تعثير أقدامه ، وشدَّة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا ، وحسْرة لمن نالها ، فلو قارب زمان جزائه على قبيحه الذى ارتكبه ، كان اعتراضه على القَدَر فى فوات أغراضه يعيد العذاب جديدًا

(١) أى المتمرد   (٢) الصبابة . رقة الهوى أو رقة الشوق كما فى القاموس .

فوا أسفًا لمعاقب لا يحِسُّ بعقوبته ، وآه من عقاب يتأخر حتى ينْسى سببه ، أو ليس ابن سيرين يقول : عيَّرت رجلاً بالفقر ، فافتقرت بعد أربعين سنة ، وابن الخلال يقول: نظرت إلى شابٍّ مستحسن ، فنسيت القرآن بعد أربعين سنة .

فواحسرةً لمعاقب لا يدري أن أعظم العقوبة عدم الإحساس بها ، فاللهَ اللهَ فى تجويد التوبة عساها تكُفُّ كفّ الجزاء ، والحذر الحذر من الذُّنوب خصوصًا ذنوب الخَلَوات؛ فإن المبارزة لله - تعالى - تُسْقط العَبْد من عينه ، وأصلحْ ما بينك وبينه فى السر وقد أصلَح لك أحوال العلانية ، ولا تغترِ بستره أيها العاصى ، فربما يجْذب عن عورَتك ، ولا بحلمه فربما بَغَت العقاب ، وعليك بالقلق واللّجأ إليه والتضرع ، فإن نفع شىء فذلك ، وتقوَّت بالحزن ، وتمزَّز [١] كأس الدمع ، واحفر بمعْوَل الأسى قليب [٢] قلب الهوى ؛ لعلك تنبط [٣] من الماء ما يغْسل جُرْم جُرْمك .

١٣٤ - فصل : بقدر إجلالك لله يجلك الله

إخوانى ، اسمعوا نصيحة من قد جرَّب وخبر ، إنه بقدر إجلالكم لله - عَزَّ وجَلَّ - يجلكم ، وبمقدار تعْظيم قدره واحترامه يعظم أقداركم وحرمتكم ، ولقد رأيت والله من أنفق عمره فى العلم إلى أن كبرت سنُّه ، ثم تعدَّى بعض الحدود فهان عند الخَلْق ، وكانوا لا يلتفتون إليه مع غَزارة علمه وقوة مجاهَدَته ، ولقد رأيت من كان يُرَاقب الله - عَزَّ وجَلَّ - فى صبْوَته [٤] ، مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم ، فعظَّم الله قدره فى القلوب حتى علقته النفوس ، ووصفتَه بما زيد على ما فيه من الخير ، ورأيت من كان يرى الاستقَامة إذا استقام ، فإذا زاغ مال عنه اللُّطف ، ولولا عموم الستر وشمُول رحمة الكريم ، لافتضح هؤلاء المذْكُورون ، غير أنه فى الأغلب تأديب أو تلطُّف فى العقاب ؛ كما قيل :

وَمَنْ كَانَ فِى سخطِهِ مُحْسِنًا ... فَكَـيْـفَ يَكُونُ إذَا مَا رَضِى

غير أن العدل لا يحابى ، وحاكم الجزاء لا يَجُور ، وما يضيع عند الأمين شىء

١٣٥ - فصل : ملازمة محراب الإنابة

أيها المذنب ، إذا أحهست نفحَات الجزاء ، فلا تكثرن الضَّجيج ، ولا تقولَنَّ : قد تبت وندمت فهلا زَال عنى من الجزاء ما أكره ، فلعل توبتك ما تحقَّقت ، وإن للمجازاة

---

(١) المز : المص .
(٢) قليب هو : البئر .
(٣) تنبط : تستخرج .
(٤) الصبوة : الشباب .

زمانًا يمتد امتدادَ المرض الطَّويل ، فلا تُنْجع [1] فيه الحيل حتى نقض أوانه ، وإن بين زمان: ﴿ وَعَصَى ﴾ إلى إبان : ﴿ فَتَلَقَّى ﴾ مدة مَديدة ، فاصبر أيها الخاطئ حتى يتخَلَّل ماء عينيك خلال ثوب القَلْب المتنَجِّس ، فإذا أعصرته كَفَّ الأسى ، ثم تكرّرت دُفع الغَسَلات حُكم بالطهارة ، بقى آدم يبْكى على زلّله ثلاثمائة سنة [2] ، ومكث أيُّوب - عليه السلام - فى بلائه ثمانيَة عشْرة سنة [3] ، وأقام يعقوبَ يَبْكى على يوسف - عليهما السلام - ثمانين سنة ، وللبَلايا أوقات ثم تنْصَرِم [4] ، ورب عقوبة امتدت إلى زمان المَوْت .

فاللازم لك أن تُلازم محراب الإنابة ، وتجلس جلسة المسْتَجْدى ، وتجعل طعامك القلق، وشرابك البكاء ، فربما قدم بشير القبول فارتد يعقوب الحزن بصيرًا ، وإن مت فى سجن سَجْنك ، فربما نَاب حزن الدنيا عن حزن الآخرة ، وفى ذلك ربْح عظيم .

١٣٦ - فصل : إطفاء نار الذنوب

الواجب على العَاقل أن يحذر مغبَّة المعاصى فإنّ نارها تحت الرَّماد ، وربما تأخرت العقوبة ، ثم فجأت ، وربما جاءت مسْتَعجلة ، فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماءَ يطفئ تلك النار إلا ما كان من عين العين ، لعل خصم الجزَاء يرضى قبل أن يَبُتّ الحاكم فى حكمه .

١٣٧ - فصل : محاسبة النفس

واعجبًا من عارف بالله - عَزَّ وجَلَّ - يخالفه ولو فى تلف نفسه ، هل العيش إلا معه؟ هل الدنيا والآخرة إلا له ؟ أفٍّ لمترخص فى فعل ما يكره لنيل ما يحب ، تالله لقد فاتَه أضعاف ما حصل ، أقْبل على ما أقوله ياذا الذّوق هل وقع لك تعْثير فى عيش ، وتخبط فى حال إلا حال مخالفته :

وَلا انْثَنَى عَزْمِىَ عَنْ بابـك   إلا تَعَـــثَّرْتُ بِأذْيَـــالِـى

---

(١) تنجع : تؤثر .

(٢) عن بريدة رفعه قال : « لو أن بكاء داود ﷺ وبكاء جميع أهل الأرض يعدل بكاء آدم ما عدله»، رواه الطبرانى فى الأوسط كما فى مجمع الزوائد (٨/ ١٩٨) ، وقال الهيثمى : رجاله ثقات .

(٣) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن نبى الله أيوب كان فى بلائه ثمانى عشرة سنة ... » وذكر حديثاً طويلاً رواه أبو يعلى والبزار كما فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٨) ، وقال الهيثمى : رجال البزار رجال الصحيح .

(٤) تنصرم : تنتهى .

أما سمعت تلك الحكاية عن بعض السّلف ؛ أنه قال : رأيت على سور بيروت شابا يذكر الله - تعالى - ، فقلت له : ألك حاجة ؟ فقال : إذا وقعت لى حاجة سألته إياها بقلبى فقَضَاها .

يا أرباب المعاملة ، بالله عليكم لا تكدِّروا [1] المشرب ، قفوا على باب المُرَاقبة وقوف الحُرَّاس ، وادفعوا ما لا يصلح أن يلجَ فيفسد ، واهْجُروا أغراضكم لتحصيل محبوب الحَبيب ؛ فإن أغراضكم تحصل ، على أننى أقول أفّ لمن ترك بقصد الجزاء أهذا شرط العبودية ؟ كلا ؛ إنما ينبغى لى إذا كنت مملوكًا أن أفعل ليُرضَى لا لأُعْطَى ، فإن كنت محبا رأيت قطع الآراب [2] فى رضاه وصلاً .

اقبل نصحى يا مخدوعا بغرضه إن ضعفت عن حمل بلائه فاستغث به . وإن آلمك كرب اختياره فإنك بين يديه، ولا تيْأس من رُوحه وإن قوى خنَاق البَلاء ، بالله إن موت الخادم فى الخدمة حسن عند العقلاء .

إخوانى لنفسى أقول ، فمن له شرب معى فليرد ، أيتها النفس ، لقد أعطاك ما لم تأملى ، وبلَّغك ما لم تطْلُبى ، وستر عليك من قبيحك ما لو فَاحَ ضجت المشَام [3] ، فما هذا الضَّجيج من فوات كَمال الأغراض ، أمملوكةٌ أنت أم حرة ؟ أما علمت أنك فى دار التكليف ، وهذا الخطاب ينبغى أن يكون للجُهَّال ، فأين دعواك المعرفة ، أتراه لو هبت نَفْحة ، فأخذت البصر كيف كانت تَطيبُ لك الدنيا .

واأسفًا عليك ، لقد عَشيت البصيرة التى هى أشرف ، وما علمت كم أقول : عَسَى ولعل ؟ وأنت فى الخطأ إلى قُدّام، قربت سفينة العمر من ساحل القَبْر ، ومالك فى المركب بضاعة تَرْبح ، تلاعبت فى بحر العمر ريح الضعف ففرّقت تلفيق القُوَى وكان قد فصلت المركب ، بلغْت نهاية الأجل وعين هواك تتلفَّت إلى الصبا ، بالله عليك لا تشْمتى بك الأعداء ، هذا أقلّ الأقسام ، وأوفى منها أن أقول : بالله عليك لا يفوتَنَّك قدم سابق مع قدرتك على قطع المضْمار ، الخلوةَ الخلوةَ واستحضرى قَرين العقل ، وجُولى فى حيرة الفكر ، واستدركى صَبَابة [4] الأجل قبل أن تميل بك الصبابة عن الصّواب ، واعَجَبًا كلما صعد العمر نزلت ، وكلما جَدّ الموت هزلت ، أتراك ممن ختم له بفتْنَة ، وقضيت عليه عند آخر عمره المحنة، كان أول عمرك خيرًا من الأخير ، كنت

(1) لا تكدروا : أى لا تعكروا .
(2) الآراب : الأعضاء .
(3) المشام : الأنوف لأنها هى التى تشم .
(4) صبابة الأجل : بقية الأجل .

فى زمن الشّباب أصلح منك فى زمن أيام المشيب ، ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ ﴾ [1] نسأل الله - عزَّ وجَلَّ - ما لاَ يَحْصل مطلوبنا إلا به ، وهو توفيقه إنه سميع مجيب .

١٣٨ - فصل : جزاء الاستعفاف لوجه الله

قَدَرْتُ فى بعض الأيام على شهوته للنفس ، هى عندها أحلى من الماء الزُّلال [2] فى فم الصَّادى [3] ، وقال التأويل : ما هَهُنا مانع ولا معوق إلا نوع ورع ، وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز ، فترددَّت بين الأمرين ، فمنعت النفس عن ذلك ، فَبقِيَت حيرتى لمنع ما هو الغاية فى غَرَضِها من غير صادٍّ عنه بحال ، إلا حذر المنع الشرعى ، فقلت لها: يا نفس، والله ما من سبيل إلى ما تودين ولا ما دونه ؟ فتقلقلت ، فصحْتُ بها : كم وافقتك فى مراد ذهبت لذته ، وبقى التأسُّف على فعله ، فقدِّرى بلوغ الغرض من هذا المراد ، أليس الندم يَبْقَى فى مجال اللذة أضعاف زمانها ؟ فقالت : كيف أصنع ؟

فقلت: صَبَرْتُ وَلا واللهِ مَا بِى جَلادَةٌ [4] عَلَى الْحُبِّ لكنِّى صَبَرْتُ عَلَى الرُّغْمِ وها أنا أنتظر من الله - عزَّ وجَلَّ - حُسن الجزاء على هذا الفعل ، وقد تركت باقى هذه الوجْهة البيضاء ، أرجو أن أرى حسن الجزاء على الصبر فأسطره فيه - إن شاء الله تعالى - فإنه قد يعجل جزَاء الصبر وقد يؤخَره ، فإن عجل سطرته ، وإن أخر فما أشك فى حُسْن الجزاء لمن خاف مَقَام ربه ، فإنه من ترك شيئًا لله ، عوّضه الله خيرًا منه ، والله إنى ما تركته إلا لله - تعالى - ، ويكفينى تركه ذَخيرة ، حتى لو قيل لى : أتذكر يومًا آثرت الله على هواك ؟ قلت : يوم كذا وكذا ، فافتَخِرى أيتها النفس بتوفيق من وفقك، فكم قد خُذِل سواك ، واحذرى أن تخذلى فى مثلها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وكان هذا فى سنة إحدى وستين وخَمْسُمائة ، فلما دخلت سنة خمس وستين ، عُوِّضت خيرًا من ذلك بما لا يُقَارب ، مما لا يمنع منه ورع ولا غيره .

فقلت : هذا جزاء التَّرك لأجل الله - سبحانه - فى الدنيا ، ولأجر الآخرة خيرٌ والحمد لله .

١٣٩ - فصل : عين التيقظ مفتوحة

لا أُنكر على من طلب لَذة الدنيا من طريق المُبَاح ؛ لأنه ليس كل أحد يقوى على

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٤٣ .
(٢) الزلال : العذب .
(٣) الصادى : العطشان .
(٤) الجلادة : القوة .

الترك، إنما المحنة من طلبها فلم يَجدْها ، أو أكثرها إلا من طريق الحرام ، فاجتهد فى تحصيلها ، ولم يبال كيف حصلت .

فهذه المحنة التى بُخِس العقل فيها حقه ، ولم ينتفع صاحبه بوجود ؛ لأنه لو وزن ما آثر عقابه ، طاشت كفة اللذة التى فَنيت عند أول ذرة من أجزائها ، وكم قد رأينا ممن آثر شهوته فسلبت دينه .

فليعجب العاقل حين التصفُّح لأحوالهم ، كيف آثروا شيئًا ما أقاموا معه ، وصاروا إلى عقاب لا يفارقهم ، فالله الله فى بَخْس العقول حقها ، ولينظر السالك أين يضع القدم ، فرب مستعجل وقع فى بئر بَوَار . ولتكن عين التيقظ مفتوحة فإنكم فى صف حرب لا يُدْرى فيه من أين يُتلقى النَّبل، فأعينوا أنفسكم ولا تُعينوا عليها .

١٤٠ - فصل : طاعة المتيقظ

الحق - عزَّ وجلَّ - أقرب إلى عبده من حبل الوَريد ، لكنه عامل العبد معاملة الغَائب عنه البعيد منه ، فأمر بقصد نيَّته ، ورفع اليدين إليه ، والسؤال له ، فقلوب الجُهَّال تستشعر البعد ؛ ولذلك تقع منهم المعاصى ، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر النَّاظر ، لكفُّوا الأكف عن الخَطَايا .

والمتيقظون علمُوا قربه فحضرتهم المراقبة وكَفَّتهم عن الانبساط، ولولا نوع تغطية على عين المُرَاقبة الحقيقية لما انْبَسَطت كفٌ بأكل ، ولا قدرت عين على نَظَر ، ومن هذا الجِنْس: « إنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِى » [1] .

ومتى تحققت المراقبة حصل الأُنس ، وإنما يقع الأُنس بتحقيق الطاعة ؛ لأن المخالفة توجب الوحشة ، والموافقة مبسطة المستأنسين ، فيا لَلَذّة عيش المسْتأنسين ، ويا خسارة المستَوحشين ، وليست الطاعة كما يظن أكثر الجهال أنها فى مجرد الصَّلاة والصيام ، إنما الطاعة الموافقة بامتثال الأمْر واجتناب النَّهى ، هذا هو الأصل والقاعدة الكلية ، فكم من متعبِّد بعيد ؛ لأنه مضيع الأصل وهادم القواعد بمخالفة الأمر وارتكاب النهى ، وإنما المحقق من أمْسك ذُؤَابَة [2] ميزان المحاسبة للنفس ، فأدّى ما عليه ، واجتنب ما نُهى عنه؛ فإن رُزق زيادة ، تنفل ، وإلا لم يضره والسلام .

١٤١ - فصل : التجمل المستحب

الدنيا فى الجملة معْبَر ، فينبغى للإنسان ألا ينافس بلذّاتها ، وأن يعبر الأيام بها ،

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٢) . (٢) ذؤابة : أعلى الشىء .

فإنه لو تفكر فى كيفية الذَّبائح ووسَخ من يباشرها، وعمل الكامخ[1] وغيرها من المأكولات، ما طابت له ، ولو تفكّر فى جولان اللقمة مختلطة بالرِّيق ما قدر على إساغَتها.

والمرء لا يخلو من حالَيْن : إمّا أن يريد التنعم باللذات المباحات ، أو يريد دفع الوقت بالضَّرورات ، وأيهما طلب فلا ينبغى له أن يبحث فيما ينالُه عن باطنه ، فإنه لو نظر إلى عورة الزَّوجة، نبا عنها [2] ، وقد قالت عائشة - رضى الله عنها - : ما رأيته من رَسُول الله - ﷺ - ولا رآه منى [3] .

فينبغى للعاقل أن يكون له وقت معْلوم يأمر زوجته بالتَّصنع له فيه ، ثم يغمض عن التَّفتيش ليطيب له عَيْشه . وينْبغى لها أن تتفقد من نفسها هذا ، فلا تحْضره إلا على أحسن حال ، وبمثل هذا يدُوم العيش ، فأما إذا حصلت البِذْلَة [4] ، بانت بها العيوب ، فَنَبَت النفس وطلبت الاستبدال ، ثم يقع فى الثانية مثل ما يقع فى الأُولى .

وكذلك يَنْبَغى أن يتصنع لها كتصنعها له ؛ ليدوم الود بحسن الائتلاف ، ومتى لم يجْز الأمر على هذا ، فى حق من له أنفة من شىء تنبو عنه النفس ، وقع فى أحد أمرين: إما الإعراض عنها ، وإما الاستبدال بها ، ويحتاج فى حالة الإعراض إلى صبر عن أغراضه ، وفى حالة الاستبدال إلى فضل مُؤْنة وكلاهما يؤذى ، ومتى لم يستعمل ما وصَفْنا ، لم يطب له عيش فى متعة ، ولم يقدر على دفع الزمان كما ينبغى .

١٤٢ - فصل : عظمة المنعم

نازَعَتْنى نفسى إلى أمر مكروه فى الشّرع ، وجعلت تنْصب لى التأويلات وتدْفع الكراهة ، وكانت تأويلاتُها فاسدة ، والحجة ظاهرة على الكرَاهة ، فلجأت إلى الله - تعالى - فى دفع ذلك عن قَلْبى ، وأقبلت على القرَاءة ، وكان دَرْسى قد بلغ إلى سورة يوسف ، فافْتَتَحْتها وذلك الخاطر قد شغل قلبى حتى لا أدْرى ما أقرأ ، فلما بلغت إلى قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ مَعَاذَ الله إنَّهُ ربى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ [5] ، انتبهت لها . وكأنى خُوطِبت بها ، فأفقت من تلك السكَرة ، فقلت : يا نفس ، أفهمت ؟

هذا حُر بيع ظلمًا فراعى حق من أحسن إليه ، وسماه مالكًا وإن لم يكن عليه ملك ، فقال : إنه ربى ، ثم زاد فى بيان مُوجب كَفّ كفه عما يؤذيه ، فقال : ﴿ أَحْسَنَ

---

(١) الكامخ : الإدام كما فى القاموس
(٢) نبا : تباعد .
(٣) رواه ابن ماجة فى الطهارة (٦٦٢) ، وفى الزوائد إسناده ضعيف عن عائشة ، ورواه أحمد (٦/٦٣) ، والترمذى فى الشمائل (٣٦٦)
(٤) البذلة : بكسر الباء : الثوب الخلق
(٥) سورة يوسف : ٢٣ .

مثواى ﴾ ، فكيف بك وأنت عبد على الحقيقة لمولًى ما زال يُحْسن إليك من ساعة وجُودك، وإن سَتْره عليك الزّلل أكثر من عدد الحَصَا .

أفما تذكرين كيف ربَّاك وعلّمك ، ورزقك ودافع عنك، وساق الخير إليك ، وهداك أقوم طريق ، ونجّاك من كل كيد ، وضمَّ إلى حسن الصورة الظاهرة جودة الذّهن الباطن، وسهّل لك مدارك العلوم ؛ حتى نلت فى قصير الزمان ما لم ينله غيرك فى طويله ، وجلى فى عرْصة لسانك عرَائس العلوم فى حُلل الفصاحة ، بعد أن ستر عن الخلق مقَابحك ، فتلَقّوها منك بحسن الظن ، وساق رِزْقك بلا كُلْفَة تكلف ولا كدر مَنّ [1] ، رغدًا غير نَزْر [2] .

فوالله ما أدرى أى نعمة عليك أشرح لك، حُسْن الصورة وصحّة الآلات ، أم سلامة المزَاج واعتدال الترّكيب ، أم لطف الطبع الخَالى عن خَسَاسة ، أم إلهام الرشاد منذ الصغر ، أم الحفظ بحسن الوِقَاية عن الفواحش والزّلل، أم تحبب طريق النقل واتباع الأثر من غير جمود على تقليد لمعظم ، ولا انخراط فى سلك مُبْتَدع : ﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [3] .

كم كائد نصب لك المكايد فوقّاك ! كم عدُو حطَّ منك بالذّم فرَقاك ! كم أعْطَش من شراب الأماني خلقًا وسقاك ! كم أمَات من لم يبلغ بَعْض مرادك وأبقاك ! فأنتِ تصبحين وتُمْسين سليمة البدن ، محْروسة الدين ، فى تزيّد من العلم وبُلوغ الأمل ، فإن مُنعت مرادًا فَرزقت الصبر عنه ، بعد أن تبين لك وجه الحكْمَة فى المنع ، حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح ، ولو ذهبت أعد من هذه النعم ما سنح ذكره امتلأت الطُّروس [4] ولم تنقطع الكتابة ، وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر ، وأنَّ ما أومأت إلى ذكره لم يشرح ، فكيف يحسن بك التعرض بما يكرهه: ﴿ **مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [5] .

١٤٣ - فصل : تجنب الشبهات

ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة ، وقلَّ أن يقاربها إلا من يقع فيها ، ومن حام حولى الحمَى يوشك أن يقع فيه [6] .

---

(١) المن : القطع .
(٢) النزر : القليل .
(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤ ، وسورة النحل ، آية : ١٨ .
(٤) الطروس : الصحائف .
(٥) سورة يوسف ، آية : ٢٣ .
(٦) إشارة إلى حديث النعمان بن بشير الذى رواه البخارى فى الإيمان (٥٢) ، ومسلم فى المساقاة (١٥٩٩) .

قال بعض المعتبرين : قدرت مرة على لذَّة ظاهرها التحريم وتحتمل الإباحة ؛ إذ الأمر فيها مردّد ، فجاهدت النفس فقالت : أنت ما تقدر فلهذا تترك ، فقارب المقدور عليه ، فإذا تمكنت فتركت ، كنت تاركًا حقيقة ، ففعلت وتركت ، ثم عاودت مرة أخرى فى تأويل أرتنى فيه الجواز وإن كان الأمر يحتمل ، فلما وافقتها أثر ذلك ظلمة فى قلبى ؛ لخوف أن يكون الأمر محرّمًا ، فرأيت أنها تارة تقوى علىّ بالترّخص والتأويل ، وتارة أقوَى عليها بالمجاهدة والامتناع ، فإذا ترخصت ، لم آمن أن يكون ذلك الأمر محظورًا ، ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل فى القلب ، فلما لم آمن عليها بالتأويل ، تفكَّرت فى قطع طمعها من ذلك الأمر المؤثر ، فلم أر ذلك إلا بأن قلت لها : قدِّرى أن هذا الأمر مباح قطعًا ، فوالله الذى لا إله إلا هو لا عدت إليه ، فانقطع طمعُها باليمين والمعَاهَدة ، وهذا أبلغ دواء وجدته فى امتناعها ؛ لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتكفير ، فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن ، وترك الرُّخَص فيما يجُوز إذا كان حاملاً ومؤدّيًا إلى ما لا يجُوز ، والله الموفق .

١٤٤ – فصل : عدم مقاربة الفتنة سلامة

لولا غيْبَة العاصى فى وقت المعاصى ، كان كالمعاند ، غير أن الهوى يحُول بينه وبين الفهم للحال ، فلا يرى إلا قضاء شهوته ، وإلا فلو لاحت له المخالفة ، خرج من الدين بالخلاف ، فإنما يقصد هواه فيقع الخلاف ضِمنًا وتَبعًا ، وأكثر ما يقع هذا فى مقاربة الفتنة؛ وقلَّ من يسلم عند المقَارَبة ؛ لأنه كتقديم نار إلى حَلْفا ، ثم لو ميَّز العاقل بين قضاء وطره لحظة وانقضاء باقى العمر بالحَسْرة على قضاء ذلك الوَطَر ، لما قرب منه ولو أُعْطى الدنيا ، غير أنَ سكرة الهوى تحُول بين الفكر وذلك .

آه كم من معصية مضت فى ساعتها كأنَّها لم تكن ، ثم بقيت آثارها ، وأقلها ما لا يبرح من المرارة فى النّدم ، والطريق الأعظم فى الحذر أن لا يتعرض لسبب فتْنَة ولا يقاربُه ، فمن فهم هذا وبالغ فى الاحتراز ، كان إلى السلامة أقرب .

١٤٥ – فصل : البلاء على مقادير الرجال

البلايا على مقادير الرِّجال [1] ، فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عنْدهم من دين ودنيا ، وأولئك قوم لم يُرادُوا لمقامات الصبر الرّفيعة ، أو عَلمَ ضَعْفَهُم عن مقاومة

(١) إشارة إلى حديث سعد بن أبى وقاص الذى قال فيه : يا رسول الله أى الناس أشد بلاء قال ﷺ « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه » رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٩٨) ، وأحمد (١/ ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٥) .

البَلاء، فلَطَفَ بهم ، إنما المحنة العظمى أن ترزق همةً عاليةً ، لا تقنع منك إلا بتحقيق الْوَرَع وتجويد الدين ، وكمال العلم ، ثم تبتلى بنفس تَميل إلى المباحات ، وتدَّعى أنها تجمع بذلك هَمَّها ، وتَشْفى مرضها ؛ لتقبل مزاحمة العلَّة على تحصيل الفَضَائل ، وهاتان الحالتان كضِدَّيْن ؛ لأن الدنيا والآخرة ضَرَّتَان .

واللازم فى هذا المقام مراعاة الواجبَات ، وألا يُفْسحَ للنفس فى مباح لا يؤْمَنُ أن يتعدَّى منه إعراض عن واجب وَرَع .

المبتلى يصيح، فَلأَنْ يَبْكىَ الطفلُ خير من أن يَبْكىَ الوالد ، واعلم أن فتح باب المباحات ربَّما جرَّ أذى كثيرًا فى الدِّين ، فاوثق السكر [1] قبل فَتْح الماء ، والبس الدِّرع قبل لقاء الحرب ، وتلمَّح عواقب ما تجْنى قبل تحريك اليد ، واستظهر فى الحذر باجتناب ما يخَاف منه ، وإن لم يُتَيقن .

١٤٦ - فصل : استغلال وقتك فى الأنفس من العلوم

ينبغى لطالب العلم أن يكون جُلُّ همَّته مصروفًا إلى الحفظ والإعَادة ، فلو صحّ صرف الزمان إلى ذلك كان الأولى ، غير أن البدن مطية ، وإجهاد السير مظنة الانقطاع .

ولما كانت القُوَى تكلُّ فتحتاج إلى تجويد ، وكان النسخ والمطالعة والتَّصنيف لا بد منه، مع أن المُهم الحفظ ، وجب تقسيم الزَّمان على الأمرين ، فيكون الحفْظ فى طرفى النّهار وطرفى الليل ، ويوزع البَاقى بين عمل بالنَّسخ والمطَالَعة ، وبين راحة للبَدَن ، وأخذ لحظة .

ولا ينبغى أن يقع الغَبْن بين الشركاء ، فإنه متى أخذ أحدُهم فوق حقّه أثّر الغبن وبان أثره ، وإن النفس لتهرب إلى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الإعادة والتَّكرار؛ لأن ذلك أشهى وأخف عليها ، فليحذر الرَّاكب من إهمال الناقة ، ولا يجُوز له أن يحْمل عليها ما لا تُطيق ، ومع العدل والإنصاف يتأتى كل مَراد ، ومن انحرف عن الجادة ، طالت طريقه ، ومن طَوَى منازل فى منزل أوشك أن يفُوته ما جَدَّ لأجله، على أن الإنسان إلى التحريض أحوج ؛ لأن الفتور ألصق به من الجدّ .

وبعد فاللازم فى العَلْم طلب المهمّ ، فرب صاحب حديث حَفظ مثلاً لحديث : « مَنْ أَتَى الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ » [2] عشرين طريقًا، والحديث قد ثبَت من طريق واحد ، فشغله

(١) السكر : ما سد به النهر .

(٢) البخارى فى الجمعة (٨٧٧ ، ٨٩٤) ، ومسلم فى الجمعة (٨٤٤) .

ذلك عن معرفة آداب الغسل ، والعمر أقصر وأنفس من أن يفرط منه فى نفس ، وكفى بالعقل مرشدًا إلى الصواب وبالله التوفيق

١٤٧ - فصل : صلاح السريرة أصل القبول

إذا صحّ قصد العالم ، استراح من كلف التكليف ؛ فإن كثيرًا من العلماء يأنفون من قول لا أدرى ، فيحفظون بالفتوى جاههم عند النَّاس ؛ لئلا يقال : جهلوا الجواب ، وإن كانوا على غير يقين ممَّا قالوا ، وهذا نهاية الخُذلان ، وقد رُوى عن مالك بن أنس : أنّ رجلاً سأله عن مسألة ، فقال : لا أدرى ، فقال : سافرت البُلْدان إليك ، فقال : ارجع إلى بلدك وقل : سألت مالكًا فقال : لا أدرى ، فانظر إلى دين هذا الشخص وعقله كيف استراح من الكُلْفة ! وسلم عند الله - عزَّ وجَلَّ - ، ثم إن كان المقصود الجاه عندهم ، فقلوبهم بيد غيرهم ، والله لقد رأيت من يُكْثر الصلاة والصوم والصمت ، ويتخشع فى نَفْسه ولباسه والقُلُوب تنبُو عنه ، وقدره فى النفوس ليس بذَاك ، ورأيت من يلْبسُ فاخر الثياب وليس له كبير نَفْل ولا تخشع والقلوب تتهافت على محبَّته ، فتدبرت السبب فوجدته السَّريرة ؛ كما روى عن أنس بن مالك ؛ أنه لم يكن له كَبير عمل من صلاة وصوم ، وإنما كانت له سريرة ، فمن أصْلح سريرته ، فاح عبير فَضْله ، وعَبَقت[1] القلوب بنشر طيبه ، فاللهَ اللهَ فى السَّرائر ؛ فإنه ما ينفع مع فَسَادها صلاحٌ ظاهر .

١٤٨ - فصل : المعاصى تسد طريق الإجابة

نزلت فىّ شدة ، وأكثرت من الدعاء أطلب الفرج والراحة ، وتأخرت الإجابة ، فانزعجت النفس وقلقَت ، فصحْت بها : ويلك ، تأمّلى أمرك ، أمملوكة أنت أم حُرَّة مالكة ؟ أمدبَّرة أنت أم مدبِّرة ؟ أما علمت أن الدُّنيا دار ابتلاء واختبار ، فإذا طلبت أغراضك ولم تصبرى على ما ينافى مرادك . فأين الابتلاء ، وهل الابتلاء إلا الإعراض وعكس المقاصد

فافهمى معنى التكليف وقد هَان عليك ما عزَّ ، وسهل ما استصعب ، فلما تدبّرت ما قلتُه ، سكنت بعض السكون ، فقلت لها : وعندى جواب ثان ؛ وهو أنك تقتضين الحق بأغراضك ، ولا تقتضين نَفْسَك بالواجب له وهذا عين الجهل ، وإنما كان ينبغى أن يكون الأمر بالعكس ؛ لأنك مملوكة والمملوك العاقل يُطَالب نفسه بأداء حق المالك ، ويعلم أنه لا يجب على المَالك تبليغه ما يهْوَى ، فسكنَتْ أكثر من ذلك السكون

---

(١) عبق : لزق ولصق كما فى القاموس

فقلت لها : وعندى جواب ثالث ؛ وهو أنك قد استبطأت الإجابة وأنت سددت طرُقها بالمعاصى ، فلوقد فتحت الطَّريق أسرعت ؛ كأنك ما علمت أن سبب الرَّاحة التقوى ، أو ما سمعت قوله - تعالى - : **﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ ﴾** (1) ، **﴿ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾** (2) أو ما فهمت أنَّ العكس بالعكس ؟ آه من سُكْر غفلة صار أقوى من كل سُكْرٍ فى وجه مياه المراد ، يمنعها من الوُصول إلى زرع الأمانى ، فعرفت النفس أنّ هذا حق فاطمأنت .

فقلت : وعندى جواب رَابع ؛ وهو أنَّك تطلبين ما لا تعلَمين عاقبته ، وربما كان فيه ضَرَرُك ، فمثلك كمثل طفل محمُوم يطلب الحلوى ، والمدبر لك أعلم بالمَصَالح ، كيف وقد قال الله : **﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم ﴾** (3) .

فلمَّا بان الصواب للنَّفس فى هذه الأجوبة ، زادت طمأنينَتُها ، فقلت لها : وعندى جَواب خَامس ؛ وهو أن هذا المطلوب ينقص من أجرك ، ويحطّ من مرتبتك ، فمنع الحق لك ما هذا سبيله ؛ عطاء منه لك ، ولو أنك طلبت ما يصلح آخرتك كان أولى لك ، فأولى لك أن تفهمى ما قد سرحْت ، فقالَتْ : لقَدْ سرَحْتُ فى رِياض ما شرَحْتَ، فَهِمْتُ إذ فَهِمْتُ .

١٤٩ - فصل : الغنى فضل للعلماء

حضرنا بعض أغذية أرباب الأموال ، فرأيت العلماء أذلَّ الناس عندهم ؛ فالعلماء يتواضَعُون لهم ويذلُّون لموضع طَمعهم فيه ، وهم لا يحْفَلُون بهم ، لما يعلمونه من احتياجهم إليهم ، فرأيت هذا عيبًا فى الفريقين :

أما فى أهل الدنيا فوجْه العتب أنهم كانوا ينْبَغِى لهم تعظيم العلْم ، ولكن لجهلهم بقدْره ، فاتهم وآثروا عليه كَسْب الأموال، فلا ينبغى أن يطلب منْهم تعظيم ما لا يَعرفون ولا يعلمون قَدْره ، وإنما أعود باللَّوم على العلماء وأقول : ينبغى لكم أن تصُونوا أنْفُسكم التى شرُفت بالعلم عن الذل للأنْذَال (4) ، وإن كنتم فى غنًى عنهم ، كان الذل لهم والطلب منهم حرامًا عليكم ، وإن كنتم فى كَفَاف فَلِمَ لَمْ تؤثروا التنزه عن الذل بالعفّة عن الحطام الفَانى الحاصِل بالذلة ؟ إلا أنه يتخيل لى من هذا الأمر ، أنى علمت قلة صبر النفس على الكَفَاف والعُزُوف عن الفضول ، فإن وُجد ذلك منها فى وَقْت لم يوجَد على

---

(1) سورة الطلاق ، آية : ٢ ، ٣ .

(2) سورة الطلاق ، آية : ٤ .

(3) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .

(4) الأنذال : جمع نذل وهو الخسيس .

الدوام ، فالأولى للعالم أن يجتهد فى طلب الغنَى ، ويبالغ فى الكسب وإن ضاع بذلك عليه كثير من زمان طلب العلم ، فإنه يصُون بعَرَضه عِرْضه ، وقد كان سعيد بن المسيِّب يَتَّجِرُ فى الزيت وخلف مالاً ، وخلف سفيان الثورى مالاً ، وقال : لَوْلاك لتمندلوا بى[1]، وقد سبق فى كتابى هذا فى بعض الفُصُول شرف المال ، ومن كان من الصَّحابة والعلماء يقْتَنيه ، والسر فى فعلهم ذلك ، وحَثِّى طالبى العلم على ذلك ما بينته من أنَّ النفس لا تَثْبُت على التعفُّف ، ولا تصبر على دوام التزَهُّد .

وكم قد رأيْنَا من شخص قويَت عزيمته على طَلَب الآخرة فأخرج ما فى يده ، ثم ضُعَفت فعاد يكتسب من أقبح وجْه ، فالأولى ادخار المال والاستغناء عن الناس ، ويخرج الطَّمع من القلب ، ويصفُو نشر العلم من شائبة ميل ، ومن تأمل أخبار الأخيار من الأحبار ، وجدهم على هذه الطَّريقة ، وإنما سلك طريق الترفه عن الكَسْب من لم يؤثر عنده بذْل الدّين والوجه ، فطلب الراحة ونَسى أنه فى المعنى عَنَاء ؛ كما فعل جماعة من جُهَّال المتصوفة فى إخراج ما فى أيْديهم وادِّعاء التوكل ، وما علموا أنّ الكسب لا يُنَافِى التوكل ، وإنما طلبوا طريق الرَّاحة ، وجعلوا التعرُّض للناس كسْبًا ، وهذه طريقة مركبة من شيئَيْن : أحدهما : قلة الأنَفَة على العرض . والثانى : قلة العلم .

١٥٠ - فصل : آثار موافقة الهوى

تأمّلتَ وقوع المعاصى من العُصَاة ، فوجدتهم لا يقْصُدون العصْيان ، وإنما يقصدون موافقة هوَاهم ، فوقع العصيان تبعًا ، فنظرت فى سبَب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المُخَالَفة ، فإذا به ملاحظتهم لكَرَم الخالق وفضله الزاخر ، ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته، ما انبسطت كفٌ بمخالفته ، فإنه ينبغى والله أن يحذر ممن أقل فعله تعميم الخلق بالموت ، حتى إلقاء الحيوان البهيم للذَّبْح ، وتعذيب الأطفال بالمرض ، وفقر العالم ، وغِنَى الجاهل .

فليعرض المقْدم على الذنوب على نفسه الحذَر ممن هذه صفَته ؛ فقد قال الله – تعالى – : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [2] ، وملاحظة أسباب الخوف أدنى إلى الأمن من ملاحظة أسْبَاب الرَّجاء ، فالخائف آخذ بالحَزْم ، والراجى متعلق بحبْل طمع ، وقد يُخْلف الظن .

١٥١ - فصل : عفة العالم من تمام دينه

رأيْت عموم أرْباب الأموال يستخدمون العلماء ويستذِلُّونهم بشىء يسير ، يعطونهم من

(١) يقصد أنهم جعلوه كالمنديل يمسحون فيه وسخهم . (٢) سورة آل عمران ، آية : ٢٨ .

زكاة أموالهم ، فإن كان لأحدهم ختمة قال : فلان ما حضر ، وإن مرض قال : فلان ما تردد ، وكل منّته عليه شيء نَزْر [1] يجب تسليمه إلى مثله ، وقد رضى العُلَماء بالذل فى ذلك لموضع الضرورة ، فرأيت أن هذا جهل من العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم، ودواؤه من جهتين :

إحداهما : القناعة باليسير ؛ كما قيل : من رضى بالخَلِّ والبَقْل ، لم يستعبده أحد

والثانى : صرْف بعض الزمان المصروف فى خدمة العلم إلى كسب الدنيا ، فإنه يكون سببًا لإعزاز العلم ، وذلك أفضل من صَرْف جميع الزمان فى طلب العِلْم مع احتمال هذا الذّل ، ومن تأمل ما تأملته وكانت له أنفة ، قدَّر قُوته واحتفظ بما معه ، أو سعى فى مكتسب يكفيه ، ومن لم يأنَفْ من مثل هذه الأشياء ، لم يحْظَ من العلم إلا بصورته دون مَعْناه .

١٥٢ – فصل : مدار الأمور كلها العقل

مدَار الأمر كله على العقل ؛ فإنه إذا تم العقل ، لم يعمل صاحبه إلا على أقوى دليل، وثمرة العقْل فهم الخِطَاب ، وتلمُّح المقصود من الأمر ، ومن فهم المَقْصُود وعمل على الدليل ، كان كالبَانى على أساس وثيق ، وإنى رأيت كثيرًا من الناس لا يعمَلُون على دليل ، بل كيف اتَّفق ، وربما كان دليلهم العَادَات ، وهذا أقبحُ شيء يكون ، ثم رأيت خلقًا كثيرًا لا يتَّبعون الدليل بطريق إثباته كاليهود والنصارى ؛ فإنهم يقلدون الآباء ولا ينْظُرون فيما جاء من الشَّرائع هل صحيح أم لا ؟ وكذلك يُثْبتُون الإلَه ولا يعرفون ما يجُوز عليه مما لا يجُوز ، فينسبون إليه الولد ، ويمنعون جواز تغْيِيره ما شَرَع .

وهؤلاء لم ينْظروا حق النظر لا فى إثبات الصانع وما يجُوز عليه ، ولا فى الدليل على صحة النّبوات ، فتقع أعمالهم ضائعة كالبَانى على رَمْل ، ومن هذا القبيل فى المعْنَى قوم يتعبّدون ويتزهدون وينْصبُون أبدانهم فى العلم بأحاديث باطلة ، ولا يسْألون عنها من يعْلم ، ومن الناس من يُثْبت الدليل ولا يفهم المقْصُود الذى دلّ عليه الدليل ، ومن هذا الجنس قوم سمعُوا ذم الدنيا فتزهّدوا وما فهِمُوا المقصود ، فظنُّوا أن الدنيا تذم لذاتها ، وأن النفس تجِبُ عداوتها ، فحمَلُوا على أنفسهم فوق ما يُطَاق ، وعذبُوها بكل نوع ، ومنعوها حظوظها ، جاهلين بقوله – عليه الصلاة والسلام – : « إنَّ لنَفْسكَ عَلَيْكَ حَقا»[2] ، وفيهم من أدَّته الحال إلى ترك الفرائض ، ونحول الجسم ، وضَعف القوى ،

---

(١) سبق تعريفها .　　　(٢) سبق تخريجه .

وكل ذلك لضعف الفهم للمقصُود والتلمّح للمراد ؛ كما روى عن داوُد الطائى أنه كان يترك ماءً فى دَن [1] تحت الأرض ، فيشرب منه وهو شديد الحَرّ ، وقال لسُفْيَان : إذا كنت تأكل اللذيذ الطيب، وتشرب الماء البارد المبرَّد ، فمتى تُحبُّ الموت والقدوم على الله .

وهذا جهْل بالمقصُود ؛ فإن شرب الماء الحارّ يورث أمراضًا فى البدَن ، ولا يحصل به الرِّى ، وما أمرنا بتعذيب أنفسنا على هذه الصورة ، بل بترك ما تدعو إليه مما نهى الله عنه ، وفى الحديث الصّحيح : « **أنَّ أبَا بَكْرٍ - رَضِىَ اللهُ عَنْهُ - لَمَّا حَلَبَ لَهُ الرَّاعِى فى طَرِيقِ الهِجْرَةِ ، صب المَاءَ عَلَى القَدحِ حتى بَرَدَ أسْفَلُهُ ، ثُمَّ سَقَى رَسُولَ الله - ﷺ -، وَفَرَشَ لَهُ فِى ظِلِّ صَخْرَةٍ** » [2] ، وكَانَ يَسْتَعْذبُ لرَسُول الله - ﷺ - المَاءَ ، وَقَالَ : «**إنْ كَانَ عِنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ فِى شَنٍّ وَإلا كَرَعْنَا** » [3] ولو فهم دَاوُدُ - رحمه الله - أنَّ إصلاح عَلَف الناقة متعيِّن لقطع المسافة ، لم يفعل هذا ، ألا ترى إلى سُفْيَان الثورى ، فإنه كان شديد المعرفة والخوف ، وكان يأكُل اللَّذيذ ، ويقول : إن الدابة إذا لم يُحْسن إليها لم تعمل . ولعل بَعْض من لم يسمع كلامى هذا يَقُول : هذا مَيْل على الزهاد ، فأقول : كن مع العلماء ، وانظر إلى طريق الحسن ، وسفيان ، ومالك ، وأبى حنيفة ، وأحمد، والشافعى ، وهؤلاء أُصول الإسلام .

ولا تقلِّد دينك من قل علمه وإن قوى زهده ، واحمل أمره على أنه كان يطيق هذا ولا تقتد بهم فيما لا تُطيقه ، فليس أمرنا إلينا ، والنفس وديعَة عندنا ، فإن أنكرت ما شرحته ، فأنت ملْحَق بالقَوْم الذين أنكرت عليهم، هذا رمز إلى المقصود والشرح يَطُول.

١٥٣ - فصل : حدود العقل

الواجب على العَاقل أن يتَّبع الدليل ، ثم لا ينظر فيما لا يجْنى من مكْرُوه ، مثاله : أنه قد ثَبَت بالدليل القاطع حكمة الخالق - عَزَّ وجَلَّ - وملكه وتدبيره ، فإذا رأى الإنسان عالمًا محرومًا ، وجاهلاً مرزوقًا ، أوجب عليه الدليل المثْبت حكمة الخَالق التّسليم إليه، ونسبة العَجْز عن معرفة الحكْمة إلى نفسه ، فإن أقوامًا لم يفعلوا ذلك جهْلاً منهم، أفتراهم بماذا حكَموا بفساد هذا التدبير ؟ أليس بمقتضى عقولهم ؟ أو ما عقولُهم من

---

(١) الدن : الراقود لا يقعد إلا إذا حفر له فى الأرض .

(٢) رواه البخارى فى المناقب (٣٦١٥) ، ومسلم فى الزهد والرقائق (٣٠٠٩) .

(٣) رواه البخارى فى الأشربة (٥٦٢١) ، وأبو داود فى الأشربة (٣٧٢٤)، وأحمد فى المسند (٣/٣٢٨) عن جابر ، والشن هو الإناء الذى يشرب فيه .

جملة مواهبه ؟ فكيف يحكم على حكمته وتدبيره ببعض مخلوقاته التى هى بالإضافة إليه أنقص من كل شىء ؟

ولقد بلغنى عن اللعين ابن الراوندى [١] ، أنه كان جالسًا على الجسر وفى يده رغيف يأكله ، فجازت خيل وأموال ، فقال : لمن هذه ؟ فقيل لفلان الخادم ، فجازت خيل وأموال ، فقال : لمن هذه ؟ فقيل : لفلان الخادم ، فلما مر الخادم رأى شخصًا محتقرًا ، فرمى الرغيف إلى ناحيته وقال : وهذا لفلان ما هذه القسمة ؟ ولو فكر المعترض ، لبانت له وجوه : أقلها جهله بمن يدعى معرفته وقلة تعظيمه له ، وذلك يوجب عليه أشد مما كان فيه من تضييق العيش ، ولكنه ميراث إبليس ، حيث اعتقد سوء التدبير فى تفضيل آدم - عليه السلام - ، فالعجب من تلميذ يتمعلم على أستاذه ، ومن مملوك يتيه على سيده ، ومما ينبغى أن يتبع فيه الدليل ولا يلتفت إلى ما جنت الحال ، أن العلم أشرف مكتسب .

وقد رأى جماعةٌ من الجهلة قلة حظوظ العلماء من الدنيا ، فأزروا [٢] على العلم وقالوا: لا فائدة فيه ؛ وذلك لجهلهم بمقدار العلم ، فإن تابع الدليل لا يبالى ما جنى ، وإنما يبين الاختبار بفقد الغرض ، ولو لم يكن من الدليل على صدق نبينا - ﷺ - إلا إعراضه عن الدنيا [٣] ، وتضييق العيش عليه ، ثم لم يخلف شيئًا وحرم أهله الميراث ، فدلَّ على صدق طلبه لمطلوب آخر .

وربما رأى الجاهل قومًا من العلماء يفعلون خطيئةً فيزدرى على العلم ويدَّعيه ناقصًا ، وهذا غلط كبير ، فليتق اللهَ العاقلُ ، وليعمل بمقتضى العقل فيما يأمر به من طاعة الله - تعالى - والعمل بالعلم ، وليعلم أن الابتلاء فى الصبر على فوات المطلوبات ، وليلزم اتباع الدليل وإن جنى مكروهًا ، والله الموفق .

١٥٤ - فصل : الفرق بين الصبر وموافقة الهوى

قرأت سورة يوسف - عليه السلام - ، فتعجبت من مدحه - عليه السلام - على صبره وشرح قصته للناس ، ورفع قدره بترك ما ترك ، فتأملت خبيئة الأمر ، فإذا هى

---

(١) هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ، وكان ملازما للرافضة ، والملاحدة توفى سنة (٢٩٨ هـ) .

(٢) أزروا : عابوا .

(٣) إشارة إلى الحديث الذى قاله ﷺ وفيه « مالى وللدنيا » ، رواه أحمد (٢/ ٢١) ، وابن ماجة فى الزهد (٤١٠٩)

مخالفة للهوَى المكْرُوه ، فقلت : واعجبًا ، لو وافق هواهُ من كان يكون ، ولما خالَفَه، لقد صار أمرًا عظيمًا يُضرب الأمثال بصبره ، ويفتخر على الخلق باجْتهاده . وكل ذلك قد كان بصَبر ساعة ، فيالَه عزا وفخرا أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحْبُوب وهو قريب .

وبالعكس منه حالة آدم فى موافَقَته هواه ، لقد عادَت نقيصةً فى حقه أبدًا ، لولا التّدارك فتاب عليه .

فتلمَّحوا - رحمكم الله - عاقبة الصبر ونهاية الهَوَى ، فالعَاقل من ميَّز بين الأمرين الحلوين والمرين ؛ فإن من عدل ميزَانَه ولم تَمِل به كَفَّة الهوى ، رأى كل الأرباح فى الصبر ، وكل الخُسران فى موافَقَة النفس ، وكفى بهذا موعظة فى مخالفة الهَوَى لأهل النُّهى ، والله الموفق .

١٥٥ - فصل : العلم والعمل متلازمان

رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكْفى فى صلاح القَلْب ، إلا أن يمزج بالرّقائق والنظر فى سير السلف الصّالحين ، فأما مجرد العلم بالحلال والحرام ، فليس له كبير عَمَل فى رقة القَلب ، وإنَّما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث ، وأخبار السلف الصالحين ؛ لأنهم تناولوا مقْصُود النقل ، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها ، وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوْق ؛ لأنى وجدت جمهور المحدِّثين وطلاب الحديث همة أحدهم فى الحديث العَالى وتكثير الأجزاء ، وجمهور الفقهاء فى علوم الجَدَل وما يغالِب به الخَصْم ، وكيف يرقُّ القلب مع هذه الأشياء .

وقد كان جماعة من السَّلف يقْصُدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهَدْيه لا لاقتباس علمه ، وذلك أن ثمرة علمه هديُه وسمتُه ، فافهم هذا وامزج طلَب الفقه والحديث بمطالَعة سيرَ السلف والزهاد فى الدنيا ؛ ليكون سببًا لرقّة قلبك .

وقد جمعت لكلٍّ واحد من مشاهير الأخْيار كتابًا فيه أخباره وآدابه ، فجمعت كتاباً فى أخبار الحَسَن ، وكتاباً فى أخبار سُفْيَان الثورى ، وإبراهيم بن أدْهَم ، وبشر الحَافى ، وأحمد بن حَنْبل ، ومعروف ، وغيرهم من العلماء والزهاد ، والله الموفق للمقصود .

ولا يصلح العمل مع قلّة العلم ، فهما فى ضرْب المثل كسائق وقائد والنفس بينهما حَرُون [1] ومع جدّ السائق والقائد ينْقَطع المنزل ، ونعوذ بالله من الفُتُور .

---

(١) حرون : صعب أن تقاد .

١٥٦ - فصل : الورع أحوط

ترخَّصت فى شىء يجُوز فى بعض المذاهب ، فوجدت فى قَلْبى قسوة عظيمةً ، وتخايل لى نوع طَرْد عن الباب ، وبعد وظلمة تكاثَفَت ، فقالت نفسى : ما هَذَا ؟ أليس ما خَرَجْت عن إجماع الفقهاء ، فقلت لها : يا نَفْس السّوء ، جوابُك من وجهين :

أحدهما : أنك تأوّلت ما لا تعتقدين ، فلو استفتيت لم تُفْت بما فعلت ، قالت : لو لم أعتقد جواز ذلك ما فعَلْتُه ، قلت : إلا أن اعتقادك ما ترضينه لغيرك فى الفتوى .

والثانى : أنه ينبغى لك الفَرَح بما وجدْت من الظلمة عَقِيب ذلك ؛ لأنه لولا نور فى قلبك ما أثر مثل هذا عنْدك ، قالت : فلقد استوحشت بهذه الظلمة المتجَدّدة فى القلب ، قلت : فاعزمى على التّرك وقدِّرى ما تركت جائزًا بالإجماع ، وعُدِّى هجره ورعًا ، وقد سلمت .

١٥٧ - فصل : عدم المظاهرة بالعداوة

ممَّا أفادتنى تجارب الزمان : أنه لا ينبغى لأحد أن يظاهر بالعَدَاوَة أحدًا مهما استطاع ؛ فإنه ربما يحتَاج إليه مهما كانت منزلته وإن الإنسان ربما لا يظن الحاجَة إليه يومًا ما ، كما قد يَحتَاج إلى عُوَيْد مَنْبُوذ [1] لا يلتفت إليه ، لكن كم من محتقر احتيج إليه ، وإن لم تقع الحاجَة إلى ذلك الشخص فى جَلْب نفع ، وقعت الحاجة فى دَفْع ضر ، ولقد احتجت فى عُمرى إلى ملاطَفَة أقوام ما خطر لى قَط وقوع الحاجة إلى التلطف بهم .

واعلم أن المظاهرة بالعداوة قد تجْلب أذى من حيث لا يعلم ؛ لأن المُظَاهر بالعداوة كشَاهِر السيف ينتظر مضْربًا ، وقد يلوح مضرب خَفِىّ ، وإن اجتهد المتدرِّع فى ستر نفسه فيغتنمه ذلك العدو .

فينبغى لمن عاش فى الدنيا أن يُجتَهد فى ألا يظاهر بالعَدَاوة أحدًا ، لما بينت من وقوع احتياج الخَلْق بعضهم إلى بعض ، وإقدار بعضهم على ضرر بعض ، وهذا فصل مفيدٌ تبين فائدته للإنسان مع تقلب الزمان .

١٥٨ - فصل : لذات مشوبة

رأيت النفس تَنْظر إلى لذات أرباب الدنيا العاجلة ، وتنسى كيف حُصِّلت وما يتضمنها من الآفات ، وبيان هذا أنك إن رأيت صاحب إمارة وسلطنة فتأملت نعمته ،

---

(١) عويد : تصغير عود ، ومنبوذ : متروك

وجدتها مشوبةً بالظُّلم ، فإن لم يقصد هو الشر حَصَل من عُمَّاله ، ثم هو خائف منزعج فى كل أموره ؛ حذر من عدو أن يسيئه قلق ممن هو فوْقه أن يعْزِله ، ومن نظيره أن يكيدَهُ، ثم أكثر زمانه يمْضِى فى خدمة من يخافه من السّلاطين ، وفى حساب أموالهم ، وتنْفيذ أوامرهم التى لا تخلو من أشياء منكرة ، وإن عزل أربى [1] ذلك على جميع ما نال من لذة، ثم تلك اللّذة تكون مغمُورة بالحذَر فيها ومنها وعليها ، وإن رأيت صاحب تجَارة ، رأيته قد تقطَّع فى البلاد فلم ينل ما نال إلا بعد علو السّن وذهاب زمان اللذة ؛ كما حُكِى أن رجلاً من أولاد الرُّؤَساء كان حال شَبِيبَته فقيرًا ، فلما كبر استَغنى وملك أموالاً ، واشترى عبيدًا من التُّرك وغيرهم ، وجوارى من الرُّوم ، فقال هذه الأبيات فى شرح حاله:

مَا كُنْتُ أَرْجُوهُ إِذْ كُنْتُ ابْنَ عِشْرِينَا ... مَلَكْتُهُ بَعْدَ أَنْ جَـــاوَزْتُ سَبْعِينَا

تَطُــــوفُ بِيَّ مِنَ الأَتْرَاكِ أَغْزِلَةٌ ... مِثْلُ الغُصُــــونِ عَلَى كُثْبَانِ يَبْرِينَا

وَخُردٌ [2] مِـــنْ بَنَاتِ الرُّومِ رَائِعَةٌ ... يَحْــكِينَ بِالْحُسْنِ حُورَ الْجَنَّةِ الْعِينَا

يَغْــمِــزْنَنِى بِأَسَــارِيعٍ مُنَعَّــمَةٍ ... تَكَــادُ تُعْقَدُ مِنْ أَطْــرَافِهَا لِينَا

يُرِدْنَ إِحيَاءَ مَيْتٍ لا حِــــرَاكَ بِهِ ... وَكَــيْفَ يُحْيِينَ مَيْتًا صَارَ مَدْفُونَا

قَالُوا أَنِينُكَ طُولَ اللَّيْلِ يُسْهِــرُنَا ... فَمَا الَّذِى تَشْتَكِــى قُلْتُ الثَّمَانِينَا

وهذه الحالة هى الغالبة ؛ فإن الإنسان لا يكاد يجْتمع له كل ما يحبه إلا عند قرب رحيله، فإن بدر ما يحبُّ فى بداية شبابه فالصبوة [3] مانعة من فهم التّدابير أو حسن الالْتذاذ .

والإنسان فى حالة الصَّبْوة لا يدرى أين هو إلا أن يَبْلُغ ، فإذا بلغ كانت همته فى المَنْكُوح كيف اتفق ، وإن تزوج ، جاء الأولاد فمنعوه اللّذة ، وانكسر فى نَفْسه وافتقر إلى الكسب عليهم ، فبينما هو قد دُعك [4] فى تلك المديدة القريبة من الثّلاثين ، وخَطَّهُ الشيب فانفرق من نفسه ؛ لعلمه أن النساء ينفرقن منه ؛ كما قال ابن المعتز بالله :

لَقَدْ أَتْعَبْتُ نَفْسِى فِى مَشِيـــبِى ... فَكَيْفَ تُحِبِنِىَ الْخُرُدُ الْكِعَابُ [5]

وهكذا لا ترى المتمتع بالمستحسنات إن وجدهن ، ولم يجد ما لا يبلغ به المُرَاد ، وإن اشتغل بجمع المال ضاع زمن تمتعه ، وإذا تم المطلوب فالشَّيب أقبح قذًى وأعظم مبغض.

---

(١) أربى : زاد .
(٢) الخرد : البكر الذى لم يسبق لأحد أن جامعها .
(٣) سبق تعريفها .
(٤) دعك : تدرب .
(٥) الكعاب : الذى بدأ يظهر عليها علامات الأنوثة .

ثم إن صاحب المال خائفٌ على ماله ، محاسب لمعامليه ، مذموم إن أسرف وإن قتّر ، ولده يرصد موته ، وجاريته قد لا ترضى بشخصه ، وهو مشغول بحفظ حواشيه ، فقد مضى زمانه فى محن ، واللّذات فيها خلس [1] معتادة لا لذة فيها ، ثم فى القيامة يحشر الأمير والتّاجر خزايا إلا من عصم الله .

فإيّاك إيّاك أن تنظر إلى صورة نعيمهم ، فإنك تستطيبه لبعده عنك ، ولو قد بلغته كرهته ، ثم فى ضمنه من محن الدنيا والآخرة مالاً يوصف ، فعليك بالقناعة مهما أمكن ، ففيها سلامة الدّنيا والدين ، وقد قيل لبعض الزهاد وعنده خبز يابس : كيف تشتهى هذا ، فقال : أتركه حتى أشتهيه .

١٥٩ – فصل : مناجاة

وقع بينى وبين أرباب الولايات نوعُ معاداة لأجل المذهب ؛ فإنى كنت فى مجلس التذكير أنظرُ أن القرآن كلام الله وأنه قديم ، وأقدّم أبا بكر ، واتّفق فى أرباب الولايات من يميل إلى مذهب الأشعرى ، وفيهم من يميل إلى مذهب الرّوافض ، وتمالئوا علىّ فى الباطن ، فقلت يومًا فى مناجاتى للحقّ – سبحانه وتعالى – : سيّدى ، نواصى الكل بيدك ، وما فيهم من يقدر لى على ضر ، إلا أن تُجريه على يده ، وأنت قلت – سبحانك – : ﴿ وَمَا هم بِضَارِّينَ به مِنْ أَحَد إلا بِإذْنِ الله ﴾ [2] ، وطيبت قلب المبتلى بقولك : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ [3] فإن أجريت على أيدى بعضهم ما يوجب خذلانى ، كان خوفى على ما نصرته أكثر من خوفى على نفسى ؛ لئلا يقال : لو كان على حقّ ما خذل ، وإن نظرت إلى تقصيرى وذنُوبى ، فإنى مستحق للخذلان ، غير أنى أعيش بما نصرته من السنة ، فأدخلنى فى خفارته [4] ، وقد استودعتنى إياك خلقٌ من صالحى عبادك ، فإن لم تحفظنى بى ، فاحفظنى بهم ، سيدى ، انصرنى على من عادانى ، فإنهم لا يعرفونك كما ينبغى ، وهم معرضون عنك على كلّ حال ، وأنا على تقصيرى إليك أنسب .

١٦٠ – فصل : التنطع

رُوى عن الحلاج الصوفى ؛ أنه كان يقعد فى الشمس فى الحرّ الشّديد وعرقه يسيل ، فجاز بعض العقلاء فقال له : يا أحمق ، هذا تقاوٍ على الله – تعالى – ، وما أحسن

---

(١) الخلس : الفرص .
(٢) سورة البقرة ، آية ١٠٢ .
(٣) سورة التوبة ، آية ٥١ .
(٤) خفارته : ذمته .

ما قال هذا ! فإنه ما وضع التكليف إلا على خلاف الأغراض ، وقد يخرج صاحبه إلى أن يعجز عن الصَّبر ، فالجاهل الأحمق منْ تَقَاوَى ، أو من يسأل البلاء ؛ كما قال ذلك الأَبْلَه : فَكَيْف ما شئت فاختبرنى .

١٦١ - فصل : سؤال العافية

والسّعيد من ذلَّ وسأل العافية ، فإنه لا يُوهَبُ العافية على الإطلاق إذ لا بد من بَلاءَ، فلا يزال العاقل يسأل العافية لتغلب على جمهور أحواله ، فيقرب الصبر على يسير البَلاء.

وفى الجملة ينْبَغى للإنسان أن يعلم أنه لا سبيل إلى محبوباته خالصة ، ففى كل جرعة غُصَص ، وفى كل لُقْمة شجًا [١] :

وكَـمْ مَنْ يَعْشَقُ الدُّنْيَا قَدِيمًا   ولَكِنْ لا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ

وعلى الحقيقة ما الصّبر إلا على الأقدار ، وقلَّ أن تجرى الأقدار إلا على خلاف مراد النّفس .

فالعاقل من دارَى نفسه فى الصّبر بوعد الأجر ، وتسهيل الأمر ؛ ليذهب زمان البلاء سالمًا من شكْوى ، ثم يستغيث بالله - تعالى - سائلاً العافية ، فأما المتجلّد [٢] ، فما عرف الله قط ، نعوذ بالله من الجهل به ، ونسأله عرفانه ، إنه كريم مجيب .

١٦٢ - فصل : الاقتداء بالنبى ﷺ

الجادَّة السليمة والطريق القويمة ، الاقتداء بصاحب الشَّرع ، والبِدَار إلى الاستِنَان به ، فهو الكامل الذى لا نقص فيه ، فإن خلقًا كثيرًا انحرفوا إلى جادة الزهد ، وحمَّلوا أنفسهم فوق الجهد ، فأفاقوا فى أواخر العُمر ، والبدن قد نَهَكَ ، وفاتت أمور مهمَّة من العلم وغيره ، وإن أقوامًا انحرفوا إلى صورة العلم فبالَغُوا فى طلبه ، فأفاقوا فى أواخر قدم، وقد فاتهم العَمَل به .

فطريق المصْطَفى - صلى الله عليه وسلم - العلم والعمل، والتلطّف بالبَدن ؛ كما أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص وقال له : « **إن لنفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا** » [٣] فهذه هى الطَّريق الوسطى والقول الفصل ، فأما اليَبس المجرد ، فكم فَوّت من علم ، لو حُصِّل نيل به أكثر مما نيل بالعمل ، فإن مثل العالم كرَجُل يعرف

---

(١) الشجا : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .

(٢) المتجلد : المتكلف .   (٣) سبق تخريجه .

الطَّريق ، والعابد جاهلٌ بها ، فيمشى العابدُ من الفجر إلى العصر ، ويقوم العالم قبيل العصر فيلْتَقيَان وقد سبق العَالم فضل شوْطه .

فإن قال قائل : بيِّن لى هذا ، قلت : صورَة التعبد خدمة لله - تعالى - وذل له ، وربّما لم يطَّلع العابد على معنى تلك الصُّورة ؛ لأنه ربما ظن أنه أهل لوجود الكَرَامة على يده ، وأنه مستحق تَقْبيل يده ، أو أنه خير من كَثِير من الناس ، وذلك كله لقلة العلم ، وأعنى بالعلم : فهم أُصول العلم ، لا كثرة الرِّواية ومطالعة مسائل الخلاف ، فإذا طالع العالم الأُصولى ، سبق هذا العابد بحُسْن خلق ، ومداراة النَّاس ، وتواضعه فى نفسه ، وإرشاده الخلق إلى الله - تعالى - ، فيعسر على هذا العَابد ، وهو فى ليل جهله بالحال راقد ، ربما تزوّج العابد ثم حمل نفسه على التجفُّف ، فحبس زوجته عن مطْلُوبها ولم يطلِّقها ، وصار كالتى حَبَست الهرَّة ، فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها تأكل من خَشَاش الأرض [1] .

ومن تأمل حالة الرَّسُول - ﷺ - ، رأى كاملاً من الخلق ، يعطى كل ذى حقٍّ حقه، فتارة يمزح ، وتارة يَضْحَك ، ويداعب الأطفال ، ويسمع الشعر ، ويتكلم بالمعَاريض ، ويُحْسن معاشرة النساء ، ويأكل ما قدر عليه وأتيح له ، وإن كان لذيذًا كالعسل ، ويُستَعْذَب له الماء ، ويُفْرَش له فى الظلِّ ، ولم يُنْكر ذلك ، ولم يُسْمع عنه ما حدث بَعْده من جُهَّال المتصوفة والمتزهدين ؛ من منع النفس شَهَواتها على الإطلاق ، فقد كان يأكل البِطِّيخ بالرُّطب [2] ، ويقبِّل ويمص اللِّسان ، ويطلب المستَحْسَنات ، فأما أكل خُبْز الشعير ووزن المأكُول ، وتجفيف البدن ، وهجْر كل مشْتَهًى ؛ فإنه تعذيب للنَّفْس ، وهدم للبَدَن ، لا يقتَضيه عقل ، ولا يمدَحُه شرع ، وإنما اقتنع أقوامٌ بالقليل لأسباب مثل أن حدثت شبهة فتقلَّلوا ، أو اختلط طعام بطَعام فتورعوا .

ثم كان النَّبى - ﷺ - يوفى العبادة حقها بقيام اللَّيل ، والاجتهاد فى الذِّكر ، فعليك بطريقته التى هى أكمل الطُّرق بشرعته التى لا شَوْب فيها ، ودع حديث فُلان وفلان من الزهاد ، واحمل أمرهم على أحسن محْمَل ، وأقم لهم الأعذار مهما قدرت ، فإن لم تجد عذرا فهم محجُوجون بفعله ؛ إذ هو قدوَة الخلق وسيد العقلاء ، وهل فسد النَاس إلا بالانحراف عن الشريعة !

---

(١) إشارة إلى حديث النبى ﷺ : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ... » إلخ رواه البخارى بدء الخلق (٣٣١٨) ، ومسلم فى الكسوف (٩٠٤) .

(٢) أبو داود فى الأطعمة (٣٨٣٥) ، والترمذى فى الأطعمة (١٨٤٣) وقال الترمذى : حسن غريب، وابن ماجة فى الأطعمة (٣٣٢٦) .

ولقد حدثت آفات من المتصوّفة والمتزهدين ، خرقوا بها شبكة الشّريعة وعبروا ، فمنهم من يدَّعى المحبة والشوق ولا يعرف المحبوب ، فتراه يصيح ويستغيث ، ويمزق ثيابه ويخرج عن حدّ الشرع بدعواه ومضمونها ، ومنهم من حمل على نفسه بالجوع والصوم الدائم ، وقد صحَّ عن النبى - ﷺ - أنه قال لعبد الله بن عمر : « **صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا** » فقال : أُريدُ أفضَلَ مِنْ ذَلكَ ، فقال : « **لا أَفْضَل** »[1] ، وفيهم من خرج إلى السّياحة فأفات نفسه الجَمَاعة ، وفيهم من دفن كتب العلم وقعد يصلّى ويصوم ، ولم يعلم أن دفنها خطأ قبيح ؛ لأن النفس تغفل وتحتاج إلى التذكير فى كل وقت ، ونعم المذكّر كتب العلم ، وإنما دخل إبليس على كل قوم منهم من حيث قَدَر ، وكان مقصوده بدفن الكُتب إطفاء المصباح ؛ ليسير العابد فى الظلمة ، وما أحسن ما قال بعض العُلَمَاء لرجل سأله فقال : أريد أن أمضى إلى جبل الآكَام ، فقال : هذه - هَوْكَلة - وهذه كلمة عاميّة معناها حب البطالة .

وعلى الحقيقة الزّهاد فى مقام الخفافيش ، قد دفَنوا أنفسهم بالعُزْلة عن نفع الناس ، وهى حالة حسنة إذا لم تمنع من خيْر من جماعة ، واتباع جنازة ، وعيادة مَريض، إلا أنها حالة الجُبَنَاء .

فأما الشجعان فهم يتعلَّمون ويعلّمون ، وهى مقامات الأنبياء - عليهم السلام - ، أترى كم بين العابد إذا نزلت به حادثة وبين الفقيه ؟ بالله لو مال الخلق إلى التعبد ، لضاعت الشريعة ، على أنه لو فُهِم معنى التعبُّد ، لم يقتصر به على الصلاة والصَّوم ، فرُبَّ ماش فى حاجة مسلم فُضِّل تعبده ذلك على صوم سنة .

والعمل بالبدن سعى الآلات الظاهرة ، والعلم سعى الآلات الباطنة من العقل والفكر والفهم ، فلذلك كان أشْرَف .

فإن قلت : كيف تذم المعتزلين للشرّ وتنفى عنهم التعبد ؟ قلت : ما أذمُّهم ، بل حدثت منهم حوادث اقْتَضاها الجهل من الدعَاوى والآفات التى سببها قلة العلم ، وحمّلوا على أنفسهم التى ليست لهم وعن غير إذن الآمر ما لم يجُزْ ، حتى أن أحدهم يرى أن فعْل ما يؤذى النفس على الإطلاق فضيلة وحتى قال بعْض الحمقى : دخلت الحمَّام فوجدت غفلة ، فآلَيْت ألا أخرج حتى أسبِّح كذا وكذا تسبيحة ، فطال الأمر فمَرِضْت ، وهذا رجل خاطر بنفسه فى فعل ما لَيْس له ، ومن المتصوّفة والزهاد من قنع بصورة

---

(١) رواه البخارى فى الصوم (١٩٧٦) ، ومسلم فى الصيام (١١٥٩) ، وأحمد (٢/١٥٨) .

اللناس ، وركب من الحهل فى الباطن ما لا يسَعُه كتاب ، طهر الله الأرض منهم وأعانَ العلماء عليهم ؛ فإن أكثر الحمقى معهم ، فلو أنكَر عالم على أحدهم ، مال العوام على العالم بفوه الجهل

ولقد رأيت كثيرًا من المتعبدين وهو فى مقام العجَائِز يسبِّح تسبيحات لا يجُوز النطق بها ، ويفعل فى صلاته ما لم ترِد به السنة ، ولقد دخلْت يومًا على بعض من كان يتعبد، وقد أقام إمامًا وهو حلْفَه فى جماعَة يصلِّى بهم صلاة الضُّحى ويجهر ، فقلت لهم إن النبى - ﷺ - قال : « صَلاةُ النَّهَارِ عَجْمَاءٌ » [1] ، فغَضِب ذلك الزاهد وقال : كم ينكر هذا علينا ! وقد دخل فُلان وأنكر ، وفلان وأنكر، نحن نرفع أصواتنا حتى لا ننام ، فقُلْت : واعجبا ومن قال لكم : لا تَنَامُوا ، ألَيْس فى الصحيحين من حديث ابن عمر أنّ النبى - ﷺ - قال له « قُمْ وَنَمْ » [2] ، وقد كان رسول الله - ﷺ - ينام ، ولعله ما مَضَت عليه ليلة إلا ونام فيها ، ولقد شاهدت رجلاً كان يقال له حسين القروينى بجامع المنصور ، وهو يمشى فى الجامع مشيًا كثيرًا دائمًا ، فسألت : ما السبب فى هذا المشى ؟ فقيل لى : حتى لا ينام .

وهذه كلها حماقَات أوجبتها قلة العلم ؛ لأنه إذا لم تأخذ النفس حظَّها من النوم ، خلط العقل ، وفات المُرَاد من التعبد لبعد الفهم .

ولقد حدثنى بعض الصالحينَ المجاورين بجامع المَنْصُور ؛ أن رجلاً اسمه كثير دخل عليهم الجامع فقال : إنى عاهدت الله على أمر ونقَضتُه ، وقد جعلت عقُوبتى لنفسى أن لا آكل شيئًا أربَعين يومًا ، قال : فمكَث منها عشْرة أيام قرِيب الحال يُصَلِّى فى جماعة ، ثم فى العَشْر الثانى بان ضَعفُه وكان يُدَارى الأمر ، ثم صارَ فى العَشْر الثالث يصلى قاعدًا ، ثم استَطْرح فى العشر الرَّابع ، فلما تمَّت الأربعون جِىء بنُقُوع فشربه ، فسمعنا صوتَه فى حلْقه مثل ما يقع الماء على المَقْلاة ، ثم مات بعد أيَّام .

فقلت : يالله العَجَب ، انظُروا ما فعل الجهل بأهله ، ظاهر هذا أنه فى النار ، إلا أن يعفى عنه ، ولو فهم العلم وسأل العلماء ، لعرَّفوه أنه يجب عليه أن يأكل ، وأن ما فعله بنفسه حَرَام ، ولكن من أعظم الجهل استبْداد الإنسان بعلمه ، وكل هذه الحوادث نَشَأت قليلاً قليلاً حتى تمكَّنت فأما الشرب الأول ، فلم يكن فيه من هذا شىء ، وما

---

(1) ابن أبى شيبه فى الصلاة (٢/ ١ ٤٠) موقوفاً على الحسن البصرى ط . الفكر .

(2) سبق تخريجه

كانت الصحابة تفعل شيئًا من هذه الأشياء ، وقد كانوا يؤثِرون ويأكلون دون الشِّبع ، ويصبرون إذا لم يجدوا ، فمن أراد الاقتداء فعليه برسُول الله - ﷺ - وأصحابه ، ففى ذلك الشِّفاء والمطلوب .

ولا ينْبَغِى أن يخْلُد العاقل إلى تقليد معظَّم شاع اسمه ، فيقول قال : أبو يزيد ، وقال الثَّورى ؛ فإن المقلد أعمى ، وكم قد رأينا أعْمَى يأنَف من حمل عصًا ، فمن فَهِم هذا المشار إليه ، طلب الأفضل والأعلى والله الموفق .

١٦٣ - فصل : الفلسفة والرهبانية أدخلا البدع على الدين

تأملت الدَّخَل الذى دخل فى ديننا فى العلم والعمل ، فرأيته من طريقَيْن قد تقدّما هذا الدين وأنس الناس بهما .

فأما أصل الدَّخَل فى العلم والاعتقاد فمن الفلْسفة ؛ وهو أن خلقًا من العلماء فى دينَنا لم يقنَعُوا بما قَنَع به رسول الله - ﷺ - من الانعكَاف على الكتاب والسنة فأوغلوا فى النَّظر فى مذَاهب أهل الفلسفة وخاضُوا فى الكلام الذى حملهم على مَذَاهب رَدِيَّة أفسدوا بها العقَائد .

وأما أصل الدَّخَل فى باب العمل فمن الرُّهْبَانية ؛ فإن خلقًا من المتزهدين أخذوا عن الرُّهْبَان طريق التقَشُّف ولم ينظروا فى سيرَة نبينا - ﷺ - وأصحابه ، وسمعُوا ذمَّ الدنيا وما فهموا المقْصُود ، فاجتمع لهم الإعْرَاض عن علم شرْعنا، مع سوء الفهم للمقْصُود ، فحدثَت منهم بدع قَبِيحة .

فأوّل ما ابتدأ به إبليس أنَّه أمرهم بالإعراض عن العلْم ، فدفنوا كتبهم وغَسَلُوها ، وألزمهم زاوية التعبد فيما زَعم ، وأظهر لهم من الخُزَعْبَلات ما أوجب إقبال العَوَامّ عليهم فجعل إلَههم هواهم ، ولو علموا أنهم منذ دفنوا كُتُبَهم وفارقوا العلم ، انطفأ مصباحهم ما فعلوا ، لكن إبليس دقيق المنْقَب كان دقيق المكر يوم جعل علمهم فى دفين تحت الأرض ، وبالعلم يُعْلم فساد الطريقين ويهتدى إلى الأصوب ، نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - أن لا يحرمنا إياه ، فإنه النُّور فى الظلم ، والأنيس فى الوَحْدة ، والوَزِير عند الحادثة .

١٦٤ - فصل : الفراغ بلاء

أعوذ بالله من صُحْبَة البطَّالين . لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرُون معى فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمُّون ذلك التردد خدمة ، ويطلبون الجُلُوس ويُجْرُون فيه أحاديث الناس وما لا يعنى ، ويتخلله غيْبَة ، وهذا شىء يفعلُه فى زماننا كثير من

الناس، وربما طلَبه المَزُور وتشوق إليه واستوحش من الوحْدة ، وخصوصًا فى أيام التَّهانى والأعياد ، فتراهم يَمْشى بعضهم إلى بعض ، ولا يقْتصرون على الهناء والسَّلام ، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تَضْيِيع الزَّمان

فلما رأيت أنّ الزمان أشرف شىء ، والواجب انتهاؤه بفعل الخير ، كرهت ذلك وبَقِيت معهم بين أمرين إن أنكرت عليهم وقعَتْ وحْشة لموضع قطع المَألوف ، وإن تقبلته منهم ، ضاع الزمان .

فصرت أُدافع باللِّقاء جهدى ، فإذا غلبت قَصَّرت فى الكلام لأتعجل الفِراق ، ثم أعددت أعمالاً تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم ؛ لئلا يمْضى الزمان فارغًا ، فجَعَلت من المستعد للقائهم قطع الكَاغد [1] وبَرْى الأقلام وحزم الدَّفاتر ، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضُور قلب ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم ؛ لئلا يضيع شىء من وقْتِى ، نسأل الله - عزَّ وجلَّ - أن يعرِّفنا شرف أوقات العمر ، وأن يوفقنا لاغتنَامه .

ولقد شاهدت خلقًا كثيرًا لا يعرفون مَعْنَى الحياة ، فمنهم من أغناه الله عن التَكَسُّب بكثرة ماله ، فهو يقْعُد فى السوق أكثر النَّهار ينظر إلى الناس ، وكم تمرُّ به من آفة ومنكر، ومنهم من يخلُو بلعب الشِّطْرنج ومنهم من يقْطَع الزمان بكثرة الحوادث من السَّلاطين والغَلاء والرخص إلى غير ذلك .

فعلمت أن الله - تعالى - لم يُطْلِع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقَات العافية إلا من وفَّقه وألهمه اغتنام ذلك : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾ [2] .

١٦٥ - فصل : اغتنام العمر

رأيت من الرأى القَوِيم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التَّعليم بالمشافهة ؛ لأنى أشافه فى عمرى عددًا من المتعلِّمين ، وأُشافه بتصنيفى خلقًا لا تُحْصَى ما خلقوا بعد ، ودليل هذا أنَّ انتفاع الناس بتَصَانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستَفِيدُونَه من مشايخهم .

فينْبَغى للعالم أن يتوفَّر على التَّصَانيف إن وفق للتَّصنيف المفيد ؛ فإنه ليس كل من صنَّف صنَّف ، وليس المقصود جمع شَىْء كَيف كان ، وإنما هى أسرار يُطْلِع الله - عزَّ وجلَّ - عليها من شاء من عباده ويوفقه لكشفها ، فيجمع ما فُرِّق أو يرتِّب ما شُتِّت ، أو يشرح ما أُهمل ، هذا هو التَّصْنيف المفيد ، وينبغى اغتنام التصنيف فى وسَط العمر ؛ لأن أوائل العمر زمن الطلب ، وآخره كَلال [3] الحواس

---

(١) الكاغد : القرطاس كما فى القاموس

(٢) سورة فصلت ، آية : ٣٥

(٣) كلال : إعياء

وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره ، وإنما يكون التَّقدير على العادات الغَالبة ، لأنه لا يعلم الغَيْب ، فيكون زمان الطَّلب والحفظ والتَّشاغل إلى الأربعين ، ثم يبْتدئ بعد الأربعين بالتَّصانيف والتعليم .

هذا إذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ وأُعين على تحصيل المطالب ، فأما إذا قلَّت الآلات عنده من الكُتب ، أوْ كان فى أوّل عمره ضعيف الطَّلب ، فلم يَنل ما يريده فى هذا الأوان ، أخَّر التصانيف إلى تمام خمسين سنة ، ثم ابتدأ بعد الخَمْسين فى التصنيف والتعليم إلى رأس الستين ، ثم يزيد فيما بعد الستين فى التَّعليم ، ويسمع الحديث والعلم ويعلِّل التصانيف إلى أن يقع مُهِمّ إلى رأس السبعين ، فإذا جاوز السبعين، جعل الغالب عليه ذكر الآخرة والتهيؤ للرَّحيل ، فيوفر نفسه على نفسه إلا من تعليم يحتسبه ، أو تصنيف يفْتَقِر إليه ، فذلك أشرف العدد للآخرة .

ولتكن هِمَّته فى تنْظيف نفسه وتهذيب خلاله ، والمبالغة فى استدْراك زلاته ، فإن اختُطف فى خلال ما ذكرنا فنيَّة المؤمن خير من عمله [1] ، وإن بلغ إلى هذه المنازل ، فقد بيَّنَّا ما يصلح لكل منزل ، وقد قال سفيان الثورى: من بلغ سِنَّ رسول الله - ﷺ - فليتَّخذ لنفسه كفَنًا ، وقد بلغ جماعة من العلماء سَبْعًا وسَبْعين سنة ، منهم أحمد بن حنبل ، فإن بلغها فليعلم أنه على شَفِير القبر ، وإن كل يوم يأتى بعدها مستَطْرف ، فإن تمت له الثمانون ، فليجعل همته كلها مَصْرُوفة إلى تنظيف خلاله ، وتهيئة زاده ، وليجعل الاسْتغْفَار حليفه ، والذِّكر أليفه ، وليدقِّق فى محاسبة النفس فى بذل العلم أو مخالطة الخلْق ، فإن قرب الاستعراض للجَيْش يوجب عليه الحَذَر من العَارض ، وليبالغ فى إبقاء أثَره قبل رحيله ؛ مثل بث علمه ، وإنْفَاق كتبه ، وشىء من مَاله .

وبعد فمن تولاه الله - عَزَّ وجَلَّ - علمه ، ومن أراده ألهمه ، نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - أن ينعم علينا بأن يتولانا ولا يتولى عنا ، إنه قريب مجيب .

١٦٦ - فصل : الانقياد للشرع أفضل من العادة

رأيت عادات الناس قد غَلَبت على عملهم بالشَّرع ، فهم يستَوْحِشُون من فعل الشىء ؛ لعدم جريان العادة لا لنهى الشرع ! فكم من رَجُل يوصف بالخير يبيع ويشترى ، فإذا حصلت له القِرَاضة [2] باعها بالصَّحيح من غير تقليد الإمام ، أو عمل برُخْصة عادة من

(١) سبق تخريج هذا الحديث

(٢) القراضة : المضاربة

القوم ، واستثقالاً للاستفتاء ، ونرى خلقًا يحافظون على صلاة الرَّغَائب [١] ، ويتوانون عن الفرائض ، وكثيرًا من المتصوفين لا يستَوْحِشُون من ظلم الناس ، ثم يتصَدَّقُون على الفقراء ، وربما توانَوْا عن إخراج الزكاة ، وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها ، ثم إذا حضر أحدهم مجْلس وعْظ بكى كأنه يصانع بتلك الحال ، ومنهم من يُخْرِج بعض الزَّكاة مصانعة عما لم يخْرِجُه ، ومنهم من يعلم أنَّ أصل ماله حرامٌ ، ويصعب عليه فِرَاقه للعادة ، ومنهم من يحلف بالطلاق ويَحْنَث ويرى الفِرَاق صعبًا ، فربما تأوّل وربما تكاسل عن التأويل ، اتِّكالاً على عفو الله - تعالى - ووعدًا من النفس بالتوبة ، ومنهم من يرى أنَّ استعمال الشرع ربما كان سببًا فى تضييق مَعَاشه ، وقد ألف التَّفَسح فلا يسهل عليه فراق ما قد ألِف ، والعادات فى الجملة هى المُهْلِكة .

ولقد حضر عندى رجل شيخٌ ابن ثمانين سنة ، فاشتريت منه دكَّانا وعقدت معه العَقْد، فلمَّا افترقنا ، غدر بعد أيام ، فطلبت منه الحُضُور عند الحاكم فأبى ، فأحضَرْته فحلف باليمين الغَمُوس أنه ما بِعْتُه ، فقلت ما تدُور عليه السُّنة ، وأخذ يُبَرْطِلُ [٢] لمن يحُول بينى وبينه من الظَّلمة ، فرأيت من العوام من قد غلبت عليه العَادَات ، فلا يلتفت معها إلى قول فقيه ، يقول : هذا ما قبض الثمن فكيف يصح البَيْع ؟ وآخر يقول : كيف يجُوز لك أن تأخذ دكَّانه بغير رضاه؟ وآخر يقول : يجب عليك أن تَقِيلَه [٣] البيع ، فلما لم أقلْه ، أخذ هو وأقاربه يأخُذُون عرضى ، ورأى أنه يحامى عن مِلْكه ، ثم سعى بى إلى السلطان سعايةً يحرض فيها من الكَذِب ما أدهشنى ، ويُبَرْطِل مالاً لخلق من الظلمة، فَبَالَغُوا وسعَوْا ، إلا أن الله - تعالى - نجَّانى من شرهم .

ثم أنى أقمت عليه البيِّنة عند الحاكم ، فقال بعض أرْباب الدنيا للحَاكم : لا تحكم له، فوقَف عن الحكم بعد ثُبوت البينة عنده ، فرأيت من هذا الحَاكم ومن حاكم آخر أعْلى منه من ترك إنفاذ الحق حفظًا لرياستهم ، ما هوَّن عندى ما فعله ذَلكَ الشَّيخ حفظًا لماله ؛ لجهله وعلم هؤلاء ، فينحَلّ لى من الامر أن العادات غلبت على الناس ، وأن الشرع أعرض عنه ، وإن وقعت موافقة للشَّرع ، فكما اتفق أو لأجل العادة ؛ فإن الإنسان لو ضرب بالسِّياط ما أفْطَر فى رمضان عادةً قد استمرت ، ويأخذ أعراض الناس وأموالهم عادةً غالبة .

(١) هى صلاة مبتدعة وليس لها أصل فى الدين وفيها كلام طويل انظره فى الموضوعات للمصنف (٢/ ١٢٤- ١٢٦) .

(٢) يبرطل : يرشى   (٣) تقيله : تفسخ

فكم قد رأيت هذا الشّيخ يصلّى ويحافظ على الصلاة ، ثم لّما خاف فوت غرضه ترك الشرع جانبًا ، وكم قد رأيت أولئك الحُكّام يتعبّدون ويطلبون العلم . غير أنهم لّما خافوا على رِيَاستِهم أن تزول ، تركوا جانب الدّين .

ثمّ إن الله - تعالى - نَصَرَنى عليه ، وتقدم إلىّ الحاكم بإنفاذ ما ثبت عنده ، ودارت السَّنة فمات الشيخ على قُلّ [1] ، فنسأله - عَزَّ وجَلَّ - التوفيق للانْقِيَادِ لشرعه ومخالَفة أهْوَائنا .

١٦٧ - فصل : صيانة العلم وهيبته

ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزا ولا شرفًا ولا راحة ولا سلامة أفضل من العُزْلة ، فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله - عَزَّ وجَلَّ - وعند الخلق ؛ لأن الخلق يهُون عليهم من يخالطهم ، ولا يعظم عندهم قول المُخَالط لهم ؛ ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم ، وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخِّصًا فى أمر مباح ، هان عندهم ، فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم ، فقد قال بعض السلف : كنّا نمزح ونضحك ، فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك ، وقال سفيان الثورى : تعلّموا هذا العلم واكْظموا عليه ، ولا تخلطوه بهزل فتمُجّه [2] القلوب ، فمراعاة الناس لا ينبغى أن تنْكر وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : « **لولا حدثان قومك فى الكُفر ، لنقضت الكعبة وجعلت لها بابين** » [3] ، وقال أحمد بن حنبل فى الركعتين قبل المغْرب : رأيت الناس يكرهونهما فتركتهما .

ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء ، إنما هذه صيانة للعلم ، وبيان هذا. أنه لو خرج العالم إلى الناس مكْشُوف الرأس أو فى يده كسرة يأكلها ، قلّ عندهم وإن كان مباحًا ، فيصير بمثابة تخْليط الطبيب الآمر بالحِمْيَة .

فلا ينبغى للعالم أن ينبسط عند العوام حفظًا لهم ، ومتى أراد مباحًا فليستتر به عنهم، وهذا القدْر الذى لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد قدم الشّام راكبًا على حمار ورجلاه من جانب ، فقال : يا أمير المؤْمنين ، يتلقّاك عظماء الناس، فما أحسن ما لاحظ ! إلا أن عمر - رضى الله عنه - أراد تأديب أبى عبيدة بحفظ الأصل فقال : إن الله أعزكم بالإسلام ، فمهما طلبتم العزّ فى غيره أذلكم [4]

---

(١) القل : الفقر والذل والحاجة كما فى القاموس . (٢) تمجه : ترمصه .

(٣) رواه البخارى فى الحج (١٥٨٣) ، ومسلم فى الحج (١٣٣٣) ، وأحمد (٦/ ١١٣ ، ١١٧) .

(٤) القصة ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية (٧/ ٥٩ ، ٦٠) .

والمعنى : ينبغى أن يكون طلبكم العزّ بالدين لا بصور الأفعال ، وإن كانت الصّور تلاحظ ، فإن الإنسان يخلو فى بيته عُرْيَانًا ، فإذا خرج إلى الناس ، لبس ثوبين وعمامة ورداء ، ومثل هذا لا يكون تصنُّعًا ولا ينسب إلى كبر ، وقد كان مالك بن أنس يغتسل ويتطيَّب ويقعد للحديث .

ولا تلتفت يا هذا إلى ما ترى من بذل العلماء على أبواب السّلاطين ، فإن العزلة أصون للعالم والعلم ، وما يخسره العلماء فى ذلك أضعاف ما يربحونه ، وقد كان سيد الفقهاء سعيد بن المسيَّب لا يغشى[1] الولاة ، وعن قول هذا سكتوا عنه ، وهذا فعل الحازم .

فإن أردت اللّذة والراحة فعليك أيها العالم بقَعْر بيتك ، وكن معتزلاً عن أهلك يطب لك عيشك ، واجعل للقاء الأهل وقتًا ، فإذا عرفوه تصنعوا للقائك ، فكانت المعاشرة بذلك أجود ، وليكن لك مكان فى بيتك تخلو فيه وتحادث سطور كُتبك ، وتجرى فى حَلَبات فكرك ، واحترس من لقاء الخلق وخصوصًا العوام ، واجتهد فى كسب يعفّك عن الطمع ، فهذه نهاية لذة العالم فى الدُّنيا .

وقد قيل لابن المبارك : مالك لا تجالسنا ؟ فقال : أنَا أذهب فأجالس الصحابة والتابعين ، وأشار بذلك إلى أنه ينظر فى كتبه ، ومتى رزق العالم الغنَى عن الناس والخلوة ، فإن كان له فهم يجلب التّصانيف فقد تكاملت لذته ، وإن رزق فهمًا يرتقى إلى معاملة الحق ومناجاته، فقد تعجّل دخول الجنة قبل الممات ، نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - همة عالية تسْمُو إلى الكمال، وتوفيقًا لصالح الأعمال ، فالسالكون طريق الحق أفراد .

١٦٨ - فصل : الاستفادة من العمر

تأملت أحوال الناس فى حالة علو شأنهم ، فرأيت أكثر الخلق تبين خسارهم حينئذ ، فمنهم من بالغ فى المعاصى من الشباب ، ومنهم من فرّط اكتساب العلم ، ومنهم من أكثر من الاستمْتاع باللذات حينئذ ، فكلهم نادم فى حالة الكبر حين فوات الاستدْرَاك لذنوب سلفت ، أو قُوًى ضعفت أو فضيلة فاتت ، فيمضى زمان الكبر فى حَسَرات .

فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سَلَفت قال : واأسفا على ما جنَيْت ، وإن لم يكن له إفاقة ، صار متأسِّفًا على فوات ما كان يلتذّ به ، فأما من أنفق عصر الشباب فى العلم، فإنه فى زمن الشيخوخة يحمد جَنْى ما غرس ، ويتلذّ بتصنيف ما جمع ، ولا يرى ما يفْقد من لذات البدن شيئًا بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم، هذا مع وجود لذاته

(١) أى لا يدخل عليهم .

فى الطلب الذى كان تأمل به إدراك المطلوب وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها؛ كما قال الشاعر :

أَهْتَزُّ عِنْدَ تَمَنِّى وَصْلِهَا طَرَبًا وَرُبَّ أُمْنِيَةٍ أَحْلَى مِنَ الظَّفَرِ[1]

ولقد تأملت نفسى بالإضافة إلى عشيرتى الذين أنفقوا أعمارهم فى اكتساب الدنيا ، وأنفقت زمن الصبوة والشباب فى طلب العلم ، فرأيتنى لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لى ندمت عليه ، ثم تأملت حالى فإذا عيشى فى الدنيا أجود من عيشهم ، وجاهى بين الناس أعلى من جاههم ، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم ، فقال لى إبليس : ونسيت تعبك وسهرك . فقلت له : أيها الجاهل ، تقطيع الأيدى لا وقع له عند رؤية يوسف ، وما طالت طريق أدت إلى صديق :

جَزَى اللهُ المَسِيرَ إِلَيْهِ خَيرًا وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْـمَزَادِ

ولقد كنت فى حلاوة طلبى العلم ألقى من الشدائد ما هو عندى أحلى من العسل ؛ لأجل ما أطلب وأرجو ، كنت فى زمان الصبا آخذ معى أرغفة يابسة فأخرج فى طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعين همتى لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندى أنى عرفت بكثرة سماعى لحديث سير الرسول ﷺ وأحواله وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم ، فصرت فى معرفة طريقه كابن أجود ، وأثمر ذلك عندى من المعاملة ما لا يُدْرك بالعلم ، حتى إننى أذكر فى زمان الصبوة ووقت الغلمة والعُزْبة ، قدرتى على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزُّلال ، ولم يمنعنى عنها إلا ما أثمر عندى العلم من خوف الله - عزَّ وجَلَّ - ، ولولا خطايا لا يخلو منها البَشَر ، لقد كنت أخاف على نفسى من العُجْب ، غير أنه - عزَّ وجَلَّ - صاننى وعلمنى وأطلعنى من أسرار العلم على معرفته ، وإيثار الخلوة به ؛ حتى أنه لو حضر معى معروف وبشر لرأيتهما رحمة .

ثم عاد فغمسنى فى التقصير والتفريط حتى رأيت أقل الناس خيرًا منى ، وتارة يوقظنى لقيام الليل ولذة مناجاته ، وتارة يحرمنى ذلك مع سلامة بدنى ، ولولا بشارة العلم بأن هذا نوع تهذيب وتأديب ، لخرجت إما إلى العُجْب عند العمل ، وإما إلى اليأس عند البطالة، لكن رجائى فى فضله قد عادل خوفى منه ، وقد يغلب الرجاء بقوة أسبابه ؛ لأنى رأيت قد ربانى منذ كنت طفلاً ، فإن أبى مات وأنا لا أعقل به ، والأم لم تلتفت إلىّ ، فركز فى طبعى حب العلم، وما زال يوقعنى على المهم فالمهم ، ويحملنى إلى من

---

(١) الظفر : الفوز .

يحملني على الأصوب ، حتى قوم أمري ، وكم قد قصدني عدو فصدّه عني ، وإذ رأيته قد نصرني وبصرني ، ودافع عني ووهب لي قوى رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي ، ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف ، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس ، وكم سالت عين متجبّر بوعظي لم تكن تسيل ، ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام .

وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي ، ولقد جلست يومًا فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رقّ قلبه ، أو دمعت عينه ، فقلت لنفسي : كيف بك إن نَجَوْا وهلكت : فصحت بلسان وجدي : إلهي وسيدي ، إن قضيت عليّ بالعذاب غدًا فلا تعلمهم بعذابي ؛ صيانة لكرمك لا لأجلي ؛ لئلا يقولوا عذّب من دلّ عليه .

إلهي ، قد قيل لنبيك - ﷺ - : اقتل ابن أبيٍّ المنافق فقال : « **لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه** » [1] ، إلهي ، فاحفظ حسن عقائدهم فيَّ بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك ، حاشاك والله يا رب من تكدير الصافي :

لا تَبْرِ عُـــودًا أنْتَ رَيَّشْــتَهُ [2] حَـــاشَا لِبَانِي الْجُودِ أنْ يَنْقُضَا
لا تُعْطِـــشِ الزَّرْعَ الَّذِي نَبْتُهُ بِصَـــوْبِ إِنْعَامِكَ قَدْ رُوِّضَا [3]

١٦٩ - فصل : التوسط أصلح المقامات

من الأمور التي تخفى على العاقل ، أن يرى أنه متى لم يكن عنده امرأة أو جارية يهواها هوًى شديدًا ، أنه لا يلتذُّ في الدنيا ، فإذا صور محبوبًا مملوكًا تخايل لذة عظيمة ، وإذا كان عنده من لا يميل إليه ، اعتقد نفسه محرومًا ، وهذا أمر شديد الخفاء ، فينبغي أن يوضَّح ؛ وهو أن المملوك مملول ، ومتى قَدَر الإنسان على ما يشتهيه ، ملّه ومال إلى غيره ؛ تارة لبيان عيوبه التي تكشفها المخالطة ، فإنه قد قال الحكماء : العشق يعمى عن عيوب المحبوب ، وتارة لمكان القدرة عليه ، والنفس لا تزال تتطلع إلى ما لا تقدر عليه .

ثم لو قدّرنا دوام المحبة مع القُدْرة ، فإنها قد تكون ولكن ناقصة بمقدار القدرة ، وإنما يقويها تَجنّي المحبوب ، فيكون تجنّيه كالامتناع ، أو امتناعه من الموافقة .

فإذا صفا فلا بد من أكْدَار : منها الحذر عليه ، ومنها قلة ميْله إلى هذا العاشق ،

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٥١٨)، والترمذي في التفسير (٣٣١٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) أصلحته . (٣) أي أنزلت المطر وصار الزرع روضة .

وربَّما تكلَّف القرب منه ويعلم الإنسان بقلة ميل محبُوبه إليه فينغص بل يبغض ، فإن خاف منه خيانة ، احتاج إلى حراسته فقوِيت النُّغَص ، وأصلح المقامات التوسط ، وهو اختيار ما تميل النفس إليه ولا يرتقى إلى مقام العشق ، فإن العاشق فى عذاب ، وإنما يتخايل الفارغ من العشق التذاذ العاشق وليس كذلك ، فإنه كما قيل :

وَمَا فِى الأَرْضِ أشْقَى مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى عَذْبَ الْمَذَاقِ

تَرَاهُ بَاكِيًا فِى كُلِّ وَقْتٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لاشْتِيَاقِ

فَيَبْكِى إِنْ نَأَوْا[1] شَوْقًا إِلَيْهِمْ ... وَيَبْكِى إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الْفِرَاقِ

فَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّدَانِى ... وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الْفِرَاقِ

١٧٠ - فصل : تفاوت الهمم والآمال

ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علوِّ همته ؛ فإن من علت همته ، يختار المعالى ، وربما لا يساعد الزمان ، وقد تضعُف الآلة ، فيبقى فى عذاب ، وإنى أُعطيت من علوِّ الهمة طرفًا فأنابه فى عذاب ، ولا أقول : ليته لم يكن ، فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادة اللَّذة بنقصان العقل .

ولقدْ رأيت أقوامًا يصفون علو هِمَمِهم ، فتأملتها فإذا بها فى فن واحد ، ولا يُبَالُون بالنقص فيما هو أهم ؛ قال الرَّضِىُّ :

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِى النُّحُولِ بَلِيَّةٌ ... وَبَلاءُ جِسْمِى مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِى

فنظرت فإذا غاية أمله الإمَارة ، وكان أبو مُسْلِم الخراسانىُّ[2] فى حال شبِيبَته لا يكاد ينام، فقيل له فى ذلك ، فقال : ذهْن صاف ، وهمّ بعيد ، ونفس تتُوق إلى معالى الأُمور ، مع عيش كعيْش الهمَج الرِّعاع[3] قيل : فما الذى يبرد غَليلك ، قال : الظفر بالمُلْك . قيل : فاطْلبه ، قال : لا يطلب إلا بالأموال ، قيل : فاركب الأهوال ، قال : العقْل مانع ، قيل : فما تصنع ؟ قال : سأجعل من عَقْلى جهلاً ، وأحاول به خطرًا لا يُنال إلا بالجهل ، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به ، فإن الخمول أخو العدم ، فنظرت إلى حال هذا المسكين ، فإذا به قد ضيع أهم المهمّات وهو جانب الآخرة ، وانتصب فى طلب الولايات ، فكم فتك وقتل حتى نَالَ بعض مرَاده من لذّات الدنيا ، ثم لم يتَنَعَّم

---

(١) نأوا : بعدوا .

(٢) هو عبد الرحمن بن مسلم ، ويقال : ابن عثمان بن يسار الخراسانى قتل سنة (١٣٣ هـ) .

(٣) الهمج الرعاع : الحمقى السفلة .

فى ذلك غير ثمان سنين ، ثم اعتيل ونَسِىَ تدبير العقل ، فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال ، وكان المتنبى يقول :

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ … وَمَرْكُوبُهُ رِجْلاهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ
وَلَكِنَّ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَىَّ مَالَهُ … مَدًى يَنْتَهِى بِى فِى مُرَادٍ أَحُدُّهُ
تَرَى جِسْمَهُ يُكْسَى شُفُوفًا تَرُبُّهُ … فَيَخْتَارُ أَنْ يُكْسَى دُرُوعًا تَهُدُّهُ

فتأملت هذا الآخر ، فإذا نهمته [1] فيما يتعلق بالدنيا فحسب ، ونظَرْت إلى علو همَّتى ، فرأيتها عجبًا ، وذلك أننى أروم [2] من العلم ما أتيقن أنى لا أصل إليه ؛ لأننى أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنُونها ، وأريد استقصَاء كل فرد ، هذا أمر يعْجَز العمر عن بعْضه .

فإن عرض لى همة فى فن قد بلغ منْتهاه ، رأيته ناقصًا فى غيره ، فلا أعد همته تامة ، مثل المحدِّث فاته الفقه ، والفقيه فاته علم الحديث ، فلا أرى الرضا بنقصان من العلوم إلا حادثًا عن نقص الهمة ، ثم إنى أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوقُ إلى ورع بِشْر ، وزهادة معْرُوف ، وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد .

ثم إنى أروم الغنى عن الخلق وأستشرف الإفضال عليهم والاشتغال بالعلم مانع من الكسب وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية .

ثم إنى أتوق إلى طلب الأولاد ، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف ؛ ليبقى الخلفان [3] نائبين عنى بعد التلف ، وفى طلب ذلك ما فيه من شُغْل القلب المحبِّ للتفرد ، ثم إنى أروم الاستمتاع بالمستَحْسَنات ، وفى ذلك امتناع من جِهَة قلة المال ، ثم لو حَصَل ، فرَّق جمع الهمة .

وكذلك أطلب لِبَدنى ما يُصْلحه من المطاعم والمشَارب ، فإنه متعوِّد للترفُّه واللطف، وفى قلة المال مانع ، وكل ذلك جَمْع بين أضداد ، فأين أنا وما وصفته من حالِ من كانت غاية همَّته الدنيا ، وأنا لا أحب أن يخْدش حصولُ شىء من الدنيا وجْه دينى بسبب ، ولا أن يؤثِّر فى علمى ولا فى عملى .

فواقلقى من طلَب قيام اللَّيل ، وتحقيق الورَع مع إعادة العلم وشغل القلب بالتصانيف،

---

(١) نهمته : أى بلوغ الهمة .　　(٢) سبق تعريفها .
(٣) المقصود بالخلفان العلم الذى ينتفع به ، والولد الصالح الذى يدعو له .

وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم ، وواأسفى على ما يفوتُنى من المناجاة فى الخَلْوة مع ملاقاة الناس وتعليمِهم ، ويا كَدَر الورع مع طلب ما لا بُدَّ منه للعائلة ، غير أنى قد استسلمت لتعذيبى ، ولعل تهْديبى فى تعديبى ؛ لأن علو الهمة تطلب المعالى المقربة إلى الحق - عزَّ وجَلَّ - ، وربَّما كانت الحيرة فى الطلب دليلاً إلى المقصود ، وها أنا أحفظ أنفاسى من أن يضيع منها نَفَس فى غير فائدة ، وإن بلغ همى مراده ، وإلا فنيّة المؤمن أبلغ من عمله

١٧١ - فصل : الترويح عن النفوس

لما سطَرْت هذا الفصل المتقدم ، رأيت ادِّكار النفس بما لا بدَّ لها فى الطريق منه ، وهو أنه لا بدّ لها من التلطف ، فإنّ قاطع مرحلتين فى مرحلة خليقٌ بأن يقف ، فينبغى أن يقطع الطَّريق بألطف ممكن ، وإذا تعبت الرَّواحل ، نهض الحادى يغنيها، وأخذُ الراحة للجُدّ جد وغوص السَّابح فى طلب الدر صعُود ، ودوام السّير يحسر[1] الإبل والمفازة صعبة .

ومن أراد أن يرى التلطّف بالنفس ، فلينظر فى سير الرَّسول ﷺ فإنه كان يتلطف بنفسه، ويمازِح ويخالط النّساء ، ويقبِّل ويمُصّ اللسان ، ويختار المستحسنات ، ويُستَعْذب له الماء ويَختَار الماء البارد ، والأوْفق من المطَاعم كلحم الظهر والذراع والحلوى ، وهذا كلّه بالنَاقة فى طريق السير . فأمَّا من جرّد عليها السوط ، فإنه يوشك ألا يقطع الطريق ، وقد قال ﷺ : « **إنَّ هَذَا الَّدينَ متين فأَوْغلُوا فيه برفْق ، فإنَّ المنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ وَلا ظَهْرًا أَبْقَى** » [2] ، واعلَم أنه ينبغى للعاقل أن يغالط نفسه فيما يكْشف العقل عن عوَاره [3] ، فإن فكر المتيقظ يسبق قبل مباشرة المرأة إلى أنها اعتناق بجسد يحتوى على قَذَارَة ، وقبل بلَع اللقمة أنها متقلبة فى الرِّيق ولو أخرجها الإنسان لفظها . ولو فكر فى قُرْب الموت وما يجْرى عليه بعده ، لبغض عاجل لذته ، فلا بدّ من مغالطة تجرى ؛ لينتفع الإنسان بعيشه؛ كما قال لَبيدٌ [4] :

فَاكْـــــذِبِ النَّفْس إذَا حَدَّثْتَهَا   إنَّ صدْقَ النَّفسِ يُزْرى بِالأمَلْ

---

(١) يحسر : يتعب .

(٢) أحمد (٣/ ١٩٩) ، والعجلونى فى كشف الخفاء (٧٩٤) ، وعزاه للبزار قلت : فيه يحيى بن المتوكل وهو كذاب ، قلت والمنبت هو المنقطع عن الركب .

(٣) العوار : العيب .

(٤) هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى أبو عقيل ، وفد على النبى فى وفد بنى كلاب

وقال البُستيُّ (١) :

أفدْ طَبْعَكَ الْمَكْدُودَ (٢) بِالْهَمِّ رَاحة ... تُجـــمُّ وَعَلِّلْهُ بشَىْءٍ منَ الْمَزْحِ
وَلَكِـــنْ إِذَا أعْطَيْتَهُ ذَاكَ فَلْيَكُـــنْ ... بِمِقْدَارِ مَا يُعْطَــى الطَّعَامُ مِنَ الْمِلْحِ

وقال أبو عَلىٌّ بْنُ الشِّبْلِ (٣) :

وإذَا هَـمَمْتَ فَنَاجِ نَفْسَــكَ بالْمُنَى ... وَعْدًا فَخَيْرَاتُ الْجِـنَانِ عِدَاتُ (٤)
وَاجْعَلْ رَجَاءَكَ دُونَ يَأْسِـكَ جُنَّةً ... حَـتَّى تَزُولَ بِهَـمِّكَ الأوْقَاتُ
وَاسْـتُرْ عَنِ الْجُلَسَاءِ بَثَّكَ (٥) إنَّمَا ... جُـلَسَـاؤُكَ الْحُسَّـادُ والشُّـمَّاتُ
وَدَعِ التَّوَقُّـعَ لِلْحَـوَادِثِ إِنَّهُ ... لِلْحَـيِّ مِنْ قَبْلِ الْمَـمَاتِ مَمات
فَالْهَـمُّ لَيْسَ لَهُ ثَبَـاتٌ مِثْلَ مَا ... فِـى أَهْـلِه مَا لِلسُّـرُورِ ثَبَاتُ
لَـوْلا مُغَالَطَـةُ النُّفُوسِ عُقُـولَهَا ... لَمْ يَصْـفُ لِلْمُتَيَقِّظِـينَ حَـيَاةُ

وقال أيضًا :

بِحِفْظِ الْجِسْمِ تَبْقَى النَّفْسُ فِيهِ ... بَقَاءُ النَّارِ تُحْـفَظُ بِالْوِعَاءِ
فَبِالْيَأْسِ الممض (٦) فَلا تُمِتْـهَا ... وَلا تَمْدُدْ لَهَا طُـولَ الرَّجَـاءِ
وَعِدْهَا فِى شَـدَائِدِهَا رَخَاءً ... وَذَكِّـرْهَا الشَّدَائِدَ فِى الرَّخَاءِ
يُعَدُّ صَـلاحُهَا هَذَا وَهَذَا ... وَبِالتَّرْكِـيبِ مَنْفَـعَةُ الدَّوَاءِ

وقد كان عُمُوم السلف يخضبون الشيب ؛ لئلا يرى الإنسان منهم ما يكره ، وإن كان الخضَاب لا يعدم النفس علمها بذلك ، ولكنه نوع مخادَعة للنفس وما زَالت النفوس ترى الظَّاهر، وإنما الفكر والعقل مع الغَائب ، ولا بد من مغالَطة تجرى ليَتمَّ العَيْش ، ولو عمل العالم بمُقتَضى قصر الأمل ، ما كتب العلْم ولا صنَّف .

فافهم هذا الفصل مع الذى تقدَّمه ؛ فإن الأوّل فى مقام العزيمة ، وهذا فى مكَان الرُّخصة ، ولا بد للتَّعب من راحة وإعانة ، والله - عَزَّ وجَلَّ - معك على قدر صدْق الطلب وقوة اللَّجْأ، وخلْع الحول والقوة ، وهو الموفق.

---

(١) البستى هو أبو الفتح على بن محمد الكاتب البُستى الشاعر المشهور توفى سنة (٤٠١) ، وقيل: سنة (٤٠٠ هـ) .

(٢) المكدود : المتعب .

(٣) هو أبو على محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن الشبلى توفى سنة (٤٧٣ هـ) .

(٤) العدات : الوعود . (٥) بثك : حالك . (٦) الممض : المتعب .

١٧٢ - فصل . فى تعليم التدبير

قوام الآدمى بشيئين : الحرارة والرّطوبة ، ومنْ شأن الحرارة أن تحلّل الرطوبة وتفنيها ، فالآدمى محتاج إلى تحصيل خلف للمتحلل ، فأبدان النشوء تغتَذى بأكثر مما يتحلّل منها ، والأبدان المتناهية تغتذى بمقدار ما يتحلل منها ، والأبدان التى قد أخذت فى الهرم يتحلّل منها أكثر مما تغتَذى به ولا تتشبع مما تغتذى به . وينبغى للناشئ البالغ أن يتحفّظ فى النّكاح ؛ لأنه بعفته يربّى قاعدة قوة يجد أثرها فى الكبَر ، وأما المتوسط والواقف السّن فينبغى أن يحْذَر فضول الجماع ، فإن حصل له مثل ما يحرج منه فأسرف ، فاللازم أحدٌ من الحاصل ، ويوشك أن يسَرع النفاد ، وأما الشيخ فترك النكاح كاللازم له ، خصوصًا إذا زاد علوّ السن ؛ لأنه ينفق من الجوهر الذى لا يحصل مثْله أبدًا ، ثم ينبغى أن ينظر العاقل فى ماله فيكْتَسب أكثر مما ينْفق ؛ ليكون الفاضل مدّخرًا لوقت العجز ، وليحذر السَّرَف ؛ فإن العدل هو الأصلح .

ثم ينظر فى الزَّوجة ، والمطلوب منها شيئان : وجُود الولد ، وتدْبير المنزل ، فإذا كانت مبذِّرة ، فعيبٌ لا يحتمل ، فإن انضمّت صفة العُقْر فلا وجه للإمساك ، إلا أن تكون مستحسنة الصّورة ، فإن ضم إليها عقل وعفاف حَسُن الإمساك ، وإن كانت مما يحتاج أن تحْفظ فتركها لازم ، فأما الخدَم فليجتهد فى تحصيل خَادم لا تستعبده الشّهوة ، فإن عبد الشهوة له مولًى غير سيده ، ولينظر المالك فى طبع المَمْلُوك ، فمنهم من لا يأتى إلا على الإكرام فيكرمه فإنه يربح محبته ، ومنهم من لا يأتى إلا على الإهانة فليداره وليعرض عن الذُّنوب ، فإن لم يمكن عاتب بلطف ، وليحْذر العقوبة ما أمكن ، وليجعل للمَماليك زَمن راحة ، والعجب ممن يُعْنَى بدابته وينسى مداراة جاريته ، وأجود المماليك الصِّغار وكذلك الزَّوجات ؛ لأنهم متعوِّدون خلق المشترى .

وليحفظ نفسه بالهَيْبَة من الانحراف مع الزوجة ؛ ولا يطلعها على ماله ؛ فإنها سفيهة تطلب كثرة الإنْفَاق .

وأما تدبير الأولاد فحفظهم من مخالَطة تفسد مستقبلهم ، ومتى كان الصبى ذا أَنَفَة - حييا - رجى خيره ، وليُحْمل على صحبة الأشراف والعلماء ، وليحذّر من مصاحبة للجُهَّال والسفهاء ؛ فإن الطبع لِص ، وليحذّر الصبى من الكذب غاية التحذير ، ومن المخالطة للصِّبيان المعوجين وليوصيه بزيادة البرِّ للوَالديْن ، وليُحفظ من مخالطة النِّساء ، فإذا بلغ فليزوَّج بصبية لم تعرف غيره فينتفعان ، هذه الإشارة إلى تدبير أمور الدنيا

فأما تدبير العلم فينبغى أن يحمل الصبى من حين يبلغ خمس سنين على التَّشَاغل

بالقرآن والفقه وسماع الحديث ، وليحصل له المحفوظات أكثر من المسْمُوعات ؛ لأن زمان الحفظ إلى خمس عشرة سنة ، فإذا بَلَغ تشتتت همته ، فليُضرب تارة ، ويُرْشى أخرى ؛ ليبلغ وقد حصل محفُوظات سَنِّية .

وأوّل ما ينْبغى أن يكلف حفظ القرآن متقنًا ، فإنه يثبت ويختلط باللّحم والدم ، ثم مقدِّمة من النحو يعرف بها اللَّحن ، ثم الفقه مذهبًا وخلافًا ، وما أمكن بعد هذا من العُلُوم فحفظه حسن .

وليحْذر من عادات أصحاب الحديث، فإنهم يفنون الزَّمان فى سماع الأجزاء التى تتكرر فيها الأحاديث ، فيذهب العُمُر وما حصّلوا فهم شىء ، فإذا بلغوا سِنا طلَبوا جواز فتوى، أو قرَاءة جزء من القرآن ، فعادوا القَهْقَرى ، يحفظون بعد كِبر السن فلا يحْصُل مقصودهم ، فالحفظ فى الصِّبا للمهم من العِلْم أصل عظيم .

وقد رأينا كثيرًا ممن تشاغل بالمسمُوعات وكتابة الأجزاء ، ورأى الحفظ صعبًا فمال إلى الأسهل ، فمضى عمره فى ذلك ، فلما احتاج إلى نفسه قعد يتحفّظ على كبر فلم يحْصُل مقصوده ، فاليقظة لفهم ما ذكرت وانظر فى الإخلاص ، فما ينْفَع شىء دونه .

١٧٣ - فصل : عقبى التفريط

اشتد الغلاء ببغْدَاد فى أول سنة خمس وسبعين ، وكلَّما جاء الشَّعير زاد السعر ، وتدافع النَّاس على اشتراء الطعام ، فاغتبط [١] من يستعد كل سَنَة بزرع ما يقُوته ، وفرح من بادَر فى أوّل النيسان إلى اشتراء الطعام فإنه يضاعف ثمنه ، وأخرج الفقراء ما فى بيُوتهم فرموه فى سوقِ الهوان ، وبان ذُلُّ نفوس كانت عزيزة .

فقُلت : يا نفس ، خذى من هذه الحال إشارة ؛ ليغبطَنَّ من له عمل صالح وقت الحاجة إليه ، وليفرَحنّ من له جوابٌ عند إقبال المسألة ، وكل الويل على المفرِّط الذى لا ينْظر فى عاقبته فتنبَّهى ، فقد نبهت ناسا الدنيا على أمر الآخرة ، وبادرى موسم الزرع مادامت الرُّوح فى البدن ، فالزَّمان كله « تشْرين » قبل أن يدْخل « نيسان » الحَصاد ، ومالكِ زرع ، وحاجة المفْتَقرين إلى أموالهم تمنعهم من الإيثار .

١٧٤ - فصل : الخوف من الله

تأملت حالة أزعجتنى ، وهو أن الرَّجل قد يفعل مع امرأته كلّ جميل وهى لا تحبه ،

---

(١) الغبطة : حسن الحال .

وكذا يفعَل مع صديقه والصّديق يبغَضُه ، وقد يتقرّب إلى السلطان بكل ما يقْدِر عليه والسلطان لا يؤثره ؛ فيبقى متحيّرًا يقول : ما حيلتى ، فخفْت أن تكون هذه حالتى مع الخالَق - سبحانه - ، أتقرّب إليه وهو لا يريدُنى ، وربما يكون قد كتَبنى شقيا فى الأزل، ومن هذا خاف الحسن فقال : أخاف أن يكون اطلع على بعض ذنوبى ، فقال : لا غَفَرت لك ، فليس إلا القلق والخوف ، لعل سفينة الرَّجَاء تسلم يوم دخولها الشاطئ من جُرْف [1] .

١٧٥ - فصل : عدد الأحاديث المروية عن النبى ﷺ

جرى بينى وبين أصحاب الحديث كلامٌ فى قول الإمام أحمد : صحَّ من الحديث عن رسُول الله ﷺ سبْعمائة ألف حديث ، فقلت له : إنما يعنى به الطرق ، فقال : لا بل المُتُون ، فقلت : هذا بعيد التصور .

ثم رأيت لأبى عبد الله الحاكم كلامًا ينصر ما قال ذلك الشّخص ، وهو أنه قال فى كتاب « المدخل إلى كتاب الإكليل » كيف يجُوز أن يقال: إن حديث رسُول الله ﷺ لا يبلغ عَشْرة آلاف حديث ، وقد رَوَى عنه من أصحابه أرْبَعة آلاف رجُل وامرأة صحبُوه نَيِّفًا وعشرين سنة بمكة ثم بالمدينة ، حفظوا أقواله وأفعاله ونومه ويقظته وحركاته وغير ذلك ، سوى ما حفظوا من أحكام الشريعة ، واحتج بقول أحمد : صحَّ من الحديث عن رسُول الله ﷺ سبعمائة ألف حديث وكَسْر ، وإن إسحاق بن راهويه كان يُمْلى سبعين ألف حديث حفظًا ، وأن أبا العباس بن عقدة قال : أحفظ لأهل البيت ثلاثَمائة ألف حديث ، قال ابن عقدة : وظهر لابن كريب بالكُوفة ثلاثمائة ألف حديث .

قلت : ولا يَحْسن أن يشار بهذا إلى المتون ، وقد عجبت كيف خَفى هذا على الحاكم وهو يعلم أن أجمع المسانيد الظاهرة مُسْنَد أحمد بن حنبل ، وقد طاف الدُّنيا مرتين حتى حَصَّله وهو أربعون ألف حديث ، منها عشرة آلاف مكرَّرة ، قال حنبل بن إسحاق : جَمَعنا أحمد بن حنبل أنا وصالح وعبد الله [2] وقرأ علينا المسْنَد ، وقال لنا : هذا كتاب جمعته من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألفًا ، فما اختلف المسلمون فيه من حَدِيث رسول الله ﷺ فارْجعوا إليه ، فإن وجدتموه وإلا فليس بحجّة .

أفترى يخفى على متيَقظ أنه أراد بكونه جمعه من سبعمائة ألف أنه أراد الطرق ؛ لأن السبعمائة الألف إن كانت من كَلام رسول الله ﷺ فكيف أهْملها .

---

(١) جرف : ما تجرفه السيول وتأكله من الأرض .   (٢) صالح وعبد الله أولاد الإمام أحمد .

فإن قيل : فقد أخرج فى مسنده أشياء ضعيفة ، ثم أعوذ بالله أن يكون سبعمائة ألف ما تحقق منها سوى ثلاثين ألفًا ، وكيف ضاعت هذه الجملة ؟ ولم أهملت وقد وصَلَت كلُّها لى زمن أحمد ، فانتَقَى منها ورمى الباقى .

وأصْحاب الحديث قد كَتَبُوا كل شىء من الموضوع والكَذب ، وكذلك قال أبو داود : جمعت كتَاب السُّنن من ستمائة ألف حديث ، ولا يحسن أن يقال : إن الصحابة الذين روُوها ماتوا ولم يحدّثوا بها التابعين ، فإن الأمر قد وصل إلى أحمد فأحصى سبعمائة ألف حديث ، وما كان الأمر ليذهب هكذا عاجلاً ، ومعلوم أنه لو جمع الصّحيح والمحال [1] الموضوع وكل منقُول عن رسُول الله - ﷺ - ما بلغ خمسين ألفًا ، فأين الباقى.

ولا يجُوز أن يقال : تلك الأحاديث كلام التابعين ؛ فإن الفقهاء نقلوا مذَاهب القوم ودوَّنوها وأخذوا بها ، ولا وجْه لتركها ، ففهم كل ذى لُبٍّ أن الإشارة إلى الطرق ، وأنّ ما توهمه الحاكم فاسد ، ولو عرَض هذا الاعتراض عليه ، وقيل له : فأين الباقى ؟ لم يكن له جواب ، لكن الفهم عزيز ، والله المنعم بالتَّوْفيق .

ومثل هذا تغْفيل قوم قالُوا : إن البُخَارىّ لم يخرِّج كل ما صح عنده ، وأن ما أخرج كالأُنموذج ، وإلا فكان يطول ، وقد ذهب إلى نحو هذا أبو بكر الإسماعيلى ، وحكى عن البخارى أنه قال : ما تركت من الصَّحيح أكثر ، وإنما يعنى الطرق ؛ يدل على ما قلته : أن الدارقُطْنىَّ - وهو سيِّد الحفَّاظ - جمع ما يلزم البُخَارىَّ ومُسْلمًا فبلغ ما لم يذكره أحاديث يَسيرةً ، ولو كان كما قالوا ، لأخرج مجلّدات ، ثم قوله : « ما يلزم البُخَارىَّ » : دليلٌ صريحٌ على ما قلته ؛ لأنه من أخرج الأُنموذج لا يلزمه شىء .

وكذلك أخرج أبو عبد الله الحاكم كتابًا جمَع فيه ما يلزم البُخَارىَّ إخراجه ، فذكر حديث الطَّائر ، فلم يلتفت الحفَّاظ إلى ما قاله .

فما أقل فهم هؤُلاء الذين شغلهم الحَديث ، عن التدْقيق الذى لا يلزم فى صحَّة الحديث ، وإنما وقع لقلة الفقه والفَهْم .

إن البخارىَّ ومسلمًا تركَا أحاديثَ أقوام ثقات ؛ لأنهم خولفوا فى الحديث ، فنقص الأكثرون من الحديث ،وزادوا ، ولو كان ثم فقْه لعلموا أن الزيادة من الثقة مقْبُولة ، وتركوا أحاديث أقوام ، لأنهم انفردوا بالرِّواية عن شخص ، ومعلوم أن انفراد الثِّقة لا عيب فيه ، وتركوا من ذلك الغرائب ، وكل ذلك سوءُ فهم ، ولهذا لم يلتزم الفقهاء

(١) المحال : الكذب .

هذا ، وقالُوا : الزيادة من الثِّقة مقبولة ، ولا يقبل القَدْح [1] حتى يبين سبَبُه ، وكل من لم يخالط الفُقَهَاء وجَهَدَ مع المحدثين ، تأذى وساء فهْمُه ، فالحمد لله الذى أنعم علينا بالحَالَتَيْن .

١٧٦ - فصل : فقه النحو واللغة

اعلم أن الله - عَزَّ وجَلَّ - وضع فى النفوس أشياء لا تحتاج إلى دليل ، فالنفوس تعلَمُها ضرورة ، وأكثر الخلق لا يحْسِنُون التعبير عنها ، فإنه وضع فى النَّفس أن المصنوع لا بدَّ له من صانع ، وأن المبنىّ لا بد له من بانٍ ، وأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الجسم الواحد لا يكون فى مكَانَيْن فى حالة واحدة ، ومثل هذه الأشياء لا تحتاج إلى دليل .

وألهم العَرَب النطق بالصّواب من غير لحْن ، فهم يفَرِّقون بين المرفُوع ، والمنصوب بأمارات فى جبلتهم [2] ، وإن عجزوا عن النطق بالعلَّة ، قال عثمان بن جنّى : سألت يومًا أبا عبد الله محمد بن العسَّاف العقيلى فقلت له : كيف تقُول ضربت أخُوك ؟ فقال : أقول : ضربت أخَاك ، فأدَرْته على الرفع فأبَى ، وقال : لا أقول أخُوك أبدًا . قال : فكيف تقول : ضربنى أخوك ؛ فرفَع ، فقلت : ألیس زَعَمْت أنك لا تقول : أخوك أبدًا ، فقال إيش هذا ، اختلفت جهَتَا فى الكلام .

وهذا أدل شىء على تأملهم مواقع الكلام ، وإعطائهم إياه فى كل موضع حقّه ، وأنه ليس استرسالاً ولا ترخيمًا [3] .

قال عثمان : واللُّغة هى أصوات يعبر بها كل قوم عن أغرَاضهم ، والنحو : انتحاء سَمْت كلام العرب فى تصرُّفه من إعراب وغيره ؛ كالتثنية ، والجمع ، والتَّكْسير وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل اللغة أهْلَها .

١٧٧ - فصل : المتيقظون والغافلون

تدبّرت أحوال الأخيار والأشرار ، فرأيت سبَبَ صلاح الأخيار النظر ، وسبب فساد الأشرار إهْمال النظر ، وذاك أن العاقل يَنْظر فيعلم أنه لا بد له من صانع ، وأن طاعته لازمة ، ويتأمل معْجزات رسول الله - ﷺ - فيسلم قِيَادَه إلى الشرع ، ثم ينظر فيما يقربه إليه ويزلفه لديه ، فإذا شقَّ عليه إعادة العلم ، تأمّل ثمرته فسهل ذلك ، وإذا صعُبَ عليه قيام الليل فكذلك ، وإذا رأى مشْتَهًى تأمل عاقبته فعلم أن اللذة تفْنى ، والعَار

---

(١) القدح : العيب الذى يجرح الشخص . (٢) جبلتهم : طبيعتهم .
(٣) الترخيم : الحذف .

والإثم يبقيان ، فيَسْهُل عليه الترك ، وإذا اشتهى الانتقام ممن يؤذيه ، ذكر ثَوَاب الصبر ، وندم الغَضْبان على أفعاله فى حال الغَضَب

ثم لا يزال يتأمل سُرْعة مرّ العمر ، فيغتنمه بتحصيل أفْضل الفضائل فينال مُنَاهُ .

وأمّا الغافل فإنه لا يرى إلا الشيء الحاضر ، فمنهم من لم يتأمّل فى معنى المصْنُوع وإثبات الصانع ، فَجَحَدُوا وتركوا النظر ، وجَحَدُوا الرسل وما جاءوا به ، ونَظَرُوا إلى العاجل ولم يتفكروا فى مبدئه ومُنْتَهاه .

فليس عندهم من عرْفان المطعم إلا الأكل ، ولو تأمّلوا كيف أُنْشئ ؛ ولماذا جعل حافظًا للأبدان ؟ لعرفوا حَقائق الأمُور ، وكذلك كل شَهْوة تعرض لهم لا يَنْظُرون فى عاقبتها ، بل فى عاجل لذّتها ، وكم قد جَنَتْ عليهم من وُقُوع حدٌّ وقطع يد وفَضِيحَة ، فتعجيل اللّذة يفوِّت الفضائل ، ويحصِّل الرذائل ، وسبَبُه عدم النظر فى العَوَاقب ، وهذا شُغْل العقل ، وذاك المذْمُوم شغل الهوى ، نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - يقظةً تُرينا العواقب، وتكْشِف لنا الفضائل والمعَائب ، إنه قادر على ذلك .

١٧٨ - فصل : الهمم العالية

خُلقَت لى همَّة عالية تطلب الغَايَات ، بلغْتُ السّن وما بلغت ما أمَلت [١] ، فأخذت أسأل تطويل العمر ، وتقْوية البدن ، وبلوغ الآمال ، فأنكرت علىّ العَادات وقالت : ما جرَت عادة بما تطْلُب ، فقلت : إنما أطلب من قادر على تجاوز العادات ، وقد قيل لرَجُل: لنا حُوَيْجَة ، فقال : اطلبوا لها رجيلا [٢] . وقيل لآخر : جئناك فى حاجة لا تَرْزَؤُك [٣] ، فقال: هلا طلبتم لها سَفَاسِفَ [٤] الناس .

فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هَذَا ، فَلِمَ لا نطمع فى فضْل كريم قادر ، وقد سألته هذا السُّؤَال فى ربيع الآخر من سنَة خمس وسَبْعين ، فإن مُدَّ لى أجل وبلغت ما أمَلْتُه ، نقلت هذا الفصل إلى ما بعد وبيَّضته ، وأخبرت ببلُوغ آمالى ، وإن لم يتَّفق ذلك ، فسيِّدى أعلم بالمصَالح ؛ فإنه لا يمنع بُخْلاً، ولا حول إلا به

١٧٩ - فصل : فساد بعض المتصوفة

ما أقلّ من يعمل لله - تعالى - خالصًا ؛ لأنّ أكثر الناس يحبُّون ظهور عبادَاتهم ، وسفيان الثورى كان يقول : لا أعتَدُّ مما ظهر من عمَلى ، وكانوا يسْتُرون أنفسهم ،

---

(١) أمّلت ما وصلت إلى ما تريد
(٢) حويجة تصغير حاجة ، ورجيلا تصغير رجلا
(٣) الرزء المصيبة
(٤) سفاسف جمع سفساف وهو الردىء

واليوم ثياب القوم تُشْهِرُهم ، وقد كان أيوب السَّخْتِيَانى [1] يطوّل قميصَه حتى يقع على قَدَمَيْه ، ويقول : كانت الشُّهرة فى التَّطْويل ، واليوم الشُّهرة فى التقصير ، فاعلم أن ترك النَّظر إلى الخلق ، ومحو الجاه من قلوبهم بالتَّعمل وإخلاص القصْد وستر الحال ، هو الذى رفع من رَفَع ، فقد كان أحمد بن حنبل يمْشى حافيًا فى وقت ونعلاه فى يَدَيْه ويخرج للقاط ، وبشْر يمشى حافيًا على الدّوام وحده ، ومعروف يلتقطُ النَّوى ، واليوم صارت الرِّياسات أكثر من كل حاجة ، وما تتمكّن الرِّياسات حتى تتمكن من القلب الغَفْلة ، ورؤيَة الخلق ، ونسيان الحَقّ ، فحينئذ تطلب الرِّياسة على أهل الدنيا .

ولقد رأيت من الناس عجبًا ، حتى من يتزيًّا بالعلم ، إن رآنى أمشى وحدى ، أنكر علَىَّ ، وإن رآنى أزُور فقيرًا عظَّم ذلك ، وإن رآنى أنبسط بتبسم ، نقَصْت من عينه .

فقلت : فواعَجبًا ، هذه كانت طريق الرَّسول - ﷺ - والصحابة - رضى الله عنهم - فصارت أحوال الخلق نواميسَ لإقامة الجاه ، لا جَرَم والله سقَطْتم من عين الحق ، فأسقطكم من عين الخَلْق ، فكم ممَّن يتعب فى تربية نَامُوس ولا يلْتَفت إليه ولا يحْظى بمراده ، ويفوته المُرَاد الأكبر ، فالتفتوا إخوانى إلى إصلاح النِّيات ، وترك التَّزيُّن للخلق، ولتكن عُمْدَتكم الاستقامة مع الحق ، فبذلك صعد السَّلف وسعدوا ، وإياكم وما الناس عليه اليَوْم ؛ فإنه بالإضافة إلى يقظة السلف نَوْم .

١٨٠ - فصل : هدى الله للإنسان

والله ما ينفع تأديب الوالد إذا لم يسبق اختيار الخالق لذلك الوَلَد ، فإنه - سبحانه - إذا أراد شخصًا ، ربَّاه من طفولته ، وهدَاهُ إلى الصواب ، ودلَّه على الرشاد ، وحبَّب إليه ما يَصْلح ، وصحبّه من يُصْلح ، وبغَّض إليه ضد ذلك ، وقبَّح عنده سفْسَاف الأُمور، وعصَمه من القبائح ، وأخذ بيده كلَّما عثر .

وإذا أبغض شخصًا ، تركه دائم التَّعثير متخبِّطًا فى كل حال ، ولم يخْلُق له همَّة لطلب المعَالى ، وشغله بالرذائل عن الفضائل ، وإن قال لم خصصت بهذا ، قال الخطاب الذى لا يجاب : ﴿ **فبما كسبت أيديكم** ﴾ [2] .

١٨١ - فصل : وفى أنفسكم أفلا تبصرون

مِنْ أكبرِ الدليل على وجود الخالق - سبحانه - أنَّ هذه النفسَ الناطقة المميّزةَ المحرِّكة

---

(١) هو الإمام الحافظ أبو بكر بن أبى تيمية كيسان البصرى توفى سنة (١٣١ هـ) .
(٢) سورة الشورى ، آية : ٣٠ .

ما أمكَنَ تحصيلُه من العلوم ، وشاهدت الصانع فى المصنوع ، فلم يحجبْها ستر ، وإنْ تكاثف ، ولا يُعْرف مع هذا : ماهيتها ، ولا كيفيتها ، ولا جوهرها ، ولا محلها ولا يُفْهم من أين جاءت ، ولا يُدْرى أين تذهب ، ولا كيف تعلقت بهذا الجسد .

وهذا كله يوجب عليها أنَّ لها مُدبِّرًا وخالقًا . وكفى بذلك دليلاً عليه . إذْ لو كانت وجدت بها ، لما خفيتْ أحْوالها عليها . فسُبْحانه سبحانه .

١٨٢ - فَصْلٌ : جهل الصوفية معرفة العلم

سُبْحَان مَنْ مَنّ على الخلق بالعلماء الفقهاء ، الذين فَهِمُوا مقصودَ الأمْر ، ومُرَادَ الشارع ، فهم حفظةُ الشريعة ؛ فأحسنَ اللهُ جزاءهم ، وإنَّ الشيطان ليتجافاهم ؛ خوفًا منهم ، فإنهم يقدرون على أذاه ، وهو لا يقدر على أذاهم .

ولقد تلاعب بأهل الجهْل ، والقليلى الفهم ، وكان من أعجب تلاعبه أنْ حسّن لأقوام تَرْكَ العلم ، ثم لم يَقْنعُوا بهذا حتى قَدَحُوا فى المتشاغَلين به . وهذا لو فهموه قدحٌ فى الشريعة ؛ فإن رسولَ الله ﷺ يقول : « بَلِّغُوا عنّى »[1] . وقد قال له ربُّه - عزَّ وجَلَّ -: ﴿ بَلِّغْ ﴾[2] ، فإذا لم يتشاغل بالعلم فكيف يبلغ الشريعة إلى الخلق ؟

ولقد نُقِلَ مثلُ هذا عن كبار الزهَّاد «لبشر الحَافى» فإنه قال لعبَّاسِ بْنِ عَبْد الْعَظِيم[3]: لا تجالسْ أصحابَ الحديثِ ، وقال لإسحاق بْنَ الضَّيِّف[4] : إنك صاحبُ حديثٍ ؛ فأحبّ ألا تعود إلىّ ، ثم اعتذر فقال : إنما الحديثُ فتْنةٌ إلا لمن أراد الله به . وإذا لم يعمل به فتركه أفضلُ . وهذا عجب منه ! من أين له أنَّ طلابه لا يريدون الله به، وأنهم لا يعملون به .

أو ليس العمل به على ضربين .

عمل بما يجب ، وذلك لا يسع أحدًا تركُه.

والثانى : نافلة ولا يلزم ، والتشاغل بالحديث أفضلُ من التَّنَفل بالصوم والصلاة .

---

(٢) رواه البخارى فى الأنبياء ، (٣٤٦١) ، والترمذى فى العلم (٢٦٦٩) ، وقال : حسن صحيح ، وأحمد (١٥٩/٢) .

(٢) جزء من آية سورة المائدة ، آية : ٦٧

(٣) هو العباس بن عبد العظيم بن إسماعيل العنبرى أبو الفضل البصرى ثقة حافظ توفى سنة (٢٤٠ هـ) ، وقيل : سنة (٢٤٦ هـ) .

(٤) إسحاق بن الضيف ، وقيل : ابن إبراهيم بن الضيف الباهلى أبو يعقوب العسكرى بصرى نزل مصر توفى بعد المائتين .

وما أظنه أراد إلا طريقه فى دَوَام الجوع والتهجد ؛ وذلك شىء لا يلامُ تاركُه . فإن كان يُريد ألا يوغل فى علوم الحديث ، فهذا خطأ ؛ لأن جميع أقسامه محمودة . أفترى لو ترك الناسُ طلبَ الحديث كان بشرٌ يفتى ! فاللهَ اللهَ فى الالتفاتِ إلى قول مَنْ ليس بفقه ، ولا يهولَنَّك تعظيمُ اسمه فالله يعفو عنه .

١٨٣ - فَصْلٌ : جانب الله أحق أن يرعى

العاقلُ مَنْ يحفظُ جانبَ الله - عَزَّ وجَلَّ - وإن غضب الخلق . وكل مَن يحفظ جانب المخلوقين ، ويُضيع حقَ الخالق - يقلّبُ الله قلبَ الذى قصد أن يُرْضيه ، فيسخطه عليه .

قال المَأْمُونُ لبعض أصْحابه : لا تعصِ الله بطاعتى ؛ فيسلّطنى عليك . ولما بالغ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ فيما فَعَلَ بالأمينِ ، وفتك به ، وصلب رأسَه - وإن كان ذلك عن إرادة المأمُون ، ولكن بقى أثر ذلك فى قلبه ؛ فكان المأمون لا يقدرُ أن يراه . ولقد دخل عليه يومًا فَبَكى المأمونُ ، فقال له طَاهرٌ : لِمَ تبك لا أبكى الله عينك ! فلقد دانت لك البلاد ؟ فقال : أبْكى لأمرٍ ذكْره ذُل ، وسرُّه حُزنٌ ، ولن يخلو أحدٌ مِنْ شجن .

فلما خرج طَاهرٌ نفذ إلى حُسَيْنٍ الخادم مائتى ألف درهم ، وسأله أن يسأل المأمونَ : لِمَ بكى ؟ فلما تغدى المأمون قال : يا حُسَيْنُ اسقنى . قال : لا والله لا أسقيك حتى تقول لى : لِمَ بكيت حين دخل عليك طَاهرٌ ؟ قال : يا حُسَيْنُ ، وكيف عنيت بهذا حتى سألت عنه ؟ قال : لغمى بذلك .

قال : يا حسينُ ، أمرٌ إن خرج من رأسك قتلتك .

قال : يا سيدى ، ومتى أخرجت لك سرًا ؟

قال : إنى ذكرت أخى محمدًا وما ناله من الذلة ؛ فخنقتنى العبرةُ [1] ؛ فاسترحت إلى إفاضتها . ولن يفوت طاهرًا من ما يكره . فأخبر حُسَيْنٌ طاهرًا بذلك ، فركب طَاهرٌ إلى أحْمَدَ بنِ أبِى خَالد ، فقال له : إن المعروف عندى ليس بضائع ؛ فغيبنى عن عينه. قال: سأفعل ، فدخل على المأمُون فقال : ما بتُّ البارحةَ .

قال : ولِمَ ؟ قال : لأنك وليت غسَّانَ بْنَ عبَّادٍ خُرَاسَانَ . وهو ومَنْ معه أكلةُ رأس ، فأخاف أن يخرج خارجٌ من الترك فيصطلم [2] .

---

(١) أى غلبنى البكاء .

(٢) يصطلم : يستأصل ويوقع .

قال : فمن ترى ؟ قال : طَاهِرُ بنُ الحُسَيْن . فعقد له ، فمضى ، فبقى مدة ثم قطع الدعاء للمَأمُون على المنبر يوم الجمعة ؛ فقال له صاحبُ البريد : ما دعوتَ لأمير المؤمنين! قال : سهو ، فلا تكتب .

ففعل ذلك فى الجمعة الثانية والثالثة ؛ فقال له : لابد أنْ أكتب ؛ لئلا يكتب التجار ويسبقونى ، قال : اكتب ؛ فكتب ، فدعا المأمونُ أحمدَ بنَ أبى خَالد وقال : إنه لم يذهب علىّ احتيالك فى أمر طاهر ، وأنا أُعطى الله عهدًا إنْ لم تشخص ؛ حتى توافينى به ، كما أخرجته من قبضتى ، لتذمنَّ عُقْباك ؛ فشخص وجعل يتلوم [1] فى الطريق، ويعتلُّ بالمرض ، فوصل إلى الرىّ ، وقد بلغته وفاةُ طَاهِر .

قلت : ولما خرج الرَّاشدُ من بغداد وأرادوا توليةَ المُقْتَفِى - شهد جماعةٌ من الشهود بأن الراشدَ لا يصلح للخلافة ؛ فنزعوه ، وولوا المقتَفِى ، فبلغنى أنه ذكر للمقتفى بعض الشهود فذمه ، وقال : كان فِيمَنْ أعان على أبى جَعْفَر .

وعلى ضِدّ هذا كل مَنْ يُرَاعى جانب الحق والصواب ، يرضى عنه من سخط عليه . ولقد حدثنى الوزيرُ ابنُ هُبَيْرَة : أن المستنجد بالله كتب إليه كتابًا ، وهو يومئذ ولى عهد، وأراد أنْ يستره من أبيه ، قال : فقلتُ للواصل به : والله ما يمكنُنى أقرؤه ولا أُجِيبَ عنه، فلما ولى الخلافة دخلت عليه ، فقلت : أكبرُ دَلِيل على صدقى ، وإخلاصى أنى ما حابيتك فى أبيك . فقال : صدقت أنت الوزيرُ .

وحدثنى بعضُ الأصدقاء أن قومًا ألحقوا إلى المخزن بعضَ دين لهم ؛ ليستخلص ، فقال المسترشدُ لصاحب المخزن : خلِّصْه لهم ، وخُذْ ما ضمنوا لنا .

فأحضر ابْنَ الرطبى وعرض الأمر عليه ، فقال : هذا أمر بظلم ؛ وما أحكم فيه .

فقال : إن السلطان قد تقدم ، قال : ما أفعل . فأحضر قاضيًا آخر ؛ فبتَّ الحكم ، فأخبر الخليفة بالحال .

فقال : أمَّا ابنُ الرطبى فيشكر على ما قال ، وأما الآخر فيعزل ؛ وذلك لأنه بان له أن الحق ما قاله ابنُ الرطبى . وكذلك ما طلبه السلطان من أن يُلَقَّب ملك الملوك . فاستفتى الفقهاءَ ، فأجازوا ذلك ، وامتنع من إجارته الماوردى ، فعظم قدره عند السلطان ومثل هذا إذا تُتُبع كثيرٌ . فينبغى أن يحسن القصد لطاعة الخالق ، وإن سخط المخلوق ، فإنه يعود صاغرًا ولا يسخط الخالق ؛ فإنه يسخط المخلوق ؛ فيفوت الحظان جميعًا .

---

(١) يتلوم : ينتظر .

١٨٤ - فصل : الأصول والصور

ينبغى للعاقل أن ينظر إلى الأصول فيمن يخالطه ، ويعاشرُه ، ويشاركُه ، ويصادقه ، ويزوجه أو يتزوج إليه . ثم ينظر بعد ذلك فى الصور ، فإن صلاحها دليلٌ على صلاح الباطن .

أما الأُصول فإن الشىء يرجع إلى أصله ؛ وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن . وإن المرأة الحسناء إذا كانت من بيت ردىء ، فقل أن تكون صينة ، وكذلك أيضًا المخالطُ ، والصديقُ ، والمباضع ، والمعاشر ؛ فإياك أن تخالط إلا من له أصل يخاف عليه الدَّنَس ، فالغالبُ معه السلامة ، وإن وقع ذلك كان نادرًا .

وقد قال عُمَرُ بنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رضى الله عنه - لرجل : أشِرْ علىّ فيمن أستعمل .

فقال : أما أربابُ الدين فلا يريدونك أى لا يسألونك الرياسة ، وأما أرباب الدنيا فلا تردهم . ولكن عليك بالأشراف ؛ فإنهم يصونون شرفهم عما لا يصلح . وقد روى أبُو بَكْرٍ الصُّولىُّ ، قال : حدثنى الحسينُ بنُ يَحْيَى عن إسحاق قال : دعانى المعْتَصِمُ يومًا فأدخلنى معه الحمام ، ثم خرج ، فخلا بى وقال : يَا أَبَا إسحاق ، فى نفسى شىء أُريد أن أسألك عنه ، إن أخى المأْمُونَ اصطنع قومًا فأنجبوا ، واصطفيتُ أنا مثلهم فلم ينجبوا، قلتُ : ومَنْ هم ؟ قال: اصطنع طاهرًا وابنَهُ ، وإسحاق، وآل سهل ؛ فقد رأيت كيف هم ! واصطنعتُ أنا الأَفْشِينَ [(١)] ؛ فقد رأيت إلى ما آل أمره ، وأسناشَ فلم أجدْه شيئًا، وكذلك إيتاخُ ، ووَصِيفٌ . قلت : يا أمير المؤمنين ، ههنا جواب علىّ أمان من الغضب.

قال : لك ذاك ، قلتُ : نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها ؛ فأنجبت فروعًا ، واستعملت فُروعًا لا أصول لها ؛ فلم تنجب ، فقال : يا أبا إسحاق ، مُقاساة ما مرَّ بى طول هذه المدة أهونُ علىّ من هذا الجواب . أما الصورُ ، فإنه متى صحت البنية ، ولم يكن فيها عيبٌ ؛ فالغالب صحةُ الباطن ، وحسن الخلق ، ومتى كان فيها عيب ؛ فالعيب فى الباطن أيضًا ، فاحذر مَنْ به عاهةٌ : كالأَقْرع ، والأَعْمى ، وغير ذلك ؛ فإن بواطنهم فى الغالب رَدِيّة ، ثم مع معرفة أُصُولِ المخالط ، وكمالِ صورته لا بد من التجربة قبل المخالطة ؛ واستعمالُ الحذَرِ لازم ، وإن كان كما ينبغى

١٨٥ - فصل : النظر فى العواقب

ينبغى أن يكون شغلُ العاقل فى العواقب ، والتحرُّز مما يمكن أن يكون . ومن الغلط

---

(١) أفشين : اسم أعجمى كما فى القاموس .

النظرُ فى الحالة الحاضرة ؛ الموافقة لمعاشه ، ولصحة بدنه ، وربما لا يجرى له مصحوبه ، فينبغى أن يعمل على انقطاع ذلك ، فيكون مستعدًا لتغير الأحوال .

وكذلك ينبغى النظر فى لذة تَفْنَى وتبقى تبعتُها وعارها ، وإيثارُ الكسل ، والدعة لما يجىء بعدهما من بقاء الجهل . وكذلك تحصيلُ المرادات التى لا تحصل إلا بالتلطف فى الاحتيال ، خُصُوصًا إذا أريد مَنْ ذكى ؛ فإنه يفطُن بأقل تلويح [1] ، فمن أراد غلبة الذكى دَقَّقَ النظر، وتلطَّفَ فى الاحتيال ، وقد ذُكِر فى كتب الحِيَل ما يَشْحَذُ [2] الخواطر، وأتينا بجملة منه فى كتاب « الأذكياء » ، مثل ما روى : أن رجلاً من الأشراف كان لا يقوم لأحد ، ولا يخشى أحدًا ، فجاز عليه بعضُ الوزراء وحيى فلم يردَّ ، ولم يقم ؛ فقال ذاك الوزير لرجل : أخْبِرْ فلانًا أنى قد كلمتُ أميرَ المؤمنين فى حقه . وقد أمر له بمائة ألف ؛ فليحضر ليقبضَهَا ، فأخبره ذلك الرجل ؛ فقال الشريفُ : إن كان أمر لى بشىء فلينفذْهُ لى ، وإنما مقصودُه أن يضع منى بالتردد عليه . فمتى وقع الإنسان مع ذَكىّ، فينبغى أن يتحرز منه ، ويسرقَ أغراضه بصنوف الاحتيال ، وينظر فيما يجوز وقوعه فليحترزُ منه كما ينظر صاحب الرقعة النقلات .

وكثير من الأذكياء لم يقدروا على أغراضهم من ذكى ؛ فأعطوه ، وبالغوا فى إكرامه ليصيدوه . فإن كان قليلَ الفطنة وقع فى الشرك ، وإن كان أقوى منهم ذكاء علم أن تحت هذه النية خبيئا ؛ فزاده ذلك احترازًا .

وأقوى ما ينبغى أن يكون الاحترازُ من مَوْتُور ، فإنك إذا آذيت شخصًا ، فقد غرّست فى قلبه عداوة ؛ فلا تَأْمَنْ تفريع تلك الشجرة ، ولا تلتفت إلى ما يظهر من وُدٍّ ، وإن حلف ؛ فإن قاربته فكن منه على حذر .

ومن التغفل أن تعاقب شخصا أو تسىء إليه إساءة عظيمة ، وتعلم أن مثل ذلك يجدد الحقد ، فتراه ذليلا لك طائعا تائبا مقلعاً عما فعل ، فتعود فتستطيبه وتنسى ما فعلت ، وتظن أنه قد انمحى من قلبه ما أسلفت .

فربما عمل لك المحن ، ونصب لك المكايد ، كما جرى لقصير من الزباء ، وأخباره معروفة ، فإياك أن تساكن من آذيته ، بل إن كان ولا بد فمن خارج فما تؤمن الأحقاد. ومتى رأيت عدوك فيه غفلة لا يتنبه مثل هذا فأحسن إليه ، فإنه ينسى عداوتك ولا يظن أنك قد أضمرت له جزاء على قبح فعله ، فحينئذ تقدر على بلوغ كل غرض منه .

---

(١) تلويح : إشارة .

(٢) شحذ : منع ، وشاحذت الناقة أى رفعت ذنبها فالوته إلواء شديداً ، وأشحذ الكلب أى أغراه، وشحذ الخواطر أى تجعلها تفطن لأقل شىء كما فى القاموس .

ومن الخور [1] إظهار العداوة للعدو ، ومن أحسن التدبير التلطف بالأعداء إلى أن يمكن كسر شوكتهم . ولو لم يمكن ذاك كان اللطف سببا فى كف أكفهم عن الأذى ، وفيهم من يستحى لحسن فعلك فيتغير قلبه لك .

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن رجلا قد شتمهم أهدوا إليه وأعطوه ، فهم بالعاجل يكفون شره ، ويحتالون فى تقليب قلبه ، ويقع بذلك لهم مهلة لتدبير الحيل عليه إن أرادوا ، وكفى بالذهن الناظر إلى العواقب والتأمل لكل ممكن مؤدباً .

١٨٦ - فصل : فى حفْظ السِّرِّ

رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم ، فإذا ظهر عاتبوا مَنْ أخبروا به . فواعجبًا كيف ضاقوا بحبسه ذَرْعًا ثم لامُوا مَن أفشاه ! وفى الحديث : « **اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاء أُمُورِكُمْ بِالْكِتْمَان** » [2] ولعمرى إن النفس يصعب عليها كتمُ الشيء ، وترى بإفشائه راحة ؛ خصوصاً إذا كان مرضًا ، أو همًا ، أو عشْقًا ، وهذه الأشياء فى إفشائها قرينة . إنما اللازم كتمانه احتيالُ المحتال فيما يريد أن يحصل به غرضًا ، فإن من سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه ؛ فإنه إذا ظهر بطل ما يريد أن يفعل ، ولا عذر لمن أفشى هذا النوع . وقد كان النبى - ﷺ - إذا أراد غزوا ورّى بغَيْره [3] . فإن قال قائل : إنما أحدّث من أثق به قيل له : وكل حديث جاوز الاثنين شائع . وربما لم يكتم صديقُك . وكم قد سمعنا من يحدث من الملوك بالقبض على صاحب ، فنم الحديث إلى الصاحب وهرب ؛ ففات السلطانُ مرادَهُ . وإنما الرجل الحازم الذى لا يتعداه سرُّه ، ولا يفشيه إلى أحد ، ومن العجز إفشاء السر إلى الولد ، والزوجة .

والمالُ من جملة السر ، فإطلاعُهم عليه إن كان كثيرًا فربما تمنوا هلاك المورُوث ، وإن كان قليلاً تبرَّمُوا بوجوده ، وربما طلبوا من الكَثير على مقدار كَثرته ؛ فأتلفتْهُ النفقاتُ .

وسترُ المصائب من جملة كتمان السر ؛ لأن إظهارها يَسُرُّ الشامتَ ، ويُؤْلم المحبَّ

وكذلك ينبغى أن يكتم مقدار السن ؛ لأنه إنْ كان كبيرًا استهرموه ، وإن كان صغيرًا احتقروه . ومما قد انهال فيه كثيرٌ منَ المفرطين أنهم يذكرون بين أصدقائهم أميرًا ، أو

---

(١) الخور : الوهن والضعف .

(٢) الطبرانى في الكبير (٢٠/ ١٨٣) ، وأبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢١٥) ، والعجلونى فى كشف الخفاء (١/ ١٣٥) ، وعزاه للطبرانى وأبو نعيم بسند ضعيف ، وقال : أخرجه العسكرى ، والبيهقى ، وابن أبى الدنيا والقضاعى بسند ضعيف .

(٣) رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٤٧) ، ومسلم فى التوبة (٢٧٦٩/ ٥٤) .

سُلْطانًا فيقولون فيه ، فيبلغ ذلك إليه ، فيكون سبب الهلاك . وربما رأى الرجل مِنْ صديقه إخلاصًا وافيًا فأشاع سره . وقد قيلَ :

احْـــــذَرْ عَـــــدُوَّكَ مَرَّةً   وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ

فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّـــدِيق   فَكَـــــانَ أَدْرَى بِالْمَضَرَّهْ

ورُبَّ مفشٍ سره إلى زوجة ، أو صديق ؛ فيصير بذلك رهينا عنده ، ولا يتجاسرُ [1] أن يطلق الزوجةَ ، ولا أن يهجر الصديقَ ؛ مخافةَ أن يظهر سره القبيح .

فالحازمُ مَنْ عامل الناس بالظاهر ، فلا يضيق صدره بسره ؛ فإن فارقته امرأة ، أو صديقٌ ، أو خادم - لم يقدِر أحد منهم أن يقول فيه ما يكره . ومِنْ أعظم الأسرار الخلواتُ ، فليحذر الحازم فيها من الانبساط بمرأى من مخلوق . ومَنْ خُلِق له عقلٌ ثاقب دلَّه على الصواب قبل الوصايا .

١٨٧ - فصل : فى طريق الاستذكار

ما رأيتُ أصعبَ على النفس من الحفظ للعلم والتكرار له ، وخصوصًا تكرارُ ما ليس لها فى نفس تكراره وحفظه حظ ، مثل مسائل الفقه ، بخلاف الشعر والسجع ، فإن لها لذة فى إعادته ، وإن كان صعبا ؛ لأنها تلتذُّ به مرة ومرتين ، فإذا زاد التكرارُ صَعُب عليها ، ولكن دون صعوبة الفقه ، وغيره من المستحسنات عند الطبع ، فتراها تخلدُ إلى الحديث ، والشعر ، والتصانيف ، والنسخ ؛ لأنه يمر بها كل لحظة ما لم تره ، فهو فى المعنى كالماء الجارى ؛ لأنه جزء بعد جزء .

وكذا من ينسخ ما يحب أن يسمعه أو يصنف، فإنه يَلْتَذُّ بالجدة ، ويستريح من تعب الإعادة ، إلا أنه ينبغى للعاقل أن يكون جُلَّ زمانه للإعادة ، خصوصًا الصبى ، والشابُّ؛ فإنه يستقر المحفوظ عندهما استقرارًا لا يزول ، ويجعل أوقاتَ التعب من الإعادة للنسخ ، ويحذر من تفلتها إلى النسخ عند الإعادة فيقهرها ، فإنه يحمد ذلك حمد السرىُّ وقت الصباح ، وسيندم مَنْ لم يحفظ ندم الكسعى [2] وقت الحاجة إلى النظر والفتوى ، وفى الحفظ نُكْتَةٌ ينبغى أن تُلْحَظَ ، وهو أن الفقيه يحفظ الدرس ويُعيده ؛ ثم يتركه فينساه ؛ فيحتاج إلى زمان آخر لحفظه ، فينبغى أن يُحْكِم الحفظ ، ويكثر التكرار ؛ ليثبت قاعدة الحفظ .

---

(١) يتجاسر : يتجرأ .   (٢) الكسعى : شخص يضرب به المثل فى الندم .

١٨٨ – فصل : العزلة النافعة

ما أعرفُ نفعًا كالعزلة عن الخلق ، خصوصًا للعالم والزاهد ؛ فإنك لا تكاد ترى إلا شامتًا بنكبة ، أو حَسُودًا على نعمة ، أو مَنْ يأخذ عليك غلطاتك ؛ فيا للعُزْلة ما ألَذّها! سلمت من كَدر [(١)] غيبَة ، وآفات تصنُّع ، وأحوال المداجاة [(٢)] ، وتضييع الوقت . ثم خلا فيها القلبُ بالفكر ؛ بعد ما كان مشغولا عنه بالمخالطة ، فدبر أمر دنياه وآخرته ، فمثله كمثل الحِمْيَة يخلو فيها المعى بالأخلاط فيذيبها .

وما رأيت مثل ما يصنع المخالط ، لأنه يرى حالته الحاضرة من لقاء الناس ، وكلامهم ؛ فيشتغل بها عما بين يديه . فمثله كمثل رجل يريد سفرًا قد أزِفَ ، فجالس أقوامًا ؛ فشغلوه بالحديث حتى ضرب البوق [(٣)] وما تزود ، فلو لم يكن فى العزلة إلا التفكيرُ فى زاد الرحيل ، والسلامة من شر المخالطة كفى .

ثم لا عزلة على الحقيقة إلا للعالم والزاهد ؛ فإنهما يعلمان مقصودَ العُزْلة ، وإن كانا لا فى عزلة .

أما العالم : فعلمه مُؤْنِسُه ، وكتبه محدِّثُه ، والنظر فى سيَر السلف مقوِّمُه ، والتفكر فى حوادث الزمان السابق فرجُته . فإن ترقى بعلمه إلى مقام المعرفة الكاملة للخالق سبحانه ، وتشبَّثَ بأذيال محبته – تضاعفَتْ لذاتُه ، واشتغل بها عن الأكْوان وما فيها ؛ فخلا بحبيبه ، وعمل معه بمقتضى علمه .

وكذلك الزاهدُ : تعبده أنِيسُه ، ومعبوده جليسُه ، فإن كشف لبصره عن المعمول معه، غاب عن الخلق ، وغابوا عنه .

إنما اعتزلا ما يؤذى ، فهما فى الوحدة بين جماعةٌ . فهذان رجلان قد سلما من شر الخلق ، وسلم الخلقُ من شرورهما ، بل هما قدوة للمتعبدين ، وعلَم للسالكين . ينتفع بكلامهما السامعُ . وتُجرى موعظتُهما المدامعْ ، وتنتشر هيبتهما فى المجامعْ . فمن أراد أن يتشبه بأحدهما فليصابر الخلوة ، وإن كرهها ليثمرْ له الصبر العسل .

وأعوذ بالله من عالم مخالط للعالم ، خصوصًا لأرباب المال والسلاطين تجتلب ، ويُجتلب ، ويختلب ويُختلب [(٤)] فما يحصل له شىء من الدنيا إلا وقد ذهب من دينه أمثاله . ثم أين الأنفةُ من الذل للفساق ، فالذى لا يبالى بذلك هو الذى لا يذوق طعم

---

(١) الكدر : التعكير
(٢) المداجاة : المداراة
(٣) البوق : آلة ينفخ فيها
(٤) يختلب ويُختلب : يَخدع ويُخدع .

العلم ، ولا يدرى ما المراد به ، وكأنه به وقد وقع فى بادية جرز [1] ، وقفر أملِ مهلك فى تلك البَرارى .

وكذلك المتزهد إذا خالط وخلط ، فإنه يخرج إلى الرياء والتصنُّع ، والنفاق ؛ فيفوته الحظَّانِ لا الدنيا ونعيمها تحصل له ، ولا الآخرة . فنسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - خَلْوة حُلْوة، وعُزْلةً عن الشر لذيذة ، يستصلحنا فيها لمناجَاتهْ ، ويُلْهِمُ كلا مَنّا طلب نجاتهْ ، إنه قريب مجيب .

١٨٩ - فصل : الاستعداد للموت

ما أبلهَ من لا يعلم متى يأتيه الموت ! وهو لا يستعد للقائه ، وأشدُّ الناس بلَهًا ، وتغفيلاً مَنْ قد عبر السِّتِينَ ، وقارب السبعين ، فإن ما بينهما هو مُعْتَرَكُ المنايا . ومن نازل المعترك استعد ، وهو غافل عن الاستعداد :

قَالَ الشَّـــــبَابُ لَعَلَّنَا فِى شَيْبِنَا   نَدَعُ الذُّنُوبَ فَمَا يَقُولُ الأَشْيَبُ

والله إن الضحك من الشيخ ماله معنى ، وإن المزاح منه باردُ المعنى ، وإن تعرضه بالدنيا وقد دفعته عنها ، يضعف القُوَى ويضعف الرأى .

وهل بقى لابن ستِّينَ منزلٌ ؟ فإن طمع فى السبعينَ فإنما يرتقى إليها بعناء شديد ؛ إن قام دفع الأرض ، وإن مشى لهث ، وإن قعد تنفس ، ويرى شهوات الدنيا ولا يقدرُ على تناولها : فإن أكل كد المعدَةَ ، وصعُب الهضمُ ، وإن وطئ آذى المرأة ، ووقع دَنفًا [2] لا يقدر على رد ما ذهب من القوة إلى مدة طويلة . فهو يعيش عَيْشَ الأسير . فإنْ طمع فى الثمانين فهو يزحف إليها زحف الصغير :

وَعَشْرُ الثَّمَانِينَ مَنْ خَاضَهَا   فَإِنَّ الْمُلِمَّاتِ فِيهَا فُنُـــــونْ

فالعاقل من فَهم مقادير الزمان ؛ فإنه - فيما قيل - قبل البلوغ صبى ليس على عمره عيارٌ ، إلا أن يُرْزق فطْنة ، ففى بعض الصبيان فطنةٌ تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم ، فإذا بلغ فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى ، وتعلم العلم .

فإذا رُزق الأولادَ فهو زمان الكسب للمعاملة ، فإذا بلغ الأربعين انتهى تمامه . وقضى مناسك الأجل ، ولم يبق إلا الانحدار إلى الوطن :

---

(١) جرز : هى التى لا نبات فيها مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً .... ﴾ [السجدة : ٢٧] .

(٢) دنفا : مريضاً .

كَأنَّ الْفَتَى يَرْقَى مِنَ الْعُمْرِ مَعْلَمًا   إلَى أنْ يَحُوزَ الأرْبَعِينَ وَيَنْحَـطُّ

فيبغى له عند تمام الأربعين أن يجعل جلّ همته التزود للآخرة ، ويكون كل تلمحه لما بين يديه ، ويأخذ فى الاستعداد للرحيل ، وإن كان الخطاب بهذا لابن عشرين ، إلا أن رجاء التدارك فى حق الصغير لا فى حق الكبير . فإذا بلغ الستين فقد أعذر اللهُ إليه فى الأجل ، وجاز من الزمن أخطره . فليقبل بكليته على جمع زاده ، وتهيئة آلات السفر ، وليعتقد كل يوم يحيا فيه غنيمة ما هى فى الحساب ؛ حصوصًا إذا قوى عليه الضعف وزاد، وكلما علت سنه فينبغى أن يزيد اجتهاده . فإذا دخل فى عَشْرِ الثمانين فليس إلا الوداع . وما بقى من العمر إلا أسف على تفريط ، أو تعبد على ضعف .

نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - يقظة تامة ؛ تصرف عنا رُقَادَ الغفلات ، وعملاً صالحًا ؛ نأمن معه من الندم يوم الانتقال . والله الموفق .

١٩٠ - فصل : خطر الخوض فى علم الكلام

ما نهى السَّلَفُ عن الخوْض فى الكلام إلا لأمرٍ عظيم ، وهو أن الإنسان يريد أن ينظر ما لا يقوى عليه بصره ؛ فربما تحير فخرج إلى الحجب ، لأنَّا إذا نظرنا فى ذات الخالق، حار العقلُ ، وبُهِتَ الحس ؛ فهو لا يعرف شيئًا لا بداية له ، إنه لا يعلم إلا الجسم ، والجوهر ، والعرض ، فإثبات ما يخرج عن ذاك لا يفهمه ، وإن نظرنا فى أفعاله رأيناه يحكم البناء ثم ينقضه ، ولا نطلع على تلك الحكمة ، فالأولى للعاقل أن يكُف كَفَّ التطلع إلى ما لا يطيق النظر إليه ، ومتى قام العقل فنظر فى دليل وجود الخالق بمصنوعاته ، وأجاز بعثة نبى ، واستدلّ بمعجزاته ؛ كفاه ذلك أن يتعرض لما قد أغنى عنه، وإذا قال القرآنُ كلامُ الله تعالى ؛ بدليل قوله : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ الله ﴾ [1] كفاه . وأما من تَحَذْلَقَ [2] فقال : التلاوةُ هى المتلوُّ أو غير المتلو ، والقراءةُ هى المقرُوءُ أوْ غَيْرُ المقروءِ ؛ فيضيع الزمان فى غير تحصيل ، والمقصود العمل بما فُهِم .

وقد حُكِى أنَّ ملكًا كتب إلى عماله فى البلدان : إنى قادم عليكم فاعملوا كذا وكذا ، ففعلوا إلا واحدًا منهم ، فإنه قعد يتفكر فى الكتاب ؛ فيقول : أترى كتبه بمداد ، أو بحبر ؟ أتُرَى كتبه قائمًا ، أو قاعدًا ؟ فما زال يتفكر حتى قدم الملك ، ولم يعمل مما أمره به شيئاً ، فأحسن جوائز الكل ، وقتل هذا .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ٦ .   (٢) تحذلق : ادعى المهارة .

١٩١ – فصل : السعادة الحقيقية

لقد غفل طلابُ الدنيا عن اللذة فيها ، وما اللذةُ فيها إلا شرفُ العلم ، وزهرة العفة ، وأنَفَةُ الحمِيَّة ، وعزُّ القناعة ، وحلاوةُ الإفضال على الخلق .

فأما الالْتذاذُ بالمطعم والمنكح ، فشغلُ جَاهلٍ باللذة ؛ لأن ذاك لا يُراد لنفسه ، بل لإقامة العوض فى البدن والولد ، وأىُّ لذة فى النكاح ، وهى قبل المُبَاشَرَة لا تحصل ، وفى حال المباشرة قَلَقٌ لا يثبت وعند انقضائها ، كأن لم تكن ، ثم يثمر الضعف فى البدن وأىُّ لذة فى جمع المال فضلاً عن الحاجة ؟ فإنه مستعبد للخازن ، يبيت حَذِرًا عليه، ويدعوه قليله إلى كثيره . وأى لذة فى المطعم ، وعند الجوع يستوى خَشِنُه ، وحَسَنُه ؟ فإن ازداد الأكل خاطر بنفسه .

قال عَلَىُّ بْنُ أَبِى طَالِب – رضى الله عنه : بُنِيَت الفتنةُ على ثلاث : النساء : وهن فَخُّ إبْلِيسَ المنصوبُ ، والشَّرَابُ : وهو سيفُهُ المرهَفُ ، والدِّينارُ والدِّرْهَمُ : وهما سهماه المسْمُومَان . فمنْ مال إلى النساء لم يَصْفُ له عيشٌ ، ومَنْ أحبَّ الشراب لم يُمَتَّعْ بعقله، ومن أحب الدينار والدرهم ، كان عبدًا لهما ما عاش .

١٩٢ – فصل : عدم قياس أمر الخالق على أحوال الخلق

أصل كُلّ محنة فى العقائد قياسُ أمرِ الخالق على أحوال الخلق ؛ فإنَّ الفلاسفة لما رأوا إيجادَ شَىْء لا من شىء كالمستحيل فى العادات – قالوا بقِدَم العالم ، ولما عَظُم عندهم فى العادة الإحاطة بكل شىء – قالوا : إنه يعلم الجمل لا التفاصيل ، ولما رأوا تلف الأبدان بالبلاء – أنكروا إعادتها . وقالوا : الإعادة رجوع الأرواح إلى معادنها .

وكل من قاس صفة الخالق على صفات المخلوقين خرج إلى الكفر . فإن المُجَسِّمَةَ دخلوا فى ذلك ؛ لأنهم حملوا أوصافه على ما يعقلون . وكذلك تدبيره عَزَّ وجَلَّ . فإنَّ من حمله على ما يعقل فى العادات ، رأى ذبح الحيوان لا يُسْتحسَنُ ، والأمراض تُسْتقبحُ، وقسمة الغِنَى للأبْلَه ، والفَقْر للجَلَد [1] العاقل ، أمرًا ينافى الحكمة .

وهذا فى الأوضاع بين الخلق. فأما الخالق – سبحانه – فإن العقل لا ينتهى إلى حكمته، بلى ، قد ثبتْ عنده وجودُه ، وملكه ، وحكْمتُه ، فتعرضه بالتفاصيل على ما تجرى به عادات الخلق جهل ، ألا ترى إلى أول المعترضين – وهو إبْلِيسُ – كيف ناظر فقال : ﴿ أنا خير منه ﴾ [2] ؟! وقول خليفته ، وهو أَبُو الْعَلاءِ الْمَعَرِّى :

(١) الجلد : القوى (٢) سورة الأعراف ، آية ١٢

رَأَى مِنْكَ ما لا يَشْتَهِى فَتَزَنْدَقَا

ونسأل الله - عزَّ وجلَّ - توفيقًا للتسليم ، وتسليمًا للحكيم : ﴿ **رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** ﴾ [1] أترى نقدرُ على تعليل أفعاله فضلا عن مطالعة ذاته ؟ وكيف نَقِيسُ أمره على أحوالنا ؟

فإذا رأينا نبينا - ﷺ - يسأل فى أُمِّه وعَمِّه [2] ، فلا يُقْبَلُ منه ، ويتقلبُ جائعًا والدنيا ملكُ يده . ويُقْتَلُ أصحابُه والنصرُ بيدِ خالقه ، أَوَ لَيْسَ هذا مما يُحَيِّر ! فمالنا والاعتراض على مالك قد ثبتت حكمته واستقر ملكه ؟!

١٩٣ - فصل : ثمن العلياء مجاهدة النفس

تأمَّلْتُ عجبًا ، وهو أن كل شىء نَفِيسٍ خطير يطول طريقه ، ويكثر التعب فى تحصيله . فإن العلم لَمَّا كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب ، والسهرِ ، والتكرارِ ، وهجر اللذات ، والراحة . حتى قال بعضُ الفقهاءِ : بَقِيتُ سنينَ أشتهى الهَرِيسَةَ لا أقدر ؛ لأن وقت بيعها وقتَ سماع الدرس ، ونحو هذا تحصيل المال ، فإنه يحتاج إلى المخاطرات ، والأسفار ، والتعب الكثير . وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود ، فإنه يفتقر إلى جهاد النفس فى بذل المحبُوبِ ، وربما آل إلى الفقر . وكذلك الشجاعة ، فإنها لا تحصل إلا بالمخاطرة بالنفس ؛ قال الشاعرُ :

لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُــــودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

ومنْ هذا الفن تحصيلُ الثواب فى الآخرة . فإنه يزيد على قوة الاجتهاد والتعبد ، أو على قدر وقع المبذول من المال فى النفس ، أو على قدر الصبر على فقد المحبوب ، ومنع النفس من الجزع . وكذلك الزهد يحتاج إلى صبر عن الهوى . والعفاف لا يكون إلا بكفٍّ كَفٍّ الشره . ولو لا ما عانى يُوسُفُ - عليه السلام - ما قيل له: ﴿**أيها الصديق**﴾[3].

ولله أقوامٌ ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها ، فهم يبالغون فى كل علم ، ويجتهدون فى كل عمل ، ويثابرون على كل فضيلة . فإذا ضَعُفَتْ أبدانهم عن بعض ذلك ، قامت النياتُ نائبة وهم لها سابقون ، وأكملُ أحوالهم إعراضُهم عن أعمالهم ،

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٨ .

(٢) حديث استئذان النبى ﷺ فى الاستغفار لأمه رواه مسلم فى الجنائز (٩٧٦) ، وحديث أن رسول الله ﷺ قال لعمه : « **لأستغفر لك ما لم أنه عنك** » رواه البخارى في التفسير (٤٧٧٢) .

(٣) سورة يوسف ، آية : ٤٦ .

فهم يحتقرونها مع التمام ، ويعتذرون من التقصير . ومنهم مَنْ يزيد على هذا ، فيتشاغل بالشُكْرِ على التوفيق لذلك ، منهم مَنْ لا يرى ما عمل أصلاً ؛ لأنه يرى نفسه وعمله لسيده . وبالعكس من المذكور عن أرباب الاجتهاد حال أهل الكَسَل ، والشَّرَهِ ، والشَّهَوَاتِ ، فَلَئِنِ الْتَذُّوا بعاجل الراحة لقد أوجبت ما يزيد على كل تعب من الأسف والحسرة .

ومَن تلمَّح صبر يُوسُفَ - عليه السلام - وعجلة مَاعِزٍ بان له الفرقُ ، وفَهِمَ الربحَ مِنَ الخسران . ولقد تأملت نَيْلَ الدر من البحر فرأيتُه بعد معاناة الشدائد ، ومن نفكر فيما ذكرته مثلاً بانت له أمثالٌ .

فالموفق من تلمح قصر الموسم المعمول فيه ، وامتداد زمان الجزاء الذى لا آخر له ، فانتهب حتى اللحظة ، وزاحم كل فضيلة ، فإنها إذا فاتت فلا وجه لاستدراكها : أو ليس فى الحديث يقال للرجل : « اقْرَأْ وَارْقَ فَمَنْزِلُكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا » [1] ؟ فلو أن الفكر عمل فى هذا حق العمل ، حفظ القرآن عاجلاً .

١٩٤ - فصل : قوة الإيمان

ليس المؤمن بالذى يؤدى فرائض العبادات صورة ، ويتجنب المحظورات فحسب . إنما المؤمن الكامل الإيمان ، لا يختلج فى قلبه اعتراض ، ولا يساكن فيما يجرى وسوسة . وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه ، وقوى تسليمه ، وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثرًا ، وسره لا يتغير ؛ لأنه يعلم أنه مملوك ، وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته ، فإن اختلج فى قلبه اعتراض ، خرج مِنْ مقام العبودية إلى مقام المناظرة ، كما جرى لإبليس .

والإيمان القوى يبين أثره عند قوة البلاء فقد يرى مثل يَحْيَى بنِ زَكَرِيَّا يتسلط عليه فاجرٌ فيأمر بذبحه فيذبح . وربما اختلج فى الطبع أن يقول : فهل رَدَّ عنه مَنْ جعله نبيّاً ؟ وكذلك كل تسلط من الكفار على الأنبياء ، والمؤمنين وما وقع رَد عنهم ، فإن هجس [2] بالفكر أن القدرة تعجز عن الردّ عنهم، كان كفرا ، وإن علم أن القدرة متمكنة من الرد وما ردت ، وأن الله قد يجيع المؤمنين ، ويشبُع الكفار ، ويُعَافِى العُصَاةُ ، ويمرض المتقون، لم يبق إلا التسليم للمالك وإن أمضَ وأَرْمَضَ [3] . وقد ذهب يُوسُفُ بنُ

---

(١) رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩١٤) ، وقال : حسن صحيح ، ورواه أبو داود فى الصلاة (١٤٦٤) ، ورواه أحمد (٢/١٩٢) ، ورواه الحاكم (١/٥٥٢) ، وصححه ووافقه الذهبى ، وابن حبان (٧٦٣) فى الإحسان.

(٢) هجس : خطر (٣) أمض : أتعب ، وأرمض : أحرق وهى من الرمضاء .

يَعْقُوبَ - عليهما السلام - فبكى ثمانين سنة ، ثم لم ييأس فلما ذهب ابنه الآخر قال : ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (١) وقد دعا مُوسَى - عليه السلام - على فِرْعَوْنَ ، فأُجيب بعد أَرْبَعِينَ سنَةً ، وكَان يَذْبَحُ الأنبياءَ ولا ترده القدرةُ القديمة العظيمة ، وصَلَبَ السحرةَ ، وقطع أَيْدِيَهم . وكم من بلية نزلت بمعظم القدر ، فما زاده ذلك إلا تسليمًا ورضا ، فهناك يبين معنى قوله : ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (٢) ، وهاهنا يظهر قدر قوة الإيمان لا في ركعات ، قال الحَسَنُ البَصْرِىُّ : استوى الناس فى العافية فإذا نزل البلاء تباينوا .

١٩٥ - فصل : علم الكلام يفسد العامة

أَضَرُّ ما على العوام المتكلِّمُونَ ؛ فإنهم يخلطون عقائدهم بما يسمعونه منهم ؛ من أقبح الأشياء أن يحضر العامِّىُّ الذى لا يعرف أركان الصلاة ، ولا الربا فى البيع مجلسَ الوعظ ، فلا ينهاه عن التوانى فى الصلاة ، ولا يعلمه الخلاص من الربا ، بل يقول له : القرآن قائم بالذات ، والذى عندنا مخلوقٌ ؛ فيهون القرآن عند ذلك العامى ، فيحلف به على الكذب .

وَيْحَ المتكلم ! لو كان له فهم ، لعلم أن الله - سبحانه وتعالى - نصب أعلامًا تأنس بها النفوس ، وتطمئن إليها كالكعبة وسماها بيته ، والعرش وذكر استواءه عليه ، وذكر من صفاته : اليدَ ، والسمعَ ، والبصر ، والعين ، وينزل إلى السماء الدنيا، ويضحَكُ ؛ وكل هذا لتأنس النفوس بالعادات .

وقد جَلَّ عما تضمنته هذه الصفات من الجوارح . وكذلك عَظَّم أمر القرآن ، ونهى المحْدِثَ أن يمسَّ المصحفَ ، فآل الأمرُ بقوم من المتكلمين إلى أن أجازوا الاستنجاء به . فهؤلاء على معاندة الشريعة ؛ لأنهم يهينون ما عظَّم الشرعُ .

وهل الإيغال (٣) فى الكلام مما يقرب إلى معرفة الحقائق التى لا يمكن خلافها ؟ هَيْهَاتَ! لو كان كذلك ، ما وقع بين المتكلمين خلافٌ ، أو ليس الشرب الأول ما تكلموا فى شيء من هذا ! وإن كانوا تعرضوا ببعض الأصول .

ثم جاء فقهاء الأمصار ، فنَهَوْا عن الخوض فى الكلام ؛ لعلمهم ما يجلب وما يجتنب، ومن لم يقنع بعقيدة مثل الصحابة، ولا بطريق مثل طريق أَحْمَدَ والشَّافعِىِّ فى ترك الخوض فلا كان مَنْ كان ، ثم بالله تأمَّلُوا، أَلَيْس قد وجب علينا هجر الربا بقوله

---

(١) سورة يوسف ، آية . ٨٣ .
(٢) سورة المائدة ، آية . ١١٩ ، والبينة ، آية : ٨ .
(٣) الإيغال : التعمق .

تعالى : ﴿ لا تَأْكُلُوا الرِّبَا ﴾ ؟ (١) وهجر الزنا بقوله : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا ﴾ (٢) فأى فائدة لنا فى ذكر قراءَة ومقروءَ ، وتلاوة ومتلو ، وقديم ومحدث .

فإن قيل : فلابد من اعتقاد ، قلنا : طريق السلف أوضح محجة ؛ لأنَّا لا نقوله تقليدًا، بل بالدليل ، ولكنا لم نستفده عن جَوْهَرٍ ، وعَرَضٍ ، وجزء لا يتجزأ، بل بأدلة النقل مع مساعدة العقل من غير بحث عما لا يحتاج إليه ، وليس هذا مكان الشرح.

١٩٦ – فصل : حقيقة الموت والروح

ما زلت على عادة الخلق فى الحزن على من يموت من الأهل ، والأولاد ، ولا أتخايل إلا بلى الأبدان فى القبور ؛ فأحزن لذلك فمرت بى أحاديثُ قد كانت تمر بى ، ولا أتفكر فيها ، منها قولُ النبى – ﷺ – : « إِنَّمَا نَفْسُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعَلَّقُ فِى شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرُدَّهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ » (٣) ، فرأيت أن الرحيل إلى الراحة ، وأن هذا البدن ليس بشىء ؛ لأنه مركب تفكك وفسد ، وسيبنى جديدًا يوم البعث ، فلا ينبغى أنْ يتفكر فى بلاه . ولتسكن النفس إلى أن الأرواح انتقلت إلى راحة ، فلا يبقى كبير حزن ، وأن اللقاء للأحباب عن قرب . وإنما يبقى الأسف ؛ لتعلق الخلق بالصُّوَرِ، فلا يرى الإنسان إلا جسدًا مستحسنًا قد نقض فيحزن لنقضه . والجسد ليس هو الآدمى ، إنما هو مركبه ، فالأرواح لا ينالها البِلَى . والأبدان ليست بشىء . واعتبر هذا بما إذا قلعت ضِرْسَك؛ ، ورميته فى حفرة ، فهل عندك خبر مما يلقى فى مدة حياتك ؟ فحكم الأبدان حكم ذلك الضرس ، لا تدرى النفسُ ما يلقى ، ولا ينبغي أنْ تغتم بتمزيق جسد المحبوب وبلاه ، واذكر تنعمّ الأرواح ، وقرب التجديد ، وعاجل اللقاء فإن الفكر فى تحقيق هذا ، يهون الحزن ويسهل الأمر .

١٩٧ – فصل : الكتمان سلامة

ينبغى للعاقل ألا يتكلم فى الخَلْوَةِ عن أحد بشىء حتى يمثل ذلك الشىء ظاهرًا معلنًا به ، ثم ينظر فيما يجنى . فرُبَّ رجلٍ وَثِقَ بصديق ؛ فتكلم أمامه عن سلطان بأمر ، فبلغه ؛ فأهلكه ، أو عن صديق ، فبلغه ؛ فوقعت الواقعة .

وكذلك ينبغى كتمُ المذاهب ، فإنه ما يربح مظهرها إلا بالمعاداة . ولما صرح الشَّرِيفُ

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٣٠ . (٢) سورة الإسراء ، آية : ٣٢ .

(٣) أحمد (٣/ ٤٥٥) ، والنسائى فى الجنائز (٤/ ١٠٨) ، وابن ماجة فى الزهد (٤٢٧١) ، ومالك فى الموطأ فى الجنائز ١/ ٢٠٦ ، ٧ ٢ (٤٩)

أبُو جَعْفَرٍ فى زمان المقْتَدِى بمخالفة الاشاعرة ؛ أُخذَ وحُبس حتى مات ، وكان المقصودُ قطعَ الفتن ، وإصلاحَ الرعية ، فإنه أهم إلى السلطان من التعصب لمذهب .

١٩٨ - فصل : التسليم للحكمة العليا

رأيت كثيرًا من المغفلين يظهر عليهم السَّخطُ بالأقدار ، وفيهم من قلّ إيمانه ، فأخذ يعترض ، وفيهم من خرج إلى الكفر ، ورأى أن ما يجرى كالعبث ، وقال : ما فائدة الإعدام بعد الإيجاد ؟ والابتلاء ممن هو غنىٌّ عن أذانا .

فقلت لبعض من كان يرمز إلى هذا: إنْ حضر عقلُكَ وقلبُكَ حدثتك ، وإن كنت تتكلم بمجرد واقعك من غير نظر وإنصاف ، فالحديث معك ضائع ، وَيْحَكَ ! أحضرْ عقلك ، واسمع ما أقول : أليس قد ثبت أن الحق سبحانه مالك ، وللمالك الحق أن يتصرف كيف يشاء ؟! أليس قد ثبت أنه حكيم والحكيم لا يعبث ! وأنا أعلم أن في نفسك من هذه الكلمة شيئًا فإنه قد سمعنا عن جَالِينُوسَ أنه قال : ما أدرى ؟ أحكيم هو أم لا ؟ والسبب فى قوله هذا ، أنه رأى نقضًا بعد إحكام ، فقاس الحال على أحوال الخلق ، وهو أن من بنى ثم نقض لا لمعنى، فليس بحكيم . وجوابه لو كان حاضرًا أن يقال : بماذا بان لك أن النقض ليس بحكمة، أليس بعقلك الذى وهبه الصانع لك ؟ وكيف يهب لك الذهن الكامل ، ويفوته هو الكمال ؟

وهذه المحنة التى جرت لإبْليسَ ؛ فإنه أخذ يعيب الحكمة بعقله ، فلو تفكر علم أن واهب العقل أعلى من العقل ، وأن حكمته أوفى من كل حكيم ؛ لأنه بحكمته التامة أنشأ العقول . فهذا إذا تأمله المنصف ، زال عنه الشك . وقد أشار سبحانه إلى نحو هذا فى قوله تعالى : ﴿ أم لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ [1] أى جعل لنفسه الناقصات ، وأعطاكم الكاملين ! فلم يبق إلا نضيف العجز عن فهم ما يجرى إلى نفسنا . ونقول هذا فعل عالم حكيم . ولكن ما يبين لنا معناه ، وليس هذا بعجب ، فإن موسى - عليه السلام - خفى عليه وجهُ الحكْمة فى نقض السفينة الصحيحة ، وقَتْلِ الغلام الجميل ؛ فلما بين له الخضر وجه الحكمة أذعن . فليكن المرء مع الخالق كـ « موسى » مع الخضر ، أو لسنا نرى المائدة المستحسنة بما عليها من فُنُون الطعام النظيف الظريف ، يُقطع ويمضغ ويصير إلى ما نعلم ولسنا نملك تلك الأفعال ، ولا ننكر الإفساد له ، لعلمنا بالمصلحة الباطنة فيه، فما المانع أن يكون فعل الحق - سبحانه - له باطنٌ لا نعلمه .

---

(١) سورة الطور ، آية : ٣٩ .

ومن أَجْهَلِ الجهالِ العبدُ المملوكُ إذا طلب أن يطلع على سرِّ مولاه ، فإن فرضه التسليم، لا الاعتراض . ولو لم يكن فى الابتلاء بما تنكره الطباع إلا أن يُقصد إذعان العقل ، وتسليمه لكفى .

ولقد تأملتُ حالة عجيبة ، يجوز أن يكون المقصود بالموت هى ، وذلك أن الخالق - سبحانه - غيبٌ فى غيبٍ لا يدركه الإحساسُ . فلو أنه لم ينقض هذه البنية لتخايل للإنسان أنه صُنع لا بصانعٍ . فإذا وقع الموت عرفت النفسُ نَفْسَها التى كانت لا تعرفها؛ لكونها فى الجسد ، وتدرك عجائب الأمور بعد رحيلها . فإذا ردت إلى البدن ، عرفت ضرورة أنها مخلوقة لمن أعادها . وتذكرت حالها فى الدنيا . فإن الذكريات تعاد كما تعاد الأبدان ؛ فيقول قائلهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [1] .

ومتى رأت ما قد وُعدت به من أمور الآخرة ، أيقنت يقينًا لا شك معه . ولا يحصل هذا بإعادة ميت سواها . وإنما يحصل برؤية هذا الأمر فيها فتبنى بنية تقبل البقاء ، وتسكن جنَّةً لا ينقضى دوامها ، فيصلح بذلك اليقين أن تجاور الحق ؛ لأنها آمنت بما وعد ، وصبرت بما ابتلى ، وسلمت لأقداره ، فلم تعترض، ورأيت فى غيرها العبَرَ ، ثم فى نفسها . فهذه هى التى يقال لها : ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [2] .

فأما الشاكّ والكافر فيحق لهما الدخول إلى النار ، واللبث فيها ؛ لأنهما رأيا الأدلّة ، ولم يستفيدا ، ونازعا الحكيم ، واعترضا عليه ؛ فعاد شؤمُ كفرهما يطمس قلوبهما ، فبقيت على ما كانت عليه، فلما لم تنتفع بالدليل فى الدنيا - لم تنتفع بالموت والإعادة.

ودليل بقاء الخُبْث فى القلوب قولُه تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [3] فنسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - عقلاً مسلّمًا يقف على حده ، ولا يعترض علَى خالقه وموجده .

ثم الويلُ للمعترض ، أيردُّ اعتراضُه الأقدار ! فما يستفيد إلا الخزى . نعوذ بالله من خُذْلِ .

١٩٩ - فصل : اغتنام الفرص فى الدنيا

لا ينبغى للمؤمن أن ينزعج من مرض ، أو نزول موت ، وإن كان الطبع لا يملك ، إلا أنه ينبغى له التصبّر مهما أمكن ، إما لطلب الأجر بما يعانى ، أو لبيان أثر الرضا بالقضاء ، وما هى إلا لحظات ثم تنقضى .

---

(١) سورة الطور ، آية : ٢٦
(٢) سورة الفجر ، آية : ٢٨ - ٣
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٢٨ .

وليتفكر المعافى من المرض فى الساعات التى كان يقلق فيها ، أين هى فى زمان العافية! ذهب البلاء وحصل الثواب ، كما تذهب حَلاوةُ اللذات المحرمة ، ويبقى الوِزْرُ . ويمضى زمان التسخُّط بالأقدارِ ، ويبقى العتاب . وهل الموتُ إلا آلامٌ تزيد فتعجز النفس عن حملها فتذهبَ ، فليتصور المريض وجودَ الراحةِ بعد رحيل النفس ، وقد هان ما يلقى، كما يتصور العافيةَ بعد شرب الشربة المرَّة .

ولا ينبغى أن يقع جزع بذكر البِلَى ، فإنَّ ذلك شأن المركب . أما الراكب ففى الجنة أو فى النار . وإنما ينبغى أن يقع الاهتمام الكلى بما يزيد فى درجات الفضائل قبل نزول المعوّق عنها . فالسعيد مَنْ وُفّقَ لاغتنام العافية ، ثم يختار تحصيل الأفضل فالأفضل فى زمن الاغتنام .

وليعلم أن زيادة المنازل فى الجنة على قدر التزيد من الفضائل ههنا . والعمر قصيرٌ ، والفضائل كثيرةٌ فليبالغ فى البدار . فيا طُولَ راحة التعب ، ويا فَرْحَةَ المغموم ، ويا سُرُورَ المحزون . ومتى تَخايلَ دوامَ اللذة فى الجنة من غير منغّص ، ولا قاطع ؛ هان عليه كل بلاء وشدة .

٢٠٠ - فصل : صلاح الدين والدنيا

حضرنا يومًا جَنَازَةَ شابٌ مات أحسن ما كانت الدنيا له ، فرأيتُ من ذم الناس للدنيا، وعَيْبِ مَنْ سَكَن إليها ، والتقبيح للغافلين عن الاستعداد لهذا المصرع أمرًا كبيرًا من الحاضرين ؛ فقلت : نعَمَ ما قلتُمْ ، ولكن اسمعوا مِنىّ ما لم تسمعوه .

أعجب الأشياء أنَّ العاقل إذا علم قرب هذا المصرع منه ، أوجب عليه عقلُه البدارَ بالعمل ، والقلق من الخوف ، وقد اشتد ذلك بأقوام فهامُوا فى البَرَارى ، وطَوَوُا الأيَامَ بالمجاعة ، وداموا على سهر الليل ، ولازموا المقابر ؛ فهلكوا سريعًا . ولعمرى إن ما خافوه يستحق أكثر من هذا الفعل .

ولكن نرى العقل الذى أوجب هذا القلق ، قد أمر بما يوجب السكون ؛ فقال : إنما خلق هذا البدن ليحمل النفس كما تحمل الناقةُ الراكبَ ، ولا بد من التلطف بالناقة ؛ ليحصل المقصود من السير ، ولا يحسن فى العقل دوام السهر وطول القلق ؛ لأنه يؤثر فى البدن فيفوت أكثر المقصود . كيف وقد خلق بدن الآدمى خلقًا لطيفًا ، وإذا هجر الدسم نشف الدماغ ، وإذا دام على السهر قوى اليبس ، وإذا لازم الحزن مرض القلب .

فلا بد من التلطف بالبدن ، بتناول ما يصلحه ، وبالقلب بما يدفع الحزن المؤذى له ، وإلا فمتى دام المؤذى عجل التلف .

ثم يأتي الشرع بما قد قاله العقلُ . فيقول : « إنَّ لنفْسكَ عَلَيْكَ حقا ، وإنَّ لزَوْجكَ عَلَيْكَ حَقا ، فَصُمْ وَأفْطرْ ، وقُم ونَمْ » [1] ، ويقول : « كَفَى بالْمَرْءِ إثْمًا أنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوت» [2] .

ويحث على النكاح ، ويرى دوام القلق ، واليبس بترك الزوجة كالأرملة ، والولد كاليتيم .

ولا وجه للتشاغل بالعلم مع هذا القلق . ومن أراد مصداق ما قلته ؛ فليتأمل حالة الرسول ﷺ ، فإنه كان يعدّل ما عنده من الخوف ؛ فيمازح ، ويسابق عَائشَةَ ، ويكثر من التزوج . وكان يتلطف ببدنه ، فيختار الماء البائت ، ويحب الحلوى واللحم .

ولولا مساكنة نوع غفلة لما صنِّف العلماء ، ولا حُفظ العلم ، ولا كُتب الحديث ؛ لأن من يقول : ربما مت اليوم ، كيف يكتب ؟ وكيف يسمع ويصنف ؟ فلا يَهُولَنَّكم ما ترون من غفلة الناس عن الموت وعدم ذكره حق ذكره ، فإنها نعمة من الله سبحانه بها تقوم الدنيا ، ويصلح الدين .

وإنما تذم قوة الغفلة الموجبة للتفريط ، وإهمال للمحاسبة للنفس ، وتضييع الزمان في غير التزود ، وربما قويت ؛ فحملت على المعاصي . فأما إذا كانت بقدر ، كانت كالملح في الطعام لا بد منه ، فإن كثر صار الطعام زُعافًا [3] . فالغفلة تمدح إذا كانت بقدْر كما بيَّنَّا . ومتى زادت وقع الذم . فافهم ما قلته ، ولا تقل فلانٌ شديد اليقظة ما ينام الليلَ ، وفلان غافل ينام أكثر الليل ، فإن غفلة تُوجِبُ مصلحة البدن، والقلب لا تُذَمُّ ، والسلام .

٢٠١ - فصل : الإخلاص التام

ما يكاد يحب الاجتماع بالناس إلا فارغ ؛ لأن المشغول القلب بالحق يَفرُّ من الخلق . ومتى تمكن فراغُ القلب من معرفة الحق ، امتلأ بالخلق فصار يعمل لهم ، ومن أجلهم، ويهلك بالرياء ولا يعلم .

وإني لأتأمّلُ على بعض من يتزيا بالفقر ، والتصُّوف، وهو يلبس ثِيَابًا لا تساوي دينارًا ، وعنده المالُ الكثير ، وقد أصرع [4] نفسه في المطاعم الشهية ، وهو عامل بمقتضى الكِبْر والنصدر ، فيتقرب إلى أرباب الدنيا ، ويستذري [5] أربابَ العلم ، ويزورُ أولئك دونهم .

(١ ، ٢) سبق تخريجهما

(٣) الزعاف : السم .

(٤) أصرع : جعل نفسه كأنها في مرعى

(٥) يستذرى : يلجأ إليهم

وإنما يرد ما يعطى ليشيع له اسم زاهد ، فتراه يربى الناموس ، وهو فى احتياله كثعلب، وفى نهوضه على أغراضه فى الباطن كلب شرى . فأقول : سبحان الله ! مايزهد إلا الثياب ؛ أنرى ما سمع هذا قولَ النبى - ﷺ - : « **إنَّ اللهَ يُحبُّ أنْ يرى أثرَ نعْمَتِه على عَبْده** » (1) . وأعوذ بالله من رؤية النفس ، ورؤية الخلق ، فإن مَنْ رأى نفسه تكبر ، والمتكبر أحمق ؛ لأن ما من شىء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه ، ومن راءى الخلق عبدهم وهو لا يعلم . فأما العامل لله - سبحانه وتعالى - فهو بعيدٌ من الخلق ، فإن تقربوا إليه ستر حاله بما يوجب بُعْدهم عنه .

وقد رأينا مَنْ يرائى ولا يدرى ؛ فيمتنع من المشى فى السوق ، ومن زيارة الإخوان ، ومِنْ أن يشترى شيئًا بنفسه ، ونوهمه نفسه أنى أكره مخالطة السوَقة (2) . وإنما هذا يربى جاهًا بين العلماء ، إذ لو خالطهم لا مَّحِىَ جاهه . وبطل تقبيلُ يده . وقد كان بِشْرٌ الحَافِى يجلس فى مجلس عند العَطَّارِ . وأبلغ من هذا كله أن نبينا - ﷺ - كان يشترى ويحمله .

وخرج عَلِىُّ بنُ أَبِى طَالِبٍ - رضى الله عنه - وهو أمير المؤمنين فاشترى ثوبًا ، وقد كان طَلْحَةُ بنُ مُطَرِف (3) قارئَ أهل الكوفة ، فلما كثُرَ الناس عليه مشى إلى الأعْمَشِ فقرأ عليه ، فمال الناس إلى الأعْمَشُ (4) وتركوا طَلْحَةَ .

هذا والله الكبريتُ الأحْمَرُ ، والإكسير ، لا ما يظن إكسيرا فى الكيمياء . والمعاملة مع الله تعالى هكذا تكون . فأما ضد هذه الحال ، فحالةُ عابِد للخلق ملبس . وقد عَمَّ هذا جمهورَ الخلق حاشا السلَف :

أَفْدِى ظِبَاءَ فَلاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الْكَلامِ وَلا صَبْغَ الْحَوَاجِبِ

٢٠٢ - فصل : مراتب العصيان

كل المعاصى قبيحة ، وبعضها أقبح من بعض ، فإن الزنا من أقبح الذنوب ، فإنه يفسد الفرْش ، ويغير الأنساب ، وهو بالجارة أقبح ، فقد روى فى الصحيحين من حديث

---

(1) رواه الترمذى فى الأدب ، (٢٨١٩) ، وقال : حسن ، ورواه أبو داود فى اللباس (٤٠٦٣) ، والحاكم فى المستدرك (٤/ ١٣٥) وصححه ، والطبرانى فى الكبير (١٨/ ١٣٥) ، والبيهقى فى السنن (٣/ ٢٧١) .

(2) السوقة : العامة من الناس .

(3) هو طلحة بن مطرف بن عمر ثقة قارئ توفى سنة (١١٢ هـ) ، وقيل : فى التى بعدها .

(4) هو سليمان بن مهران الأسدى الكاهلى أبو محمد الكوفى الأعمش ثقة حافظ عارف بالقراءات ورع توفى سنة (١٤٧ هـ) ، وقيل : سنة (١٤٨ هـ) .

ابن مسعود قال : « قلتُ يا رسولَ الله ، أى ذنب أعظم ؟ قال : « **أن تجعل لله ندا ، وهو خلقك** » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « **أن تقتل ولدك من أجل أن يَطعمَ معك** » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « **أن تزانىَ حليلة جارك** » [1] .

وقد روى البخارى فى تاريخه ، من حديث المقداد بن الأسود ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « **لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر من أن يزنىَ بامرأة جاره ، ولأن يسرق من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره** » [2] وإنما كان هذا ، لأنه يضم إلى معصية الله - عَزَّ وجَلَّ - انتهاك حق الجار .

ومن أقبح الذنوب أن يزنَى الشيخ ، ففى الحديث : « **إن الله يبغض الشيخ الزانى** »[3] ؛ لأن شهوة الطبع قد ماتت ، وليس فيها قوة تغلب ، فهو يحركها ويبالغ ، فكانت معصيته عنادًا .

ومن المعاصى التى تشبه المعاندة : لبس الرجل الحرير ، والذهب ، خصوصًا خاتم الذهب الذى يتحلى به الشيخ ، وإنه من أبرد الأفعال وأقبح الخطايا . ومن هذا الفن الرياء والتخاشع وإظهار التزهد للخلق ، فإنه كالعبادة لهم مع إهمال جانب الحق عَزَّ وجَلَّ ، وكذلك المعاملة بالربا الصريح ، خصوصًا من الغنى الكثير المال .

ومن أقبح الأشياء أن يطول المرض بالشيخ الكبير ولا يتوب من ذنب ، ولا يعتذر من زلة ، ولا يقضى دينًا ، ولا يوصى بإخراج حق عليه . ومن قبائح الذنوب : أن يتوب السارق ، والظالم ، ولا يرد المظالم . والمفرّط فى الزكاة ، أو فى الصلاة ، ولا يقضى .

ومن أقبحها أن يحنث فى يمين طلاقه ، ثم يقيم مع المرأة .

وقس على ما ذكرته ، فالمعاصى كثيرة ، وأقبحها لا يخفى . وهذه المستقبحات فضلاً عن القبائح تشبه العناد للآمر ، فيستحق صاحبها اللعن ، ودوام العقوبة ، وإنى لأرى شرب الخمر من ذلك الجنس ؛ لأنها ليست مشتهاة لذاتها ، ولا لريحها ، ولا لطعمها فيما ذكر ، إنما لذتها فيما يقال بعد تجرع مرارتها ، فالإقدام على ما لا يدعو إليه الطبع إلى أن يصل التناول إلى اللذة معاندة . نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - إيمانًا يحجز بيننا وبين مخالفته ، وتوفيقًا لما يرضيه ؛ فإنما نحن به ، وله .

---

(١) رواه البخارى فى التفسير (٤٤٧٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨٦) .

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد (١٠٣) ، وأحمد فى المسند (٦/٨) ، ورواه الطبرانى فى الكبير (٢٠/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/١٦٨) : رجاله ثقات .

(٣) رواه الترمذى فى صفة الجنة ، (٢٥٦٨) ، وقال : حديث صحيح عن أبى ذر ، ورواه النسائى فى الزكاة (٥/ ٨٤) ، وأحمد (٥/ ١٧٦) ، ورواه الحاكم (١/ ٤١٦) ، وصححه ووافقه الذهبى .

٢٠٣ - فصل : الكبر عند العلماء

انتقدت على أكثر العلماء ، والزهاد أنهم يبطنون الكبر ؛ فهذا ينظر فى موضعه ، وارتفاع غيره عليه ، وهذا لا يعود مريضًا فقيرًا يرى نفسه خيرًا منه ، حتى إنى رأيت جماعة يومأ [١] إليهم ، منهم من قول لا أدفن إلا فى دكة أحمد بن حنبل ، ويعلم أن فى ذلك كسر عظام الموتى ، ثم يرى نفسه أهلاً لذلك التصدر . ومنهم من يقول : ادفنونى إلى جانب مسجدى ؛ ظنًا منه أنه يصير بعد موته مزارا كـ « معروف الكَرْخى » . وهذه خلة مهلكة ولا يعلمون ؛ قال النبى - ﷺ - : « مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ فَقَدْ تَكَبَّرَ »[٢] . وقلَّ من رأيت إلا وهو يرى نفسه .

والعجب كل العجب ممن يرى نفسه ، أتراه بماذا رآها ! إن كان بالعلم فقد سبقه العلماء ، وإن كان بالتعبد فقد سبقه العبَّاد ، أو بالمال فإن المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية . فإن قال : قد عرفت ما لم يعرف غيرى من العلم فى زمنى ، فما علىَّ ممن تقدم، قيل له : ما نأمرك يا حافظ القرآن ، أن ترى نفسك فى الحفظ كمن يحفظ النصف ، ولا يا فقيه ، أن ترى نفسك فى العلم كالعامى ، إنما نحذر عليك أن ترى نفسك خيرًا من ذلك الشخص المؤمن ، وإن قل علمه ؛ فإن الخيرية بالمعانى لا بصور العلم والعبادة.

ومن تلمّح خصال نفسه ، وذنوبها - علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير وهو من حال غيره على شك .

فالذى يحذر منه الإعجاب بالنفس ورؤية التقدم فى أحوال الآخرة . والمؤمن الحق لايزال يحتقر نفسه ؛ وقد قيل لعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ - رضى الله عنه : إن مت ندفنك فى حُجْرة رسول الله - ﷺ ، فقال : لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك ، أحب إلىَّ من أن أرى نفسي أهلاً ذلك .

وقد روينا : أن رجلاً من الرهبان رأى فى المنام قائلاً يقول له : فلان الإسكافى خير منك ، فنزل من صومعته ، فجاء إليه فسأله عن عمله ، فلم يذكر كبير عمله ، فقيل له فى المنام : عُدْ إليه ، وقل له : ممّ صُفْرَةُ وجهك ؟ فعاد فسأله ، فقال : ما رأيت مسلمًا إلا وظننتُه خيرًا منىّ ، فقيل له : فبذاك ارتفع .

٢٠٤ - فصل : الحلم مع الغاضب

متى رأيت صاحبك قد غضب ، وأخذ يتكلم بما لا يصلح ، فلا ينبغى أن تعقد على

---

(١) يومأ : يشار إليهم . (٢) لم أجده بهذا اللفظ وروى أبو نعيم (١٠/ ٣٦) بنحوه .

ما يقوله خِنْصراً [١] ، ولا أن تؤاخذه به ، فإن حاله حال السكران ، لا يدرى ما يجرى، بل اصبر لفورته ، ولا تعول عليها ؛ فإن الشيطان قد غلبه ، والطبع قد هاج ، والعقل قد استتر ، ومتى أخذت فى نفسك عليه ، أو أجبته بمقتضى فعله ، كنت كعاقل وَاجَهَ مجنونًا ، أو كمُفِيقٍ عاتب مُغْمًى عليه ، فالذنب لك . بل انظر بعين الرحمة ، وتلمح تصريف القدر له ، وتفرج فى لعب الطبع به . واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى ، وعرف لك فضل الصبر . وأقل الأقسام أن تسلمه فيما يفعل فى غضبه إلى ما يستريح به.

وهذه الحالة ينبغى أن يتلمحها الولد عند غضب الوالد ، والزوجة عند غضب الزوج ، فتتركه يشتفى بما يقول ، ولا تعول على ذلك ، فسيعود نادمًا معتذرًا . ومتى قُوبِل على حالته ، ومقالته صارت العداوةُ مُتمكنةً ، وجازى فى الإفاقة على ما فُعل فى حقه وقت السكر . وأكثر الناس على غير هذه الطريق ، متى رأوا غضبان ، قابلوه بما يقول ، ويعمل على مقتضى الحكمة ، بل الحكمة ما ذكرته ﴿ **وما يعقلها إلا العاملون** ﴾ [٢] .

٢٠٥ - فصل : عدم معاداة الناس

ليس فى الدنيا أَبْلَهُ ممن يسىء إلى شخص ، ويعلم أنه قد بلغ إلى قلبه بالأذى ، ثم يصطلحان فى الظاهر ، فيعلم أن ذلك الأثر مُحِىَ بالصلح . وخصوصًا مع الملوك ، فإن لذتهم الكبرى ألا يرتفع عليهم أحد ، ولا ينكسر لهم غرض

فإذا جرى شىء من ذلك لم ينجبر ، واعتبر هذا بأبى مُسْلِم الخراسانى ؛ فإنه غَضّ من قدْر المنصور قبل ولايته ؛ فحصل ذلك فى نفسه ؛ فقتله . ومن نظر فى التواريخ رأى جماعة قد جرى لهم مثل هذا . ولا ينبغى لمن أساء إلى ذى سلطان أن يقع فى يده ؛ فإنه إذا رام التخلص لم يقدر . فيبقى ندمه على ترك احترازه ، وحسرته على مساكنة الضمان للسلامة أشد عليه من كل ما يلقى به من الهوان والأذى .

ومن هذا الجنس الأصدقاء المتماثلون : فإنك متى آذيت شَخْصًا ، ويبلغ إلى قلبه أذاك، فلا تثق بمودته ؛ فإن أذاك نُصْبَ عينه ، فإن لم يحتل عليك لم يصفُ لك .

ولا تخالطْ إلا من أنعمت عليه فحسب ؛ فهو لم ير منك إلا خيرًا فيكون في نفسه وكذلك الولد والزوجة والمعاملون .

ويلحق بهذا أن أقول : لا ينبغى أن تعادى أحدًا ، ولا تتكلم فى حقه ، فربما صارت له دولة ؛ فاشتفى ، وربما احتيج إليه فلم يُقدر عليه . فالعاقل يصور فى نفسه كل ممكن،

---

(١) أى عدم الاهتمام بما يقوله .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٣ .

ويستر ما فى قلبه من البغض والود ، ويدارى من يكونون له الغيظ والحقد ؛ هذه مشاور العقل إن قبلت .

٢٠٦ – فصل : الاستعداد للعواقب

كل من لا يتلمح العواقب ، ولا يستعد لما يجوز وقوعه ، فليس بكامل العقل . واعتبر هذا فى جميع الأحوال ، مثل أن يغتر بشبابه ، ويدوم على المعاصى ، ويُسوّف بالتوبة ، فربما أُخذَ بَغْتةً ، ولم يبلغ بعض ما أمل . وكذلك إذا سوّف بالعمل أو بحفظ العلم ، فإن الزمان ينقضى بالتسويف ، ويفوت المقصود ، وربما عزم على فعل خير ، أو وقف شىء من ماله ، فسوّف فبُغت .

فالعاقل من أخذ بالحزم فى تصوير ما يجوز وقوعه ، وعمل بمقتضى ذلك ، فإن امتد الأجل لم يضره ، وإن وقع المخوف كان محترزًا . ومما يتعلق بالدنيا : أن يميل مع السلطان ، ويسىء إلى بعض حواشيه ؛ ثقةً بقربه منه ، فربما تغير ذلك السلطان ، فارتفع عدوه ؛ فانتقم منه . وقد يعادى بعض الأصدقاء ، ولا يبالى به ؛ لأنه دونه فى الحالة الحاضرة ، فربما صعدت مرتبة ذلك ؛ فاستوفى ما أسلفه إليه من القبيح وزاد .

فالعاقل من نظر فيما يجوز وقوعه ، ولم يعاد أحدًا ، فإن كان بينهما ما يوجب المعاداة كتم ذلك ، فإن صح له أن يثب على عدوه ؛ فينتقم منه انتقامًا يبيحه الشرع جاز، على أن العفو أصلح فى باب العيش .

ولهذا ينبغى أن يُخدم البطال [1] ، فإنه ربما عمل فعرف ذلك لمن خدم . وقس على أنموذج ما ذكرته من جميع الأحوال .

٢٠٧ – فصل : علماء الآخرة ملوك

بقدر صعود الإنسان فى الدنيا ، تنزل مَرْتبتُه فى الآخرة ؛ وقد صرح بهذا ابنُ عمرَ – رضى الله عنهما – فقال : « والله لا ينال أحدٌ من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله ، وإن كان عنده كريمًا » .

فالسعيد من اقتنع بالبلغة ؛ فإن الزمان أشرف من أن يضيع فى طلب الدنيا. اللهم إلا أن يكون مُتورّعًا فى كسبه ، معينًا لنفسه عن الطمع ، قاصدًا إعانة أهل الخير ، والصدقة على المحتاجين ، فكسب هذا أصلح من بطالته . فأما الصعود الذى سببه مخالطة السلاطين ، فبعيد أن يسلم معه الدين ، فإن وقعت سلامته ظاهرًا ، فالعافية خطرة .

---

(١) البطال : العاطل الذى لا عمل له .   (٢) البلغة : أقل ما يمكن الاعتماد عليه .

قال أبو مُحمَّد التَّميميُّ : ما غبطتُ أحدًا إلا الشَّريفَ أبَا جَعْفرٍ ، يوم مات القائمُ بأمْرِ الله ؛ فإنه غسلهُ ، وخرج ينفض أكمامه ، فقعد في مسجده لا يبالى بأحد ، ونحن مزعجون ؛ لا ندرى ما يجرى علينا ؛ وذاك أن التَّميميَّ كان متعلقًا على السلطان ،يمضى له في الرسائل ، فخاف مَغَبَّة القرب .

وقد رأينا جماعة من العلماء خالطوا السلطان ؛ فكانت مغبتهم سيئة . ولعمرى إنهم طلبوا الراحة فأخطأوا طريقها ؛ لأن غموم القلب لا توازيها لذة مال ، ولا لذة مطعم ، هذا في الدنيا قبل الآخرة .

ومَن أشرفُ وأطْيبُ عَيْشًا مِنْ منفرد فى زاوية ، لا يخالط السلاطين ، ولا يبالى أطاب مطعمه أم لم يطب ، فإنه لا يخلو من كِسْرة وقَعْب ماء ، ثم هو سليم من أن تقال له كلمة تؤذيه ، أو يعيبه الشرعُ حين دخوله عليهم أو الخلق .

ومن تأمل حال أحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ فى انقطاعه ، وحالَ ابنِ أبى دؤاد [1] ، ويحيى بنِ أكْثَمَ – عرف الفرق فى طيب العيش فى الدنيا ، والسلامة فى الآخرة . وما أحسن ما قال ابنُ أدْهَمَ : لو علم الملوكُ ، وأبناءُ الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش – لجالدونا عليه بالسيوف . ولقد صدق ابنُ أدْهَمَ ؛ فإن السلطان إنْ أكل شيئًا خاف أن يكون قد طُرِح له فيه سَم ، وإن نام خاف أن يُغتال ، وهو وراء المغاليق ، لا يمكنه أن يخرج لفُرْجَة ، فإن خرج كان منزعجًا من أقرب الخلق إليه ، واللذة التى ينالها تبرد عنده ، ولا يبقَى له لذة مطعم ولا منكح ، وكلما استظرف المطاعم أكثر منها ؛ ففسدت معدته ، وكلما استجد الجوارى أكثر منهن ؛ فذهبت قوته ، ولا يكاد يبعُد ما بين الوطء والوطء ، فلا يجدُ فى الوطء كبيرَ لذة ؛ لأن لذة الوطء بقدر بعد ما بين الزمانين .

وكذلك لذة الأكل ، فإن من أكل على شِبَع ، ووَطِئ من غير صِدْق شهوة وقلق ، لم يجد اللذة التامة التى يجدها الفقيرُ إذا جاع ، والعَزَبُ إذا وجد امرأة ، ثم إن الفقير يرمى نفسه على الطريق فى الليل فينام .

ولذة الأمن قد حُرِمها الأمراء ، فلذتهم ناقصة ، وحسابهم زائد .

والله ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغًا فى اللذات ما لم يبلغ عيرْه إلا العلماء

---

(١) هو قاض القضاة أحمد بن أبى دؤاد أبو عبد الله الأيادى الجهمى المعتزلى عدو الإمام أحمد أفتى بقتله فى محنة خلق القرآن توفى سنة (٢٤ هـ) وفى نسخة ابن أبى داود : فيكون أبو بكر بن أبى داود السجستانى ، واسمه عبد الله بن سليمان بن الأشعث سمع من أبيه وكان زاهداً ناسكاً توفى سنة (٣١٦ هـ) .

المخلصين كـ « الحسن » وسُفْيانَ ، وأَحْمَد ، والعبّاد المحققين كـ « معروف » ، فإن لذة العلم تزيد على كل لذة . وأما ضرهم إذا جاعوا ، أو ابتلوا بأذى ، فإن ذلك يزيد فى رفعتهم ، وكذلك لذة الخَلوة والتعبد ؛ فهذا مَعْروفٌ ، كان مُنفردًا بربِّهَ ، طيب العيش معه ، لذيذ الخلوة به ، ثم قد مات منذ نحو أربعمائة سنة ، فما يخلو أن يهدَى إليه كل يوم ما تقدير مجموعة أجزاء من القرآن . وأقله من يقف على قبره ؛ فيقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [1] ويهديها له ، والسلاطين تقف بين يدى قبره ذليلة .

هذا بعد الموت ، ويوم الحشر تنشر الكرامات التى لا توصف ، وكذلك قبور العلماء المحققين . ولما بليت أقوام بمخالطة الأمراء أثر ذلك التكدير فى أحوالهم كلها ؛ فقال سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ : منذ أخذت من مال فلان الأمير مُنِعْت ما كان وُهب لى من فهم القرآن، وهذا أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِى [2] لا يزورُ قبره اثنان .

فالصبر عن مخالطة الأمراء - وإن أوجب ضيق العيش من وجه - يحصّل طيب العيش من جهات ، ومع التخليط لا يحصل مقصود . فمَنْ عزَمَ جزَمَ .

كان أَبُو الْحَسَنِ الْقَزْوِينى [3] لا يخرج من بيته إلا وقْتَ الصَّلاة ، فربما جاء السلطان؛ فيقعد لانتظاره ؛ ليسلم عليه ، ومدُّ النفس فى هذا ربما أضجر السامع . ومَنْ ذَاقَ عَرَفَ.

٢٠٨ - فصل : التزام الجادة

مَنْ عرف الشرع كما ينبغى ، وعلم حالة الرسول - ﷺ - وأحوال الصحابة ، وأكابر العلماء - علم أن أكثر الناس على غير الجادة ، وإنما يمشون مع العادة ، يتزاورون، فيغتاب بعضهم بعضًا ، ويطلب كل واحد منهم عورة أخيه ، ويحسده إن كانت نعمة ، ويشمت به إن كانت مصيبة ، ويتكبر عليه إن نصح له ، ويخادعه لتحصيل شىء من الدنيا ، ويأخذ عليه العثرات إن أمكن ؛ هذا كله يجرى بين المتثمين إلى الزهد لا الرعاع.

فالأولى بمن عرف الله - سبحانه - وعرف الشرع ، وسيَر السلف الصالحين - الانقطاعُ عن الكل ، فإن اضطر إلى لقاء منتسب إلى العلم والخير ، تلقاه وقد لبس درع الحذر ، ولم يطل معه الكلام ، ثم عجل الهرب منه إلى مخالطة الكتب التى تحوى تفسيرًا لنطاق الكمال .

---

(١) سورة الإخلاص ، آية : ١ .

(٢) هو الإمام قاضى القضاة صاحب أبو حنيفة يعقوب بن إبراهيم الكوفى أبو يوسف توفى سنة (١٨٢ هـ) .

(٣) هو أبو الحسن على بن أحمد بن صالح القزوينى توفى سنة (٣٨١ هـ) .

٢٠٩ – فصل : الخُلق الكامل

الكمال عزيز ، والكامل قليل الوجود . فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن ، وحسن صورة الباطن ، فصورة البدن تسمى خَلْقًا ، وصورة الباطن تسمى خُلقا .

ودليل كمال صورة البدن حسن الصمت ، واستعمال الأدب . ودليل صورة الباطن حسن الطبائع ، والأخلاق ، فالطبائع العفة ، والنزاهة ، والأنفة من الجهل ، ومباعدة الشره[1]. والأخلاق : الكرم ، والإيثار ، وستر العيوب ، وابتداء المعروف ، والحلم عن الجاهل . فمن رُزِق هذه الأشياء رقته إلى الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال ، وإن نقصت خلة أوجبت النقص .

٢١٠ – فصل : لا بد من الابتلاء

ليس فى الدنيا أشد بلها ممن يريد معاملة الحق سبحانه على بلوغ الأغراض ، فأين تكون البلوى إذن ؟ لا والله ، لا بد من انعكاس المرادات ، ومن توقُّف أجوبة السؤالات، ومن تشفيّ الأعداء فى أوقات . فأما من يريد أن تدوم له السلامةُ ، والنصرُ على من يعاديه ، والعافية من غير بلاء ، فما عرف التكليف ، ولا فهم التسليم .

أليس الرسول – ﷺ – يُنصر يوم بَدْر ، ثم يجرى عليه ما جري يوم أُحُد ؟ أليس يُصد عن البيت ثم يقهَر بعد ذلك ؟ فلا بد من جيد ورديء ، والجيد يوجب الشكر، والرديء يحرك إلى السؤال والدعاء ، فإن امتنع الجواب ، أريد نفوذ البلاء ، والتّسليم للقضاء . وههنا يبين الإيمان ، ويظهر فى التسليم جواهر الرجال . فإن تحقق التسليم باطنًا وظاهرًا ؛ فذلك شأن الكامل ، وإن وجد فى الباطن انعصار من القضاء لا من المقضى ، فإن الطبع لا بد أن ينفر من المؤذى ، دل على ضعف المعرفة ، فإن خرج الأمر إلى الاعتراض باللسان ، فتلك حال الجهال ، نعوذ بالله منها .

٢١١ – فصل : لا بد من التصبر على الابتلاء

من الابتلاء العظيم إقامةُ الرجل فى غير مُقامه ؛ مثل أن يحوج الرجل الصالح إلى مداراة الظالم والتردد إليه ، وإلى مخالطة من لا يصلح ، وإلى أعمال لا تليق به ، أو إلى أمور تقطع عليه مراده الذى يؤثره ، فقد يقال للعالم : تردد على الأمير وإلا خفنا عليك سَطْوته ، فيتردد فيرى ما لا يصلح له ، ولا يمكنه أن ينكر ، أو يحتاج إلى شىء من الدنيا ، وقد منع حقه ، فيحتاج أن يعرض بذكر ذلك ، أو يصرّحَ ؛ لينال بعض

---

(١) الشره : الطمع والحرص .

حقه ، ويحتاج إلى مداراة من تصعُب مداراته ، بل تتشتت همُّه لتلك الضّرورات. وكذلك يفتقر إلى الدخول فى أُمورٍ لا تليق به ، مثل أن يحتاج إلى الكسب ؛ فيتردد إلى السوق ، أو يخدم من يعطيه أجرته .

وهذا لا يحتمله قلب المراقب لله سبحانه ؛ لأجل ما يخالطه من الأكدار ، أو يكون له عائلة ، وهو فقير ؛ فيتفكر فى إغنائهم ، فيدخل فى مداخل كلها عنده عظيمة .

وقد يُبْتلى بفقد مَن يُحب ، أو ببلاء فى بدنه ، أوبعكس أغراضه ، وتسليط معاديه عليه، فيرى الفاسق يَقْهَره ، والظالم يذلّه . وكل هذه الأشياء تكدر عليه العيش ، وتكاد تزلزل القلب .

وليس فى الابتلاء بقوة الأشياء إلا التسليم ، واللّجأ إلى المقدّر فى الفَرَج، فيُرى الرجل المؤمن الحازم يثبت لهذه العظائم ولا يتغير قلبه ، ولا ينطق بالشكوى لسانه . أوَ ليس الرسول ﷺ يحتاج أن يقول : « **مَنْ يُوَارِينى ؟ مَنْ يَنْصُرُنى** » [1] ويفتقر إلى أن يدخل مكة فى جوار كافر ، ويُشق السّلى [2] على ظهره ، وتُقتل أصحابه، ويدارى المؤلفة ، ويشتد جوعه ، وهو ساكن لا يتغير . وما ذاك إلا أنه علم أن الدنيا دار ابتلاء؛ لينظر الله فيها كيف تعملون ، ومما يُهَوّن هذه الأشياء علمُ العبد بالأجر ، وإن ذلك مراد الحق ، فما لجُرْحُ إذا أرضاكم ألم .

٢١٢ - فصل : حب المال

لا يُنْكَرُ أن الطباع تحب المال ؛ لأنه سبب بقاء الأبدان ، لكنه يزيد حبه فى بعض القلوب ، حتى يصير محبوبًا لذاته ، لا للتوصل به إلى المقاصد ، فترى البخيل يحمل على نفسه العجائب ، ويمنعها اللذات ، وتصير لذاته فى جمع المال. وهذه جبلة فى خلق كثير. وليس العجب أن تكون فى الجهال بل العجب أن تكون فى أهل العلم ؛ وينبغي أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته ، خصوصًا فى الأفعال اللازمة فى جمع المال .

فأما أن يكون العالم جامعًا للمال من وجوه قبيحة ، ومن شُبُهات قوية ، وبحرص شديد ، وبذل فى الطلب ، ثم يأخذ من الزكوات ، ولا تحلّ له مع الغنى ، ثم يدخره ولا ينفع به ، فهذه بَهيميّة تخرج عن صفات الآدمية ، بل البهيمية أعذر ؛ لأنها بالرياضة تتغير طباعها ، وهؤلاء ما غيرتهم رياضة ، ولا أفادهم العلم .

---

(١) أحمد (٣/ ٣٢٢) .

(٢) السلى : جلدة يخرج فيها الولد من بطن أمه وتعرف بالمشيمة أو لفافة يخرج فيها ولد الناقة جمعها أسلاء والقصة ذكرها البخارى فى الجزية (٣١٨٥) ، ومسلم فى الجهاد (١٧٩٤) .

ولقد كان أَبُو الحَسَنِ البِسْطَامِيّ مقيمًا في رباط البسطامي الذى على نهر عيسى ، وكان لا يلبس إلا الصوف شتاءً وصيفًا ، وكان يُحترم ويُقصد ، فخلف ما لا يزيد على أربعة آلاف دينار

ورأينا بعض أشياخنا ، وقد بلغ الثمانين ، وليس له أهلٌ ولا ولد ، وقد مرض ؛ فألقى نفسه عند بعض أصدقائه ، يتكلف له ذلك الرجل ما يشتهيه وما يشفيه ، فمات فخلف أموالاً عظيمة

ورأينا صدْقَةَ بنَ الحُسَيْنِ الناسخ ، وكان على الدوام يَذُمُّ الزمان وأهله ، ويبالغ في الطلب من الناس ، ويتجفف ، وهو في المسجد وحده ، ليس له من يقوم بأمره ، فمات فخلف فيما قِيلَ ثلاثمائة دينار

وكان يصحبنا أَبُو طَالِب بْنُ المؤيَّدِ الصُّوفِيُّ ، وكان يجمع المال ، فسُرِق منه نحو مائة دينار ؛ فتلهف عليها ؛ وكان ذلك سبب هلاكه

ومن أحوال الناس أنك ترى أقوامًا جلسوا على صفة القوم يطلبون الفتوح ، فيأتيهم منها الكثير الذى يصيرون به من الأغنياء ، وهم لا يمتنعون من أخذ زكاة ، ولا من طلب وكذلك القُصَّاصُ ، يخرجون إلى البلاد ويطلبون ؛ فيحصل لهم المالُ الكثيرُ ، فلا يتركون الطلب عادة - فيا سبحان الله ! أىّ شَىْءٍ أفاد العلم ، بل الجهل كان لهؤلاء أعذر

ومن أقبح أحوالهم لزومُهم الأسباب التى تجلب لهم الدنيا من التخاشع ، والتنسك فى الظاهر ، وملازمة حَب العزلة عن المخالطة ، وكل هؤلاء بمعْزِلٍ عن الشرع

ولقد تأملت على بعضهم من القدح فى نظيره إلى أن يبلغ به إلى التعرض به للهلاك فالويل لهم ! ما أقلَّ ما يتمتعون بظواهر الدنيا ! وإن كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم ؛ لأن الحق - عَزَّ وجَلَّ - لا يميل بالقلوب إلا إلى المخلصين . فقد فاتتهم الدنيا على الحقيقة ، وما حصلوا إلا صورة الحطام . نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - عقلاً يدبر دنيانا ، ويحصّل لنا آخرتنا ، والرزاق قادر

٢١٣ - فصل : أنفس الأشياء معرفة الحق عز وجل

ينبغى لمن عَرفَ شرفَ الوجود أن يحصل أفضل الموجود ؛ هذا العمر موْسمٌ والتجارات تختلف ، والعامة تقول : عليكم بما خَفَّ حملُه ، وكثُر ثمنُه

فينبغى للمستيقظ ألا يطلب إلا الأنفس ، وأنفس الأشياء فى الدنيا معرفة الحق عزَّ وجلَّ

فمن العارفين السالكين من وافى فى طريقه بغيته فى السفر ، ومنهم من همته متعلقة بطلب ربحه ، ومنهم من ينظر إلى ما يُرضى الحبيب ؛ فيجلبه إلى بلد المعاملة ، ويرضى بالقَبُول ثمنًا ، ويرى أن كل البضائع لا تفى بحق الحفارة [1] ، ومنهم من يرى لزوم الشكر ، فى اختياره هذا السلوك دون غيره ؛ فيقر بالعجز .

وقد ارتفع قومٌ عن هذه الأحوال ، فرأوا مجرد التوفيق يشغلهم عن النظر إلى العمل . أولئك الأقلُّون عددًا ، وأن الأعظمين قدرًا أقلُّ نسلاً من عنقاء مغرب .

٢١٤ - فصل : استعدوا للرحيل

من علم قرب الرحيل عن مكةَ ، استكثر من الطواف ، خصوصًا إن كان لا يؤمل العود ؛ لكِبَر سنه ، وضَعْف قوته . فكذلك ينبغى لمن قاربه ساحل الأجل بعلو سنه ، أن يبادر اللحظات ، وينتظر الهاجم بما يصلح له ، فقد كان فى قوس الأجل مَنْزَعٌ زمانَ الشباب ، واسترخى الوَتَرَ المشيبُ عن سِيَة القوس ؛ فانحدر إلى القاب ، وضعفت القوى ، وما بقى إلا الاستسلام لمحارب التلف ، فالبِدَارَ البدارَ إلى التنظيف ؛ ليكون القُدُوم على طهارة ، وأىّ عيش فى الدنيا يَطيبُ لمن أيامه السليمة تُغذّ [2] به إلى الهلاك ، وصعودُ عمره نزولٌ عن الحياة . وطول بقائه نقص مَدَى المُدّة ، فليتفكر فيما بين يديه وهو أهم مما ذكرناه . أليس فى الصحيح : « **مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إلا وَيُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعشىِّ مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ غُدْوَةً وَعَشِيا ، فَيُقَالُ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ** » [3] فوا أسفا لمهدَّد لم يحسن التأهب ! ويا طِيبَ عيش الموعود بأزيد المنى ! .

وليعلم مَنْ شارف السبعين ، أن النفس أنينٌ . أعان الله من قطع عقبة العمر على رمل زرود الموت .

٢١٥ - فصل : سيرة الرسول ﷺ مثل أعلى

من أراد أن يعلم حقيقة الرضا عن الله - عَزَّ وجَلَّ - فى أفعاله ، وأن يدرى من أين ينشأ الرضا ، فليتفكر فى أحوال رسول الله - ﷺ -

فإنه لما تكاملت معرفتُه بالخالق سبحانه ، رأى أن الخالق مالكٌ ، وللمالك التصرُّف فى مملوكه ، ورآه حكيمًا لا يصنع شيئًا عَبَثًا ؛ فسلَّم تَسْليمَ مملوك لحكيم ، فكانت

---

(١) الحفاوة : المبالغة فى الإكرام . (٢) تغذ : تسرع به .

(٣) رواه البخارى فى الجنائز (١٣٧٩) ، ومسلم فى الجنة (٢٨٦٦) ، وأحمد (١٦/٢) .

العجائب تجرى عليه ، ولا يوجد منه تغير ، ولا من الطبع تأفُّف ، ولا يقول بلسان الحال لو كان كذا ، بل يثبت للأقدار ثبوتَ الجبل لعواصف الرياح .

هذا سيدُ الرسل - ﷺ - بُعث إلى الخلق وحده ، والكفرُ قد ملأ الآفاق ، فجعل يَفرُّ من مكان إلى مكان ، واستتر فى دار الخيزُرَان (1) ، وهم يضربونه إذا خرج ، ويُدْمُونَ عَقِبَه، وشُق السَّلى على ظهره ، وهو ساكت ساكن . ويخرج كل مَوْسم ، فيقول : «**من يُؤْوينى مَنْ ينْصرُنى** » (2) ثم خرج من مكةَ ، فلم يقدر على العود إلا فى جوار كافر ، ولم يوجد من الطَبع تأنف ، ولا من الباطن اعتراض

إذ لو كان غيره لقال : يا ربِّ ، أنت مالك الخلق ، وأقدر على النصر ، فلمَ أذل ؟ كما قال عمر - رضى الله عنه - يوم صُلْح الحُدَيْبيَة : ألسنا على الحق ؟! فلَمَ نُعْطَى الدنيةَ فى دينَنا ! ولما قال هذا ، قال له الرسولَ - ﷺ - : « **إنِّى عَبْدُ الله ولَنْ يُضَيِّعَنى**»(3). فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما

فقوله : « **إنى عَبْدُ** الله » إقرارٌ بالملك وكأنه قال . أنا مملوك يفعل بى ما يشاء ، وقوله: « **لَنْ يُضيِّعَنى** » بيانَ حكمته ، وأنه لا يفعل شيئًا عبثًا .

ثم يبتلى بالجوع فيشد الحَجَر ، ولله خزائنُ السموات والأرض . وتقتلُ أصحابه ، ويشجُ وجهه ، وتُكسر رباعيته ، ويمثّل بعمه ، وهو ساكت .

ثم يُرْزَقُ ابنًا ، ويُسلب منه ، فيتعلل بالحَسَن ، والحُسَيْن ، فَيُخْبَرُ بما سيجرى عليهما، ويسكن بالطبع إلى عَائشَةَ - رضى الله عنها - فينغص عيشُه بقذْفها . ويبالغ فى إظهار المعجزات ؛ فيقام فى وجهه مُسَيْلمَةُ ، والعَنْسىُّ ، وابنُ صَيَّاد .

ويقيم ناموس الأمانة والصدق؛ فيُقالُ : كَذّابٌ ساحر . ثم يَعْلَقُه المرضُ كما يُوعَكُ رجلان ، وهو ساكن ساكت . فإن أخبر بحاله فليعلم الصبر . ثم يُشَدَّدُ عليه الموت ، فيسلب روحه الشريفة ، وهو مضطجع فى كساء مُلَبد ، وإزار غليظ ، وليس عندهم زيت يُوقد به المصباح لَيْلَتَئذ . هذا شىء ما قدر على الصبر عليه ، كما ينبغى نبى قبله . ولو ابتُلِيَت به الملائكةُ ما صبرت .

هذا آدَمَ - عليه السلام - يُباح له الجنة سوَى شجرة ، فلا يقع ذُبابُ حرْصه إلا على الفقر . ونبينا - ﷺ - يقول فى المباح : « **مَالى وَللدُّنْيَا** » (4) .

---

(1) الخيزران : هى امرأة الرشيد وكانت دار للأرقم فى عهد النبى آلت إليها بعد ذلك .

(2) سبق تخريجه .

(3) رواه البخارى فى الجزية (3182) ، ومسلم فى الجهاد (1875) ، وأحمد (3/486)

(4) رواه البخارى فى الهبة (2613) ، والترمذى فى الزهد (2377) ، وقال : حسن صحيح ، ورواه أحمد فى المسند (1/ 3)

وهذا نوحٌ - عليه السلام - يضج مما لاقى ؛ فيصيح من كمد وَجْده : ﴿ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (1) . ونبينا - ﷺ - يقول : « اللَّهُمَّ ، اهْدِ قَوْمِي ؛ فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ » (2) .

هذا الكليم مُوسَى - ﷺ - يستغيثُ عند عبادة قومه العِجْلَ ويتوكأ على القدَرِ : ﴿ إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ ﴾ (3) ، ويوجه إليه ملك الموت فيقلع عينه (4) .

وعيسَى - ﷺ - يقول : إن صرفت الموت عن أحد فاصرفه عنى ، ونبينا - ﷺ - يُخَيَّر بين البقاء والموت ؛ فيختار الرَّحيلَ إلى الرفيق الأعلى .

هذا سُلَيْمَان - ﷺ - يقولُ : ﴿ هَبْ لِي مُلْكًا ﴾ (5) ، ونبينا - ﷺ - يقول : « اللَّهُمَّ، اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا » (6) . هذا - والله - فعل رجل عرف الوجود ، والموجد ؛ فماتت أغراضُه ، وسكنت اعتراضاته ؛ فصار هواه فيما يجرى .

٢١٦ - فصل : خداع الشهوات

أكثر شهوات الحس النساءُ ، وقد يرى الإنسانُ امرأةً فى ثيابها ، فيتخايل له أنها أحسن من زوجته ، أو يتصور بفكره المستحسنات ، وفكره لا ينظر إلا إلى الحَسَن من المرأة ، فيسعى فى التزوج والتسرِّى ، فإذا حصل له مراده ، لم يزل ينظر فى عيوب الحاصل التى ما كان يتفكر فيها ؛ فيملّ ؛ ويطلب شيئًا آخر ، ولا يدرى أن حصول أغراضه فى الظاهر ، ربما اشتمل على مِحَنٍ : منها أن تكون الثانيةُ لا دِينَ لها ، أوْ لا عقل ، أو لا محبةَ لها ، أوْ لا تدبير ؛ فيفوت أكثر مما حصل .

وهذا المعنى هو الذى أوقع الزناةَ فى الفواحش ؛ لأنهم يجالسون المرأة حال استتار عيوبها عنهم ، وظهور محاسنها ، فتلذ لهم تلك الساعة ، ثم ينتقلون إلى أخرى .

فليعْلَم العاقل أنْ لا سبيل إلى حصول مراد تام ، كما يريد : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ (7) ، وما عيب نساءُ الدنيا بأحسن مِنْ قوله - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ (8) وذو الأَنَفَة يأنَفُ من الوسخ صورة ، وعيب الخلق معنى . فليقنع بما

(1) سورة نوح ، آية : ٢٦ .

(2) رواه البخارى فى الأنبياء ، (٣٤٧٧) ، ومسلم فى الجهاد (١٧٩٢) .

(3) سورة الأعراف ، آية : ٥٥ .

(4) مسلم فى الفضائل (٢٣٧٢) ، وأحمد (٢/ ٧ ، ٣١٥) .

(5) سورة ص ، آية : ٣٥ .

(6) رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٦٠) ، ومسلم فى الزكاة (١٠٥٥) .

(7) سورة البقرة ، آية : ٢٦٧ .

(8) سورة البقرة ، آية : ٢٥ .

باطنه الدين ، وظاهره الستر ، والقناعة ؛ فإنه يعيش مرفه السر ، طيِّبَ القلب ومتى ما استكثر ، فإنما يستكثر من شغل قلبه ، ورقة دينه .

٢١٧ - فصل : أصناف الناس

سُبْحانَ مَنْ شغل كل شخص بفن لتنام العيون فى الدنيا ! فأما فى العلوم فحَبَّبَ إلى هذا القرآن ، وإلى هذا الحديثَ ، وإلى هذا النحو ، إذ لولا ذلك ما حُفظت العلوم، وألهم هذا المتعيش أن يكون خبازًا ، وهذا أن يكون هرّاسًا ، وهذا أن ينقل الشوك من الصحراء ، وهذا أن ينقى البثار [1] ؛ ليلتئم الخلق .

ولو ألهم أكثر الناس أن يكونوا خبازين مَثَلاً ؛ بات الخبز وهلك ، أو هراسين ؛ جفت الهرايس . بل يُلْهم هذا وذاك بقدْر ؛ لينتظم أمر الدنيا ، وأمر الآخرة .

ويندرُ مِنْ الخلق مَنْ يلهمه الكمال وطلب الأفضل ، والجمع بين العلوم والأعمال ، ومعاملات القلوب ، وتتفاوت أرباب هذه الحال . فسبحان من يخلق ما يشاء ويختار ! نسأله العفو إن لم يقع الرضا ، والسلامة إن لم نصلح للمعاملة .

٢١٨ - فصل : أهمية علم الحديث

علمُ الحديثِ هو الشريعةُ ؛ لأنه مبين للقرآن ، وموضح للحلال والحرام ، وكاشف عن سيرة الرسول - ﷺ - وسير أصحابه . وقد مَزَجُوه بالكذب ، وأدخلوا فى المنقولات كل قبيح ، فإذا وُفِّق الزاهد والواعظ ، لم يذكرا إلا ما شهدا بصحته ، وإن حُرِما التوفيق، عمل الزاهد بكل حديث يسمعه ، لحسن ظنه بالرُّوَاة ، وقال الواعظ كلَّ شىء يراه ؛ لجهله بالتصحيح ؛ ففسدت أحوالُ الزاهد ، وانحرف عن جادَّة الهُدَى ، وهو لا يعلم .

وكيف لا ؟ وعموم الأحاديث الدالة على الزهد لا تثبت ؛ مثل حديث ابْنُ عُمَرَ - رضى الله عنهما : « **أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِم اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ عَلَى نَفْسِه ، غُفِرَ لَهُ** »[2]. وهذا حديث موضوع ، يمنعُ الإنسان ما أبيح له ، مما يتقوى به على الطاعة . ومثل قوله : « **مَنْ وَضَعَ ثِيَابًا حِسَانًا** » [3] . وكذلك ما رَوَوْا : أن رسول الله - ﷺ -

---

(١) البثار : جمع بثرة وهى الخراج الصغير .

(٢) أخرجه العراقى فى تخريج الإحياء (١٣٣/٣) ، وعزاه لابن حبان فى الثواب بسند ضعيف جدا، ولابن الجوزى ، وذكره الشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص ٢٣٩) (٦٦) ، وقال : رواه الدارقطنى عن ابن عمر مرفوعا وهو موضوع والمتهم به : عمرو بن خالد أبو خالد الواسطى .

(٣) لم أقف عليه .

قُدِّمَ له أدمان ، فقال : « أُدْمَانِ فِي قَدَحٍ ، لا حَاجَةَ لِي فيه ، أَكْرَهُ أَنْ يَسْأَلَنِيَ اللهُ عَنْ فُضُولِ الدُّنْيَا »[1] . وفى الصحيح : أن رسول الله - ﷺ - : « أَكَلَ البَطِّيخَ بِالرُّطَبِ »[2] . ومثل هذا إذا تُتُبع كثير ، فقد بنوا على فساد ، ففسدت أحوال الواعظ والموعوظ ؛ لأنه يبنى كلامه على أشياء فاسدة ومحالات .

ولقد كان جماعة من المتزهدين يعملون على أحاديث ومنقولات لا تصح ، فيضيع زمانهم فى غير المشروع ، ثم ينكرون على العلماء استعمالهم للمباحات ، ويرون أن التجفُّفَ هو الدين .

وكذلك الوعاظ يحدثون الناس بما لا يَصِحُّ عن الرسول - ﷺ - ولا أصحابه . فقد صار المحال عندهم شريعة ! فسبحان مَنْ حفظ هذه الشريعةَ بأخبار أخيار يَنْفُوْنَ عنها تحريف الغَالِين ، وانتحال المبطلين .

٢١٩ - فصل : مسند أحمد بن حنبل

كان قد سألنى بعضُ أصحاب الحديث : هل فى مسند أحمدَ ما ليس بصحيح ؟ فقلت: نَعم ؛ فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب ، فحملت أمرهم على أنهم عوامّ ، وأهملت فكر ذلك .

وإذا بهم قد كتبوا فتاوى فكتب فيها جماعة من أهل خراسان ، منهم أَبُو الْعَلَاءِ الْهَمَذَانِى[3] يُعَظِّمون هذا القول، ويردونه ، ويقبحون قولَ من قاله ، فبقيت دَهِشًا مُتعجبًا، وقلتُ فى نفسى : واَعجبًا ! صار المتنسبُون إلى العلم عامّةً أيضًا ؛ وما ذاك إلا أنهم سمعوا الحديث ، ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه ، وظنُّوا أن مَنْ قال ما قلته ، قد تعرض للطعن فيما أخرجه أَحْمَدُ ، وليس كذلك ؛ فإن الإمام أحمد روى المشهور والجيد والردىء ، ثم هو قد ردّ كثيرًا مما رُوَى ، ولم يقبل به ، ولم يجعله مذهبًا له .

أليس هو القائل فى حديث الوضوء بالنبيذ مجهول . ومن نظر فى كتاب « العلَلِ » الذى صنَّفه أَبُو بَكْرٍ الخلالَ[4] - رأى أحاديث كثيرة كلها فى المسند ، وقد طعن فيها

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ١٢٢) ، وقال الذهبى : بل منكر واه ، وذكر سنده ثم قال : ولم أر مجروحاً، وقال فى كشف الخفاء (١/ ٧٥) : رواه الطبرانى ، وذكر الشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص ١٧٧) (٥٦) حديثا بنحوه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) هو أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمدانى ألف كتاب زاد المسافر فى خمسين مجلد توفى سنة (٥٦٩هـ).

(٤) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن يزيد الخلال توفى سنة (٣١١ هـ) .

أحمد . ونقلت من خط القاضى أَبِى يَعْلَى مُحمَدِ بْنِ الحُسَيْنِ الفَرَّاءِ [1] فى مَسْأَلَة النبيذ ، قال: إنما روى أحمدُ فى مسنده ما اشتهر ، ولم يقصد الصحيح ، ولا السقيم ؛ ويدل على ذلك أن عَبْدَ الله قال : قلتُ لأبى : ما تقول فى حديث ربعى بْنِ حراش ، عَن حُذَيْفَةَ؟ قال : الذى يرويه عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ أَبِى رواد [2] ؟ قلتُ : نعم . قال : الأحاديث بخلافه . قلتُ : فقد ذكرته فى المسند . قال : قصدت فى المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ما صح عندى ، لم أرد من هذا المسند إلا الشىء بعد الشىء اليسير ، ولكنك يا بنى ، تعرف طريقتى فى الحديث ، لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه .

قال القاضى : وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه فى المسند . فمن جعله أصلاً للصحة فقد خالفه ، وترك مقصده .

قلتُ : قد غمنى فى هذا الزمان ؛ أن العلماء لتقصيرهم فى العلم صاروا كالعامة ، وإذا مر بهم حديث موضوع ، قالوا : قد رُوِىَ . والبكاء ينبغى أن يكون على خَسَاسَةِ الهمم ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

٢٢٠ - فصل : اتباع شهوات بهيمية

بلغنى عن بعض فُسّاق القدماء أنه كان يقول : مَا أَرَى العَيْشَ غَيْرَ أَنْ تُتْبِعَ النَّفْسَ هَوَاهَا ؛ فَمُخْطِئًا ، أَوْ مُصِيبًا ، فتدبرت حال هذا ، وإذا به ميت النفس ، ليس له أنفة على عِرْضه ، ولا خوف عار . ومثل هذا ليس فى مسلاخ [3] الآدميين ؛ فإن الإنسان قد يُقْدِمُ على القتل ؛ لئلا يُقَالَ جبانٌ . ويحمل الأثقال ؛ ليقال ما قصّر . ويخاف العار فيصير على كل آفة من الفقر ، وهو يستر ذلك حتى لا يرى بعين ناقصة . حتى إن الجاهل إذا قِيل له : يا جاهل ، غَضِبَ .

واللصوص المتهيئون للحرام إذا قال أحدهم للآخر : لا تتكلم ، فإن أختك تفعل ، وتصنع ، أخذته الحمية ؛ فقتل الأخت .

ومن له نفس لا تقف فى مقام تهمة ، لئلا يظن به .

فأما من لا يبالى أن يُرَى سكران ، ولا يهمه أن شهر بين الناس ، ولا يؤلمه ذكر

---

(١) هو أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء حنبلى المذهب توفى سنة (٤٥٨ هـ) .

(٢) عبد العزيز بن أبى رواد صدوق عابد ربما وهم ورمى بالإرجاء مات سنة تسع وخمسين . انظر تقريب التهذيب (٤٠٩٦) .

(٣) مسلاخ : جلد .

الناس له بالسوء ؛ فذاك فى عداد البهائم . وهذا الذى يريد أن يتبع النفس هواها لا يلتذ به لأنه لا يخاف عنتًا [1] ، ولا لومًا، ولا يكون له عِرض يحذر عليه ، فهو بهيمة فى مسلاخ إنسان .

وإلا فأىّ عيش لمن شرب الخمر ، وأُخِذَ عَقِيب ذلك ؛ وضُرِب ، وشاع فى الناس ما قد فُعِل به ؟ أما يفى ذلك باللذة ؟ لا ، بل يربو عليها أضعافًا . وأىّ عيشٍ لمن ساكن الكسل إذا رأى أقرانه قد برزوا فى العلم وهو جاهل ! أو استغنوا بالتجارة وهو فقير ؟ فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى ؟

ولو تفكر الزانى فى الأحدُوثة عنه ، أو تصور أخذ الحدّ منه ، لكف الكفَّ ، غير أنه يرى لذة حاضرة كأنها لمعُ برق ، ويا شؤمَ ما أعقبت من طول الأسى ! هذا كله فى العاجل . فأما الآجل فمنغصة العذاب دائمة : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ [2] نسأل الله أنفة من الرذائل ، وهمة فى طلب الفضائل إنه قريبٌ مجيبٌ .

٢٢١ - فصل : عواقب الخطايا

قد تبغت العقوبات ، وقد يؤخرها الحلم ، والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة، فكم مغرورٍ بإمهال العصاة ، لم يمهل . وأسرع المعاصى عقوبةً ما خلا عن لذة تنسى النهى ، فتكون تلك الخطيئة كالمعاندة والمبارزة ، فإن كانت توجب اعتراضًا على الخالق ، أو منازعة له فى عظمته ، فتلك التى لا تُتَلافى ، خصوصًا إن وقعت من عارف بالله ؛ فإنه يندر إهماله ، قال عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ [3] : كان عندنا بخراسان رجلٌ كتب مُصْحَفًا فى ثلاثة أيام ، فلقيه رجل ، فقال : فى كم كتبت هذا ؟ فأَوْمَأ بالسبابة والوسطى والإبهام ، وقال : فى ثلاثة : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [4] ، فجفت أصابعه الثلاث ، فلم ينتفع بها فيما بعد .

وخطر لبعض الفصحاء أنه يقدرُ أن يقول مثل القرآن ، فصعد إلى غرفة ؛ فانفرد فيها، وقال : أمهلونى ثلاثًا ، فصعدوا إليه بعد الثلاث ، ويده قد يَبِسَتْ على القلم وهو ميت.

قال عبدُ الْحَمِيدِ : ورأيت رجلاً كان يأتى امرأته حائضًا ، فحاض ، فلما كثُر الأمر به تاب ؛ فانقطع عنه .

---

(١) العنت : الإثم .
(٢) سورة الشورى ، آية : ١٨ .
(٣) هو عبد المجيد بن عبد العزيز أبى رواد صدوق يخطئ ، وكان مرجئاً أفرط ابن حبان فقال متروك توفى سنة (٢٠٦ هـ)
(٤) سورة ق ، آية : ٣٨

ويلحق هذا أن يُعيّرَ الإنسانُ شخصًا بفعل ، وأعظمه أن يعيره بما ليس إليه ، فيقول : يا أعمى ، ويا قبيح الخِلْقَة . وقد قال ابنُ سيرينَ : عيّرْت رجلاً بالفقر ؛ فحبست على دين . وقد تتأخر العقوبة ، وتأتى فى آخر العمر ، فيا طول التعثير مع كبر السن لذنوب كانت فى الشباب ! فالحذرَ الحذرَ من عواقب الخطايا ، والبِدَارَ البِدَارَ إلى محوها بالإنابة، فلها تأثيراتٌ قبيحة إن أسرعت ، وإلا اجتمعت وجاءت .

٢٢٢ - فصل : الاستغناء عن الناس دين

اعلم أن الآدمى قد خلق لأمر عظيم ، وهو مطالب بمعرفة خالقه بالدليل ، ولا يكفيه التقليد . وذلك يفتقر إلى جمع الهم فى طلبه . وهو مطالب بإقامة المفروضات ، واجتناب المحارم ؛ فإن سَمَت هِمّته إلى طلب العلم ، احتاج إلى زيادة جمع الهم ، فأسعد الناس من له قوت دارٌ بقدرِ الكفاية ، لا مِنْ مِنَن الناس وصدقاتهم ، وقد قنع به .

وأما إذا لم يكن له قوت يكفى ، فالهم الذى يريد اجتماعه فى تلك الأمور يتشتت ، ويصير طالبًا للتحيل فى جمع القوت ؛ فيذهب العمر فى تحصيل قوت البدن الذى يريد من بقائه غير بقائه ، ويفوت المقصود ببقائه . وربما احتاج إلى الأنذلال [1] ؛ قال الشاعر:

حَسْبِى مِنَ الدَّهْرِ مَا كَفَانِى ... يَصُونَ عِرْضِى عَنِ الْهَوَانِ
مَخَـافَـةَ أَنْ يَقُولَ قَوْمٌ ... فَضْـلُ فُلانٍ عَلَى فُلانِ

فينبغى للعاقل إذا رزق قوتًا ، أو كان له مواد أن يحفظها ليتجمع همه ، ولا ينبغى أن يبذر فى ذلك ؛ فإنه يحتاج فيتشتت همه ، والنفس إذا أحْرَزَت قوتها اطمأنت .

فإن لم يكن له مال اكتسب بقدر كفايته ، وقلل الغلو ليجمع همه وضرورته ، وليقنع بالقليل؛ فإنه متى سمت همته إلى فضول المال ، وقع المحذور من التشتت ؛ لأن التشتت فى الأول للعدم ، وهذا التشتت يكون للحرص على الفضول ، فيذهب العمر على البارد:

وَمَنْ يُنْفِقِ الأَيَّامِ فِى حِفْظِ مَالِهِ ... مَخَـافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِى فَعَلَ الْفَقْرُ

فافهم هذا يا صاحب الهمة فى طلب الفضائل ، فإنك ما لم تعزل قوت الصبيان شَتَّتُوا قلبك ، وطبعُك طفل ؛ ففرغ همك من استعانته ، واعرف قدر شرف المال الذى أوجب جمع هَمِّك ، وصان عِرْضَك عن الخلق .

وإيَّاك أن يحملك الكرم على فرط الإخراج ؛ فتصير كالفقير المتعرض لك بالتعرض

---

(١) الأنذال : جمع نذل وهو الخسيس .

لغيرك ، وفى الحديث : « أَنَّ رَجُلاً أَتَى رَسُولَ الله - ﷺ - فَرَأَى عَلَيْهِ آثَارَ الْفَقْرِ ؛ فعرَّض به فَأُعْطِيَ شَيْئًا . فجاء فَقِيرٌ آخرُ فَآثَرَهُ الأَوَّلُ بِبَعْضِ مَا أُعْطِيَ ؛ فرماه النبيُّ - ﷺ - ، ونهاه عن مثل ذلك » . والقناعة بما يكفى ، وترك التشوُّف إلى الفضول أصلُ الأصول . ولما آيس الإمام أحمدُ بنُ حنبلٍ نفسَه من قبول الهدايا ، والصلات - اجتمع همه ، وحسن ذكره . ولما أطمعها ابنُ المَدِينيّ ، وغيرُه - سقط ذِكْرُهم .

ثم فيمن يطمع ؟ إنما هو سلطان جائر ، أو مُزَكٍّ منَّان ، أو صديق مُدِلّ [1] بما يعطى . والعِزُّ أَلذُّ مِنْ كل لذة ، والخروج عن رِبْقة المنن ولو بسفِّ التراب أفضل .

٢٢٣ - فصل : التجمل مع الناس

قد رُكِّب فى الطباع حبُّ التفضيل على الجنس ؛ فما أحدٌ إلا وهو يحب أن يكون أعلى درجة من غيره ، فإذا وقعت نكبة أوجبت نزولَه عن مرتبة سواه ، فينبغى له أن يتجلد بستر تلك النكْبة ؛ لئلا يُرَى بعين نقص ، وليتجمل المتعفف ؛ حتى لا يرى بعين الرحمة ، وليتحامل المريض ؛ لئلا يشمت به ذو العافية .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين قدومه مكة ، وقد أخذتهم الحُمىّ ؛ فخاف أن يشمت بهم الأعداءُ حين ضعفهم عن السعى - فقال : « **رَحِمَ اللهُ مَنْ أَظْهَرَ مِنْ نَفْسِه الجلَدَ** » ؛ فيرملون [2] والرَّمَلُ : شدة السعى . وزال ذلك السبب ، وبقى الحكم ؛ ليتذكَّر السبب ، فيفهم معناه . واستأذنوا على مُعَاوِيَة ، وهو فى الموت ، فقال لأهله : أجْلِسونى، فقعد مُتَمكِّنًا ؛ يظهر العافية ، فلما خرج العُوّادُ أنشد :

وَتَجَــلُّدِي لِلشَّـــامِتِينَ أُرِيهِمُ	أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ [3]
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَـبَتْ أَظْــفَارَهَا	أَلْفَيْتَ كُـــلَّ تَمِـيمَةٍ لا تَنْفَعُ

وما زال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب ، والفقر ، والبلاء ؛ لئلا يتحمَّلُوا مع النوائب شماتة الأعداء ، وإنها لأشد من كل نائبة . وكان فقيرهم يظهر الغنى ، ومريضهم يظهر العافية ، بلى . ثمَّ نكتة ينبغى التفطُّنُ لها ، ربما أظهر الإنسانُ كثرة المال وسبوغ النعم ؛ فأصابه عدوه بالعين ، فلا يفي ما تبجح [4] به بما يلاقى من انعكاس النعمة .

---

(١) مدل : متفضل .

(٢) قصة الحديث ذكرها البخارى فى الحج (١٦٠٢) ، ومسلم فى الحج (١٢٦٦) .

(٣) أتضعضع : أذل وأخضع .　　(٤) تبجح به : فرح به .

والعين لا تصيب إلا ما يستحسن للشيء ، ولا يكفى الاستحسان فى إصابة العين حتى يكون من حاسد ، ولا يكفى ذلك حتى يكون من شِرِّير الطبع .

فإذا اجتمعت هذه الصفات خيف من إصابة العين . فليكن الإنسان مظهرا للتجمل مقدار ما يأمن إصابة العين ، ويعلم أنه فى خير . وليحذر الإفراط فى إظهار النعم ؛ فإن العين هناك محذورة .

وقد قال يَعْقُوبُ لبنيه - عليهم السلام - : ﴿ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ [1] ، وإنما خاف عليهم العين ، فَلْيُفْهَمْ هذا الفصلُ ، فَإِنَّهُ ينفع من له تدبّر .

٢٢٤ - فصل : مراتب الناس

إنما خلقنا لنحيا مع الخالق فى معرفته ، ومحادثته ، ورؤيته فى البقاء الدائم . وإنما ابتدئ كوننا فى الدنيا ؛ لأنها فى مثال مكتب نتعلم فيه الخط ، والأدب ؛ ليصلح الصبى عند بلوغه للرتب ، فمن الصبيان بعيد الذهن ؛ يطول مكثه فى المكتب ، ويخرج وما فهم شيئًا ، وهذا مثال من لا يعلم وجوده ، ولا نال المراد من كونه .

ومن الصبيان من يجمع مع بعد ذهنه ، وقلة فهمه ، وعدم تعلمه ، أذى الصبيان ، فهو يؤذيهم ، ويسرق مطاعمهم ، ويستغيثون من يده ، فلا هو صلح ، ولا فهم ، ولا كف عن الشر ؛ وهذا مثل أهل الشر والمؤذيين .

ومن الصبيان من علق بشىء من الخط ، لكنه ضعيف الاستخراج ، ردىء الكتابة ؛ فخرج ولم يعلق إلا بقدر ما يعلق به حساب معاملته ؛ وهذا مثل من فهم بعض الشىء ، وفاتته الفضائل التامة .

ومنهم من جوّد الخط ، ولم يتعلم الحساب ، وأتقن الآداب حفظًا ، غير أنه قاصر فى أدب النفس ، فهذا يصلح أن يكون كاتبًا للسلطان على مخاطرة لسوء ما فى باطنه من الشَّرَه [2] ، وقلة التأدب .

ومنهم من سمت همتُه إلى المعالى الكاملة ، فهو مقدم الصبيان فى المكتب ، ونائب عن معلمهم ، ثم يرتفع عنهم بعزّة نفسه ، وأدب باطنه ، وكمال صناعة الآداب الظاهرة . ولا يزال حاثٌّ من باطنه يحثه على تعجيل التعلم ، وتحصيل كل فضيلة ؛

---

(١) سورة يوسف ، آية : ٦٧ .
(٢) سبق تعريفها .

لعلمه أن المكتب لا يراد لنفسه ، بل لأخذ الأدب منه ، والرحلة إلى حالة الرجولية ، والتصرف؛ فهو يبادر الزمان فى نيل كل فضيلة ؛ فهذا مثل المؤمن الكامل ، يسبق الأقران يوم التجارى ، ويعرض لوح عمله جيد الخط ، فيقول بلسان حاله : **﴿ هَاؤُمُ اقرءوا كِتَابِيَهْ ﴾** [1] وكذلك الدنيا وأهلها .

من الناس هالك بعيد عن الحق ، وهم الكفار ، ومنهم خاطئ مع قليل من الإيمان ، فهو معاقب والمصير إلى خير ، ومنهم سليم ، لكنه قاصر .

ومنهم تام ، لكنه بالإضافة إلى من دونه ، وهو ناقص بالإضافة إلى من فوقه ؛ فالبِدَارَ البِدَارَ يا أرباب الفهوم ؛ فإن الدنيا معبر إلى دار إقامة ، وسفر إلى المستقر والقرب من السلطان ومجاورته فتهيئوا للمجالسة . واستعدوا للمخاطبة . وبالغوا فى استعمال الأدب؛ لتصلحوا للقرب من الحضرة . ولا يشغلنكم عن تضمير [2] الخيل تكاسل .

وليحملكم على الجد فى ذلك تذكركم يوم السباق ، فإن قرب المؤمنين من الخالق على قدر حذرهم فى الدنيا ، ومنازلهم على قدرهم .

فما منزل النفاط [3] ، كمنزل الحاجب ، ولا منزل الحاجب ، كمكان الوزير ، جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، والفردوس الأعلى لآخرين .

والذين فى أرض الجنة ينظرون أهل الدرجاتِ كما يرون الكواكب الدُّرّى ، فليتذكر الساعى حلاوة التسليم إلى الأمين .

وليتذكر فى لذاذة المدح يوم السباق ، وليحذر المسابق من تقصير لا يمكن استدراكه، وليخف من عيب يبقى قبح ذكره .

هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن ، أزرى بهم اتباع الهوى ثم لحقتهم العافية فنجوا بعد لأى [4] فليتعظ وليصبر عن المشتهى ؛ فالأيام قلائل **« يدخل فقراء المؤمنين قبل الأغنياء إلى الجنة بخمسمائة عام »** [5] . فالجِدّ الجِدّ ، بإقدام المبادرة ، فقد لاح العلم خصوصًا لمن بانت له بانة الوادى ، إما بالعلم الدال على الطريق، وإما بالشيب الذى هو علمُ الرحيل، وهو يأمله أهل الجد .

---

(١) سورة الحاقة ، آية : ١٩ (٢) أى علفها حتى تسمن ثم ردها إلى القوت .

(٣) النفاط : العاملين فى النفط وهو الوقود . (٤) اللأى : التعب والشدة .

(٥) رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٥٣) عن أبى هريرة ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجة فى الزهد (٤١٢٢) ، وأحمد فى المسند (٢/ ٢٩٦)

وكان الجُنَيْدُ يقرأ وقت خروج روحه ، فيقال له : فى هذا الوقت ؟ فيقول : أبادر طَىّ صحيفتى ، وبعد هذا ، فالمُرادُ موفَّقٌ ، والمطْلُوبُ مُعَانٌ ، وإذا أرادك لأمر ؛ هيأك له .

٢٢٥ - فصل : تفاوت أهل الجنة

تأملت حالة عجيبة ، وهو أن أهل الجنة الساكنين فى أرضها ، فى نقص عظيم بالإضافة إلى مَنْ فوقهم ، وهم يعلمون فضل أولئك . فلو تفكروا فيما فاتهم من ذلك، وقعت الحسرات ، غير أن ذلك لا يكون ؛ لأن ذلك لا يقع لهم ؛ لطيب منازلهم ، ولا يقع فى الجنة غم ، ويرضى كل بما أعطي من وجهين :

أحدُهما : أنه لا يظن أن يكون نعيم فوق ما هو فيه ، وإن علت منزلة غيره .

والثانى : أنه يحبب إليه كما يحبب إليه ولده المسْتَوْحَشُ الخِلْقة ؛ فإنه يؤثره على الأجنبى المستحسن .

إلا أن تحت هذا معنى لطيف وهو أن القوم خُلِقَت لهم هِمَمٌ قاصرة فى الدنيا عن طلب الفضائل ، ثم يتفاوت قُصُورها .

فمنهم من يحفظ بعضَ القرآن ، ولا يتُوق إلى التمَام ، ومنهم من يسمع يَسِيرًا من الحديث ، ومنهم من يعرف قليلاً من الفقه ، ومنهم من قد رَضِىَ من كل شىء بيسيره ، ومنهم مقتصر على الفرائض ، ومنهم قَنُوعٌ بصلاة ركعتين فى الليلة ، ولو علت بهم الهِمَمُ لجدّت فى تحصيل كل الفضائل ، ونبت [1] عن النقص ، فاستخدمت البدن ؛ كما قال الشاعر :

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِى النُّحُولِ [2] بَلِيَّةٌ وَبَلاءُ جِسْــمِى مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِى

ويدل على تفاوت الهمم ، أن فى الناس مَنْ يسهر فى سماع سَمَرٍ ، ولا يسهل عليه السهر فى سماع القرآن ، والإنسان يحشر ومعه تلك الهمة ، فيعطى على مقدار ما حصلت فى الدنيا ، فكما لم تتُق إلى الكمال ، وقنعت بالدُّون ، قنعت فى الآخرة بمثل ذلك ، ثم إن القوم يتفكرون بعقولهم ، فيعلمون أن الجزاء على قدر العمل ، ولا يطمع من صلى ركعتين فى ثواب من صلى ألفًا .

فإن قال قائل : فكيف يتصور لها ألا تروم ما ناله من هو أفضل منها ؟! قلت : إن لم يتصور نيله لم يتصور الحزن على فوته ، وهل رأيت عاميًّا يحزن على فوات الفقه

---

(١) نبت : بعدت .
(٢) النحول : الضعف .

حُزْنًا يقلقُه ؟ هيهاتَ ! لو كان ذلك الحزن عنده ، لحركه إلى التشاغل . فليس عندهم همة نوحِ الأسف ، مع أنهم قد رضوا بما هم فيه . فافهم ما قلته وبادر، فهذا ميدان السباق .

٢٢٦ - فصل : حكمة وجود اليهود والنصارى فى بلاد الإسلام

تفكرت فى إبقاء اليهود والنصارى بيننا ، وأخذ الجزية منهم ، فرأيت فى ذلك حِكَمًا عجيبة : منها ما قد ذكر من أن الإسلام كان ضعيفًا ؛ فتقوى بما يؤخذ من جزيتهم ، ومنها ظهور عزّه بذلهم إلى غير ذلك مما قد قيل .

ووقع لى فيه معنى عجيبٌ ، وهو أن وجودهم وتعبدهم ، وحفظهم شرع نبيهم - ﷺ - دليل على أنه قد كان أنبياء وشرائع ، وأن نبينا - ﷺ - ليس ببدع من الرسل ؛ فقد اجتمعت الجن ، وهم على إثبات صانع ، وإقرار برسل ، فبان أننا ما ابتدعنا ما لم يكن

وهم يصبرون على باطلهم ، ويُؤَدُّون الجزية ، فكيف لا نصبر على حق ، والدولة لنا؟ وفى بقائهم احترام لما كان صحيحًا من الدين ، وليرجع متبصر ، وليستعمل مفكر .

٢٢٧ - فصل: اطلاع أهل العلم

قد ثبت بالدليل شرفُ العلم وفضله ، إلا أن طلاب العلم افترقوا ؛ فكل تدعوه نفسه إلى شيء : فمنهم من أذهب عمره فى القراءات ، وذاك تفريط فى العمر ؛ لأنه إنما ينبغى أن يعتمد على المشهور منها لا على الشاذ ، وما أقبح بالقارئ أن يسأل عن مسألة فى الفقه ولا يدرى ! وليس ما شغله عن ذلك إلا كثرة الطرق فى روايات القراءات . ومنهم من يتشاغل بالنحو ، وعِلَله فحسب ، ومنهم من يتشاغل باللغة فحسب ، ومنهم من يكتب الحديث ، ويكثر ولا ينظر فى فهم ما كتب .

وقد رأينا فى مشايخنا المحدثين من كان يسأل عن مسألة فى الصلاة فلا يدرى ما يقول، وكذلك القراء ، وكذلك أهل اللغة والنحو .

وحدثنى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عِيسَى الفقيه ، قال : حدثنى ابنُ المنصُورِىُّ ، قال : حضرنا مع أبِى محمدٍ بن الخَشَّابِ ، وكان إمام الناس فى النحو واللغة ، فتذاكروا الفقه ، فقال: سلونى عما شئتم ، فقال له رجل : إن قِيل لنا : رفع اليدين فى الصلاة ما هو ، فماذا نقول ؟ فقال : هو ركن ! فدهشت الجماعةُ من قِلّة فقهه . وإنما ينبغى أن يأخذ من كل علم طرفًا ، ثم يهتم بالفقه ، ثم ينظر فى مقصود العلوم ، وهو المعاملة لله سبحانه، والمعرفة به ، والحب له

ومَا أَبْلَه مَنْ يقطع عمره فى معرفة علم النجوم ! وإنما ينبغى أن يعرف من ذلك اليسير والمنازل لعلم الأوقات . فأما النظر فيما يدعى أنه القضاء والحكم فجهل محض ؛ لأنه لا سبيل إلى علم ذلك حقيقة ، وقد جرب ؛ فبان جهل مدعيه ، وقد تقع الإصابة فى وقت، وعلى تقدير الإصابة ، لا فائدة فيه إلا تعجيل الغم

فإن قال قائل : يمكن دفع ذلك ، فقد سلم أنه لا حقيقة له .

وأبله من هؤلاء من يتشاغل بعلم الكيمياء ؛ فإنه هذيان فارغ ، وإذا كان لا يتصور قلب الذهب نحاسًا ، لم يتصور قلب النحاس ذهبًا ، فإنما فاعل هذا مستحل للتدليس [1] على الناس فى النقود ، هذا إذا صح له مراده .

وينبغى لطالب العلم أن يصحح قصده ، إذْ فقدان الإخلاص يمنع قبول الأعمال . وليجتهد فى مجالسة العلماء ، والنظر فى الأقوال المختلفة ، وتحصيل الكتب ؛ فلا يخلو كتاب من فائدة ، ولْيَجْعَلْ همته للحفظ ، ولا ينظر ولا يكتب إلا وقت التعب من الحفظ . ولْيحذر صحبة السلطان ، ولْينظر فى منهاج الرسول - ﷺ - والصحابة والتابعين ، ولْيجتهد فى رياضة نفسه ، والعمل بعلمه ، ومن تولاه الحق وفقه .

٢٢٨ - فصل : آثار الكبر والحسد على العقل

طال تعجبى من أقوام لهم أنفة ، وعندهم كِبْر زائد فى الحد ، خصوصًا العرب الذين من كلمة ينفرون ، ويحاربون ،ويرضون بالقِّل والذل حتى أن قومًا منهم أدركوا الإسلام فقالوا: كيف نركع ، ونسجد ؛ فتعلونا أَسْتَاهُنَا ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « **لا خَيْرَ فى دِينٍ لَيْسَ فيه رُكُوعٌ وَلا سُجُودٌ** » [2] ، ومع هذه الأنفة يذلون لمن هم خير منهم ؛ هذا يعبد حجرًا ، وهذا يعبد خشبة ، وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر ، وإن هؤلاء لأخسُّ من إبليس ؛ فإن إبليس أَنفَ لادعائه الكمال أن يسجد لِنَاقصٍ فقال : ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ** ﴾[3] وفرعون أنف أن يعبد شيئًا أصلاً .

فالعجب من ذل هؤلاء المفتخرين المتعاظمين المتكبرين لحجر أو خشبة ، وإنما ينبغى أن يذل الناقص للكاملين . وقد أشير إلى هذا فى ذم الأصنام فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا** ﴾ [4] ، والمعنى : أنتم

---

(١) التدليس فى البيع : كتمان عيب السلعة عن المشتري ، ودلس : خدع كما فى القاموس .
(٢) أحمد (٤/٢١٨) ، وأبو داود فى الخراج والإمارة (٣٠٢٦) عن عثمان بن أبى العاص .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٢ . (٤) سورة الأعراف ، آية : ١٩٥ .

لكم هذه الآلات المدركة ، وهم ليس لهم شيء منها ، فكيف يعبد الكامل الناقص ؟ غير أن هوى القوم فى متابعة الأسلاف ، واستحلاء ما اخترعوه بآرائهم غطى على العقول ؛ فلم تتأمل حقائق الأمور .

ثم غطى الحسد على أقوام ؛ فتركوا الحق ، وقد عرفوه ، فـ « أُمَيَّةُ بْنُ أَبِى الصَّلْتِ » يقر برسول الله - ﷺ - ويقصده ليؤمن به ، ثم يعود فيقول : لا أؤمن برسول ليس من ثقيف .

وأبُو جهل يقول : والله ما كذب محمد قَطُّ ، ولكن إذا كانت السِّدَانَةُ ، والحِجَابَةُ (١) فِى بنى هاشم ، ثم النبوة ، فما بقى لنا !

وأبُو طَالِب يرى المعجزات ويقول : إنى لأعلم أنك على الحق ؛ ولولا أن تعيرنى نساءُ قريش لأقررت بها عينك (٢) . فنعوذ بالله من ظلمة الحسد ، وغيابة كبر ، وحماقة هوى يغطى على نور العقل ، ونسأله إلهام الرشد ، والعمل بمقتضى الحق .

٢٢٩ - فصل : درجات العابدين

قد سمعنا بجماعة من الصالحين ، عاملوا الله - عَزَّ وجَلَّ - على طريق السلامة ، والمحبة ، واللطف ؛ فعاملهم كذلك ؛ لأنهم لا يحتمل طبعهم غير ذلك ، ففى الأوائل « برخ » العابد خرج يستسقى ، فقال مناجياً الله : ما هذا الذى لا نعرفه منك ؟ اسقنا الساعة ؛ فسقوا ، وفى الصحابة أَنَسُ بْنُ النضر ، يقول : والله لا تُكْسر سِنُّ الربيعُ (٣) ، فجرى الأمر كما قال ؛ فقال النبى - ﷺ - : « **إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ** »(٤) وهؤلاء قوم غلب عليهم ملاحظة اللطف ، والرفق ؛ فلطف بهم ، وأجروا على ما اعتقدوا .

وهناك أعلى من هؤلاء يسألون فلا يجابون ، وهم بالمنع راضون ، ليس لأحدهم انبساط ، بل قد قيدهم الخوف ، ونكّس رءوسهم الحذر ، ولم يروا ألسنتهم أهلاً للانبساط ، فغاية آمالهم العفو ؛ فإن انبسط أحدهم بسؤال ، فلم ير الإجابة ، عاد على نفسه بالتوبيخ ، فقال : مثلك لا يجاب ، وربما قال لعلّ المصلحة فى منعى ، وهؤلاء الرجال حقًا .

---

(١) السدانة والحجابة : خدمة الكعبة وحمل مفاتيحها .
(٢) جزء من حديث رواه مسلم فى الإيمان (٢٥/٤٢) ، وأحمد (٢/٤٣٤) .
(٣) الربيع بضم الراء وتشديد الياء هى أخت أنس بن النضر .
(٤) رواه البخارى فى التفسير (٤٦١١) ، ومسلم فى القسامة (١٦٧٥) .

والأبله الذى يرى له من الحق أن يجاب ، فإن لم يُجَب تذمَّر [1] فى باطنه كأنه يطلب أجرة عمله ، وكأنه قد نفع الخالق بعبادته . وإنما العبد حقًا من يرضى ما يفعله الخالق ، فإن سأل فأُجيب ، رأى ذلك فضلاً ، وإن مُنع رأى تصرف مالك فى مملوك ، فلم يجُل فى قلبه اعتراض بحال .

٢٣٠ - فصل : العلم النافع

رأيت جماعة من العلماء يتفسحون [2] ، ويظنون أن العلم يدفع عنهم ، وما يدرون أن العلم خصمهم ، وأنه يُغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يغفر للعالم ذنب ؛ وذاك لأن الجاهل لم يتعرض بالحق ، والعالم لم يتأدب معه .

ورأيت بعض القوم يقول : أنا قد ألقيت منْجَلى بين الحصادين ونمت . ثم كان يتفسح فى أشياء لا تجوز ، فتفكرت فإذا العلم الذى هو معرفة الحقائق ، والنظر فى سير القدماء، والتأدب بآداب القوم ، ومعرفة الحق ، وما يجب له ، ليس عند القوم ، وإنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها ما يحل ، وما يحرم ، وليس كذلك العلم النافع ، إنما فهم الأصول ، ومعرفة المعبود ، وعظمته ، وما يستحقه ، والنظر فى سير الرسول - ﷺ - وصحابته ، والتأدب بآدابهم ، وفهم ما نقل عنهم ، هو العلم النافع الذى يدع أعظم العلماء أحقرَ عند نفسه ، من أجهل الجهال . ورأيت بعض من تعبد مدة ثم فتر ، فبلغنى أنه قال : قد عبدته عبادة ما عبده بها أحد ، والآن قد ضعفت ، فقلت : ما أخوفنى أن تكون كلمته هذه سببًا لرد الكل ؛ لأنه قد رأى أنه عمل مع الحق شيئًا ، وإنما وقف يسأل النجاة بطلب الدرجات ، ففى حق نفسه فعل ، وما مثله إلا كمثل من وقف يكدى [3] ، فلا ينبغى أن يمن على المعطى .

وإنما سبب هذا الانبساط الجهل بالحقائق ، وأين هو من كبار علماء المعاملة الذين كان فيهم مثل صلة بن أَشْيَمَ إذا رآه السبُع هرب منه ، وهو يقول إذا انقضي الليل عند صلاته: يا رب أجرنى من النار ، أو مثلى يسأل الجنة ! وأبلغ من ذا قول عُمَرَ : وَدِدْتُ أَنْ أَنْجُوَ كَفَافًا ؛ لا لِى وَلا عَلَىَّ .

وقول سُفْيَانَ عند موته لحمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ [4] : أَتَرْجو لمثلى أن ينجو من النار ! وقول

---

(١) تذمر : أنكر وغضب . (٢) يتفسحون : يترخصون .

(٣) يكدى : يقال أكدى أى بخل أو قل خيره أو قل عطاؤه .

(٤) هو حماد بن سلمة بن دينار البصرى أبو سلمة ثقة توفى سنة (١٦٧ هـ) .

أَحْمَد : لا ، بعدُ ، فأنا أحمد الله - عَزَّ وجَلَّ - إذ تخلصت من جهل المتسمين بالعلم من هؤلاء الذين ذممتهم ، وبالزهد من هؤلاء الذين عبتهم ، فإنى قد اطلعت من عظمة الخالق وسيَرِ المحققين على ما يخرس لسان الانبساط ، ويمحو النظر إلى كل فعل ، وكيف أنظر إلى فعلى المستحسن ؟ وهو الذى وهبه لى ، وأطلعنى على ما خفِى عن غيري ، فهل حصل ذلك بى أو بلطفه ؟ وكيف أشكر توفيقى الشكر ! ثم أىُّ عالم إذا سبر [1] أمور العلماء من القدماء لا يحتقر نفسه ؟ هذا فى صورة العلم ، فدع معناه ، وأىُّ عابد يسمع بالعبّاد ، ولا يجرى فى صورة التعبد ؟ فدع المعنى . نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - معرفة تعرفنا أقدارنا حتى لا يبقى للعُجْب بمحتقر ما عندنا أثر فى قلوبنا .

ونرغب إليه فى معرفة لعظمته تخرس الألسن أن تنطق بالإدلال ، ونرجو من فضله توفيقًا ؛ نلاحظ به آفات الأعمال التى بها نزهو ؛ حتى تشمر الملاحظة لعيوبها الخجل من وجودها . إنه قريب مجيب .

٢٣١ - فصل : الآخرة خير وأبقى

سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة ، وليس فى الدنيا طيب عيش على الدوام إلا للعارف الذى شغله رضى حبيبه ، والتزود للرحيل إليه ؛ فإنه إن وجد راحة فى الدنيا، استعان بها على طلب الآخرة ، وإن وجد شدة اغتنم الصبر عليها ؛ لثواب الآخرة، فهو راض بكل ما يجرى عليه . يرى ذلك من قضاء الخالق ، ويعلم أنه مراده؛ كما قال قائلهم :

إن كَانَ رِضَاكُمْ فِى سَهَرِى   فَسَـــلامُ اللهِ عَلَى وَسَنِى [2]

فأما من طلب حظه ، فإنه يقلق ؛ لفوت مراده ، ويتنغص لبعد ما يشتهى ، فلو افتقر؛ تغير قلبه ، ولو ذل تغير ؛ وهذا لأنه قائم مع غرضه وهواه ، وما أَحْسَنَ قولَ الحصْرى : إيْشٍ علىّ منى ؟ وإيش لى فى ؟ وهذا كلام عارف ؛ لأنه إن كان ينظر إلى حقيقة الملكة ؛ فعبد يتصرف فيه مولاه . فاعتراضه لا وَجْهَ له ، وإرادته أن يقع غير ما يجب فضول فى البين ، وإن نظر أن النفس كالملك له ؛ فقد خرجت عن يده من يوم : ﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرَى ﴾ [3] أَفَيحسنُ لمن باع شاةً أن يغضب على المشترى إذا ذبحها ، أو يتغير قلبه ؟ والله لو قال المالك سبحانه: إنما خلقتكم ليستدل على وجودى ، ثم أنا

---

(١) سبر : تعمق فيها .   (٢) الوسن : النعاس .   (٣) سورة التوبة ، آية : ١١١ .

أفنيكم ، ولا إعادة ؛ لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول : سمعًا لما قلتَ ، وطاعة . وأىُّ شيء لنا فينا حتى نتكلم ؟

فكيف ، وقد وعد بالأجر الجزيل ، والخلود فى النعيم ، الذى لا ينفد ؟ لكن طريق الوصول تحتاج إلى صبر على المشقة ، وما يبقى لتعب رمل زرود [1] أثر إذ لاح الحرم ، فالصبرَ الصبرَ يا أقدام المبتدئين ؛ لاح المنزل . والسرورَ السرورَ يا متوسطين ؛ ضربتْ الخيم ، والفرح الكامل يا عارفين ، قد تلقيتم بالبشائر ، زالت والله أثقال المعاملات عنكم ، فكانت معرفتكم بالمبتلى ، حلاوة تعقبت شربة المجاهدة ، فلم يبق فى الفم للمرِّ أثرٌ . تخايلوا قرب المناجاة ، ولذة الحضور ، ودوارَ كُئُوس الرضا عنكم ؛ فقد أخذت شمس الدنيا فى الأفول :

مَا بَيْنَنَا له إلا تصرم [2] هَـــذِهِ السَّـــبْعِ الْبَوَاقِى
حَـــتَّى يَطُـــولَ حَدِيثُنَا بِصُـــنُوفِ مَا كُنَّا نُلاقِى

٢٣٢ - فصل : حكمة المنع

تفكَّرْتُ فى قول شَيْبَانَ الرَّاعِى لِسُفْيَانَ : يا سُفْيَانُ ، عُدَّ مَنْعَ الله إيَّاك عطاءً منه لك ؛ فإنه لم يمنعك بخلاً ؛ إنما منعك لطفًا ، فرأيته كلام من قد عرف الحقائق ؛ فإن الإنسان قد يُريد المستحسنات الفائقات فلا يقدرُ ، وعجزه أصلح له ؛ لأنه لو قدر عليهن تشتَّتَ قلبُه : إما بحفظهن ، أو بالكسب عليهن ، فإن قوى عِشْقُه لهن ضاع عمره ، وانقلب هم الآخرة إلى الاهتمام بهنّ ، فإن لم يردْنَهُ فذاك الهلاك الأكبر ، وإن طلبْنَ نفقةً لم يُطقْها ، كان سببَ ذهاب مروءته ، وهَلاك عِرْضه ، وإنْ أردْن الوطْءَ ، وهو عاجز ؛ فربما أهلكْنه أو فجرْنَ ، وإن مات معشوقه ، هلك هو أسفًا .

فالذى يطلب الفائق يطلب سِكِّينًا لذبحه ، وما يعلم .

وكذلك إنفاذُ قدر القوت ، فإنه نعمة ، وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : **«اللَّهُمَّ اجعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا »** [3] ، ومتى كَثُر ، تشتت الهِمَمُ ، فالعاقل : مَنْ علم أن الدنيا لم تخلق للتَّنْعيمِ ؛ فقنع بدفع الوقت فى كل حال .

٢٣٣ - فصل : عدم التعلل بالأقدار

رأيتُ جماعة من الخلق يتعلَّلُون بالأَقْدار ، فيقول قائلهم : إنْ وُفقت فعلتُ ، وهذا

(١) زرود : مكان قرب مكة كثير الرمال .
(٤) تصرم : انقضاء .
(٣) سبق تخريجه .

تعلُّل باردٌ ، ودفع للأمر بالراح [1] ، وهو يشير إلى رد أقوال الأنبياء ، والشرائع جميعها؛ فإنه لو قال كافرٌ للرسول : إن وَفَّقَنى أسلمتُ ، لم يجبه إلا بضرب العُنُق .

وهذا من جنس قول الناس لعَلِىّ - رضى الله عنه - : ندعوك إلى كتاب الله ، فقال : كلمةُ حَقٍّ أُرِيدَ بها باطلٌ .

وكذلك قول المتعلِّلين عن الصدقة : ﴿ أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [2] .

ولعمرى إن التوفيق أصل الفعل ، ولكنَ التوفيقَ أمرٌ خفى ، والخطاب بالفعل أمر جَلِىّ ، فلا ينبغى أن يُتَشاغل عن الجلى بذكر الخفى .

ومما يقطع هذا الاحتجاج أن يُقال لهذا القائل : إن الله سبحانه لم يكلِّفك شيئًا إلا وعندك أدوات ذلك الفعل ، ولك قدرة عليه ، فإن كانت القدرة عليه مَعْدُومةً ، والأدوات غير محصلة ، فلا أمر ولا تكليف ، وإن كنت تسعى بتلك الأدوات فى تحصيل غرضك، وهواك ، فاسع بها فى إقامة مفروضك .

مثال ذلك أنك تسافر فى طلب الربح وتسأل الحج فلا تفعل ، ويثقل عليك الانتباه بالليل ، فلو أردت الخروج إلى العيد انتبهت سَحَرًا ، وتقف فى بعض أغراضك مع صديق تحادثُهُ ساعات ، فإذا وقفت فى الصلاة استعجلت ، وثَقُل عليك .

فإيَّاك إياك أن تتعلق بأمرٍ لا حُجَّة لك فيه ، ثم مِنْ نصيبك يُنْقص ، ومِنْ حظِّك يضيع ، فإنما تُحَرِّك لك ، وإنما تُحرض لنفعك ؛ فبادرْ فإنك مُبَادر بك .

ومما يُزِيلُ كَسَلَكَ إن تأملته أن تتخايل ثوابَ المجتهدين ، وقد فاتك ويكفى ذلك فى تَوْبيخ المقصِّر إن كانت له نفس .

فأما الميت الهِمَّة فَمَا لِجُرْحٍ بِمَيْتٍ إِيلامُ . كيف بك إذا قمت من قبرك ، وقد قُرِّبَتْ نجائبُ [3] النجاة لأقوام وتعثَّرْتَ ؟ وأسرعتْ أقدامُ الصالحين على الصراط وتخبَّطْتَ ؟ هيهاتَ! ذهبتْ حلاوةُ البطالة ، وبقيت مرارةُ الأسف ، ونضب ماءُ كأسِ الكسل ، وبقى رسوب الندامة .

وما قدْرُ البقاء فى الدنيا بالإضافة إلى دوام الآخرة ! ثم ما قَدْرُ عمرك فى الدنيا نصفه نوم ، وباقيه غفلة ! فيا خاطبا حُورَ الجنة ، وهو لا يملك فلسا من عزيمة ، افتح عَيْن الفكر فى ضوء العبَر ؛ لعلك تبصر مواقع خطابك ، فإن رأيت تَثَبُّطًا [4] من الباطن ،

---

(1) الراح : جمع راحة وهى الكف ، والمقصود من غير جهد وكلفة .

(2) سورة يس ، آية : ٤٧ .

(3) نجائب : من الإبل خيارها .

(4) التثبيط : الانشغال عن الشىء .

فاستغثْ بعون اللطف ، وتنبه فى الأسحار ؛ لعلك تتلمّح ركب الأرباح ، وتعلّقُ على قطار المستغفرين ، ولو خطُوات ، وانزل فى رباعة المجتهدين ولو منزلا أى منزل .

٢٣٤ – فصل : الانحراف عن الدين

نظرت فى قول أبى الدَّرْدَاء – رضى الله عنه – : ما أعرف شيئًا مما كنَّا عليه اليوم إلا القبلة ، فقلت : واعجبًا ، كيف لو رآنا اليوم ، وما علينا من الشريعة إلا الرَّسْمُ [١] والشريعة هى الطريق ، وإنما تُعْرف شريعة رسول الله – ﷺ - إمّا بأفعاله ، أو أقواله .

وسبب الانحرافِ عن طريقه – ﷺ – إمَّا الجهل بها أو الخروج عليها ، فيجرى الإنسان مع الطبع والعادات ، وربما اتخذ ما يضاد الشريعة طريقًا ، وقد كانت الصحابة شاهدته ، وسمعت منه ؛ فقلّ أن ينحرف أحدٌ منهم عن جادَّته ، إلا أن أبَا الدَّرْدَاء – رضى الله عنه – رأى بعضَ الانحراف لميل الطباع ؛ فضج ، فإنه قد يَعْرِفُ الإنسَانُ الصوابَ ، غير أن طبعه يميل عنه ، وما زالت الأحاديث المنقولة عن الرسول – ﷺ – وأصحابه – رضى الله عنهم – يقلُّ الإسعاد [٢] بها ، والنظر فيها ، إلى أن أعرض عنها بالكُلِّية فى زماننا هذا ، وجُهلت إلا النادر ، واتخذَتْ طرائقُ تضاد الشريعة ، وصارت عادات ، وكانت أسهلَ عند الخلق من اتباع الشريعة .

وإذا كان عامَّةُ مَنْ يُنْسب إلى العلم قد أعرض عن علوم الشريعة ، فكيف العوام ؟ ولما أعرض كثيرٌ من العلماء عن المنقولات ، ابتدعُوا فى الأصول ، والفروع .

فالأصوليون تشاغلوا بالكلام ، وأخذوه من الفلاسفة ، وعلماء المنطق .

ودخلت أيدى الفروعيين فى ذلك ؛ فتشاغلوا بالجدل ، وتركوا الحديث الذى يَدُورُ عليه الحكم .

ثم رأى القُصّاص أن النَّفاق بالنِّفاق [٣] ؛ فأقبل قومٌ منهم على التلْبِيس بالزهد ، ومقصودهم الدنيا . ورأى جُمْهُورُهم أن القلوب تميلُ إلى الأغانى ؛ فأحضروا المطْربين من القرَّاء ، وأنشدُوا أشعارَ الغزَل ، وتركوا الاشتغال بالحديث ، ولم يَلْتَفتُوا إلى نَهْى العوام عن الربَا والزنَا ، وأمرِهم بأداء الواجبات ، وصار متكلمُهم يقطع المجلس بذكر لَيْلَى والمجنُون ، والطُّورِ ومُوسَى ، وأبِى يَزيدٍ والحلاج ، والهذيان الذى لا محصول له ، وانفرد أقوام بالتزهد ، والانقطاع ؛ فامتنعوا عن عيادة المرْضَى ، والمشى بين الناس ،

---

(١) الرسم : الأثر . (٢) الإسعاد : الإعانة .

(٣) النفاق : بفتح النون الانتشار ، وبالكسر إظهار خلاف ما فى صدره .

وأظهروا التخاشُعَ ، ووضعُوا كُتُبًا للرياضيات ، والتقلُّلِ من الطعام ، وصارت الشريعةُ عندهم كلامَ أبِى يَزِيدِ ، وَالشِّبْلِىّ ، والمتصوفة ، ومعلوم أنَّ مَنْ سَبَرَ [1] الشريعةَ لم ير فيها من ذاك شيئًا .

وأما الأمراءُ فجرَوْا مع العادات ، وسموا ما يفعلونه من التنطع سياسات ، لم يعملوا فيها بمقتضى الشريعة ، وتبع الأخير فى ذلك المتقدم ؛ فأين الشريعة المحمدية؟ ومن أين تعرف مع الإعراض عن المنقولات ؟ نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - التوفيق للقيام بالشريعة ، والإعانة على رد البدع ، إنه قادر .

٢٣٥ - فصل : مطامع النفس

كنتُ أسمع عَلِىَّ بْن الْحُسَيْنِ الواعظ يقول على المنبر : والله لقد بكيت البارحة من يد نفسى ، فبقيت أنا أتفكر وأقول : أىُّ شىء قد فعلت نفسُ هذا حتى يبكى ؟ هذا رجل متنعم له الجوارى التركيات ، وقد بلغنى أنه تزوج فى السر بجملة من النساء ، ولا يَطْعَمُ إلا الغاية من الدجاج ، والحلوى . وله الدخل الكثير ، والمال الوافر ، والجاه العريض ، والإفضال على الناس ، وقد حصل طرفًا من العلم ، واستعبد كثيرًا من العلماء بمعروفه ، وراحته دائمة . فما الذى يبكيه ؟

فتفكرت فعلمت أن النفس لا تقف على حَدٍّ ، بل تروم [2] من اللذات ما لا منتهى له ، وكلما حُصِّل لها غرض ، برد عندها ، وطلبت سواه . فيَفْنَى العُمُرُ ، ويضعف البدن ، ويقع النقص ، ويرق الجاه ، ولا يحصل المراد .

وليس فى الدنيا أبلَهُ ممن يطلب النهاية فى لذات الدنيا ، وليس فى الدنيا على الحقيقة لذة ، إنما هى راحة من مؤلم .

فالسعيدُ من إذا حصلت له امرأةٌ أو جارية ، فمال إليها ، ومالت إليه ، وعلم سترها ودينَها ، أن يَعْقِدَ الخنْصَرَ على صُحْبتها . وأكْثَرُ أسباب دوامِ محبتها ألا يطلقَ بصره ، فمتى أطلق بصرَه ، أو أَطْمَعَ نفسه فى غيرها ، فإن الطمع فى الجديد يُنَغِّصُ الخُلُقَ ، وينقص المخالطة ، ولا يستر عُيُوبَ الخارج ، فتميل النفسُ إلى المشاهَد الغريب ، ويتكدَّرُ العيشُ مع الحاضر القريب ؛ كما قال الشعر:

وَالْمَـــرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَـــلِّبُهَا ... فِى أَعْيُنِ النَّاسِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ

---

(١) سبق تعريفها .

(٢) تروم : تطلب .

يَسُـــرُّ مُقْــــلَتَهُ مَا ضَــرَّ مُهْجَتَهُ   لا مَرْحَـــبًا بِسُــــرُورٍ عَــادَ بِالضَّرَرِ

ثم تصير الثانية كالأولى ، وتطلب النفس ثالثةً ، وليس لهذا آخر ، بل الغضُّ عن المشتهيات ، ويأسُ النفوس مِنْ طلب المستحسنات ، يطيب العيش مع المعاشر .

ومن لم يقبل هذا النصح تعثَّر فى طرق الهَوَي وهلك على البارد ، وربما سَعَى لنفسه فى الهلاك العاجل ، وفى العار الحاضر ؛ فإن كثيرًا من المُسْتحسنات لَسْنَ بصيّنات ، ولا يفى التمتعُ بهنّ بالعار الحاصل ، ومنهن المبذراتُ فى المال ، ومنهن المبغضَةُ للزوج ، وهو يحبها كعابد صنم .

وأبْلَهُ البُلْهِ الشيخُ الذى يطلب صَبِيَّةً ! ولعمرى إن كمال المتعة إنما يكون بالصِّبا ؛ كما قال القائل :

فعلتْ بنفسى النساءُ الصغار

ومتى لم تكن الصبية بالغةً - لم يكْملْ الاسْتمتَاعُ ، فإذا بلغت أرادت كثرةَ الجماع ، والشيخ لا يقدرُ . فإن حمل على نفسه ، لم يبلغْ مُرَادها ؛ وهلك سريعًا . ولا ينبغى ألا يغتر بشهوته فى الجماع ؛ فإن شهوته كالفجر الكاذب .

وقد رأينا شيخنا اشترى جارية ، فبات معها ؛ فانقلب عنها مَيتًا . وكان فى المَارِسْتَان[1] شاب قد بقى شهرين بالقيام ، فدخلت عليه زوجتُه ، فوطئَها ؛ فانقلب عنها ميّتًا ؛ فبان أن النفس باقيةٌ بما عندها من الدم ، والمنىّ ، فإذا فرغا ، ولم تجد ماءً تعتمدُ عليه ؛ ذهبت ، وإن قنع الشيخُ بالاستمتاع من غير وطء ، فهى لا تقنع ، فتصير كالعَدُوِّ له ، فربما غلبها الهَوَى ؛ ففجرت ، أو احتالت على قتله ، خُصوصًا الجوارى اللواتى أغلبهن قد جئن من بلا الشرك ؛ ففيهن قَسْوةُ القلب .

وقبيحٌ بمن عبر الستين أن يتعرض بكثرة النساء ، فإن اتفق معه صاحبةُ دينٍ قبل ذلك ، فليرعَ لها مُعَاشَرَتَها ، وليتمِّمْ نقصَهُ عندها تارةً بالإنفاق ، وتارة بحُسْنِ الخلق ، وليزد فى تعريفها أحوالَ الصالحات ، والزاهدات ؟ ولْيكثِرْ من ذكر القيامة ، وذَمِّ الدنيا ، وليعرّض بذكر محبة العرب ، فإنهم كانوا يعشقون ، ولا يرون وَطْءَ المعشوق ؛ كما قال قائلهم :

إِنَّمَا الْحُـــبُّ قُبْلَة   وَغَـــمْزُ كَفٍّ وَعَضُدْ
إِنَّــمَا الْعِشْقُ هكذا   إنْ نكحَ الْحُبَّ فَسَدْ

---

(1) المارستان : المستشفى وهى كلمة معربة .

فإن قدر أن يشغلها بحَمْلٍ ، أو ولد عَرْقَلها به ، فاستبقى قوتَهُ في مدة اشتغالها بذلك ، فإن وطئ فليصبر عن الإنزال ؛ حفظًا لقوته ، وقضاء لحقها . وقد قيل لبشر : لمَ لَمْ تتزوج ؟ فقال : على ماذا أغرّ مُسْلمةً ، وقد قال الله - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ** ﴾ (1) ، والمسكينُ مَنْ دخل في أمر لم يتلمح عواقبه قبل الدخول ، ورأى حبَّةَ الفخ ؛ فبادر طالبًا لها ، ناسيًا تعرقُلَ الجناح ، والذَّبح .

ومجموع ما قد بسطته حفظ البصر عن الإطلاق ، ويأس النفس عن التحصيل ؛ قُنُوعًا بالحاصل ، خصوصًا من قد علت سِنّه ، وعلم أن الصبية عدو له ، متمنِّيةٌ هلاكه ، وهو يُربِّيها لغيره . وفي بعض ما ذكرته ما يردع العاقل عن التعرض لهذه الآفات . نسأل الله- عَزَّ وجَلَّ - توفيقًا من فضله ، وعملاً بمقتضى العقل والشرع ؛ إنه قريب مجيب .

٢٣٦ – فصل : الاغترار بطول الأمل

أعجب الأشياء اغترارُ الإنسان بالسلامة ، وتأميلُه الإصلاح فيما بَعْدَ ، وليس لهذا الأمل مُنْتهى ، ولا للاغترار حد ، فكلّما أصبح وأمسى مُعَافًى زاد الاغترارُ ، وطال الأملُ .

وأيُّ موعظة أبلغُ من أن ترى ديار الأقران ، وأحوال الإخوان ، وقبور المحبوبين ، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم .

ثم لا يقع انتباهٌ حتى ينتبه الغيرُ بك ، هذا - والله - شأنُ الحمقَى . حَاشَا من له عقلٌ أن يَسْلُكَ هذا المسلك . بلى - والله - إنَّ العاقل ليبادرُ السلامة ، فيدخر من زمنها للزمن ، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العُسْرة . خُصُوصًا لمن قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار عُلُوِّ العمل لها . وإنَّ التدارك بعد الفوت لا يمكن . وقدِّر أن العاصي عُفِيَ عنه ، أينال مراتب العمال ؟ ومَنْ أجال على خاطره ذكْرَ الجنة التي لا مَوْتَ فيها ، ولا مرض ، ولا نوم ، ولا غم ، بل لَذَّاتُها متصلةٌ من غير انقطاع ، وزيادتها على قدر زيادة الجدِّ ههنا - انتهب (2) هذا الزمان ، فلم ينم إلا ضرورة ، ولم يغفل عن عمارة لحظة .

ومَنْ رأى أن ذنبًا قد مضت لذتُه ، وبقيت آفاته دائمة ؛ كفاه ذلك زاجرا عن مثله ، خُصُوصًا الذنوب التي تتصل آثارها مثل أَنْ يزنيَ بذات زوج ؛ فتحمل منه ، فتلحقُ بالزوج ؛ فيمْنع الميراثَ أهلُه ، ويأخذه من ليس من أهله ، وتتغير الأنسابُ والفرْش ، ويتصل ذلك أبدًا ، وكله شؤم لحظة ؛ فنسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - توفيقًا يلهم الرشاد ، ويمنع الفساد ؛ إنه قريب مجيب .

---

(1) سورة البقرة ، آية : ٢٢٨ .　　(2) انتهب : اغتنم .

٢٣٧ - فصل : تخليط العقائد

تأملت سبب تخليط العقائد ، فإذا هو الميل إلى الحس ، وقياس الغائبات على الحاضر؛ فإن أقوامًا غلب عليهم الحسُّ ، فلما لم يشاهدوا الصانع جَحَدُوا وجوده ، ونسُوا أنه قد ظهر بأفعاله ، وأن هذه الأفعال لا بُدَّ لها من فاعل ، فإن العاقل إذا مرَّ على صحراءَ خالية ، ثم عاد ، وفيها غرسٌ وبناء ؛ علم أنه لا بُدَّ من غارسٍ ، إذ الغرسُ لا يكون بنفسه ، ولا البناء .

ثم جاء قوم فأثبتوا وجودَ الصانعِ ، ثم قاسوه على أحوالهم فشبَّهُوا ، حتى إن قائلهم يقول ، فى قوله : « **يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاء** » (1) : ينتقلُ ، ويستدل بأن العرب لا تعرف النزول إلا الانتقال .

وضل خلقٌ كثير فى صفاته كما ضَلَّ خلقٌ فى ذاته ، فظن أقوام أنه يتأثر ، حين سمعوا أنه يغضب ويرضى ، ونسوا أن صفته تعالى قديمةٌ لا يحدث منها شىء .

وضل خلق فى أفعاله فأخذوا يعللون ، فلم يقنعوا بشىء ، فخرج منهم قوم إلى أن نسبوا فعْلَه إلى ضِد الحكمة تعالى عن ذلك ! ومن رُزِق التوفيق ، فليُحضر قلبه لما أقول: اعلم أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات ، وصفاته ليست كالصفاتِ ، وأفعاله لا تقاس بأفعال الخلقِ ، أما ذاته سبحانه ، فإنا لا نعرف ذاتًا إلا أنْ تكون جسمًا ، وذاك يستدعى سابقة تأليف ، وهو منزه عن ذلك ؛ لأنه المؤلف ، أو أن يكون جوهرًا ، فالجوهر متحيز، وله أمثال ، وقد جَلّ عن ذلك أو عَرَضًا ، فالعرض لا يقوم بنفسه بل بغيره ، وقد تعالى عن ذلك .

فإذا أثبتنا ذاتًا قديمة خارجَةً عما يعرف ، فليُعلم أن الصفاتِ تابعةٌ لتلك الذات ، فلا يجُوز لنا أن نقيسَ شيئًا منها على ما نفعله ونفهمه ، بل نؤمن به ونسلمه ، وكذلك أفعاله ، فإن أحَدَنا لو فعل فعْلاً لا يجتلب به نَفْعًا ، ولا يدفع عنه ضرًا عُدّ عابثًا .

وهو سبحانه أَوْجَد الخلق لا لنفعٍ يعود إليه ، ولا لرفع ضُرٌّ ؛ إذ المنافع لا تصل إليه، والمضار لا تتطرق عليه .

فإن قال قائل : إنما خَلَقَ الخلقَ لينفعهم . قلنا : يُبْطلُهُ أنه خلق منهم صنفا للكفر وعذبهم . ونراه يؤلم الحيوان والأطفال ، ويخلق المضار ، وهو قادر ألا يفعل ذلك .

---

(1) حديث النزول سبق تخريجه .

فإن قال قائلٌ : إنه يثيب على ذلك . قُلْنا : وهو قادر أن يثيب بلا هذه الأشياء ؛ فإن السلطان لو أراد أن يغنى فقيرًا فجرحه ثم أغناه - ليم على ذلك ؛ لأنه قادر أن يُغْنِيَه بلا جِرَاحٍ .

ثم من يرى ما جرى لرسول الله - ﷺ - وعلى أصحابه من الجوع والقتل مع قدرة الناصر ، ثم يسأل فى أمّه فلا يجاب ، ولو كان المسؤولُ بعضَنَا قلنا لِمَ تمنع ما لا يضرك؟ غير أن الحقَّ سبحانه لا تُقاس أفعالُه على أفعالنا ولا تعلل ، والذى يُوجِبُ علينا التسليم أن حكمته فوق العقل ، فهى تقضى على العقول ، والعقول لا تقضى عليها ، ومن قاس فِعْلَه على أفعالنا - غلط الغَلَطَ الفاحِشَ ، وإنما هلكت المعتزلة من هذا الفن ، فإنهم قالوا: كيف يأمرُ بشىءٍ ، ويقضى بامتناعه ؟ ولو أن إنسانًا دعانا إلى داره ، ثم أقام من يصد الداخل - لعِيبَ .

ولقد صدقوا فيما يتعلق بالشاهد . فأما مَنْ أفعالُه لا تُعلَّلُ ، ولا يقاس بشاهد ، فإنا لا نصل إلى معرفة حكمته .

فإن قال قائل : فكيف يمكننى أن أقود عقلى إلى ما ينافيه ؟

قلنا : لا منافاة ؛ لأن العقل قد قطع بالدليل الجلى أنه حكيم ، وأنه مالك ، والحكيم لا يفعل شيئًا إلا لحكمة ، غير أن تلك الحكمة لا يبلغها العقل .

ألا ترى أن الخضرَ خرَقَ سفينةً ، وقتل شَخْصًا ؛ فأنكر عليه مُوسَى - عليهما السلام بحكم العلم ، ولم يطلع على حِكْمة فعله ، فلما أظهر له الحِكْمة أذْعَن ، ولله المَثَلُ الأعلى .

فإيَّاك إيَّاك أن تقيس شَيْئًا من أفعاله على أفعال الخلق ، أو شيئًا من صفاته ، أو ذاته سبحانه وتعالى ؛ فإنك إن حفظت هذا سلمت من التشبيه الذى وقع فيه مَنْ رأى الاستواءَ اعتمادًا ، والنُّزُولَ نَقْلةً ، ونجوت من الاعتراض الذى أخرج قومًا إلى الكفر ، حتى طَعَنُوا فِى الحِكْمة .

وأولُ القوم إِبْلِيس ، فإنه رأى تقديمَ الطِّين على النار ليس بحكمة ، فنسى أنه إنما علم ذلك بزعمه بالفهم الذى وُهب له ، والعقل الذى مُنحَه ، فنسى أن الواهب أعلمُ : ﴿ أَوَلَمْ يروا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (١) ، ولقد رأيتُ لابْنِ الرُّومِىِّ اعتراضًا

(١) سورة فصلت ، آية : ١٥ .

على من يقول بتخليد الكفار فى النار قال : إن ذلك التأبيد مزيد من الانتقام ينكره العقل وينبغى أن يقبل كل ما يقوله العقل ، ولا يُرَدُّ بعضُه ؛ إذ ليس رد بعضه بأولى من رد الكُلِّ ، وتخليد الكفار لا غرض فيه للمعذِّب ولا للمعذَّب ، فلا يجوز أن يكون .

فقلتُ : العجبُ من هذا الذى يدعى وجودَ العقلِ ، ولا عقل عنده ! وأول ما أقول له : أصَحَّ عندك الخبرُ عن الخالق سبحانه أنه أخبر بخلودِ أهل النار ، أم لم يَصِحّ ؟ فإن كان ما صح عنه ، فالكلام إذن فى إثبات النبوة وصحة القرآن ، فما وجه ذكر الفرع مع جحد الأصل ؟ وإن قال : قد ثبت عندى ، فواجب عليه أن يتمحل [1] لإقامة العذر ، لا أن يقف فى وجه المعارضة .

وإنما ينكر هذا من يأخذ الأمر من الشاهد ، وقد بينا أن ذات الحق لا كالذوات . وأن صفته لا كالصفات ، وأن أفعاله لا تعلل . ولو تلمح شيئًا من التعليل لخلود الكفار لبان، إذْ من الجائز أن يكون دوام تعذيبهم لإظهار صدق الوعيد ؛ فإنه قال : « مَنْ كَفَرَ بى خَلَّدْتُهُ فِى الْعَذَابِ » ولا جناية كالكفر ، ولا عقوبة كدوام الإحراق ، فهو يدوم ؛ ليظهر صدق الوعيد .

ومن الجائز أن يكون ذلك ؛ لتتمة تَنْعيم المؤمنين ؛ فإنهم أعداء الكفار ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ [2] ، وكم من قلق فى صدرٍ ، وحَنَق على أبى جَهْل فيما فعل ، وكم غم فى قلبَ عمَّارٍ ، وأمه سُمَيَّةَ ، وغيرهم من أفعال الكفار بهم، فداوم عذابهم شفاءٌ لقلوب أهل الإيمان .

ومن الجائز أن يدوم العذاب لدوام الاعتراض ، وذكر المعذب بما لا يحسن ، فكلما زاد عذابُهم زاد كفرُهم واعتراضهم ، فهم يعذبون لذلك . ودليلُ دوام كفرهم : ﴿ وَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [3] فإذن كفرهم ما زال ، ومعرفتهم به ما حصلت ، والشر كامن فى البواطنَ وعلى ذلك يقع التعذيب : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [4] .

٢٣٨ - فصل : التسليم لله

ينبغى للمؤمن بالله سبحانه إذا نظر فى الفصل الذى قد تقدم هذا ، ألا يعترض على الله سبحانه فى شىء لا فى باطنه ، ولا فى ظاهره ، ولا يطلب تعليلات أفعاله كلها ؛ فإن المتكلمين أعرضوا عن السُّنَنِ، وتكلموا بآرائهم فما صفى لهم شِرْب[5]؛ بدليل اختلافهم.

---

(١) يتمحل : يحتال . (٢) سورة التوبة ، آية : ١٤ . (٣) سورة المجادلة ، آية : ١٨ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٢٨ . (٥) الشرب : الحظ من الماء .

وكذلك إضمار القياس ، فإنهم لما أعملوه جاءت أحاديثُ تعكِّر عليهم ، والصوابُ التعليل لما يمكن ، والتسليم لما يخفى .

وكذلك سؤال الحقِّ سبحانه ، فإذا دعاه المؤمن ، ولم ير إجابة - سلّم ، وفوض ، وتأول للمنع ؛ فيقول : ربما يكون المنع أصلحَ ، وربما يكون لأجل ذُنوبى ، وربما يكون التأخيرُ أَوْلَى ، وربما لم يكن هذا مصلحة .

وإذا لم يجد تأْويلاً لم يختلج فى باطنه نوع اعتراض ، بل يرى أنه قد تعبد بالدعاء ، فإنْ أنعم عليه فبِفَضْلٍ ، وإن لم يُجِبْ ، فَمَالِكٌ يفعل ما يشاء .

على أن أكثر السؤال إنما يقع فى طلب أعراضَ الدنيا التى إذا رُدَّتْ كان أصلحَ ، فلْيكُن هم العاقل فى إقامة حق الحق ، والرضا بتدبيره ، وإن أساء .

فمتى أقبلتَ عليه أقبل على إصلاح شأنك ، وإذا عرفت أنه كريم فلُذْ به [1] ولا تسأل .

ومتى أقبلت على طاعته ، فمحال أن يجود صانع ، وينصح في العمل ، ثم لا يعطى الأجرة .

٢٣٩ - فصل : العمل للجنة

والله إنى لأتخايل دخول الجنة ، ودوام الإقامة فيها ، من غير مرض ، ولا بصاق ، ولا نوم ، ولا آفة تطرأُ ، بل صحة دائمة ، وأغراض متصلة لا يَعْتورُها مُنغِّص ، فى نعيم متجدد فى كل لحظة إلى زيادة لا تتناهى . فأطيشُ ، ويكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك، لولا أن الشرع قد ضمنه .

ومعلوم أن تلك المنازل إنما تكون على قدر الاجتهاد ههنا ؛ فواعجبا من مضيع لحظة فيها ! فتسبيحةٌ يغرس لها فى الجنة نَخلة أُكُلُهَا دائم وظلها . فيأيها الخائف من فوت ذلك، شجع قلبك بالرجاء ، ويأيُّهَا المنزعجُ لذكر الموت ، تلمح ما بعد مرارة الشَّربة من العافية . فإنه من ساعة خروج الروح ، لا بل قبل خُروجها تنكشف المنازلُ لأصحابها؛ فيهون سير المجذوب للذة المنتقل إليه . ثم الأرواح فى حَواصِلِ طير تعلق فى أشجار الجنة[2] .

فكل الآفات والمخافات فى نهار الأجل ، وقد اصفرَّتْ شمسُ العمر ؛ فالبِدَارَ الْبِدَارَ قبل الغروب ، ولا مُعِين يرافق على تلك الطريق إلا الفكر ، إذا جلس مع العقل فتذاكرَا

---

(١) لُذ به : الجأ إليه .

(٢) سبق تخريج الحديث الدال على ذلك .

العواقبَ ، فإذا فرغ ذلك المجلس ، فالنظر فى سِيَرِ المجدِّين ؛ فإنه يعود مستجلبًا للفكر منها شتى الفضائل ، والتوفيق من وراء ذلك . ومتى أرادك لشىء هيأك له .

فأما مخالطة الذين ليس عندهم خبر إلا العاجلة فهو من أكبر أسباب مرض الفهم ، وعلل العقل ، والعزلةُ عن الشرِّ حمية ، والحمية سبب العافية .

٢٤٠ - فصل : معرفة الله راحة

رأيت سبب الهموم والغموم الإعراضُ عن الله - عَزَّ وجَلَّ - والإقبال على الدنيا ؛ وكلما فات منها شىء ، وقع الغم لفواته .

فأما من رُزِق معرفة بالله تعالى استراح لأنه يستغنى بالرضا بالقضاء فمهما قدر له رضى ، وإن دعا فلم ير أثر الإجابة لم يختلج [1] فى قلبه اعتراض ؛ لأنه مملوك مدبّر ، فتكون همته فى خدمة الخالق .

ومن هذه صفتُه لا يؤثر جمع مال ، ولا مخالطة الخلق ، ولا الالتذاذ بالشهوات ؛ لأنه إما أن يكون مقصرًا فى المعرفة ، فهو مقبل على التعبد المحض يزهد فى الفانى ؛ لينال الباقى ، وإما أن يكون له ذوق فى المعرفة ، فإنه مشغول عن الكل بصاحب الكل، فتراه متأدبًا فى الخَلْوة به ، مستأنسًا بمناجاته ، مُسْتوحِشًا من مخالطة خلقه ، راضيًا بما يقدر له ؛ فعيشُه معه كعيش مُحبٍّ قد خلا بحبيبه ، لا يريد سواه ، ولا يهتم بغيره . فأما من لم يُرْزق هذه الأشياء ، فإنه لا يزال فى تَنْغِيص متكدر العيش ؛ لأن الذى يطلبه من الدنيا ، لا يقدر عليه ، فيبقى أبدًا فى الحسرات مع ما يفوته من الآخرة بسوء المعاملة. نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - أن يستصلحنا له ، فإنه لا حول ولا قوةَ إلا به .

٢٤١ - فصل : راحة المؤمن فى الجنة

تفكرتُ فى نفسى ، فرأيتُنى مُفْلسًا من كل شىء ، إن اعتمدت على الزوجة لم يكن كما أريد ؛ إن حَسُنَتْ صورتُها ، لَم تكمل أخلاقُها . وإن تمّتْ أخلاقُها ، كانت مريدةً لغرضها لا لِى ، ولعلها تنتظرُ رَحِيلى .

وإن اعتمدت على الولد فكذلك ، والخادمُ والمريدُ لى كذلك ، فإن لم يكن لهما مِنّى فائدة لم يريدانى .

وأمَّا الصديق فليس ثم ، وأخ فى الله كعنْقَاءِ مَغْرب ، ومعارف يفتقدون أهل الخير ،

---

(١) خلج : حرك ، وتخلج : اضطرب كما فى القاموس .

ويعتقدون فيهم قد عدموا وبقيتُ وحْدِى ، وعدتَ إلى نفسى ، وهى لا تصفو إلىّ أيضًا، ولا تقيم على حالة سليمة ، فلم يبق إلا الخالقُ سبحانه .

فرأيت أنى إن اعتمدتُ على إنعامه فما آمن ذلك البلاء ، وإن رجوتُ عفوَهُ فما آمن من عقوبته ، فواأسفا ! لا طمأنينة ولا قرار ، وَاَقلقى من قَلَقى ، وَاحرَقى مِنْ حَرْقى ، بالله ما العيشُ إلا فى الجنة ، حيث يقع اليقين بالرضا ، والمعاشرة لمن لا يخون ، ولا يؤذى . فأما الدنيا فما هى إلا دارُ ذاك .

٢٤٢ - فصل : أخذ الحذر

ينبغى لمن صحب سُلطانًا ، أو مُحْتشمًا أن يكون ظاهره معه ، وباطنه سواء ؛ فإنه قد يدسُّ إليه من يخبره ، فربما افتضح فى الابتلاء . وقد كان جماعة من الملوك يقصدون تقريبَ المنادم [١] ، ولا يجعلون له حجرة فى دُورِهم ، فإذا أرادوا أن يختصُّوه - اختبروه باطنًا ، وذاك لا يدرى ، فيظهر منه ما لا يصلح ؛ فيطرد .

ولقد امتحن أبرويز [٢] رَجُلاً من خاصته ، فدسَّ إليه جارية معها ألطافٌ [٣] ، وأمرها ألا تقعد عنده فحملتها، ثم أنفَذَها مرَّةً أخرى، وأمرها أن تقعد بعد التسليم هُنَيْهَةً ففعلت؛ فلاحظها الرجل . ثم بعثها مرة ثالثةً ، وأمرها أن تُطيل القعود عنده وتحدثه ، فأطالت الحديث معه ؛ فأبدى لها شيئًا من الميل إليها ، فقالت : أخاف أن يطلع علينا ، ولكن دعنى أدبر فى هذا ، فذهبت ؛ فأخبرت الملك بذلك ؛ فوجه غيرَها من خَوَاصِّ جواريه بمثل ذلك ، فلما جاءته ، قال : ما فعلت فلانة ؟ قالت : مريضة ؛ فاربَد [٤] لَوْنُه .

ثم فعلت الجاريةُ الثانية مثْلَ ما فعلت الأولى فقالت له : إن الملك يمضى إلى بُستانه ، فيقيم هناك ، فإن أرادك على أن تمضى معه، فأظْهِرْ أنك عَلِيلٌ ، فإن خيّرك بين الانصراف إلى دُورِ نسائك أو المقام ههنا ، فاختر المقام ههنا ، وأخبره أنك لا تقدر على الحركة ، فإن أجابك إلى ذلك ؛ جئتُ إليك كل ليلة ؛ ما دام الملك غائبًا ، فسكَن إلى قولها ، ثم مضت ، وأخبرت الملك بذلك .

فلما كان بعد ثلاث ، استدعاه الملك فقال : إنى مريض .

فعاد الرسول فأخبره فتبسم ، وقال : هذا أوَّلُ الشرِّ .

---

(١) المنادم : الذى يدمن الشراب

(٢) يقصد المصنف بكسرى ملك الفرس فاسمه كسرى أبرويز .

(٣) ألطاف : هدايا .   (٤) اربد : تغير .

فوجه إليه محفَّةً حُمِل فيها إليه ، فلما بصر به أبرويز قال : والمحفّةُ الشرُّ الثانى ، فرأى العصَابةَ على رأسه ، قال : والعصابة الشر الثالث .

فقال له الملك : أيهما أحب إليك : الانصراف إلى نسائك ليمرِّضْنَكَ ، أو المقام ههنا إلى وقت رجوعى ؟ قال : المقام ههنا أرفق لى ؛ لقلة الحركة ، فتبسم وقال : حركتك ههنا إنْ تركت أكثر من حركتك إلى منزلك .

ثم أمر له بعصا الزناة التى كان يُوسَمُ [(١)] بها من زنا ؛ فأيقن الرجل بالأمر ، وأمر أن يكتب ما كان من أمره حَرْفًا حَرْفًا ، فيقرأ على الناس حرفًا حرفًا إذا حضروا ، وأن يُنْفَى إلى أقصى المملكة ، وتجعل العصا على رأس رُمْح يكون معه حيث كان ؛ ليحْذَرَ منه من لا يعرفه .

فلما نُفِىَ أخذ من بعض الموكلين مُدْيَةً [(٢)] ، فجَبَّ [(٣)] بها ذَكَرَهُ ، وقال : من أطاع عُضْوًا صغيرًا فسد عليه جميعُ أعضائه ، ومات من ساعته .

قلت : وقد كان جماعة من الأمر يتنكرون ويسألون العوامَّ عن سيرَتهم ؛ فيتكلم العامى بما لا يصلح ؛ فيضبطونه ، وربما بعثوا دَسِيسًا عليه ، ورب كلمات قالها مُسْتَرسِلٌ فبلَّغها فَضُولىّ فاهلكت صاحبها .

ورأى عُمَرُ بنُ عبدِ العَزِيزِ رجلاً من العمال كثيرَ الصلاة ؛ فدس عليه مَنْ قال له : إن أخذتُ لك الوِلايَةَ الفلانية - فما تعطينى ؟ قال : أعطيتك كذا وكذا ، قال عمر : غَرَرْتَنا بصلاتك !

وقد بُلِّغت أنّ رجلاً كلَّم امرأةً فأجابته ، فاستدعته إلى دارها ، فلما دخل أقامت على قتله .

فقد ينجلى من هذه الحكاية ، أنه لا ينبغى أن يسكن إلى قول امرأة ، أو بَعْلٍ ؛ يجوزُ أنه يكون جَاسُوسًا ، ومُخْتبرًا .

وكذلك لا يظهر ما ينبغى إخفاؤه من مال ، أو مذهب ، أو سَبُّ رجل ؛ فربما كان له فى الحاضرين قريب ، ولا يُوثَقُ بمودّة لا أصْل لها ؛ فربما كانت تحتها آفة تقصده . وليحذر من كل أمر يحتمل .

ورب كلمة نقلها صديقٌ إلى صديق ؛ فتحدث بها مَنْ لا يقصد أذًى للقائل ، فبُلِّغت؛ فتأذى .

---

(١) يوسم : يُعلم بها . (٢) المدية : الشفرة . (٣) جب : قطع .

وربَّ مُظهرٍ للمحبَّة مبالغ حتى يستمكن من مراده . فالحذرَ من الطمأنينة إلى أحد خُصُوصًا من عَدُوٍّ آذيته ، أو قتلت له قَرِيبًا ، فربما أظهر الجميل شَبَكَةً لاصطيادك، كحديث الزبَّاءِ .

٢٤٣ - فصل : الحرص والأمل

رأيت النفس بعد علوِ السِّنِّ يقوى أملها ، ويزداد حرصها ؛ كما قال النبى - ﷺ -: « **يَشيبُ ابْنُ آدَمَ وتَشبُّ مِنْهُ خَصْلَتَانِ : الْحِرْصُ ، والأَمَلُ** » (١) ورأيت أكثر أسباب ذلك فراغَ اليد من الدنيا ، وكثرة العائلة ، وقوة الحاجة ؛ فيحتاج الإنسان إلى التعرض بما يَشين (٢) العِرْض ؛ ليحصل الغرَض .

فقلتُ إلَهى ، أبعدَ رؤية جبال عَرَفَةَ أضلُّ ! أَبَعْدَ مشارفَة الحرَمِ تأخذنى أعرابُ البادِيَةِ! وَاأسفا ! أيطلع فجر النحر ، وما وصلت إلى عرفات ؟! ويا ضياع سفر العمر ، وما حصل المقصود :

قَدْ كُنْتُ أَرْجُوكَ لِنَيْلِ الْمُنَى وَالْيَوْمَ لا أَطْلُبُ إلا الرضا

ثم قلتُ : يا نفسُ ، مالك ملجأ إلا اللَّجَا ، واستغاثة الغريق ، فإن رُحمت وإلا فكم مِن حسرة تحت التراب !

٢٤٤ - فصل : علاج الرغبة

شكى لى بعضُ الأشياخ ، فقال : قد عَلَتْ سنّى ، وضعفُت قوتى ، ونفسى تطلب منى شراءَ الجوارِ الصغار ، ومعلوم أنهن يُرِدْنَ النِّكاحَ ، وليس فىَّ ، ولا تَقْنعُ منى النفسُ بربَّةِ البيت ؛ إذ قد كبرت .

فقلت له : عندى جَوَابَان :

أحدُهما : الجوابُ العامى ، وهو أن أقول : ينبغى أن تشتغل بذكر الموت ، وما قد توجهت إليه ، وتحذر من اشتراء جارية لا تقدر على إيفاء حقِّها ؛ فإنها تبغضُك ، فإن أجهدت استعجلت التلف ، وإن استَبْقَيْتَ قوتك غضبت هى ، على أنها لا تريد شيخًا كيف كان .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٢٠ ، ٦٤٢١) بنحوه ، وأحمد (١١٥/٣ ، ١١٩ ، ١٦٩) ، واللفظ له .

(٢) يشين : يعيب .

وقد أنشدنا عَلِيُّ بنُ عبد الله ، قال : أنْشدنا مُحَمَّدٌ التَّميمِيُّ :

أَفِقْ يَا فُؤَادِى مِنْ غرامك وَاسْتَمِعْ ... مَقَالَةَ مَحْزُونٍ عَلَيْكَ شَفِيقِ
عَلِقْتَ فَتَاةً قَلْبُهَا مُتَعَلِّقٌ ... بِغَيْرِكَ فَاسْتَوْثَقْتَ غَيْرَ وَثِيقِ
وَأَصْبَحْتَ مَوْثُوقًا وَرَاحَتْ طَلِيقَةً ... فَكَمْ بَيْنَ مَوْثُوقٍ وَبَيْنَ طَلِيقِ

فاعْلَمْ أنها تَعُدُّ عليك الأيام ، وتطلب منك فضْلَ المال ؛ لتستعد لغيرك ، وربما قصدت حَتْفَك [1] ، فاحذَرْ ، والسلامةُ فى الترك ، والاقتناع بما يدفع الزمان .

والجواب الثانى : فإنى أقولُ : لا يخلو أن تكون قادرًا على الوطْء فى وقت ، أوْ لا تكون ، فإن كنت لا تقدر ، فالأَوْلَى مصابرة الترك للكل . وإن كان يمكن الحازم أن يُدَارى المرأة بالنفقة ، وطيب الخُلُق إلا أنه يخاطر .

وإن كنت تقدر فى أوقات على ذلك ، ورأيت من نفسك تَوْقًا شديدًا ، فعليك بالمراهقَات ؛ فإنهن ما عرفْن النّكاح ، وما طلبْن بالوطء ، واغمرهن بالإنفاق ، وحُسْن الخلق ، مع الاحتياط عليهن ، والمنع من مخالطة النِّسْوة .

وإذا اتَّفقَ وطء ، فتصبر عن الإنزال ريثما تقضى المرأةُ حاجتها .

واعتمد وعظها ، وتذكيرها بالآخرة ، واذكُرْ لها حكايات العُشَّاق من غير نكَاح ، وقبْح صورة الفعل ، والْفِتْ قلبها إلى ذكر الصالحين ، ولا تُخْلِ نفسك من الطِّيب ، والتزين ، والكَيَاسَة ، والمداراة ، والإنفاق الواسع . فهذا ربما حرَّك الناقَةَ للمسير مع خطر السلامة .

٢٤٥ – فصل : صفة أهل الحزم

أَبْلَهُ الناس مَنْ عمل على الحال الحاضرة ، ولم يتصوَّرْ تغيرها ، ولا وُقُوعَ ما يجوزُ وقوعُه .

مثاله أن يغتر بدولة ؛ فيعمل بمقتضى ملكه ، فإذا تغيرت هلك ، وربما عادى خَلْقًا ؛ اغترَارًا بأنه متسلط ، أو أنه صاحبُ سلطان ، فإذا تغيرت حاله أكل كَفَّيْه ندمًا عند فوات التدَارُك .

وكذلك مَنْ له مال يبذره ؛ سُكُونًا إلى وجود المال ، وينسى حاله عند العدم .

---

(١) الحتف : الموت والهلاك .

وكذا من يتناول الشهوات ، ويكثر من المآكل ، والمشارب ، والنكاح ؛ ثقة بعافيته وينسى ما يعقب ذلك من الأمراض ، والآفات .

ومنْ أظرف الأحوال أن يُحِبَّ جاريته ، فيعتقها ، ويهب لها ، أو امرأةً فيسكن إليها، ويهب لها ، فتتمكن ، ولا تمضي الأيام حتى يسلُوها [1] ، أو يطلُبَ غيرها ، ولا يجد طريقًا للخلاص . فإن تخلص منها أخذت ما غنمت منه ؛ فلقى من الغَيْظ أضعاف ما يلتذُّ به ، فلا ينبغى أن يُوثَقَ بامرأة ، ولا بمحبة إنسان ؛ فإنه قد يحب امرأةً ، ويظن أنه لا يسلوها أبدًا ، فيسترسل إليها ، والسلو يحدث .

وربما أَحَبَّ غيرها ، فينسى الأولى ؛ فيصعب عليه الخلاصُ من الأولى .

فالعاقل لا يدخل فى شىء حتى يهيئ الخروج منه ؛ فإن الأشياء لا تثبت ، والمحبة لا تدوم ، والتغيرُ مقرونٌ بكل حال ، وكذلك يُعْطى ماله ولده ، ثم يبقى كَلا [2] عليه ، فيتمنى الولدُ هلاكه ، وربما عل به فى النفقة .

وكذلك قد يثِقُ بالصديق ، فيبث أسراره إليه ، فربما أظهر ذلك ، فكان منها ما يوجب هلاكه .

وكذلك يَغْتَرّ الإنسان بالسلامة وينسى طُرُوقَ الموت ؛ فيأتيه بغتة ؛ فيبْهَتُه ، وقد فات الاستدراكُ ، ولم يبق إلا الندم .

فالعاقل من كانت عينه مُرَاقبةً للعواقب ، مُحترِزةً مما يجوز وقوعُه ، عاملةً بالاحتياط في كُل حالٍ ، حافظةً للمال والسر ، غيرَ واثقةٍ بزوجة ، ولا ولد ، ولا صديق ، مُتأهّبةً للرحيل ، مُتَهيئة للنقلة . هذه صفة أهل الحزم .

٢٤٦ – فصل : التسليم لله

من أعجب الأمورِ طلبُ الاطلاع على تحقيق العرفان ، لذات الله – عَزَّ وجَلَّ – وصفاته ، وأفعاله ، وهيهات ! ليس إلا المعرفة بالجملة ، ولقد أوغل المتكلمون فما وقعوا بشىء ، فرجع عقلاؤهم إلى التسليم .

وكذلك أصحاب الرأى ، مالوا إلى القياس ؛ فإذا أشياءُ كثيرةٌ بعكسِ مُرادهم ، فلم يجدوا مَلْجَأ إلا التسليم ، فسموا ما خالفهم استحسانًا .

فالفقيه من علَّل بما يمكن ، فإذا عجز استطرح للتسليم ، هذا شأن العبيد .

---

(١) يسلوها : ينساها .

(٢) كلا : ثقيلا .

فأما من يقول : لم فعل كذا ؟ وما معنى كذا ؟ فإنه يطلب الاطلاع على سرِّ الملك ، وما يجد إلى ذلك سبيلاً لوجهين :

أحدهما : أن الله تعالى ستر كثيرًا من حِكَمه عن الخلق .

والثانى : أنه ليس فى قوى البشر إدراك حكم الله تعالى كلها ، فلا يبقى مع المعترض سوى الاعتراض المخرج إلى الكفر : ﴿ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّمَاءِ ثُم لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾ (١) ، والمعنى : من رضى بأفعالى ، وإلا فليخنق نفسه ؛ فما أفعل إلا ما أريد .

٢٤٧ - فصل : حسن اختيار الأصحاب

من رزقه اللهُ تعالى العلمَ ، والنظر فى سِيَر السَّلَف ، رأى أن هذا العالم ظلمةٌ ، وجمهورُ العالم على غير الجادَّة ، والمخالطةُ لهم تَضُرُّ ، ولا تنفع ، فالعجب لمن يترخّص فى المخالطة ، وهو يعلم أن الطبع لص يسرق من المخالطة .

وإنما ينبغى أن تقع المخالطةُ للأرفع ، والأعلى فى العلم ، والعمل ، ليستفاد منه.

فأمَّا مخالطة الدُّون فإنها تؤذى ، إلا أن يكون عاميًا يقصد من يعلمه ، فينبغى أن يخالط بالاحتراز .

وفى هذا الزمان إن وقعت المخالطة للعوام عكرت الفؤاد ، فَهُمْ ظلمةٌ مُسْتحكمةٌ ، فإذا ابتلى العالمُ بمخالطتهم فلْيُشَمِّر ثيابَ الحذَر ، ولتكُنْ مجالستُه إيّاهم للتذكرة والتأديب فحسْبُ .

وإن وقعت المخالطةُ للعلماء فأكثرهم على غير الجادة ، مقصودهم صورةُ العلم لا العملَ به ، فلا تكاد ترى مَنْ تذاكره أمر الآخرة ، إنما شغلُهم الغيبةُ ، وقصدُ الغلبة ، واجتلابُ الدنيا ، ثم فيهم من الحسد للنظراء ما لا يوصف .

وإن وقعت المخالطةُ للأمراء ، فذاك تعرض لفساد الدين ؛ لأنه إن تولى لهم وِلاية دنيوية فالظلم من ضَرُوراَتها ؛ لغلبة العادة عليهم ، والإعراض عن الشرع . وإن كانت وِلاية دينية كالقضاء ، فإنهم يأمرونه بأشياء لا يكاد يمكنه المراجعة فيها ، ولو راجع لم يقبلوا ، وأكثر القوم يخاف على منصبه ؛ فيفعل ما أمر به ، وإن لم يجبر ، وربما رأيت فى هذا الزمان أقوامًا يبذلون المال ليكونوا قُضَاةً ، أو شُهُودًا ، ومقصودهم الرفعة .

(١) سورة الحج ، آية : ١٥

ثم أكثر الشهود يشهد على مَنْ لا يعرفه ، ويقول : إنه معروف ، ويدرى أنه كذاب؛ وإنما عرف لأجل حبَّة يُعْطَاها ، وكم قد وقعت شهادة على غير المشهود عليه ، أو على مكره .

وإن وقعت المخالطة للمتزهدين ، فأكثرهم على غير الجادة ، وعلى خلاف العلم ، قد جعلوا لأنفسهم نواميس ؛ فلا يتنَسَّمون [1] ، ولا يخرجون إلى سوق ، ويظهرون التخشُّعَ الزائد ، وكله نفَاقٌ .

وفيهم من يَلْبَسُ الصوف تحت ثيابه ، وربما لوّح بكمه ليُرى .

وقد حُكِيَ عن طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ أنه قال لبعض المتزهدين : مُذْ كم قَدِمْتَ العراق ؟ قال: دخلتها منذ عشرين سنة ، وأنا منذ ثَلاثِينَ سنة صائِمٌ . قال : سألناك عن مسألة فأجبت عن اثنتين .

وبُيُوت الصوفية أرْبطة فهى خوارج على المساجد ، وهى دكاكين كريهة يقعد فيها الكُسَالى عن الكسب مع القدرة عليه ، ويتعرضون بالقعود للصدقات ، ولأحوال الظلمة، وقد أراحوا أنفسهم من إعادة العلم .

وأكثرهم لا يُصلِّى نافلة ، ولا يقوم الليل ، بل يَهُمُّهم المأكول والمشروب ، والرقص. وقد اتخذوا سُنَنًا تخالف الشريعة ، فهم يلبسون المرقَّع لا مِنْ فقر ؛ وهذا قبيح؛ لأنه ليس عندهم من أمارات الزهد سوى الملبس الدُّون ، فثيابهم تَصِيحُ : نحنُ زهادٌ ، وباقى أفعالهم المستورة تفضحهم ، إذا اطلع عليها . فالمطبخ دائر ، والحمام ، والحلوى كثيرة . والطيب والدعة ، والكبر حاصل بذلك الزى .

وقد قال النبى - ﷺ - لمَالك بْنِ نضلة وقد رآه أشْعَثَ الهيئَة : « **أَمَا لَكَ مَالٌ ؟!** » قال: بلى ، من كل المال آتانى الله عَزَّ وجَلَّ ! قال : « **فإنَّ اللهَ - عَزَّ وجَلَّ - إذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْد نعْمَةً أَحَبَّ أَنْ تُرَى عَلَيْه** » [2] .

ومن أخلاقهم تَنْفيرُ الناس عن العلم ، ويزعمون أنْ لا حاجة إلى الوسائط ، وإنما هو قلب ورب ، ولهم من الأقوال والأفعال المنكرات ما قد ذكرته فى « تَلْبِيسِ إبْلِيس » آه لو كان للزمان عُمَرَ لاحتاج كل يوم إلى مائة درَّة [3] ، لا بل كان يستعمل السيف فى هؤلاء الخوارج ؛ وهم داخل البلد لا قدرة للعلماء عليهم ؛ إذ قولُهم فيهم لا يُقْبل .

---

(١) لا يتنسمون : لا يخرجون للتنزه .

(٢) أحمد (٣/ ٤٧٣) (٤/ ١٣٧) ، وأبو داود فى اللباس (٤٠٦٣) ، والنسائى فى الزينة (٨/ ١٨٠).

(٣) درة : عصا كان لسيدنا عمر يضرب من يؤدبه .

فمن رزقه الله سبحانه النظر فى سِيَر السَّلف ، ووفقه للاقتداء بهم - آثر أن يعتزل عن أكثر الخلق ، ولا يخالطهم ؛ فإنه من خالطهم أُوذِى . ومَنْ داراهم لم يسلم من المداهنة ، فالنُّصْحُ اليوم مردودٌ .

٢٤٨ - فصل : عدم المبادرة بالخصام

من البَلَه أن يبادرَ عدُوا أَوْ حَسُودًا بالمخاصمة ؛ وإنما ينبغى إنْ عرفت حاله ، أن تظهر له ما يوجِبَ السلامة بينكما ، إن اعتذر قبلت . وإن أخذ فى الخصُومة صَفَحْتَ ، وأريته أنّ الأمر قريبٌ ، ثم تبطن فى الحذَرِ منه ، فلا تثِقُ به فى حال ، وتتجافاه باطِنًا مع إظهار المخالطة فى الظاهر .

فإذا أردت أن تؤذيه فأول ما تؤذيه به إصلاحك لنفسك ، واجتهادك فى علاج ما يعرفك به .

ومن أعظم العقوبة له العفوُ عنه لله ، وإن بالغ فى السبِّ فبالِغْ فى الصفح ؛ تنبُ عنك العوام فى شتمه ، ويحمدك العلماء على حِلْمك .

وما تؤذيه به من ذلك وتورثه به الكمد [1] ظاهرا وغيره فى الباطن أضعاف ، خير مما تؤذيه به من كلمة إذا قلتها له سمعت أضعافها .

ثم بالخصومة تعلمه أنك عدوه ، فيأخذُ الحذَر ، ويبسُطُ اللسان ، وبالصفح يجهل ما فى باطنك ، فيمكنك حينئذ أن تشتفى منه ، أما أن تلقاه بما يؤذى دينك ؛ فيكونُ هو الذى قد اشتفى منك .

وما ظفر قَطُّ مَنْ ظفر به الإثم ، بل الصفح الجميل ، وإنما يقع هذا ممن يرى أن تسليطه عليه إما عقوبة لذنب ، أو لرفع درجة ، بالابتلاء ، فهو لا يرى الخصم وإنما يرى القدرة .

٢٤٩ - فصل : آداب الدعاء

إذا وقعت فى محنة يصعب الخلاصُ منها ، فليس لك إلا الدعاءُ واللجَأ ، بعد أن تقدم التوبةَ من الذنوب ؛ فإن الزلل يُوجِبُ العقوبةَ ، فإذا زال الزللُ بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب ، فإذا ثبت ، ودعوت ، ولم تر للإجابة أثرا فتفقَّدْ أمرك ، فربما كانت التوبةُ ما صحت ، فصححها ، ثم ادْعُ ولا تملَّ من الدعاء ، فربما كانت المصلحة فى تأخير الإجابة ، وربما لم تكن المصلحة فى الإجابة ، فأنت تُثابُ ، وتُجاب إلى منافعك.

---

(١) الكمد : الحزن المكتوم .

ومن منافعك ألا تُعْطى ما طلبت ، بل تعوض غيره .

فإذا جاء إبْليسُ فقال : كم تدعوه ، ولا ترى إجابة فقل : أنا أتعبد بالدعاء ، وأنا مُوقِنٌ أن الجوابَ حاصلٌ ، غير أنه ربما كان تأخيره لبعض المصالح فهو يجيء فى وقت مناسب ، ولو لم يحصُلْ حصل التعبُّدُ والذلُّ .

فإيَّاك أن تسأل شيئًا إلا وتقرنه بسؤال الخيرة ، فرُبَّ مطلوب من الدنيا كان حصولُه سببًا للهلاك .

وإذا كنت قد أُمِرْت بالمشاورة فى أمور الدنيا لجليسك ؛ ليبين لك فى بعض الآراء ما يعجز رأيك عنه ، وترى أن ما وقع لك لا يصلح ، فكيف لا تسأل الخير ربَّك ، وهو أعلم بالمصالح ؟ والاستخارةُ من حسن المشاورة .

٢٥٠ - فصل : أصناف الناس فى العلم والجهل

نظرت إلى الناس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل ، فأما الجهال فانقسموا : فمنهم سلطان قد ربِّى فى الجهل ، ولبسَ الحريرَ ، وشرب الخمورَ ، وظلم الناس ، وله عمال على مِثْل حاله، فهؤلاء بمعْزِل عن الخير بالجملة

ومِنْهم تجارٌ هِمتُهم الاكتسابُ ، وجمع الأموال ، وأكثرهم لا يُؤدى الزكاة ، ولا يتحاشى من الربا ، فهؤلاء فى صور الناس .

ومنهم أرْبَابُ معاشٍ ، يُطَفِّفُونَ المِكْيال ، ويُخْسِرُون الميزان ، ويَبْخَسُون الناس ، ويتعاملون بالربا ، وهم فى الأسواق طول النهار لا همَّةَ لهم إلا مَا هُمْ فيه ، فإذا جاء الليل وقعوا نيامًا كالسُّكَارَى فهمة أحدهم ما يأكل ويلتَذُّ به ، وليس عندهم من الصلاة خبر ، فإن صلى أحدُهم نقرها ، أو جمع بينهما ، فهؤلاء فى عِدَاد البهائم .

ومن الناس ذَوُ رذالة [1] فى جميع أحوالهم : فهذا كنَّاسٌ ، وهذا زبَّال ، وهذا نخَّال، وهذا يكْسَحُ الحُش [2] ؛ فهؤلاء أرذلُ القوم .

ومنهم من يطلب اللذات ولا يساعده المعاش ؛ فيخرج إلى قطع الطريق ، وهؤلاء أحمقُ الجماعة ؛ إذ لا عَيْشَ لهم ، فإن التذُّوا لحظةً بأكل أو شرب ، فحركت الريحُ قصبةً هربوا خوفًا من السلطان . وما أقلَّ بقاءهم ! ثم القتلُ والصلب مع إثم الآخرة .

---

(١) الرذالة : الدناءة .

(٢) الحش : موضع قضاء الحاجة .

ومنهم أربابُ قُرَى قد عَمَّهم الجهلُ ، وأكثرهم لا يتحاشى من نجاسة ؛ فهم فى زُمْرة البقر .

ورأيت النساء ينقسمن أيضًا : فمنهم المُسْتَحْسنةُ التى تبْغَى ، ومنهن الخائنةُ لزوجها فى ماله ، ومنهن من لا تُصلى ، ولا تعرف شيئًا من الدين ؛ فهؤلاء حَشْو النار . فإذا سمِعْن موعظة فإنها كما مرت على حجر ، وإذا قرئ عندهن القرآن فكأنهن يسمعن السمر.

وأما العلماء فالمبتدئون منهم ينقسمون إلى ذى نيَّة خبيثة يقصد بالعلم المُبَاهَاة لا العمل، ويميلُ إلى الفسْق ظَنا أن العلم يدفع عنه ، وإنما هو حُجَّةٌ عليه .

وأما المتوسِّطُون ، والمشهورون ، فأكثرهم يَغْشَى السلاطين ، ويسكت عن إنكار المُنْكر، وقليلٌ من العلماء مَنْ تسلم له نيتُه ، ويحسن قصده .

فمن أراد الله به خيرًا رزقه حُسْن القصد فى طلب العلم ، فهو يحصله ؛ لينتفعَ به ويَنْفَعَ ، ولا يبالى بعمل ما يدله عليه العلم ؛ فتراه يتجافى أربابَ الدنيا ، ويحذرُ مخالطةَ العوام ، ويقنع بالقليل خوفًا من المخاطرة فى الدنيا فى تحصيل الكثير ، ويُؤْثِرُ العُزْلَةَ ، فليس مُذَكِّرًا للآخرة مثلها ، وليس على العالم أضرُّ من الدخول على السلاطين؛ فإنه يحسّن للعالم الدنيا ، ويُهوّن عليه المنكر ، وربما أراد أن يُنْكر فلا يصح له ، فإن عدم القناعة ، وغلبته نفسه فى طلب فضول الدنيا فهيهات أن يسلم منها ؛ لأنه يتعرض بأربابها ، وإن الإنسان ليمشى فى السوق ساعة ؛ فينسى بما يرى ما يعلم ، فكيف إذا انضم إلى ذلك التردد إلى الأغنياء ، والطمع فى أموالهم ؟ فأما الوحدة فإنها سببُ رجوعِ القلب ، وجمعِ الهَمِّ ، والنظر فى العواقب ، والتهيؤ للرحيل ، وتحصيل الزاد .

فإذا انضمت إليها القناعة جلبت الأحوال المستحسنة . ولا تحسنُ اليومَ المجالسةُ إلا لكتاب ؛ يحدثك عن أسْرَارِ السلف .

فأما مجالسة العلماء فمخاطرةٌ ؛ إذ لا يجتمعون على ذكْر الآخرة فى الأغلب ، ومجالسة العوام فتْنة للدين ، إلا أن يحترز فى مجالسهم ، ويمنعهم من القول ، فيقول هو : ويكلفهم السماع . ثم يستوفزُ [1] للبعد عنهم ، ولا يمكن الانقطاع الكلى إلا بقطع الطمع، ولا ينقطعُ الطمعُ إلا بالقناعة باليسير ، أوْ يتميز بتجارة ، أو أن يكون له عقار

(١) استوفز : انتصب فى قعدته غير مطمئن أو وضع ركبتيه ورفع أليتيه أو استقل على رجليه ولما يستو قائما وقد تهيأ للوثوب .

يَسْتَغِلُّه ؛ فإنه متى احتاج تشتت الهمُّ ، ومتى انقطع العالِمُ عن الخلق ، وقطع طمعه فيهم ، وتوفر على ذكر الآخرة ؛ فذاك الذى ينفع وينتفع به . والله الموفق .

٢٥١ - فصل : فضل العلم

من تأمل بعين الفكر دَوامَ البقاء فى الجنة فى صَفاء بلا كدر ، ولذات بلا انقطاع ، وبلُوغ كل مطلوب للنفس ، والزيادة مما لا عَيْن رَأَتْ ، وَلا أُذُن سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ [(١)] من غير تغيير ولا زوال ، إذ لا يقال ألف ألف سنةٍ ولا مائة ألف ألف .

بل ولو أن الإنسان عَدَّ الألوف ألوفَ السنين لا ينقضى عددُه ، كان له نهاية ، فبقاء الآخرة لا نفاد له ، إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر .

وما مقدارُ عمر غايته مائة سنة : منها خمسَةَ عَشَرَ صَبْوةٌ وجهل ، وثلاثون بعد السبعين إن حصلت ضعفٌ وعجزٌ ، والتوسُّطُ نصفُه نَوْمٌ ، وبعضه زمان : أكل ، وشرب ، وكَسْب ، والمنتحل منه للعبادات يَسِير . أفلا يشترى ذلك الدائم بهذا القليل ؟ إن الإعراض عن الشروع فى هذا البيع والشراء لغبنُ فاحش فى العقل ، وخللٌ داخل فى الإيمان بالوعد فإن من يدرى كيف يعقد البيع بالعلم . والعلم هو الذى يدل على الطريق، ويعرف ما يصلح لها ، ويحذر من قطاعتها .

ولقد دخل إبْليسُ على طائفة من المتزهدين بآفات أعظمها أنه صرفهم عن العلم ، فكأنه شرع فى إطفاء المصباح ؛ ليسرق فى الظلمة ، حتى أنه أخذ قومًا من كبار العلماء، فسلك بهم من ذلك ما ينهى عنه العلم .

فرأيت أبَا حَامِدٍ الطُّوسِىّ يحكى عن نفسه فى بعض مُصنَّفاته ، قال : شاورت مَتْبُوعًا مقدمًا من الصوفية فى المواظبة على تلاوة القرآن ، فمنعنى منه ، وقال : السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية ، بحيثُ لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم ، بل تصيرُ إلى حالة يستوى عندك وجود ذلك وعدمه ، ثم تخلو بنفسك فى زاوية ، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب ، وتجلس فارغَ القلب ، ولا تزال تقول : الله الله إلى أن تنتهى إلى حالة لو ترك تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك ، ثم تنظر ما يفتح عليك مما فتح مثله على الأنبياء والأولياء .

قلتُ : وهذا أمر لا أتعجب أنا فيه من الموصى به ، وإنما أتعجب من الذى قبله مع

---

(١) الحديث عن ذلك رواه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤) .

معرفته وفهمه ، وهل يقطع الطريق بالإعراض عن تلاوة القرآن ! وهل فُتح للأنبياء ما فُتح بمجاهدتهم ورياضتهم ؟ وهل يوثق بما ظهر من هذه المسالك ؟ ثم ما الذى يفتح ؟ أثم اطلاعٌ على علم الغيب ، أم هو وحى ؟ فهذا كله من تلاعب إبْلِيسِ بالقوم .

وربما كان ما يتخايل من أثر الماليخوليا ، أو من إبليس ؛ فعليك بالعلم ، وانظر فى سير السلف : هل فعل أحد منهم من هذا شيئًا ، أو أمر به ؟ وإنما تشاغلوا بالقرآن ، والعلم فدلهم على إصلاح البواطن ، وتصفيتها . نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - علمًا نافعاً ، للعدُوِّ مانعًا إنّه قادر .

٢٥٢ - فصل : كتمان الحب حزم

من أراد اصطفاءَ محبوب ، فالمحبوبُ نوعان : امرأةٌ يُقصد منها حسنُ الصورة ، وصديقٌ يُقْصَدُ منه حسنُ المعنى ، فإذا أعجبك صورةُ امرأة ، فتأمل خلالَها الباطنة مُدَيْدَةً[1] قبل أن يتعلق القلب بها تعلقًا مُحْكمًا ، فإن رأيتها كما تحب ، وأصل ذلك كله الدين كما قال : « **عَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّين** » [2] . فملْ إليها ، واستولدها ، وكن فى مَيْلك معتدلا ؛ فإنه من الغلط أنْ تَظهر لمحبوبك المحبة ؛ فإنه يشتَطُّ عليك ، وتلقى منه الأذى ، والتَّجَنّى ، والهجرانَ ، والإذلال ، وطلب الإنفاق الكثير ، وإن كانت تحبك ؛ لأن هذا إنما يجتلبه حب الإدلال والتسلط على المقهور .

وثم نكتةٌ عجيبةٌ : وهو أنك ربما عملت بمقتضى الحال الحاضرة ، وهى تحكم بكمال الحب ، ثم إن ذلك لا يثبت إليك ، فتقع وتبقى مَقْهُورًا ، ويصعب عليك الخلاص .

وربما تمكنتْ بمعرفة سِرِّك ، أو بأخذ كثير من مالك .

ومن أحسن ما بلغنى فى هذا : أنّ جاريةً لبعض الخلفاء كانت تحبه حُبا شديدًا ، ولا تظهر له ذلك ، فسُئِلَتْ عن هذا ، فقالت : لو أظهرتُ ما عندى فجَفَانى هَلَكْتُ ؛ قال الشاعر :

لا تُظْــهِرَنَّ مَوَدَّةً لِحَــــبِيبِ ... فَتَرَى بِعَيْنِكَ مِنْهُ كُلَّ عَجِيبِ
أَظْهَرْتُ يَوْمًا لِلْحَبِيبِ مَوَدَّتِى ... فَـأَخَذْتُ مِنْ هِجْرَانِهِ بِنَصِيبِى

وكذا ينبغى أنْ تكتم بعض حبك للولد ؛ لأنه يتسلط عليك ، ويضيع مالك ، ويبالغ

(١) مديدة : تصغير مدة وهو الوقت القليل .
(٢) رواه البخارى فى النكاح (٥٠٩٠) ، ومسلم فى الرضاع (٥٤/٧١٥) .

فى الإدلال ، ويمتنع عن التعلم والتأدب ، وكذلك إذا اصطفيت صديقًا وخبرته ، فلا تخبره بكل ما عندك ، بل تعاهده بالإحسان كما تتعاهد الشجرة ، فإنها إذا كانت جيدة الأصل - حسنت ثمرتُها بالتعاهد ، ثم كن منه على حَذَرٍ ؛ فقد تتغير الأحوال ؛ وقد قيل :

احْـذَرْ عَـدُوَّكَ مَرَّةً　　وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ
فَـلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّـديـ　　ـقُ فَكَـانَ أَدْرَى بِالْمَضَرَّهْ

٢٥٣ - فصل : كتمان البغض حزم

وأما إذا أبغضْتَ شخصًا لأنه يسوءك فلا تظهرن ذلك ، فإنك تنبهه على أخذ الحذر منك ، وتدعوه إلى المبارزة ، فيبالغ فى حَرْبك ، والاحتيال عليك ، بل ينبغى أن تظهر له الجميل إن قدرت ، وتبرَّه ما استطعت ، حتى تنكسر معاداته بالحياء من بغضك . فإن لم تطق فهجرٌ جميلٌ ، لا تَبين فيه ما يؤذى .

ومتى سمعت عنه كلمة قذَعَةً [1] فاجعل جوابها كلمة جميلةً ، فهى أقوى فى كَفِّ لسانه ، وكذلك جميعُ ما يخاف إظهاره ، فلا تتكلمن به ، فربَّما وقعت كلمةٌ أسقطت بها عزّ السلطان ، فنقلت إليه فكانت سببَ هلاكك ، أو عن صديق ، فكانت سبب عَدَاوته ، أو صرت رَهينًا لمن سمعها خائفًا أن يظهرها ، فالحزمُ كتْمَانُ الحب والبغض .

وكذا ينبغى أن تكتم سِنَّك فلا تلغو به بين الناس فإن كنت كبيرًا استَهْرَمُوكَ ، وإن كنت صغيرًا استَحْقَرُوكَ .

وكذلك مقدارُ مالك ، فإنه إن كان كثيرًا نسبوك فى نفقتك إلى البخل ، وإن كان قليلاً طلبوا الراحة منك .

وكذلك المذهبُ ؛ فإنك إن أظهرته لم تأمن أن يسمعه مخالف فيقطع بكفرك ؛ وقد أنشدنا محمدُ بنُ عبد الباقى البزَّارُ :

احْـفَظْ لِسَـانَكَ لا تَبُحْ بِثَلاثَةٍ　　سِنٍّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ
فَعَـلَى الثَّـلاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلاثَـةٍ　　بِمُمَـوِّهٍ وَمُخَـرِّفٍ وَمُكَذِّبِ

٢٥٤ - فصل : خدمة الظالمين

طَال تعجبى من مُؤْمن بالله - عَزَّ وجَلَّ - مؤمن بجزائه ، يُؤْثر خدْمة السلطان مع ما

(١) قذعة أى رماه بالفحش وسوء القول ، والقذع : الخنا والفحش كما فى القاموس .

يرى من الجوْر الظاهر ، فواعجبًا ! ما الذى يعجبه ؟ إن كان الذى يعجبه دُنْيويا - فليس ثَمَّ إلا أن يصاح بين يديه باسم الله الذى ينتسب إليه زوراً وهو ما يريد إلا أن يتصدر فى المجالس ، ويلوى عُنُقَه كِبْرًا على النظراء ، ويأخذ الأسحاتَ [1] ، وهو يعلم من أين حَصّل، وربما انبسط فى البراطيل [2] .

ثم يقابل هذا أن يُصَادَر ويُعْزل ؛ فيستخرج تلك المرارة من كل حلاوة كانت فى الولاية.

وربما كان قريب الحال ؛ فافتُقِر بالمصادرة جدا ؛ ثم تنطلق الألسنُ المادحة بالذم ، ثم لو سلم من هذا ، فإنه لا يسلم من الرَّقِيب له ، والحذر منه ، فهو كراكب البحر إن سلم بدنُه من الغَرَق لم يسلم قلبُه من الخوف .

وإن كان دينًا فإنه يعلم أنهم لا يمكنونه فى الغالب من العمل بمقتضى الدين؛ إنهم يأمرونه بترك ما يجب، وفعل ما لا يجوز؛ فيذهب دينه على البارد، ولعقاب الآخرة أشقُّ .

٢٥٥ - فصل : عزة النفس

العجبُ من الذى أنف من الذل ، كيف لا يصبر على جلف الخبز [3] ، ولا يتعرض لِمَنَنِ الأنذال ، أتراه ما يعلم أنه ما بقى صاحب مروءة ! وأنه إن سأل سائل بخيلاً لا يعطى ، فإن أعطى نَزْرًا [4] فإنه يستعبد المعطَى بذلك العمر ، ثم ذاك القدرُ النزْرُ يذهب عاجلاً ، وتبقى المِنَنُ ، والخجل ، ورؤية النفس بعين الاحتقار ، إذ صارت سائلة ، ورؤية المعطى بعين التعظيم أبدًا ، ثم يوجب ذلك السكوت عن معائب المعطى ، والبدار إلى قضاء حقوقه ، وخدمته فيما يفى .

وأعجب من هذا من يقدر أن يستعبد الأحرار بقليل العطاء الفانى ، ولا يفعل ؛ فإن الحر لا يشترَى إلا بالإحسان ؛ قال الشاعر :

تَفَضَّلْ عَلَى مَنْ شِئْتَ وَاعْنَ بِأَمْرِهِ ... فَــأَنْتَ وَلَوْ كَـــانَ الأَمِيرَ أَمِيرُهُ

وَكُـنْ ذَا غِنًى مَنْ تَشَاءُ مِنَ الْوَرَى ... وَلَوْ كَــانَ سُــلْطَانًا فَأَنْتَ نَظِيرُهُ

وَمَنْ كُـــنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ وَوَاقِفًا ... عَــلَى طَـــمَعٍ مِنْهُ فَأَنْتَ أَسِيرُهُ

٢٥٦ - فصل : وصية الشباب

ينبغى للصبى إذا بلغ أن يحذر كثرة الجماع ؛ ليبقى جوهرُه؛ فيفيده ذلك فى الكبر ؛

---

(١) الأسحات : جمع سحت وهو المال الحرام .
(٢) البراطيل : الرشاوى .
(٣) جلف الخبز : الخبز الجاف بلا إدام .
(٤) النزر : الشيء القليل .

لأنه من الجائز كبره ، والاستعداد للجائز حزم ، فكيف للغالب؟ كما ينبغي أن يستعد للشتاء قبل هُجُومه ، ومتى أنفق الحاصل وقتَ القدرة ، تأذَّى بالفقر إليه وقت الفاقة .

ولْيعلم ذو الدين ، والفهم أن المتعة إنما تكون بالقُرْب من الحبيب ، والقربُ يحصل بالتقْبيل ، والضَّمِّ ؛ وذلك يقوى المحبة ؛ والمحبةُ يلذ وجودُها ، والوطءُ ينقص المحبة ، ويعدم تلك اللذة .

وقد كان العرب يعشَقُون ولا يرون وطْءَ المعشوق ؛ قال قائلُهم : إنْ نَكَحَ الحب فَسَدْ، فأما الالتذاذُ بنفس الوطء فشأنُ البهائم .

ولقد تأملتُ المرادَ من الوطء ، فوجدتُ فيه معنى عَجِيبًا يخفى على كثير من الناس ، وهو أن النفس إذا عَشِقَتْ شخصًا أحبَّتِ القرب منه ، فهى تُؤْثِر الضمَّ والمعانقةَ ؛ لأنهما غاية فى القُرْب ، ثم تُريدُ قربًا يزيدُ على هذا فيُقَبِّلُ الخدُّ ، ثم تطلبُ القربَ من الروح ؛ فيقبل الفَمُ ؛ لأنه منفذٌ إلى الروح ، ثم تطلب الزيادةَ ؛ فيمصُّ لسَانُ المحبوب ، وقد كان رسول الله - ﷺ - يَتَوَشَّحُ عَائِشَةَ [1] ، ويقبلُهَا ، ويمصُّ لسانَها .

فإذا طلبت النفسُ زيادةً فى القرب إلى النفس استعملت الوطْءَ . فهذا سره المعنوى ، ويحصل منه الالتذاذُ الحسىّ .

٢٥٧ - فصل : خطر علم الكلام على العامة

ليس على العوام أضرُّ من سماعهم علم الكلام ، وإنما ينبغى أن يحذر العوام من سماعه والخوضِ فيه ؛ كما يحذَرُ الصبى من شاطئ النهر خَوْفَ الغرق .

وربما ظَنَّ العامى أن له قوةً يدرك بها هذا ، وهو فاسد ؛ فإنه قد زَلّ فى هذا خلقٌ من العلماء فكيف العوام !

وما رأيتُ أَحْمق من جمهور قُصَّاصِ زماننا ؛ فإنه يحضر عند العوام الغُشْم فلا يَنْهَوْنهم عن خمر ، وزنًا ، وغِيبَةٍ ، ولا يعلمونهم أركانَ الصلاة ، ووظائف التعبد ، بل يملئون الزمان بذكرِ الاستواء ، وتأويل الصفات ، وأنَّ الكلام قائم بالذات فيتأذى بذلك من كان قلبه سَلِيمًا .

وإنما على العامى أن يؤمن بالأصول الخمسة : بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ،

---

(١) أحمد (٦/١٨٧ ، ٢١٩) ، والدارمى فى الطهارة (١٠٥٢) ، ويتوشح : يعانق .

واليوم الآخر ، ويقنع بما قال السلف : القرآن كلامُ اللهِ غيرُ مخلُوقٍ ، والاستواءُ حَق والكيفُ مجهولٌ .

وليعلمْ أن رسول الله - ﷺ - لم يكلف الأعرابيَّ سوى مجرد الإيمان ، ولم تتكلم الصحابةُ فى الجواهر والأعراض .

فمن مات على طريقهم مات مُؤْمنًا سليمًا من بدْعة ، ومن تعرض لساحل البحر ، وهو لا يحسن السباحة - فالظاهر غرقه .

٢٥٨ - فصل : تتبع اللذائذ

أشدُّ الناس جهلاً منهوم باللذات . واللذاتُ على ضَرْبين : مباحةٌ ، ومحظورة .

فالمباحةُ : لا يكاد يحصل منها شىء إلا بضياع ما هُوَ مُهِمٌّ من الدين ، فإذا حصلت منها حبة قارنها قِنْطار من الهم ، ثم لا تكاد تصفو فى نفسها بل مكدراتها ألوف ، فإذا تصور عدمها بعد انقضائها وبقاء هذه الألوف المكدرة ، صار التصوير مغلصمًا (١) للهوى محزناً للنفس ، فإذا أنفت ، أنفت من الأسف على الدوام المستعبد وعرفت أنها لذة تغر الغُمْر (٢) : هو الرجل قليل التجارب، وتهدم العمر ، وتُديم الأسى .

ومع هذا فالمنهوم كلما عب (٣) من لذة طلب أختها .

وقد عرف جناية الأولى ، وخيانتها ، وهذا مرضُ العَقْلِ ، وداءُ الطبع .

فلا يزالُ هذا كذلك إلى أن يُختطف بالموت ، فيلقى على بِسَاطِ نَدَمٍ لا يُستدرك

فالعجبُ ممن همته هكذا مع قِصَر العمر ، ثم لا يهتم بآخرته التى لُذتها سليمةٌ من شوائب ، منزَّهةٌ عن معائبَ دائمة الأمد باقية ببقاء الأبد .

وإنما يحصل تقريبُ هذه بإبعاد تلك ، وعمران هذا بتخريب تلك .

فواعجبا لعاقل حصيف حسن التدبير فاته النظر فى هذه الأحوال ، وغَفَل عن تمييز بين هذين الأمرين .

وإن كانت اللذة معصيةً انضمّ إلى ما ذكرناه عارُ الدنيا ، والفضيحةُ بين الخلق ، وعقوبة الحدود ، وعقاب الآخرة ، وغضبُ الحق سبحانه .

بالله ، إن المباحات تشغل عن تحصيل الفضائِل ، فذم ذلك لبيان الحزم ، فكيف

---

(١) الغلصمة : رأس الحلقوم .

(٢) الغمر : بضم الغين والميم أو تسكينها : الجاهل الذى لم يجرب الأمور .

(٣) العب : الشرب الكثير .

بالمحرمات التى هى غاية الرذائل ؟ نسأل الله - عزَّ وجَلَّ - يقظةً تحركنا إلى منافعنا ، وتزعجنا عن خوادعنا إنه قَرِيب .

٢٥٩ - فصل : أسباب العصيان

تأملت على الخلق وإذا هم فى حالة عَجِيبة ، يكاد يقطع معها بفساد العقل ؛ وذلك أن الإنسان يسمع المواعظَ ، وتذكر له الآخرة ، فيعلم صدْقَ القائل ، فيبكى وينزعج على تفريطه ، ويعزم على الاستدراك ، ثم يتراخى عملُه بمقتضى ما عزم عليه .

فإذا قيل له : أتشكُّ فيما وُعدت به ، قال : لا ، والله ، فيقال : له فاعمل ، فينوى ذلك ثم يتوقف عن العمل ، وربما مال إلى لذة محرمة ، وهو يعلم النهى عنها .

ومن هذا الجنس تأخرُ الثلاثة الذين خُلِّفُوا ولم يكن لهم عُذْر ، وهم يعلمون قُبْحَ التأخر ، وكذلك كُلُّ عاصٍ ، ومفرط .

فتأملت السبب مع أن الاعتقاد صحيح ، والفعل بطىء ؛ فإذا له ثلاثة أسباب :

أحدُها : رؤيةُ الهوى العاجل ؛ فإن رؤيته تشغل عن الفكر فيما يجنيه .

والثانى : التسويفُ بالتوبة . فلو حضر العقلُ لحذر من آفات التأخير ؛ فربما هجم الموتُ ، ولم تحصل التوبة .

والعجبُ ممن يُجَوِّزُ سلبَ روحه قبل مُضِىِّ ساعة ولا يعمل على الحزم ، غير أن الهوى يُطيل الأمد .

وقد قال صاحبُ الشرع صلى الله عليه وسلم : « **صل صَلاةَ مُوَدِّع** » (١) . وهذا نهاية الدواء لهذا الداء ؛ فإنه من ظن أنه لا يبقى إلى صلاة أخرى ، جدّ واجتهد .

والثالث : رجاءُ الرحمة ، فيُرى العاصى يقول : ربِّى رَحِيمٌ ، وينسى أنه شديد العقاب .

ولو علم أن رحمته ليستْ رِقَّةً ؛ إذ لو كانت كذلك لما ذبح عُصْفُورًا ، ولا آلم طفْلاً ، وعقابه غيرُ مأمونٍ ؛ فإنه شرع قَطْعَ اليد الشرِيفَة بسرقة خَمْسة قَرَارِيطَ لجد وأناب . فنسأل الله - عزَّ وجَلَّ - أنْ يهب لنا حَزْمًا يبت المصالح جَزْمًا .

---

(١) أحمد (٥/٤١٢) وابن ماجه فى الزهد (٤١٧١) عن أبى أيوب ، وقال فى الزوائد : إسناده ضعيف وله شاهد عند الحاكم من حديث سعد بن أبى وقاص (٤/٣٢٦) ، وصححه ووافقه الذهبى .

٢٦٠ – فصل : الحذر من الآفات وخاصة العُجْب

نظرت فيما روى عن رسول الله – ﷺ – أنه لبِسَ يوماً خاتماً ثُمَّ نزعه من يده ، ورمى به ، وكره أن يرى نفسه مزداناً بهذه الحلية ، وقال : «**شغلني نظرى إليكم ونظرى إليه**»[1] .

وتأملت كذلك فى قوله : « **بينا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فى حُلَّته مُرَجِّلاً جُمَّتَهُ خَسَفَ به الأرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فيهَا إلى يَوْمِ القِيَامَة** » [2] . فرأيتُ أنه لا ينبغى لأحد أن يلبس ثوبًا مُعْجبًا، ولا شيئًا من زينة ؛ لأن ذلك يوجب النظر إلى النفس بعين الإعجاب ، والنفس ينبغى أن تكون ذَليلةً للخالق .

وقد كان القدماء من أحبار بنى إسرائيل يمشون على العِصىّ ؛ لئلا يقع منهم بَطَرٌ فى المشى .

ولبست أُمُّ المؤمنين عائشةُ – رضى الله عنها – درْعًا لها فأعجبت به ، فقال له رسولُ الله – ﷺ – : « **إن اللهَ لا يَنْظُرُ إلَيْك في حَالَتك هَذه** » [3] ، ولمّا لبس رسولُ الله – ﷺ – خَميصةً لها أعلامٌ – قال : « **أَلْهَتْنى هَذهَ عَنْ صَلاتى** » [4] . وهذا كله يُوجبُ الإعراضَ عن الزينة ، وما يحرك إلى الفخر ، والزَهْو ، والعُجْب ؛ ولهذا حُرِّم الحرير .

وأقول على أسباب هذا : إن المرقعات التى يظهر فيها المتصوفةُ بالسوارك ، والتلميع ، ربما أوجبت زهو الملابس ، إمّا لحسنها فى ذاتها ، أو لعلمه أنها تنبئ عنه بالزهد والتصوف وكذلك الخاتم فى اليد ، وطول الأكمام ، والنعال الصرارة [5] .

ولا أقولُ : إن هذه الأشياء تحرم ، بل ربما جَلَبَتْ ما يحرم من الزهو ، فينبغى للعاقل أن يتنبه بما قلت فى دفع كل ما يحذر من شره . وقد ركب ابنُ عمرٍ نَجيبًا [6] فأعجبه مَشْيه؛ فنزل ، وقال : يا نافعُ ؛ أَدْخلْه فى البُدْن .

٢٦١ – فصل الإقبال على الله

من أراد اجتماع هَمّه ، وإصلاحَ قلبه فلْيحذَرْ من مخالطة الناس فى هذا الزمان ؛ فإنه قد كان يقع الاجتماع على ما ينفع ذكره ، فصار الاجتماع على ما يَضُر .

---

(١) أحمد (١/ ٣٢٢) ، والنسائى فى الزينة (٨/ ١٩٥) ، والمزدان : المتزين .

(٢) رواه البخارى فى اللباس (٥٧٨٩) ، ومسلم فى اللباس (٢٠٨٨) ، عن أبى هريرة .

(٣) لم أقف عليه .

(٤) رواه البخارى فى الصلاة (٣٧٣) ، ومسلم فى المساجد (٥٥٦) ، والخميصة : ثوب خز أو صوف معلم .

(٥) الصرارة : التى تحدث صوتا يلفت الانتباه .

(٦) النجيب : العتيق السريع من الإبل .

وقد جربتُ على نفسى مرارًا أن أحصرها فى بيت العزلة فتجتمع هى ، ويضاف إلى ذلك النظر فى سيَر السلف ، فأرى العزلةَ حِميْةً ، والنظرَ فى سير القوم دواءً ، واستعمالُ الدواء مع الحمية عن التخليط نافع .

فإذا فسحتُ لنفسى فى مجالسة الناس ولقائهم ، تشتت القلب المجتمع ، ووقع الذهولُ عما كنت أراعيه ، وانتُقِشُ فى القلب ما قد رأته العين ، وفى الضمير ما تسمعه الأذن ، وفى النفس ما تطمع فى تحصيله من الدنيا .

وإذا جمهُور المخالطين أربابُ غفلة ، والطبع بمجالستهم يسرق من طِبَاعهم .

فإذا عُدْتُ أطلب القلب لم أجده ، وأرُوم ذاك الحضور فأفقده ، فيبقى فى غِمار ذلك اللقاء للناس أيّامًا حتى ما يسلوَ الهوى .

وما فائدةُ تعريض البناء للنقض ؟ فإن دوامَ العزلة كالبناء ، والنظر فى سير السلف يرفعه، فإذا وقعت المخالطةُ انتقض ما بنى فى مدة فى لحظة ، وصعب التّلاقِى وضعُفَ القلبُ .

ومن له فهمٌ يعرف أمراضَ القلب، وإعراضه عن صَاحِبه ، وخروج طائره من قَفَصه.

ولا يُؤمَنُ على هذا المريض أن يكون مرضُه هذا سببَ التلف ، ولا على هذا الطائر المحصُور أنْ لا يقعُ فى الشبكة .

وسببُ مرض القلب أنه كان مَحْميا عن التخليط ، مغذيا بالعلم ، وسير السلف ، فخلط فلم يحتمل مزاجه ؛ فوقع المرض ، فالجِدَّ الجِدَّ فإنما هى أيام ، وما نرى مَن يلقَى، ولا من يؤخذ منه ، ولا من تنفع مجالسته ، إلا أن يكون نادرًا ما أعرفه:

مَا فِى الصِّحَابِ أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُهُ   حَــدِيثَ نَجْدٍ وَلَا خِلٌ نُجَــارِيهِ

فالزِمْ خَلْوتك ، وراَعِ ما بقيت النفس ، وإذا قلقَت النفسُ مُشْتَاقةً إلى لقاء الخلق ، فاعْلم أنها بعدُ كدرةَ ، فرضّها ليصير لقاؤهم عندها مكروهًا ، ولو كان عندها شغلٌ بالخالق لما أحبَّت الزحمةَ ؛ كما أن الذى يخلُو بحبيبه لا يؤثر حضورَ غيره ، ولو أنها عَشِقَتْ طريقَ اليَمَنِ لم تلْتفتْ إلى الشام .

٢٦٢ - فصل : الطريق إلى الله

تفكرت فى سبب هداية من يهتدى ، وانتباه مَنْ يتيقظ من رُقَاد غفلته ، فوجدتُ السبب الأكبر اختيارُ الحق - عَزَّ وجَلَّ - لذلك الشخص ، كما قِيل : إذا أَرَادَكَ لأمْرٍ

هَيَّأَكَ لَه . فتارةً تقع اليقظةُ بمجرد فكر يوجبه نظرُ العقل ، فيتلمح الإنسان وجودَ نفسه ؛ فيعلم أن لها صانعًا ، وقد طالبه بحقه ، وشُكْرِ نعمته ، وخوفه عقاب مخالفته ، ولا يكون ذلك بسبب ظاهر .

ومِنْ هذا ما جرى لأهل الكهف : ﴿ **إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [1] وفى التفسير : أن كل واحد منهم ألقىَ فى قلبه يقظة ؛ فقال : لا بُدّ لهذا الخلق من خالق ، فاشتد كربُ بواطنهم مِنْ وقود نَارِ الحذر ؛ فخرجوا إلى الصحراء ، فاجتمعوا عن غير مَوْعِد ، فكل واحد يسأل الآخر : ما الذى أخرجك ؟ فتصادقوا .

ومن الناس من يجعل الخالق - سبحانه وتعالى - لذلك السبب الذى هو الفكر ، والنظر سببًا ظَاهرًا ، إمّا مِنْ موعظة يسمعُها أو يرَاها ؛ فيحرك هذا السبب الظاهر فِكْرة القلب الباطنة .

ثم ينقسم المتيقِّظُون :

فمنهم من يغلبه هواه ، ويقتضيه طبعُه ما يشتهى ، مما قد اعتاده ، فيعود القَهْقَرَى ولا ينفعه ما حصل له من الانتباه ؛ فانتباه مثل هذا زيادةٌ فى الحجة عليه .

ومنهم مَنْ هو واقف فى مقام المجاهدة بين صَفّين : العقلِ الآمر بالتقوى ، والهوى المتقاضى بالشهوات .

فمنهم مَنْ يُغْلَبُ بعدَ المجاهداتِ الطويلة ، فيعود إلى الشر ، ويُخْتَمُ له به .

ومنهم من يَغلب تارة ويُغلَب أخرى فجراحاتُه لا فى مَقْتَل .

ومنهم من يَقْهَر عدوه فيسجنه فى حَبْس ، فلا يبقى للعدو من الحِيلة إلا الوساوس .

ومن الصَّفْوَة أقوامٌ مُذ تَيَقَّظُوا ما ناموا ، ومُذْ سلكوا ما وقفوا ، فهمُّهُم صعودٌ وترقٍّ ، كلما عبروا مَقَامًا إلى مقام رأَوْا نقص ما كانوا فيه ؛ فاستغفروا .

ومنهم من يرقى عن الاحتياج إلى مجاهدة : إمّا لِخسَّة ما يدعو إليه الطبعُ عنده ، ولا وقع له ، وإمَّا لشرف مطلوبه فلا يلتفت إلى عائق عنه .

واعلم أن الطريق الموصلة إلى الحقِّ سبحانه ليست مما يقطع بالأقْدَام ؛ وإنما يقطع بالقلوب.

والشهواتُ العاجلةُ قُطّاعُ الطريقِ ، والسبيلُ كالليل المُدْلَهِم [2]

غير أن عينَ الموفَّقِ بَصَرُ فَرَسٍ ، لأنه يرى فى الظلمةِ كما يرى فى الضَّوْءِ ، والصدْقُ

---

(١) سورة الكهف ، آية : ١٤ .

(٢) المدلهم المظلم .

فى الطلب منار أين وُجد يدلُّ على الجادّة ، وإنما يتعثر من لم يُخلصُ ، وإنما يمتنع الإخلاصُ ممن لا يُرَاد ، فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله .

٢٦٣ - فصل : حقيقة الإنسان

عجبت لمن يعجب بصورته ، ويختالُ فى مِشْيته ، وينسى مبدأ أمره .

إنما أوله : لُقْمة ضُمَّت إليها جَرْعَةُ ماء ، فإن شئت كُسَيْرةُ خُبْز معها ثمراتٌ ، وقطعةٌ من لحم ، ومَذْقَةٌ من لبن ، وجرعةٌ من ماء ، ونحو ذلك طبخته الكَبِدُ ، فأخرجت منه قَطَراتِ مَنِيٍّ ، فاستقر فى الأُنْثَيَيْنِ ، فحركتّها الشهوةُ ، فصبت فى بَطْن الأمّ مدة حتى تكاملت صورتها ، فخرجت طِفْلاً ، تتقلب في خَرْقِ البوْل .

وأما آخره : فإنه يلقى فى التراب ؛ فيأكله الدود ، ويصير رُفَاتًا تسفيه السَّوَافى [(١)] ، وكم يخرج ترابُ بدنه مِنْ مكان إلى مكان آخر ، ويقلّبُ فى أحوالٍ إلى أن يعود فيجمع هذا خبر البدن .

إنما الروحُ عليها العملُ ، فإن تجوهرت بالأدب ، وتقومت بالعلم ، وعرفت الصانع ، وقامت بحقه ، فما يضرُّها نقضُ المركب .

وإن هى بقيت على صِفَتِها من الجهالة شَابَهتِ الطين ، بل صارت إلى أخَسِّ حالة منه .

٢٦٤ - فصل : فضول العيش

هيهاتَ أن يجتمع الهمُّ مع التلبس بأمور الدنيا ، خُصُوصًا بالشابِّ الفقيرِ الذى قد أَلِفَ الفَقْر ؛ فإنه إذا تزوج ، وليس له شىء من الدنيا - اهتم بالكَسْب ، أو بالطلب من الناس ؛ فتشتت همته ، وجاءه الأوْلاد ، فزاد الأمر عليه ، ولا يزال يرخِّصُ لنفسه فيما يحصل إلى أن يتلبس بالحرام ، ومن يفكر فَهِمَّتُهُ ما يأكل ، وما يأكل أهله ، وما ترضى به الزوجةُ من النفقة والكُسْوة ؛ وليس له ذلك ، فأىُّ قلب يحضر له ؟ وأىُّ هم يجتمع؟ هيهَات !

والله لا يجتمع الهمُّ والعينُ تنظر إلى الناس ، والسمعُ يسمَعُ حديثَهُم ، واللسانُ يخاطِبُهم ، والقلبُ متوزَّعٌ فى تحصِيل ما لا بُدّ منه .

فإن قال قائل : فكيف أصنع ! قلت : إن وجدت ما يَكْفِيك من الدنيا ، أو معيشة

---

(١) تسفيه السوافى : تذروه الرياح .

ماتكفيك - فاقنع بها ، وانفرد فى خَلْوة عن الخلق مهما قدرْتَ وإن تزوجْت فبفقيرة تَقْنَعُ باليَسِير ، وتصبرُ أَنْتَ على صُورتِها وَفَقْرِها ، ولا تترك نفسك تطمحُ إلى من تحتاجَ إلى فضل نفقته .

فإن رُزِقْت امرأةً صالحة جمعت هَمَّكَ فذاك ، وإن لم تقدِر ، فمعالجة الصبر أصلحُ لك من المخاطرة .

وإيّاك والمستحسنات ، فإن صاحبهن إذا سلم كعابد صنم ، وإذا حصل بيدك شىء فأنفق بعضه وادخر لغدك ؛ فبحفظ الباقى تحفظ شتاتَ قلبك .

واحذر كل الحذَرِ من هذا الزمان وأهله ؛ فما بقى مُواسٍ ولا مؤثر ، ولا من يهتم لسد خُلَّة [1] ، ولا مَنْ لَوْ سُئِل أعطى إلا أن يعطى نزرا [2] بتَضَجُّر ومنة يستعبده بها المعطى بقية العُمُرِ ، ويستثقله كلُّ مَنْ رآه أو يستدعى بها خِدْمته له والتردد إليه .

وإنما كان فى الزمان مثلُ أَبِى عَمْرِو بْنِ نُجَيْد سمع أَبَا عُثْمَانَ الْمَغرِبِىّ يقولُ يومًا على المنبر : علىّ ألفُ دينار ، وقد ضاق صَدْرِى . فمضى أبو عمرو إليه فى الليل بألْفِ دينارٍ ، وقال : اقضِ دَيْنَك ، فلما عاد وصعد المِنْبَر ، قال : نشكر الله لأبى عمرٍو ؛ فإنه أراح قلبى ، وقضى دينى .

فقام أَبُو عَمْرو فقال : أيها الشيخ ، ذلك المال كان لوالدتى ، وقد شقّ عليها ما فعلت، فإن رأيت أن تتقدم بردّه فافعل .

فلما كان فى الليل عاد إليه ، وقال له : لماذا شهرتنى بين الناس ؟ فأنا ما فعلتُ ذلك لأجل الخلق ، فخذْه ولا تذكرنى :

مَاتُوا وَغُيِّبَ فِى التُّرَابِ شُخُوصُهُمْ وَالنَّشْــرُ مِسْــكٌ وَالْعِظَامُ رَمِيمُ

فالبعَدَ البعدَ عن من همته الدنيا ؛ فإنّ زادهم اليوم إلى أن يحصل أقرب منه إلى أن يؤثر .

ولا تكاد ترى إلا عدوا فى الباطن ، صديقًا فى الظاهر شامتًا على الضر ، حَسُودًا على نعمته ؛ فاشتر العُزْلَةَ بما بيعت ، فإن من له قلب إذا مشى فى الأسواق ، وعاد إلى منزلِه تغير قلبُه ، فكيف إن عرقلهُ بالميل إلى أسباب الدنيا ؟ واجتهد فى جمع الهم بالبعد عن الخلق ، ليخلو القلبُ بالتفكر فى المآب ، وتتلمح عين البصيرة خِيمَ الرحيل .

---

(١) الخلة . الفقر والحاجة (٢) سبق تعريفها

٢٦٥ - فصل : الوحدة خير من جليس السوء

كان المريدُ فى بداية الزمان إذا أظلم قلبُه ، أو مرض لُبُّه - قصد زيارةَ بعضِ الصالحين؛ فانجلى ما أظلم منها .

أما اليوم فمتى حصلت ذَرَّةٌ من الصِّدْقِ لمريد فردته فى بيت عُزْلة ، ووجد نَسيمًا من رَوْح العافية ، ونُورًا فى باطن قلبه ، وكاد همُّه يجتمع ، وشتاته ينتظم ، فخرج فلَقِىَ مَنْ يومئْ إليه بعلم أو زُهْد - رأى عند البطالين وهو يجرى معهم مسلَكَ الهَذَيانِ الذى لا ينفع، ورأى صورته صورة منمس[1] ، وأهون ما عليه تضييعُ الأوقات فى الحديث الفارغ .

فما يرجع المريد عن ذلك الوطن إلا وقد اكتسب ظُلْمة فى القلب ، وشتاتًا فى العزم ، وغفلةً عن ذكر الآخرة ، فيعود مريض القلب ، يتعب فى معالجته أيَّامًا كثيرة حتى يعودَ إلى ما كان فيه ، وربما لم يعد ؛ لأن المريد فيه ضَعْف وربما فتن ، فإذا رأى شيخًا قد جرَّب وعرف ، ثم يُؤْثِرُ البطالةَ ، لم يأمن أن يتبعه الطبع .

فالأولى للمريد اليومَ ألا يزورَ إلا المقابر ، ولا يفاوض إلا الكتب ، التى قد حوت محاسنَ القوم ، وليستعِنْ بالله تعالى على التوفيق لمراضيه؛ فإنه إن أراده هيأه لما يُرْضيه .

٢٦٦ - فصل : أولياء الله

تأملت الذين يختارهم الحقُّ - عَزَّ وجَلَّ - لِولايته والقرب منه ، فقد سمعنا أوصافَهُم، ومن نَظْنُه منهم ممن رأيناه فوجدتُه - سبحانه - لا يختارُ إلا شخصًا كامل الصورة ، لا عَيْبَ فى صُورته ، ولا نقصَ فى خِلْقته . فتراه حسنَ الوجْه ، مُعْتدل القامةِ، سَلِيمٌ من آفة فى بدنه .

ثم يكون كَامِلاً فى باطنه ، سَخِيا ، جَوَّادًا ، عاقلاً غير خَبٍّ[2] ، ولا خادع ، ولا حقود ولا حسود ، ولا فيه عَيْبٌ من عيوب الباطن .

فذاك الذى يُرَبِّيه من صغره ، فتراه فى الطفولة مُعتزِلاً عن الصبيان ، كأنه فى الصِّبَا شيخٌ ينبو[3] عن الرذائل ، ويفزع من النقائص ، ثم لا تزال شجرةُ هِمته تنمو حتى يُرَى ثمرُها مهتدلاً[4] على أغصان الشباب ، فهو حريصٌ على العلم ، مُنْكَمِشٌ على العمل ، محافظٌ للزمان ، مراعٍ للأوقات ، ساعٍ فى طلب الفضائل ، خائفٌ من النقائص .

---

(١) المنمّس : الذى يلبس الحق بالباطل .
(٢) خب : بكسر الخاء : المخادع أو الخداع .
(٣) ينبو : يبعد .
(٤) مهتدلا : متدليا .

ولو رأيتَ التوفيقَ والإلهام الربانى يحوطه لرأيت- كيف يأخذُ بيده إن عثر ، ويمنعه من الخطأ إنْ هَمّ ، ويستخدمه فى الفضائل ، ويستر عمله عنه حتى لا يراه منه .

ثم ينقسمُ هؤلاء :

فمنهم من تَفَقَّهَ على قدم الزهد ، والتعبد .

ومنهم من تفقَّه على العلم واتّباع السنة .

ويندر منهم مَنْ يَجمع له الكُلَّ ، ويرقيه إلى مزاحمة الكاملين .

وعلامةُ إثبات الكمال فى العلم والعمل ، الإقبال بالكلية على معاملة الحق ومحبته ، واستيعاب الفضائل كُلّها وسناء الهمة فى نشدان الكمال الممكن .

فلو تَصَوَّرتُ النبوة أن تُكْتسب لدخلتُ فى كسبه ، ومراتب هذا الاصطفاء لا يحتملها الوصفُ ؛ لكونه دُرَّةَ الوجود ، التى لا تكاد تنعقد فى الصَّدَف [1] إلا فى كل وَدُود . نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - توفيقَنا لمراضيه وقُرْبه ، ونعوذ به من طرده وإبعاده .

٢٦٧ - فصل : طبائع الدهماء

أكثر الخلائق على طبع ردىء ، لا تقوّمه الرياضة ، لا يدرُونَ لماذا خلقوا ، ولا المراد منهم ، وغاية هِمتُهم حصولُ بُغْيتهم من أغراضِهم ، ولا يسألون عند نيلها ما اجتلبت لهم من ذم .

يبذلون العِرْض دون الغرَض ، ويُؤْثِرُون لذة ساعة ، وإن اجتلبت زمان مرض .

يلبسون عند التجارات ثياب مُخْتال ، فى شعار مُخْتال ، ويُلَبّسون فى المعاملات ، ويسترون الحال إن كسبوا فشُبْهة ، وإن أكلوا فشهوة ، ينامون الليل ، وإن كانُوا نيامًا بالنهار فى المعنى، ولا نوم إلا بهذه الصورة .

فإذا أصبحُوا سَعَوْا فى تحصيل شهواتِهِم بحرصِ خِنْزير ، وتَبَصْبُصِ [2] كَلْبٍ ، وافتراسِ أسدٍ ، وغارة ذِئْب ، ورَوَغَانِ ثَعْلَب .

ويتأسفون عند الموت على فقد الهوى ، لا على عدم التقوى : ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [3] كيف يفلحُ من يؤثر ما يراه بعينه على ما يبصره بعقله ، وما يدركه ببصره ،

---

(١) الصدف : غشاء الدرة .
(٢) بصبص الكلب : حرك ذنبه.
(٣) سورة النجم ، آية : ٣٠ .

أعز عنده مما يراه ببصيرته ؟ تالله لو فتحُوا أسماعَهمَ لسمعوا هاتفَ الرحيل فى زمان الإقامة يصيحُ فى عرَصَاتِ الدنيا : تَلَمَّحُوا تَقْويضَ خيام الأوائل . لكن غمرهم سُكْرُ الجهالة ؛ فلم يفيقُوا إلا بضرب الحدِّ .

٢٦٨ - فصل : لا تقبل صدقات الظلمة

رأيت بعض المتقدمين سُئِل عن من يكتسب حَلالاً ، وحَرامًا من السلاطين ، والأمراء ثم يَبْنِى المساجِد ، والأرْبِطَةَ (١) ، هل له فيها ثوابٌ ؟ فأفتى بما يُوجِبُ طِيبَ قلب المنفقِ، وذكر أن له فى إنفاق ما لا يملكه نوع حسنة ؛ لأنه لا يعرف أعيان المغصُوبين فيردها عليهم .

فقلتُ : واعجبا مِنْ المتصدين للفتوى الذين لا يعرفون أصول الشريعة ! ينبغى أن يُنْظر فى حال هذا المنفقِ أوَّلاً ، فإن كان سُلْطانًا فما يخرج من بيت المال قد عُرِفت وُجُوهُ مصارفه، فكيف يمنع مستحقه ويشغله بما لا يفيد من بناء مدرسة ورباط ؟

وإن كان المنفقُ من الأمراء ونواب السلاطين ، فإنه يجب أن يرد ما يجبُ ردُّه إلى بيت المال ، وليس له فيه إلا ما فرض من إيجاب يليق به ، فإن تصرف فى غير ذلك كان مَصْروفًا فيما ليس له ، ولو أُذن له كان الإذنُ جائزًا .

وإن كان قد أقطع ما لا يقاوم عمله كان ما يأخذه فاضِلاً من أموال المسلمين لا حق له فيه ، وعلى من أطلقه فى ذلك إثم أيضًا ؛ هذا إذا سلم المالُ ، وكان من حِلّه .

فأما إذا كان حرامًا أو غَصْبًا فكل تصرف فيه حرامٌ ، والواجبُ رده على مَنْ أُخِذ منه أو على ورثتهم .

فإن لم يعرف طريقَ الردِّ - كان فى بيتِ مال المسلمين ، يُصْرَفُ فى مصالحهم ، أو يُصْرف فى الصدقة ، ولم يحظَ آخذُه بغير الإثم .

أنبانا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْبَنَّا ، قال : أخبرنا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِىٍّ الزَّجَّاجِىُّ ، قال : أخبرنا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الأَسَدِىِّ ، قال : أَخْبَرَنَا عَلِىُّ بْنُ الْحَسَنِ ، قال : حدثنا أَبُو دَاوُدَ قال : حدثنا محمدُ بنُ عوف الطَّائِىّ قال : حدثنا أَبُو الْمُغِيَرةِ ، قال : حدثنا الأَوْزَاعِىُّ قال : حدَّثنى مُوسَى بْنُ سُلَيْمَانَ قال : سمعتُ القَاسِمَ بْنَ مُخَيْمَرَةَ يقولُ : قال

(١) الأربطة : جمع رباط وهى الأماكن التى تجتمع فيها الصوفية .

رسولُ الله - ﷺ - : « مَن اكتَسَبَ مَالاً مِنْ مَأثَمٍ ، فَوصَلَ رَحِمًا ، أَوْ تَصَدَّقَ به ، أَوْ أَنْفَقَهُ فِى سَبِيلِ الله ، جُمِعَ ذَلِكَ جَمِيعًا فَقُذِفَ بِهِ فِى جَهَنَّمَ » [1] .

فأمَّا إذا كان البانى تاجرًا مُكْتسبًا للحلال ، فبنى مسجدًا أو وَقَّفَ وَقْفًا للمتفقهة - فهذا مما يُثابُ عليه ، ويبعد من يكتسب الحلال حتى يفضل عنه هذا المقدار ، أو يُخْرِجُ الزكاة مُسْتقصاة ، ثم يَطيبُ قلبُه بمثل هذا البناء والنفقة إذ مثلُ هذا البنيان لا يجوز أن يكون من زكاة ؛ وأين سلامةُ النيَّة وخلوصُ المقصد ؟

ثم إنَّ بناء المدارس اليوم مخاطرةٌ ، إذ قد انعكف أكثرُ المتفقهة على علْم الجدَل ، وأعرضُوا عن علوم الشريعة ، وتركوا الترَدُّدَ فى المساجد ، واقتنعوا بالمدارس والألقاب .

وأما بناءُ الأربطة فليس بشىء أصْلاً ؛ لأن جُمهورَ المتصوفة جلوسٌ على بِسَاط الجهل والكسل ، ثم يدّعى مُدَّعيهم المحبةَ والقربَ ، ويكره التشاغُلَ بالعلم ، وقد تركوا سيرَةَ سَرِىّ وعادات الجُنَيْد ، واقتنعوا بأداء الفرائض ، ورضَوْا بالمرقَّعات ؛ فلا تحسُنُ إعانتهم على بطالتهم وراحتهم ، ولا ثواب فى ذلك .

٢٦٩ - فصل : الإخلاص لله وحده

عجبتُ لمن يتصنع للناس بالزهد يرجو بذلك قُرْبَه من قلوبهم ، وينسى أن قلوبهم بيد مَنْ يعمل له ، فإن رضى عمله ، ورآه خالِصًا لفت القلوبَ إليه ، وإن لم يره خَالِصًا أعرض بها عنه .

ومتى نظر العاملُ إلى التفات القلُوب إليه فقد زاحم الشرك نيته ؛ لأنه ينبغى أن يقنع بنظر من يعملُ له ، ومنْ ضرورة الإخلاص ألا يقصد التفات القلوب إليه ، فذاك يحصل لا بقصده بل بكراهته لذلك .

وليعلم الإنسان أن أعماله كلها يعلمها الخلق جملة ، وإن لم يطلعوا عليها ، فالقلوب تشهد للصالح بالصَّلاح ، وإن لم يشاهد منه ذلك .

فأمَّا من يقصد رؤية الخلق بعمله ، فقد مضى العمل ضائعًا ؛ لأنه غير مقبول عند الخالق ولا عند الخلْق ؛ لأن قلوبهم قد أُلْفِتَتْ عنه . فقد ضاع العملُ ، وذهب العمرُ .

ولقد أخبرنا ابنُ الحُصَيْنِ قال : أخبرنا ابنُ المذْهَب ، قال : أخبرنا أحمدُ بنُ جَعْفَرِ

---

(١) رواه أبو داود فى المراسيل (١٣٣) ، والشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص ١٤٦) ، وقال : فى إسناده وضاع .

قال : حدثنا عبدُ الله بنُ أحمد ، قال : حدثنى أبى قال : حدثنا حسنُ بنُ موسَى قال : حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ قال : حدثنا دَرَّاجٌ عن أبى الهَيْثَم عَنْ أبى سَعيد الخُدْرِىِّ ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِى صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلا كُوَّةٌ لَخَرَجَ للنَّاسِ كَائنًا مَا كَانَ » (١) . فليتق اللهَ العبدُ ، وليقصِدْ من ينفع قصدُه ، ولا يتشاغل بمدح مَنْ عن قليل يبتلى هو وهم .

٢٧٠ - فصل : علماء سوء

قَدِمَ علينا بعضُ فقهاءَ من بلاد الأعاجم ، وكان قاضيًا ببلده ، فرأيت على دابته الذهبَ ، ومعه أتوارُ (٢) الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات .

فقلت : أىُّ شىءٍ أفاد هذا العلم ؟ بل والله قد كثرت عليه الحجَجُ ، وأكبر الأسباب قلةُ علم هؤلاء بسيرة السلف ، وما كان عليه رسول الله - ﷺ - أنهم يجهلون الجملةَ ، ويتشاغلون بعلم الخلاف ، ويقصدون التقدم بقشور المعرفة وليس يعنيهم سماعَ حديث ، ولا نظرًا فى سيَر السلف ، ويخالطُون السلاطين ؛ فيحتاجون إلى التزىّ بزيِّهم ، وربما خطر لهم أن هذا قريبٌ ، وإن لم يخطر لهم فالهوى غالب بلا صادٍّ ، وربما خطر لهم أن يقولوا : هذا يُحتمل ، ويُغفر فى جانب تشاغُلنا بالعلم ، ثم يرون العلماءَ يكرمونهم لنيل شىءٍ من دُنياهم ، ولا ينكرون عليهم .

ولقد رأيتُ مِنَ الذين ينتسبون إلى العلم مَنْ يستصحب المرْدَانَ (٣) ، ويشترى المماليكَ ، وما كان يفعل هذا إلا من قد يَئِس من الآخرة .

ورأيت من قد بلغ الثمانينَ من العلماء ، وهو على هذه الحالة .

فاللهَ اللهَ يا من يريدُ حِفْظَ دينه ، ويوقن بالآخرة ، إيَّاك والتأويلات الفاسدة ، والأهواءَ الغالبة ، فإنك إن ترخَّصْتَ بالدخول فى بَعْضِها جرّك الأمرُ إلى الباقى ، ولم تقدرْ على الخُرُوجِ لموضع إلف الهوى ، فَاقْبل نُصْحِى ، وَاقْنع بالكسْرَة ، وابعد عن أرباب الدنيا ، فإذا ضجّ الهوى فدعْه لهذا ، وربما قال لك : فالأمر الفلانى قريبٌ ، فلا تفعل ، فإنه يدعو إلى غيره ، ويصعب التلاقى .

فالصبرَ الصبرَ على شَظَفِ (٤) العيش ، والبعدَ عن أرباب الهوى؛ فما يَتِمُّ دينٌ إلا

---

(١) رواه أحمد (٣/٢٨) ، وأبو يعلى (١٣٧٨) عن أبى سعيد وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٢٥) إسناده حسن .

(٢) أتوار : جمع تور وهو إناء يشرب فيه .

(٣) سبق تعريفها .

(٤) شظف : خشونة العيش .

بذلك. ومتى وقع الترخُّصُ حمل إلى غيره ، كالشاطئ إلى اللُّجة، وإنما هو طعامٌ دون طعام ، ولباسٌ دُونَ لباس ، ووجهٌ أصبَحُ مِنْ وجه ، وإنما هى أيام يسيرة . .

٢٧١ - فصل : سلِّم تسلم

مَنْ تفكَّر فى عظمة الله - عَزَّ وجَلَّ - طاش عقلُه ؛ لأنه يحتاج أن يثبت موجودًا لا أَوَّلَ لوجوده ، وهذا شىء لا يعرفه الحسُّ ، وإنما يقر به العقلُ ضرورةً . وهو متحيرٌ بعد الإقرار . إذ يرى مِنْ أفعاله ما يدل على وجوده فلا يَخْفَى وجودُه ، ثم تجرى فى أقداره أمورٌ لولا ثبوتُ الدَليل على وجوده لأَوْجبت الجحد ، فإنه يفرقَ البحرَ لبنى إسْرَائيل ، وذلك شىءٌ لا يقدر عليه سوى الخالق ، ويُصَيِّرُ العَصَا حيةً ، ثم يُعيدها عَصًا ، وتلقف ما صنعوا ، ولا يزيدُ فيها شىءٌ ، فهل بعد هذا بيان ! فإذا آمنت السحرةُ تركهم مع فِرْعَوْنَ يَصلُبهم ولا يمنع .

والأنبياءُ يُبْتَلَوْنَ بالجوع والقتل ، وزَكَرِيَّا يُنْشَرُ ، ويَحْيَى تقتله زانيةٌ . ونبينا - ﷺ - يقول كُلَّ عام : « **مَنْ يُؤْوِينِى مَن يَنْصُرُنِى** »[1] ، فيكاد الجاهلُ بوجود الخالق يقول : لو كان موجودًا لنصر أولياءه .

فينبغى للعاقل الذى قد ثبت عنده وجوده بالأدلة الظاهرة الجليّة أن لا يمكِّنَ عقله من الاعتراض عليه فى أفعاله ، ولا يطلب لها عِلّة ، إذ قد ثبت أنه مالكٌ وحكيمٌ .

فإذا خَفِىَ علينا وجهُ الحكْمة فى فعله نسبنا ذلك العجز إلى فُهومنا ؛ وكيف لا وقد عجز موسى - عليه السلامَ - أن يعرف حِكْمةَ خرْقِ السفينة وقَتْل الغلام ! فلمّا بان له حِكْمة ذلك الفساد فى الظاهر أقرَّ .

فلو قد بانت الحكمةُ فى أفعال الخالق ما جحد العقلُ جَحْدَ مُوسَى يوم الخَضِر .

فمتى رأيت العقل يقولُ : لِمَ ؟ فأخرسه ، بأن تقول له : يا عاجزُ ، أنت لا تعرف حقيقةَ نفسك ، فمالك والاعتراض على المالك ؟ وربما قال العقل : أىُّ فائدة فى الابتلاء، وَهو قادر أن يُثيب ولا بلاء ؟ وأىّ غرض فى تعذيب أهل النار ، وليس ثَمَّ تشف ؟ فقل له : حكمته فوق مَرْتبتك ، فسلّم لما لا تعلم ؛ فإن أول من اعترض بعقله إبْليسُ ، فرأى فَضْلَ النار على الطين فأعرض عن السجود .

وقد رأينا خلقًا كثيرًا ، وسمعنا عنهم أنهم يقدَحُون فى الحكْمة ؛ لأنهم يحكِّمُون العقول على مقتضاها ، ويَنْسَوْن أن حِكْمة الخالق وراءَ العقول .

---

(١) سبق تخريجه .

فإيّاك أن تفسح لعقلك فى تعليلٍ ، أو أن تطلبَ له جوابَ اعتراضٍ ، وقُلْ له : سَلِّمْ تَسْلَم ؛ فإنك لا تدرى غَوْرَ البحر إلا وقد أدْركك الغرقُ قبل ذلك .

هذا أصلٌ عَظِيمٌ ، متى فات الآدمى أخرجه الاعتراضُ إلى الكفر .

٢٧٢ - فصل : الاعتبار بالنفس

العجبُ ممن يقول : أخرج إلى المقابر ، فأعتبر بأهل البِلَى . ولو فَطِنَ علم أنه مقبرةٌ، يُغْنيه الاعتبارُ بما فيها عن غيرها ، خصوصًا من قد أَوْغَلَ فى السنِّ ، فإن شهوتَه ضَعُفَتْ، وقُوَاه قلّت ، والحواسُّ كَلَّتْ ، والنشاط فَتر ، والشعرُ ابيض ، فليعتبر بما فَقَد، وليستغنِ عن ذكر من فقد ، فقد استغنى بما عنده عن التطلع إلى غيره .

٢٧٣ - فصل : يقظة العاقل

متى تكامل العقلُ فُقدت لذةُ الدنيا فتضاءل الجسمُ ، وقوى السقُم ، واشتد الحزنُ ؛ لأن العقل كلما تلمح العواقبَ أعرض عن الدنيا ، والتفتَ إلى ما تلمحَ ، ولا لذة عنده بشىء من العاجل .

وإنما يلتذ أهلُ الغفلة عن الآخرة ، ولا غفلةَ لكامل العقل ، ولهذا لا يقدرُ على مخالطة الخلق ؛ لأنهم كأنهم من غير جنسه ؛ كما قال الشاعر :

مَا فِى الدِّيَارِ أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُهُ ... حَـــدِيثَ نَجْدٍ وَلَا خِلٌّ نُجَارِيهِ

٢٧٤ - فصل : مزاعم الطبائعيين

ادعى الطبائعيون أن مادة الموجوداتِ الماءُ والتراب ، والنار ، والهواء ، فإذا كان فى القيامة أذهب الأصول ، ثم أعاد الله الحيوان ليعلم أنها كانت بالقدرة لا عن تأثير الكلِّيات .

ومن قَدَح فى البعْث قد بالغ فى القدح [1] فى الحِكْمة .

ومن قال : الرُّوحُ عَرَضٌ ، فقد جحد البعثَ ؛ لأن العَرَضَ لا يبقى ، والأجساد تصير ترابًا ، فإن وُجد شىء فهو ابتداءُ خلق .

كلا ، واللهُ بل يُعِيدُ النفس بعيْنها روحا وجسداً بدليل إعادة مذكوراتها : ﴿ قَالَ قَائِلٌ

(١) القدح : الطعن .

﴿ مِنهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِين ﴾ [1] وعزته أن لطفَهُ فى البداية دليل علىَ النهاية حنَّنَ الوالدين ، وأجْرَى اللبن فى الثدْى ، وأنشأ الأطعمة ، وأطْلع العقل على العواقب ، أفيحُسُن أن يُقال بعد هذا التدبير ، إنه يهمل العالم بعد الموت فلا يبعث أحدا ؟ أترى مَنْ أحب أن يُعرَف فأنشأ الخلق ، وقال : « كُنْتُ كَنْزًا لا أُعْرَفُ فأحببت أَنْ أُعْرَفَ » [2] يُؤْثِر أَنْ يعدمهم فيجهل قدره ؟ سبحان مَنْ أعْمى أكثر القلوب عن معرفته .

٢٧٥ - فصل : من سلّم سلم ومن اعترض هلك

سُبْحان مَنْ ظهر لخلقه حتى لم يبق خفاءٌ ، ثم خَفِيَ حتى كانه لا ظُهورَ ، أيُّ ظُهُورٍ أجلى من هذه المصنوعات التى تنطق كلها بأنّ لى صانعًا صنعنى ، ورتبنى على قانون الحكْمة ، خصوصًا هذا الآدمى الذى أنشاه من قَطْرة ، وبناه على أعجب فِطْرة ، ورزقه الفَهم والذهن واليقظة ، والعلم ، وبسط له المهاد ، وأجرى له الماء والريح ، وأنْبت له الزرع ، ورفع له من فوقه السماءَ؛ فأوقد له مِصْباح الشمس بالنهار ، وجاء بالظُّلْمة ليسْكُن ، إلى غير ذلك ، مما لا يخفى .

وكله ينطق بصوت فَصِيحٍ يدل على خالقه ، وقد تجلّى الخالقُ - سبحانه - بهذه الأفعال فلا خفاء .

ثم بعث الرسل فقراء من الدنيا ضِعَافَ الأبدان ، فَقَهر بهم الجبابرةَ ، وأظهر على أيدِيهم من المعجزَات ما لا يدخل تحتَ مَقْدُور بشر ، وكل ذلك ينطق وقد تجلى سبحانه بذلك .

ثم يأتى مُوسَى - عليه السلام - إلى البحر فينفرق ؛ فلا يبقى شَك فى أن الخالق فعل هذا .

ويكلم عيسَى - عليه السلام - الميتَ فيقوم .

ويبعثُ طيرًا أبابيلَ تحفظ بيته ، فيهلك قاصدِيه .

وهذا أمرٌ يطول ذكره كله يدل على أن تجلى الخالق سبحانه بغير خفاء .

فإذا ثبت عند العقلاء ذلك من غير ارتيابٍ ولا شك ، جاءت أشياءُ كأنها تستر الظاهرَ على ما سبق من تسليط الأعداء على الأولياء ، وإذا ثبت التجلّى بأدلة لا تحتمل التأْويل ،

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/١٧٣) : قال ابن تيمية : ليس هذا من كلام النبى ﷺ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشى وابن حجر والسيوطى وغيرهم .

(٢) سورة الصافات ، آية : ٥١ .

علمت أن لهذا الخفاء سرًّا لا نعلمه ، يفترض على العقل فيه التسليمُ للحكيم فمن سلَّم سَلِم، ومن اعترض هلك .

٢٧٦ - فصل : التدين الفاسد

قد يدَّعى أهلُ مذهب الاجتهاد فى طلب الصواب وأكثرهم لا يقصد إلا الحق ، فترى الراهبَ يتعبد ويتجوَّع ، واليهوديَّ يُذَلّ ، ويؤدى الجزية ، وصاحبَ كُلّ مذهب يبالغ فيه ويحتمل الضيْمَ (١) ، والأذى ؛ طلبًا للهدى ، وتحصيل الأجر فى اعتقاده ، ومع هذا فيقطع العقل بضلال الأكثرين .

وهذا قد يُشْكِلُ ، وإنما كشفُه أنه ينبغى أن يطلب الهُدَى بأسبابه ، ويستعمل الاجتهاد بالإبانة .

فأمَّا من فاتتْهُ الأسبابُ أو فقد بعضَ الآلات ، فلا يُقال له مجتهد .

فاليهودُ والنصارَى بين عالم قد عرف صدْقَ نبينا - ﷺ - لكنه يجحد إبقاءً لرئاسته فهذا مُعَانِد . وبين مقلِّد لا ينظر بعقله ، فهذا مُهْمِلٌ ؛ فهو يتعبد مع إهمال الأصْل ، وذاك لا ينفع ، وبين ناظر منهم لا ينظر حَقَّ النظرِ ، فيقول : فى التوراة أن دَيننَا لا يُنْسَخُ ، ونسخ الشرائع لاختلاف الأزمنة حق .

ولكنه يقول : النسخ بداء (٢) ولا ينظر فى الفرق بينهما ، فينبغى أن ينظر حق النظر.

ومن هذا الجنس تعبُّدُ الخوارج مع اقتناعهم بعلمهم القاصِرِ ، وهو قولُهم : لا حُكْمَ إلا لله ؛ ولم يفهموا أن التحكيم من حكم الله ، فجعلوا قتال علىٍ - رضى الله عنه - وقتلَه مَبْنيا على ظنهم الفاسد .

ولما نهَبَ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ المدينة وقتل الخلق ، قال : إن دخلت النار بعد هذا إننى لشقىٌّ، فظن بجهله أنهم لما خالفوا بيعة يَزِيدَ يجوزُ استباحتُهم وقتلُهم .

فالويلُ لعامِّى قليلِ العلم لا يتهم نفسَهُ فى واقعة ، ولا يذاكر مَنْ هو أعلم منه ، بل يقطع بظنه ويقدم .

وهذا أصلٌ ينبغى تأملُه ؛ فقد هلك فى إهماله خلقٌ لا تُحْصَى . وقد رأينا خلقًا من العوام إذا وقع لهم واقعة لم يقبلوا فتوى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ (٣) .

---

(١) الضيم : الظلم .   (٢) البداء : الظهور .   (٣) سورة الغاشية ، آية :٢ - ٤ .

٢٧٧ - فصل : قوام الأنفس

للنفس ذخائرُ فى البدن : منها الدم ، والمنى ، وأشياء تتقوى بها ، فإذا فقدت الذخائر ، ولم يبق منها شىءٌ ذهبت .

ومن ذخائرها : التقوِّى بالمال ، والجاه ، وما يوجب الفرح ، فإذا فقدت ذلك وكانت عزيزةً ذات أنفة أحرجت ، وقد يهجم عليها الخوفُ فلا تجد ذخيرةً من الرجاء يقاومُه فتذهب ، ويغلب عليها الفرحُ فلا تجد من الحزن ما يقاومه فتذهب .

فاجتهد فى حفظ ذخائرها ، وخصوصًا الشيخ ؛ فإنه ينبغى له ألا يفرح بإخراج الدم، ولا بإخراج المنى ، وإن وَجَدَ شَبَقًا [1] ، إلا أن يكون الشبقُ زائدًا فى الحد ، فيُخْرج المؤْذى فى كل حين .

وعلامةُ أن يكون مُؤْذيًا وجودُ الراحة عند خروجه ، فمتى وجد ضعفًا فقد آذى خروجُه .

وليحفظ ذو الأنفة على نفسه حشمته ، بألا يقف فى موقف يُعاب به ؛ فإنه يتمتع بذخيرة العزِّ والأنفة . ويضادُّ النفسَ وجودُ غير ذلك .

وكذلك ينبغى أن يستعدَّ لآخرِ عمره بالمال مخافةَ أن يحتاج فيذِلّ أو يَسْعَى ، وقد كلّت الآلةُ ؛ ولأن يخلف لعدوِّه أولى مِنْ أن يحتاج إلى صديقه ، ولا يُلْتفت إلى مَنْ يذمُّ المالَ ؛ فإنهم الحمقى الجهال الذين اتّكَلُوا على خُبْزِ الراحَة ، فاستطابوا الكَسَل والدَّعَة، ولم يأنفوا مِنْ تناول الصدقة ، ولا من التعرض للسؤال .

وقد كان لكل نَبىٍّ معاشٌ ، ولجميع الصحابة ، وخلّفُوا أموالاً كثيرة ؛ فافهم هذا الأصل ، ولا تلتفت إلى كلام الجهال .

٢٧٨ - فصل : رياء الزهاد

رأيتُ فى زهَّاد زماننا من الكِبْر ، وحِفْظِ الناموُسِ ، ورتبة الجاه فى قلوب العامة ، ما كدتُ أقطع به على أنهم أهل رِيَاء ونفاق ؛ فترى أحدَهم يلبس الثوْبَ الذى يرى بعين الزهد ، ويأكل أطايبَ الطعام ، ويتكبَّر على أبناء الجنْس ، ويصادق الأغنياء ، ويباعدُ الفقراءَ ، ويحب الخطاب لمولانا ، ويمشى بحاجبه ، ويُضيعُ الزمان فى الهَذَيَانِ ، ويتقوت بخدمة الناس له ، والتسليم عليه .

ولو أنه لبس ثوبًا يخلطه بالفقهاءِ لذهب الجاه ، ولم يبق له متعلق ، ولو أن أفعاله

---

(١) الشبق : شدة الشوق إلى النكاح .

ناسبت ثيابه لهان الأمر ، لكنهم بَهْرَجُوا على من لا يخفى أمرهم عليه من الخلق ، فكيف الخالقُ - سبحانه وتعالى ؟

٢٧٩ - فصل : تدبير العيش

كثيرًا ما أُعيد هذا المعنى الذى أنا ذاكره فى هذا الكتاب بعبارات شتى ، ينبغي للمؤمن أن يتشاغل بمعاشه ، ويرفق فى نفقته ، فإنه قد كان للعلماء شىءٌ من بيت المال ، ورفق من الإخوان ، ومعونة من العوام ، فانقطع الكُلُّ ، وبقى المتشاغل بالعِلْم أو التعبد مسْكِينًا ، خصوصًا ذا العائلة .

وما رأينا مثْلَ هذا الزمان القبيح ، فما بقى من يُومَأُ إليه بمعونة ، ولا باستقراضٍ منه ، فيحتاج الإنسان أن يدخل فى مَداخِلَ لا تليقُ به ، وأن يتعرض بما لا يصلح .

فينبغى تقليلُ العائلة ، وتقويتُ القوت ، وترقيعُ الخَلَقِ [1] ، وإن أمكن معاشٌ ، فهو أولى من التشاغل بالتعبُّد ، والتعلم لفُضُولِ العلم . وإلا ضاع الدِّينُ فى مَدَاخِلَ لا تصلُح ، أو التعرض لبذْلِ نَذْلٍ [2] .

٢٨٠ - فصل : الاحتراز واجب والأخذ بالأسباب مطلوب

ينبغى للعاقل أن يحترزَ غاية ما يمكنه ؛ فإذا جرى القدر مع احترازه لم يُلَمْ .

والاحترازُ من كل شىء يمكُن وقُوعه ، وأخذُ العُدَّةِ لذلك واجب ، وهذا يكون فى كل حال ، قد قَصَّ رجل ظُفْرَه فجار عليه فخبثت يدُه فمات .

ومر شيخُنا أحْمَدُ الحربىُّ ، وهو راكبٌ بمكان ضيق ، فتطَأْطَأَ على السَّرْجِ ؛ فانعصر فؤادُه فمرض ، فمات .

وكان يَحْيَى بنُ نزَار شيخًا يحضر مجلسى ، قد طرق عليه ثِقَلُ الأذن ، فاستدعى طرقيا فمصّ أذنه ، فجرى شىء من مخه فمات .

وانظر إلى احتراز رسول الله - ﷺ - حين مَرَّ على حائطٍ مائلٍ فأسرع ، وينبغي أن يحترز بالكَسْب زمن شبابه ، ادّخارًا لزمن شَيْبه .

ولا ينبغى أن يثِقَ بمعامل إلا بوثيقة ، ويبادر بالوصية ؛ مخافةَ أن يطرقَه الموتُ .

ويحترزُ من صَديقه فضلاً من عدوه ، ولا يَثِقُ بمودَّة مَن قد آذاه هو ، فإن الحقد فى القلوب قلما يزول .

---

(١) الخلق : الثوب البالى .

(٢) النذل : الخسيس .

وليحترزْ من زوجته ؛ فربما أطلعها على سره ، ثم طلقها ؛ فيتأذّى بما تفعل به .

وقد كان ابنُ أفْلَح الشاعر يُكاتب رئيسًا فى زمن المسترشد ، فعلم بذلك بوابه ، واتفق أنه صرف بوابه فنمّ عليه ، ونُقضَتْ داره .

فهذه المذكراتُ أمثلة تنبه على ما لم يذكر ، وأهم الكل أن يحترز بأخذ العدة ، وتحقيق التوبة قبل أن يهجم ما لا يؤمن هجومه وليحذر من لِصِّ الكسل ، فإنه محتال على سرقة الزمان .

٢٨١- فصل : عواقب اللذة الحسية

تأملت خصومات الملوك ، وحرصَ التجار ، ونفَاقَ المتزهدين ، فوجدتُ جمهورَ ذلك على لذات الحسّ .

وإذا تفكر العاقل فى ذلك علم أن أمر الحسيات قريبٌ يندفع بأقل شىء ، وأن الغاية منه لا يمكن نيلُها ،وإنْ بالغ عاد بالأذى على نفسه فناله من الضر أضعاف ما ناله من اللّذة ، كمن يأكل كثيرًا أو ينكح كثيرًا ، فالسعيدُ من اهتم لحفظ دينه ، وأخذ من ذلك بمقدار الحاجة .

واعجبًا ! هذا الملبوسُ إذا كان وَسَطًا خدم ، وإن كان مرتفعًا خدم ، فإن نظر اللابس إليه معجبًا به ، فإنَّ الله لا ينظر إليه حينئذ ، وفى الصحيح : « **بينما رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فى بُرْدَته خُسفَ بهَ** » [1] . والمشروبُ إن كانَ حرامًا فعقابه أضعاف لذته ، وهتكه العرض بين النَاسَ عقابٌ آخر ، وإن كان مُباحًا فالشره [2] فيه يُؤْذى البدن .

وأمَّا المنكوحُ فمداراة المستحْسنُ يؤذى فوق كُلِّ أذى ، ومقاساة المستقبح أشد أذى ؛ فعليك بالتوسط ، وتفكر فى أحوال السَّلاطين كيف قَتلُوا ظُلْمًا ، وكم ارتكبُوا حرامًا ، وما نالُوا إلا يسيرًا من لذات الحس ؟ فانقشع [3] غيمُ العمر عن حسرات الفضائل الفائتة، وحصول العقاب .

فليس فى الدنيا أطيبُ عيشًا من مُنْفرِد عن العالم بالعلم ، فهو أنيسُه وجليسُه ، قد قنع بما سلم به دينُه من المباحات الحاصلة ، لا عن تكلف ولا تَضْيِيع دين ، وارتدى بالعزِّ عن الذل للدنيا وأهلها ، والْتَحف بالقناعة باليسير إذ لم يقدر على الكثير فوجدته يسلم دينه ودنياه، واشتغاله بالعلم يدله على الفضائل ، ويفرجه فى البساتين ، فهو

---

(١) سبق تخريجه . (٢) سبق تعريفها . (٣) انقشع : انكشف .

يسلم من الشيطان ، والسلطان ، والعوام بالعزلة . ولكن لايصلح هذا إلا للعالم ، فإنه إذا اعتزل الجاهل ، فاته العلم ؛ فتخبط .

٢٨٢ - فصل : الفقه قبل الكتابة

تأملتُ حالةً تدخلُ على طلاب العلم ؛ تُوجب الغفلة عن المقصُود ، وهو حرصُهم على الكتابة ؛ خُصُوصًا المُحْدَثِين ، فيستغرق ذلك زمانهم عن أن يحفظوا ويفهموا ، فيذهب العمرُ وقد عروا عن العلم إلا اليسير .

فمن وُفِّق جعل معظم الزمان مصروفًا فى الإعادة والحفظ ، وجعل وقتَ التعب من التكرار للنسخ ؛ فيحصل له المرادُ .

والموفّقُ مَنْ طلب المهم ؛ فإن العمر يعجزُ عن تحصيل الكُلِّ ، وجمهورُ العلوم الفقه ، وفى الناس من حصل له العلمُ وغفل عن العملِ بمُقْتضاه ، وكأنه ما حصَّل شيئًا ، نعوذ بالله من الخذلان .

٢٨٣ - فصل : التثبت والنظر فى العواقب

ما اعتمد أحدٌ أمرًا إذا هم بشىء مثْلَ التثبت ؛ فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب ، كان الغالب عليه الندم ؛ ولهذا أُمر الإنسان بالمشاورة ؛ لأن الإنسان بالتثبُّت يفتكر ، فتعرض على نفسه الأحوالُ ، وكأنه شاور ، وقد قيل : خَميرُ الرأى خَيْرٌ من فَطيره [١] .

وأشدُّ الناس تَفْرِيطًا من عمل مبادرة فى واقعة من غير تثبت ، ولا استشارة ، خصوصًا فيما يوجبه الغضب ؟ فإنه ينزقه [٢] طلب الهلاك أو استتبع الندم العظيم .

وكم من غضبٍ فقتل وضرب ، ثم لما سكَنَ غضبُه بقى طُولَ دهره فى الحزن والبكاء والندم .

والغالبُ فى القاتل أنه يقتل فتفوت الدنيا والآخرة ، فكذلك من عرضت له شهوةٌ فاستعجل لذتها ، ونسى عاقبتها ، فكم من ندم يتجرعُه فى باقى عمره . وعتاب يستقبله من بعد موته وعقاب لا يؤمن وقوعه كل ذلك للذَّة لحظة كانت كَبَرَقٍ !

فاللهَ اللهَ ، التثبُّتَ التثبُّتَ فى كل الأمور ، والنظرِ فى عواقبها ، خُصُوصًا الغضَبَ المثِيرَ للخصومة ، وتعجيل الطلاق .

---

(١) خير الرأى : الذى أخذ رأيه على مهل وتشاور وتأن ، وفطير الرأى : الذى أخذ الرأى على عجلة وسرعة .

(٢) النزق : الخفة .

٢٨٤ - فصل : حدود العقل

سألنى سائلٌ ، قد قال بعضُ الحكماء : مَنْ لم يحترز بعقله هلك بعقله ، فما معنى هذا؟ فبقيتُ مُدَّةً لا ينكشف لى المعنى ، ثم اتضح .

وذلك أنه إذا طلبت معرفةَ ذات الخالق سبحانه من العقل ؛ فزع إلى الحِسِّ ؛ فوقع التشبيه ، فالاحْترازُ من العقْلِ بالعقل : هو أن ينظر فيعلم أنه لا يجُوز أن يكون جِسْمًا ولا شبهًا لشيء .

وإذا نظر العاقلُ إلى أفعال البارى - سبحانه - رأى أشياءَ لا يقتَضِيها العقلُ ؛ مثلُ الآلام ، والذبح للحيوان ، وتسليط الأعداء على الأولياء مع القُدْرة على المنع ، والابتلاء بالمجاعة للصالحين ، والمعاقَبة على الذنب بعد البعد بزلَّة ، وأشياءَ كثيرة من هذا الجنس، يعرضُها العقلُ على العاداتِ فى تدبيره ؛ فيرى أنه لا حِكْمة تظهر له فيها .

فالاحْترازُ من العقل به أن يُقال له : أَلَيْسَ قد ثبت عِنْدى أنه مالك ، وأنه حكيمٌ ، وأنه لا يفعل شَيْئًا عَبَثًا ؟ فيقول : بَلَى ، فيقالُ : فنحنَ نحترِزُ من تَدْبيرك الثانى ، بما ثبت عندك فى الأول ، فلم يبق إلا أنه خفى عليك وجه الحِكْمة فى فعله ، فيجب التسليمُ له ؛ لعِلْمنا أنه حكيم حِينَئذٍ يذعن ، ويقولُ : قد سلمت .

وكثيرٌ من الخلق نظرُوا لمقتضى واقعِ العقل الأول ؛ فاعترضوا ، حتى أن العامى يقول: كيف قُضِى علىَّ سُوءُ عاقبتى ؟ ولمَ ضَيَّقَ رِزْقِى ؟ وما وجهُ الحِكْمة فى ابتلائى بفنون البلاء ؟ ولو أنه تلمح أنه مالكٌ حكيم ، لم يبْقَ إلا التسليم لما خَفِى .

ولقد أنس ببديهة العقل خلقٌ من الأكابر أولهم إِبْلِيس ؛ فإنه رأى تفضيلَ النار على الطين ؛ فاعترض .

ورأينا خَلْقًا ممن نُسب إلى العلم قد زَلُّوا فى هذا ، واعترضوا ، ورأَوْا أنّ كثيرًا من الأفعال لا حِكْمة تحتها ؛ والسببُ ما ذكرنا وهو : الأنس بنظر العقل فى البَدِيهةِ ، والعادات ، والقياس على أفعال المخلُوقِين ، ولو استَخْرَجُوا علمَ العقل الباطن ، وهو أنه قد ثبت الكمالُ للخالق ، وانتفَتْ عنه النقائصُ ، وعلم أنه حكيمٌ لا يعبَثُ لبقى التسليمُ لما لا يُعقل .

واعتبر هذا بحال الخَضِر ومُوسَى - عليهما السلام - لما فعل الخَضِرُ أشياءَ تخرج عن العادات ؛ أنكر مُوسَى ، ونَسِىَ إعلامَه له بأنى أنظر فيما لا تعلمه من العواقب ، فإذا خَفِيَتْ مصلحةُ العواقب على مُوسَى - عليه السلام - مع مخلُوقٍ فأَوْلَى أن يخفي علينا كثيرٌ من حِكْمَةِ الحكيم .

وهذا أصلٌ إنْ لم يثبت عند الإنسان أخرجه إلى الاعتراض والكفر ، وإن ثبت استراحَ عند نزول كُلّ آفة .

٢٨٥ – فصل : التوسل بالله إلى الله

بلغنى عن بعض الكُرَماء أن رجلاً سأله ، فقال : أنا الذى أحسنْت إلى يومَ كذا وكذا، فقال : مَرْحبًا بمن يتوسَّلُ إلينا بنَا ، ثم قضى حاجتَهُ

فأخذت من ذلك إشارة فناجيت بها ، فقلتُ : أنت الذى هديتَهُ من زمن الطُّفولة ، وحفظته من الضَّلالِ ، وعصمته عن كثير من الذنوب ، وألهمتَهُ طلب العلم لا بفهم لشرف العلم ، لموضع الصغَرِ ، ولا بحب والده لموت الوالد . ورزقتَهُ فهْمًا لتفقهه وتصنيفه ، وهيأتَ له أسباب جَمعه ، وقمْتَ برزقه من غير تَعَب منه ، ولا ذُلٌّ للخلق بالسؤال ، وحامَيْتَ عنه الأعداءَ ؛ فلم يقصده جبارٌ ، وجمعتَ له ما لم تجمع لأكثرِ الخلق من فنون العلم التى لا تكاد تجتمع فى شخص ، وأضفْتَ إليها تعلق القلب بمعْرِفَتك ، ومحبتك ، وحُسْن العبارة ، ولطفها فى الدلالة عليك ، ووضَعْتَ له فى القلُوبِ القَبَولَ حتى إن الخلق يُقبلون عليه ، ويَقْبلُون ما يقوله ، ولا يشُكّون فيه ، ويشتاقُون إلى كلامه ، ولا يدركهم المللُ منه ، وصنتَهُ بالعزلة عن مخالَطَة من لا يصلح، وآنسته فى خَلْوته ، بالعلم تارةً ، وبمُنَاجَاتك أخرى .

وإن ذهبتُ أُعدّ لم أقدرْ على إحصاء عُشَيْرِ العَشير : ﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [(١)] ، فيَا مُحْسنًا إلىَّ قبل أن أطلب ، لا تخيِّبْ أملى فيك ، وأنَا أطلبُ ، فبإنْعَامك المتقدم أتوسَّلُ إليك .

٢٨٦ – فصل : عبيد المال

سُبْحَان من جعل الخلق بين طَرَفىْ نَقِيضٍ ، والمتوسط منهم ينْدُر .

منهم مَنْ يغضبُ ؛ فيقتل ، ويضرب ، ومنهم مَنْ هو أبْلُه بقوة الحِلْم لا يؤثر عنده السبُّ .

ومنهم شرهٌ [(٢)] يتناول كُلَّ مَا يشتهى، ومنهم مُتَزّهدٌ يتجففُ [(٣)] ، فيمنع النفْسَ حَقَّها.

وكذلك سائرُ الأشياء المحمود منها المتوسط . فالمنفقُ كلما يجد مُبَذِّر ، والبخيلُ يخبئ المالَ ، .ويمنع نَفْسَهُ حظّها . ومعلومٌ أن المالَ لا يُرادُ لنفسه ؛ بل للمصالح ، فإذا بذر

(١) سورة النحل ، آية ١٨ ، وسورة إبراهيم ، آية : ٣٤ .

(٢) سبق تعريفها .

(٣) يتجفف : يأكل الخبز الجاف .

الإنسان فيه ، احتاج إلى بذل وجهه ، ودينه ، ومنّة البخلاء عليه ، وهذا لا يَصْلُح ؛ ولأن يخلف الإنسان لعدوه أحسن ما يحتاج إلى صديقه .

وفى الناس مَنْ يبخلُ ثم يتفاوتون فى البخل حتى يَنْتهى البلاء بهم إلى عشق عين المال ، فربما مات أحدُهم هُزَالاً [١] ولا ينفقه ، فيأخذه الغيرُ ، ويندم المخلّفُ .

ولقد بلغنى فى هذا ما ليس فوقَهُ مزيدٌ ، ذكرته ؛ لتعتبر به .

فحدثنى شيخُنَا أبُو الفَضْلِ بْنُ نَاصِرٍ ، عن شيخه عَبْدِ المُحْسنِ الصُّورىّ ، قال : كان بـ « صور » تاجرٌ فى غُرْفة له ، يأخذ كلَّ ليلة من البقال رَغيفَيْن وَجَوْزَة ، فيدخل إلى غرفته وَقْتَ المغرب ، فَيُضْرِم النارَ فى الجوزة ، فتضىء بمقدار ما يَنْزع ثوبَه ، وفى زمان إحْراق القشْر قد استوت ، فيمسح بها الرغِيفَيْن ويأكلهما ، فبقى على هذا مُدَّة فمات ، فأخذ منه مَلِكُ صور ثلاثين ألفًا .

ورأيت أنَّ رجلاً من كبَار العلماء قد مرض ، فاستلقى عند بعض أصْدقائه ، ليس له من يخدمه ، ولا يرفقه ، وهو يتضرر به ، فلما مات وَجُدُوا بين كتبه خمسُمائة دينار .

وحدثنى أبُو الحَسَنِ الرَّأنْدَسِىّ ، قال : مرض رجلٌ عندنا ، فبعث إلىَّ فحضرت ، فقال : قد ختم القاضى عَلَى مَالى ، فقلتُ : إن شئْت قمتُ ، وفتحْتُ الختم ، وأعطيتُك الثُّلثَ ؛ تفرقه ، وتعمل به ما تشاء ، فقال : لا والله ما أريدُ أنْ أفرقه ، بل أُريد مالى يكون عندى . فقلتُ : ما يعطونك ، وأنا آخذ لك الثّلُثَ كى تكون حراً فيه. فقال : لا أُريد، فمات ، وأُخذ مالَه .

قال : وجاء رجلٌ ، فحدثنى بعجيبة ، قال : مَرِضَتْ حماتى فقالتْ لى : أُريدُ أن تشترى لى خَبِيصًا [٢] ، فاشتريتُ لها ، وكانت مُلْقَاة فى صفّة ، ونحن فى صفَّة أُخرى، فجاءنى ولدى الصغير ، وقال : يا سيِّدى ، إنها تبلع الذَّهَبَ ، فقمتُ ، وإذا بها تجعل الدِّينَار فى شَىْء من الخبيصِ ؛ فتبلعه ، فأمسكتُ يَدَها ، وزجرتُها عن هذا ، فقالت : أنا أخاف أن تتزَّوجَ على ابنتى ، فقلتُ : ما أفعل ، فقالتْ : احْلفْ لى ، فحلفتُ ، فأعطتنى باقى الذهب ، ثم ماتت فدفنْتُها ، فلما كان بعد أشهر مات لنا طفلٌ فحملناه إليها ، وأخذتُ معى خرقة خام ، وقلتُ للحفَّار : اجمع لى عظامُ تلك العجوزِ

---

(١) هزالا : مرضا وضعفاً .

(٢) الخبيص : الطعام المصنوع من التمر والسمن .

فى الخِرْقَة، فجئتُ بها إلى البيت وتركتها فى إجَّانة [١] ، وصببتُ عليها الماءَ وحركتُها ، فأخرجْتُ ثمانينَ دينارًا أو نحوها ، كانت قد ابتلعتها .

وحكَى لى صديقٌ لنا : أنَّ رجلاً مات ، ودُفن فى الدار ، ثم نُبِش بعد مُدّة ؛ ليخرج فُوجِد تحت رأسه لبنة مُقَيَّرةٌ [٢] ، فسُئِل أَهْلُه عنها ، فقالوا : هو قَيَّر هذه اللَّبِنَةَ ، وأوصى أن تُتْرَك تحت رأسه فى قبره ، وقال : إن اللَّبِنَ يبلَى سريعًا ، وهذه لموضع القار لا تَبْلَى؛ فأخذوها فوجدُوها رَزِينةً [٣] ، فكسروها ، فوجدوا فيها تِسْعَمائة دينارٍ ، فتولاها أصحابُ التركات .

وبلغنى أنَّ رجُلاً كان يكنسُ المساجدَ ، ويجمع ترابها ثم ضربه لَبِنًا ؛ فقيل له : هذا لأىّ شىء ؟ فقال : هذا ترابٌ مباركٌ ؛ وأريد أن يجعلوه على لَحْدى ، فلما مات جعل على لحده ، ففضل منه لبنات ، فرموها فى البيت ، فجاء المطرُ ، فتفسَّخَتِ اللبناتُ ، فإذا فيها دَنَانيرُ ، فمضوا وكشفوا اللبن عن لحده ، وكله مملوءٌ دنانيرُ .

ولقد مات بعضُ أصدقائنا ، وكنت أعلم له مالاً كثيرًا ، وطال مرضُه فما أطلع أهلَه على شىء ، ولا أكاد أشك أنه مِنْ شُحّه ، وحِرْصه على الحياة ورجائه أن يبقى ؛ لم يعلمهم بمدفونه ؛ خوفًا أن يُؤْخذ فيحيَا هو ، وقد أُخِذَ المالُ ، وما يكون بعد هذا الخزى شىء !

وحدثنى بعضُ أصحابنا عن حالة شاهَدَها من هذا الفَنِّ ، قال : كان فلانٌ له ولدان ذكَرَان ، وبنتٌ ، وله أَلْفُ دينارٍ مَدفونة ، فمرض مرضًا شَديدًا فاحْتَوشَتْهُ [٤] أهلُه ؛ فقال لأحدِ ابْنَيْه لا تبرَحْ مِنْ عندى ، فلما خَلا به ، قال له : إنَّ أخاك مشغولٌ باللعب بالطيور ، وإن أختكَ لها زوجٌ تركى ، ومتى وصل مِنْ مالى إليهما شىءٌ أنْفقوه فى اللَّعب ، وأنت على سيرَتى وأخْلاقى ، ولى فى الموضع الفلانى ألفُ دِينارٍ ، فإذا أنا متُّ فخذها وَحْدَكَ .

فاشتدَّ بالرجلِ المرضُ فمضى الولدُ ، فأخذ المال ، فعُوفِىَ الأبُ ، فجعل يسألُ الولدَ أن يرد المالَ إليه ، فلا يفعل ، فمرض الولدُ فأشفى [٥] فجعل الأبُ يتضرَّعُ إليه ، ويقول: وَيْحَ خَصَصْتُكَ بالمالِ دُونهم ، فتموت ؛ فيذهب المالُ ، وَيْحك لا تفعَلْ !

---

(١) إجانة : وعاء تغسل فيه الثياب .

(٢) لبنة مقيرة : طوبة من الطين مطلية بالقار وهو الزفت .

(٣) رزينة : ثقيلة .

(٤) احتوشته : أحاطوا به .

(٥) أشفى : أشرف على الموت .

فمازال به ، حتى أخبره بمكانه ، فأخذه ، ثم عُوفِى الولدُ ، ومضت مُدَّةٌ فمرض الأبُ ، فاجتهد الولدُ أنْ يُخْبِره بمكان المال ، وبالغ فلم يخبرْه ، ومات وضاعَ المالُ . فسبحان من أعدم ولاءِ العقُولَ ، والفُهُومَ : ﴿ إنْ هُمْ إلا كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [1] .

٢٨٧ - فصل : عدم الانخداع بالمظاهر

كان لنا أصدقاءٌ وإخوانٌ أعتد بهم ، فرأيت منهم من الجَفاء ، وترك شُرُوط الصداقة، والأخوة عجائبَ ؛ فأخذتُ أعتبُ ، ثم انتبهتُ لنفسى ، فقلتُ : وما ينفعَ العتابُ ؛ فإنهم إن صَلَحُوا فللعتاب لا للصفاء ، فهممتَ بمقاطَعَتهِمْ ، ثم تفكرتُ فرأيت الناس بى مَعَارِفَ ، وأصدقاء فى الظاهر ، وإخوة مُبَاطنين ؛ فقلتُ لا تصلح مقاطعتُهم .

إنما ينبغى أن تنقلهم من ديوَان الأخُوَّة إلى ديوان الصداقة الظاهرة ، فإن لم يصلحُوا لها نقلتهم إلى جملة المعارف ، وعاملتهم مُعاملة المعارف ، ومن الغلط أن تعاتبهم ؛ فقد قال يَحْيَى بْنُ مُعَاذ [2] : بِئْسَ الأخُ أخٌ تحتاج أن تقولَ له : اذْكُرْنى فى دُعَائك .

وجمهورُ الناس اليومَ معارفُ ، ويندر فيهم صَديقٌ فى الظاهر ، فأما الأخُوَّة والمصافاة ، فذاك شىءٌ نُسِخَ [3] ، فلا يطمع فيه .

وما أرى الإنسان تصفو له أُخُوَّةٌ من النسب ، ولا ولده ، ولا زوجته ؛ فدع الطمع فى الصَّفَا ، وخُذْ عن الكل جانبًا ، وعاملهم مُعاملَة الغُرَباء .

وإيَّاك أن تنخدع بمن يظهر لك الوُدَّ ، فإنه مع الزمان يبينُ لك الحالُ فيما أظهره ، وربما أظهر لك ذلك ؛ لسبب ينالُه منْك ؛ وقد قال الفُضَيْلُ بنُ عيَاض [4] : « إذا أردت أن تصادق صديقًا ، فأغضبْه ، فإن رأيته كما يَنْبَغى فصادقه » . وهذا اليومَ مخاطرةٌ ؛ لأنك إذا أغضبْتَ أحدًا صار عُدُوا فى الحال .

والسبب فى نسخ حُكْم الصَّفَا ، أن السلف كان همتهم الآخرة وَحْدَها ؛ فصفَتْ نيَّاتُهم فى الأخوة والمخالطة ، فكانت دينًا لا دُنْيَا ، والآن فقد استولى حُبُّ الدنيا على القلوب ، فإن رأيت مُتَمَلِّقًا فى باب الدين فأخبره تَقْله [5] .

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٤٤ .

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى الواعظ أحد مشايخ الرسالة الكثيرية توفى سنة (٥٨ هـ) .

(٣) نسخ : أى انتهى وزال .

(٤) هو أبو على فضيل بن عياض بن مسعود التميمى الزاهد المشهور ثقة عابد إمام توفى سنة (١٨٧) وقيل قبلها .

(٥) أخبره تقله : اعرف حقيقة تبغضه

٢٨٨ – فصل : القناعة راحة

رأيتُ المعافى لا يعرفُ قَدْر العافية إلا فى المرض . كما لا يعرف شُكْر الإطلاق إلا فى الحبْس ، وتأملتُ على الآدمى حالةً عجيبةً . وهو أن تكون معه امرأةٌ لا بأس بها إلا أن قلبه لا يتعلق بمحبتها تعلُّقًا يلتذُّ به .

ولذلك سببان :

أحدُهما : أن تكون غَيْرَ غاية فى الحُسْن .

والثانى : أن كُلَّ مملوكٍ مكْروهٌ ، والنفسُ تطلب ما لا تَقْدرُ عليه ، فتراه يَضجُّ ويشتهى شيئًا يحبه ، أو امرأة يعشقها ، ولا يدرى أنه إنما يطلب قَيْدًا وثيقًا يمنع القلبَ من التصرُّف فى أمور الآخرة ، أو فى أى علْم أو عملٍ ، ويخبطه فى تصريف الدنيا ، فيبقى ذلك العاشقُ أسيرَ المعشوق ، همه كلُّه معه ، فالعجبُ بمطْلَقٍ يؤثر القَيْد ، ومُستريح يؤثر التعبَ!

فإن كانت تلك المرأةُ تحتاج أن تُحْفظَ ، فالويلُ له ؛ لاقرارَ له ولا سُكُونَ .

وإن كانت منَ المتبرجات اللَّوَاتى لا يُؤْمَن فسادهن فذاك هلاكه بمرة ؛ فلا هُوَ إنْ نام يتلذُّ بنومه ، ولا إن خرج من الدارَ يأْمَنُ محْنة ، وإن كانت تريدُ نفقةً واسعة ، وليس له، فكم يدخل مَدْخَلَ سُوء لأجلها ، وإن كانت تُؤْثرُ الجماع ، وقد عَلَتْ سنُّه ؛ فذاك الهلاكُ العظيم .

وإن كانت تبغضه فما بقيت منْ أسباب تَلَفه بقية ، فيكون هذا ساعيًا فى تَلَف نَفْسه ؛ كما قال القائل:

نُحبُّ الْقُدُودَ [(١)] ونَهْوَى الْخُدُودَ ... وَنَعْلَمُ أَنَّا نُحبُّ الْمَنُونَا [(٢)]

وهذا على الحقيقة ، كعابد صَنَم .

فليتَّقِ اللهَ من عنده امرأةٌ لا بأْسَ بها ، وليُعْرِضْ عن حَديث النفس ومُنَاها ، فماله منتهى . وإن كانت تؤثر الجماع وقد علت سنة فذاك الهلاك العظيم ، ولو حصل له غرضُه كما يريدُ ، وقع المللُ وطلب ثالثةً ، ثم يقع المَلَلُ ، وطلب رَابعةً ، وما لهذا آخر إنما يُفيده ذلك فى العاجلة تعلُّقُ قلبه ، وأسرُ لُبِّه ؛ فيبقى كالمبهُوت ، فكرُهُ كلُّه فى تحصيل ما يريد محبوبه ، فإن جرت فرقَةٌ أو آفة فتلك الحسراتُ الدائمة إن بقى أو التلف عاجلاً.

---

(١) القدود : ذى القامة المعتدلة .   (٢) المنون : الموت .

وإن المستحسن المصُونُ الدينِ ، القنوعُ لمن يحبه ، هذا أقلُّ من الكبريت الأحمر؛ فلينظر فى تحصيل ما يجمع مُعْظم الهم ، ولا يلتفت إلى سَوَادِ الهوى ، وغاية المنى يسلم.

٢٨٩ - فصل : الخشية على مقدار العلم

إذا تمَّ علمُ الإنسان لم ير لنفسه عملاً ، وإنما يرى إنعامَ الموفق لذلك العمل الذى يمنع العاقل أن يرى لنفسه عملاً ، أو يعجب به .

وذلك بأشياءَ : منها أنه وُفِّق لذلك العمل : ﴿ **وَحَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ** ﴾[1] ، ومنها أنه إذا قِيسَ بالنعم ، لم يَفِ بمِعْشارِ عُشْرِها .

ومنها أنه إذا لُوحِظَتْ عظمةُ المخدوم احتقر كل عمل وتعبد ؛ هذا إذا سَلِمَ من شائبَةٍ، وخلص من غفلة .

فأمَّا والغفلاتُ تُحيط به - فينبغى أن يغلبَ الحذر من رده ، ويَخَافَ العتابَ على التقصير فيه ؛ فيشتغلَ عن النظر إليه ؛ وتأمَّلْ على الفُطَناء أحوالَهم فى ذلك ، فالملائكةُ الذين : ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾[2] قالوا : ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ .

والخليلُ - عليه السلام - يقولُ : ﴿ **وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى** ﴾[3] وما أدلَّ بتصبره على النار ، وتسليمه الولد إلى الذبح .

ورسولُ الله - ﷺ - يقول : « **مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنَجِيه عَمَلُهُ** » ، قالوا : وَلا أَنْتَ ؟ قَالَ : « **وَلا أَنَا إلا أنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِرَحْمَته** »[4] .

وأبُو بكرٍ - رضى الله تعالى عنه - يقول : وهَلْ أنا ومالى إلا لَكَ يا رسول الله

وعُمَرُ - رضى الله عنه - يقول : لَوْ أنّ لى طِلاعَ الأرض لافْتديتُ بها مِنْ هَوْلِ ما أمامى قبل أن أعلَمُ ما الخبرُ .

وابنُ مَسْعُود يقول : ليتنى إذا متُّ لا أُبْعثُ .

وعَائشَةُ - رضى الله عنها - تقولُ : لَيْتَنِى كنتُ نَسْيًا مَنْسِيا .

وهذا شأنُ جميع العُقَلاءِ فرضى اللهُ عن الجميع .

وقد رُوِىَ عن قوم من صُلَحَاءِ بَنِى إسْرَائيل ما يدل على قِلَّةِ الأفْهام لما شرحته ؛ لأنهم

(١) سورة الحجرات ، آية : ٧ . (٢) سورة الأنبياء ، آية : ٢٠ .
(٣) سورة الشعراء ، آية : ٨٢ .
(٤) رواه البخارى فى الرقائق (٦٤٦٣) ، ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٦) ، وأحمد (٢/ ٢٣٥).

نظروا إلى أعمالهم فأدلوا بها : فمنه حديثُ العابد الذى تعبد خَمْسمَائة سَنَة فى جَزِيرَة ، وأخرج له كُلَّ ليلة رُمَّانَةً ، وسأل الله - تعالى - أن يُميتَه فى سُجُودِه ، فإذا حُشِرَ قيل له : ادخل الجنةَ برحمتى ، قال : بَلْ بِعَمَلِى ، فيُوزَنُ جميعُ عمله بنعمة واحدة فلا يَفِى ، فيقول : يارب برحمتك (١) .

وكذلك أهل الغار الذين انطبقَتْ عليهم الصخرةُ فإن أحدهم توسَّل بعمل كان يَنْبَغِى أن يَسْتَحْيِىَ من ذِكْره ، وهو أنه عزم على الزنا ثم خاف العقوبَةَ فتركه (٢) . فليت شعرى ! بماذا يَدِلُّ مَنْ خاف أن يعاقب على شىء فتركه ؛ تخوف العقوبة ؟ إنما لو كان مُباحًا فتركه كان فيه ما فيه ، ولو فهم لَشَغَلَهُ خَجَلُ الهمَّة عن الإدْلال ، كما قال يُوسُف - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ﴾ (٣) . والآخرُ ترك صِبْيانه يتضاغَوْن إلى الفجر ليسقى أبويه اللبن ؛ وفى هذا البِرِّ أذًى للأطفال ، ولكنَّ الفهمَ عَزِيزٌ .

وكأنهم لما أحْسَنُوا فيما ظنوا قال لسانُ الحال : أعْطُوهم ما طلبوا ، فإنهم يطلبون أجْرَةَ ما عمِلُوا ، ولولا عِزَّةُ الفهم ما تكبر مُتَكبِّرٌ على جنسه ، ولكان كل كَامِلٍ خائفًا محتقرًا لعمله حَذَرًا من التقصير فى شُكْرِ ما أنعم عليه ، وفهم هذا المشروح ينكسُ رَأْسَ الكِبْرِ . ويُوجِبُ مُسَاكنة الذل ، فتأمله فإنه أصلٌ عظيم .

٢٩٠ - فصل : الخوف من الذنوب

ينبغى للعاقل أن يكون على خَوْفٍ من ذُنُوبه وإن تاب منها ، وبكى عليها . وإنى رأيت أكثر الناس قد سكنُوا إلى قبول التوبة ، وكأنهم قد قطعوا على ذلك . وهذا أمرٌ غائب ؛ ثم لو غُفِرَت بقى الخجَلُ مِنْ فعلها .

ويؤيّدُ الخوفَ بعد التوبة أنه فى الصحاح : « **أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إلَى آدَمَ - عليه السلامُ - فَيَقُولُونَ : اشْفَعْ لَنَا فَيَقُولُ : ذَنْبِى ، وإلى نُوحٍ - عليه السلام - فَيَقُولُ : ذَنْبِى ، وإلى إِبْرَاهِيمَ ، وإلى مُوسَى ، وإلى عِيسَى - صلوات الله وسلامه عليهم** » (٤) . فهؤلاء إذا اعتُبِرتَ ذُنُوبهم لم تكن أكثرها ذُنُوبًا حَقِيقةً .

ثم إنْ كانت فقد تَابُوا منها ، واعتذَرُوا وهم بعْدُ على خَوْفٍ منها .

---

(١) الحديث بطوله رواه الحاكم (٤/ ٢٥٠ ، ٢٥١) ، وتعقبه الذهبى وقال : لا يصح ورواه العقيلى فى الضعفاء (٢/ ١٤٤ ، ١٤٥) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سورة يوسف ، آية : ٥٣ .

(٤) حديث الشفاعة رواه البخارى فى التفسير (٤٧١٢) ، ومسلم فى الإيمان (١٩٤) .

ثم إن الخجلَ بعد قَبُول التوبة لا يرتفع ، وما أحْسَن ما قال الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ - رحمه الله - : وَاسَوْأَتَاهُ مِنْكَ وإن عَفَوْتَ ! فافٍ والله لمختار الذنوبِ ، ومُؤْثِر لذة لحظة تُبْقى حسرةً لا تَزُول عن قلب المؤمن ، وإن غُفِر له .

فالحذرَ الحذَرَ من كل ما يُوجِبُ خَجَلاً . وهذا أمرٌ قَلَّ أن ينظر فيه تائب ، أو زاهدٌ ، لأنه يرى أن العفو قد غَمَر الذنبَ بالتوبة الصادقة ، وما ذكرته يُوجِبُ دوام الحذرِ والخجل .

٢٩١ - فصل : سوء الفهم

نعوذُ بالله من سُوء الفهم ، وخُصُوصًا من المتَّسمين بالعلم ؛ رَوَى أحمدُ فى مُسْنده : أنه تنازع أبُو عبد الرحمنِ السُّلَمِىُّ ، وحبَّانُ بْنُ عطية ، فقال أبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ لحبَّانَ : قَدْ علمْتَ ما الذى جرأ صاحبَكَ - يعنى عليا ؟ قال : ما هو ؟ قال : قولُ النبى - ﷺ -: « لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » [1] . وهذا سُوءُ فَهْم من أبِى عَبْد الرحمنِ حِيْن ظَنَّ أنَّ عليا قاتل ، وقتل اعتمادًا على أنه قد غُفِرَ له .

وينبغى أن يُعْلم أن معنى الحديث : لِتَكُنْ أعمالُكم المتقدمةُ ما كانت فقد غَفَرْتُ لكم .

فأمَّا غُفْرَانُ ما سيأتى فلا يتضمنه ذلك ، أتراه لو وقع مِنْ أهل بدر - وحاشاهم - الشرك إذْ ليسُوا بِمَعْصُومين - أمَا كانُوا يُؤَاخَذون به فكذلك المعاصى .

ثُم لَوْ قلنا : إنه يتضمَّنُ غُفرانَ ما سيأتى ؛ فالمعنى أن مآلكم إلى الغفران ، ثم دَعْنا من معنى الحديث ، كيفَ يَحلُّ لمسْلِم أن يظن فى أمير المؤمنين عَلِىٍّ - رضى الله عنه - أنه فعل ما لا يجوزُ ؛ اعتمادًا على أنه سيُغْفر له ؟ حُوشِىَ [2] مِنْ هذا ؛ وإنما قاتل بالدليل المضطر له إلى القتال ؛ فكان على الحق .

ولا يختلفُ العلماءُ أنَّ عَليا - رضى الله عنه - لم يقاتِل أحدًا إلا والحق مع عَلِىّ ، كيف ، وقد قال رسول الله - ﷺ - : « اللَّهُمَّ أدِرْ معه الحقَّ كيفما دار » [3] فقد غلط أبو عبد الرحمن غلطًا قَبِيحًا ، حمله عليه أنه كان عُثْمَانيًا .

٢٩٢ - فصل : الرياء فى الزهد

تأمت على مُتَزهدى زماننَا أشياء تدلُّ على النفاق ، والرياء ، وهم يدَّعُون الإخلاص .

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد (٣٠٠٧) ، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٤) .

(٢) وفى نسخة : حاشا .

(٣) رواه الترمذى فى المناقب (٣٧١٤) ، عن على وقال : حديث غريب قلت : إسناده ضعيف لأن فيه المختار بن نافع ضعيف .

مِنْها أنهم يلزمون زاويةً فلا يَزُورُون صَدِيقًا ، ولا يعودُون مريضًا ، ويدعون أنهم يُرِيدون الانقطَاع عن الناس ؛ اشْتِغَالاً بالعِبَادة ، وإنَّما هى إقامةُ نَوَامِيسَ ليشار إليهم بالانقطاع ؛ إذْ لو مَشَوْا بين الناس زَالَتْ هَيْبَتُهُم . وما كان الناس كذلك . كان رسولُ الله - ﷺ - يَعُودُ المريض ، ويشترِى الحاجةَ من السوق .

وأبو بكر - رَضِى الله عنه - يتَّجِرُ فى البز [1] .

وأبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ يحفر القبور ، وأبُو طَلْحَةَ أيضًا .

وابْنُ سِيرِين يُغَسِّلُ الْموتَى ؛ وما كان عند القوم إقامةُ نَامُوسٍ .

وأصحابنا يلزمون الصمْتَ بين الناس ، والتخَشُّعَ ، والتماوت ؛ وهذا هو النفاقُ ؛ فقد كان ابنُ سيرِينَ يضْحَكُ بالنهار ، وبين الناس ، ويَبْكِى بالليل .

وقد رأيتُ من المتزهِّدين من يلزم المسجدَ ، ويصلى ؛ فيجتمع الناسُ فيصلون بصلاته لَيْلاً ونهارًا ، وقد شاع هذا له ، فتقوى نفسه عليه بحب المحمدة .

والنبىُّ - ﷺ - قال فى صلاة التطوُّع : « **اجْعَلُوا هَذه فى البُيُوتَ** » [2] . وفى أصحابنا من يظهر الصَّوْم الدائم ، ويتقَوَّت بقول الناس : فُلَانٌ ما يُفْطر أصلاً ، وهذا الأبلهُ ما يدْرِي أنه لأجل الناس يفعل ذلك ، ولولا هذا كانُ يَفْطرُ والناسَ يرونه يومين أو ثلاثة حتى يذهب عنه ذلك الاسْمُ ، ثم يعود إلى الصوم .

وقد كان إِبْرَاهِيمُ بْنُ أدْهَمَ إذا مَرَضَ يتركُ عنده من الطعام ما يأكُله الأصحاء . ورأيت فى زُهَّادنا من يُصَلِّى الفجر يوم الجمعة بالناس ، ويقرأُ المعوِّذَتَيْن ، والمعنى قد خَتَمْتُ ، فإنَّ هذه الأعمال هى صريحةٌ فى النِّفَاقِ والرِّياء .

وفيهم مَنْ يأخذُ الصدقات ، وهو غَنِى ، ولا يُبالِى أخَذَ من الظلمة أو منْ أهل الخير ، ويمشى إلى الأمراء يَسْألهم ، وهو يدرى من أين حُصِّلَتْ أموالهم .

فاللهُ اللهَ فى إصلاح النيَّات ؛ فإن جُمهورَ هذه الأعمال مردودٌ ، قال مَالكُ بْنُ دينَار : وقُولُوا لمنْ لم يكن صَادقًا لا يتعنى [3] .

ولْيعلمِ المرائى أن الذى يقصده يفوته ، وهو التفاتُ القلوب إليه ؛ فإنه متى لم يُخْلص

---

(1) هو نوع من الثياب .

(2) رواه البخارى فى الصلاة (٤٣٢) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٧٧) ، وأبو داود فى الصلاة (١٤٤٨) .

(3) أى لا يتعب نفسه .

حُرِم محبة القلوب ، ولم يُلتفت إليه أحد والمخلصُ محبوبٌ ، فلو علم المرائى أنَّ قلوب الذين يُرَائيهم بيَدِ مَنْ يَعْصيه - لما فعل. وكم رَأَيْنَا مَنْ يلبس الصوفَ ، ويظهر النُّسُكَ ، لا يُلتفت إليه . وآخر يلبس جيِّدَ الثياب ، ويتَبَسَّم والقلوب تُحبّه . نسألُ الله - عَزَّ وجَلَّ - إخلاصًا يُخَلّصنا ، ونستَعيذُ به من رياء يُبْطل أعمالنا إنه قادر .

٢٩٣ - فصل : الرضا بقضاء الله

من الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف فإنه موضوع على عكس الأغراض .

فينبغى للعاقل أن يأنَسَ بانعكاس الأغراض ؛ فإن دعا وسأل بُلُوغَ غرضٍ تعبد الله بالدعاء، فإن أُعطِىَ مراده شكر ، وإنْ لم ينل مُرَاده فلا ينبغى أن يلح فى الطلب ؛ لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض ، ولْيقُلْ لنفسه : ﴿ **وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** ﴾[1].

ومنْ أعظم الجهل أن يتمعض [2] فى باطنه ؛ لانعكاس أغراضه ، وربما اعتَرض فى الباطن أو ربما قال : حُصُولُ غَرَضِى لا يضر ، ودُعَائى لم يُستجب ، وهذا كُلُّه دليلٌ علىٰ جَهْله ، وقِلَّة إيمانه ، وتسليمه للحكْمة .

ومنَ الذى حصل له غرضٌ ثم لم يُكَدَّر ؛ هذا آدَمُ طاب عيْشُه فى الجنة، وأُخرج منها.

ونُوحٌ سأل فى ابنه فلم يُعْط مُرَاده ، والخَليلُ ابتُلِىَ بالنَّار ، وإسماعيل بالذبح . ويعقوب بفَقْد الولد ، ويُوسُفَ بمجاهَدَة الهوَى، وأَيُّوبَ بالبلاء ، ودَاوُدَ وسُلَيْمَانَ بالفتْنة، وجميعُ الأنبياء على هذا .

وأما ما لقى نبينا محمدٌ - ﷺ - من الجُوعِ ، والأذى ، وكَدَرِ العيْش فمعلومٌ ؛ فالدنيا وُضعَتْ للبلاء ، فينبغى للعاقلِ أن يُوَطِّنَ نفسه على الصبر ، وأن يَعْلَمْ أنَّ ما حصل من المراد فَلُطفٌ ، وما لم يحصل فعلى أصْلِ الخلْقِ والجبِلَّة [3] للدنيا ؛ كما قيل:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ... مُتَطَلِّبٌ فى الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

وهاهنا يتبين قُوّة الإيمان وضعفه ، فليستعمل المؤمنُ من أدوية هذا المرضِ التَّسْليم للمالك ، والتحْكيم لحكْمته ، وليقل قد قيلَ لسيِّدَ الكل : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾[4] ، ثم ليسَلِّ نفسَه بأن المنع عَنْ بُخْلٍ ؛ وإنما هو لمصْلَحة لا يعلمها .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .
(٢) يتمعض : يغضب .
(٣) الجبلة : الفطرة .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٢٨ .

وليُؤجرَ الصابرَ عن أغراضه ، وليعلم الله الذين سلَّموا ورَضُوا ، ثم إن زمنَ الابْتلاء مقدَارٌ يَسيرٌ ، والأغراض مُدَّخرة تلقى بعد قليل ، وكأنه بالظلمة قد انْجلَتْ ، وبفَجْر الأجْرِ قد طلع .

ومتى ارْتَقَى فهمه إلى أنَّ ما جرى مرادُ الحقِّ سبحانه ، اقتضى إيمانه أن يريد ما يريد، ويرضى بما يُقَدِّرُ ؛ إذ لو لم يكن كذلك كان خَارِجًا عن حقيقة العُبُودِيَّة فى المعنى وهذا أَصْلٌ ينبغى أن يُتَأَمَّل ، ويعمل عليه فى كل غرض انعكس .

٢٩٤ - فصل : تعفف العالم

رأيتُ خلقًا من العلماء والقُصّاص ، تضيقُ عليهم الدنيا ؛ فيفزعون إلى مُخَالطة السلاطين ؛ لينالوا مِنْ أموالهم ، وهم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يَأْخذون الدنيا من وَجْهِها ، ولا يُخْرِجُونها فى حقِّها .

فإن أكثرهم إذا حُصِّل له خراجٌ ينبغى أن يُصْرف إلى المصالح ، وهبه لشاعر . وربما كان معه جُنْدى يصلح أن تكون مُشَاهرته عَشْرَة دنانير ، فأعطاه عشرةَ آلاف .

وربما غَزَا فأخذ ما ينبغى أن يقسم على الجيش ، فاصطفاه لنفسه ، هذا غيرُ ما يجرى من الظلم فى المعاملات ، وأول ما يجرى على ذاك العالم أنه قد حُرِم النفعُ بعلمه . وقد رأى بعضُ الصالحين رَجُلاً عالمًا يخرج من دار يَحْيَى بْن خَالد البَرْمَكِى ، فقال : أعُوذُ بالله مِنْ عِلْمٍ لا ينفع ، ألم تر المنكَرات ولا تُنْكِر ، وتتناولُ مِنْ طَعامهم الذى لا يكاد يحصل إلا بظلم فيَنْطمس قلبك ، وتُحْرم لذة المعاملة للحق سبحانه ، ثم لا يُقَدَّر لك أن يهتدى بك أحدٌ ، بل ربَّما كان فعل هذا سبَبًا لإضلال الناس وصرفهم عن الاقتداء به ، فهو يُؤْذى نفسَهُ، ويُؤْذى أَميرَه ؛ لأنه يقول لولا أَنّى على صواب ما صحبنى ولأنكر على .

ويُؤْذى العوام تارةً بأن يروا أن ما فيه الأميرُ صوابٌ ، وتارة بأن الدخول عليه والسكوت عن الإنكار جائز ، أو يحبب إليهم الدنيا ، ولا خَيْرَ والله فى سَعَةٍ من الدنيا ضَيَّقت طريقَ الآخرة .

وأنا أفتدى أقوامًا صابرُوا عَطَشَ الدنيا فى هَجِير الشَّهَوَات زمانَ العُمُرِ حتى رُوَوْا يومَ الموت من شراب الرضا ، وبقيَتْ أذكارهم تُرْوَى فتروى صدى [1] القلوب ، وتجلُو صدَأَهَا .

---

(١) الصدى : العطش الشديد .

هذا الإمامُ أحْمَدُ يحتاجُ ؛ فيخرج إلى اللَّقَّاطِ ولا يَقْبَلُ مَالَ سلطان .

هذا إبْرَاهِيمُ الحَرْبِىُّ يتغذى بالبقْلِ ، ويرد على المعتَصِم ألْفَ دينَار .

هذا بِشْرٌ الحَافِى يشكُو الجُوعَ فيُقَال له : يُصْنَعُ لك حِسَاءٌ من دَقِيق ، فيقول : أخاف أن يقول لى : هذا الدقيقُ مِنْ أيْنَ لك ؟ بقيَتْ والله أذكار القوم ، وما كان الصبرُ إلا غفوة نوم ، ومضت لذَّاتُ المترخصين ، وبليت الأبدانُ ، ووهن الدين .

فالصَّبْرَ الصبرَ يا مَنْ وُفِّقَ ، ولا تَغْبِطَنَّ مَنِ اتَّسع له أمرُ الدنيا ؛ فإنك إذا تأملت تلك السَّعَة رأيْتَها ضيقًا فى باب الدِّين ، ولا ترخِّصُ لنفسك فى تأويلٍ ، فعمرُكَ فى الدنيا قَلِيل :

وَسَوَاءٌ إذَا انْقَضَى يَوْمُ كِسْرَى فِى سُـرُورٍ وَيَوْمُ صَابِرِ كِسْرَهْ

وَمَتَى ضَجَّتِ النفسُ لقلة صبر - فَاتْلُ عليها أخْبار الزهَّاد ؛ فإنها تَرْعَوى [1] ، وتسْتَحيى، وتنكسر إن كانت لها همَّة أو فيها يَقَظَةٌ .

وَمَثِّل لها بَيْنَ ترخص عَلِىِّ بْنِ الْمدينى ، وقبُوله مَال ابن أَبِى دَاوُدَ ، وصَبْرِ أحْمَد ، وكم بين الرَّجُلَيْنِ والذكرين .

وَانْظُرْ ما يُرْوَى عن كل واحد منهما ، وما يُذْكرَانِ به ؛ وسيندَمُ ابنُ المدينى إذَا قال أحمدُ : سلم لى دينى .

٢٩٥ - فصل : زعزعة الإيمان

تأملتْ أحوال الناس ، فرأيْتُ جُمْهُورَهُم منْسَلا مِنْ رِبْقَة العبُودية ؛ فإنْ تعبَّدُوا فَعَادَةٌ أَوْ فيمَا لا يُنَافِى أغْرَاضه مُنَافَاةً تُؤْذى القلوب . فأكثرُ السلاطين يحصِّلُونَ الأموال مِنْ وُجوه رَدِيَّة ، وينفقونها فى وجوه لا تَصْلُح ، وكأنهم قد تَمَلَّكُوها ، وليست مالَ الله الذى إذا غَزَا أحدُهم باسمه فغنم الأموال اصطفاها لنفسه ، وأعطاها أصحابه كيف اشتهى .

والعلماءُ لقوَّة فقرهم ، وشدَّة شرَهِهِمْ ، يوافقون الأمراء وينخَرِطُون فى سلْكهم ، والتجارُ على العُقُود الفاسدة ، والعوامُّ فى المعَاصى والإهمال لجانب الشريعَة .

فإن فات بعضُ أغراضهم ، فربما قالوا ما نُرِيدُ نصلِّى - لا صَلَّى الله عليهم - وقد منعوا الزكاة وتركوا الأمر بالمعروف .

فمن الناس مَنْ يغره تأخيرُ العقوبة .

---

(١) ترعوى : تكف وتمتنع .

ومنهم من كان يقطع بالعفو وأكثرُهم متزلزل الإيمان . فنسأل الله أن يُميتَنا مُسْلِمين

٢٩٦ - فصل : فضل المال والمحافظة عليه

من العجب سلامةُ دين ذى العيال إذا ضاق به الكَسْبُ ، فمَا مَثَلُه إلا كَمَثَلِ الماء إذا ضُرِب فى وجهه أى سد سكرَ (١) ، فإنه يعمل باطنًا ، ويبالغ حتى يَفْتَحَ فتحةً ؛ فكذلك صاحبُ العيال إذا ضاق به الأمرُ لا يزال يَحْتَالُ ، فإذا لم يقدر على الحلال ترخَّص فى تناوُلِ الشبُهات ، فإن ضَعُفَ دينُه مَدَّ يدَهُ إلى الحرام .

فالمؤمنُ إذا علم ضَعْفَه عن الكسب اجْتَهَد فى التعفُّفِ عن النكاح ، وتقْليلِ النفقة إذا حصل الأولاد ، والقناعة باليَسير .

فأمَّا من ليس له كسبٌ كالعلماء والمتزهدين ، فَسَلامتُهم ظَرِيفَةٌ ، إذ قد انقطعَتْ موارد السلاطين عنهم ، ومراعاةُ العوامِّ لهم فإذا كثُرت عائلتُهم لم يُؤْمن عليهم شرُّ ما يجرى على الجهال.

فمن قَدر منهم على كَسْبٍ بالنسخِ وغيره ، فليجتهد فيه مع تَقْليل النفقة ، والقناعة باليسير ؛ فإنه مَنْ ترخَّص منهم اليومَ أكَلَ الحرامَ ؛ لانه يأخذ من الظَّلَمَةِ خُصُوصًا بحجَّةِ التنمّس والتزهُّد .

ومَنْ كان له منهم مالٌ فليجتهد فى تَنْميته ، وحفْظه ؛ فما بَقِىَ مَنْ يُؤْثر ، ولا مَنْ يُقْرِض .

وقد صار الجمهورُ بل الكُلُّ كأنهم يَعْبُدون المال ، فمنْ حَفِظه حفظ دينَه ، ولا يُلْتَفَتُ إلى قول الجهَلَة الذين يأمُرُونَ بإخراج المال ؛ فما هذا وقته .

واعْلَمْ أنه إذا لم يجتمع الهَمُّ ، لم يحصل العلم ، ولا العمل ، ولا التشاغل بالفكر فى عظمة الله ، وقد كان هَمُّ القدماء يجتمعُ بأشياء جمهورها أنه كان لَهُمْ مِنْ بيت المال نصيبٌ فى كلِّ عام ، وكان يصلُهم ، فيفضل عنهم ، وفيهم مَنْ كان له مالٌ يتجر به كـ « سَعيد بن المُسَيَّب ، وسُفْيَانَ ، وابنِ المُبَارَك » ، وكان هَمُّه مُجْتمعًا

وقد قال سُفْيَانُ فى ماله : لَوْلاك لتمندلوا بى (٢) .

وفُقِدَتْ بضاعةٌ لابْنِ المُبَارَك ؛ فبَكَى ، وقال : هو قِوَامُ دينى .

وكان جماعةٌ يسكنون إلى عَطَاء الإخْوَانِ الذين لا يَمُنّون ، وكان ابنُ المُبَارَك يبعث إلى الفَضْلِ ، وغيره .

---

(١) سكر : أى سد .　　(٢) أى استهزءوا بى .

وكان اللَّيْثُ بْنُ سَعْد يتفقَّدُ الأكابر ، فبعث إلى مَالكٍ ألفَ دينار ، وإلى ابْنِ لَهِيعَةَ ألفَ دينَار ، وأعْطَى مَنْصُورَ بْنَ عَمَّارٍ ألفَ دينار ، وجارية بثلاثمائة دينار .

وما زال الزمانُ على هذا إلى أن آل الأمر على انمحَاق ذلك ، فقلَّتْ عطايا السلاطين ، وقلَّ مَنْ يُؤثِرُ مِنَ الإخوان ، إلا أنه كان فى ذلك التقليل ما يدفع عض الزمان .

فأمَّا زمانُنَا هذا ، فقد انقَبَضَت الأيْدى كُلُّها ، حتَّى قَلَّ من يُخْرِج الزكاة الواجبة ، فكيف يجتمع هَمُّ مَنْ يريد من العلماء ، والزهاد أن يعمل همه لَيْلاً ونهارًا فى وُجُوهِ الكسب ، وليس مِنْ شأنه هذا ، ولا يَهتدى له .

فقد رأينا الأمر أحْوَجَ إلى التعرُّضِ للسلاطين ، والترخُّص فى أخذ ما لا يصلُح ، وأخرج المتزهدين إلى التصنع ؛ لتحصيل الدنيا .

فاللهَ اللهَ يا مَنْ يريد حفظ دينه ، قد كَرَّرْتُ عليك الوصيَّةَ بالتقليل جهدَك ، وخَفِّف العلائقَ مهما أمكنك ، واحتفظْ بدرْهم يكون مَعَك ؛ فإنه دينُك . وَافْهَمْ ما قد شرَحْتُه؛ فإن ضَجَّت النفسُ لمراداتها - فقل لها : إن كان عندك إيمان فَاصْبِرى ، وإن أردت التحصيل لما يغنى ببذل الدين - فما نفعك ، فتفكَّرى فى العلماء الذين جمعوا المال مِنْ غير وجهه ، وفى المتمسّين [1] ذهب دينُهم ، وزالت دُنْياهم .

وتفكَّرى فى العلماء الصادقين كـ « أحْمَدَ وبِشْرٍ » ، اندفعت الأيام ، وبقى لهم حَسَنُ الذكْرِ ، وفى الجملة : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾[2] ، ورزْقُ الله قد يكون بتيسير الصبرِ على البَلاءِ ، والأيام تَنْدَفِعُ ، وعاقبةُ الصبر الجميلِ جميلةٌ .

٢٩٧ - فصل : علاج بغض الزوجة

شكى لى رجلٌ مِنْ بُغْضه لزوجته ، ثم قال : مَا أَقْدرُ على فرَاقها لأمور : منها كَثْرةُ دَيْنِهَا علىّ ، وصبرى قليلٌ ، ولا أكاد أسلم من فَلَتَات لِسَانى فى الشَّكْوَى ، وفى كلمات تعلم بُغْضى لها ، فقلتُ له : هذا لا يَنْفَعُ ، وإنما تُؤْتَى البيوتُ من أبوابها ، فينبغى أن تخلو بنفسك فتعلم أنها إنما سُلِّطت عليك بذنوبك فتبالغ فى الاعْتِذَارِ ، والتوبة .

فأمَّا التضجُّرُ ، والأذى لها ، فما ينفع ؛ كما قال الحَسَنُ بْنُ الحجاج : عُقوبةٌ من الله لكم ، فلا تقابلُوا عُقوبتَه بالسَّيْف ، وقابلوها بالاستغفَار .

---

(١) المتمسون : المحتالون .

(٢) سورة الطلاق ، آية : ٢ ، ٣ .

واعْلَمْ أنك فى مقام مُبْتَلى ولك أجرٌ بالصبر : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [1] فعامل الله - سبحانه - بالصبر على ما قضى ، وَاسْأله الفَرَج .

فإذا جمعت بين الاستغفار ، وبين التوبة من الذنوب ، والصبر على القضاء ، وسؤال الفرج - حصَّلْت ثلاثة فُنُونٍ من العبادة تُثاب على كُلّ منها ، ولا تُضيِّع الزمان بشىء لا ينفَعُ ، ولا تَحْتَل [2] ظَنا منْك أنك تدفع ما قدر : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ ﴾ [3] . وقد رُوينا أنّ جُنْديا نزل يومًا فى دار أبى يَزِيدَ ، فجاء أبُو يَزِيدَ ، فرآه فوقف، وقال لبعْضِ أصحابه : ادْخُل إلى المكان الفُلانى فَاقْلَع الطين الطَّرِىّ ؛ فإنه مِنْ وَجْهِ فيه شُبْهة ، فقلعه ، فخرج الجندىّ .

وأمَّا أَذَاكَ للمرأة فلا وَجْهَ له ؛ لأنها مُسَلَّطة فلْيكن شُغلك بغير هذا ، وقد رُوِىَ عن بَعْضِ السَّلف أنّ رجُلاً شتمه ، فوضع خَدَّه على الأرض ، وقال : اللَّهُمَّ اغفِرْ لِى الذّنْبَ الذى سَلَّطْتَ هذا به علىّ .

قال الرَّجُل : وهذه المرأةُ تُحِبُّنى زائدًا فى الحد ، وتبالغُ فى خدمتى ، غير أنّ البُغْض لها مَرْكُوزٌ فى طَبْعِى . قلتُ له : فعامِلِ اللهَ - سبحانه - بالصبر عَلَيْها فإنَّك تُثَابُ .

وقد قيل لأبى عُثْمَانَ النَّيْسَابُورىّ : ما أرْجَى عملك عندك ؟ قال : كُنت فى صَبْوتى يجتهد أهلى أنْ أتَزَوَّجَ ، فآبى ، فجاءَتْنى امرأةٌ فقالت : يَا أَبَا عُثْمَانَ ؛ إنى قد هَوَيْتُكَ، وأَنَا أسألك بالله أن تتزوَّجنى، فأحْضَرْتُ أبَاها، وكان فَقيرًا - فزوَّجَنى ، وفَرِح بذلك.

فلما دَخَلَت إلىّ رأيتُها عَوْرَاء عَرْجَاءَ مُشَوَّهَةً ، وكانت لمحبتها لى تمنعنى من الخروج ، فأقعد حِفْظًا لقلبها ، ولا أظهِرُ لها من البُغْضِ شَيْئًا ، وكأنى على جَمْرِ الْغَضَا [4] من بُغْضِها.

فبقيتُ هكذا خَمْسَ عَشْرَةَ سنةً حتى ماتَتْ ، فما مِنْ عملى شىءٌ هو أرْجى عندى من حِفْظى قلبها .

قلتُ له : فهذا عَمَلُ الرجالِ ، وأىّ شىءٍ ينفع ضَجِيج المبتلى بالتضجر بإظهار البُغْضِ؛ وإنما طريقُه ما ذكرته لك من التوبة ، والصبر ، وسؤال الفرج .

وتذكّرْ ذُنُوبًا كانت هذه عُقُوبتَها ، وبَالِغْ فإنْ وقع فرجٌ فشىء كأنه ليس فى الحساب ،

(١) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ . (٢) أى تطلب حيلة .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٧ ، وسورة يونس ، آية : ١٠٧ . (٤) الغضا : شجر فيه شوك.

وإلا فاستعمال الصبر على القضاء عبادةٌ ، وتكلّفُ إظهار المودة لها ، وإن لم تكن في قلبك تثبت على هذا ، وليس للقَيْد ذَنْبٌ فيلام ، إنما ينبغي التشاغل مع مَنْ قيدك به ، والسلام .

٢٩٨ - فصل : قلب المؤمن وجمع الهم

لا رَيْبَ أن القلب المؤمنَ بالإلَه - سبحانه - وبأوامره يحتاج إلى الانعكاف على ذِكْره، وطاعته ، وامْتثال أوامره ؛ وهذا يفتقر إلى جَمْع الهَمِّ ، وكفى بما وُضِع في الطبع من المنازَعة إلى الشهوات - مُشتِّتًا للهم المجتمع .

فينبغي للإنسان أن يجتهد في جمع همه ؛ لينفرد هَمُّه بذكر الله - سبحانه وتعالى - وإنفاذ أوَامره ، والتَّهيُّؤ للقائه .

وذلك إنما يحصل بقطع القواطع والامتنَاعِ عن الشَّواغل ، وما يُمكِنُ قَطْع القواطع جُملةً ، فينبغي أن يقطع ما يمكن منها .

وما رأيتُ مُشتِّتًا للهم مُبَدِّدًا للقلب مِثْلَ شيئَيْن :

أحدُهما : أن تُطاع النفسُ في طلب كل شَيْءٍ تشتهيه ، وذلك لا يُوقَفُ على حَدٍّ فيه، فيذهب الدين والدنيا ، ولا ينال كل المراد ؛ مِثْلُ أن تكون الهِمَّةُ في المستحسناتِ أوْ في جمع المال ، أو في طلب الرياسة ، وما يُشْبه هذه الأشياء .

فيالَهُ من شتَاتٍ لا جامعَ له ، يَذْهَبُ العمرُ ، ولا يُنال بعضُ المراد منه .

والثاني : مخالطةُ الناس خُصُوصًا العوام ، والمشي في الأسواق ، فإن الطبع يتقاضى بالشهوات ، وينسى الرَّحيل عن الدنيا ، ويُحبُّ الكَسَلَ عن الطاعة ، والبطالة ، والغفلة، والراحة ؛ فيثقُل على مَنْ ألفَ مُخَالطة الناس التشاغُل بالعلْم أو بالعبادة ، ولايَزالُ يخالطهم حتَّى تهونَ عليه الغِيبةُ ، وتضييعُ الساعاتُ في غير شَيْءٍ .

فمن أراد اجتماعَ هَمِّه فعلَيْه بالعُزْلة بحيثُ لا يسمع صَوْتَ أحد ؛ فحينئذ يَخْلُو القلبُ بمعارفه ، ولا تجد النفسَ رَفيقًا مِثْلَ الهوى يذكرها ما تشتهى ، فإذا اضطُرَّ إلى المُخَالطة ، كان على وِفَاقٍ كما تتهوى الضُّفْدَعُ لحظةً ثم تعود إلى الماء ، فهذه طريق السلامة ، فتأمَّلْ فَوَائدَها تطب لك .

٢٩٩ - فصل : سب الدهر خروج من الإيمان

ما رأتْ عيني مصيبةً نزلت بالخلق أعظم من سبِّهم للزمان ، وعَيْبهم للدهر ! وقد كان

هذا فى الجاهلية ، ثم نهى رسولُ الله - ﷺ - عن ذلك ، فقال : « **لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ** »[1]. ومعناه : أنتم تسبُّون مَنْ فرَّق شملَكم ، وأمات أهاليكم ، وتَنْسُبُونه إلى الدهر ، والله تعالى هو الفاعلُ لذلك ، فتعجبْتُ كيف علم أهل الأسقام بهذه الحال، وهم على ما كان أهل الجاهلية عليه ، ما يتغيَّرُون حتى ربَّما اجتمع الفُطَنَاءُ الأدباءُ الظرافُ على زَعْمهم ، فلم يكن لهم شُغُلٌ إلا ذَم الدهرِ .

وربَّما جعلُوا اللهَ الدنيا ، ويقولون : فعلَتْ وصنعَتْ حتى رأيتُ لأبى القَاسِمِ الْحَرِيرِىِّ[2] يقول :

وَلَمَّا تَعَامَــى الدَّهْـرُ وَهُوَ أَبُو الرَّدَى[3] ... عَـنِ الرُّشْــدِ فِى أَنْحَائِهِ وَمَقَاصِــدِهْ
تَعَــامَيْتُ حَــتَّى قِـيلَ إِنِّى أَخُو عَمَى ... وَلا غَرْوَ[4] أَنْ يَحْذُو الْفَتَى حَذْوَ وَالِدِهْ

وقد رأيتُ خَلْقًا يعتقدون أنهم فقهاءُ وفُهَماء ، ولا يتحاشَوْن منْ هذا وهؤلاء إن أرادوا بالدَّهرِ مُرُورَ الزمانِ ، فذاك لا اختِيَارَ له ، ولا مُرادَ ، ولا يعرفُ رُشْدًا منْ ضلال، ولا ينبغى أن يُلام ؛ فإنه زمانٌ مُدبَّر لا مُدبِّر ، فيُتصرف فيه ولا يتصرف بأحد .

وما يُظَنُّ بعاقل أنه يُشير إلى أن هذا المذمومَ المعْرِضَ عن الرُّشْد ، السيئَ الحُكْمَ هو الزمان؛ فلم يَبْقَ إلا أنَّ القومَ خرَجُوا عَنْ رِبْقَة الإسلام ، ونسبُوا هذه القبائح إلى الصانع، فاعتقدُوا فيه قُصُورَ الحكمة ، وفعْلَ ما لا يصح ، كما اعتقده إبْليسُ فى تفضيل آدَمَ .

وهؤلاء لا ينفعهُم مع هذا الزيغ اعتقادُ إسْلامٍ ، ولا فعْلُ صلاة ؛ بل هم شَرّ من الكفار ، لا أَصْلَحَ لهم شَأْنًا ، ولا هَدَاهُمْ إلى رشاد .

٣٠٠ - فصل : العمر فرصة

منْ عَجَائبِ ما أرى من نفسى ، ومنْ الخلق كُلّهم الميلَ إلى الغفلة عمَّا فى أيدينا مع العلْم بقصر العمر ، وأنّ زيادة الثواب هُنَاك بقدر العمل ههنا .

فَيَا قَصيرَ العُمُر ، اغتنم يَوْمى منًى ، وانتظرْ ساعةَ النَّفْرِ[5] ، وإيَّاك أن تشغل قلبك

---

(١) رواه البخارى فى التفسير (٤٨٢٦) ، ومسلم فى الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦) واللفظ لمسلم .

(٢) هو أبو محمد القاسم الحريرى صاحب المقامات المسماة باسمه.توفى سنة (٥١٦هـ) .

(٣) الردى : الهلاك .

(٤) ولا غرو : أى ولا عجب .

(٥) هى الساعة التى ينفر الناس فيها من منى ، وقد شبه المصنف العمر بأيام الحج القلائل التى ستنتهى.

بغير ما خُلق له ، وَاحْمل نَفْسَك على المرِّ واقمعْها إذا أبَتْ ، ولا تسرح لها فى الطول ، فما أنت إلا فى مرعى ، وقبيحٌ بمن كان بين الصفين [1] إذا تشاغل بغير ما هو فيه .

٣٠١ - فصل : الحذر نجاة

قد كررْتُ هذا المعنى فى هذا الكتاب - وهو الأمرُ بحفظ السرِّ والحذرُ من الانبساط فيما لا يَصلُح بين يَدَيِ النَّاسِ ، فرُبَّ مُنْبسطٍ بين يدى مَنْ يظنه صَديقًا يقول فى صديق ، أوْ فى سُلْطان يحسب أنه لا يتهم فى ذلك ؛ فيكون سَبَبُ هلاك ذاك .

فأُوصى السَّليمَ الصدْرِ الذى يَظُنُّ فى الناس الخيرَ أن يحتَرِزَ من الناس ، وأن لا يقول فى الخلق كلمةً لا تصلحُ للخلق ، ولا يغْتَرَّ بمن يُظْهر الصداقة أو التَّدَيُّنَ فقد عَمَّ الخبْثُ .

٣٠٢ - فصْلٌ : أرباب اليقظة

تأمَّلْتُ على أكثر الناس عباداتهم ، فإذا هى عاداتٌ ، فأمَّا أربابُ اليَقَظة فعاداتهم عبادَةٌ حقيقية ، فإن الغافل يقولُ سُبْحان الله عادةً ، والمتيقظ لا يزال فكْرُه فى عجائب المخلوقَات أو فى عَظَمة الخالق ، فيحرِّكُه الفكرُ فى ذلك ؛ فيقول : سُبْحَان الله .

ولو أن إنسانًا تفكر فى رُمَّانة فنظر فى تَصفيف حبِّها ، وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل، وإقامة الماء على عظم العجم [2] ، وجعل الغشَاء عليه يحفظُه ، وتصوير الفَرْخ فى بَطْنِ البيضة ، والآدَمِىّ فى حَشَا الأمِّ ، إلى غير ذلك من المخلوقات - أزْعَجَهُ هذا الفكْرُ إلى تَعْظِيم الخالق ، فقال : سبحان الله ، وكان هذا التسبيحُ ثمرةَ الفكر . فهذا تسبِيحُ المتيقظين .

وما تَزَالُ أفكارهم تَجُول فتقع عباداتهم بالتسبيحات مُحَقَّقَةً ، وكذلك يتفكَّرُون فى قبائح ذُنوبٍ قد تقدمت ؛ فيوجب ذلك الفكْرُ ، وَقَلَقَ القلْبِ ، وندَمَ النفس ، فيثمر ذلك أنْ يقول قائلُهم : أستغفر الله ، فهذا هو التسبيحُ والاستغفار ، فأما الغافلُون فيقولون ذلك عادة ، وشتَّان ما بين الفَرِيقَيْنِ .

٣٠٣ - فصل : العزلة دواء

لا يصَفْوُ التعبُّد ، والتزهُّدُ ، والاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع الكلى عن الخلْقِ ، بحيثُ لا يبصرُهم ، ولا يسمعُ كلامَهُم إلا فى وقْتِ ضَرُورة كصلاة جُمْعة أو جماعة .

---

(١) أى : الجيشين إذا تصافا للقتال .

(٢) العجم : أصل الدنب الذى تبدأ به إعادة الناس كما فى القاموس .

ويحترزُ فى تلك الساعاتِ منهم ، وإن كان عالمًا يُريد نَفْعَهم ، وعَدَهُمْ وَقْتًا معروفًا واحترز فى الكلام معهم .

وأما مَنْ يمشى فى الأسْوَاق اليوْمَ ويَبيعُ ويَشْترى مع هذا العالم المظْلم ، ويَرَى المُنْكَرَاتِ والمُسْتَهْجنات فما يعود إلى البيت إلا وقد أظلم القلبُ ، فلا يَنْبَغِى للمُريد أن يكون خروجه إلا إلى الصحراء والمقابر .

وقد كان جماعةٌ من السلف يَبيعون ويشترون ويَحْتَرِزُون ، ومع هذا ما صَفَا لصافيهمْ وقتٌ حتى قاطَعَ الخلقَ ؛ قال أَبُو الدَّرْدَاء : زَاوَلْتُ العبادةَ ، والتجارةَ فلم يَجْتَمِعَا فاخْتَرْتُ العبادةَ .

وقد جاء فى الحديث : « **الأسْوَاقُ تلهى وتُلْغى** »[1] . فمن قدر على الحمية النافعة ، واضطر إلى المخالطة والكسب للعائلة ، فلْيحترز احترَاز الْمَاشِى فى الشَّوْكِ ، وبعيد سلامته .

٣٠٤ - فصل : صفاء القلب بالتقوى

مَنْ رُزِق قَلْبًا طيِّبًا ، ولذةَ مُنَاجاة - فلْيراعِ حاله ، ولْيحترزْ من التغيير ، وإنما تَدُوم له حالُه بدوام التقْوَى .

وكنْتُ قد رُزِقْتُ قَلْبًا طيِّبًا ومناجاة حَلْوة ، فأحْضرنى بعضُ أرْباب المناصب إلى طعامه، فما أمكَنَ خلافُه ، فتناولْتُ وأكلْتُ منه فلقيتُ الشدائدَ ، ورأيْتُ العقوبةَ فى الحال ، واستمرَّتْ مُدَّةً ، وغضبْت على قلبي ، وفقَدْتُ كل ما كُنْت أجده ، فقلتُ : واعجبا كُنْتُ فى هذا كالمكْرَه ، فتفكرتُ وإذا به قد يمكن مُدَارَاة الأمر بلُقَيْمَاتٍ يَسيرة ، ولكن التأويلُ جعل تناولٌ هذا الطعام بِشَهْوة أكثر مما يدفع بالمداراة .

فقالت النفسُ : ومنْ أين لى أنَّ عينَ هذا حرامٌ ؟ فقالت اليقظةُ : وأين الورَعُ عن الشبهات ؟ فلما تناولْتُ بالتأويل لقمة استجلبتها بالطبع ، فلقد لَقِيتُ الأمرَّيْنِ بفقد القلب: ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَار** ﴾[2] .

٣٠٥ - فصل : مداومة اليقظة لطالب الآخرة

همةُ المؤمن متعلقةٌ بالآخرة ، فكل ما فى الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة ، وكل مَنْ

---

(١) البخارى بنحوه فى البيوع (٢٢٠٦٢) ، وفى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٣) بلفظ « . . .ألهانى الصفق بالأسواق » .

(٢) سورة الحشر ، آية : ٢ .

شغله شَىْءٌ فهمته شغلُه ، ألا ترى أنه لو دخل أربابُ الصنائع إلى دارٍ مَعْمورةٍ رأيت البزَّازَ ينظر إلى الفرشِ ، ويحزر [1] قيمته ، والنجّارُ إلى السَّقْفِ ، والبناءُ إلى الحِيطانِ ، والحائك [2] إلى نسجِ الثياب .

والمؤمن إذا رأى ظُلْمةً ذَكَر ظلمةَ القبر ، وإن رأى مُؤْلمًا ذكر العقاب ، وإن سَمِع صوتًا فظيعًا ذكر نَفْخةَ الصور ، وإن رأى الناس نِيَامًا ذكر الموْتَى فى القبور ، وإن رأى لَذَّةً ذكر الجَنَّة ، فهمتُه متعلقةٌ بما ثَمَّ ، وذلك يشغَلُه عن كل مَا تم وأعظم ما عنده أنه يتخايل دَوَامَ البقاء فى الجنَّة ، وأن بقاءه لا ينقطع ، ولا يزال ، ولا يَعْتَرِيه منغص ؛ فيكاد إذا تخايل نفسه متلقِّبًا فى تلك اللذات الدائمة التى لا تفنى يَطِيشُ فَرحًا ، ويسهل عليه ما فى الطريق إليها مِنْ ألم ، ومرضٍ ، وابتلاء ، وفَقْدِ محبوب ، وهُجُوم الموت ، ومعالجة غُصَصِه ، فإنَّ المشتاقَ إلى الكَعبة يَهُونُ عليه رملُ زرود [3] ، والتائقُ إلى العافية ، لا يبالى بمرارة الدَّوَاء ، ويعلم أن جودة الثمر ثَمَّ على مقدار جودةِ البِذْرِ ههنا ، فهو يتخيَّرُ الأجوَد، ويغتنم الزرْعَ فى تَشْرِينِ العُمُرِ من غير فُتُورِ .

ثم يتخايلُ المؤمنُ دخولَ النار ، والعقوبة ؛ فيتنغص عيشُه ، ويقوى قلقُه ، فعنده بالحالين شغلٌ عن الدنيا وما فيها ، فقلبُه هائمٌ فى بَيْدَاءِ الشوق تارةً ، وفى صَحْراءِ الخَوْف أُخْرَى ، فيما يرى البُنْيَان ، فإذا نازله الموتُ قوى ظنه بالسلامة ، ورجا لنفسه النجاةَ فيهُونُ عليه ؛ فإذا نزل إلى القَبْرِ ، وجاءه من يسألونه ، قال بعضهم لبعض: دَعُوهُ فما استَرَاح إلا الساعةَ : نسألُ اللهُ - عَزَّ وجَلَّ - يَقَظَةً تامّةً تحركنا إلى طلب الفضائل ، وتمنعُنَا من اختيار الرذائل ، فإنه إن وفّق ، وإلا فلا نافع .

٣٠٦ - فصل : اصطفاء الله للأولياء

لقد اعتبرتُ على مَولاى - سبحانه وتعالى - أمرًا عَجِيبًا ، وهو أنه تعالى لا يختارُ لمحبته ، والقرْبِ منه إلا الكَامل صُورَةً ومَعْنًى .

ولستُ أعنى حُسْنَ التخاطيط ، وإنما كمالُ الصورة اعتدالُها ، والمعتدلَةُ ما تخلو مِنْ حُسْنٍ ، فتتبُعها حسنُ الصورةَ الباطنة ، وهو كمال الأَخْلاق ، وزوال الأكدار ، ولا يرى فى باطنه خُبْثًا ولا كَدرًا ، بل قد حَسُن باطنه كما حُسْنَ ظاهرُه .

وقد كان مُوسَى - عليه السلام - كُلُّ مَنْ رآه يُحِبُّه ، وكان نَبِيُّنَا - ﷺ - كالقَمَرِ ليلة البَدْرِ [4] .

---

(١) يحزر : يقدر . (٢) الحائك : الخياط . (٣) سبق تعريفها .

(٤) رواه البخارى فى المناقب (٣٥٥٢) ، والترمذى فى المناقب (٣٦٣٦) ، والترمذى فى الشمائل (١٠ ، ١١) .

وقد يكونُ الولىُّ أسودَ اللون ، لكنه حَسَنُ الصورة ، لَطيفُ المعانى ؛ فعلى قَدْرِ ما عِنْدَ الإنسان من التمام فى كمال الخَلْقِ ، والخُلُقِ ، يكونَ عملُه ، ويكون تقريبُه إلى الحضْرَةِ بحسب ذلك .

فمنهم كالخادم على الباب ، ومِنْهم حَاجِبٌ ، ومنهم مقرب ، ويندُرُ مَنْ يتم له الكمال ؛ ولعله لا يُوجَدُ فى مِائَةِ سنةٍ منهم غَيْرُ واحد .

وهذه حكايةٌ ما تحصل بالاجتهاد ، بل الاجتهادُ يحصل منها ؛ لأنه إذا وقع تمامٌ حَثَّ على الجدِّ على قَدْرِ نقصانه . وهذا لا حيلَة فى أَصْلِه ، إنما هو جِبِلَّةٌ . وإذا أرادك لأمرٍ ، هيأك له .

٣٠٧ – فصل : الحق منزه عن العبث

تأملتُ على قَوْمٍ يدَّعون العقولَ ويعترضون على حِكْمة الخالق .

فنبغى أن يُقال لهم : هذا الفهمُ الذى دَلَّكُم على رَدِّ حِكْمته ، أَلَيْس هو من مِنَحه ؟ فأعطاكم الكمالَ ، ورضى لنفسه بالنقص ؟ هذا هو الكفرُ المحْضُ الذى يَزيدُ فى القبح على الجحْدِ ، فأوّل القوم إِبْليس ؛ فإنه رأى بعقله أن جَوْهَر النار أشرفُ من جَوْهَرِ الطين؛ فرد حِكْمة الخالق ، ومر على هذا خلقٌ كثيرٌ من المعترِضين ، مثلُ ابْن الرَّاوَنْدى، والبقرى ، وهذا المَعَرِّى اللَّعينَ يقولُ : كيف يُعابُ الحجَّاج بالسَّخَف ، والدهر أقبح فِعْلاً منه ؟ أترى يعنى به الزمان ! كَلا ، فإن مر الأوقات لا يفعل شيئًا ، وإنما هو تعريض بالله جل شأنه .

وكان يستعجِلُ الموْتَ ظَنًا منه أنه يستريح ، وكان يُوصى بترك النكاح ، والنسك . ولا يرى فى الإيجاد حِكْمة إلا العناءَ ، والتعبَ ، ومصير الأبدان إلى البلى .

وهذا لو كان كما ظَنَّ كان الإيجادُ عَبَثًا ، والحق مُنَزه عن العبث ؛ قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ [1] فإذا كان ما خلق لنا لم يخلق عبثًا. أفنكون نحنُ – ونحنُ مواطن معرفَتِه ، ومَحال تكليفه – قد وُجدْنَا عبثًا ؟

ومِثْلُ هذا الجهل إنما يصدرُ ممَّنْ ينظر فى قضايا العُقُول التى يحكم بها على الظواهر ، مثل أن يرى مبنيا ينقض ، والعقل بمجرده لا يرى ذلك حِكْمة ، ولو كُشفت له حِكْمةُ ذلك ، لعلم أنه صوابٌ ؛ كما كُشِف لـ « موسى » مرادُ الخَضِر فى خَرْقِ السفينة ، وقَتْل الغلام .

(١) سورة ص ، آية : ٢٧ .

ومعلومٌ أن ذبح الحيوان ، وتقطيع الرغيف ، ومَضْغ الطعام ، لا يظهر له فائدة عَلَى الإطلاق ، فإذا عُلِم أنه غذاءٌ لبدن مَنْ هو أشرف بَدَنًا من المذبوح - حَسُن ذلك الفعل .

واعجبا أو ما تقتضى العقولُ بوجُوب طاعة الحكيم الذى تعجز عن معرفة حكمة مخلُوقَاته ! فكيف تعارضه فى أفعاله ؟ نعوذ بالله من الخُذْلان .

٣٠٨ - فصل : وعظ السلاطين

يَنْبغِى لمن وَعَظَ سُلْطَانًا أن يبالغ فى التلطُّف ، ولا يواجهُه بما يقتضى أنه ظالمٌ ؛ فإن السلاطين حظُّهم التفردُ بالقَهْر ، والغلبة ، فإذا جرى نوعُ تَوْبيخ لهم كان إذْلالاً ، وهم لا يحتملون ذلك .

وإنما ينبغي أن يَمْزِجَ وعْظَه بذكر شَرَف الولاية ، وحُصُول الثواب فى رِعَاية الرَّعَايَا ، وذكْر سِيَر العادلين من أسلافهم ، ثم لِيَنْظُر الواعظُ فى حال المَوْعُوظ قبل وَعْظه ، فإن رأى سِيرَتَه حميدةً - كما كان مَنْصُورُ بْنُ عَمَّار وغيرُه يَعظون الرشيدَ ، وهو يَبْكِى ، وقصْدُه الخيرَ - زاد فى وَعْظه ووصيته .

وإن رآه ظالمًا لا يلتفتُ إلى الخير ، وقد غلب عليه الجهلُ ، اجتهد في أنْ لا يراه ولا يعظه ؛ لأنه إن وَعَظَهُ خاطر بنفسه ، وإن مدحه كان مُدَاهِنًا ، فإن اضْطرّ إلى موعظته كانت كالإشارة .

وقد كان أقوامٌ من السلاطين يَلِينون عند المَوْعِظة ، ويحتملون الواعِظِين ، حتى إنه قد كان المَنْصُورُ يُواجَه بأنك ظالمٌ فيصبر .

وقد تغيَّر الزمانُ ، وفسد أكْثرُ الوُلاة ، وداهنهم العلماءُ ، ومَنْ لا يداهِنُ لا يجد قَبُولاً للصواب ؛ فيسكت .

وقد كانت الولاياتُ لا يسألها إلا من أحْكمته العُلُومُ ، وثقَّفَتْه التجاربُ ، فصار أكثر الوُلاة يتساوون فى الجهل ، فتأتى الولاية على مَنْ ليس مِنْ أهلها ؛ ومثلُ هؤلاءِ ينبغى الحَذرُ منهم ، والبعدُ عنهم .

فمن ابْتُلِىَ بوعظهم فليكن على غاية التحرُّز فيما يقولُ ، ولا ينبغي أن يغترَّ بقولهم عظنا ؛ فإنه لو قال كلمةً لا توافق أغراضهم ثارت حراراتهم .

وليحذَرْ مذكر السلطان أن يعرِّض له بأرباب الوِلايات ؛ فإنهم إذا سَمِعُوا بذلك صار الواعظ مقصُودًا لهم بالإهلاك ؛ خوفًا من أن يعتبر السلطان أحوالهم فتفسد أمورهم .

والبعدُ فى هذا الزمانِ عنهم أصلحِ ، والسكوت عن المواعظ لهم أسلم ، فمن اضطر تلطَّف غايةَ التلطف ، وجعل وعْظَه للعوام ، وهم يسمعون ولا يعنيهم منه بشىء ، والله الموفق .

٣٠٩ - فصل : المدعون للنبوة ورسالة الإسلام

الحقُّ لا يشتبه بباطل ، إنما يموه الباطلُ عند من لا فَهْمَ له ، وهذا فى حَقِّ من يدَّعى النبوات ، وفى حق من يدَّعى الكراماتِ .

أما النبوَّات : فإنه قد ادَّعاها خلقٌ كثير ظهرت قبائحُهم ، وبانت فضائحُهم . ومنها ما أوجبته خِسَّةُ الهمة ، والتهتُّكُ فى الشهوات ، والتهافُتُ فى الأقوال والأفعال حتى افتضحوا .

فمنهم : الأَسْوَدُ الْعَنْسِىُّ ، ادَّعى النبوةَ ، ولقَّب نفسَهُ ذا الحمارة ؛ لأنه كان يقول : يأتينى ذو الحمار ، وكان أول أمره كَاهنًا يشعوذُ ؛ فيظهر الأعاجيب ، فخرج فى أواخر حياة النبى - ﷺ - فكاتبته مَذْحَج وواعدته نَجْرَانَ ، وأخرجوا عَمرَو بنَ حَزْمٍ ، وَخَالِدَ ابْنَ سَعيد صَاحِبَىْ رَسُولِ الله - ﷺ - وَصَفَا له اليمنُ ، وقاتل شَهْرَ بْنَ باذان ؛ فقتله ، وتزوَّجَ بنْتَه فأعانت على قتله ، فهلك فى حياة رسول الله - ﷺ - وبان للعُقَلاء أنه كان يشعوذ .

ومنهم مُسَيْلِمَةُ ، ادَّعى النبوة ، وتَسَمَّى رحمان اليمامةِ ؛ لأنه كان يقول : الذى يأتينى رحمان .

فآمن برسُولِ الله - ﷺ - وادَّعى أنه قد أُشْرِكَ معه ، فالعجبُ أنه يؤمن برسول ، ويقول إنه كذَّاب .

ثم جاء بقرآن يُضْحِك الناسَ ، مثل قوله : يَا ضُفْدَعُ بِنْتَ ضُفْدَعِين ، نقى مَا تَنقِّين ، أعْلاك فِى الْمَاء وأَسْفَلُكِ فِى الطِّين . ومن العجائبِ شاةٌ سوداءُ تحلب لبنًا أَبْيض ، فانهتك ستره فى هذه الفصاحة .

ثُمَّ مَسَحَ بيده على رأس صَبِىٍّ فذهب شعرُه .

وبَصَقَ فِى بِئْرٍ فَيَبِسَتْ ، وتزوَّج سَجَاحِ التى ادَّعت النبوة ، فقالُوا : لا بُدَّ لها من مَهرٍ ، فقال : مهرُها أنّى قد أسقَطْتُ عنكم صلاةَ الفجْرَ ، والعَتَمة .

وكانت - سَجَاحِ هذه - قد ادَّعتِ النبوَّةَ بعد موت رَسُولِ الله - ﷺ - ؛ فاستجاب

لها جماعةٌ ، فقالت : أعدُّوا الرِّكَابَ ، واستعدُّوا للنِّهابِ ، ثم اعبُرُوا على الرَّبَابِ ، فليس دونهم حجَابٌ ؛ فقاتلوهم . ثم قصدت اليمامةَ فهابها مُسَيْلِمَةُ ؛ فَرَاسَلَها ، وأهْدَى لها ، فحضرتْ عنده فقالت : اقرأ عليَّ ما يأتيك به جبْرِيلُ فقال : إنَّكُنَّ مَعْشَر النساء خُلِقتن أفوَاجًا ، وجُعِلْتن لنا أزواجًا ، نُولِجُهُ فيكُنّ إيلاجًا . فقالَتْ : صَدَقْتَ أنْتَ نَبِى، فقال لها : قُومِى إلَى المخْدَعِ ، فَقَدْ هُيِّئَ لَك المَضْجَع ، فإنْ شِئْتِ مُسْتَلْقَاة وإنْ شئْتَ عَلَى أربَعْ ، وإنْ شئْتِ بِثُلثَيْه وَإنْ شئْتِ به أجْمَعْ .

فقالت : بَلْ به أجْمع ؛ فهو للشمل أجْمع . فافتُضِحَتْ عند العقلاء من أصحابها ، فقال منهم عُطَارِدُ بْنُ حَاجِب :

أَضْــحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَى يُطَافُ بهَا ... وأصْــبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا

فَـلَعْنَةُ الله رَبِّ النَّاسِ كُــلهِــمُ ... عَلَى سَجَاحِ وَمَنْ بالإفْك أغوَانَا

أعْــنِى مسيلمة الْكَذَّابَ لا سُقِيَتْ ... أَصْــدَاؤُهُ مِنْ رُعَيْثٍ حَيْثُمَا كَانَا

ثم إنها رجعت عن غَيِّها وأَسْلمت ، وما زالت تبينُ فضائحُ مُسَيْلِمَة حتى قُتل .

ومنم طُلَيحَةُ بْنُ خُوَيْلد : خرج بعد دَعْوَى مُسَيْلمَةَ النبوة ، وتبعه عوامٌ ، ونزل سُمَيْرًا، فتَسَمَّى بذى النون ، يقولُ : إنَّ الذى يأتيه يُقال له ذو النون ، وكان من كلامه: إنَّ الله لا يَصْنَعُ بتعْفير وُجُوهكُم ، ولا قُبْح أدْبَاركم شيئًا فاذْكُروا الله أعِفَّةً قيَامًا .

ومنْ قُرْآنه : والحمام وَاليَمَام ، والصُّرَد [1] الصُّوَّام ، ليبلغن مُلْكنَا العرَاقَ والشَّامَ .

وتبعه عُيَيْنَةُ بْنُ حُصَيْن ، فقاتله خَالدُ بْنُ الوليد ، فجاء عُيَيْنَةُ إلى طُلَيْحَةَ فقال : وَيْحَكَ أجاءك المَلَكُ ، قال : لا ، فارْجعْ فقاتِل ، فقاتل ثم عاد ، فقال : أجاءك ؟ فقال : لا، فعاد فقاتل ، فقال : أجاءك ؟ قال : نعم ، قال : ما قال لك ؟ قال : إن لك جَيْشًا لا تنساه ؛ فصاح عُيَيْنة : الرجلُ - والله - كَذَّابٌ ؛ فانصرف الناس مُنْهزمين، وهرب طُلَيْحَةُ إلى الشام ، ثم أسلم وصَحّ إسلامه ، وقُتل بنهاوند .

وذكر الوَاقدىُّ [2] : أنَّ رجلاً من « بَنِى يَرْبُوعَ » يقال له جُنْدُبُ بْنُ كُلْثُوم ، كان يُلَقَّب كردانًا ادَّعَى النبوة على عهد رسول الله - ﷺ - وكان يزعُم أن دليلَه على نُبوّته أنه

(١) الصرد : بضم الصاد وفتح الراء هو طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير .

(٢) هو محمد بن عمر بن واقد الأسلمى الواقدى المدنى القاضى متروك مع سعة علمه توفى سنة (٢٠٧ هـ) .

يسرجُ مَسَاميرَ الحديد والطِّين . وهذا لأنه كان يَطْلِى ذلك بدُهْنِ البَيْلَسانِ ؛ فتعمل فيه النار .

وقد تنبأ رجلٌ يقال له كَهْمَسٌ الكلابىُّ ، وكان يزعم أن الله تعالى أوحى إليه : يَأَيُّهَا الجائعُ ، اشرَبْ لَبَنًا تشبَعْ ، ولا تضرِبِ الَّذى لا ينفَع ؛ فإنه ليس بمقْنَعْ .

وزعم أن دليله على نُبوّته أنه يُطْرَحُ بين السِّباع الضاريَةِ فلا تأكلُه ، وحيلته فى ذلك أنه يأخذ دُهْنَ الغار [1] ، وحَجَرَ البرسان ، وقُنْفُذًا مُحْرقًا ، وزبدَ البحر ، وصَدَفًا محرقًا مسحُوقًا ، وشيئًا من الصبر ، والحبطَ [2] : فَيُطْلَى به جسمه ، فإذا قربت منه السباعُ فشمت تلك الأرياح وزفُورَتَها نفرت .

وتنبَّأ بالطائف رجلٌ يُقال له أَبُو جَعْوَانَةَ العَامِرىّ ، وزعم أنَّ دليله يَطْرَحُ النارَ في القُطْنِ فلا يَحْتَرِق ؛ وهذا لأنه يدهنه بدُهْنٍ مَعْرُوف .

ومنهم هُذَيْلُ بْنُ يَعْفُورَ مِنْ بَنِى سَعْدِ بْنِ زُهَيْر ، حكى عنه الأصْمعى أنه عارض سُورَةَ الإخلاص، فقال: « قل هو اللهُ أحَدٌ إلَهٌ كالأسَدِ ، جالِسٌ على الرَّصدِ [3] ، لا يفُوتُه أحَدٌ » .

ومنهم : هُذَيْلُ بْنُ وَاسِع ، كان يزعم أنه من ولد « النَّابِغَة الذُّبْيَانى » ، عارض سورةَ الكَوْثَر ، فقال له رجل : ما قلت ؟ فقال : « إنَّا أعْطَيْنَاكَ الجَوَاهِرْ ، فصلِّ لربِّك وَجَاهِرْ ، فما يَرُدُّكَ إلا كُلُّ فَاجِرْ » ، فظهر عليه السنورى ، فقتله ، وصَلَبَهُ على العمود، فعبر عليه الرجلُ ، فقال : « إنا أعطيناك العمود ، فصلِّ لربِّك مِنْ قُعُود ، بلا رُكُوعٍ ولا سُجُود ، فما أرَاكَ تَعُود » .

وممن ظهر فادَّعى أنه يُوحَى إليه المُخْتَارُ بْنُ أَبِى عُبَيْد ، وكان مُتخبِّطًا فى دعواه ، وقتل خلقًا كَثيرًا ، وكان يزعم أنه ينصر الحُسَيْن - رضوان الله عليه - ثم قُتِل .

ومنهم حَنْظَلَةُ بْنُ يَزِيدَ الكُوفِىّ ، كان يزعم أن دليله أنه يُدْخِلُ البيضةَ فى القنينة [4] ، ويخرجها منها صحيحةً . وذاك أنه كان ينقع البيضة فى الخلِّ الحامض ، فيلين قِشْرَها ، ثم يصب ماء فى قنينة ، ثم يدسُّ البيضةَ فيها ، فإذا لقيت الماءَ صلبت .

وقد تنبأ أقوامٌ قبل نبينا - ﷺ - كزرادشت ومَانى ، وافْتُضِحُوا ، وما من المدَّعين إلا مَنْ خذل .

---

(١) الغار : شجر له دهن . (٢) الحبط : آثار الجرح بعد البرء أو الآثار الوارمة التى لم تشقق.
(٣) الرصد : الطريق . (٤) القنينة : الإناء الذى يوضع فيه الشراب وتكون رأسه ضيقة .

وقد جاءت القَرَامطَةُ بحيلَ عجيبة ، وقد ذكرتُ جُمهورَ هؤلاءِ وحيلَهُم فى كتابى التاريخ المُسَمَّى بـ « المنتظم » ، وما فيهم مَنْ يُتِمُّ له أمرٌ إلا ويفتضح .

ودَليلُ صحَّة نُبُوَّة نبينا - ﷺ - أجلى من الشَّمْسِ ، فإنه ظهر فقيرا والخلق أعداؤه فوعد بالملك وأخبر بما سيكون فكان وصين من زمن النبوة عن الشَّرَه ، وخَسَاسَةِ الهِمَّة ، والكذب ، والكِبْر .

وأُيِّد بالثقة ، والأمانة ، والنزاهة ، والعِفَّة ، وظهرتْ مُعْجزَاتُه للعبيد ، والقريب .

وأُنْزِل عليه الكتابُ العزيزُ الذى حَارَتْ فيه عقولُ الفصحاء ، ولم يقدِرُوا على الإتْيَان بآية تُشْبهه فَضْلاً عن سورة .

وقد قال قائلُهم ، وافْتُضِح ، ثم أخبر أنه لا يُعارَضُ فيه فكان كما قال ؛ وذلك قولُه تعالى : ﴿ **فَأْتُوا بسورَة** ﴾ [1] ، ثم قال : ﴿ **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تفعلوا** ﴾ [2] ، وكذلك قولُه : ﴿ **فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ** ﴾[3] ، ﴿ **ولن يتمنوه** ﴾ [4] فما تمنّاه أحد إذ لو قال قائل : قد تمنيتُه لبطَلَتْ دعواهُ .

وكان يقولُ ليلةَ غزاة بَدْر : « **غداً مَصْرَعُ فُلانٌ هَهُنا** » [5] فلا يتعداه ، وقال: « **إذَا هَلَكَ كسْرَى فلا كسرَى بَعْدَهُ ، وإذَا هلك قَيْصَرٌ فَلا قَيْصَرٌ بَعْدَه** » [6] . فما ملك بعدهما من له كَبيرُ قَدْر ، ولا مَنْ استتب له حال .

ومن أعظم دليل على صدقه أنه لم يرد الدنيا ، فكان يَبِيتُ جائعًا ، ويُؤْثر إذا وجد ، ويلبس الصوف ، ويقوم الليل .

وإنما تطلب النواميسُ لاجتلابِ الشَّهَواتِ ، فلما لم يردها دَلَّ على أنه يدل على الآخرة التى هى حَق .

ثم لَمْ يَزَلْ دينُه يعلُو حتى عَمّ الدنيا ، وإنْ كان الكفرُ فى زَوَايَا الأرض إلا أنه مخذُولٌ .

وصار فى تابعيه من أمته الفقهاء الذين لو سَمع كلامُهمُ الأنبياءُ القدماءُ تحيَّرُوا فى حُسْن استخراجهم ، والزهاد الذين لو رآهم الرهبانُ تحيَّرُوا فى صِدْق زهدهم . والفُطَناء الذين لا نَظِيرَ لهم فى القدماء .

---

(1) سورة البقرة ، آية : ٢٣ .
(2) سورة البقرة ، آية : ٢٤ .
(3) سورة البقرة ، آية : ٩٤ .
(4) سورة البقرة ، آية : ٩٥ .
(5) أبو داود فى الجهاد (٢٦٨١) ، والبيهقى فى الدلائل (٤٧/٣) .
(6) البخارى فى فرض الخمس (٣١٢٠) ، ومسلم فى الفتن (٢٩١٨) .

أوَ لَيْس قومُ مُوسَى يعبدون بقرةً ، ويتوقَّفُون فى ذَبْح بقرة ، ويعبرُون البحر ، ثم يقولون : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا ﴾ [1] ، وقوم عِيسَى يدَّخِرُون من المائدة وقد نُهوا ، والمعتدون فى السَّبْتِ يَعْصُون الله لأجل الحيتان .

وأُمَّتُنَا بحمد الله تعالى سليمةٌ من هذه الأشياء ، وإنما فى بعضها مَيْلٌ إلى الشهوات المنهى عنها ، وذلك من الفروع لا فى الأُصول .

فإذا ذُكِّرُوا بكَوْا ، وندِمُوا على تَفريطهم ، فنحمد اللهَ على هذا الدين ، وعلى أنَّنَا من أمة هذا الرسول - ﷺ - .

وقد كان جماعةٌ من المتصنِّعين بالزهد مالُوا إلى طلب الدنيا ، والرِّيَاسَة ، فاستغوَاهم الهوى فخرقوا بإظهار ما يشبه الكرامات : كالحلاج ، وابْنِ الشَّاشِ ، وغيرهما ممن ذكرت حال تَلْبِيسه فى كتاب « تَلْبِيسِ إِبْلِيس » ، وإنما فعلوا ذلك لاختلاف أغْراضهم .

ولم يزَل اللهُ ينشئ فى هذا الدين منَ الفقهاءِ من يُظْهر ما أخفاه القاصرون ، كما يُنْشِئ من علماء الحديث مَنْ يَهْتِكُ ما أشاعه الواضِعُون ؛ حِفْظًا لهذا الدين ، ودَفْعًا للشبهات عنه .

فلا يزالُ الفقيهُ ، والمحدِّثُ يظهرَانِ عُوَارَ كل مُلَبِّسٍ بوضع حديث أوْ بإظهار دَعْوَى تزهد ، وتَنْميس ؛ فلا يؤثر ما ادَّعَيَاه إلا عند جاهل بَعِيد من العلم ، والعمل : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ﴾ [2] .

٣١٠ - فصل : معنى الوجود الحق

وَاعجبًا من مَوْجود لا يفهم معنى الوُجُودِ ، فإن فهم لم يعمل بمقتضى فَهْمِه ؛ يعلم أن العمر قَصِيرٌ ، وهو يُضَيِّعه بالنوم ، والبَطَالة ، والحديث الفارغ ، وطلب اللذات . وإنما أَيَامُه أيامُ عمل لا زَمَانَ فَرَاغ ، وقد كُلِّفَ ببذل المال ومخالفة الطبع من الشرع ، فبخل به إلى أن يتضايق الخِنَاقُ ؛ فيقول حينئذ : فَرِّقُوا عنى بعد موتى ، وافعلوا كَذَا ، فأين يقع هذا لو فَعَل ، وبعيدٌ أن يفعل ، وإنما يرادُ بإنفاقك فى صحَّتك مخالفةُ الطبع فى تكلُّفِ مشَاقِّ الإخْرَاج فى زَمَنِ السلامَة ، فافرق بين الحالَتين إن كان لك فهم .

فالسعيدُ من انتبه لنفسه ، وعمل بمقتضى عقله ، واغْتَنَم زمنا نهايته الزَّمن [3] ،

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٣٨ . (٢) سورة الأنفال ، آية : ٨ .
(٣) الزمن : المرض الطويل وهو من الزمانة .

وانتهب عُمُرًا يا قُرْبَ انقطاعه ! وَيْحَكَ ما تصنع بادِّخار مال لا يُؤثر حسنة فى صحيفة ، ولا مكرمة فى تاريخ .

أما سَمعْتَ بإنفاق أبى بكر ، وبُخْلِ ثَعْلَبَةَ ؟ أمَا رَأَيْتَ تأثيرَ مَدْحِ حَاتِمٍ وبُخل الحُبَاحِبِ ! ويحك لو ابتلاكَ فى مالك لاستغثْتَ ، أو فى بَدَنك ليلةً بمرض لشكوتَ

فانت تَسْتَوْفِى مطلوباتك منه ، ولا تَسْتَوْفِى حَقَّهُ عليك : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [1] ولتعلم أن هذا القدْرَ المفرّط فيه يحل الخلود الدائم فى ثواب العمل فيه .

فسبحان مَنْ مَنّ على أقوامٍ فَهِمُوا المرادَ فأتعبوا الأجساد ، وغطَّى على قُلوب آخرين فوجودهم كالعدم .

وكيف لا يُتْعِبُ العاقل بَدَنَهُ أتعاب البدن والمقصود منى. أترى ما بالُ الحق متجلّيًا فى إيجادك أيها العبد ! بلى ، والله إن وجودك دَليلُ وجوده ، وإن نعَمَهُ عليك دليل جودُه، فكما قدمك على سائر الحيوانات ، فقدِّمْه فى قلبك على كل المطلُوبات . وَاخَيْبَةَ مَنْ جَهِلَهُ ، وَافَقْر من أعرض عنه ، واذُلَّ مَنْ اعتز بغيره ، وَاحَسرة من اشتغل بغير خدمته .

٣١١ - فصل : العاقل ينظر إلى نفسه

إنى أعجبُ مِنْ عاقل يرى استيلاءَ الموت على أقرانه ، وجيرانه - كيف يطيب عيشه ؟ خصوصًا إذا علَتْ سنّه .

واعجبًا لمن يرى الأفاعى تدبُّ إليه ، وهو لا يَنْزَعِج ! أمَا يرى الشيخُ دَبِيب الموت فى أعضائه ، قد أخرج سكين القوى ، وأنزل متغشرم الضعف ، وقُلب السوادُ بَيَاضًا ، ثم فى كل يوم يَزِيدُ الناقص .

ففى نظر العاقل إلى نفسه ما يشغله عن النظر إلى خراب الدنيا، وفرَاقِ الإخوان، وإن كان ذلك مُزْعِجًا، ولكنْ شُغْلُ مَنِ احْترق بيتُه بنقل مَتَاعه يلهيه عن ذِكْرِ بيوت الجيران.

وإنه لما يسلى عن الدنيا ، ويهون فِراقَها استبدالُ المعارف بمن تكره فقد رأينا أغنياء كانوا يُؤْثِرُونَ ، وفُقَراءَ كانوا يَصْبِرُون ، ومحاسبين لأنفسهم يتورعون ، فاستُبدلَ السفهاءُ عن العقلاء ، والبخَلاءُ عن الكرماء .

فيا سُهُولَةَ الرحيل ، لعل النفسَ تلقى من فَقَدتْ ؛ فتلحق بمن أحبت .

---

(١) سورة المطففين ، آية : ١ .

٣١٢ - فصل : سفالة الإلحاد

نظرت فى قول الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ والجبال وَالشَّجَرَ وَالدَّوَابَ** ﴾ ثم قال : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ** ﴾ (١) فرأيتُ الجمادات كلَّها قد وُصِفَتْ بالسجود ، واستثنى مِنَ العُقَلاء ، فذكرت قول بَعْضِهِم:

مَا جَــحَدَ الصَّامِتُ مَنْ أَنْشَأَهُ ومِنْ ذَوى النُّطْقِ أَتَى الْجُحُودُ

فقلتُ : إنَّ هذه لقدرة عظيمةٌ ، يُوهب عقل الشخص ، ثم يُسْلب فائدته وإن هذا لأقوى دليل على قادرٍ قاهر ، وإلا فكيف يحسُن مِنْ عاقل أن لا يعرفَ بوجوده وُجُودَ مَنْ أوجده ؟ وكيف ينحت صَنَمًا بيده ثم يعبده ؟ غير أن الحق - سبحانه وتعالى - وهب لأقوامٍ من العقل ما يثبت عليهم الحجَّةَ ، وأعمى قلوبهم كما شاء عن المحجة .

٣١٣ - فصل : أذى مخالطة من لا يصلح

ما رأيتُ أكثرَ أذى للمؤمن مِنْ مُخَالطة مَنْ لا يصلح ؛ فإن الطبع يسرق ، فإن لم يتشبه بهم ولم يسرِقْ منهم - فترَ عن عمله .

فإن رؤيةَ الدنيا تحثُّ على طلبها ، وقد رأَى رسولُ الله - ﷺ - سترًا على بابه فهتكه، وقال : « **مَالِى وَللدُّنيَا** » (٢) . ولبس ثوبًا له طرازٌ فرماه وقال : « **شَغَلَتْنى أَعْلامُه** » (٣) . ولبس خاتمًا ثم رَماه وقال : « **نَظَرْتُ إِلَيْكُمْ وَنَظَرْتُ إِلَيْه** » (٤) . وكذلك رؤيةُ أربابِ الدنيا ، ودُورهم ، وأحوالهم ، خُصُوصًا لمن له نفس تطلُب الرفعة .

وكذا سمَاعُ الأغانى ، ومخالطة الصُّوفية الذين لا نظر لهم اليوم إلا فى الرزقِ الحاصل، لو كان مِنْ أى مكان قبلوه ، ولا يتورَّعُون أن يأخذوا مِنْ ظَالمٍ ، وليس عندهم خوفٌ لما كان أوائلُهم .

فقد كان سَرِىّ السَّقَطىّ يبكى طُولَ الليلِ ، وكان يُبَالغ فى الوَرَع وهم ليس لهم ورع سرى ، ولا لهم تعبدُ الجُنَيْد ، وإنما ثَمَّ أكلٌ ، ورَقْصٌ ، وبَطَالَة ، وسماع أغانى من المُرْدان ، حتى قال بعضُ مَن يعتبر قوله : حضرتُ مع رجلٍ كَبِيرٍ يُومًا إليه من مشايخ الرُبطَ ، ومُغنِّيهم أَمْرَدُ ، فقام الشيخُ ونقَّطَهُ بدينار على خَدّه .

وادّعاؤُهم أن سماع هذه الأشياء تدعُو إلى الآخرة - فوق الكذب ، ولَيْسَ العجبُ منهم ، إنما العجبُ من جُهَّالٍ يَنفُقون عليهم ، فيُنفقون (٥) عليهم .

---

(١) سورة الحج ، آية : ١٨ . (٢ - ٤) سبق تخريجهم .

(٥) ينفقون : يروجون . والثانية من الإنفاق .

ولقد كان جماعةٌ من القُدَماء يرون أوائل الصوفيَّة يتعبَّدون ، ويتورَّعُون ، فيعجبهم حالُهُم ، وهم معذورون فى إعجابهم بهم ، وإن كان أكثر القوم فى تعبدهم على غير الجادَّة ، كما ذكرتُ فى كتابى المسمى بـ « تَلْبِيس إبْلِيس » .

فأمَّا اليومَ فقد برح الخفاء ، أحدُهم يتردد إلى الظَّلَمَة ، ويأكُل أموالهم ، ويُصافحهُم بقميصٍ ليس فيه طرازٌ ، وهذا هو التصوف فَحَسْبُ .

أوَ لا يَسْتحيى من الله مِنْ زُهْد فى رفيع الأثواب لأجل الخلائق ، لا لأجْل الحق ، ولا يُزَهِّدُ فى مَطْعَم ، ولا فى شُبهة ؟ فالبعدُ عن هؤلاء لازمٌ .

وينبغى للمنْفَرِد لطاعة الله - تعالى - عن الخلق ألا يخرج إلى سوقٍ جَهْدَه ؛ فإن خرج ضَرُورةً غَضَّ بصره ، وأن لا يزورَ صَاحِبَ مَنْصب ، ولا يَلْقاه ، فإن اضْطُرَّ دَارَى الأمْر .

ولا يُخالط عَامِّيًا إلا لضرورة مع التحرز ، ولا يَفْتَحُ على نفسه بَابَ التزوّج ، بل يَقْنَعُ بامرأةٍ فيها دينٌ ؛ فقد قال الشاعر :

وَالْمَــرْءُ مَا دَامَ ذَا عَـيْنٍ يُقَـلِّبُهَا ... فِى أَعْيُنِ الْعِينِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ

يَسُــرُّ مُقْـلَتَهُ مَا ضَــرَّ مُهْجَتَهُ ... لا مَرْحَـبًا بِسُـرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

فإن كان يغلب عليه العلمُ انفرد بدراسته ، واحترز عن الأتباع المتعلمين ، وإن غلبت عليه العبادةُ ، زادَ فى احْترازه .

وَلْيَجعَلْ خَلْوتَه أنيسَهُ ، والنظرَ فى سِيَرِ السلف جَلِيسَهُ ، وَلْيكن له وظيفةٌ من زيارَة قُبُورِ الصالحين والخلْوةِ بهَا .

ولا ينبغى أنْ يفوتَهُ وِرْد قيام الليل ، ولْيكُنْ بعد النصفِ الأول ، فَلْيُطِلْ مهما قَدر ؛ فإنه زمانٌ بعيد المثل .

وليمثل رَحيلَه عن قرب ؛ ليقصر أمله ، وليتزوَّدْ فى الطريق على قَدْرِ طُولِ السفر . نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - يَقَظةً مِنْ فَضْله ، وإقْبالاً على خِدْمته ، وألا يخذُلَنا بالالتفاتِ عنه ، إنه قريبٌ مُجيبٌ .

٣١٤ - فصل : نعم الله التى لا تحصى

كُلَّما نظرتُ فى تواصُل النِّعم علىّ تخيرت فى شُكْرها ، وأعلمُ أن الشُّكْرَ من النعم فكيف أشكر ! لكنى معترف بالتقْصير ، وأرْجُو أن يكونَ اعترافِى قَائمًا ببعْضِ الحقوق .

وعندي خلة أرجو بها كُلَّ خيرٍ ، وهي أنَّ من يصومُ أو يصلي يرى أنه تعبد ، ويخدم كأنه يقضي حق المخدوم ، وأنا أرى أني إذا صلَّيْتُ رَكْعتين فإنما قمتُ أكدى فلنفسي أعمل ، إذ المخدومُ غني عن طاعتي .

وكان بعضُ المشايخ يقول : جاء في الحديث : « الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ » [1] ، وأنا أقول : العبادةُ دعاءٌ . فالعجبُ ممن يقف للخدْمة يسأل حَظَّ نفسه ، كيف يرى أنه قد فعل شيئًا ! إنما أنت في حاجَتك . ومنَّةُ من أيقظك لا تُقاومها خدْمتُك ، فأنا أقولُ كما قال الأوّل :

يَا مُنْتَهَـــى الآمَـــالِ ... أَنْتَ كَفَلْتَنِي وَحَفِظْتَنِي
وَعَدَا الزَّمَانُ عَلَيَّ كَـيْ ... يَجْـــتَاحَـنِي فَمَنَعْتَنِي
فَانْقَـــادَ لِي مُتَخَشِّـــعًا ... لَمَّـا رَآكَ نَصَـــــرْتَنِي
وَكَسَـوْتَنِي ثَوْبَ الْغِنَى ... وَمِنَ المغالب صُـــنْتَنِي
فَـإِذَا سَـكَتُّ بَدَأْتَنِي ... وَإِذَا سَـــأَلْتُ أَجَبْتَنِي
فَـإِذَا شَـكَرْتُكَ زِدتَنِي ... فَمَنَحْـــتَنِي وَبَهَرْتَنِي
أَوْ إِنْ أَجُـدْ بِالْمَالِ فَـا ... لأمْـــوَالُ أَنْتَ أَفَدْتَنِي

٣١٥ – فصل : علماء غافلون

رأيتُ أكثر العلماءِ يتشاغَلُون بصورة العلم : فهَمُّ الفقيه التدريسُ ، وهَمُّ الواعظِ الوعظُ .

فهذا يرعى درسه فيفرَحُ بكثرة مَنْ يسمعه ، ويقْدَحُ في كلام مَنْ يُخالفه ، ويمضي زمانه في التفكر في المناقَضات ؛ ليقْهَر من يُجادله ، وعينُه إلى التصدر ، والارتفاع في المجالس، وربما كانت همّتُه جمعَ الحُطَام ، ومخالطَةَ السلاطين .

والواعظُ همّته ما يزوّق به كلامَه ، ويكثر جمعه ، ويجلب به قُلُوبَ الناس إلى تعظيمه، فإن كان له نَظيرٌ في شغله أخذ يَطْعن فيه .

وهذه قلوبٌ غافلةٌ من الله - عَزَّ وجَلَّ - إذ لو كانت لها به معرفةٌ لاشْتغلَتْ به ، وكان أُنْسها بمناجَاته ، وإيثارها لطاعاته ، وإقْبالها على الخلوة به ، لكنّها لما خلت من

---

(١) رواه الترمذي في التفسير (٢٩٦٩ ، ٣٢٤٧) عن النعمان بن بشير بلفظ « الدعاء هو العبادة » ، وقال : حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨) ، وأحمد (٢٦٧/٤ ، ٢٧١) .

هذا ، تشاغَلَتْ بالدنيا وذاك دنيا مثلها ، فإذا خلت بخدمة الله - تعالى - لم تجدْ لها طَعْمًا ، وكان جمع الناس أحب إليها ، وزيارةُ الخلق لها آثرُ عندها ، وهذه عَلامةُ الخذْلان .

وعلى ضدِّ هذا متى كان العالِمُ مُقْبلاً على الله - سبحانه - مَشْغُولاً بطاعته ، كان أصْعَبُ الأشياء عنده لقاءَ الخلْق ومحادثتهم ، وأحبُّ الأشياء إليه الخلوة ، وكان عنده شُغْلٌ عن القدح فى النظراء ، أو عن طلب الرِّياسة ، فإن ما علق به همته من الآخرة أعلى من ذلك .

والنفسُ لا بُدَّ لها مما تشاغل به ، فمن اشتَغَلَ لخدمَة الخلق وأعرض عن الحقِّ ، فإنما يربى رياسته ، وذلك يُوجبُ الإعراض عن الحق ، و﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لرَجُلٍ من قَلْبَيْنِ فِى جَوْفه ﴾ [1] .

٣١٦ - فصل : حقيقة الشهوات

قد جاء فى الأثر : اللَّهُمَّ أرِنَا الأشْيَاءَ كما هى ، وهذا كلامٌ حَسَنٌ غاية الحسن ، وأكثرُ الناس ما يرون الأشياء بعينها ، فإنهم يَرَوْن الفانى كأنه باق . ولا يكادُون يتخايَلون زوالَ ما هُمْ فيه وإن علموا ذلك ، إلا أنَّ عين الحسّ مَشْغُولةٌ بالنظر إلى الحاضر ، ألا ترى زَوالَ اللَّذَّة ، وبقاءَ إثْمها ! ولو رأى اللصُّ قَطْعَ يده هان عنده المسروق .

فمَنْ جمع الأموال ولم يُنفقها فما رآها بعينهَا ، إذ هى آلةٌ لتحصيل الأغراض ، لا ترادُ لذاتها ، ومن رأى المعْصيةَ بعينَى الشَّهوة فما رآها ، إذْ فيها من العُيُوبِ ما شئْت ، ثم ثمرتُها عقوبةٌ آجلةٌ ، وفَضيحة عاجلةٌ .

وَانْظر إلى أكبر شهوات الحسِّ : وهو الوطْءُ فإنّ الماءَ لا يحصلُ إلا بعد مَطْعَم ومَشْرب ، ومَنْ تفكّر فى المَطعم نظر إلى حَرْث الأرض ، وأنها تفتَقرُ إلى بقرٍ للحرَاثة عليهن المحْرَاثُ ، وهو حَديدٌ ومعه خَشَبٌ ، ويتعلق به حبَالٌ ، فمن تفكر فى عمل الحبَال نظر فى زَرْع القنب [2] وتسريحه ، وفتله ، والحديد وجلبه وضربه . والخشب : ونباته ، ونجارته . ودَوَرَان الدُّولاب ، وعلمه ، ثم استحصاد الزرْع ، وحَصْده ، وتذريته ، وطَحْنه ، وعَجْنه وخبزه . ومن عمل التّنُّور ، وجلب الشوك

ومنْ هذا الجنس إذا نظر فيه كثر جدا حتى قالُوا لا تُنال لُقْمة إلا وقد عمل فيها ثلاثُمائة نفس أو نحوهم .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٤ .

(٢) القنب : نوع من نبات الكتان ثماره مخدرة ، ويصنع من قشره الحبال .

فإذا أكل تلك اللقمة فليفكر فى خَلْقِ الأسْنان لقطعها ، والأضْراس لطحنها ، وعذوبة ماء الفم لخلطها واللسان ليقلبها وعضلات الفم يصعد منها شيءٌ ، ويبقى شيءٌ حتى يصلح البَلْعُ . ثم يتناولُها المعى فيوصلها إلى الكبد ، فيقوم طَابِخًا لها، فإذا صارت دمًا نفت رُسُوبَها إلى الطِّحَال ، ومائيَّتَها إلى المَثَانَة ، واستخْلَصَتْ مِنْ أخْلَصِ الدم ، وأصفاه للكَبِد ، والدِّمَاغ ، والقلب . وأخذت أجْودَ ذلك فحدرتْه إلى الأُنْثَيَيْنِ مُعَدًا لخلق آدمى .

فإذا تحركت نيرَانُ الشهوة تدفقت تلك النطفةُ ، وقد حكم الشرعُ بطَهَارَتها ؛ وحُكِمَ لها بطهارة الرَّحِم والمحَلّ الذى يُبَاشِرُه الذَّكَرُ ، فيخلق منها الآدمى الموَحِّدُ .

فما جاء هذا الشخص إلا بأغلى الغلاء ، وبعد عجائب أشرْنا إليها ، لا أنَّا عددناها. أَفَمن فَهم هذا يحسُن منه أن يبدِّد تلك النطفَةَ فى حرام ؟ أو أن يطأ فى محلٍّ نَجِسٍ فتضيع؟ فكم يتعلق بالزنا مِن ما لا يفى مِعْشَارُ عُشْرِها بلذة لحظة ! منها : هتكُ العرْضِ بين الناس ، وكَشْف العَورَات المحرمة ، وخيانةُ الأخ المسْلِم فى زَوْجَتِه - إن كانت مُتَزوجة ، وفَضيحة المزنىِّ بها ، وهى كأُخْتٍ له أو بنت .

فإن عَلقَتْ منه ولها زوجٌ ألحقته بذلك الزوج ، وكان هذا الزانى سَبَبًا فى ميرَاث مَنْ لا يستحِقُّ ، ومَنع من يستحق ، ثم يَتَسَلْسَلُ ذلك مِنْ وَلَد إلَى ولد .

وأمَّا سخَطُ الحق سبحانه فمعلومٌ ، قال تعالى : **﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾** [1] ، وقال صلى الله عليه وسلم : **« مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله تَعَالَى مِنْ نطفَةٍ وَضَعَهَا رجل فِى رَحِمٍ لا تَحِلُّ لَهُ »** [2] .

ومن له فهمٌ فهو يعلم أن المراد من النطفة إيجاد الموحدين .

ولولا تركيبُ الشهوة لم يَقَعِ الوطْءُ ؛ لانه التقاءُ عُضْوَيْنِ غَيْرِ مُسْتَحْسنَيْنِ ، ولا صُورتُهما حسنةٌ ، ولا ريحهما طَيِّبٌ .

وإنما الشهوةُ تُغَطِّى عين الناظر ؛ ليحصل الولدُ أَصْلاً فهى عارض فمن طلب الشهوةَ ونسى جنَايته بالزنا ، فما رأى الأشْياء على ما هى ، وقِسْ على هذا المطْعَمَ ، والمشربَ ، وجمعَ المال ، وغير ذلك .

٣١٧ - فصل : الجاهل عدو لما جهل

إنْ قال قائل : أىُّ فائدة في خلق ما يُؤْذى ؟

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٣٢ .

(٢) السيوطى فى الجامع الصغير (٨٠٣٠) ، وعزاه لابن أبى الدنيا وسنده ضعيف .

فالجوابُ : أنه قد ثبتَتْ حكْمة الخالق ، فإذا خفيَتْ فى بعض الأمور وجبَ التسليمُ ، ثم إن المستحسنات فى الجملة أُنْمُوذَجٌ ما أعد من الثواب ، والمؤذيات أنموذجُ ما أعد من العقاب ، وما خُلق شىءٌ يضر إلا وفيه منفعة .

قيل لبعض الأطباء : إن فُلانًا يقول : أنا كالعقْربِ أَضرُّ ولا أنفع ، فقال : ما أَقلَّ علْمه ! إنها لَتَنْفَعُ إذا شُقَّ بَطْنُها ثم شُدَّ على موضع اللسعة ، وقد تُجْعل فى جَوْف فَخَّار مَسْدُود الرأسِ مُطْبق الجوانب ، ثم يُوضَع الفخار فى تَنُّور ، فإذا صارت رَمادًا سُقِى من ذلك الرماد مقْدار نصْف دَانق [1] ، أو أكثر مَنْ به الحَصَاةُ فيفتتها من غير أن يَضُرَّ بشىء من سائر الأعضاء ، وقد تَلْسَعُ العقربُ مَنْ به حُمًّى عتيقةٌ فتزول، ولسعَتْ رجلاً مَفْلُوجًا[2] فزال عنه الفالج . وقد تلْقَى فى الدهن حتى يجتذب قُوَاها فيزيل ذلك الدهن الأُوْرَامُ الغلِظة ، ومثل هذا كثير . فالجاهلُ عَدُو لما جهله .وأكبر الحماقَة ردُّ الجاهلِ على العالم.

٣١٨ - فصل : جلال العبادة وجمال العابدين

كلما أَوْغَلَتُ الفُهُومَ فى معرفة الخالق ، فشاهدت عظمتَهُ ، ولطفه ، ورفعته - تاهت فى محبته فخرجَتْ عن حَدِّ الثبوت .

وقد كان خلقٌ من الناس غلبت عليهم محبَّته فلم يقدرُوا على مُخَالطة الخلق ، ومنهم مَنْ لم يقدرْ على السكوت عن الذِّكْر ، وفيهم مَنْ لم يَنَمْ إلا غلبة ، وفيهم مَنْ هَامَ فى البرارى ، وفيهم مَنِ احْترق فى بدنه .

فيا حُسْنَ مَخْمُورهم ما ألذَّ سُكْره ! ويا عَيْش قَلقهَم ما أحْسن وجدَه !

كان أَبُو عُبَيْدَةَ الخوَّاصُ قد غلبه الوجْدُ فكان يمشِى فى الأَسْوَاق ، ويقول : وَاشَوْقَاهُ إلى مَنْ يَرانى وَلا أَرَاهُ .

وكان فَتْحُ بْنُ سخرف يقول : قَدْ طَالَ شَوْقِى إلَيْك ، فعجِّلْ قُدُومى عليك .

وكان قَيْسُ بْنُ الرَّبِيع كأنه مخمورٌ من غير شَرَابٍ .

وكان ابنُ عَقِيل يقولُ : إن التبذُّل [3] فيه سبْحانه أحسن من التجمُّلِ فى غيره ، هل

---

(١) الدانق : سدس الدرهم كما فى القاموس .

(٢) الفالج : استرخاء لأحد شقى البدن لانصباب خلط بلغمى تنسد منه مسالك الروح وفُلج كعُنى فهو مفلوج كما فى القاموس .

(٣) التبذل : التذلل والتهاون كما فى القاموس .

رأيت قطُّ عُرَاةً أحْسَنَ من المحْرِمينَ ! هل رأيت للمتزيِّنين برِيَاشٍ [١] الدنيا سمتا كأثواب الصالحين ! هل رأيت خمارًا أحْسن من نُعَاس المتهجِّدين ! هل رأيتَ سُكْرًا أحسن من صعقِ الوَاجِدين ! هل شاهدْتَ مَاءً صَافيًا أصفى من دُمُوع المتأسِّفين ؟ هل رأيت رءوسًا مائلة كرءوس المنْكَسِرينَ ؟ هل لَصِق بالأرض أحسْنُ مِنْ جباه المصلين ! هل حَرَّك نَسِيمُ الأسحار أوراقَ الأشجار ، فبلغ مَبْلَغَ تحريكه أذيالَ المتهجِّدين ؟ هل ارتفعتْ أكُفٌ وانبسطت أيْدى فضاهَتْ [٢] أكفَّ الراغبين ! هل حرَّكَ القلوبَ صوتٌ تَرْجيع لَحْن ، أو رَنَّةُ وَتَرٍ كما حرك حَنِينُ المشتاقين ! وإنما يحسن التبذل فى تحْصِيلِ أوفى الأغراض . فلذلك حسن التبذُّلُ فى خدْمة المُنْعِم .

٣١٩ - فصل : حسن تدبير العقل

أكثرهم لا يعرف الدين ولا يتأدَّبُ بآدابه بمرة ، يتفق له قلة العقل من أصل الوضع ثم ذلك القليل لا يعاون بل يعان عليه ، وذاك أن الجارحة إذا دام تعطلها عن عملها الذى هيئت له تعطلت وخمدت ولهذا تنقص أبصار النساخ والرفائين [٣] ، وتحتد أبصار أهل البوادى لأنه لا صاد لأبصارهم .

وشُغْلُ العقلِ التفكُّرُ ، والنظرُ فى عواقب الأحوال ، والاستدلالُ بالشاهد على الغائب، وهؤلاء يمتلئُون من الطعام دائمًا وذلك يؤذى العَقْل ، ثم يُطيلون النوْمَ ، فإذا انتبهوا شَرِبُوا المسْكِر فاتفق للعَقْلِ تعطيلٌ وتَغْطية ؛ فساء التدبير .

٣٢٠ - فصل : حدثوا الناس بما يعرفون

مِنَ المُخَاطَرَات العظيمة تحديثُ العوام ، بما لا يَحْتَمله قُلُوبهم ، أو بما قد رَسَخ فى نُفُوسهم ضدّه ؛ مَثالُه أنَّ قومًا قد رسخ فى قلوبهم التشْبيهُ ، وأنَّ ذاتَ الخالق - سبحانه- مُلاصقةٌ للعَرْشِ، وهى بقدرِ العَرْشِ، و يفضل من العرش قدر أرْبَعُ أصابع، وسمعُوا مثلِ هذا من أشْياخهم ، وثبت عندهم أنه إذا نزل انتقل إلى السماء الدنيا ، خلت منه ستُّ سموات ، فإذا دُعِيَ أحدُهم إلى التنزيه ، وقيل له : ليس كما خطر لك ، إنما يَنْبَغى أن تمرَّ الأحاديثَ كما جاءت مِنْ غير مُسَاكَنَة ما توهمته ، صَعُبَ هذا عليه لوجهين:

أحدهما : لغَلَبة الحس عليه ، والحسُّ على العوام أغلبُ .

والثانى : لما قد سمعه من ذلك من الأشياخ الذين كانوا أجهل منه ، فالمخاطبُ لهذا مخاطرٌ لنفسه .

---

(١) الرياش : اللباس الفاخر . (٢) ضاهت : شابهت .

(٣) الرفاؤون : الخياطون الذى يرفون الثياب .

ولقد بلغنى عن بَعْضِ من كان يتديَّن ممن قد رَسَخَ فى قلبه التشبيهُ أنه سمع مِنْ بعض العلماء شيئًا من التنزيه ، فقال : والله لو قَدرتُ عليه لقتَلْتُه . فاللهَ اللهَ أنْ تحدث مَخْلُوقًا من العوام بما لا يحتمله دون احتيال وتلطف ؛ فإنه لا يزول ما فى نفسه ، ويُخَاطِرُ المحدث له بنفسه ، فكذلك كل ما يتعلق بالأُصول .

٣٢١ - فصل : ميزان الرجولة

لا يغرَّك من الرجل طَنْطَنَتُه (١) ، وما تراه يفعل من صَلاة ، وصَوْم ، وصدقة ، وعُزْلة عن الخلق ؛ إنما الرجل هو الذى يُرَاعِى شيئين : حِفْظَ الحدُود ، وإخلاصَ العملِ؛ فكم قَدْ رأيْنا متعبدا يخرق الحدودَ بالغيبة ، وفعْلِ ما لا يجوزُ مما يوافق هواه .

وكم قد اعتبرنا على صَاحِبِ دينٍ أنه يقصد بفعله غَيْرَ الله تعالى ، وهذه الآفةُ تزيدُ ، وتنقصُ فى الخلق .

فالرجلُ كُلُّ الرجل هو الذى يُرَاعِى حُدودَ الله ، وهى ما فُرِض عليه وأُلزم به ، والذى يُحْسِن القصدَ ، فيكون عملُه وقولُه خالصًا لله تعالى ، لا يريدُ به الخلقَ ، ولا تَعْظيمهم له ، فرب خاشعٍ ليُقَال ناسكٌ ، وصامتٍ ليُقال خَائفٌ ، وتاركٍ للدنيا ليقالَ زَاهدٌ .

وعلامةُ المخلص : أن يكون فى جَلْوته كَخَلْوته ، وربما تكلَّفَ بين الناس التبسُّمَ والانبسَاطَ لينمَحى عنه اسْمُ الزاهد .

فقد كان ابْنُ سيرينَ يضحَكُ بالنهارِ فإذا جَنَّ الليلُ فكأنه قتل أهلَ القرية .

واعلم أن المعمول معه لا يريد الشركاء ، فالمخلصُ مفرد له بالقصد ، والمرَائى قد أشرك ؛ ليحصل له مدح الناس ، وذلك ينقلب ؛ لأن قلوبَهُم بيدِ مَنْ أشرك معه ، فهو يقلبها عليه لا إليه ، فالموفق مَنْ كانت معاملته باطنةً وأعماله خالصةً ، وذاك الذى تحبه الناس وإن لم يبالهم ، كما يمقتون المرَائي ، وإن زاد تعبده .

ثم إنَّ الرجل الموصوف بهذه الخصال لا يتناهى عن كمالِ العُلُومِ ، ولا يقصرُ عن طلب الفضائل ، فهو يملأ الزمان أكثر مما يسمعه من الخير ، وقلبه لا يفترُ عن العمل القلبى، إلا أن يصير شُغْلَه بالحق سبحانه وتعالى .

٣٢٢ - فصل : كبر المتعبدين

رأيتُ خلقًا يفرّطون فى أدْيانهم ثم يقولون : احملونا إذا متْنا إلى مقبرة أَحْمَد. أتراهم

---

(١) الطنطنة : ارتفاع الصوت .

ما سَمِعُوا أن رسول الله - ﷺ - امتنع مِنَ الصلاة على مَنْ عليه دَينٌ [(١)] وعلى الغَالِّ[(٢)]، وقال : « مَا يَنْفَعُهُ صَلاتِى عَلَيْه » . ولقد رأيت أقوامًا من العلماء حملهم حُبُّ الصيت على أن استخرجوا إذنًا من السلطان فدُفِنُوا فى دكَّة أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، وهم يعلمون أنَّ هناك خَلْقًا رفات بَعْضَهُم على بعض ، وما فيهم إلا من يعلم أنه ما يستحق القرب من مثل ذلك . فأين احتقارُ النفوسِ ؟ أَمَا سمِعُوا أن عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيز قيل له : تُدْفَنُ فى الحجرة ؟ فقال : لأنْ ألقى الله بكل ذنب ما خلا الشرك ، أحب إلىَّ مِنْ أن أرى نفسى أَهْلاً لذلك ؛ لكنَّ العاداتَ وحُبَّ الرياسة غلبت على هؤلاء ، فبقى العلمُ يجرى على الألْسُنِ عادة لا للعمل به ، ثم آل الأمر إلى جماعة خالطوا السلاطين ، وباشروا الظلم، يُزَاحِمُون على الدفن بمقْبَرَةِ أَحْمَدَ ويُوصُونَ بذلك ، فَلَيْتَهُم أَوْصُوا بالدفن فى مَوْضِعٍ فارغ، إنما يدفنون على موتى ، ويخرج عظام أولئك فيحشرون على ما ألفوا من الظلم حتى فى موتهم ، ويَنْسَوْن أنهم كانوا من أعْوان الظلمة .

أترى ما علموا أن مُسَاعِدَ الظالم ظالم ؟ وفى الحديث : « **كَفَى بِالْمَرْءِ خِيانةً أَنْ يَكُونَ أَمِينًا لِلْخَوَنَة** » [(٣)] . قال السَّجَّانُ لأحمد بْنِ حَنْبَلٍ : هَلْ أنا مِن أَعْوانِ الظَّلَمة ؟ فقال : لا، أنت مِنَ الظلمةِ ، إنما أعوانُ الظلمةِ مَنْ أعانك فى أمْرٍ .

٣٢٣ - فصل : الحسد المذموم

رأيت الناس يَذُمُّونَ الحاسدَ ويبالغُون ويقولون : لا يَحْسُدُ إلا شِرِّيرٌ يعادى نِعْمَةَ الله ، ولا يرضى بقضائه ، ويَبْخَلُ على أَخيه المسلم .

فنظرتُ فى هذا فما رأيتُه كما يقولون ؛ وذاك أن الإنسانَ لا يحب أنْ يرتفع عليه أحدٌ، فإذا رأى صديقَه قد عَلا عليه تأثر هو ، ولم يحبَّ أن يرتفعَ عليه ، ووَدَّ أن لو لم يَنَلْ صديقُه ما ينال ، أوْ أن ينَالَ هو ما نال ذاك ؛ لئلا يرتفعَ عليه ، وهذا مَعْجُونٌ فى الطين ، ولا لومَ على ذلك ، إنما اللومُ أن يعمل بمقْتَضَاهُ مِنْ قول أو فعل .

وكنتُ أظنُّ أن هذا قد وقع لى عن درسى وفَحْصِى ، فرأيت الحديثَ عن الحَسَنِ البَصْرِىِّ قد سبقنى إليه .

---

(١) امتناعه من الصلاة على من عليه دين ، رواه البخارى فى الحوالة (٢٢٨٩) ، ومسلم فى الفرائض (١٦١٩) .

(٢) أما امتناع النبى ﷺ من الصلاة عن الغال رواه أحمد (١١٤/٤) ، وأبو داود فى الجهاد (٢٧١٠) ، وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٤٨) ، والنسائى فى الجنائز (٦٤/٤) .

(٣) لم أقف عليه .

قال : أخبرنا عَبْدُ الخَالِقِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَد ، قال : أخْبَرَنَا ابْنُ النقود ، قال : أخبرنا المخلص ، قال : حدَّثنا البَغَوى ، قال : حدثنا أَبُو رَوْح ، قال : حدَّثنا مُخَلَّدُ بْنُ الحسَيْن، عن هِشَام ، عَنِ الحَسَنِ ، قال : « ليس مِنْ وَلَدِ آدَمَ أحَدٌ إلا وَقَدْ خُلِقَ مَعَهُ الْحَسَدُ ، فَمَنْ لَمْ يُجَاوِزْ ذَلِكَ بِقَوْلٍ وَلا بِفِعْلٍ لَمْ يَتْبَعْهُ شَيْءٌ » .

٣٢٤ - فصل : الإسراف الجنسى وضرره على البدن

مِنْ أعْظَمِ الضَّرَرِ الداخلِ على الإنسان كثرةُ النساء ، إنه أوَّلاً يشتت همه فى مَحَبَّتهن، ومُدَارَاتِهِنَّ ، وغَيْرَتهن ، والإنفاق عليهن ، ولا يَأْمن إحداهُنَّ أن تَكْرَهَهُ وتريدَ غيرَه ، فلا تتخلَّص إلا بقتْله ، ولو سلم مِنْ جميع ذلك ، لم يسلَمْ فى الكسب لَهُنّ ، فإن سلم لَمْ يَنْجُ من السآمة لهن أو لبعضهن ، ثم يطلبُ ما لا يقْدر عليه مِنْ غيرهن ، حتى إنه لو قَدر على نساءِ بَغْدَادَ كُلهن ، فقدمت امرأةٌ مستترة من غَيْرِ البلدِ - ظَنَّ أنه يجدُ عندها ما ليس عِنْدهن .

ولَعَمْرِى إنَّ فى الجِدَّة [1] لذة ، ولكن رُبَّ مَسْتُورٍ إذا انكشف افْتُضحَ ، ولو أنه سلم مِنْ كل أذى يتعلق بهن أنهك بدنه فى الجِمَاعِ ، فيكون طَلبُه للالتذاذِ مَانعًا من دوَامِ الالتذاذ.

ورُبَّ لُقْمة مَنَعت لقمات ، ورُبَّ لذة كانت سَبَبًا فى انقطاع لذات .

والعاقلُ مَنْ يقتصر على الواحدَة إذا وقعت غرضه ، ولا بُدَّ أن يكون فيها شَيْءٌ لا يوافقُ ، إنما العمل على الغالب فتوهب الخُلَّة الرديّة للمجيدة ، وينبغى أن يكون النظر إلى باب الدِّين قبل النظر إلى الحسن ؛ فإنه إذا قَلَّ الدين لم ينتفعْ ذُو مُرُوءَةٍ بتلك المرأة.

ومما يهلك الشيْخَ سَرِيعًا الجماعُ ، فلا يغترّ بما يرى من انبساطِ الآلة ، وحُصُولِ الشهوة، وذلك مستخرج من قُوَّته ما لا يعود مثْلُه ، فلا ينبغى أن يغتر بحركةٍ وشَهْوة ، ولا يقرَبُ من النساء إن كان له رأى فى البقاء .

٣٢٥ - فصل : أعيت الحماقة من يداويها

إذا رأيْتَ قليلَ العقل فى أصل الوضع ، فلا ترجُ خيرَه : فأمَّا إنْ كان وَافِرَ العقل ، لكنه يغلب عليه الهَوَى فارجه .

وعلامةُ ذلك أنه يُدبِّر أمره فى جهله ، فيستترُ من الناس إذا أتَى فاحشَةً ، ويراقب فى بعض الأحوال ، ويبكى عند الموْعظة ، ويحترمُ أهلَ الدين ، فهذا عاقلٌ مغلوبٌ بالهوى. فإذا انتبه بالندَمِ انقبض شيطانُ الهوَى ، وجاء مَلَكُ العقل .

---

[1] فى الجدة : أى فى الجديد .

فأمَّا إذا كان قليلَ العقل فى الوضع ، وعلامته أن لا ينظر فى عاقبة عاجلَة ، ولا آجلة، ولا يستَحى من الناس أن يَرَوْهُ على فَاحشَة ، ولا يُدبّر أمْر دُنْيَاه ، فذاك بعيدُ الرجاء ، وقد يَنْدُرُ منْ هؤلاء مَنْ يفلح ، ويكون السّببُ فيه خَميرةُ من العقل غَطَّى عليها كثرةُ الهوى . فمثلُهُم كَمَثَلِ مَصْرُوعٍ أفَاقَ .

٣٢٦ - فصل : الحيطة للمستقبل

ينبغى الاحترازُ منْ كُلِّ ما يجوزُ أنْ يكون ، ولا ينبغى أنْ يُقال الغالب السلامَةُ .

وقد رأَيْنَا من نزل مع الخيل فى سَفِينة فاضطربت فغَرِقَ مَنْ فى السفينة وإن كان الغالب فى هذه الحالة السلامةُ ، وكذا ينبغى أن يقدر [1] الإنسان فى نفقَته ، وإنْ رأى الدنيا مُقْبلةً ؛ لجواز أن تَنْقَطعَ تلك الدنيا ، وحاجة النفس لا بُدَّ منْ قضائها ، فإذا بذّر وقْتَ السعَة فجاء وَقتُ الضِّيق - لم يأمن أن يدخُلَ فى مَدَاخلَ سُوءٍ ، وأنْ يتعرض بالطلب منَ الناس .

وكذلك ينبغى للمُعَافى أن يعد للمرض ، وللقوى أن يتهيأ للهَرَم .

وفى الجملة فالنظرُ فى العَوَاقب ، وفيما يجوزُ أنْ يقع - شأنُ العقلاء . فأمَّا النظرُ فى الحالة الراهنَة فَحَسْبُ - فحالةُ الجهلة الحمقى ؛ مثل أنْ يَرَى نفسه مُعَافى ، ويَنْسَى المرضَ، أوْ غَنيا وَيَنْسَى الفقر ، أو يَرَى لذَّةً عاجلَةً ، وينسى ما يَجْنى عواقبها ، وليس للعقْلِ شغلٌ إلا النظر فى العواقب ، وهو يُشيرُ بالصوابِ من أين يَقْبَلُ ؟

٣٢٧ - فصل : عدم اليأس من روح الله

يَبِينُ إيمان المؤمن عند الابْتلاء ؛ فهو يبالغُ فى الدعاء ولا يرى أثرًا للإجابة ، ولا يتَغَيَّرُ أملُه ورجاؤُه ، ولو قَوِيَتْ أسبابُ اليأسِ ؛ لعلمه أنَّ الحق أعلمُ بالمصالح ، أوْ لأنَّ المرادَ منه الصبرُ أو الإيمان ، فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يُريدُ من القلب التسليمَ ؛ لينظر كيف صبرُه ، أو يُريدُ كثرةَ اللَّجَا والدعاء .

فأمَّا مَنْ يُريدُ تعجيلَ الإجابة ، ويتذمَّرُ [2] إنْ لم تتعجل فذاك ضَعيفُ الإيمان ، يرى أن له حقا فى الإجابة ، وكأنه يتقاضى بأجرة عمله . أمَا سَمعْتَ قصَّةَ يَعْقُوبَ - عليه السلام-! بَقى ثمانين سنة فى البَلاء وَرَجَاؤُه لا يتغير، فلمَّا ضَمَّ إلى فَقْد يُوسُفَ فَقَدْ بِنْيَامين لَم يتغير أملُه ، وقال : ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِينِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [3] .

---

(١) يقدر : يقتصد ويضيق .

(٢) تذمر : لام نفسه على فائت كما فى القاموس

(٣) سورة يوسف ، آية : ٨٣ .

وقد كشف هذا المعنى قولُه تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ (١) ومعلوم أن هذا لا يصدر من الرسول ، والمؤمنين إلا بعد طول البلاء ، وقُرْب اليأسِ من الفرج .

ومنْ هذا قولُ رسول الله ﷺ : « لا يَزالُ الْعَبْدُ بخَيْر مَا لَمْ يَسْتَعْجلْ » قيلَ لَهُ : وَمَا يَسْتَعْجَلُ ؟ قال : « يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِى » (٢) . فإيّاك إياكَ أن تَسْتَطِيلَ زمانَ البلاء، وتَضْجَرَ منْ كثْرة الدعاء ؛ فإنك مُبْتَلَى بالبلاء ، متعبّدٌ بالصبر والدعاء ، ولا تَيْأسْ مِنَ رَوْحِ اللهِ وَإنْ طَالَ البلاءُ .

٣٢٨ - فصل : آثار اللذات الزائفة

تذكرتُ فى سببِ دُخولِ جَهَنَّم فإذا هو المعاصى ، فنظرتُ فى المعاصى ، فإذا هى حاصلةٌ من طلب اللذَات ، فنظرتُ فى اللذات ، فرأيتها خدعًا ليست بشىء ، وفى ضمنها منَ الأكدارِ ما يصيِّرها نغصًا فتخرج عن كونها لذاتٌ ، فكيف يتبع العاقلُ نفسه ، ويرضى بجهنم لأجْلِ هذه الأكدار ؟ فمن اللذات الزّنَا ، فإن كان المرادُ إراقة الماء ، فقد يُراقُ فى حلال، وإن كان فى مَعْشُوق ، فمرادُ النفسِ دوامُ البقاءِ مع المعشُوق، فإذا هى ملكته، فالمملوكُ مملول ، وإن هو قاربه ساعةً ثم فارقه فحسرةُ الفراقِ تربُو على لذة القرب.

وإن كان له ولدٌ منْ الزنا فالفضيحةُ الدائمة ، والعقوبةُ التامة ، وتَنْكيسُ الرأس عند الخالق والمخلوق .

وأمَّا الجاهلُ فيرى لذته فى بُلُوغِ ذلك الغرض ، وينْسَى ما يجنى مما يكدِّرُ عيشَ الدنيا والآخرة .

ومنْ ذلك شرب الخمر : فإنه تنجيسٌ للفم والثوب ، وإبعاد للعقل ، وتأثيراتُه معلومةٌ عند الخالق والمخلوق .

فالعجبُ ممن يؤثر لذةَ ساعة تجنى عقَابًا وذهاب جاه ! وربما خرج بالعَرْبَدَة إلى القتل، وعلى هذا فَقسْ جميعَ المذُوقَاتِ ؛ فإنَ لذاتها إذا وُزنَتْ بميزان العَقْل لا تفى بمعْشَارِ عشير عَوَاقبِها القبَاحِ فى الدنيا والآخرة .

ثم هى نفسُها ليست بكَثير شىء فكيف تُبَاعُ الآخرة بمثل هذا !

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢١٤ .　　(٢) سبق تخريجه

سبحان من أنعم على أقوام كلما لاحَتْ لهم لذةٌ نصبوا ميزانَ العقلِ ، ونظروا فيما يُجْنَى ، وتلمَّحُوا ما يؤثر تركها فرجَّحُوا الأصلح ، وطمس على قُلُوبٍ فهى ترى صورة الشيء ، وتنسى جناياته .

ثم العجب أنا نرى من يَبْعُدُ عن زوجته ، وهو شاب ليعدو فى الطريق ، فيقال ساع، فيغلب هواه لطلب ما هو أعلى ، وهو المدْحُ ، كيف لا يترك مُحَرَّمًا ليمدح فى الدنيا والأُخرى ! ثم قدِّرْ حصول ما طلبتَ من اللذات ، وذهابها واحْسِبْ أنها قد كانت، وقد هانت ، وتخلصت من محنتها .

أين أنت من غيرك ؟ أين تعبُ عالم قد دَرَسَ العِلْمَ خَمْسِين سنةً ؟ ذهب التعب ، وحَصَلَ العلمَ ، وأين لذة البطال ؟ ذهبت الراحةُ وأعقبت الندم .

٣٢٩ – فصل : نتائج الشهوات

مَنْ وقف على مُوجِبِ الحسّ هلك ، ومَنْ تبع العقل سَلِمَ ؛ لأنَّ مجرد الحسّ لا يرى إلا الحاضر ، وهو الدنيا .

وأما العقلُ فإنه ينظر إلى المخلوقات ، فيعلم وجودَ الخالق ويعلم أنه قد منح ، وأباح، وأطلق ، وحظر ، وأخبر أنِّى سائِلُكم ، ومُبْتليكم ؛ ليظهر دليلُ وُجودِى عندكم؛ بترك ما تشْتَهُون طاعةً لى .

وإنى قد بَنَيْتُ لكم دَارًا غيرَ هذه ؛ لإثابة مَنْ يُطِيع ، وعقُوبةِ من يُخالف .

ثم لو تُرِك الحسُّ وما يشتهى مع أغراضه قَرُب الأمر إنما يزنى فيُجْلَد ، ويشرب الخمر فيُعَاقب ، ويَسْرِقُ فيقطع ، ويفعل زلة فيفضح بين الخلق ، ويُعْرِضُ عن العلم إلى البطالة فيقع الندمُ عند حصول الجهل .

ثم إنا نرى الكَثِيرَ ممن عمل بمقتضى عَقْله – قد سَلِمَتْ دنياه وآخرته ، وميزّ بين الخلق بالتعظيم ، وكان عَيْشُه فى لذاته غالبًا خيْرًا مِنْ عَيْشِ مُوَافِقِ للهوى .

فليعتبر ذُو الفهْمِ بما قلتُ ، ولْيعمَلْ بمقتضى الدليل ، وقد سلم .

٣٣٠ – فصل : شهوات الدنيا

العجبُ لمؤثِرِ شهواتِ الدنيا ! ألا يتدبَّر أمرها بالعقل قبل أن يَصير إلى منقُولاتِ الشرع !

إن أعظم لذاتِ الحس الوطءُ ؛ فالمرأةُ المسْتَحْسَنَةُ إنما يكون حالُ كَمالِها مِنْ وقْتِ

بُلُوغِها إلى الثلاثين ، فإذا بلغتْهَا أثر فيها ما مضى من عمرها فى الولادة وغيرها ، وربما ابيضت شعَرَاتٌ مِنْ رأسها فينفر الإنسانُ منها .

وقد يَقَعُ المَلَلُ قبل ذلك ، وطولُ الصُّحْبة يكشفُ العيوبَ ، وما عيب نساءُ الدنيا بأبلغ مِنْ قوله تعالى : ﴿ **لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** ﴾ (١) فلو تفكر الإنسانُ فى جَسَدٍ مملُوءٍ بالنجاسة- ما طاب له ضَمُّه ، غيرَ أنَّ الشهوةَ تُغَطِّى عَيْنَ الفكرِ .

فالعاقلُ مَنْ حفظ دِينَهُ ومروُءته بترك الحرامِ ، وحفظ قُوَّته فى الحلال ، فأنفقها فى طلب الفَضَائلِ مِنْ علمٍ ، أَوْ عَمَلٍ ، ولم يسع فى إفْناء عُمره ، وتشتيت قَلْبه فى شَيْءٍ لا تَحْسُن عاقبته :

مَا فِى هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِى عِوَضٌ ... إِنْ مِتُّ شَـــوْقًا وَلا فِيهَا لَهَا ثَمَنُ

وعمومُ مَنْ رأينا من الكِبَارِ غلبتْ عليهم شهوةُ الوَطْءِ ، فانهدَمَتْ أعمارُهم ، ورحلوا سَرِيعًا .

وقد رأينا من العُقَلاء من زَجَرَ نفسه عن هذه المحْنَة ، ولم يستعملها إلا وقْتَ الحاجة ، فبقى لهم سَوَادُ شُعُورِهم وقُوَّتهم حتى تمتَّعوا بها فى الحياة ، وحَصَّلُوا المناقب ، وعرفت منهم النفوس قوةَ العزيمة فلم تطالبهم بما يُؤْذِى .

٣٣١ – فصل : معنى رؤيا الرسول ﷺ

قد أَشْكَلَ على بَعضِ الناس رُؤْيَةُ النبى – ﷺ – وقوله : « **مَنْ رَآنِي فِى الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِى** » (٢) ، فقال : ظَاهِرُ الحديث : أنه يراه حَقِيقةً ، وفى الناس مَنْ يراه شيخًا وشابًا ومريضًا ومعافى .

فالجواب : أنه مَنْ ظَنَّ أن جَسَدَ رَسُولِ الله – ﷺ – المُودَعَ فى المدينة – خرج من القَبْر ، وحضر فى المكان الذى رآه فيه ، فهذا جَهْلٌ لا جهل يُشْبهه ؛ فقد يراهُ فى وَقْتٍ واحدٍ ألْف شخص ، فى ألف مكان ، على صُوَرٍ مختلفة ، فكيفَ يتصور هذا فى شخصٍ واحدٍ ؟ وإنما الذى يُرَى مِثَالُه لا شخصه .

فيبقى « **مَنْ رَآنِى فَقَدْ رَآنِى** » معناه : قد رأى مِثَالِى الذى يعرفه الصواب ، وتحصل به الفائدةُ المطلوبة .

---

(١) سورة البقرة، آية : ٢٥ .

(٢) رواه البخارى فى التعبير ، (٦٩٩٣) ، ومسلم فى الرؤيا (٢٢٦٨) .

فإن قيل : فما تقولون فى رُؤْية الحقِّ سبحانه ؟

فنقول : يُرَى مِثَالاً لا مثلا ، والمِثَالُ لا يفْتَقِرُ إلى المساواة ، والمشابهة كما قال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ (١) فضربه مثالاً للقرآن ، وانتفاع الخلق به. ويوضح هذا أنه إنما يرى مَنْ رأى الحقَّ - سبحانه وتعالى - على هيئة مَخْصُوصَة ، والحقُّ - سبحانه وتعالى - مُنَزَّه قد توحَّد فوضَحَ ما قلناه .

٣٣٢ - فصل : علاقة الحديث بالفقه

هذا فصل غَزِيرُ الفَائِدَة : اعْلَمْ أنه لو اتَّسَع العُمْرُ لم أمنع مِنَ الإيغال فى كُل عِلْم إلى مُنْتَهَاهُ ، غير أن العمرَ قَصِيرٌ ، والعِلْمَ كثِيرٌ .

فينبغى للإنسان أن يَقْتَصِر من القراءات إذا حَفِظ القرآنَ على العَشْرَ (٢) ، ومِنَ الحديث على الصِّحَاحِ ، والسنن والمسانيد المصنفة ؛ فإنَ عُلُومَ الحديث قد انبسطت زَائدَةً فى الحدِّ والمتون محصورة . وإنما الطرقُ تختلف .

وعلمُ الحديث يتعلق بعضُه ببعضٍ ، وهو مُشْتَهى ، والفقهاءُ يُسَمُّونه عِلْمَ الكُسَالَى ؛ لأنهم يتشاغَلُون بكتابته وسَمَاعِه ، ولا يكادُون يُعَانون حِفْظَه ، ويفوتُهم المهم ، وهو الفِقْهُ .

وقد كان المحدِّثون قديمًا هم الفقهاء ، ثم صار الفُقَهَاءُ لا يعْرِفون الحديثَ ، والمحدثون لا يَعْرِفُون الفِقْهَ .

فمن كان ذَا همَّة ، ونَصَح نفسه - تشاغَلَ بالمهمِّ من كل عِلْم ، وجعل جُلَّ شُغْله الفِقْهَ ؛ فهو أَعْظَمُ العلُوم وأَهَمُّها .

وقد قال أَبُو زُرْعَةَ : كتب إليّ أَبُو ثَوْر : فإنَّ هذا الحديثَ قد رواه ثمانِيَةٌ وتسْعُون رجلاً عن رسول الله - ﷺ - ، والذى صح منه طُرُقٌ يسيرةٌ ، فالتشاغُلُ بغَير ما صَحَّ يمنع التشاغُلَ بما هو أهم .

ولو اتسع العمرُ كان استيفاء كل الطرق فى كل الأحاديث غاية فى الجودة ، ولكن العمرَ قصيرٌ .

ولما تشاغل بالطرق مثل يَحْيَى بْنِ مُعين فاته من الفقه كثيرٌ ، حتى إنه سُئِل عن الحائض : أيجوزُ أن تغسل الموتى ؟ فلم يعلم ، حتى جاء أَبُو ثَوْر فقال : يجوزُ ؛ لأن

---

(١) سورة الرعد ، آية : ١٧ . (٢) أى القراءات العشر المشهورة .

عائشة - رضى الله عنها - قالت : كنتُ أرَجِّل رأسَ رسول الله - ﷺ - وأنا حائض [1] فـ « يحيى » أعلم بالحديث منه ، ولكن لم يتشاغل بفهمه .

فأنا أنهى أهلَ الحديث أن تشغلهم كثرة الطرق ، ومن أقبح الأشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستِّين سنةً فلا يعرف حكم الله - عَزَّ وجَلَّ - فيها ، وكذلك أنهى من يتشاغلُ بالتزهد ، والانقطاع عن الناس أن يعرض عن العلم . بل ينبغى أن يجعل لنفسه منه حَظا ليعلم إن زل كيف يتخلص .

٣٣٣ - فصل : حاجة الدين إلى سلامة البدن

معرفةُ الله - سبحانه - لا تحصل إلا لكامل العقل ، صحيح المزاج ، والترقى إلى محبته بذلك يكون .

وإن أقوامًا قلَّت عقولُهم وفسدت أمزجتُهم - فساءت مطاعمُهم ، وقلّت فتخايلتْ لهم الخيالات الفاسدة فادعوا معرفةَ الحق ومحبته ، ولم يكن عندهم من العلم ما يصدهم عما ادعوا ؛ فهلكوا ، وعلى المؤمن أن يرعى حق بدنه وليتخير له الأغذية ، وليعلم أن فى المأكولاتِ ما يسبب إفسادَ العقل ، وفيها ما يزيد فى السوداء فيوجب الماليخوليا ، فترى صاحبها يحب الخلوة ، ويهرب من الناس ، وقد يقلل المطعم ؛ فيقوى مرضه ، فيتخايل خيالات يظنها حَقا .

فمنهم من يقول : إنى رأيتُ الملائكة ، وفيهم من يُخْرِجه الأمر إلى دعوى محبة الحق والولَه [2] فيه ، ولا يكون ذلك عن أصل معتمد عليه .

وإنما العاقل العالمَ يَسيرُ فى الطريق بين الرفيقين : العلم ، والعقل ، فإن تقلل من الطعام فبعقل .

وحَدُّ التقلل : تركُ فضولِ المطْعَم وما يخالف شَرَه من شُبْهة أو شَهْوة يحذرُ تعوُّدَها ، وأمَّا زيادةُ التقلل مع القُدْرَةِ فليس لعقْلٍ ، ولا شرع ، إلا أن يكون الفقر عم فيتقلل ضرورة .

ومن تأمَّلَ حالَ رَسُولِ الله - ﷺ - وأصحابه ، وجدهم يأخذون بمقدارٍ ، ولا يتركون حُظُوظَ النفس التى تُصْلِحُها ، وما أحسن الأمر ، وأعدله قول رسول الله - ﷺ - : **«ثُلثُ طَعَامٍ ، وثُلُثُ شرَابٍ ، وثُلُثُ نَفَسٍ»** [3] ، وقد قال لعلىّ بن أبى طالب - رضى الله

---

(١) رواه البخارى فى الحيض (٢٩٥) ، ومسلم فى الحيض (٢٩٧) عن عائشة .

(٢) الوله : ذهاب العقل .

(٣) سبق تخريجه .

عنه - وهو مريض : « أصبْ منْ هَذَا الطَّعامِ فهُوَ أوْفَقُ لَكَ منْ هَذَا » [1] ، وكان صلى الله عليه وسلم يشاور الأطباءَ ، ويحتجمْ ، ويحثُّ على التداوى ، ويقول : « ما أنْزَلَ اللهُ دَاءً إلا وَأنْزَلَ لَهُ شفَاءً فَتَداوَوْا » [2] ، فجاء أقوام جهلوا العلْمَ ، والحكمةَ فى بنيان الأبدان .

فمنهم مَنْ أقام فى الجبال يأكلُ البلُّوط فأصابه القولَنْج .

ومنهم من قَلَّل المطعم إلى أن ضعفت قواهم ، ومنهم مَن اقتصر على نبات الصحراء .

ومنهم من كان لا يقوتُ إلا البَاقلاء ، والشَّعير ؛ فأوْجَبَتْ هذه الأفعال أمراضًا فى البدن ، وترقت إلى إفساد العقل .

واتفق لهم قلَّةُ العلم ، إذْ لو علمُوا لفهموا أن الحكْمة تنهى عن مثل هذا ، فإن البدن مَبْنى على أخلاط إذا اعتدلت ، وقعت السلامة ، وإذا زاد بعضُها وقع المرض ، وأكثر هؤلاء مرضوا وتعجل لهم الموت .

وفيهم مَنْ خرج إلى التسَوْدُن [3] ، وفيهم من لاحت له لوائحُ فادَّعى رؤيةَ الملائكة إلى غير ذلك ، فأمّا أهلُ العلم ، والعقل ، فهربُهم من الخلق لخوفِ المعاصى ، ورؤية المنكر .

وفيهم مَنْ قويَتْ معرفته فشغلته معرفةُ الحقِّ ومحبته عَنْ مُلاقاة الخلق .

فهذه هى الخلواتُ الصافية ؛ لأنها تصدر عن علْم ، وعَقْلٍ ، فتحفظ البدن ؛ لأنه ناقةٌ توصل .

ولا يَنْبَغى أن يتهاون بالمأكُولاتِ ، خُصُوصًا من لم يعتد التقشف ، ولا يلبس الصّوفَ على البدن مَنْ لم يعتده .

ولينظر فى طريق رسول الله - ﷺ - وصحابته ؛ فإنهم القُدوةُ ، ولا يلتفت إلى بنيات الطريق ؛ فيقال : فلانٌ الزاهدُ قد أكل الطينَ ، وفلان كان يمشى حَافيًا ، وفلان بقى شَهْرًا ما أكل .

فإن المحقِّقينَ منْ هؤلاء المخلصين لله تعالى على غير الجادَّة ؛ لأن الجادّة اتباعُ رسول الله - ﷺ - وأصحابه وما كانوا يفعلون .

هذا ، ولعمرى أنه قد كان فيهم من يقنع بالمذْقَة [4] من اللبن ، ويصبرُ الأيامَ عن

(١ ، ٢) سبق تخريجهما .

(٣) السدانة : خدمة الكعبة وعمل الحجابة كما فى القاموس .

(٤) المذق : اللبن الممزوج بالماء .

الطعام، ولكن إمَّا لضرورة ، أو لأنه معتاد لذلك ، كما يعتاد البَدَوىُّ شُرْبَ اللبن وحده، ولا يؤذيه ذلك ، وفى الحديث : « عَوِّدُوا كُلَّ بَدَنٍ مَا اعْتَادَ »[1] .

وفى المتزهدين مَنْ أخرج ماله كله عن يده زهدًا ، ومعلومٌ أن الحاجات لا تنقضى ، فلما احتاج تعرَّض للطلب ، وافتقر إلى أخذ مال منْ يد مَن يعلم أنه ظالم ، وبذل وجهه .

وقد كانت الصحابةُ تتَّجرُ ، وتحفظ المال ، وجهالُ المتزهدين يَرَوْن جمعُ المالِ ينافى الزهْدَ .

فممخضة[2] هذا الفصل أن أقول : ينبغى لمن رُزق فهمًا أن يسعى فى صلاح بدنه ، ولا يحملُ عليه ما يؤذيه ، ولا يناولُه من القوتِ ما لا يُوافقه ، ولا يضيِّع مالَه ، ولْيجتهد فى استثماره ؛ لئلا يحتاجَ ، فإنه ما نافق زاهدٌ إلا لأهل الدنيا ، ولينظر فى سيرَ الكاملين من السلف ، ولْيتشاغلْ بالعلم ؛ فإنه الدليل .

فحينئذٍ يحمله الأمر على الخَلْوة بربِّه ، وَالاشْتغال بحبه ، فيكون ما ظهر منه ثمرةً نَضجة لا فجة . والله الموفق .

٣٣٤ - فصل : النظر إلى عواقب الأمور

ما رأيتُ أظرفَ من لعب الدنيا بالعقول ، وقد سَمعْنا ، ورأينا جماعةً من الفُطَناء الكاملى العقل ، لعبتْ بهم الدنيا حتى صَارُوا كالمجانين ، فولوا الولايات فخرجوا إلى القتلِ ، والضرب ، والحبس ، والشتم ، وذهاب الدين ، والمباشرة للظلم وذلك كله لأجل دُنْيا تذهب سريعًا .

وفى مُدَّة إقامتها هى معجونةٌ بالنَغَصِ . فيا أيها المرزوقُ عَقْلاً لا تبخسه حَقّه ، ولا تطفئْ نُورَه ، واسمع ما نُشير به ، ولا تَلْتفتْ إلى بُكَاء طفْل الطبْع لفوات غَرَضه ، فإنك إن رَحِمْتَ بكاءه - لم تقدرْ على فطَامه ، ولَم يمكنك تأديبُه ، فيبلغ جَاهلاً فقيرًا:

لا تَسْهُ عَنْ أدَبِ الصَّغير ... وَلَوْ شَكَا أَلَم التَّعَبْ
وَدَعِ الكَبِيرَ لشَأنه ... كَبُرَ الكَبِير عَنِ الأدَبْ

وَاعْلم أن زمانَ الابْتلاء ضيفٌ قِراه[3] الصبر ؛ كما قال أحمَدُ بْنُ حَنْبَلَ : « إنما هو

---

(١) العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٩٦) ، وقال : قال السيوطى فى الدر : رواه محمد الخلال وقال: لم أجد له أصلاً .
(٢) ممخضة : خلاصة . (٣) القرى : بكسر القاف ما يقدم للضيف .

طعامٌ دُونَ طعام ، ولِباسٌ دُون لباس ، وإنها أيام قلائل ، فلا تنظر إلى لذة المترَفين ، وتلمحْ عواقِبَهُم ، ولا تضقْ صدرًا بضيق المعاش ، وعَلّلْ الناقة بالحدْو [1] تَسير :

طَـاولْ بهَا اللّيْلَ مَالَ النَّجْمُ أَمْ جَنَحَا   وَمَاطِـلِ النَّوْمَ ضَنَّ الْجفْنُ أَمْ سَمَحَا

فَإنْ تَشَـــكَّتْ فَعَلّلْهَا المَجَــــرَّةَ مِنْ   ضَوْءِ الصَّبَاحِ وَعِدْهَا بِالرَّوَاحِ ضُحَى

وقد كان أُهدى إلى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ هدية فردَّها ، ثم قال بعد سنة لأولاده : لو كُنَّا قبلناها كانت قد ذهبت .

ومَرَّ بِشْرٌ على بئر فقال له صاحبه : أَنَا عَطْشَانُ ، فقال : البئرَ الأُخْرَى فمرَّ عليها ، فقال له : الأخرى ، ثم قال : كذا تقطع الدنيا .

ودخلوا إلى بِشْرٍ الحَافِى وليس فى داره حَصِيرٌ ، فقيل له : ألا بِذَا تُؤْذَى ، فقال : هذا أمرٌ ينقضى .

وكان لَدَاوُدَ الطَّائِىٌّ دار يأوى إليها ، فوقع سقْفٌ ، فانتقل إلى سَقْف إلى أن مات فى الدهليز ، فهؤلاءِ الذين نظرُوا فى عَوَاقِبِ الأُمور .

وبعد هذا فلا أطالبك بهذه الرتبة ، بل أقولُ لك : إن حصل لك شىءٌ من المباح لا مَنّ فيه ولا أذًى ، ولا نلته بسؤال ، ولا من يد ظالم تعلم أن ماله حرامٌ أو فيه شبهة - فافسح لنفسك فى مُبَاحَاتِها بمقدار ما تحتاج إليه

وكُنْ مقدِّرًا للنفقة غير مبذر ، فإن الحلالَ لا يحتمل السرف ، ومتى أسرفت احتجت إلى التعرض للخلْق ، والتناول من الأكدار .

وإنْ ضاق بك أمرٌ فاصبر ، فإن ضَعُف الصبرُ ، فسَلْ فاتحَ الأبواب ؛ فهو الكريم وعنده مفاتح الغيب .

وإياك أن تبذل دِينَك بتصنُّع للخلق ، أو بتقرُّب إلى الأمراء ، وتَسْتَعْطى أموالهم .

واذكُرْ طريقَ السلف : كان ابنُ سَمْعُون له ثِيابٌ يجلِسُ فيها للناس ، ثم يَطْوِيها إلى المجلس الآخر ، ورِثَهَا عن أبيه بقِيَتْ أَرْبَعين سنةً .

وكانت مَيْمُونَةُ بنتُ شَاقُولَةَ تَعظُ الناس ، ولها ثِيَابٌ قد بقيت أَرْبَعين سنة .

ومَنْ صَفَا نَظَرُه ، وتهذَّب لفظُه ، نفع وعظُه ، ومَنْ كدَّر كُدِّر عليه .

---

(١) الحدو : الغناء للإبل لكى تجد فى السير .

والحالةُ العاليةُ فى هذا : إقبالُ القلبِ على الله - عزَّ وجلَّ - ، والتوكل عليه، والنظر إليه ، والتفاتُ القلب عن الخلقَ ، فإن احتجْتَ فَاسْأله ، وإن ضعفت فارغب إليه.

ومتى ساكنتَ الأسباب انقطعت عنه ، ومتى استقام باطنك استقامت لك الأمور

٣٣٥ - فصل : معاملة الأصدقاء

رأيتُ نَفسى تأنَسُ بخلطاءَ نُسمِّيهم أصدقاء ، فبحثت التجارب عنهم فإذا أكثرهم حسادٌ على النعم ، وأعداءٌ لا يسترون زَلّة ، ولا يعرفون لجليس حقا ، ولا يُوَاسُون مِنْ مالهم صديقًا .

فتأملْتُ الأمر ، فإذا الحقُّ - سبحانه - يغارُ على قلب المؤمن أن يجعل له شيئًا يأنس به، فهو يكدِّر عليه الدنيا ، وأهلها ؛ ليكون أنسه به .

فينبغى أن يعد الخلق كلهم معارفَ ليس فيهم صديقٌ ، بل تحسبهم أعداءً ، ولا تظهر سِرَّك لمخلوق منهم ، ولا تُعدّنَّ من يصلح لشدة لا ولدًا ولا أخًا ولا صَديقًا ، بل عامِلْهم بالظاهر ، ولا تخالطْهم إلا حالة الضرورة بالتوقى لحظة ، ثُم انْفِرَ عنهم ، وأقبِلْ على شأنك مُتَوكّلاً على خالقك ، فإنه لا يجلب الخيرَ سواه ، ولا يصرف السوء إلا إيّاه ، فليكُن جليسَك ، وأنيسك ، وموضعَ توكُّلك ، وشكْواك ، فإن ضعف بصرك ، فاستغث به ، وإن قلَّ يَقينُك فسله القوة ، وإياك أنْ تميل إلى غيره ؛ فإنه غيورٌ، وأن تشكو مِنْ أقداره ، فربما غضب ولم يُعْتب [1] . أوحى اللهُ - عزَّ وجلَّ - إلى يُوسُفَ - عليه السلام : « مَنْ خَلَّصَكَ مِنَ الْجُبِّ ؟ مَنْ فَعَلَ ، مَنْ فَعَلَ ؟ قال : أنت ، قال : فَلِمَ ذَكَرْتَ غَيْرِى ! فَلأُطِيلَنَّ حَبْسَكَ » ، أو كما قال . هذا وإنما تعرض يُوسُفُ - عليه السلام - بسبب مباح : ﴿ **اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾ [2] ، ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ** ﴾[3] ، وما أعرف العيش إلا لمن يعرفه جل شانه ويعيشُ معه ، ويتأدّب بين يَدَيْه فى حركاته ، وكلماته؛ كأنه يراه ، ويقف على باب طرفه حارسًا من نظرة لا تصلح، وعلى باب لسَانه حَافظًا له من كلمة لا تحسن . وعلى باب قَلْبه حماية لمسكنه من دخول الأغيار [4] ، وَيَسْتَوْحِش من الخلق شُغلاً به .

وهذا يكونُ على سيَرة الروحانيين ، فأمَّا المخلِّط فالكدر غالب عليه ، والمحقُّ لا يطلب إلا الأرفعَ ، قال القائل :

---

(١) لم يعتب : لم يقبل الاعتذار

(٢) سورة يوسف ، آية : ٤٢ .

(٣) سورة التوبة ، آية : ٧ .

(٤) الأغيار : أحداث الدهر المتغيرة .

ألا لا أُحِبُّ السَّيْرَ إلا مُصَاعِداً وَلا البَرْقَ إلا أنْ يَكُـونَ يَمَانِيَا

٣٣٦ – فصل : علماء مشغولون بصورة العلم

رأيتُ أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم ، دون فَهْم حقيقته ومقصوده .

فالقارئ مشغولٌ بالروايات ، عاكِفٌ على الشواذّ ، يرى أن المقصودَ نفسُ التلاوة ، ولا يتلمح عظمة المتكلم ، ولا زجر القرآن ووعده .

وربما ظَنَّ أن حفْظَ القرآن يدفع عنه ، فتراه يترخَّص في الذنوب ، ولو فَهِم لعلم أن الحجَّةَ عليه أقْوى ممن لم يقرأ .

والمحدثُ يجمع الطرُقَ ، ويحفظ الأسانيد ، ولا يتأمل مَقْصُودَ المنقول ، ويري أنه قد حفظ على الناس الأحاديث ، فهو يرجو بذلك السلامةَ ، وربما ترخَّص في الخطَايَا ، ظَنًا منه أن ما فعل في الشريعة يدفع عنه .

والفقيهُ قد وقع له أنه بما قد عرف من الجدَال الذى يقوِّى به خصامه ، أو المسائل التى قد عرف فيها المذْهَبَ ، قد حصل بما يفتى به الناس ما يرفع قدره ، ويمحُو ذنبه ، فربَّما هجم على الخطايَا ظنا منه أن ذلك يدفع عنه ، وربما لم يحفَظِ القُرآن ، ولم يعرفِ الحديثَ ، وأنهما يَنْهَيَانِ عن الفَوَاحشِ بزجْرٍ ورفق .

وينضافُ إليه مع الجهل بهما حُبُّ الرياسة ، وإيثار الغلبة في الجدل ؛ فتزيدُ قَسْوة قلبه .

وعلى هذا أكثرُ الناس ، صور العلم عندهم صناعةٌ ، فهى تكسبهُم الكبر ، والحماقَةَ .

وقد حكَى بعضُ المعتبرينَ عن شيخ أفنى عُمْرَه في عُلُومٍ كثيرة ، أنه فُتِنَ في آخر عمره بفسق أصَرَّ عليه ، وبارز اللهَ به ، وكانت حالُهُ تعطى بمضمونها أن علمى يدفع عنِّى شرَّ ما أنا فيه ، ولا يبقى له أثر .

وكان كأنه قد قطع لنفسه بالنجاة ، فلا يُرَى عنده أثر الخوف ، ولا ندم على ذنب ، قال : فتغير في آخر عُمره ، ولازمه الفقر ؛ فكان يلقى الشدائدَ ، ولا ينتَهى عن قُبْح حاله ، إلى أن جمعت له يومًا قَرَارِيطَ على وجه الكدْية [1] فاستحيا من ذلك ، وقال : يَا رَبِّ إلى هذا الحدّ ! قال الحاكى : فتعجبتُ مِنْ غَفْلته ، كيف نَسِىَ اللهَ – عزَّ وجلَّ –، وأراد منه حُسْنَ التدبير له ، والصيانةَ وسعةَ الرزق ، وكأنه ما سمع قولَه تعالى : ﴿ وَأَنْ

---

(١) الكدية : الخدش في الوجه وعبر بذلك لأن السائل بسؤاله يخدش ماء وجهه .

لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَة لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ (١) ، ولا علم أن المعَاصى تَسُدُّ أبوابَ الرزق ، وأنّ مَنْ ضَيَّعَ أمر الله ضَيَّعَهُ الله .

فما رأيتُ علمًا مَا أفاد كعلم هذا ؛ لأن العالم إذا زَلّ انكسر ، وهذا مصر لا تؤلمه معصيتُه ، وكأنه يجوز له ما يفعل ، أو كأن له التصرُّفَ فى الدين تحليلاً وتحريمًا ، فمرض عاجلاً ومات على أقبح حال .

قال الحاكى : ورأيتُ شيْخًا آخر حصَّل صُوَرَ علم ، فما أفادتْهُ ؛ كان أىُّ فسْق أمْكنه لم يتحاشَ منه ، وأىُّ أمْر لم يعجبه من القدر عارضه بالاعتراض على المقدر ، واللوم ، فعاش أكدر عَيْش ، وعلى أقبح اعتقاد حتى دَرَج .

وهؤلاء لم يفْهَموا معنى العلْم ، وليس العلم صور الألفاظ ، إنما المقصود فهمُ المراد منه ، وذاك يُورِثُ الخشيَةَ والخوف ، ويرى المنَّةَ للمنعم بالعلم ، وقُوَّةَ الحجة له على المتعلم .

نسأل اللهَ - عَزَّ وجَلَّ - يقظةً تفهمنا المقصود ، وتعرفنا المعبود ، ونعوذ بالله من سَبِيل رِعاعٍ يتَّسمون بالعلماء لا ينهاهم ما يحملون ، ويَعْلَمُونَ ، ولا يَعْمَلُون ، ويتكبرون على النَّاسِ بما لا يعلمون ، ويأخُذُون عَرَضَ الأدنى وقد نُهُوا عَمَّا يأخذُون ، غلبتْهم طِبَاعُهم ، وما راضتهم علومُهم التى يدرسون ، فهم أخسُّ حَالاً من العوام الذين يجهلون ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلونَ ﴾ (٢) .

٣٣٧ - فصل : سعة الثقافة المفيدة

للفقيه أن يطالع مِنْ كل فَنٍّ طرفًا من تاريخ ، وحديث ، ولُغة ، وغير ذلك ؛ فإن الفقْه يحتاج إلى جميع العلوم ، فليأخذ مِنْ كل شىء منها مُهما .

ولقد رأيتُ بعضَ الفقهاءِ يقول : اجتمع الشِّبْلِىّ وشَرِيكٌ القاضى فاستعجبْتُ له : كيفَ لا يدرى بعدَ ما بَيْنَهُما .

وقال آخرُ فى مُنَاظَرة : كانت الزوجيَّةُ بين فَاطمَةَ ، وعَلِىٍّ - رضى الله عنهما - غيرَ مُنْقطعة الحُكْم ؛ فلهذا غَسَّلَها فقلتُ له : وَيْحَكَ فقد تزوج أُمَامَةَ بنْتَ زَيْنَبَ ، وهى ابنة أُخْتِهَا فَانقطع .

ورأيتُ فى كتاب « إحْيَاء عُلُوم الدين » للغزالى مِنْ هذا ما يدهش من التخليط فى الأحاديث والتواريخ ؟ فجمعتُ من أغاليطه فى كتاب .

---

(١) سورة الجن ، آية : ١٦

(٢) سورة الروم ، آية : ٧

وقد ذكر فى كتاب له سمَّاه « المستظهرى » وعرضه على المسْتَظْهِرِ بالله أنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الملك بعث إلى أبَى حَازِمٍ فقال له: ابعث لِى مِنْ فطورك ، فبعث إليه نُخالةً مَقْلُوَّةً فأفطر عليها ، ثم جامع زوجته فجاءت بـ « عبد العزيز » ، ثم ولد له عُمَر .

وهذا تخليطٌ قَبِيحٌ ؛ فإنه جعل عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بن سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ المَلْكِ ، فجعل سُلَيْمَانَ جدَّه ، وإنما هو ابنُ عَمِّه .

وقد ذكر أبُو المعَالى الجُوَيْنى فى أواخرِ كتاب « الشاملِ فى الأُصول » ، قال : قد ذكرَتْ طائفة من الثِّقَات المعْتَنِينَ بالبحث عن البواطنِ أن الحلاجَ ، والجُبَّائىّ القَرْمَطِىّ وابْنَ المقفع تَوَاصَوْا على قلب الدول ، وإفساد المملكة ، واسْتِعْطَافِ القلوب ، وارتياد كل منهم قُطْرًا.

فقطَنَ الجُبَّائِىّ فى الأحْسَا ، وتوغَّل ابنُ المقفع فى أطراف بلاد الترْكِ ، وقَطَنَ الحلاجُ ببغداد فحكم عليه صَاحِبَاهُ بالهلَكَة ، والقُصُورِ عن بُلُوغِ الأمنية ؛ لبعد أهل بغداد عن الانخداعِ ، وتوفُّر فطنتهم ، وصدْقُ فراستِهم .

قلتُ : ولو أنَّ هذا الرجل أو مَنْ حُكِى عنه عرفَ التاريخ ، لعلم أن الحَلاج لم يدرك ابن المقفع ، فإن ابن المقفع أمر بقتله المَنْصُور فقتل فى سنة أربع وأرْبَعين ومائة ، وأبو سعيد الجُبَّائىّ القَرْمَطِىّ ظهر إلى سنة ست وثمانين ومائتين ، والحلاج قتل سنة تِسْع وثلاثمائة ، فزمان القَرْمَطِىّ والحلاج متقاربان ، فأما ابن المقفع فكلا ، فينبغى لكلِّ ذى علم أن يلم بباقى العلوم فيطَالع منها طرفًا ؛ إذ لكلِّ علم بعلم تعلّق ، وما أقبح بمحدث يُسأل عن حادثة فلا يدْرى ، وقد شغله منها جمْع الأحاديث ، وقبيحٌ بالفقيه أن يقال له: ما معْنى قول رسول الله - ﷺ - كذا ! فلا يدرى صحَّة الحديث ولا معْناه ، نسأل الله - عَزَّ وجَلَّ - همَّة عالية لا ترضى بالنَّقائص بمنِّه ولُطْفه .

٢٣٨ - فصل : همم علماء السلف

كانت همَم القدماء من العلماء عليَّة ، تدل عليها تصانيفُهم التى هى زبْدَةُ أعمارهم ، إلا أن أكثر تصانيفهم دُثِرت [١] ؛ لأن همم الطلاب ضعفُت ، فصاروا يطْلبُون المختَصرَات ولا ينشَطُون للمطوَّلات ، ثم اقتصروا على ما يدرُسون به من بعضها ، فدثُرت الكتب ولم تُنْسخ . فسبيل طالب الكمال - فى طلب العلم الاطّلاع على الكُتُب التى قد تخلّفت من المصنفات ، فليكْثر من المطالعة فإنه يرى من علُوم القوم وعلوّ هَممِهم ما يشْحَذُ خاطره ويحرّك عزيمته للجد ، وما يخلُو كتاب من فائدة .

---

(١) دثرت : بادت .

وأعوذ بالله من سِيَر هؤلاء الذين نُعَاشِرُهم ، لا نرى فيهم ذا همَّة عالية فيقتَدى بها المبتدئ ، ولا صاحب ورَع فيستفيد منه الزَّاهد ، فاللهَ اللهَ عليكم بملاحظة سِيَر السلَف ، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم فالاستكْثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم كما قال:

فَاتَنِى أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِى فَلَعَلِّى أَرَى الدِّيَارَ بِسَمْعِى

وإنى أخبر عن حالى ، ما أَشبَعُ من مطالعة الكُتب ، وإذا رأيت كتابًا لم أره ، فكأنِّى وقعت على كَنْز ، ولقد نظرْتُ فى ثَبْت الكتب الموقُوفة فى المدرسة النِّظَامية ، فإذا به يحتوي على نحْو ستة آلاف مجلد ، وفى ثَبْت كتب أبى حنيفة ، وكتب الحُمَيْدى ، وكتب شيخنَا عبد الوهَّاب ، وابن نَاصر ، وكتب أبى محمد بن الخَشَاب وكانت أحمالاً ، وغير ذلك من كل كِتَاب أقْدر عليه ، ولو قلت : أنى طالعت عشْرين ألف مجلَّد ، كان أكثر ، وأنا بعد فى الطَّلب ، فاستفَدْت بالنظر فيها من ملاحَظة سير القوم ، وقدْرَ هممَهمْ ، وحفظهم ، وعباداتهم ، وغرائب عُلُومهم ما لا يعرفه من لم يطَالع ، فصرت أَستَزْرِى [1] ما الناس فيه ، وأحتقرُ همم الطُّلاب ولله الحمد .

٣٣٩ - فصل : حماقة الكفر

ليس للآدمى أعزّ من نفسه ، وقد عجبْتُ ممن يخاطر بها ويعرِّضها للهَلاك ، والسبب فى ذلك قلَّة العقْل وسوء النظر ، فمنهم من يعرضها للتَّلَف ليمدح بزَعْمه ، مثل قوم يخرُجون إلى قتل السَّبُع ، ومنهم من يصعد إلى إيوان كسْرَى ؛ ليقال : شَاطر ، وساع يمشى ثَلاثين فرسخًا ، وهؤلاء إذا تَلِفُوا ، حُملُوا إلى النار ، فإنْ هلك ذَهَبت النّفس التى يُرَاد المال لأجلها .

وأعجب من الكُلِّ من يخاطر بنفْسه فى الهَلاك ولا يدْرى ، مثل أن يغضب فيقْتُل المسلم ، فيَشْفَى غَيْظُه بالتَّعْذيب فى جهنم ، وأظرف من هذا اليَهُود والنَّصارى ؛ فإن أحدهم يبْلُغ فيجب عليه أن ينظر فى نُبُوَّة نبينا - ﷺ - فإذا فرَّط فمات فلَهُ الخلُود فى جهنم .

ولقد قلت لبَعْضهم : ويحك ، تخاطر بنفسك فى عذاب الأبد ، نحن نؤْمن بنبيكم فنقول : لو أن مسلمًا آمن بنَبيِّنا وكذب بنَبيِّكم أو بالتَّوْرَاة ، خلِّد فى النَّار ، فما بيننا وبينكم خلاف ، إذ نحن مؤمنُون بصدقه وكتَابه ، فلو لقينَاه ، لم نخجل، ولو عاتَبَنا مثلاً وقال : هل قمتم بالسَّبْت ؟ والسَّبْت من الفروع ، والفُروع لا يعاقَبُ عليها بالخُلُود.

---

(١) أستزرى : أحتقر .

فقال لى رئيس القوم : ما نُطَالِبُكم بهذا ؛ لأن السَّبْت إنما يلزم بنى إسرائيل ، فقلت : فقد سلمنا بإجماعكم وأنتم هالكون ؛ لأنكم تخاطرون بأرواحكم فى العذاب الدائم ، والعجب بمن يهمل النظر فيما إذا توانى فيه ، أوجب الخُلُود فى العقاب الدائم ، وأعجب من الكُلِّ جاحد الخالق ، وهو يرى أحكام الصنعة ويقول : لا صانع ؛ والسّبب فى هذه الأشياء كلها قلّة العقل ، وترك إعماله فى النظر والاستدلال .

٣٤٠ - فصل : كتمان السر

لا ينبغى للعاقل أن يُظهر سرا حتى يعلم أنه إذا ظهر ، لا يتأذى بظهوره ، ومعلوم أن السبب فى بث السر طلب الاستراحة ببثّه ، وذلك ألم قريب فليصبر عليه ، فربّ مظهر سرا لزوجته ، فإذا طُلِّقت بثته وهلك ، أو لصديقه فيظهر عليه حسدًا له إذا كان مماثلاً ، وإن كان عاميًا ، فالعامى أحمق ، ورب سرٍّ أُظهر فكان سبب الهلاك .

٣٤١ - فصل : تكاليف المجد

ما يتناهى فى طلب العلم إلا عاشقُ العلم ، والعاشق ينبغى أن يصبر على المكاره ، ومن ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب ، ومذ فقد التَّفَقُّد لهم من الأمراء ومن الإخوان انقطعوا فلازمهم الفقر ضرورة ، والفضائل تُنادى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [1] ، فكلما خافت من ابتلى قالت :

لا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَا

ولما آثر أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - طلب العلم ، وكان فقيرًا ، بقى أربعين سنة يتشاغل به ولا يتزوّج ، فينبغى للفقير أن يصابر فقره كما فعل أحمد ، ومن يُطيق ما أطاق ؛ فقد ردّ من المال خمسين ألفًا وكان يأكل الكامخ [2] ويتأدّم بالملح ، فما شاع له الذكر الجميل جزافًا ، ولا تردّدت الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب ، فياله ثناءً ملأ الآفاق ، وجمالاً زيّن الوجود ، وعزا نسخ كلّ ذُلٍّ هذا فى العاجل ، وثوابُ الآجل لا يُوصف ، وتلمّح قبورَ أكثر العلماء لا تُعرف ولا تُزار ، ترخّصوا وتأوّلوا وخالطوا السلاطين ، فذهبت بركة العلم ، ومُحى الجاه ، ووردوا عند الموت حياض النّدم ، فيالها حسرات لا تُتلافى ، وخسرانًا لا ينجبر وكانت صُحْبة اللّذات طرفة عين ، ولازم الأسف دائمًا ، فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل ؛ فإن لذّة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب ويبقى الأسى ، وقال الشافعى - رضى الله تعالى عنه - :

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ١١ .

(٢) هو نوع من المخللات المشهية أو ما يؤتدم به وهى كلمة معربة .

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إلا صَبْرُ أيَّامٍ كَأنَّ مُدَّتَهَا أضْغَاثُ أحْلام[1]
يَا نَفْسُ جُوزِيَ عَنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً وخَلٍّ عَنْهَا فَإنَّ الْعَيْشَ قُدَّامِي

ثم أيها العالم الفقير ، أيسرُّك ملك سلطَان من السّلاطين ، وأن ما تعلمه من العلم لا تعلَمُه ، كلا ، ما أظن بالمتيقِّظ أن يؤثر هذا ، ثم أنت إذا وقع لك خاطرٌ مستَحْسَن أو معنى عَجِيب ، تجدُ لذَّة لا يجدها ملتَذّ باللَّذات الحسّية ، فقد حُرِم من رزق الشَّهوات ما قد رُزِقت ، وقد شاركتَهُم فى قوَام العيش ؛ ولم يبق إلا الفضول الذى إذا أخذ لم يكد يضُرّ ، ثم هم على المخَاطَرة فى باب الآخرة غالبًا ، وأنت على السَّلامة فى الأغلب ، فتلمَّح يا أخى عواقب الأحْوَال ، واقمع الكسل المثبط عن الفضائل ، فإن كثيرًا من العلماء الذين ماتُوا مفرِّطين ، يتقلَّبُون فى حسرات وأسَف .

رأى رجلٌ شيخَنا ابن الزَّغوَانِىّ فى المنام ، فقال له الشَّيْخ : أكثر ما عِنْدَكم الغَفْلَة ، وأكثر ما عندنا النَّدَامة ، فاهرب وفَّقك الله قبل الحَبْس ، وافْسَخ عقد الهوى على الغَبْن الفَاحِش ، واعلم أن الفضائل لا تُنَال بالهوينا [2] ، وأن يسير التَّفْرِيط يشين وجه المحَاسن ، فالبِدَار البِدَار ونفَسُ النَّفس يتردد ، وملَك الموت غائبٌ ما قدم بعد ، وانهَض بعزيمة عازم :

إذَا هَمَّ ألْقَى بَيْنَ عَيْنَيْه عَزْمَهُ وَنَكَّبَ[3] عَنْ ذِكْرِ الْحَوَادِث جَانِبَا
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فى أمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إلا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

وارفض فى هذه العزيمة الدُّنيا وأربَابَها ، فبارك الله لأهل الدنيا فى دُنْيَاهم ، فنحن الأغنياء وهم الفقراء ؛ كما قال إبراهيم بن أدْهَم : لو علِم الملوك وأبناء الملوك ما نَحنُ فيه، لجالَدُونَا عليه بالسُّيوف ، فأبناء الدنيا أحَدُهم لا يكاد يأكُلُ لقمةً إلا حرامًا أو شُبْهَةً، وهو وإن لم يؤثر ذلك ، فوَكيله يفعله ، ولا يبالى هو بقلَّة دين وَكِيله ، وإن عمَّروا دارًا، سخَّروا الفعَلَة ، وإن جمعوا مالاً ، فمن وجوه لا تَصْلُح ، ثم كل منهم خائف أن يُقْتَل أو يُعْزل أو يشتم ، فعيبهم نَقْص .

ونحن نأكل ما ظَاهِر الشَّرع يشهد له بالإباحة ، ولا نخاف من عدُوّ ، ولا وَلايتنا تقبل العَزْل . والعِزّ فى الدنيا لنا لا لهم ، وإقْبَال الخلق علينا ، وتقْبِيل أيدينا وتعظِيمُنا عندَهُم كثيرٌ .

---

(١) أضغاث أحلام : الرؤيا التى لا يصح تأويلها .
(٢) الهوينا : المشى البطىء (٣) نكّب : مال وأعرض .

وفى الآخرة بيننا وبينهم تفاوت - إن شاء الله تعالى - ، فإن لفت أرباب الدنيا أعناقهم يعلمون قدر مزيّتنا ، وإن غُلّت أيديهم عن إعطائنا ، فلذّة العفاف أطيب ، ومرارة المَنّ لا تَفى بالمأخُوذ ، وإنما هو طعام دون طَعَام ، ولبَاسٌ دون لباس ، وإنها أيام قلائل ، والعجب لمن شرُفت نفسه حتى طلب العلم ؛ إذ لا يطلبه إلا ذو نفس شريفة كيف يذل لبَذْل من لا عزه إلا بالدنانير، ولا مفخرة له إلا بالمُكْنَة ، ولقد أنشدنى أبو يَعْلَى العَلَوى :

رُبَّ قَومٍ فِى خَـلائقهـمْ عرر[1] قَدْ صُـيِّرُوا غررَ[2]
سَـتَرَ الْمَالُ الْقَبِيحَ لَهُـمْ سَـتَرَى إنْ زَالَ مَا سَـتَرَا

أيقَظَنَا اللهُ من رَقْدة الغافلين ، ورزَقَنا فكر المتيَقِّظين ، ووفَّقَنا للعمل بمقْتَضى العلم والعَقْل ، إنه قريب مجيب .

٣٤٢ - فصل : الرفق بالبدن

لا ينْبَغى للإنسان أن يحمل على بدنَه ما لا يُطيق ، فإن البدن كالرَّاحلة إن لم يُرْفَق بها لم تصل بالرَّاكب ، فترى فى النَّاس من يتزهّد وقد ربَّى جسده على التَّرف ، فيُعْرِض عما ألفه فتجدد له الأمراض ، فتقطعُه عن كثيرٍ من العبادَات ، وقد قيل : « **عَوِّدُوا كل بدن ما اعتاد** » [3] ، وقد قُرِّب إلى رسول الله - ﷺ - ضَبٌّ ، فقال : « **أَجِدُنى أعَافُه ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ بأَرْضِ قَوْمِى** » [4] ، وفى حديث الهجْرة : « أن أبَا بكر - رضىَ الله عنه - طلب لرسول الله - ﷺ الظِّلَّ ، وفرَشَ له فَرْوَةً ، وصَبَّ على القَدَح الَّذى فيه اللَّبَنَ مَاءً حتَّى بَرِدَ » [5] . وجاء رسُول الله - ﷺ - على قومٍ ، فقال : « **إنْ كَانَ عِنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ فى شَنٍّ وَإلا كَرَعْنَا** » [6] ، وكان - ﷺ - يأكل لحم الدَّجَاج ، وفى الصحيح : «**أنَّهُ كَانَ يُحبُّ الحَلْوَى وَالعَسَلَ**»[7] ، وكان إذا لم يَقدر ، أكل ما حَضَر .

ولعمرى إن فى العرب وأهل السَّوَاد من لا يُؤثر عنده التَّخَشُّن فى المطعم والملبس ، وذاك إذا جرى بعد نَوْبَته على عادَته ، لم يستَضرّ ، فأما من قد ألف اللّطف ؛ فإنه إذا غيَّر حالته ، تغير بدنه وقلت عبادته ، وقد كان الحسن يُديم أكل اللَّحم ويقول :

---

(١) عرر : سوء . (٢) غرر : خداع . (٣) سبق تخريجه .
(٤) رواه البخارى فى الأطعمة (٥٣٩١) ، ومسلم الصيد والذبائح (١٩٤٦) .
(٥ ، ٦) سبق تخريجهما .
(٧) البخارى فى الأشربة (٥١٦٤) ، ومسلم فى الطلاق (١٤٧٤) .

لا رَغيفيْ مَالك ولا صَحْنَيْ فرْقَد . وكان ابن سيرين لا يُخْلى منزله من حلوي ، وكان سفيانُ الثَّورى يسافر وفى سفرته الحمَلِ المشْوِى والفالوذج ، وقالت رابعة : ما أرَى لبدن يُرَاد به العمل لله إذا أكل الفَالُوذَج عيبًا ، فمن ألف الترف ، فينبغى أن يتلطّف بنفسه إذاَ أمْكنَه .

وقد عَرفْت هذا من نفسى ؛ فإنى ربِّيت فى ترف ، فلما ابتدأت فى التقَلُّل وهجر المشْتَهى ، أثَّر معى مرضًا قطعنى عن كثير من التعبُّد ، حتَّى أنِّى قرأت فى أيام كلّ يوم خمسة أجزَاء من القرآن ، فتَنَاوَلْت يومًا ما لاَ يَصْلُح ، فلم أقْدر فى ذلك اليوم على قرَاءَتها ، فقلت : إن لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكُلٍّ حرف عشر حسنات ، إنَّ تناولُهَا لَطَاعَةٌ عظيمة ، وإن مطعمًا يؤذى البدن فيفُوته فعل خير ، ينْبغى أن يُهْجَر ، وقد رأى رسول الله - ﷺ رَجُلاً من أصحابه حضَر عنده وقد تَغيَّر من التقَشُّف ، فقال له : «مَنْ أَمَرَكَ بهَذا » [١] ؟ فالعاقل يعْطى بدنه من الغذَاء ما يوافقُه كما ينقى الغازى شعْير الدابة، ولاَ تظنَّن أنى آمر بأكْل الشَّهوات ، ولا بالإكثار من المَلذُوذ ، إنما آمر بتَنَاول ما يحْفَظ النفس ، وأنْهى عما يؤذى البَدَن ، فأمَّا التوسع فى المطَاعم ؛ فإنَه سبب النَّوم ، والشِّبَع يُعْمى القلب ، ويهزل البدن ويُضْعفه ، فافهَم ما أشرت إليه ، فالطريق هى الوُسْطَى .

٣٤٣ - فصل : غفلات العصاة

إذا تكامل العَقْل ، قَوى الذكاء والفطنة ، والذَّكى يتخلَّص إذا وقع فى آفة ، كما قال الحسن : إذا كان اللِّص ظريفًا ، لم يُقطع ، فأما المغَفَّل فيجْنى على نفسه المحَن ، هؤلاء إخوة يوسف - عليهم السلام - ، أبعدوه عن أبيه ليتقَدَّموا عنده ، وما عَلمُوا أن حُزْنَه عليه يشغَله عنهم ، وتهُمَته إياهم تُبَغِّضهم إليه ، ثم رمُوه فى الجُبِّ فقالوا : ﴿ **يلتقطه بعض السَّيَّارة** ﴾ [٢] « وليس بطفل » إنما هو صبى كبير . وما علمُوا أنه إذا التُقط يحدِّث بحاله ، فيبلغ الخبر إلى أبيه ، وهذا تَغْفيل ، ثم إنهم قَالوا : ﴿ **أكَلَه الذِّئب** ﴾ [٣] ، وجاؤُوا بقميصه صحيحًا ، ولو خرقوه ، احتمل الأمر ، ثم لما مَضَوْا إليه يمتَارُون قال : ﴿**ائْتُونى بأَخٍ لَكُمْ** ﴾ [٤] فلو فطنُوا ، علموا أن مَلك مصْر لا غرَض له فى أخيهم ، ثم حبسه بحُجَّة ، ثم قال : هذا الصّواع يخبرنى أنه كَان كَذا وكَذا ، هذا كُلّه وما يفْطنُون، فلما أحَسَّ بهذه الأشياء يعقوب - عليه السلام - قال : ﴿ **اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا منْ يُوسُفَ**﴾[٥] ، وكان يوسف عليه السلام قد نُهِىَ بالوحى أن يعلم أباه بوجوده ، ولهذاَ لمَا

---

(١) سبق تخريجه . (٢) سورة يوسف ، آية : ١٠ . (٣) سورة يوسف ، آية : ١٧ .
(٤) سورة يوسف ، آية : ٥٩ . (٥) سورة يوسف ، آية : ٨٧ .

التقيا قال له : هلا كتبت إلىّ فقال : إن جبريل - عليه السلام - مَنَعَنى ، فلما نُهِىَ أن يعرِّفه خبره لينفذ البلاء ، كان ما فَعَل بأخيه تنبيهًا ، فصار كأنه يعرِّض بخطبة المعْتَدّة، وعلى فهم يُوسُفَ والله بكى يعقُوب لا على مجرّد صورته .

٣٤٤ - فصل : الصبر والعفة للبلوغ إلى الآخرة

الآدَمِىّ موضوعٌ على مطلُوبات تشتّت الهم : العين تطْلُب المنظُور ، واللّسان يطلب الكَلام ، والبطن يَطْلُب المأكُول ، والفرج المنْكُوح ، والطبع يحبُّ جمع المال ، وقد أمَرَنا بجمع الهمّ لذكر الآخرة والهوى يشتّته ، فكَيْف إذا اجتمعت إليه حاجات لازمة من طلب قُوت البَدَن وقوت العيَال ، وهذا يبكر إلى دكّانه ويفتكر فى التّحْصيل ، ويستعمل آلة الفَهْم فى نَيْل ما لا بدّ منه ، فأىُّ همٍّ يجتمع منه خصوصًا إن أخذه الشَرَهُ فى صورَة فيمضى العُمر ، فينهَض من الدكان إلى القبر ، فكيف يَحْصُل العلم ، أو العمل ، أوْ إخلاص القَصْد ، أو طلب الفَضَائل ، فمن رُزق يقظة ، فينْبَغى أن يصَابر لنيل الفضَائل .

فإن كان متزهِّدًا بغير عائلة اكتفى بسعى قليل ، فقد كان السَّبْتى يعمل يوم السَّبت فيكْتفى به طول الأُسبوع ، فإن كان له مال بَاضَع [1] به من يكْفيه بدينه ، وثقتُه من أن يهتم هو ، وإن كان له عائلةٌ ، جمع همه فى نية الكسب عليهم فيكون متعبّدًا ، أو أن يكون قُنْيَة مال كعقَار ناصفه فى نَفقته ليكفيه دَخْلَه ، وليقلّل الهم على مقدَار ما يمكنه من حذف العَلائق جهدَه؛ ليجمع الهَمَّ فى ذكر الآخرة ، فإن لم يفعل ، أُخذ فى غفلته ونَدم فى حَفْرته .

وأقْبَح الأحوال حالُ عالم فقيه ، كلما جمع همه لذكر الآخرة شتّتَه طلب القُوت للعائلة ، وربّما احتاج إلى التعرُّض للظلمة وأخذ الشُّبُهَات وبذل الوَجْه ، فيلزم هذا التَّقْدير فى النفقة ، وإذا حصل له شىءٌ من وجه دَبر فيه ، ولا ينْبَغى أن يحملَه قصر الأمل على إخراج ما فى يده ؛ فقد قال - صلى الله عليه وسلم - : « **لأنْ تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أغْنِيَاءَ خَيْرٌ منْ أنْ تَتْرُكَهَا عالةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ** » [2] .

وأذلّ من كل ذل التَّعَرُّض للبخَلاء والأمراء، فليدبِّر أمره ، ويقلل العلائق ، ويحفظ جَاهَه ، فالأيَّام قلائل ، وقد بُعث إلى أحمد بن حنبل مالٌ ، فسأله ابنه قُبُولَهُ ، فقال : يا صالح صنّى ، ثم قال : أستخير الله ، فأصبح فقال : يا بنىَّ ، قد عزم لى ألا أقبله، هذا وكان العَطَاء هنيا ، وجاءه من وجوه ، فانعكس الأمر اليوم .

(١) باضع : يستعمله فى بضاعة .   (٢) سبق تخريجه .

٣٤٥ - كيفية معاملة الناس

العزلة عن الخلق سبب طيب العيش ، ولا بُد من مخالطَة بمقْدَار ، فدار العَدُو واستَحلّه ، فربَّما كَادك فأهَلكك ، وأحسنْ إلى من أساء إليك ، واستعن على أمورك بالكتْمَان ، ولتكُن الناس عندك مَعارف ، فأما أصدقاء فلا ؛ لأن أعزّ الأشياء وجُود صديق ؛ لأن الصديق ينبغى أن يكُون فى مرتبة مُمَاثِل ، فإن صادقته عامّيا ، لم تنتفع به لسوء أخلاقه وقلّة علمه وأدبه ، وإن صادقت مماثلاً أو مقاربًا ، حَسَدَك ، وإذا كان لك يقظَة ، تلمَّحت من أفعاله وأقواله ما يدلُّ على حسَدك : ﴿ **وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِى لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾[1]، وإذا أردت تأكيد ذلك فضَعْ عليه من يضَعك [2] عنده ، فلا يخرُج إليه إلا بما فى قَلْبه ، فإن أردت العيش فابعد عن الحَسُود ؛ لأنه يرى نعْمَتك ، فربّما أصابها بالعَيْن ، فإن اضطررت إلى مخالطَته ، فلا تُفْش إليه سرّك ولا تشاوره ، ولا يغرنَّك تملُّقه [3] لك ، ولا ما يُظْهره من الدِّين والتعبد ، فإن الحسد يغلب الدِّين ، وقد عرفت أنّ قابيل أخرجه الحَسَد إلى القتل ، وأن إخوة يُوسُف باعوه بثمن بَخْس ، وكان أبو عامر الراهب من المتعبِّدين العقلاء ، وعبد الله بن أُبَىّ من الرؤساء ، أخرجَهُما حسد رسول الله - ﷺ - إلى النِّفاق وترك الصَّواب ، ولا ينْبَغى أن تطلب لحَاسدك عقوبة أكثر مما هُوَ فيه ؛ فإنه فى أمر عظيم متَّصل لا يرضيه إلا زوال نعْمَتك . وكلما امتدَّت امتد عذابه فلا عيش له ، وما طَابَ عيش أهل الجَنَّة إلا حين نُزِع الحسد والغلُّ من صدُورِهم ، ولولا أنه نُزِع ، تحاسَدُوا وتَنَغَصَّ عَيْشُهم .

٣٤٦ - فصل : استعمال العقل نجاة

من سار مع العَقْل وخالف طريق الهَوَى ، ونظر إلى العَواقب ، أمكَنَهُ أن يتمتَّع من الدنيا أضْعَاف ما تمتَّع من استعمل الشَّهوات ، فأما المستَعجل فيفوِّت نفْسَه حظّ الدنيا والذِّكر الجميل ، ويكُون ذلك سببًا لفَوَات مراده من اللَّذات ، وبيان هذا من وَجْهين :

أحدهما : إن مال إلى شهوات النِّكاح وأكْثَرَ منها ، قلّ التذَاذه وفنيت حرارتُه ، وكان ذلك سببًا فى عدم مطْلُوبه منها ، ومن استَعْمَل ذلك بمقدَار ما يجيزه العَقْل ويحتمله ، كان التذَاذُه أكثَر ؛ لبعد ما بين الجِمَاعَيْن ، وأمكَنه التردّد لبقاء الحرارة ، وكذلك من غش فى معاملته أو خان فإنه لا يعامل فيفوته ربح المعاملة الدَّائمة ؛ لخيانته مرّة ، ولو عُرِف بالثِّقة ، دامت معاملَة الناس له فزاد ربحه .

---

(١) سورة محمد ، آية : ٣٠ . (٢) يضعك يقلل من قدرك . (٣) تملقه : تودده .

والثانى : أنه من اتَّقى الله وتشاغل بالعلْم أو تحقيق الزهد ، فتح له من المبَاحَات ما يلتذُّ به كثيرًا ، ومن تقاعَدَ به الكَسَل عن العلم ، أو الهوى عن تحقيق الزُّهد ، لم يحَصَّل له إلا اليسير من مراده ، قال - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿ **وأن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَّاءً غَدَقًا** ﴾ (1) .

٣٤٧ - فصل : فضل العمل لله

ينْبَغى أن يكُون العملُ كلُّه لله ومعه ومن أجْله ، وقد كفاكَ كلَّ مخْلُوق وجلب لك كلَّ خير ، وإيَّاك أن تميل عنه بموافَقَة هوىً وإرضاء مخْلُوق ؛ فإنه يعْكس عليكَ الحَالَ ، ويفوِّتك المقْصُود . وفى الحديث : « **مَنْ أرْضَى النَّاسَ بسَخَط الله ، عَادَ حَامِدُهُ منَ النَّاسِ ذَامًا** » (2) ، وأطيبُ العَيْش عيش من يَعيش مع الخَالق سبحانه .

فإذا قيل : كيف يعيش مَعَهُ ؟ قلت : بامْتثَال أمره ، واجتنَاب نهْيه ، ومراعاة حَدُوده، والرضا بقضائه ، وحُسْن الأدب فى الخَلْوَة ، وكثرة ذكره ، وسَلامة القَلْب من الاعتراض فى أقْدَاره ، فإن احتجت ، سألْتَه ، فإن أعْطَى وإلا رضيتَ بالمَنْع ، وعَلمْتَ أنه لم يمْنع بُخلاً ، وإنما نظرًا لك ، ولا تنْقَطع عن السُّؤَال ؛ لأنك تتعبَّد به ، ومتى دُمت على ذلك ، رزَقَكَ محبَّته ، وصدق التوكّل عليه ، فصارت المحبَّة تدلُّك على المقصود ، وأثمرت لك محبَّته إياك ، فتعيش عيشة الصِّدِّيقين ، ولا خير فى عَيْش إن لم يكن كذا، فإنّ أكثر الناس مخبَّط فى عيشه ، يدَارِى الأسبَاب ويميل إليها بقلبه ، ويتَعَبُ فى تحصيل الرِّزق بحرص زائد على الحدِّ ، ويرغبه إلى الخلق ، ويعتَرض عند انكسَار الأغراض ، والقدَرُ يجرى ولا يُبَالى بسَخَط ، ولا يحصُل له إلا ما قُدِّر ، وقد فاته القُرْب من الحقِّ والمحبّة له ، والتأدّب معه ، فذلك العَيْش عيش البَهَائم .

٣٤٨ - فصل : تدبير العقل سلامة

نظرْت فى حكمة المطْعَم والمشرب والمَلْبَس والمنكَح ، فرأيْت أنّ الآدَمىّ لما خُلق من أصول تتحلَّل : وهى المَاءُ والتُّراب والنار والهواء ، وبقَاؤه إنما يكون بالحَرَارَة والرُّطوبة والحرارة تحلل الرطوبة دائمًا ، فلم يكُن له بد من شىء يخْلُف ما بطل ، ولما كان اللَّحم لا ينوبُ عنه إلا اللحم، أباح الشرع ذبح الحيوان ليَتَقَوَّى به من هو أشرَف منه ، ولما كان بدَنُه يحتاج إلى كسوة وله قُدْرة تمييز ، وقدرة يصنَع بها ما يقيه الأذَى من القُطْن

---

(1) سورة الجن ، آية : ١٦ .

(2) الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٢٥) ، وعزاه للبزار من طريق قطبة بن العلاء عن أبيه وكلاهما ضعيف ، وروى بنحوه الترمذى فى الزهد (٢٤١٤) ، وابن المبارك فى الزهد (١٩٩) .

والصُّوف ، لم يجعل على جلده ما يقيه خلقة ، بخلاف الحَيَوان البهيم ؛ فإنه لَمَّا لم يكن له قُدْرَة على ما يغَطِّى جلده ، عوَّضه بالرِّيش والشعر والوبَر ، ولَمَّا لم يكن بد من فناء الآدميِّ والحَيَوان ، هيَّج شهوة الجماع لتُخْلف النَّسل ، فمُقْتَضى العقل الذى حرّك على طلب هذه المصَالح أن يكُون التَّناول للمطعَم والمشرب مقدار الحاجَة والمَصْلَحة ؛ ليقع الالْتذَاذ بالعافية، ومن البلِيَّ. طلب الالْتذَاذ بالمطْعَم وإن كان غير صالح ، والشرَه [1] فى تناوُله ، وكذلك الكُسْوة والنّكاح ، ومن الحزم جَمْع المال وادّخاره لعَارض حاجة من ذَلكَ، ومن التَّغْفيل إنفاق الحاصل ، فربَّما عرضت حاجَةٌ فلم يقدر عليها ، فأثر عدَمَها فى البدن أو فى العرض بطلبها من الأنْذَال ، ومن أقْبَح الأمور الانهمَاك فى النّكاح طلبًا لصُورة اللّذة ، ناسيًا ما يجنى ذلك من انحلال القوَّة ، ويزيد فى الحَرَام بالعُقُوبة ، فمَن مال إلى تدبير العقل سَلم فى دُنْيَاه وآخرَته ، ومن أعْرَض عن مشاورَته أو عَن القبُول منه، تعجَّل عَطَبَهُ [2] ، فَليَفْهم مقصود المَوضُوعات وحكَمهَا والمراد منها ، فمن لم يَفْهَم، ولم يعمل بمقْتَضى ما فهم ، كان كأجْهَل العوامّ ، وإن كان عالمًا .

٣٤٩ – فصل : فى مخالطة الأمراء

العجب ممن له مسْكَةٌ [3] من عقل ، أو عنْده قليلٌ من دين يؤثر مخالطتهم ! فإنّه بالمخالطة لهم أو العمل مَعَهُم ، يكون قطعًا خائفًا من عَزْل أو قتل أو سم ، ولا يمكنُه أن يعمل إلا بمقتضى أوامرهم ، فإن أمَرُوا بما لا يجُوز ، لم يقدرْ أن يُرَاجعَ ، فقد بَاع دينَهُ قطعًا بدُنْيَاه ، فمنعه بالخوف من القيام بأمر الله وضاعت عليه آخرته .

ولم يَبْقَ بيده إلا عاجل التعْظيم ، وأن يقال بين يديه : بسْم الله ، وأن ينفّذ أوامره ، وذلك بعيدٌ من السَّلامة فى باب الدِّين ، وما يلْتَذُّ به منه فى الدنيا ممزُوج بخَوْف العَزْل والقَتْل .

٣٥٠ – فصل : العاقل من تأمل العواقب

من الغلَط العظيم أن يُتَكَلَّم فى حق معزُول بما لا يصلُح ؛ فإنَّه لا يُؤْمَن أن يلى فيَنْتَقم، وفى الجملة لا ينْبَغى أن يُظْهر العداوة لأحد أصلاً ، فقد يرفَع المحتقر وقد يتمكَّن من لا يُعد ، بل ينْبَغى أن يكتم ما فى النُّفُوس من ضغن على الأعداء ، فإن أمكَنَ الانتقام منهم ، كان العَفْوُ انتقامًا ؛ لأنه يذلهم ، وينْبَغى أن يُحسن إلى كلٍّ أحد ، خصوصًا من يجُوز أن يكون لَهُ ولايَة ، وأن يخدم المعْزُول ، فربَّما نفع فى ولايَته ، وقد

---

(١) سبق تعريفها .　　(٢) عطبه : فساده .　　(٣) مسكة : بقية .

رَوَيْنا أن رجلا استأذَنَ على قاضى القَضَاة ابن أبى دؤاد ، وقال : قولوا له : أبُو جعفر بالبَاب ، فلما سَمِع هش لذلك وقال : ائذنُوا له ، فدخل فَقَام وتلقَّاه وأكرمه وأعْطاه خَمْسة آلاف وودَّعه ، فقيل له : رجل من العَوامّ فعلت به هذا ! قال : إنِّى كنت فقيرًا ، وكان هذا صديقًا ، فجئته يومًا فقلت له : أنا جائعٌ فقال : اجلس ، وخرج فجاء بشواء وحلوى وخُبْز ، فقال : كُلْ ، فقلت : كُلْ معى ، قال : لا ، قلت : والله لا آكُلُ حتَّى تأكُلَ معى ، فأكَلَ فجعل الدَّم يجرى من فَمه ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : مرَضٌ ، فقلت : والله لا بد أن تخْبِرَنى ، فقال : إنك لَما جئْتَنى لم أكن أملك شيئًا ، وكانت أسنانى مضبَّبَة بشريط من ذَهَب ، فنزعْتُه واشتريت به ، فهلا أكَافِئ مثل هذا .

وعلى عكْس هذه الأشياء كان ابن الزيَّات وزير الواثق ، وكان يضع من المتوكل ، فلما وَلِىَ عذبه بأنواع العذاب ، وكذلك ابن الجزرى كان لا يوقر المسترْشد قبل الولاية ، فجرت عليه الآفَاتُ لما وَلِى .

فالعاقل من تأمّل العواقب وراعَاهَا ، وتصور كُلَّ ما يجُوز أن يقع فعَمل بمقْتَضى الحزم، وأبلغ من هذا تَصْوير وجود المَوْت عاجلاً ؛ لأنه يجُوز أن يأتي بغْتَة من غير مرَض ، فالحازم من استعدَّ له وعمل عَمَلَ من لا ينْدَم إذا جاءَهُ ، وحَذَر من الذنوب ؛ فإنها كعدُوٍّ مُرَاصد بالجزاء ، وادَّخر لنفسه صالحَ الأعمال ؛ فإنها كصَديق صدِّيق ينفع وقت الشِّدَّة ، وأبلغ من كل شيء أن يعلم المؤمنُ أنه كلما زَاد عَمَلُه فى الفَضَائل ، علَتْ مرتَبَتُه فى الجَنَّة ، وإن نَقَصَ نَقَصَت ، فهو وإن دخل الجنَّة فى نقص بالإضافة إلى كمال غيره ، غير أنه قد رَضِى به ولا يشعر بذلك ، فرَحِمَ اللهُ من تلمَّح العواقب ، وعمل بمقْتَضَى التلمُّح ، والله - تعالى - الموفِّق .

٣٥١ - فصل : أهل الدنيا وأهل الآخرة

لما جمعت كتابى المسمى بـ « المنتظم فِي تَارِيخ المُلُوك والأُمم » ، اطَّلعت على سير الخَلْق من المُلُوك ، والوُزَرَاء ، والعُلَمَاء ، والأدَبَاء ، والفقهاء ، والمحدِّثين ، والزُّهاد وغيرهم ، فرأيت الدُّنيا قد تلاعَبت بالأكْثَرين تلاعبًا أذهب أدْيَانَهُم ، حتى كانوا لا يؤْمنُون بالعقَاب، فمن الأُمَرَاء من يَقْتُل ويصَادر ، ويقْطَع ويحْبِس بغير حقٍّ ، ثم ينْخَرِط فِى سلْك المعاصى كأن الأمر إليه ، أو قد جاءَهُ الأمن من العقَاب ، فربُّما تخايل أن حفظَهُ الرعايا يردّ عنى ؟ وينسى أنه قد قِيل لرَسُول الله - ﷺ - : ﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٥ ، وسورة الزمر ، آية : ١٣ .

وقد انخرط جَماعة ممن يتسم بالعلم فى سلك المعاصى لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفعهم العلم . ورأينا خلقًا من المتزَهِّدين خالفوا لنيل أغرَاضهم؛ وهذا لأن الدنيا فخ والنَّاس كعصافير ، والعصفور يريد الحبَّة وينسى الخَنْق ، قد نَسى أكثر الخلق مآلهم ، ميْلاً إلى عاجل لذَّاتهم ، فأقبلوا يُسَامرون الهَوَى ولا يلتَفتُون إلى مشاورة العَقْل ، فلقد بَاعُوا بلذَّة يسيرة خيرًا كثيرًا ، واستحقوا بشهوات مرذُولة عذابًا عظيمًا ، فإذا نَزَلَ بأحدهم الموت قال : لَيتنى لم أكُن ، ﴿ **ليتنى كُنْت ترابًا** ﴾ [1] ، فيقال له : ﴿ **آلآن** ﴾ [2] ؟ فواأسَفَى لِفَائت لا يُمْكن استدْرَاكُه ، ولمرتَهن لا يصحُّ فَكاكُه ، ولندَم لا ينْقَطع زمَانُه ، ولمعذّب عز عليه إيمانه ، بالله ! بالله ما نفعت العُقُول إلا لمن يلتفت إليها ويعوّل عليها ولا يمكن قُبُول مشاورتها إلا بعزيمة الصبر عما يشْتَهى .

فتأمل فى الأُمراء عمر بن الخطاب وابن عبد العزيز - رضى الله عنهما - ، وفى العُلَمَاء أحمد بن حنبل - رحمة الله عليه -، وفى الزُّهَّاد أويس القَرَنىَّ ، لقد أعْطُوا الحزم حقه وفهموا مقصود الوُجُود ، وما هلك الهَالكُون إلا لقلة الصَّبر عن المشْتَهى ، وربما كان فيهم من لا يُؤْمن بالبَعْث والعقَاب ، وليس العَجَب من ذاك ، إنَّما العجب من مؤْمنٍ يوقن ، ولا ينَفَعُه يقينُه ، ويعْقِل العواقب ولا ينْفَعه عقله .

٣٥٢ - فصل : علو الهمة

من رُزق همَّة عالية يعذب بمقدَار علوِّها ؛ كما قال الشاعر :

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا ... تَعِبَتْ فِى مرادها الأَجْسَامُ

وقال الآخر :

وَلِكُلِّ جِسْـــمٍ فِى النُّحُولِ[3] بَلِيَّةٌ ... وَبَلاءُ جِسْـمِى مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِى

وبيان هذا أنَّ من علَت همَّته ، طلب العلوم كُلَّها ولم يقتصر على بعْضها ، وطلب من كل علْم نهايَتهُ ، وهذا لا يحتَمله البَدَن ، ثم يرى أنَّ المراد العمل ، فيجتَهد فى قيام اللَّيل وصيام النَّهَار ، والجَمْع بين ذلك وبين العلم صَعْب ، ثم يرى ترْك الدُّنْيا ويحتاج إلى ما لا بُدَّ منه ، ويحب الإيثار ولا يقدر على البُخْل ، ويتقَاضَاه الكَرَم البذل ، ويمنَعُه عزّ النفس عن الكَسْب مِن وجوه التبذل ، فإنْ هو جرى على طبْعه من الكرم ، احتَاج وافتقر وتأثّر بدنُه وعائلته ، وإن أمسك ، فطَبْعُه يأبى ذلك .

---

(١) سورة النبأ ، آية : ٤٠ . (٢) سورة يونس ، آية : ٩١ . (٣) النحول : الهزال .

وفى الجملة يَحْتَاج إلى معاناة وجمْع بين أَضْدَاد ، فهو أبدًا فى نصَب لا ينْقَضِى ، وتعب لا يفرغ ، ثم إذا حقَّق الإخلاص فى الأعمال ، زاد تَعَبُه وقوى وصَبُه [1] ، فأين هو ومن دنَت همَّته ! إن كان فقيهًا فسُئِل عن حديث ، قال : ما أعرفه ، وإن كان محدثًا فسُئِل عن مسألة فقهية ، قال : ما أدرى ، ولا يُبَالى إن قيل عنه : مقَصِّر .

والعالى الهمّة يرى التقصير فى بعض العُلُوم فضيحَة قد كشفت عَيْبَه ، وقد أرت الناس عورَته ، والقَصِير الهمة لا يُبَالى بِمَنِ الناس ، ولا يستَقْبِح سؤالهم ، ولا يأنَفُ من ردّ ، والعالى الهمة لا يحْمِل ذلك ، ولكن تَعَب العالى الهمّة راحة فى المَعْنَى ، وراحة القصير الهمَّة تعب وشَيْن إن كان ثَمَّ فهم ، والدُّنيا دار سِبَاق إلى أعالى المعَالى ، فينبغى لذى الهمَّة ألا يقصر فى شوطه ، فإنْ سبق فهو المقْصُود ، وإن كَبَا [2] جواده مع اجتهاده ، لم يُلَمْ .

٣٥٣ - فصل : إعجاب المرء بنفسه

المصيبَةُ العظْمَى رضى الإنسان عن نَفْسه واقتناعه بعلْمه ، وهذه محْنَة قد عمَّت أكثر الخلق ، فترى اليهُودىّ والنَّصْرانى يرى أنه على الصَّواب ، ولا يبْحَث ولا ينظر فى دَليل نبُوَّة نبينا - ﷺ - ، وإذا سمع ما يُلين قلبه مثل القرآن المعْجز ، هرب لئلا يسمع .

وكذلك كل ذى هَوًى يثبت عليه ؛ إما لأنه مذْهَبُ أبيه وأهله ؛ أو لأنه نظر نظرًا أول فرآه صوابًا ، ولم ينظر فيما يناقضُه ، ولم يُبَاحث العلماء ليبيِّنُوا له خطأَهُ ، ومنْ هذا حال الخَوَارج على أمير المؤْمنين عَلِىٍّ - رضى الله تعالى عنه - ، فإنَّهم استحسنوا ما وَقَع لهم ولم يرجعُوا إلى من يعلَم ، ولما لقِيَهُم عبد الله بن عبَّاس - رضى الله عنهما - فبين لهم خَطَأَهم ، رجع عن مذْهَبه منهم ألْفان ، وممَّن لم يرجع عن هواه ابن مُلجَم ، فرأى مذهَبَه هو الحقُّ ، فاستحَلَّ قتل أمير المؤْمنين - رضى الله تعالى عنه - ، ورآه دينًا حتى أنه لما قُطِّعت أعضاؤُه لم يُمَانِع ، فلمَّا طُلِب لسانه ليقْطَع ، انزعج وقال : كيف أبْقَى ساعةً فى الدُّنيا لا أذكُر الله ، ومِثْل هذا ماله دواء ، وكذلك كان الحَجَّاج يقول : والله ما أرْجُو الخير إلا بعد الموت، هذا قوله وكم قد قَتَل من لا يَحِلُّ قتله! منهم سَعِيد بن جُبَيْر .

وقد أخبرنا عبد الوهاب وابن ناصر الحفاظ قالا : أخبرنا المبارك بن عبد الجبار ، قال: أخبَرَنا الحسين بن محمد النَّصيبى ، قال : أخبرنا إسماعيل بن سَعيد ، قال : حدثنا أبو بكر بن الأَنْبَارى ، قال : حدَّثنا أبو عيسى الخَتْلى ، قال : حدَّثنا أبُو يعلى ، قال :

---

(١) وصبه : مرضه .

(٢) كبا جواده : سقط .

حدثنا الأصمعي ، قال : حدثنا أبو عاصم عن عبَّاد بن كثير عن قَحْذَم ، قال : وُجد فى سِجْن الحجَّاج ثلاثة وثلاثون ألفًا ، ما يجبُ على واحدٍ منهم قَطع ولا قَتْلُ ولا صَلْبُ .

قلت: وعموم السَّلاطين يقتُلون ويقطَعُون ؛ ظنا منهم جواز ذلك ، ولو سَألُوا العُلَماء بيَّنُوا لهم، وعمُوم العوام يُبَارزُون بالذُّنوب اعتمادًا على العفو ، وينسُون العقاب ، ومنهم من يَعْتَمِد أنِّى من أهل السُّنَّة ، أو أن لى حسنَات قد تنفَع ، وكل هذا لقوة الجَهْل ، فينبَغى للإنسان أن يُبَالغ فى معرفة الدَّليل ، ولا يُسَاكن شبهته ، ولا يَثِقُ بعلم نفسه ، نسأل الله السَّلامة من جميع الآفات .

٣٥٤ - فصل : الديان لا يموت

اعلم أن الجزاء بالمرْصَاد إن كان حسنةً أو كَانَت سَيِّئة ، ومِنَ الاغترار أن يظُنَّ المذنب إذا لـم ير عقوبَةً ، أنه قد سُومح ، وربَّما جاءت العُقُوبة بعد مُدَّة ، وقلَّ من فعل ذنبًا إلا وقوبل عليه ، قال - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ به ﴾ [(١)] هذا آدَمُ - عليه السلام - أكل لقمةً فقد عرَفْتُم ما جرى عليه ، قال وَهْبُ بن مُنَبِّه: أوْحَى الله - تعالى - إليه: ألم أصْطَنِعْك لنفسى وأحْلَلْتُكَ دارى ! وأسجدت لك ملائكتى ! فعَصَيْت أمرى ونسيت عَهْدى ، وَعِزَّتى لو مَلأت الارضَ كلهم مثلك يعْبُدون ويسبِّحون فى اللَّيل والنَّهَار ثم عَصَوْنى ، لأنزلتُهم منازل العَاصين ، فنزع جبْريل التَّاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الإكْليل [(٢)] عن جَبِينه ، وجذب بناصيَتِه فأهْبِط ، فبكى آدَمُ ثلاثمائة عام على جَبَل الهِنْد، تجرى دموعُهُ فى أوْدية جبَالها ، فنبَتَتْ بتلك المدَامع أشْجَارُ طيبكم هذا .

وكذلك داوُد - عليه السلام - نظر نَظْرَةً ، فأوجبت عتَابَهُ وبكاءَهُ الدَّائم ، حتى نبت العُشْبَ من دمُوعه ، وأما سُلَيْمَان - عليه السلام - ، فإنَّ قومًا اختَصَمُوا إليه ، فكان هواهُ مع أحد الخَصْمَيْن ، فعوقب وتغير فى أعين الناس ، وكان يقول : أطعمونى فلا يطعم .

وأما يعقوب - عليه السلام - فإنه يقال إنه ذبح عجلا بين يدى أمه فعوقب بفراق يوسُف ، وأما يوسف - عليه السلام - فأخذ بالهمِّ ، وكل واحدٍ من إخوته وُلد له اثنا عشر ولدًا ، ونَقَصَ هُو ولدًا ؛ لتلك الهَمَّة .

وأما أيُّوب - عليه السلام - ، فإنَّه قصر فى الإنْكَار على ملك ظَالِم ؛ لأجل خيل

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٢٣ .

(٢) الإكليل : التاج .

كانت فى نَاحيَته فابْتَلى . وأما يُونس - عليه السلام - ، فخرج عن قوْمه بغير إذن فالتَقَمه الحُوت .

وأوْحى الله - عَزَّ وجَلَّ - إلى أرمِيَا : إن قومك تركُوا الأمر الَّذى أكرمْتُ به آباءَهُم، وعزَّتى لأهيِّجَن عليهم جنودًا لا يرحمون بكاءَهُم ، فقال : يا رب ، هم ولد خليلك إبراهيم ، وأمة صَفيِّك موسى ، وقوم نبيك داوُد ، فأوحى الله - تعالى - إليه : إنما أكرمت إبراهيم ومُوسى وداوُد بطاعتى ، ولو عصَوْنى لأنزلْتهم منازل العاصِين .

ونظر بعض العباد شخصًا مستحسنًا ، فقال له شيْخُه : ما هذا النَّظر ؟ ستجد غبه[1] ! فنَسى القرآن بعد أرْبَعين سنة ، وقال آخر : قد عبْتُ شخصًا قد ذهب بعض أسنَانه ، فانْتَثَرت أسنانى، ونظرْت إلى امرأة لا تَحِلُّ ، فنظر إلى زوجتى مَنْ لا أُريدُ ، وكان بعض العاقين ضرب أبَاه وسحَبَه إلى مكان ، فقال له الأبُ : حَسْبُك ، إلى ههنا سحبت أبى ، وقال ابن سيرين : عيَّرت رجلاً بالإفلاس فأفْلَسْت ، ومثل هذا كثيرٌ .

ومن أعْجَب ما سمعت فيه عن الوَزِير ابن حُصَيْر الملقب بالنظام : أن المقتفى غَضب عليه وأمر بأن يؤخَذْ منه عشرة آلاف دينار ، فدخل عليه أهله محزُونين ، وقالوا له : من أيْنَ لك عشرة آلاف دينار ! فقال : ما يؤخَذُ منى عشْرة ولا خَمْسة ولا أربعة ، قالوا من أين لك ؟ قال : إنِّى ظلمت رجلاً فألزمته ثلاثة آلاف ، فما يُؤْخَذ منى أكثر منها ، فلمَّا أدى ثلاثة آلاف دِينَار وقع الخليفة بإطلاقه ومسامَحته فى البَاقِى ، وأنا أقُول عن نفسى : ما نَزَلَتْ بى آفة أو غمّ أو ضيق صدْر إلا بزَلَل أعرفه ، حتَّى يمكننى أن أقول : هذا بالشىء الفُلانى ، وربما تأوَّلت فيه بعد ، فأرى العقُوبة .

فينبغى للإنسان أن يترقَّب جزاء الذُّنوب فقل أن يسلم منه ، وليجْتهد فى التوبة ؛ فقد روى فى الحَديث : « **مَا منْ شَىْء أَسْرَعُ لحَاقًا بشَىْء منْ حَسَنَة حَديثَة لذَنْب قَديم** »[2] ، ومع التَّوبة يكُون خائفًا من المؤَاخَذَة متوقِّعًا لها ، فإن الله - تعالَى - قد تاب على الأنْبِيَاء - عليهم السلام - ، وفى حَديث الشَّفاعة : « **يَقُولُ آدَمُ : ذَنْبى ، ويقُول إبراهيم ومُوسَى : ذنبى** »[3] .

---

(١) غبه : عاقبته .

(٢) الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول (١٣٦/٢) ، والطبرانى فى الكبير كما فى مجمع الزوائد (٣٩/٧) ، وقال الهيثمى : فيه ملك بن يحيى بن عمرو البكرى وهو ضعيف .

(٣) سبق تخريجه .

فإن قال قائل : قوله - تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ به ﴾ [1] خبر فهو يقتضى أن لا يجاوز عن مُذنب ، وقد عرَفْنا قبول التَّوبة والصَّفح عن الخَاطئين .

فالجواب من وَجْهَيْن :

أحدُهما : أن يُحْمَل على من مَات مُصرا ولم يتُبْ ؛ فإن التوبة تجُبُّ ما قبلها .

والثانى : أنه على إطلاقه ، وهو الذى أختاره أنا وأستَدلُّ بالنقل والمعنى : أما النّقل ؛ فإنه لما نَزلَت هذه الآية ، قال أبو بكر : يا رسُول الله ، أو نُجَازَى بكل ما نعْمَل ، فقال : « **أَلَسْتَ تَمْرَضُ ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ ، أَلَيسَ يُصيبُكَ اللأْوَاءُ فَذَلكَ ما تُجْزَوْنَ به** » [2] ، وأما المعنى : فإن المؤمن إذا تاب ونَدم ، كان أسَفُه على ذَنْبه فى كل وقت أقوى من كل عقُوبة ، فالويل لمن عَرَف مرارة الجزَاَء الدائم ، ثم آثر لذَّة المعصية لحْظَة .

٣٣٥ - فصل : محاسبة النفس

تفكَّرت فى نفسى يومًا تفكر محقق ، فحاسَبْتُها قبل أن تُحَاسَب ، ووزنْتُها قبل أن توزَنَ ، فرأيت اللُّطف الربَّانى ، من بدء الطُّفولة وإلى الآن أرى لطفًا بعد لطْف ، وسترًا على قَبيح ، وعفوًا عما يوجبُ عقوبَة ، وما أرَى لذلك شكرًا إلا باللِّسان ، ولقد تكفَّرت فى خطايَا لو عوقبْتُ ببعضها ، لهلكت سريعًا ، ولو كُشفَ للناس بعضُها لاستَحْيَيْت ، ولا يعتَقد معتَقد عند سماع هذا أنها من كبَائر الذُّنوب ، حتى يظُنَّ فىَّ ما يظن فى الفُسَّاق، بل هى ذُنُوب قبيحة فى حقِّ مثلى ، وقعت بتأويلات فاسدة ، فصرتُ إذا دعَوْت أقول : اللَّهُم بحمْدك وستْرك علىّ اغفر لى ، ثم طالَبْت نفْسى بالشكر على ذَلك فما وجدتُه كما ينبَغى ، ثم أنا أتقاضى منه مرادَاتى ، ولا أتقاضى نفسى بصَبْر على مَكروه، ولا بشُكْر على نعمة ، فأخَذْتُ أنُوح على تقصيرى فى شكر المُنْعم ، وكونى أتلذّذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به ، وقد كنت أرجو مقَامَات الكبَار ، فذهب العُمُر وما حصل المقصُود ، فوجدتُ أبَا الوَفَاء بْنَ عَقيل قد ناحَ نَحْوَ ما نُحتُ ، فأعجبتنى نيَاحَتُه، فكتبتها هَهُنَا . قال لنفسه : يَا رعناء [3] ، تقوِّمين الألفاظ ليقال : مُناظرٌ ، وثمرةُ هذا أن يقال : يا مُنَاظرُ ؛ كما يُقَال للمصارع : الفاره [4] ضَيَّعْت أعزَّ الأشياء وأنْفَسَها عند العُقَلاء وهى أيام العمر ، حتَّى شاع لك بين من يموت غدًا اسم مُنَاظر ، ثم يُنْسَى الذاكر والمذْكُور إذا

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٢٣ .

(٢) رواه أحمد (١/١١) ، والحاكم فى المستدرك (٣/٧٤) وصححه ووافقه الذهبى وصححه ابن حبان (٢٩٠٦) قلت : واللأواء هى الشدة .

(٣) الرعناء : البصرة تشبيها برعن الجبل ، والرعن : أنف يتقدم الجبل كما فى القاموس .

(٤) الفره ، فراهة وفراهية : حذق فهو فاره والفاره هو الحاذق بالشىء كما فى القاموس .

دَرَسَتِ القلوب ، هذا إن تأخر الأمْر إلى موتك ، بل ربَّما نشأ شاب أفرَهُ منك فموَّهوا له وصار الاسم له .

والعُقَلاء عن الله تشاغَلُوا بما إذا انطَوَوْا نَشَرَهم ، وهو العَمَل بالعلم ، والنَّظر الخالص لنفوسهم ، أُفٌّ لنفسي ، وقد سطَرت عدة مجلدات في فُنُون العلوم وما عَبَق بها فضيلة ، إن نوظرتْ شَمَخَتْ [(١)] ، وإن نوصحَتْ تَعَجْرَفَتْ ، وإن لاحت الدنيا ، طارت إليها طيران الرَّخَم [(٢)] ، وسقوط الغُراب على الجِيَف ، فليتها أخذتْ أخذ المضْطَرّ من الميتة ، توفَر في المخالطة عيوبًا تَبْلَى ولا تحتَشِم نَظَر الحق إليها ، وإن انكسر لها غرض ، تضَجَّرت ، فإن امتدت بالنِّعم ، اشتغلت عن المُنْعِم ، أُفٍّ والله منِّي اليوم على وجْه الأرض ، وغدًا تحتَها ، والله إن نَتَنَ جَسَدى بعد ثلاث تحت التُّراب أقلُّ من نتن خلائقى وأنا بين الأصحاب .

والله إننى قد بهرنى حلْمُ هذا الكريم عنى ، كيف يسترنى وأنا أتهَتَّك ، ويجْمَعُنى وأنا أتشتَّت ، وغدًا يقال : مات الحِبْر العالِم الصَّالح ، ولو عرفونى حقَّ معرفَتى بنفْسى، ما دَفَنُونى ، والله لأنَادِيَنَّ على نفْسى نداءَ المتكَشِّفين معائبَ الأعداء، ولأنُوحَنَّ نَوْح الثَّاكلين ؛ إذْ لا نائح لى ينُوح علىَّ لهذه المصَائب المكتُومة، والخلال المغَطَّاة التى قد ستَرها مَنْ خبَرَها ، وغطَّاها مَن علمها ، والله ما أجد لنفسى خُلَّة أستحسنُ أن أقول متوسِّلاً بها ، اللَّهم اغفر لى كذَا بكَذَا ، والله ما التَفَتُّ قط إلا وجَدْت منه - سبحانه - برا يكفينى ، ووقاية تحمينى ، ومع تسلُّط الأعداء ، ولا عرَضَتْ حاجة ، فمددْتُ يدى إلا قضاها . هذا فعله معى ، وهو رب غنى عنى ، وهذا فعْلى وأنا عبد فقير إليه ، ولا عُذْرَ لى فأقول : ما دَرَيْتُ أو سَهَوْتُ .

والله لقد خلَقَنى خلقًا صحيحًا سليمًا، ونوَّرَ قلبى بالفطْنة ، حتى إن الغائبات والمكتُومات تنكشف لفَهْمِي فواحسرتاه على عُمر انْقَضى فيما لا يطابق الرِّضَا ، واحرْمَانى لمقامات الرجال الفُطَنَاء ، يا حَسْرتى علَى ما فرّطْت فى جَنْب الله وشماتة العدُوِّ بى ، واخَيْبَةَ مَنْ أحسن الظنَّ بى إذا شهدت الجوارح علىَّ ، واخُذْلانى عند إقامة الحجَّة ، سَخِرَ والله منِّى الشيطانُ ، وأنا الفَطِن ، اللَّهم توبَةً خالصةً من هذه الاقذار ، ونهضةً صادقَةً لتصْفِية ما بَقِى من الأكدار ، وقد جِئْتُكَ بعد الخمسين ، وأنا من خلق المَتَاع . وأَبى العلمَ إلا أن يأخذ بيدى إلى معْدِن الكرم ، وليس لى وَسِيلة إلا التأسُّف والندم . فوالله

---

(١) شمخت : تكبرت .   (٢) الرخم : طائر يشبه النسر .

ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك ، ولا ناسياً لما أسلفت من كَرَمك ، فاغفر لى سَالِفَ فِعْلى .

٣٥٦ - فصل : عداوة الأقارب

عَدَاوَةُ الأقارب صعبة ، وربَّما دامت كحرب بكْر وتغْلب ابنَىْ وائل ، وعبس وذبيان ابنَىْ بَغيض ، والأوْس والخزرج ابنَىْ قيلة ، قال الجاحظ : ركَدت هذه الحرب أربعين عامًا؛ والسبب فى هذا أن كل واحد من الأقارب يكره أن يُفوقه قريبُه فيقع التَّحَاسُد ، فينبغى لمن فَضِلَ على أقاربه أن يتواضَع لهم ، ويرفَعَهُم جهده ، ويرفُق بهم لعله يسْلم، قال رجل لرسول الله - ﷺ - : لى أقاربُ أصلهم فيقطَعُونى فقال : « **فكأنَّمَا تُسفُّهُمُ المَلَّ ، ولن يَزَالَ معك من الله ظَهيرٌ ما دُمْتَ على ذلكَ** » (١) .

٣٥٧ - فصل : حسن الأدب

رأيْتُ كلاب الصيد إذا مرت بكلاب المحلَّة نبحَتها هذه وبالَغت وأسْرَعَت خلفها ، وكانها تراهَا مكرمة مجلَّلة ، فتحْسدها على ذَلك ، ورأيت كلاب الصَّيد حينئذ لا تلتَفت إليها ولا تعيرها الطَّرْف ، ولا تَعُد نباحها شيئًا ، فرأيت أن كلاب الصيد كأنها ليست من جنْس تلك الكلاب ؛ لأن تلك غليظَة البدَن ، كثيفة الأعضاء ، لا أمانةَ لها ، وهذه لطيفَةٌ دقيقة الخِلْقة ومعها آدابٌ قد ناسبت خلْقَتها اللَّطيفة ، وأنَّها تحبس الصيد على مالكها خوفًا من عقَابه ، أو مراعاةَ شكر نعْمَته عليها ، فرأيت أن الادب وحُسْن العشرة يتبع لطَافة البَدَن وصفَاء الرُّوح ، وهكذا المؤمن العاقل لا يلتَفت إلى حاسده ولا يعُدُّ شيئًا؛ إذ هو فى وادٍ وذاك فى وادٍ ، ذاك يحْسُده على الدنيا ، وهذا همتَّه الآخرة ، فيا بُعد ما بين الوَاديَيْن .

٣٥٨ - فصل : أسرار حكمة الله

هذا فصل ملاحظَتُه من أهم الأشياء : ينبغى لمن آمن بالله - تعالى - أن يُسْلم له فى أفعاله : ويعْلَم أنه حكيم ومالك ، وأنه لا يعبث ، فإنْ خفيت عليه حكْمة فعله ، نسب الجَهْل إلى نفسه ، وسلَّم للحَكيم المَالك ، فإذا طالبه العَقْل بحكمة الفعْل ، قال : ما بانَت لى، فيجبُ علىَّ تسليم الأمر لمالكه . وإن أقوامًا نظروا بمجرَّد العقل إلى كثير من أفعال الحق - سبحانه - فرأوْهَا لو صدَرَت من مخلوق نسبت إلى ضد الحكمة ، فنَسَبُوا

---

(١) رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٥٨) عن أبى هريرة ، وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٠) . قلت : والمل : هو الرماد الحار الذى يحمى ليدفن فيه الخبز لكى ينضج .

الخالق إلى ذلك ، وهذا الكُفْر المحْض ، والجُنون البارد ، والواجبُ نسبة الجهْل إلى النُّفوس ؛ فإن العقول قَاصرة عن مطالعة حِكْمته ، وأوّل من فعل ذلك إبليس ؛ فإنه قد رآه قد فَضَّل طينًا على نار ، والعقْل يرى النَّار أفضل ، فعاب حكمته ، وعمَّت هذه المحْنَة خلقًا ممن يُنْسب إلى العلم وكثير من العَوَام ، فكم قد رأيْنَا عالمًا يتعرَّض وعاميًا يرد فيكفره ، وهذه محْنَة قد شملت أكثر الخَلْق ، يرون عالمًا يضيَّق عليه وفاسقًا وسِّع عليه ، فيقُولون: هذا لا يَلِيق بالحكْمة ، وقد علم العُلَمَاء أن الله - تعالى - قد فرض الزَكَوَات والخَرَاج والجزْيَة والغنائم والكفَّارات ليسْتَغنى بها الفقراء ، فاختَصّ بذلك الظلمة ، وصانع من تجب عليه الزكاة بإخْرَاج بعضها ، فجاع الفَقير ، فينبغى أن نذُمَّ هؤلاء الظلمة ولا نعْتَرض على من قدَّر الكفَاية للفقراء ، وقد حَصَل فى ضمْن هذا عقوبَةَ الظَّالمين من حبْسهم الحقوق ، وابْتلاء الفُقَرَاء بصبرهم عن حظُوظهم ، وأكثر هؤلاء المعْتَرضين لا يكادُون يسْلَمُون وقت خرُوج الرُّوح من اعتراض يُخْرِج إلى الكفر ، فتَخْرُج النَّفس كافرة، فكم عاميّ يقول : فُلان قد ابتلى وما يستَحق ، ومَعْنَاه : أنه قد فَعَل به ما لا يَليق بالصَّواب، وقد قال بعض الخُلَعَاء :

أَيَارَبّ تَخْــلُقُ أَقْـــمَارَ لَيْلٍ   وَأَغْصَــانَ بَانٍ وَكُــثْبَانَ رَمْلِ
وَتَنْهَــى عِبَادَكَ أَنْ يَعْشَـــقُوا   أَيَا حَاكِمَ الْعَدْلِ ذَا حُكْمُ عَدْلِ

ومثل هذا يُنْشده جماعة من العلماء ويستَحْسنُونه ، وهو كُفْر محض ، وما فَهم هؤلاء سر النهى ولا معناه ؛ لأنه ما نهى عن العشق ، وإنَّما نهى عن العمل بمقْتَضى العشْق من الأشْيَاء المحرَّمَة ؛ كالنَّظر واللَّمس والفعْل القَبيح ، وفى الامتنَاع عن المشْتهى دليل على الإيمان بوجود النَّاهي ؛ كصبر العَطْشَان فى رمضان عن الماء ؛ فإنه دليل على الإيمان بوجُود من أمر بالصَّوم ، وتسليم النُّفُوس إلى القَتْل والجهاد دليلٌ على اليقين بالجَزَاء ، ثم المستَحْسَن أُنموذج ما قد أعد ، فأين العَقْل المتأمل ، كَلا ، لو تأمّل وصبر قليلاً ، لَربح كثيرًا ، ولو ذَهَبْتُ أذكر ما قد عَرَفْت من اعتراض العلماء والعَوَامّ لطال .

ومن أحْسَن الناس حالاً فى ذلك ، ما يُحْكَى عن ابن الرَّاوندى : أنه جاعَ يومًا واشْتَدَّ جوعه ، فجلس على الجسْر وقد أمضَّه [1] الجُوع ، فمرَّت خيل مزيَّنة بالحرير والدِّيبَاج فقال : لمن هذه ؟ فقالوا : لعليِّ بن بَلْتَق غلام الخليفة ، فمرت جوار مستَحْسَنات، فقال : لمن هذه ؟ فقالوا : لعَليّ بن بَلْتَق ، فمرَّ به رجل فرآه وعليه أثر

---

(١) أمضه : أتعبه .

الضُّر ، فرمى إليه رَغيفَين فأخذهما ورَمَى بهما ، وقال : هذه لعَلى بن بَلْتق وهذان لى .
ونسيَ الجاهل الأحمق أنه بما يقُول ويعتَرض ويَفْعَل أهل هذه المجاعة ، فيا معتَرضين وهم في غَاية النَّقْص على من لا عَيْبَ فى فعله ، أنتم في البِدَاية من ماء وَطِين ، وفى الثَّانى من ماء مَهِين ، ثم تحملون الأنجاس على الدوَّام ، ولَو حُبِس عنكم الهواء لصرتُم جيفًا .
وكم من رأْى يراه حازِمُكم فإذا عرضه على غيره تبيَّن له قُبْح رأيه ، ثم المعَاصى منكم زائدة فى الحَدِّ ، فما فيكم بعد إلا الاعتْرَاض على المالك الحكيم ، ولو لم يكُن فى هذه البَلاوَى إلا أن يراد منا التَّسْليم لكفى . ولو أنه أنشأ الخلق ليدلُّوا على وجوده ، ثم أهلكَهُم ولم يُعدهم ، كان ذلك له ؛ لأنه مالكٌ ، لكنه بفَضْله وعَد بالإعادة ، والجَزَاء ، والبَقَاء الدَّائم فى النعيم ، فمتى ما جرَى أمرٌ لا تعرف علَّته ، فانسب ذلك إلى قُصُور علمك ، وقد ترى مقْتُولاً ظلمًا وكم قد قتل وظَلَم حتى قوبل ببعضه ، وقل أنْ يَجْري لأحد آفة إلا ويستحقُّها ، غير أن تلك الآفات المُجَازَى بها غائبَةٌ عنَّا ورأينا الجزاء وحده ، فسَلِّم تَسْلَم ، واحذر كلمة اعتْراض أو إضمار ، فربَّما أخرجتك من دَائرة الإسْلام .

٣٥٩ – فصل : يوم العيد ويوم القيامة

رأيت النَّاس يوم العيد فشبَّهت الحال بالقيامة ؛ فإنهم لما انْتَبَهُوا من نوْمهم ، خرجوا إلى عيدهم كخروج المونَى من قُبُورهم إلى حَشْرهم ، فمنهم من زيَّنته الغاية ومركبه النِّهاية ، ومنهم المتَوسِّط ، ومنهم المرذُول ، وعلى هَذَا أَحْوال النَّاس يوم القيامة ؛ قال – تعالى – : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ (١) أى : رُكْبانا ، ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ (٢) أى : عطاشًا ، وقال – عليه الصلاة والسلام : «يُحْشَرُونَ رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِهِمْ » (٣) ومن النَّاس من يُدَاسُ فى زحْمة العيد ، وكذلك الظَّلَمَة يطؤُهم الناس بأقدامهم فى القيامة ، ومن النَّاس يوم العيد الغنى المتَصَدِّق؛ كذلك يوم القيَامة ، أهل المعْرُوف فى الدُّنيا هم أهل المعْرُوف فى الآخرة ، ومنهم الفقير السَّائل فقد يُعْطَى كذلك يوم الجزاء « أَعْدَدْتُ شَفَاعَتى لأَهْلِ الكَبَائر » (٤) ، ومنهم من لا يعْطَف عليه : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ (٥) والأعلام منشورة فى العيد ، كذلك أعلام المتَّقين فى القيامَة ، والبُوق يَضْرِب ، كذلك يُخْبر بحال العبد فيقال :

---

(١) سورة مريم ، آية : ٨٥ . (٢) سورة مريم ، آية : ٨٦ .
(٣) أحمد (٤٤٧/٤) (٣/٥) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٤) ، وقال : حسن صحيح .
(٤) أحمد (٢١٣/٣) ، وأبو داود فى السنة (٤٧٣٩) ، والترمذي فى صفة القيامة (٢٤٣٥) عن أنس و(٢٤٣٦) عن جابر .
(٥) سورة الشعراء ، آية : ١٠٠ ، ١٠١ .

يا أهل الموقف ، إن فلانًا قد سَعد سعادة لا شقَاوَة بعْدَها ، وإن فلانًا قد شَقى شقاوَةً لا سعَادة بَعْدَها ، ثم يَرْجعُون من العيد بالخواصّ إلى باب الحجرة يخبرون بامتثال الأوامر : ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (١) ، فيخرُج التوقيع إليهم ، ﴿ وَكَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ (٢) ومن هو دُونَهم يختلف حالُه : فمنهم من يرجع إلى بيت عامر : ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾(٣) ، ومنهم متوسط ، ومنهم من يعُود إلى بيت قَفْر : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (٤) .

٣٦٠ - فصل : نصيحة للعلماء والزهاد

يتضمَّن نصيحةً للعلماء والزُّهَّاد : يا قوم ، قد علمتم أن « **الأعمال بالنِّيات** » (٥) ، وقد فهمْتم قوله - تعالى - : ﴿ أَلا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (٦) وقد سمعْتُم عن السَّلف أنهم كانوا لا يعْمَلُون ولا يقُولون ، حتَى تتقَدَّم النيَة وتصحَّ ، أيذهبَ زَمَانكم يا فُقَهَاءُ في الجَدَل والصِّياح ! وترتَفع أصواتكم عند اجْتماع العَوامّ تقْصُدون المغالبة ! أو ما سَمعتُم : « **مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُبَاهِي به العُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِي به السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفَ به وُجُوهَ النَّاسِ إليه، لم يَرُح رَائحَةَ الجنة** » (٧) ، ثم يقدم أحدكم على الفَتْوى وليس من أهلها ، وقد كان السلف يتدافَعُونها ، ويا معشر المتزهدين ، إنه يعلم السر وأخفى ، أتظهرون الفَقْر في لباسكم وأنتم تستَوْفون شهوات النفوس ، وتُظْهرون التخاشع والبكاء في الجلَوَات دون الخَلَوات . كان ابن سيرين يضحك ويقهقه ، فإذا خلا ، بكى أكثر الليل ، قال سفيان لصاحبه : ما أوقَحَك ، تصلى والناس يرونك وتنام حيث لا ترى :

أَفْـــدِي ظِـــبَاءَ فَلاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا   مَضْغَ الْكَلامِ وَلا صَبْغَ الْحَوَاجِبِ

آه للمرائى من يوم : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ (٨) وهي النيات ، فأفيقوا من سُكركم، وتوبوا من زَلَلكم ، واستقيموا على الجادَّة : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللهِ ﴾ (٩) .

---

(١) سورة الواقعة ، آية : ١١ .   (٢) سورة الإنسان ، آية : ٢٢ .

(٣) سوره الحاقة ، آية : ٢٤ .   (٤) سورة الحشر ، آية : ٢ .

(٥) رواه البخارى فى بدء الوحى (١) ، ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧/ ١٥٥) .

(٦) سورة الزمر ، آية ٢ .

(٧) رواه الترمذى فى العلم (٢٦٥٤) ، وقال : لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ورواه ابن ماجة فى المقدمة (٢٥٣) ، وفى [illegible] إسناده ضعيف ، وابن حبان (٧٧) .

(٨) سورة العاديات ، اية ١٠ .   (٩) سورة الزمر ، آية : ٥٦ .

٣٦١ - فصل : أخطاء العلماء والعباد

رأيت جُمْهور الناس حائدين عن الشريعة ، جائزين على ما ألِفُوا من العادة ، وقد يخلص منهم فريقان : علماء ، وعبَّاد ، فتأملت جمهور العلماء فرأيتهم فى تخْليط ، منهم من يقْتَصر على علم معامَلات الدنيا ، ويعْرِض عن معاملات الآخرة ؛ إما لجَهْله بها ، أو لثقل أمرها عليه ، فهو لا يجْرى على ما يثقل عليه مما يوجبُه العلم ، ويتّبع فى الباقى العادات ، وربما تخايل أنه يسامَح فى الخطايا لكونه عالمًا ، وقد نسىَ أن العلم حجّة عليه ، ومنهم من هو واقفٌ مع صورة العلم ، غافل عن المقْصُود وهو العمل ، وفيهم من يخالطُ السلطان ، فيتأذى المُخالط بما يرى من الذُّنوب والظلم ولا يمكنه الإنكار، وربما مَدَح هؤلاء ، ويتأذى السلطان بصحبته فيقول : لولا أنى على صواب ، ما جالسنى هذا، ويتأذى العوامُّ فيقولون : لولا أن أمر السلطان قريب ، ما خالطه هذا العَالِم ، ورأيت الأشراف يثقُون بشفاعة آبائهم ، وينسون أن اليهود من بنى إسرائيل .

وأما الفريق الثانى وهم العبَّاد ، فرأيت أكثرهم فى تخليط ، أما الصَّحيحُو القصد منهم ، فعلى غير الجَادَّة فى أكثر عملهم ، قد وضَع لهم جماعة من المتقدّمين كتبًا فيها دَفائن قبيحة ، وأحاديث غير صحيحة ، ويأمُرُون فيها بأشياء تخَالف الشريعة ، مثل كتب الحارث المُحَاسِبى ، وأبى عبد الله الترمذى ، و« قُوت القُلوب » « لأبى طالب المكى»، وكتاب « الإحياء » « لأبى حامد الطوسى » .

فإذا فتح المبتدئ عينه وهمَّ بسلوك الطريق بهذه الكتب حملته إلى الخطايا ، لأنهم قد بَنَوْا على أحاديث مُحَالَة ، ويذمُّون الدنيا ولا يدْرون ما المذموم منها ، فيتصور المبْتَدِئ ذم ذات الدنيا ، فيهرب المنْقَطع إلى الجبل ، وربما فَاتَته الجماعة والجمعة ، ويقتَصر على البَلّوط والكُمثرى فيورثه القُولَنْجَ (١) ، ويقْنع بعضهم بشرب اللّبن فينحَلّ الطبع ، أو يأكل البَاقلاء والعدس فيحدث له قَرَاقر (٢) ، وإنما ينبغى لقاصد الحَجِّ أن يُرْفق أوّلا بالناقة ليصل ، ألا ترى للفَطِن من الأتراك يهتم بفَرَسه قبل تحصيل قُوت نفسه ، وربما تصدى القاص لشرح أحوال قوم من السلف والمتزهدين ، فيتبعهم المريد فيتأذّى بذلك ، ومتى ردَدْنا ذلك المنقول وبيَّنا خطأ فاعله ، قال الجهال : أتردّ على الزهاد ، وإنما ينبغى اتباع الصواب ، ولا ينظر إلى أسماء المعظّمين فى النفوس ؛ فإنا نَقُول : قال أبو حنيفة ثم يخالفُه الشافعى ، وإنما ينبغى أن يتّبع الدليل ، قال المرْوَزى : مدح أحمد بن حنبل

(١) مرض يسبب حبس الريح . (٢) قراقر : صوت فى البطن .

النّكاح فقلت له : قد قال إبراهيم بن أدهم ، فصاح وقال : وقعنا فى بنيات [1] الطريق، عليك بما كان عليه رسول الله - ﷺ - وأصحابه ، وتكلم أحمد فى الحارث المحاسبى ، ورد على سَرِىّ السّقطى حين قال : لما خلق الله الحُرُوف ، وقف الألف وسجدت البَاء ، فقال : نفّروا الناس عنه ، فالحق لا ينبغى أن يُحَابى ؛ فإنه جدّ ، وإنى أرى أكثر الناس قد حادُوا عن الشريعة ، وصار كلام المتزَهّدين كأنه شريعة لهم ، فيقال : قال أَبُو طالب المَكِّى : كان من السَّلف من يزن قُوته بكَرَبَة [2] فينقص كل يوم ، وهذا شىءٌ ما عرفه رسول الله - ﷺ - ولا أصحابه ، وإنما كانوا يأكلون دون الشّبع ، فأما الحمل على النفس بالجُوع ، فمنهى عنه .

ويقول : قال داود الطائى لسفيان : إذا كنت تشرب الماء البَارِد ، متى تحب الموت ! وكان ماؤه فى دَنّ [3] ، وما علم أن للنفس حظا ، وأن شرب الماء الحار يرهِّل [4] المعدة ويؤذِى ، وأن رسول الله - ﷺ - كان يبرد الماء ، ويقول آخر منهم : منذ خَمْسِين سنة أشتهى الشِّواء ما صَفَا لى دِرْهَمه ، ويقول آخر : أشْتَهِى أن أغْمِس جزرة فى دبس [5] ، فما صح لى ، أتراهم أرادوا حبَّة منذ خرجت من المعْدِن ما دخلت فى شُبْهَة ؛ هذا شىءٌ ما نظر فيه رسول الله - ﷺ - وإن كان الورع حسنًا ، ولكن لا على حمل المشاقّ الشديدة .

وهذا بشر الحافى يقول : لا أحدث لأنى أشتهى أن أحدث ، وهذا تعليل لا يصلُح ؛ لأن الإنسان مأمور بالنّكاح وهو من أكبر المشتهى ، وكان بشر حافيًا حتى قيل له الحَافِى، ولو ستر أمره بنعلين ، كان أصلح ، والحفاء يؤذى العين ، وليس من أمر الدنيا فى شىء ، فقد كان لرسول الله - ﷺ - نعلان ، وما كانت سيرة رسول الله - ﷺ - وأصحابه على ما المتزهدون عليه اليَوْم ؛ فقد كان رسول الله - ﷺ - يضْحك ويمزح ، ويختار المستحسنات ، ويُسَابق عائشة - رضى الله عنها - ، وكان يأكل اللّحم ويحب الحلوى ، ويُستَعْذَب له الماء .

وعلى هذا كان طريقة أصحابه ، فأظهَرَ المتزهدون طرائق كأنها ابتداء شريعة ، وكلها على غير الجادّة ، ويحتجُّون بقول المحاسبى والمكِّى ، ولا يحتج أحد منهم بصَحَابى ،

---

(١) سبق تعريفها . (٢) الكربة : ما يلتقط من التمر فى أصول السعف .
(٣) دن : وعاء يوضع فيه الماء ويوضع فى الأرض حتى لا يبرد .
(٤) يرهل : يرخى . (٥) الدبس : ما يسيل من الرطب .

ولا تابعيّ ، ولا بإمام من أئمة الإسلام ، فإن رأوا عالمًا لبس ثوبًا جميلاً ، أو تزوج مستَحْسَنَة ، أو أفطر بالنّهار ، أو ضحك عابوه ، فينبغي أن يُعْلَم أن أكثر من صحّ قصده منهم على غير الجَادّة ؛ لقلة علمهم ، حتى إن بَعْضَهم يقول : منذ ثَمَانين سنة ما اضْطَجَعْت ، ويقول آخر : حلَفْت لا أشرب الماء سَنَة ، وهؤُلاء على غير الصَّواب ، فإن للنفس حقا ، فأما من ساء قصده ممَّن نافق وراءَى لاجتلاب الدنيا وتَقْبيل الأيدى ، فلا كلام معه ، وهم جُمْهُور المتصوفة ، فإنهم رقعوا الثِّياب الملونة ؛ ليراهم الناس بعين الترك للزّينة ، وما مَعَهُم أحسن من السَّقلاطُون ، وإنما رقع القدماء للفقر ، فهم فى اللَّذات ، وجمع المال ، وأخذ الشُّبُهات ، واستعمال الراحة ، واللعب ومخالطة السلاطين ، وهؤُلاء قد كشفُوا القِنَاع وباينوا زُهْد أوَائلهم ، بلى أعجب منهم من ينفق عليه .

٣٦٢ - فصل : نماذج للعبرة

إن الله ـ عَزّ وجَلّ ـ جعل أحوالَ الآدمى أمثلة ليعتبر بها ، فمن أمثلة أحوَاله القمر الذى يَبْتَدِئ صغيرًا ثم يتكامل بَدْرًا ، ثم يتناقص بانْمحَاق ، وقد يَطرأ عليه ما يفسده كالكسوف . فكذلك الآدميُّ أوله نطفة ، ثم يترقَّى من الفساد إلى الصَّلاح ، فإذا تم كان بمنزلة البَدْر الكامل ، ثم تتنَاقص أحواله بالضَّعف ، فربَّما هجم الموت قبل ذلك هُجُوم الكُسوف على القَمَر ؛ قال الشاعر :

وَالمَــــرْءُ مِثْلُ هِلالٍ عِنْدَ طَـــلْعَتِه ... يَبْدُو ضَـــــئِيلاً لَطِيفًا ثُمَّ يَتَّسِـــقُ
يَـــــزْدَادُ حَـــتَّى إِذَا مَا تَمَّ أعقبه ... كَرُّ الْجَدِيدَيْنِ [١] نَقْصًا ثُمَّ يَنْمَحِقُ

ومن أمثلة حاله ، دودُ القز ، فإنه يكون حيا إلى أن يبتدئ نبات قوته وهو ورق الفِرْصَاد [٢] ، فإذا اخضر الوَرَق دبّت الروح فيه ، ثم ينتقل من حال إلى حال كانتقال الطِّفل ، ثم يرقد كغَفْلة الآدمى عن النّظر فى العواقب ، ثم ينْتَبه فيحرص على الأكل كحرص الشَّره على تحْصِيل الدُّنيا ، ثم يسْدِى على نفسه كما يخطب الآدمى الأوزَار على دينه ، فيرتَهِن فى ذلك الحبس كما يرتهِن الميت فى قبره ، ثم يقرِض فيخرج خلقًا آخر كما تنْشر الموتى غرلا بُهْمًا [٣] وقد دله على البعث تكوّن النطفة كالميت . ثم تصير آدميًا وإلقاء الحب تحت الأرض فيفسد ثم يهتز خضرًا :

إِذَا الْمَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَة ... فَــفِى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ عبرة

(١) الجديدين : أى الليل والنهار .
(٢) أى : ورق التوت .
(٣) الأغرل : الأقلف والبهم من ليس فيه عاهة .

٣٦٣ - فصل : خطر الهوى العاجل

إنما فضل العقل بتأمل العواقب ، فأما القليل العقل فإنه يرى الحال الحَاضِرة ، ولا ينظُر إلى عاقبتها ، فإن اللص يرى أخذ المال وينْسَى قطع اليد ، والبطَّال يرى لذة الراحة وينسى ما تجْنِى من فوات العلم وكَسْب المال ، فإذا كبر فسئل عن علم ، لمْ يَدْر ، وإذا احتاج سأل فذلّ ، فقد أربى [1] ما حصل له من التأسُّف على لذة البطالة ، ثمَّ يفُوته ثواب الآخرة بترك العَمَل فى الدنيا ، وكذلك شَارب الخمر يتلذّ تلك الساعة ، وينْسى ما يجْنى من الآفات فى الدنيا والآخرة ، وكذلك الزنا ؛ فإن الإنسان يرى قَضَاء الشهوة ، ويَنْسى ما يجْنى منه فَضيحة الدنيا والحَدّ ، وربما كان للمرأة زوْج فألْحقَت الحَمْل من هذا به وتسلسل الأمر ، فقِس على هذه النبذة وانتبه للعوَاقب ، ولا تؤثِر لذة تفوِّت خيرًا كثيرًا، وصابر مشقّة تحصل ربْحًا وافرًا .

٣٦٤ - فصل : قناعة العالم والزاهد

ليس فى الدُّنيا عيش إلا لعالم أو زاهد ، بلى قد يقع فى صفاء حالهما كَدَر ، وهو أن العالم يشْتَغل بالعلم أو بالانقطاع عن الكَسْب ، وقد يكون له عَائلة ، فربما تعرض بالسلطان فَفَسد حاله ، وكذلك الزاهد ، فينبغى للعَالم والعَابد أن يتحركا فى معاش ؛ كنَسْخ بأجرة ، أو عمل الخُوص ، وإن فتح له بشىء واقتنع باليَسير ، فلا يستعبده أحد، كما كان أحمد بن حنبل له أُجرة لعلَّها لا تبلغ دينارًا يتقوَّت بها . ومتى لم يقْنَع ، أفسدت مخالطة السّلاطين والعوام دينَه ، وفى النَّاس من يريد التَّوسُّع فى المطَاعم ، ومنهم من لا يوافقُه خشن العَيْش ، وهيهات أن يصحَّ الدين مع تحْصيل اللذات . وإذا قنع العَالم والزاهد بما يكْفى ، لم يتبذَّل أحدهما للسلطان ولم يستخدم بالتردُّد إلى بابه ، ولم يحتج الزَّاهد إلى تصنع ، والعيْش اللذيذ للمنْقَطع الذى لا يتبذل به ولا يَحْمل منّه .

٣٦٥ - فصل : تفاوت الفهم

ما أكْثرَ تفاوتَ الناس فى الفُهُوم ، حتى العلماء يتفاوتُون التفاوت الكَثير فى الأُصول والفروع ، فترى أقوامًا يسمعون أخبَار الصِّفات فيحملونها على ما يقْتَضيه الحِسّ ، كقول قائلهم ينْزِل بذاته إلى السماء وينْتَقل ، وهذا فهم رَدىء ؛ لأن المنتَقِل يكوِن من مكان إلى مكان ، ويوجب ذلك كوْن المكان أكثر منه ، ويلزم منه الحَرَكَة ، وكل ذلك محالٌ على الحق - عَزَّ وَجَلَّ - ، وأما فى الفُرُوع : فكما يُرْوى عن دَاوُد ؛ أنه قال فى قوله

---

(١) أربى : زاد .

ﷺ : « لا يَبُولَنَّ أحَدُكُمْ فى المَاء الدَّائم ثُمَّ يَتَوَضَّأ منهُ »[1] ، فقال : إن بال غيره جاز ، فما يفهم المراد من التَّنجيس ، بل يأخذ بمجرد اللفظ ، وكذلك يَقُول : لحم الخنزير حَرَام لا جلده ، نعوذ بالله من سُوء الفهم ، وكَذَلك يتفَاوُت الشعراء الذين شَغَلهم التفَطُّن لدقائق الأحوال ؛ كقول قائلهم :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى   وأَسْـــيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نجدة دمَا

والجفنات : عدد يسير ، فلو قال : الجفَان لكان أبلغ ، ولو قال : بالدجى ، لكان أحسن ، ويقْطُرن دليل على القلّة ، وكذلك قول القائل :

هَمُّهَا العِطرُ وَالفِرَاشُ ويعلوها   لُجَــــين منظــــــم ولآلى

وهذا قاصر ، فإنه لو فعلت هذا سوداء لحسَّنها ، إنَّما المادح هو القائل :

أَلَمْ تَرَ أَنِّى كُـلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا   وَجَدْتُ بِهَا طِيبًا وَإِنْ لَمْ تطَيَّبِ

وكذا قول القائل :

أَدْعُو إِلَى هَجْرِهَا قَلْبِى فَيَتْبَعُنِى   حَتَّى إِذَا قُلْتُ هَذَا صَادِقًا نَزَعَا

ولو كان صادقًا فى المحبة ، لما كان له قلب يخَاطبه ، وإذا خاطبه فى الهجر ، لم يوافقه ، إنما المحب الصَّادق هو القائل:

يَقُولُونَ لَوْ عَاتَبْتَ قَلْبَكَ لارْعَوَى[2]   فَقُـــلْتُ وَهَلْ لِلعَاشِــقِينَ قُلُوبُ

ومثل هذا إذا نوقش كثير ، فأقلّ موجود فى الناس الفهم والغوص على دقائق المعَانى.

٢٦٦ - فصل : لذات الدنيا

من تأمّل الدنيا ، علم أنه ليْس فيها لذة أصلاً ؛ فإن وجدت لذّة شيبت بالنَّغَص ، التى تزيد على اللَّذة أضعافًا .

فمن اللَذات النساء ، فربما تثْبت المستَحْسَنة ، وربما لم تحب الزُّوج ، فمتى علم ذلك يعزل عنها ، وربما خَانَت وذلك الهلاكُ ، فإن تمَّت المُرَادات ، فذكْر الفراق زائدٌ فى التألم على الالْتذَاذ ، ومن اللذات الولَد ومقاساة البِنْت إلى أن تتزوّج ، وما تلقى من زَوْجها وخوف عارها محن قبيحة . والابن إن مرض ذاب الفؤاد ، وإن خرج عن حدّ

(١) البخارى فى الوضوء (٢٣٩) ، ومسلم فى الطهارة (٢٨٢) ، وأبو داود فى الطهارة (٦٩) .
(٢) ارعوى : امتنع وكف .

الصلاح ، زاد الأسف ، وإن كان عدُوا ، فمراده هلاك الأب ، ثم إن تَمَّ المراد ، فذكْر فراقه يذيب القلوب ، ولو أن فاسقًا أحب بعض المردان ، انهتك عرضه فى الدنيا وذَهَب دينه ، ثم لا يلْبَث أن تتغيّر حليته فيصير مبغوضًا مع ما سبق من الهتْكَة والإثم ، وكم قد غلبت شهوة رجُلٍ وطئ الجوارى السُّود ، فجاء الولد أسودًا فبقى عارًا عليه .

ومن هذا الجنْس الالتذاذ بالمال ، وفى تحْصيله آثام ، وفراقُه حسرة ، وذهاب العُمْر فيه غبن . وهذا أُنْموذج لما لم يذكر ، فينْبغى لمَن وفَّقَه الله - سبحانه - أن يأخذ الضَّرُورِىَّ الذى يَميل إلى سلامة الدِّين والبدن والعافية ، ويَهْجُر الهوى الذى نُغَصُه تَتَضَاعف على لذته ، ومن صبَر على ما يكره قَصْد النَّفع فى العاقبة ، التذ أضعافًا ، كطالب العلم فإنه يتعب يسيرًا وينال خير الدَّارين مع سلامة العاقبة ، ولذة البَطَالة تعقب عدم العلم والعَمَل، فيزيد الأسى على اللَّذة أضعافًا . فاللهَ اللهَ أن يغْلبك هواك العاجل ، ومتى هم الهَوَى بالتوثب ، فامنعه وزن عاجلِه بآجله ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ .

٣٦٧ - فصل : حيل إبليس على الخلق

رأيت إبليس قد احتال بفنون الحِيَل على الخلق ، وأمال أكثرهم عن العلْم الذى هو مصْباح السَّالك ، فتركهم يتخبَّطون فى ظلمات الجَهْل ، وشغلهم بأمور الحس ، ولا يلتَفتون إلى مشورة العقل ، فإذا ضاق بأحدهم عيشه أو نكب ، اعترض فكَفَر ، فمنهم من يَنْسب ذلك إلى الدهر ، ومنهم من يَسُبُّ الدنيا ، وهذا إسفاف ؛ لأن الدهر والدنيا لا يفْعَلان ، وإنما هو عيْب للمقدر ، ومنهم من يُخْرجه الأمر إلى حَجْد الحكمة ، فيقول: أى فائدة فى نَقْضِ المبْنَى ، وزعم بعْضُهم أنه لا يتصور عوْد المنقُوض ، وأنكروا البعث، ويقولون : ما جاء من ثَمَّ أحد ، ونَسوا أن الوُجُود ما انتهى بعدُ ولو خلَقنا لصار الإيمان بالغيب عيانًا ، ولا يصلح أن يستدل على الإحياء بالأحياء ، ثم نظر إبليس فرأى فى المسْلمين قومًا فيهم فِطْنَة ، فأراهم أن الوقوف على ظَوَاهِر الشريعة حالةٌ يشاركهم فيها العَوَام ، فحسَّن لهم علوم الكلام ، وصاروا يحتجُّون بقول بُقْرَاط وجَالِينُوس وفيثَاغُورس ، وهؤلاء لَيْسوا بمتشرِّعين ولا تَبعوا نبينا - ﷺ - وإنما قالوا بمقتضى ما سولَّت لهم أنفسهم.

وقد كان السَّلف إذا نَشَأ لأحدهم ولَدٌ ، شغلوه بحفظ القرآن وسمَاع الحديث ، فيَثْبُت الإيمان فى قلبه ، فقد تَوَانَى الناس عن هذا ، فصار الولد الفَطِن يتشاغل بعلوم الأوائل ، وينْبذُ أحاديث الرسول - ﷺ - ويقول : أخبار آحاد ، وأصحاب الحديث عندهم يسمُّون: حَشْوِيَّة ، ويعتقد هؤلاء أن العلم الدقيق علم الطَّفرة ، والهيُولى ، والجزء الذى

لا يتجزآ ، ثم يتصاعدون إلى الكلام فى صفات الخالق ، فيدْفَعُون ما صحَّ عن رسول الله - ﷺ - بواقعاتهم ، فيقُول المعتزلة : إن الله لا يُرى ؛ لأن المرئىَّ يكون فى جهَة ، ويخَالفُونَ قول رسول الله - ﷺ - : « **إنَّكُمْ تَرَوْنَ ربَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لا تَضَامونَ فى رُؤْيَته** » (١) ، فأوجب هذا الحديث إيثار رؤيَته وإن عجزنا عن فهم كيفيتها .

وقد عزل هؤلاء الأغنياء عن التشاغل بالقرآن ، وقالوا : مَخْلُوق ، فزالت حُرْمَتُه من القلوب وعن السنة ، وقالوا : أخبار آحاد ، وإنما مذاهبهم السَّرقة من بُقْرَاط وجَالينُوس ، وقد استفاد من تَبع الفلاسفة أنه يرفّه نفسه عن تَعَب الصّلاة والصّوم ، وقد كان كبَار العلماء يذمُّون علم الكلام ، حتى قال الشّافعى : حُكْمى فيهم أن يركبوا على البغَال ويشهروا ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتَاب والسُّنَّة واشتغل بالكَلام ، وقد آل بهم الأمر إلى أن اعتقدوا أنَّ من لم يعرف تحْريرَ دليل التّوحيد ، فليس بمُسْلم ، فاللهَ اللهَ من مخالطة المبْتَدعة ، وعليكم بالكتاب والسُّنَّة ترْشُدوا .

٣٦٨ - فصل : قيمة الوقت واغتنامه

رأيت العَادَات قد غلبت النّاس فى تضييع الزمان ، وكان القُدَمَاءُ يحذِّرون من ذلك ، قال الفُضَيْل : أعرفُ من يعُدُّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة ، ودخَلُوا على رجل من السَّلف ، فقالوا : لعلنا أشْغَلْنَاك فقال : أصدُقُكم ، كُنْت أقرأ فتركت القرَاءَة لأجلكُم .

وجاء رجُل من المتعبِّدين إلى سَرِىّ السقطى ، فرأى عنده جَمَاعة ، فقال : صرت مُنَاخ (٢) البطَّالين ، ثم مضَى ولم يجْلس ، ومتى لأن المزور طمع فيه الزائر فأطال الجلوس ، فلم يسْلم من أذًى ، وقد كان جماعة قعودًا عند معروف فأطالوا ، فقال : إن ملَك الشمس لا يفتُر فى سوْقها ، أفما تريدون القيَام ، وممَّن كان يحفظ اللحظات عامر ابن عبد قيس ، قال له رجل : قد أكلمك ، قال : فأمْسك الشمس ، وقيل لكُرز بن وبرة : لو خرجت إلى الصحراء ، فقال : يبطل الزّوجَار (٣) . وكان داود الطَّائى يسْتَفّ الفَتيت ويقول : بين سف الفَتيت وأكل الخبز قراءَة خَمْسين آية ، وكان عثمان الباقلانى دائم الذكر لله - تعالى - فقال : إنى وقت الأفطار أحس بروحى كأنها تخرج ، لأجل اشتغالى بالأكل عن الذكر .

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال : إذا خرجتُم من عندى فتفَرَّقوا ؛ لعل أحدَكُم

---

(١) رواه البخارى فى التوحيد (٧٤٣٤) ، ومسلم فى المساجد (٦٣٣/ ٢١١) .

(٢) مُناخ : مبرك الإبل والمقصود موضعا لجلوس البطالين .

(٣) الزجور : الناقة التى تعرف بعينها وتنكر بأنفها .

يقرأ القرآن فى طريقه . ومتى اجتمعتم تحدثتم ، واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة ، فإن فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ قَالَ سُبْحَانَ الله العظيم وَبِحَمْدِهِ ، غُرِسَتْ لَهُ بها نَخْلَةٌ فِى الْجَنَّة »[1] فكم يضيع الآدمى من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل ، وهذه الأيام مثل المزرعة ، فكأنه قيل للإنسان : كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كر[2] ، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف فى البذر ويتوانى ، والذى يعين على اغتنام الزمان الانفراد والعزلة مهما أمكن ، والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يلقى ، وقلة الأكل ، فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل ، ومن نظر فى سير السلف وآمن بالجزاء ، بان له ما ذكرته .

٣٦٩ - فصل : فى معاشرة النساء

ينبغى للعاقل أن يتخير امرأة صالحة من بيت صالح ، يغلب عليه الفقر ؛ لترى ما يأتيها به كثيرًا ، وليتزوج من يقاربه فى السن ، فأما الشيخ ، فإنه إذا تزوج صبية آذاها ، وربما فجرت ، أو قتلته ، أو طلبت الطلاق ، وهو يحبها فيتأذى ، وليتمم نقصه بحسن الأخلاق وكثرة النفقة ، ولا ينبغى للمرأة أن تقرب من زوجها كثيرًا فتمل ، ولا تبعد عنه فينساها ، ولتكن وقت قربها إليه كاملة النظافة متحسنة ، ولتحذر أن يرى فرجها أو جسمها كله ، فإن جسم الإنسان ليس بمستحسن ، وكذلك ينبغى ألا يريها جسمه ، وإنما الجماع فى الفراش ، ورأى كسرى يومًا كيف يسلخ الحيوان ويطبخ ، فتقلبت نفسه ونفى اللحم ، فذكر ذلك لوزيره . فقال : أيها الملك ، الطبيخ على المائدة، والمرأة فى الفراش، ومعناه : لا تفتش على ذلك ، قالت عائشة - رضى الله عنها - : « ما رأيت من رسول الله - ﷺ - ولا رآه منى ، وقام ليلة عريانًا ، فما رأيت جسمه قبلها »[3] .

وهذا الحزم ، وبذلك يعيب الرجل المرأة لأنه لم ير عيوبها ، وليكن للمرأة فراش وله فراش ، فلا يجتمعان إلا فى حال الكمال ، ومن الناس من يستهين بهذه الأشياء ، فيرى المرأة متبذلة تقول هذا أبو أولادى ، ويتبذل هو فيرى كل واحد من الآخر ما لا يشتهى ، فينفر القلب وتبقى المعاشرة بغير محبة ، وهذا فصل ينبغى تأمله والعمل به، فإنه أصل عظيم

---

(١) رواه الترمذى فى الدعوات (٣٤٦٤ ، ٣٤٦٥) عن جابر ، وقال : حسن صحيح غريب . والحاكم (١/ ٥٠١) ، وصححه ووافقه الذهبى ، وابن حبان (٨٣٢)

(٢) الكر : مكيال عراقى يساوى أربعين أردبا

(٣) سبق تخريجه

٢٧٠ - فصل : زيادة الهم مع زيادة الحرص

لا عيش فى الدُّنيا إلا للقَنُوع باليسير ؛ فإنّه كلما زاد الحرص على فضول العيش زادَ الهمُّ وتشتّت القلب ، واستعبد العَبْد ، وأما القَنُوع فلا يحتاج إلى مخالطة مَنْ فوقَه ، ولا يبالى بمن هو مثله ، إذ عنده ما عنده ، وإن أقوامًا لم يقنَعوا وطلبوا لَذيذ العيْش ، فأزرُوا [1] بدينهم ، وذلوا لغيرهم ، وخصوصًا أرباب العلم فإنّهم تردَّدوا إلى الأُمراء فاستعبدوهم، ورأوا المنكرات فلم يقْدروا على إنكارها ، وربّما مدحوا الظّالم اتقاء لشَرِّه، فالذى نالَهُم من الذل وقلة الدِّين أضعاف ما نالُوا من الدنيا .

ومن أقْبَح الناس حالاً من تَعرَّض للقضَاء والشّهادة ، ولقد كانتا مرتبتين حسنَتين ، وكان عبد الحميد القاضى لا يُحَابى ، فبعث إلى المعتَضد ، وقال له : قد استأجرت وقوفًا فادِّ أُجْرَتها ففعل ، وقال له المعتَضد : قد ماتَ فلانٌ ولنا عليه مال ، فقال : أنت تذكر لما ولَّيتنى قلت لى : قد أخرَجتَ هذا الأمر من عُنُقى ووضعته فى عُنقكَ ، ولا اقبل هذا إلا بشاهدَين ، وكذلك كان الشُّهُود، دخل جماعة على بعض الخُلَفَاء ، فقال الخادم : اشهدُوا على مولانًا بكذا فشهدوا ، فتقدم المجزوعى إلى الستر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أشهد عليك بما فى هذا الكتَاب ، فقال : اشهد ، قال إنه لا يكْفى فى ذلك ، لا أشهد حتى تقُول : نعم ، قال: نعم .

فأما فى زماننا فتغيّرت تلك القواعد من الكُلّ ، خصوصًا من يتقرّب إليه بالمال ليستَشْهد ، فتراه يُسْحب ليشهد على ما لا يَرَى ، قال لى أبو المعالى بن شافع : كنت أحْملَ إلى بعض أهل السّواد وهو محبوس وأشهد عليه ، وأعلم أنه لولا أنه مُكْره ، لجاء إلىَّ بقدميه، وأنا أستغفر الله من ذلك .

وليس للشهود جرَاية [2] فيحملون ذلك لأجلها ، وإنما الذى يحصل جر الطَّيْلَسان ، وطرق الباب ، وقول المعرِّف : حرس الله نعمتك شهادة ، ولما قيل لإبراهيم النخعى : تكون قاضيًا ، لبس قميصًا أحمر وجلس فى السوق فقالوا : هذا لا يصلُح ، ودخل بعض الكبار على الرَّشيد وقد أحضَره ليوليه القضاء ، فسلَّم وقال له : كيف أنتَ وكيف الصبيان ؟ فقيل : هذا مجْنون ، فيالله جنونٌ هو العقل وما أظنُّ الإيمان بالآخرة إلا متزلْزلاً فى أكثر القلوب ، نسأل الله - سبحانه - سلامة للدِّين ؛ فإنه قادر .

---

(١) أزروا : تهاونوا .

(٢) جراية : رزق يدخل لهم بانتظام .

٣٧١ - فصل : الحكيم لا يعبث

قد تكرَّر معناه فى هذا الكتاب ، إلا أن إعادته على النُّفوس مهمَّة ؛ لئلا يُغفل عن مثله، ينبغى للمؤمن أن يعلم أنّ الله - سبحانه - مالكٌ حكيم لا يعْبث ، وهذا العلم يوجبُ نفى الاعتراض على القدر ، وقد لهْجُ خلق بالاعتراض قدْحًا [١] فى الحكمة ، وذلك كفر ، وأولهم إبليس فى قوله : ﴿ **خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾ [٢] ، ومعنى قوله : أن تفضيلك الطِّين على النار ليس بحكمة ، وقد رأيت من كان فقيهًا دأبه الاعتراض ؛ وهذا لأن المعتَرِض ينظر إلى صورة الفعْل ، ولو أنَّ صورة الفعْل صدرت من مخلُوق مثلنا، حَسن أن يعترض عليه ، فأما من نقصت الأفهام عن مطالعة حِكْمته ، فاعتراض النَّاقص الجاهل عليه جنُون .

فأما اعتراض الخُلَعَاء فدائم ؛ لأنهم يريدون جريَان الأمور على أغراَضهم ، فمتى انكَسر لأحدهم غرَضٌ اعترض ، وفيهم من يتعدَّى إلى ذكْر الموت فيقول : بَنَى ونَقَضَ، وكان لنا فريقٌ قرأ القرآن والقراءات وسمع الحَديث الكثير، ثمَّ وقع فى الذُّنُوب وعاش أكثر من سَبْعين سنة ، فلمَّا نزل به الموت ، ذكر لى أنه قال: قد ضاقَت الدنيا إلا من روحى .

ومنْ هذا الجنس سمعت شخصًا يقُول عند الموْت : ربِّى يظلمُنى ، وهذا كثيرٌ ، ويكْره أن يُحْكَى كلام الخلعاء فى جُنونهم واعتراضاتهم البَارِدَة ، ولو فهمُوا أن الدُّنيا ميدان مسابقة ومارستان صبر ؛ ليبين بذلك أثر الخالق ، لما اعترضُوا، والذى طلَبُوه من السَّلامة وبلوغ الأغراض أمامهم لو فهموا ، فهم كالزورجارى [٣] يتلوّث بالطِّين ، فإذا فرغ لَبِس ثياب النظافة ، ولمَّا أريد نقض هذا البَدَن الذى لا يصلح للبَقَاء ، نحِّيت عنه النفس الشَّريفة ثم بُنى بناءً يقبل الدَّوام ، وبعد هذا فقل للمعتَرِض : ﴿ **فليمدد بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظر هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾ [٤] .

قل له : إن اعترض : لم يمنع ذلك جريَان القَدَر ، وإن سَلَّم جرى القدر ، فلأن يجْري وهو مأجُورٌ ، خير من أن يجْرى وهو مأزُورٌ ، وما أحسن سكوت وضَّاح اليمن لمَّا اختَبَأ فى صُنْدُوق ، فقال السُّلْطان : أيّها الصَّنْدوق ، إن كان فيكَ ما نظُنُّ ، فقد محَوْنا

---

(١) القدح : الطعن وقد سبق تعريفها .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٣ .

(٣) الزورجارى : الذى يشتغل فى الفخار .

(٤) سورة الحج ، آية : ١٥ .

أثرك ، وإن لم يكن ، فليس بدفن خشَب من جُنَاح ، فلو أنَّه صاح ، ما انتفع بشىء ، ولربَّما أخرجَ فقُتل أقبح قتْلَة .

٣٧٢ - فصل : قيمة السرور فى الدنيا

من تلمَّح أحوال الدُّنيا ، علم أن مراد الحقِّ - سبحانه - اجتنابها ، فمن مال إلى مُبَاحها ليلتذَّ ، وجد مع كل فرحة تَرْحة [١] ، وإلى جانب كل راحة تعبًا ، وآخر كل لذَّة نقصًا يزيد عليها ، وما رُفع شىء من الدنيا إلا وُضِع ، أحَبَّ الرسول - ﷺ - عَائشَة - رضى الله عنها - فجاء حديثُ الإفك ، ومال إلى زينب ، فجاء : ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا** ﴾ [٢] .

ثم يكْفى أنه إذا حصل محبُوبه فعيْن العقل ترى فراقه ، فيتَنَغَّص عنده وجُوده ؛ كما قال الشاعر

أشَدُّ الحُزْنِ عِنْدِى فِى سُرُورٍ   تَيَقَّـــنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاً

فيعلم العاقل أنّ مراد الحق بهذا التكدير التَّنْفير عن الدنيا ، فيبقى أخذ البُلْغَة [٣] منها ضرورة ، وترك الشَّواغل ، فيجْتَمع الهمّ فى خِدْمة الحق ، ومن عَدَل عن ذلك ، ندم على الفوَات .

٣٧٣ - فصل : تدبير العقل

العاقلُ يدبِّر عيشتَه فى الدنيا ، فإن كان فقيرًا ، اجتهد فى كَسْب وصناعة تكُفُّه عن الذُّلِّ للخلق ، وقَلَّل العلائق ، واستعمل القَنَاعة ، فعاش سليمًا من مِنَن الناس عزيزًا بينهم ، وإن كان غنيا ، فينْبغى له أن يدبِّر فى نفقتِه ؛ خوف أن يفتقر فيحْتَاج إلى الذُّل للخلْق ، ومن البليَّة أن يبَذِّر فى النفقة ويباهِي بها ؛ ليكمد [٤] الأعداء ، كأنه يتعرَّض بذلك إن أكْثر لإصابته بالعين ، وينْبَغى التوسُّط فى الأحْوال ، وكتْمَان ما يصلح كتْمَانه، ولقد وجد بعض الغَسَّالين مالاً فاكثر النفقة ، فعُلم به فأُخذ منه المال ، وعاد إلى الفَقْر ، وإنما التَّدْبير حفظ المَال ، والتوسُّط فى الإنْفَاق ، وكتمان ما لا يصلح إظهاره .

ومن الغلط اطلاع الزوجة على قدر المال ، فإنه إن كان قليلاً هان عندها الزوج ، وإن كان كثيراً طلبت زيادة الكسوة والحلى .

قال الله عز وجل : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** ﴾ [٥] وكذلك الولد

---

(١) ترحة : حزن .   (٢) سورة الأحزاب ، آية ٣٧ .

(٣) البلغة : ما يتبلغ به .   (٤) يكمد : يغيظ .   (٥) سورة النساء ، آية ٥ .

وكذلك الأسرار ، ينبغى أن تحفظ ، وأن يحذر منها ومن الصديق ، فربما انقلب ، فقد قال الشاعر :

احـــــذر عـــــدوك مـــرة واحذر صديقك ألف مرة

فـــــلربما انقـــــلب الصد يق فكـــان أعلم بالمضرة

بحمد الله تعالى قد نجز ما توخاه الفكر الفاتر ، من تقييد ما جمعه القلم من صيد الخاطر ، مقتصراً فيه على ما به التخلى من الأمراض النفسية ، والتحلى بالآداب الشرعية، والأخلاق المرضية .

جعله الله تعالى خير هاد على منبر الوعظ والإرشاد ، وأنفع كتاب تجلى فى مرايا الظهور لهداية العباد .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *



الفهرس

